الطبعة الكاملة

منهجية القرآن الكريم

وأصول تفسيره

سليم الجابي

ماجستير في علم الأديان المقارن



سليم الجابي

منهجية القرآن الكريم

منهجية القرآن الكريم

وأصول تفسيره



منهجية القرآن الكريم
وأصول تفسيره

2006-2007

عنوان المؤلف
دمشق - سورية
ص ب 5425
هاتف 2710925 11 963+

الطبعة الأولى
2000 نسخة

- تجدون كل المعلومات المتعلقة بسلسلة مؤلفات المفكر سليم الجابي على العنوان الإلكتروني التالي على شبكة الإنترنت :

http://www.saleemaljabi.com

- يتلقى المؤلف برحابة صدر كل الإنتقادات و الأراء و الاستفسارات على البريد الإلكتروني :

saleem@saleemaljabi.com



السلسلة العامة

منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره

سليم الجابي

ماجستير علم الأديان المقارن



صدر للمؤلف

■ السلسلة العامة:

القراءة المعاصرة تحت المجهر

نظرية جذور الأخلاق

القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة

النظرية القرآنية حول خلق العالم

الرأي في المرأة والحرية والتراث

فن الإختزال القرآني (المقطعات القرآنية)

هل مات المسيح على الصليب ؟

الله جل جلاله (وصاله وعرفانه وطرق التقرب منه سبحانه)

نشوء الإنسان وتطوره

منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره

خصائص القرآن الكريم المعجزة

■ سلسلة باب العبادات:

الصوم في الإسلام

فريضة الصلاة الاسلامية وأداتها الاعلامية

■ سلسلة باب التفسير

في ظلال دلالات سورة الكهف

في ظلال دلالات سورة الإسراء

في ظلال دلالات سورة هود

■ سلسلة تصحيح أفكار ومعتقدات

مثنى وثلاث ورباع

الجن حقيقة أم خيال؟

هل كان محمد (ص) شهوانياً؟

العقل تعريفه - ماهيته - حدود عمله

نظام الزواج في الإسلام

الإسلام علم السلام والجهاد والقتال

نبوءات قرآنية على سبيل الإصلاح



مقدِّمةُ الكتاب

إنَّ كلَّ عالمٍ مختصٌّ بعلومِ القرآنِ الكريم،ومهما يكن نوعُ اختصاصهُ سواءَ أكانَ في علمِ التّفسيرِ أو في غيرهِ من علومِ الّدينِ الإسلاميِّ الحنيفِ.فقد يدهشُ هذا العالَمَ عندما يسمعُ منّي أنَّ اللّهَ جلَّ اسمهُ قد فتحَ عليَّ عِلماً جديداً من علومِ هذا الكتاب السماويِّ العزيز وهو العلمُ الّذي أسميتُهُ (**منهجيَّةُ القرآن الكريم وأصولِ تفسيره**)، وبطرحٍ جديدٍ ما سبقَ لِعالمٍ قبلي أن طرحهُ على شكلِ كتاب يحملُ ما في هذا الكتابِ من حقائقَ وعلوم.وهو فضلٌ خاص خصَّني بهِ ربِّي.ولا أملكُ ما يساعدني على شكرِهِ تعالى الشكرَ الّذي يستحقّهُ على هذا العطاء.

ويتساءلُ كلُّ مَن يسمعُ منّي ما ذكرتهُ آنفاً:هل يُعقلُ أن يُمرَّ على هذه الأمَّةِ الإسلاميَّةِ قُرابة أربعةَ عشرَ قرناً من الزّمان،ومعَ ذلكَ تظلُّ الأمَّةُ تجهلُ وُجودَ وحقيقةَ هذا العلم الّذي يدَّعيه مؤلّفُ هذا الكتاب ؟؟

فأقول: لا تعجب يا عزيزي،ولا تدع الحيرةَ تأخذُ منكَ مأخذها، فأنا في حالةِ تعجُّب مثلُكَ وفي حيرةٍ من أمرِ ربّي ومن قدُراتهِ ومن تصرُّفاته ومن عجائبِ هذا الكتاب السماويِّ المقدّس .ولكنَّ هذا العجبُ والحيرةُ تهدأُ فورتُها

بعدَ أن نقرأَ قولَ اللَّهِ ربِّنا عزَّ وجلَّ في كتابِهِ العزيزِ، وذلكَ في الآية ١٠٥ من سورة البقرة،وهو الواردُ بصياغةٍ بلاغيَّةٍ وعامَّةِ الدّلالة (**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**).

فقد كانَ إنزالُ آي هذا القرآن على رجلٍ أمّيٍ من أفرادِ أُمَّتنا العربيَّة وهو محمَّدٌ بن عبد اللَّهِ صلّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم فكانَ هذا الفعلُ في حدِّ ذاتِهِ رحمةً وفضلاً عظيماً عليهِ.واختصَّ اللَّهُ الخالقُ بِهِ هذه الأمَّةِ العربيَّةِ من بينِ جميعِ أممِ الأرضِ أيضاً.وإنَّ جميعَ ما فتحهُ اللَّهُ تعالى على علماءِ هذه الأمَّةِ الرَّبانيّينَ من علومٍ اختصَّت بفهمِ مضامينِ هذا القرآن،إنّما هي في حقيقةِ أمرها تُشكِّلُ معالمَ واضحة الدّلالة على عطاءاتِ تلكَ الرّحمة الإلهيَّةِ وعلى ذاكَ الفضلِ الإلهيِّ الّذي يختصُّ تعالى بهِ مَن يشاءُ من عبادِه،وعلى حسبِ فهمهِ واجتهاده.فيقيني هو أنَّ ديننا الإسلاميَّ الحنيفَ ما يزالُ ينبضُ بالحياةِ من دونِ بقيَّةِ الأديانِ السماويَّةِ الماضيةِ المنسوخة بنصِّ هذا القرآن العظيم.

فمن المعلوم أنَّ الاهتمامَ بموضوعِ تفسير آيات هذا الكتاب السماويّ المبارك،كانَ قد شكَّلَ الشُغلَ الشاغِلَ لا أقولُ لمئات ولا لألوف من المؤمنينَ، ولكن لعشرات الألوفِ من علماءِ هذه الأمَّةِ الّتي اختصَّها ربُّها لِتُحاولَ فهم آياتِ هذا الكتابِ البلاغيِّ المُعجز.ويكفي القولُ أنَّهُ لو كانَ هذا القرآنُ الكريمُ هو كتابٌ عاديٌّ وعلى شاكلةِ الكُتبِ الأدبيَّةِ يسهُلُ فهمُهُ فقد كانَ من المستحيلِ أن يختلِفَ علماءُ الأمَّةِ في تفسيره.لكنَّ هذا الاختلاف الواقعَ في معاني الآيات والّذي يُلاحظهُ كلُّ مؤمنٍ طالعَ تفاسيرِ المفسّرين القدماء رحمهم اللَّه فإنَّهُ يتساءلُ في حديثِ نفسهِ مُستغرباً ذلكَ خصوصاً عندما يُلاحظُ تضاربَ آراء تفاسيرِ المفسّرينَ مع مُعطيات العلوم الحديثةِ ومعَ المعقولِ من الأمور.وإنَّ هذه الحقيقةَ تُشكِّلُ دّليلاً دامغاً على أنَّ هذا القُرآنَ المجيدَ قد صاغهُ اللَّهُ تعالى الّذي

أنزلهُ صياغةً بلاغيَّةً مُعجزةً من جهةٍ ووفقَ مَنهجيَّةٍ مُتميِّزة وأصولِ تفسيرٍ من جهةٍ أخرى.وأنَّ المفسّرينَ القدماء رحمهم اللَّهُ لم يُحيطوا علماً بتلكَ المنهجيَّةِ ولا بتلكَ الأصولِ التّفسيريَّة لذلكَ يُلاحظُ كلُّ مَن طالعَ تفاسيرهُم أنَّهُم لم يلتزموا فيما أقدموا عليهِ لا بمنهجيَّةٍ ولا بأُصولٍ نابعةٍ من آياتِ هذا الكتابِ اللّهِ العزيز نفسه وإن كانوا قد حاولوا أن يلتزموا فيما فسَّروهُ من آياتٍ بطرائقَ خمسة نصَّت عليها مقالةٌ تركها العلاّمة ابنُ تَيميَّة رحمهُ اللّه.فما هي تلكَ الطَّرائقُ الَّتي وضعها ابنُ تيميَّة والّتي لا تمُتُّ إلى منهجيَّةِ القرآنِ ولا إلى أصولِ تفسيرهِ بصلةٍ من الصّلات ولا نصَّ عليها كتابُ اللَّهِ العزيز؟

فقد وردَ في (مقدّمة في أصولِ التّفسير) لابن تيميَّة طبع (دارُ القرآن الكريم)وبتحقيق الدّكتور عدنان زرزورِ المدرّس بكلّيةِ الشريعة في جامعةِ دمشق وتحتَ عنوان (فصل في أحسنِ طُرُقِ التّفسير) وهي الطّرائقُ الّتي التزمَ بها ابن كثيرٍ رحمهُ اللّهُ في تفسيرهِ المسمّى (تفسيرُ ابنُ كثير) قال:

(فإن قالَ قائل:فما أحسن طرُق التّفسير؟ فالجواب:إنَّ أصحَّ الطرُق في ذلكَ **أن يُفسَّرَ القرآنُ بالقرآن** فما أُجمِلَ في مكان فإنَّهُ قد فُسِّرَ في موضعٍ آخر وما اختُصِرَ في مكانٍ فقد بُسطَ في موضعٍ آخر.فإن أعياكَ ذلكَ فعليكَ بالسُنَّة فإنَّها شارحةٌ للقُرآنِ وموضِّحَةٌ له.بل قد قالَ الإمام أبو عبد اللّه محمَّد بن إدريس الشافعيّ:كلُّ ما حكَمَ بهِ رسولُ اللّهِ (ص)فهو ممّا فَهمهُ من القُرآن.قالَ اللّهُ تعالى في الآية ١٠٥ من سورة النّساء : **(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا)** وقالَ في الآية ٤٤ من سورة النّحل**(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)**.وقال تعالى في الآية ٦٤ من سورة النّحل **(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)**.ولهذا قالَ رسولُ اللّهِ (ص)- ألا إنّي أُوتيتُ القرآنَ ومثلهُ معه-يعني السُنَّة.والسُنَّةُ أيضاً تنزلُ عليهِ بالوحي كما

ينزلُ القُرآن،لا أنَّها تُتلى كما يُتلى. وقد استدلَّ الإمام الشافعيّ وغيرُهُ من الأئمَّةِ على ذلكَ بأدلَّةٍ كثيرة ليسَ هذا موضِعُ ذلك.والغرض أنَّكَ تطلُبَ تفسيرَ القُرآن منهُ، فإن لم تجِدهُ فمنَ السُنَّة.كما قالَ رسول اللَّهِ (ص) لِمعاذ حينَ بعثهُ إلى اليمَن:بمَ تَحكُم؟ قالَ بكتابِ اللَّهِ قالَ:فإن لم تَجد؟ قال: بسُنَّةِ رسول اللّه.قالَ فإن لم تَجِد؟ قالَ أجتهدُ رأيي. قال:فضربَ رسولُ اللَّهِ ((ص) في صدره وقال:الحمدُ للَّهِ الّذي وفَّقَ رسولَ اللَّهِ لِما يُرضي رسولَ اللَّه.وهذا الحديثُ في المسانِدِ والسُنَنِ بإسناد جيِّد.

وتحتَ عُنوان (تفسيرُ القرآن بأقوالِ الصّحابةِ) قال ابن تيميَّة:(وحينئذٍ إذا لم تَجِد التَّفسيرَ في القرآن ولا في السُنّة رجعتَ في ذلكَ إلى أقوالِ الصّحابة فإنَّهم أدرى بذلكَ لِما شاهدوهُ من القرآن والأحوال التي اختصّوا بها ولِما لَهُم من الفهمِ التّام والعلم الصحيح لاسيّما عُلماؤهم وكبراؤهم كالأئمّة الأربعة الخلفاء الرّاشدين والأئمّة المهديّين وعبد اللَّه بن مسعود.قالَ الإمام أبو جعفر محمّد بن جرير الطّبريّ:حدّثنا أبو كريب قال:أنبأنا جابر بن نوح أنبأنا الأعمش عن أبي الضّحى عن مسروق قال:قال عبد اللّه يعني ابن مسعود (والّذي لا إلهَ غيره ما نزلت آيةٌ من كتاب اللَّهِ إلاّ وأنا أعلمُ فيمن نزلت وأينَ نزلَت.ولو أعلمُ مكانَ أحدٍ أعلم بكتاب اللَّهِ منّي تنالهُ المطايا لأتيتُه. وقالَ الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال:كانَ الرّجُلُ منّا إذا تعالّم عشر آيات لم يُجاوزهُنَّ حتّى يعرفَ معانيهنَّ والعمل بهنّ.ومنهم الحبر البحر عبد اللَّه بن عبّاس ابنُ عمِّ رسول اللَّهِ (ص)وتَرجُمان القرآن ببركةِ دُعاء رسول اللّه (ص)لهُ حيثُ قال:اللّهمّ فقّههُ في الدّين وعلّمهُ التّأويل.وقال ابنُ جرير:حدَّثنا محمَّد بن بشّار أنبأنا وَكيع أنبأنا سُفيان عن الأعمش عن مُسلِم:قال عبد اللَّه يعني ابنُ مسعود (نعم تَرجُمانُ القرآن ابنُ عبّاس).ثُمَّ رواهُ عن يحي بن داود عن إسحاق الأزرق عن سفيان عن الأعمش عن مسلم بن صبيح أبي الضّحى عن مسروق عن ابن مسعود أنّهُ

قال:نعمَ التّرجُمان للقرآن ابن عبّاس.ثمّ رواهُ عن بُندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك.فهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابن مسعود أنّهُ قال عن ابن عبّاس هذه العبارة.وقد ماتَ ابن مسعود في سنة ثلاث وثلاثين على الصّحيح.وعُمِّرَ بعدهُ ابنُ عبّاس ستّاً وثلاثين سنة فما ظنُّكَ بما كسبهُ من العلوم بعدَ ابن مسعود! وقالَ الأعمش عن أبي وائل: استخلفَ عليٌّ عبد اللّه بن عبّاس على الموسم فخطبَ النّاس فقرأ في خُطبتهِ سورةَ البقرة–وفي روايةٍ سورةَ النّور–ففسّرها تفسيراً لَو سمعَتهُ الرّومُ والتّركُ والدّيلمُ لأسلموا.ولهذا فإنَّ غالب ما يرويهِ إسماعيل بن عبد الرّحمن السندي الكبير في تفسيره عن هذين الرّجلين:ابن مسعود وابن عبّاس ولكن في بعضِ الأحيان ينقُل عنهم ما يحكونهُ من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسولُ اللّه (ص)حيثُ قال:بلّغوا عنّي ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرج، ومن كذبَ عليَّ مُتعمِّداً فليتبوّأ مقعدهُ منن النّار. — رواه البخاري عن عبد اللّه بن عمرو.ولهذا كان عبد اللّه بن عمرو قد أصابَ يوم اليرموك زاملَتين من كُتبِ أهلِ الكتاب فكانَ يُحدّثُ منهما بما فهمهُ من هذا الحديثِ من الإذنِ في ذلكَ.ولكنَّ هذه الأحاديث الإسرائيليَّة تُذكر للاستشهاد لا للاعتقاد.فإنّها على ثلاثة أقسام،**أحدُها**:ما علمنا صحّتَهُ ممّا بأيدينا ممّا يشهدُ لهُ بالصّدق فذاكَ صحيح.**والثاني**:ما علمنا كذبهُ بما عندنا ممّا يُخالفه.**والثالث**:ما هو مسكوتٌ عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل،فلا نؤمنُ به ولا نكذّبهُ وتجوزُ حكايتهُ لِما تقدَّم. وغالبُ ذلكَ ممّا لا فائدةَ فيه تعودُ إلى أمرٍ دينيٍّ.ولهذا يختلفُ أهلُ الكتاب في مثلِ هذا كثيراً،ويأتي عن المفسّرينَ خلافٌ لِسبب ذلك.كما يذكرونَ في مثلِ هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدّتهم وعصا موسى من أيِّ الشجر كانت وأسماء الطّيور التي أحياها تعالى لإبراهيم وتعيين البعض الّذي ضُربَ به القتيل من البقرة ونوعُ الشجرة التي كلّمَ اللّهُ منها موسى..إلى غيرِ ذلك ممّا أبهمهُ اللّهُ تعالى في القرآن ممّا لا فائدةَ من تعيينهِ تعودُ

على المكلَّفينَ في دُنياهُم ولا دينهم.ولكنَّ نقل الخلاف عنهُم في ذلكَ جائزٌ.كما قالَ تعالى في سورة الكهف في الآية /٢٢/: (**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا**) . فقد اشتملَت هذه الآيةُ الكريمةُ على الأدبِ في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثلِ هذا.فإنَّهُ تعالى أخبرَ عنهُم بثلاثةِ أقوالٍ ضعَّفَ القولَين الأوَّلين وسكتَ عن الثالثِ فدلَّ على صحَّتِهِ إذ لو كانَ باطلاً لَردَّهُ كما ردَّهُما.ثمَّ أرشدَ إلى أنَّ الاطّلاعَ على عِدَّتِهم لا طائلَ تحته.فيُقالُ في مثلِ هذا (**قل ربّي أعلمُ بِعِدَّتِهِم**)فإنَّهُ ما يعلمُ بذلكَ إلاّ قليلٌ من النّاس ممّن أطلَعَهُ اللَّهُ تعالى عليه.فلهذا قال (**فلا تُمارِ فيهم إلاّ مِراءً ظاهراً**) أي لا تُجهد نفسكَ فيما لا طائلَ تحتهُ ولا تسألْهُم عن ذلكَ فإنَّهم لا يعلمونَ من ذلكَ إلاّ رجمُ الغيب.**فهذا أحسنُ ما يكونُ في حكايةِ الخلاف**: أن تستَوعبَ الأقوالَ في ذلكَ المقام وأن يُنبَّه على الصّحيحِ منها ويُبطلَ الباطل وتُذكرُ فائدةُ الخلاف وثمرتُهُ لئلاّ يطول النّزاعُ والخلافُ فيما لا فائدةَ تحتهُ فيُشتغَلُ بهِ عن الأهمّ.فأمّا مَن حكى خلافاً في مسألةٍ ولم يستوعب أقوالَ النّاس فيها فهو ناقصٌ إذ قد يكون الصّوابُ في الّذي تركه.أو يحكي الخلافَ ويُطلِقهُ ولا ينبِّه على الصَّحيحِ من الأقوالِ فهو ناقصٌ أيضاً.فإن صحّحَ غير الصّحيحِ عامداً فقد تعمَّدَ الكذبَ.أو جاهلاً فقد أخطأ.كذلكَ مَن نصبَ الخلافَ فيما لا فائدةَ تحتهُ أو حكى أقوالاً مُتعدِّدةً لفظاً ويرجعُ حاصلُها إلى قولٍ أو قولَين معنىً فقد ضيَّعَ الزّمان وتكثَّرَ بما ليسَ بصحيحٍ فهو كلابسِ ثَوبي زورٍ.واللَّهُ الموفِّقُ للصّواب).

وأضافَ ابنُ تيميَّةَ يقولُ تحتَ عنوان (فصلٌ في تفسيرِ القرآن بأقوال التّابعين): (إذا لم تجد التّفسير في القُرآن ولا في السنَّةِ ولا وجدنهُ عن الصّحابةِ فقد رجعَ كثيرٌ من الأئمَّةِ في ذلكَ إلى أقوالِ التّابعين كمجاهد بن جُبير فإنَّهُ آيةٌ

في التّفسير.كما قال محمّد بن إسحاق:حدّثنا أبان بن صالح عن مُجاهد قال:عرَضتُ المصحفَ على ابن عبّاس ثلاث عرضات من فاتحتِهِ إلى خاتمتِهِ أُوقِفهُ عندَ كلّ آيةٍ منهُ وأسألهُ عنها.وبهِ إلى التّرمزيّ قال:حدّثنا الحسين بن مهدي البصري حدّثنا عبد الرّزاق عن مُعمّر عن قتادة قال:ما في القرآن آية إلاّ وقد سمعتُ فيها شيئاً.وبهِ إليهِ قال:حدّثنا ابن أبي عمر حدّثنا سفيان ابن عُيينة عن الأعمش قال: قال مجاهد:لو كنت قرأت قراءةَ ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عبّاس عن كثيرٍ من القرآن ممّا سألت.وقال ابنُ جرير:حدّثنا أبو كريب قال:حدّثنا طَلق بنُ غنّام عن عثمان المكّي عن ابن أبي مليكة قال:رأيتُ مجاهداً سأل عن تفسيرِ القرآن ومعهُ ألواحُه،قال ابن عبّاس:اكتب ،حتى سألهُ عن التّفسيرِ كلّه.ولهذا كان سفيان الثوريّ يقول:إذا جاءكَ التّفسيرُ عن مجاهد فحسبُكَ به. وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عبّاس وعطاء ابن أبي رباح والحسن البصريّ ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيّب وأبي العالية والرّبيع بن أنس وقتادة والضّحاك بن مزاحم وغيرهم من التّابعين وتابعيهم ومَن بعدهم.فتذكّر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباينٌ في الألفاظ يحسبُها مَن لا علمَ عندهُ اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلكَ فإنّ منهم مَن يُعبّرُ عن الشيءِ بلازمهِ أو نظيره.ومنهم مَن يَنُصُّ على الشّيءِ بعينه والكلّ بمعنى واحد في كثيرٍ من الأماكن،فليتفطّن اللّبيبُ لذلك،واللّهُ الهادي وقالَ شُعبة بن الحجّاج وغيره:أقوالُ التّابعين في الفروعِ ليست حُجَّة،فكيفَ تكونُ حُجَّةً في التّفسير؟ يعني أنّها لا تكونُ حُجَّةً على غيرهم ممّن خالفَهُم وهذا صحيحٌ أمّا إذا اجتمعوا على الشيءِ فلا يرتابُ في كونهِ حُجَّة.فإن اختلفوا فلا يكونُ قول بعضهم حجّة على بعضٍ ولا على مَن بعدهُم.ويرجعُ في ذلكَ إلى لُغةِ القرآن أو السنّةِ أو عموم لغة العرب أو أقوال الصّحابة في ذلك.

وقال ابن تيميَّة تحت عنوان (تفسيرُ القرآن بالرّأي):فأمّا تفسيرُ القرآن بمجرَّدِ الرّأيِ فحرام. حدَّثنا مؤمَّل حدَّثنا سفيان حدّثنا عبد الأعلى عن سعيد بن جبير عن ابنِ عبّاس قال: قال رسولُ اللّهِ (ص):مَن قالَ في القرآن بغيرِ علمٍ فليتبوَّأ مَقعدهُ من النّار.حدَّثنا وكيعٌ حدّثنا سفيان عن عبد الأعلى الثعلبيّ عن سعيد بن جبير عن ابنِ عبّاس قال: قال رسولُ اللّهِ (ص): مَن قالَ في القرآن بغيرِ علمٍ فليتبوّأ مقعدهُ من النّار.وبهِ إلى التّرمذيّ قال:حدّثنا عبد بن حميد حدّثني حبّان بن هلال قال: حدَّثنا سهيل أخو حَزْم القُطَعيّ قال:حدّثنا أبو عمران الجونيّ عن جندُب قال: قال رسولُ اللّهِ (ص): مَن قالَ في القرآن برأيِهِ فأصابَ فقد أخطأ. قال التّرمذيّ: هذا حديثٌ غريب.وقد تكلَّمَ بعضُ أهلِ الحديثِ في سهيل بن أبي حزم.وهكذا رويَ عن بعضِ أهلِ العلمِ من أصحابِ النبيِّ (ص) وغيرهم أنّهم شدّدوا في أن يفسَّرَ القرآنُ بغيرِ علم.وأمّا الّذي رُويَ عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهلِ العلمِ أنّهم فسَّروا القرآن فليس الظنُّ بهم أنّهم قالوا في القرآن أو فسّروهُ بغيرِ علم أو من قِبَلِ أنفُسِهم.وقد روي عنهم ما يدلُّ على ما قلنا: أنَّهم لم يقولوا من قبلِ أنفسِهم بغيرِ علم.فمن قال في القرآنِ برأيِهِ فقد تكلّفَ ما لا علمَ لهُ به، وسلكَ غيرَ ما أُمِرَ به.فلو أنَّهُ أصابَ المعنى في نفسِ الأمرِ لكانَ قد أخطأ لأنَّهُ لم يأتِ الأمرَ من بابه.كمَن حكمَ بينَ النّاسِ على جهلٍ فهو في النّار وإن وافقَ حُكمهُ الصوابَ في نفسِ الأمر.لكن يكونُ أخفّ جرماً ممّن أخطأ، واللّهُ أعلم.وهكذا سمّى اللّهُ تعالى القذفةَ كاذبين فقال (**فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ**).فالقاذفُ كاذبٌ ولَو كانَ قد قذفَ من زنى في نفسِ الأمرِ لأنَّهُ أخبرَ بما لا يحلُّ لهُ الإخبارُ عنه وتكلَّفَ ما لا علمَ لهُ بهِ، واللّهُ أعلم.ولهذا تحرَّجَ جماعةٌ من السلفِ عن تفسيرِ ما لا علمَ لهم به.كما روى شُعبة عن سليمان عن عبد اللّه بن مُرَّة عن أبي معمَّر قال: قالَ أبو بكرٍ الصّديق: أيُّ أرضٍ تُقِلّني وأيُّ سماءٍ تُظلّني إذا قُلتُ في كتابِ اللّهِ ما لم أعلم).

ولقد أتبعَ ابن تيميَّة رحمهُ اللَّه روايته الآنفةُ الذّكر بالعديدِ من الرّوايات الشبيهةِ بها قبلَ أن يُنهي مقالته.وأدعُ سردها في هذا المقامِ لكفايةِ الرّوايةِ الآنفةِ الذّكر للمؤمن التّقيّ.

والآن لِنُناقش ما نقلناهُ عن مقالةِ ابن تيميَّة رحمهُ اللَّه.فهو قال (فإن قالَ قائل: فما أحسنُ طرُق التَّفسير؟) وأوّلُ ما نستنتجهُ من قولهِ هذا هو أنَّهُ رحمهُ اللَّه ما كانَ قد خطرَ ببالهِ وجود أيَّةِ منهجيَّةٍ للقرآن الكريم ولا أصول تفسيرٍ لهُ ويتضمَّنها القرآن الكريم نفسه.وإلاّ لكانَ رحمهُ اللَّه لفتَ أنظارنا إليها وأعرضَ عمّا قاله.

ثمَّ إنَّهُ رحمهُ اللَّه استعملَ اصطلاح (طُرق التَّفسير) ولم يقُل أصولَ التّفسير.وإنَّ كلمةَ (طُرُق) هي جمعُ طريق.وهذا يعني أنَّهُ استعملَ هذه الكلمةَ بدلالتها المجازيَّة وهو ما يمكنُ التّوصُّل بصحيحِ النَّظرِ فيهِ إلى المعنى الحقيقيّ لآيةٍ ما.فاقترحَ رحمهُ اللَّه من أجلِ ذلكَ:

أوّلاً:أن يُفسَّرَ القرآنُ بالقرآن : ومُنطلقاً في ذلكَ من أنَّ ما وردَ مُجملاً في مكانٍ فقد فُسِّرَ وفُصِّلَ في مكانٍ آخر وأنَّ ما اختُصِرَ في مكانٍ بُسطَ في موضعٍ آخر فقد انطلقَ فيهِ رحمهُ اللَّه فيمّا يبدو من واقعِ آيات هذا القرآن العظيم.لكنَّهُ في اقتراحهِ هذا لم يحلّ مُشكلةَ التّفسير.على اعتبارِ أنَّ آيات هذا القرآن العظيم سواءً أ أجملت أم فصِّلَت،فالأساسُ في المشكلةِ هو كيفَ نصلُ إلى المعاني الحقيقيَّة للآيات وقد أوردها اللّهُ عزَّ وجلَّ مُصاغةً صياغةً بلاغيَّةً مُعجزة ؟؟ فالكلامُ البلاغيُّ لا تُدركُ معانيهِ بما يتبادرُ منهُ من معانٍ لِذهنِ قارئه.إذ لابدَّ من الاستعانةِ على ذلكَ بمنهجيَّةٍ وأُصول.

ثانياً– واقترحَ درجةً أقلَّ وهي أن يُبحثَ لِتفسيرِ القرآن في السُنَّة:والسنَّةُ في رأيهِ هي كلامُ الرّسولِ وفعله.فلو كانَ كلامُ رسولِ اللَّهِ (ص) يدخلُ في مفهومِ سُنَّتِهِ لكانَ (ص) قد أمرَ أصحابهُ بِجمعِ وتدوينِ أحاديثِهِ.وما

دامَ لم يفعل ذلكَ فإمّا أن يكونَ مُقصِّراً في ذلكَ وحاشاهُ من ذلك وإمّا ألاّ ألاّ يكونَ الحديثُ جزءً من سُنَّتِه.وأنا أميلُ إلى الاعتقاد أنَّ سُنَّةَ رسولِ اللّهِ (ص)قد أُريدَ بها فعلَهُ الّذي وصَلنا بالتّواتُرِ جيلاً بعدَ جيلٍ ويُفسِّرُ لنا ما لم يعمد القرآن الكريمُ إلى تفصيلهِ.أمثال حركاتِ الصّلاة المفروضةِ وقراءاتها وما شابهَ ذلك من أحكامٍ ليسَ إلاّ.وإنَّ الرّجوعَ إلى السُّنَّةِ بهذا المفهومِ لا غُبارَ عليهِ فيما أراه وأعتقدُه.لكنَّ الرجوعَ إلى السُّنَّةِ على هذا الحال لا يُساعدُ على تفسيرِ الآياتِ الّتي لا تُمتُّ إلى الأحكامِ الشرعيَّةِ بصلةٍ من الصّلات.والدّليلُ نستقيهِ من روايةِ مُعاذ (رض)الّذي أرسلهُ (ص) إلى اليمنِ.فهو (ص)لم يسألهُ بما تُفسِّر الآياتِ القرآنيَّة بل سألهُ: **بِمَ تَحكُم** ؟ وهذا السؤالُ يتعلّقُ بالأحكامِ الشرعيَّة الّتي يُرجعُ إليها عند إصدارِ حُكمٍ من الأحكام.لذلكَ فقد لا حَظنا بأنَّ مُعاذ أجاب: **أحكُمُ بكتابِ اللّهِ فإن لم أجد فبسُنَّةِ رسولِ اللّه فإن لم أجد أجتهِدُ رأيي**.وهذه الرّوايةَ أخذَ بها ابنُ تيميَّة نفسهُ رحمهُ اللّه في مقالتِهِ الّتي وضَّحَ فيها رأيهُ في موضوعِ طرائقِ تفسيرِ آياتِ القرآن المجيد.

ثالثا-أمّا اقتراحُهُ بالرّجوعِ إلى أقوالِ الصّحابةِ: فقد كانت حُجَّتُهُ رحمهُ اللّه أنَّهم شاهدوا القرآن واختصّوا بأحوالِهِ وكانوا على فهمٍ تامٍّ وعلمٍ صحيحٍ به.وخاصَّةً منهُم علماؤهم وكُبراؤهم ، أمثال الأئمَّة الأربعة الخلفاء الرّاشدين وعبد اللّه بن مسعود وعبد اللّه بن عبّاس وحسبَ بيانه.

أقول:إنَّ كلَّ مؤمنٍ صادقٍ في إيمانهِ يُعظِّمُ هؤلاء المذكورين خصوصاً وأنَّ اللّهَ تعالى مدحهُم في كتابهِ العزيز.لكنَّهُم كانوا قد اعتادوا ألاّ يسألوا رسولَ اللّهِ (ص)شيئاً لم يُفسِّرهُ أو يبيِّنه لهُم وذلكَ نزولاً عندَ أمرِ ربِّهم عزَّ وجلَّ القائل في الآية ١٠١ من سورةِ المائدة:(**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**).هذا ولقد استأصلت هذه العادة عندهم إلى درجةٍ أوردَ

معها ابن تيميَّة نفسُهُ بحقِّ أبي بكر الصّديق (رض) أنَّهُ سُئلَ عن قولِهِ تعالى (**وفاكهةً وأبّاً**) فأجاب: أيُّ سماءٍ تُظلُّني وأيُّ أرضٍ تقلني إن أنا قُلتُ في كتابِ اللَّهِ ما لا أعلم.كما رَوى عن عمر بن الخطّاب (رض) أنَّهُ قرأ (**وفاكهةً وأبّاً**) فقال: ما الأب؟ ثمَّ قال: إنَّ هذا لَهُوَ التّكلُّف فما عليكَ ألاّ تدريه.حتّى أنَّ ابن تيميّه رحمه اللَّه استدركَ وكتبَ يقول (وهذا كلُّهُ محمولٌ على أنَّهُما رضي اللَّهُ عنهُما إنّما أرادا استكشاف ماهيَّة الأبِّ وإلاّ فكونُهُ نَبتاً من الأرضِ ظاهرٌ لا يُجهَل لِقولهِ تعالى(**فأنبتنا فيها حبّاً وعِنباً وقَضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائقَ غُلباً**).

أضِف إلى ذلكَ أنَّ القرآن المجيد مُنزلٌ لكلِّ زمانٍ ومكان.فلا يُعقلُ أن يكونَ صحابةُ رسولِ اللَّهِ قد اطَّلعوا على تفسيرِ جميعِ آياتِه.بل اطَّلَعوا على تفسيرِ ما يخُصُّ زمانَهم وضروراتِه.ومن مُنطَلَقِ أنَّ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ مُعطياتُهُ ومُتغيّراته واحتياجاتُه ورجالُهُ أيضاً.

ثمَّ إنَّهُ لو كانَ يكفي الرّجوع إلى أحاديثِ رسول اللَّهِ وأقوالِ صحابتهِ لِتفسيرِ آياتِ القرآنِ الكريمِ فلا يعودُ من معنى لقولِهِ تعالى في الآية ٢٩ من سورةِ ص (**كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مباركٌ لِيدّبروا آياتهِ وليذكّرَ أولوا الألباب**).فقولُهُ تعالى (لِيدّبروا).فقد وردَ في التّعريفات:التّدبُّر عبارةٌ عن النّظر في عواقب الأمور وهو قريبٌ من التّفكُّر إلاّ أنَّ التّفكُّر تصرُّفُ القلب بالنّظر في الدّليل.والتّدبّر تصرُّفُ القلب بالنّظر في العواقب.وعليهِ فلا يعني التّدبُّرُ مجرَّدَ مراجعة حديثٍ أو روايةٍ عن صحابيٍّ أو تابعيّ.

رابعاً–وأمّا اقتراحُ ابن تيميَّة مراجعة أقوالِ التّابعين: في حالِ عدمِ العثورِ على حديثٍ أو على قولِ صحابيٍّ فهو طريقٌ أضعفُ من سابقيه.

خامساً–وإنَّ نهيهُ رحمَهُ اللَّه عن التّفسيرِ بالرّأي: فقد استمدَّهُ من حديثٍ لرسولِ اللَّهِ (ص) وردَ فيه: (مَن قالَ في القرآنِ بغيرِ علمٍ فليتبوّأ مقعدَه من النّار)وأمثالَ هذا الحديثِ الشريف.

أقول: كانَ ينبغي علينا أن نسألَ أنفُسَنا عن المقصودِ من قولهِ (ص) **(بغير علم)** ؟ فهل أنَّ محمّداً (ص) قد قصدَ من قولهِ هذا أنَّ الّذي لا يرجعُ إلى السُنَّةِ ولا إلى أقوال الصّحابة ولا إلى أقوال التّابعين وراحَ يُفسِّرَ الآيات القرآنيَّة برأيهِ الشخصيِّ فليتوَّأ مقعدهُ من النّار؟فإن كانَ هذا هو المقصودُ فابنُ تيميَّة رحمهُ اللّه ومن سارَ على مذهبهِ في التّفسير مُطالبٌ بتقديمِ الدّليل على هذا الادّعاء.

وعندي أنَّ الّذي يُفسِّرُ آيات القرآن بدونِ مَنهجيَّةٍ وأُصول تفسير نابعةٍ من مُعطياتِ القرآن الكريمِ نفسهِ فليتبوّأ مقعدهُ من النّار.إذ لا يُستساغُ عقليّاً أن يتصدّى إنسانٌ لِتفسيرِ آياتِ كتاب تحدّى اللّهُ عزَّ وجلَّ بهِ الإنسَ والجان لِبلاغتهِ وعظمةِ مضمونه وبدونِ مَنجيَّةٍ قُرآنيَّةٍ وأصولِ تفسيرٍ ومِن ثمَّ يستطيعُ إدراكَ معاني تلكَ الآيات.

وأضيفُ فأقول:إنَّ كلَّ عالمٍ مُتواجدٍ في عصرنا ويحترمُ نفسهُ ويحترمُ ما يحملهُ من علم، فإنه إن حاولَ كتابةَ م}ُلفٍ في علمٍ من العلومِ فإنَّهُ يُنبِّهُ في كتابهِ المذكور إلى المنهجيَّةِ والأصولِ الّتي التزمَ بها في مؤلَّفه وإلى المُنطلقاتِ الّتي انطلقَ منها فيه.وهل يُعقلُ أنْ يُنزِّلَ اللّهُ ربُّ العالمينَ وحياً على هيئةِ كتاب، ويسمّيهِ في الوقتِ نفسهِ كتاباً،ومن دونِ أن يسنُدَ كتابةُ هذا لا إلى منهجيَّةٍ ولا إلى أصولٍ ومُنطلقات منصوصٍ عليها في هذا الكتابِ نفسهِ الّذي تحدّى بهِ الإنسَ والجان؟؟

فلو أنَّ كتابَ اللّهِ قد خلا من حيثُ مضمونهِ من هذه المنهجيَّةِ وتلكَ الأصول الّتي تنظمُ آياته، فإنَّ هذا الكتابَ العزيزَ لا يكونُ مُتَّصفاً بصفةِ الكمال.ويكونُ اللّهُ تعالى الّذي أنزلهُ مسؤولاً أيضاً عن اختلاف هذه الأمَّةِ في مجالِ التَّفسير.ومن جهةٍ أخرى وحينئذٍ فلا يرقى هذا الكتابُ إلى مُستوى كُتّابِ عصرنا أيضاً وعلى أقلِّ تقدير.بل ولا نُبالغُ إذا قُلنا أنَّهُ لا يُعدُّ حينئذٍ أكثرَ من كتابٍ عادي.فهذهِ هيَ الأفكارُ المُرَّةُ المذاق والسوداءُ الّتي طالما أخذت من

تفكيري حيّزاً ما كُنتُ لأرضى عنه.بل وكانَ هذا يدفعُني إلى التَّضرُّعِ والدّعــاء على أعتابِ ربّي ليكشفَ لِيَ الحقيقةَ وليرفع عن فؤادي هذه الغُمَّة.

فمن خلال مُعطيات أحد علماء شبه القارّة الهنديَّة وهو العلاّمة (مــرزا محمود أحمد) رحمهُ اللَّه تعالى ورضيَ عنه.فهو الّذي طالعتُ في مؤلّفاتهِ الّتي تزيد عن الأربعينَ كتاباً، أنَّهُ أشارَ ولَّحَ إلى وُجودِ أُصولٍ لِتفسيرِ القرآن المجيد. لكــنَّ اللَّهَ تعالى ما أعانهُ ليؤلّفَ كتاباً يشرحُ فيهِ فكرتهُ وبشكلٍ موضوعيّ. وإنَّ هــذه الحقيقةَ الّتي نبَّهَ إليها في مؤلّفاته قد أمدَّتْني بأملٍ كبيرٍ في مجالٍ ما كنتُ أبحــثُ عنه. فتابعتُ هذا الموضوعَ.وكنتُ أضعُ ملاحظاتٍ باستمرارٍ كلّما خطــرتْ لي خاطرةٌ على هذا الطّريق.وبحثتُ ودعوتُ كثيراً،إلى أن بــدأت ملامــحُ هــذا الموضوعِ تتجلّى لِعيني.

ففي الأمثالِ يقولونَ إنَّ رائحةَ العطرِ تتحدَّثُ عن نفسها بنفسها.فأنــا لا أريدُ الإطالةَ فيما أعرضُهُ من طرحٍ وأنا أكتبُ هذه المقدِّمة.وأترُكُ لكلِّ مــنْ كانَ عالماً وباحثاً أن يُطالعَ كتابي هذا بكلِّ عنايةٍ وتدقيقٍ ليحكُمَ هو بنفســهِ على صحَّةِ ما تضمَّنهُ هذا المؤلَّف من حقائقَ وبيِّنات وعلى مدى ما فيــهِ مــن حقيقة.وأكتفي هنا ببيانِ النَّهجِ الّذي سرتُ عليهِ في هذا المؤلّف.ومُلتزماً دومــاً بالاستناد فيما أبحثهُ وأبيِّنُهُ من خلالِ مُعطَياتِ آيِ الذّكرِ الحكيمِ نفسهِ وليــسَ استناداً إلى آراءِ غيري من علماءٍ وباحثين ومحقّقين.وعليهِ تُعدُّ جميعُ المعلومــات الواردةُ فيهِ من اجتهادي من جهة. وممّا فتحهُ ربّي عليّ من معلومات. وعليــهِ فإنّي أقومُ الآن بتلخيصِ مضامينِ هذا المؤلّف من أجلِ أن أُعطي القارئ الكــريمَ فكرةً مُختصرةً عمّا تضمَّنه.

ألا لقد ارتأيتُ أن أنشُرَ هذا الكتابَ على جزأين مُتتابعين كيلا يثقُــلَ على القارئِ حملُه.وقد قسَّمتُ هذا الجزء الأوَّلَ إلى بابينِ رئيسيّين.فاشتملَ البابُ الأوَّلُ منهما على أربعةِ فصول.كما اشتملَ البابُ الثاني منــهما علــى ســبعةِ

فصول.ولقد قدَّمتُ لهذا الجزء الأوّل بكلمةٍ تمهيديَّةٍ وضَّحتُ فيها كيفَ أنَّ المفسّرينَ القدماء رحمهمُ اللّه ما كانَ خطرَ ببالهم أنَّ هذا القرآن المجيد قد تضمَّنَ منهجيَّةَ وأصولَ تفسيره.لذلكَ كانَ لهم طرائقهُم الخاصَّةُ في التّفسير.وقد ارتآى العلاّمة المرحوم ابن تيميَّة خمس طرائقَ للتَّفسيرِ تبنّاها ابنُ كثيرٍ رحمةُ اللّه بكاملها في تفسيرهِ المشهور.وأنَّ تلكَ الطّرائق لا تمتُّ إلى منهجيَّةِ القرآن وأصولِ تفسيرهِ بصلةٍ واضحةِ المعالم ولا أرى أنّها تفي بالغرضِ منها أيضاً.

ولقد بيَّنتُ في الفصلِ الأوَّلِ من البابِ الأوَّل أنَّ هذا الكتابَ المبارك والمقدَّس مُعجزٌ وما هو بكتابٍ عاديٍّ وأنَّهُ يخلو من كلِّ ما يُريبُ.وأنَّهُ قد اشتملَ على خمسةِ تحدّيات وعلى مِئات النّبوءات السماويَّةِ الّتي منها ما تحقَّقَ حتّى الآن ومنها ما سيتحقّقُ في المستقبلِ في الوقتِ المتعلّق بهِ.كذلكَ قد وضَّحتُ في هذا الفصلِ المذكور بأنَّ القرآنَ المجيدَ هو عبارةٌ عن كتابٍ مكنون لا يمسّهُ إلاّ المطهّرون ووضَّحتُ هذه الحقيقةِ بشيءٍ ملموس.

أمّا في الفصلِ الثاني منهُ فقد نبَّهتُ ذهنَ القارئ إلى حقيقةِ فلسفةِ اتّصاف هذا الكتاب المقدّس بعدَّة صفات ومُسمّيات منها :قرآن،ذكر،مبارك وحكيم.وكيفَ أنَّ هذه الكلماتَ تحملُ في ضمنها الصّفات الّتي اتَّصفَ بها هذا الكتابُ السماويُّ العظيم.

وقد نبَّتُ ذهنَ القارئ في الفصلِ الثالثِ منهُ إلى استحالةِ إدراك مضامين آيات هذا الكتاب المقدّس إلاّ وفقَ منهجيَّةِ القرآن وأصول تفسيرِ آياتهِ الكريمة.وبيَّنتُ كيفيَّةَ تدبُّرها.كذلكَ بيَّنتُ كيفَ أنَّ هذا الكتابَ المقدَّس تحدّى اللّهُ تعالى بهِ الإنسَ والجنَّ لذلكَ لا يُعقلُ أن يكونَ يُفهم بدون تلك المنهجيَّةِ وبدون أصولِ تفسيرهِ.وكيفَ أنَّ هذا القرآن هو في حدِّ ذاتهِ مُعجزةٌ خالدةٌ وموعودٌ من اللّهِ تعالى بحفظهِ إلى يومِ الدّين.ولفتُّ النّظرَ إلى أنَّ هذه المنهجيَّة

القرآنيَّةَ هي منهجيَّةٌ علميَّةٌ بعيدةٌ عن كلِّ مـــا يُخـــالفُ العلـــمَ بصلـــةٍ مـــن الصِّلات.وشرحتُ للقارئ ظواهر هذه المنهجيَّةِ القرآنيَّةِ العلميَّةِ أيضاً.

ولم أنسَ أن أشرحَ لهذا القارئ منهجيَّتي الشخصيَّةِ في البحثِ والاستقراءِ والّتي انتهجتُها في كتابةِ هذا المؤلَّف الفريد في نوعه.

أمّا الفصلُ الرّابعُ من هذا الباب فقد خصَّصتُهُ للكلام عن أمرِ اللّهِ تعـــالى الّذي أمرنا فيه بتدبُّرِ آياتِ هذا القرآنِ العظيم وعن حكمةِ ذلك.وبأسلوبٍ مُقنعٍ وواضحِ البيِّنات.واغتنمتُ هذه الفرصةَ للكلامِ عن العقلِ البشـــريِّ وشـــوائبهِ الأربعة الّتي تُلازمه.وقد أنهيتُ هذا الفصلَ الرّابعَ بتصحيحِ مفهومٍ خاطئٍ يُـــراودُ أذهانَ النّاس. وبذلكَ أكونُ قد أنهيتُ البابَ الأوّلَ من هذا الكتاب.

وتناولتُ الكلامَ في البابِ الثاني منهُ فاستهللتُ الفصلَ الأوّلَ منهُ بتمـــهيدٍ مهَّد للكلامِ عن الأصلِ الأوّلِ مـــن أصـــولِ تفســـيرِ آيـــاتِ هـــذا القـــرآن المجيد.ووضَّحتُ هناكَ بأنَّ الأصلَ التّفسيريَّ الأوّلَ ينبعُ من إعطاءِ اللّهِ جلَّ شـــأنهُ هذا القرآن المجيد اسمَ **(كتاب) ومن بابِ استحقاقهِ لهذه التّسمية**.فهو كتـــابٌ استوفى المقوّمات السبعة الّتي لابدّ أن يستوفيها أيُّ كتاب.

ومن ثمَّ تكلّمتُ عن المسؤوليّات الّتي يُرتّبها هذا الأصلُ التّفســـيريُّ الأوّلُ على المفسّرين الذين يتصدّونَ لِتفسيرِ آياتِ هذا القرآن الكريم.وهـــو الكتـــابُ الّذي لهُ مقدّمتهُ ومتنُهُ وخلاصتُهُ الأخيرة.وهنا وضَّحتُ كيفَ لخَّصَتْ فاتحةُ هذا القرآن موضوعَ وحدانيَّةِ الذّاتِ الإلهيَّة بشكلٍ بليغٍ .لذلكَ شرحتُ هناكَ معـــنى كلمة **(الحمد)**التي استهلَّ اللّهُ تعالى بها فاتحةَ كتابهِ العزيز.ودلالةَ **(الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين)**. كما بيَّنتُ كيفَ أنَّ سورةَ الإخلاص قد أوجزت نفـــسَ موضـــوع وحدانيَّةِ ذاتِهِ عزَّ وجلّ.وقمتُ بعد ذلكَ بتلخيصِ جميعِ ما بيَّنتُهُ في هذا الفصـــلِ الأوّلِ من هذا البابِ الأوّلِ من هذا الكتاب.

وانتقلتُ في الفصلِ الثاني منهُ للكلامِ عن أصلِ تفسيرٍ ثانٍ.فبيَّنتُ بأنَّ آياتِ القرآنِ الكريمِ نفسها قد قرَّرَ اللّهُ تعالى فيها بأنَّ اللّغةَ العربيَّةَ هي هذا الأصلُ المطلوب.هذه اللّغةُ الّتي وضعَ اللّهُ جلَّ شأنهُ أسسَها منذ زمنِ بعثةِ آدمَ عليهِ السلام.والتي طوّرها العربُ إلى أن بلغت أوجها ومن بعثةِ محمَّدٍ بن عبد اللّه (ص) فأنزلَ تعالى كتابهُ العزيز بهذه اللّغةِ التي هي لُغةُ البيان. كما بيَّنت النّاحيةَ العلميَّةَ في هذه اللّغةِ الشريفة المؤسّسة على قواعد وأصولٍ امتازت بها عن سائرِ لُغاتِ العالم.

وقد قدّمتُ الدّليلَ على مِصداقيَّةِ ما ذهبتُ إليهِ من رأيٍ وذلكَ من مُعطيات الآيات الأوائلِ من سورةِ الرّحمن. تلكَ الآيات التّي حملت هذا الأصلَ الثاني للتّفسيرِ الّذي نتكلّمُ عنه.واغتنمتُ هذه المناسبة فألقيتُ ضوءً على كيفيَّةِ نشوءِ لُغةِ البيانِ هذه وكانَ دليلاً علميّاً.ولم أبخل على القارئ في هذه المناسبةِ ببيانِ مُميِّزاتِ اللّسانِ العربيّ من حيثُ كونهِ لُغةً علميَّةً ومن أقدمِ لُغاتِ العالمِ قاطبةً ، وكيفَ كانَ القرآنُ الكريم واللّغةُ العربيّةُ وجهين لِعُملةٍ واحدة.وكيفَ تهيّأ في هذه اللّغةِ عشرة أنظمةٍ لمفرداتِ هذا القرآن العظيم.ولم أكتفِ بهذا الدّليلِ العلميّ الّذي قدّمتهُ وذكرته بل قدّمتُ بالإضافةِ إليه أدلّةً أخرى يثبتُ منها كون اللّغة العربية لُغةً علميَّة.وقمتُ بعدَ ذلكَ بتلخيصِ جميع ما أتيتُ على ذكرِهِ في ذاكَ المقام.

ورحتُ أبيّنُ بعدَ ذلكَ ما ترتّبَ على هذا الأصل الثاني للتّفسيرِ من مسؤوليّاتٍ على المفسِّرِ الّذي يريدُ التّصدّي لِتفسيرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز.ولم أنسَ توضيحَ منزلة اللّغة العربيَّة وأهمّيةَ الرّجوعِ إليها عند تفسيرِ الآيات القرآنية .

وقد عمدتُ في الفصلِ الثالثِ من هذا الباب الثاني إلى الكلام عن ثالثِ أصلٍ من أصولِ تفسيرِ الآيات القرآنيَّة.فبيّنتُ بأنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد لفتَ نظرنا مراراً إلى أنَّهُ لا يدّعي ادّعاءً بلا دليلٍ يثبتُ منهُ مِصداقيَّة ما ادّعاه.ويكونُ دليلُ

المصداقيَّةِ المطلوب مُلازماً دوماً للإدّعاءِ أيضاً.فحيثُ كانَ الادّعاء وُجدَ بعدهُ دليلُ مِصداقيَّته.وقُمتُ هناكَ بتقديمِ الأمثلةِ على ذلكَ ومُستقاةً من سورٍ عديدة : من سورةِ البقرة ومن آلِ عمران والنّساء والأنبياء والفرقان وسورةِ النّحل.وقمتُ بعدَ ذلكَ بتلخيصِ جميعِ ما ذكرته .

و لم أنسَ الكلام عمّا رتَّبَ هذا الأصلُ للتّفسيرِ من مسؤوليّاتٍ على الّذين يتصدّونَ لِتفسيرِ آياتِ هذا القرآن العظيم.

وأفردتُ بعدَ ذلكَ فصلاً رابعاً للكلامِ عن رابعِ أصلٍ من أصولِ التّفسيرِ القرآنيَّة.فنبَّهتُ هناكَ ذهنَ القارئِ إلى ضرورةِ مُراعاةِ صفتي اللّه (**الرّحمن الرّحيم**) المُضافتانِ على (**بسمِ اللّه**) في البسملةِ الّتي افتُتِحت بها كلُّ سورةٍ من سورِ هذا القرآن الكريم.

ولّما كانَ القارئ أو المفسِّرُ سيتساءل عن كيفيَّةِ فِعلِ ذلك ؟ فقد قدّمتُ لهُ شرحاً وافياً لهذا الموضوع.كما وضّحتُ لهُ أهمّيةَ هذا الأصلِ الرّابع للتّفسير.وأضفتُ هناكَ فوضَّحتُ للقارئِ وظيفةَ كلِّ أصلٍ من أصول تفسيرِ القرآن الكريم.وقد قدَّمتُ لهُ بعد ذلكَ نماذجَ تفسيريّةً روعي فيها هذا الأصلُ المُشارُ إليه.والّتي يثبتُ منها مِصداقيَّته.والفرقُ الّذي طرأَ على الفهم السابقِ لها والّذي فهمهُ المفسّرونَ القدماء رحمهم اللّه.

ووجدتُها مُناسبةً ملائمةً لِتوضيحِ النّظريَّةِ القرآنيَّةِ القائلةِ بأنَّ جزاء المرءِ وثوابهُ يأتي يوم القيامةِ على قدَرِ كسبهِ وعملِه.كذلكَ قدَّمتُ هناكَ دراسةً موضوعيَّةً حولَ نارِ جهنَّم الّتي تكلَّمَ عنها كتابُ اللّهِ العزيز.وعمّا أفادتنا بهِ فاتحةُ الكتابِ في هذا السبيل.

فالمثالان اللّذان قدّمتهما للقارئِ بهذا الصّدد اقتُبسا من مُعطيات آياتِ سور: الحاقّة والصّافّات والواقعة وسورةَ الدّخان.ونقلتُ هناكَ ما كانَ وردَ من

تفسيرٍ لتلكَ الآيات في تفسيري الفخر الرّازي والمسمّى بالتّفسيرِ الكبير وتفسير ابن كثير رحمهما اللّه تعالى.وهناكَ أنهيتُ الفصلَ الرّابعَ المذكور.

وفي الفصلِ الخامس من هذا الباب الثاني تكلّمتُ فيهِ عن أصلٍ خامسٍ من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز الّذي نصَّ على هذا الأصلِ وعلى ضرورةِ مُراعاتِهِ بصريحِ العبارة.ومن مُنطَلَقِ أنَّ الآيات التي تتضمَّنُ حقائقَ علميَّةً من الواجب عند محاولةِ فهمها الرّجوع إلى المختصّينَ في أيِّ علمٍ هي عائدةٌ لهُ.وليسَ تفسيرها بما يُخالفُ مُعطياتِ العلم ومُنجزاتِه.وطرحتُ ثلاثةَ أسئلةٍ هناكَ ونقلتُ إجابات الفخر الرّازي وابن كثيرٍ عليها ووضَّحتُ الخطأ من الصّواب.وبيَّنتُ هناكَ أيضاً بأنَّ الدّينَ الإسلاميَّ ومُعطيات الحقائق العلميَّة وجهانِ لِعُملةٍ واحدةٍ ولا يختلفان.إلاّ أنَّهُ ينبغي التّفريقُ ما بينَ ما هو حقيقةٌ علميَّةٌ وما بينَ ما هوَ نظريَّة لم تبلُغ بعدُ مرتبةَ الحقيقة العلميَّة.ولم أكتفِ بالشرحِ المذكورِ بل عمدتُ إلى تقديمِ أمثلةٍ قرآنيَّةٍ تُثبتُ مِصداقيَّةَ ما بيَّنتُهُ وذهبتُ إليه.والأمثلةُ المشارُ إليها اقتبستُها من

سورِ الأنبياء وفُصِّلَت ومن سورةِ البقرة.ولم أنسَ اقتباس ما فهمهُ العالمان المفسّران لِتلكَ الآيات (الفخر الرّازي وابن كثير) رحمهما اللّهُ تعالى.وأنهيتُ الفصلَ المذكورَ بعناوينَ عريضةً توضِّحُ منزلةَ العلم في هذا الدّينِ الإسلاميِّ الحنيف.

وانتقلتُ بعد ذلكَ للكلامِ عن أصلِ تفسيريٍّ سادسٍ ففتحتُ للكلامِ عنه فصلاً سادساً من هذا الباب الثاني.وبيّنتُ بأنَّ القرآن العظيمَ نصَّ على ضرورةِ إعطاء العقلِ مكانتهُ عند التّصدّي لِفهمِ آياتِهِ الكريمة.واغتنمتُ تلكَ الفرصةَ للكلامِ عن منزلةِ العقلِ في الإسلام وعن آليَّةِ عملِه.وكيفَ ميَّزَ اللّهُ الخالقُ الإنسانَ على الكائناتِ الحيَّةِ بميِّزةِ العقل.وقمتُ هناكَ بتلخيصِ ما أتيتُ على ذكرهِ وبيانه.

وبما أنَّهُ كانَ من الواجبِ تقديمَ أمثلة تُثبتُ مِصداقيَّةَ هذا الأصلِ المذكور للتّفسير.فقد قمتُ بتقديمِ مثالٍ من قصَّةِ يوسفَ عليهِ السلام ومن قصَّةِ بناء هيكل سليمان ففسَّرتُ آياتِ المثالين المشارُ إليهما بعقلانيَّةٍ نصَّ عليها الأصلُ السادسُ الّذي تكلّمنا عنه.كما نقلتُ تفسير ابنُ كثيرٍ وتفسير الفخر الرّازي هناك لِتبيِّنَ القارئ الفرقَ ما بينَ هذا وذاك.

فلمَّا فرغتُ من جميعِ ما سلفَ ذكرُهُ أتيتُ بالآيةِ الكريمةِ الّتي تضمَّنت ثلاثةَ أصولِ تفسيرٍ وهي الآيةُ الأولى من سورةِ هود.وبعدها فتحتُ فصلاً سابعاً من فصولِ هذا البابِ الثاني للكلامِ عن الأصلِ السابعِ الذي تضمّنتهُ الآيةُ الكريمةُ سالفة الذّكر.

فقد نبَّهنا قولُ اللّه تعالى في الآيةِ المذكورةِ إلى أصلٍ للتّفسيرِ وهو أن نُراعي تسلسُلَ الآيات الموضوعي.هذا الأصلُ الّذي انتبهَ إليهِ الفخرُ الرّازي رحمهُ اللّه وكانَ يُحاولُ مراعاتهِ في تفسيرهِ الكبيرِ المشهور وقد اصطلحَ لهُ اسمَ **(النّظم)**.لكنّي اصطلَحتُ لهُ اسم **(التّسلسُل الموضوعيّ)**.

وعلى عادتي فقد رحتُ أقدِّمُ الأمثلةَ الّتي يثبُتُ من خلالِها مِصداقيَّة هذا الأصل المشار إليهِ آنفاً.واستقيتُ اوّلَ مِثالٍ من سورةِ هودٍ نفسها الّتي نصَّت على هذا الأصلَ السابعَ وعلى أصلينِ غيرهِ سآتي عل بيانهما في الجزء الثاني من هذا المؤلَّف إن شاءَ اللّهُ تعالى.ففسّرتُ عدداً كافياً من سورةِ هود هذهِ وموضِّحاً الرّوابطَ الموضوعيَّةَ القائمةَ بينَ تلكَ الآيات.وكيف أنَّ كلامَ اللّهِ تعالى يخلو من التّكرارِ أيضاً.ومن ثمَّ قدّمتُ مِثالاً ثانياً استقيتُهُ من سورةِ (ق)وتوابعها السبعةَ عشرةَ سورة.فألقيتُ هناكَ ضوءً على ما بينَ جميعِ تلكَ السور المشارُ إليها من روابطَ موضوعيَّة لم ينتبه إليها المفسّرونَ القدماء رحمهم اللّه الّذين غفلوا عن الأخذِ بهذا الأصلِ السابع من أُصولِ تفسيرِ آياتِ القرآن المجيد.

وبتقديمِ المثال الأخير المُشار إليهِ أكونُ قد أنهيتُ الجزءَ الأوَّلَ من مؤلّفـي هذا الّذي ما إن سمعَ منّي عنهُ الأستاذ العالم جودت سعيد وفّقهُ اللَّه إلاّ وقـال بدون تحفّظ منهُ ونحنُ في داره الواقعة في جبل قاسيون(إنَّ كتابكَ هذا سـيكونُ بدءَ فجرِ عصرِ جديدٍ للتّفسير).وأرجو من اللَّهِ تعالى أن يكونَ كذلكَ

وآخرُ دعوانا أن الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين. ٢٠ شوّال عـام ١٤٢١ الموافق ١٥ /١٢/ ٢٠٠١

سليم الجابي

البـــــاب الأوّل

- الفصلُ الأوّل : القرآنُ كتابٌ غيرُ عاديّ وأدلّةُ ذلك
- الفصلُ الثّاني : فلسفةُ تسميةِ الكتاب (قرآن) و(فُرقان)
- الفصلُ الثّالث : التدبُّرُ لا يكونُ إلاّ وِفقَ منهجيّةٍ وأُصولِ تفسير
- الفصل الرّابع : الحكمةُ من الأمرِ بتدبُّرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز



الفصـــل الأوّل

القرآنُ كتابٌ غيرُ عاديّ وأدلّةُ ذلك

من المعلومِ والمنطقيِّ أنّنا إذا أردنا تقريرَ حقيقةِ أنَّ هذا القـــرآنَ الكـــريمَ الّذي نُطالعهُ في زماننا هذا والّذي قد أثبتُّ في مؤلّفي(اللّهُ جلَّ جلاله)أنّهُ وصلَنــا سالماً.أقولُ إذا أردنا إثباتَ أنَّ هذا القرآن المجيدَ ليسَ بكتـــاب عـــاديٍّ وعلـــى حسب ما وردَ فيه من ادّعاءات ادّعاها اللّهُ ذاتهُ الّذي أنزلَ كتّابهُ العزيز هـــذا ودلّلَ على مصداقيّتِهِ هو بنفسه أيضاً.فلا يحقُّ لنا نحنُ من جانبنا أن ندّعي هـــذا الادّعاءَ ،بل ينبغي علينا أن نأتي بالآيات الدّالةِ على الادّعاءِ المذكور والحاملة لنــا دليلَ مصداقيَّة ما ادّعاهُ اللّهُ جلَّ شأنهُ في هذا الكتابِ العزيزِ أيضاً.ولِنُثبتَ مـــن خلالِ ذلكَ أنَّ القرآنَ المجيدَ ما هو بكتاب عاديٍّ.

فإن تمكّنتُ من إثباتِ وجود هذا الادّعاءِ المطلوب والمُشارُ إليهِ ،ووجــود دليل مِصداقيّتهُ.فقد حقَّ لنا بعدَ ذلكَ البحث عن مَنهجيَّةِ القرآنِ المجيـــدِ وعـــن أُصول تفسيره.ومن بابِ أنَّ المؤلّفَ المَرموقَ لا يؤلّفُ إلاّ بعدَ أنَ يضعَ لِمؤلّفـــهِ منهجاً وأصولاً.

لذلكَ كانَ من واجبنا البحث باديءَ ذي بدء بينَ آيات هـــذا القـــرآن الكريمِ عنِ المضامينِ الّتي يُستدلُّ منها أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ قد ادّعى مـــن خلالهـــا الادّعاءَ المطلوبَ. كما أنَّ من واجبنا البحثَ عن أدلّةِ مِصداقيّته.فإن نحنُ حقّقنــا ذلكَ على وَجههِ الصّحيح.يحقُّ لنا بعد ذلكَ البحث عن مَنهجيَّةِ القرآنِ وعـــن أُصولِ تفسيرِه.

واستناداً إلى هذا المُنطلق أقول:إنَّ هذا الكتابَ السماويَّ لهُ خصائصهُ.فمن جملةِ تلك الخصائص أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ لا يلتزمُ بمنهجيَّةِ الكُتّاب الأرضيّين.بل إنَّ لهُ منهجيَّتهُ الخاصَّةُ بهِ والّتي تبدو واضحةً للعَيان عندَ طرحهِ لأيِّ موضوع.فهو لا يلتزمُ بمنهجيَّةِ الكُتّاب الأرضيّينَ حينَ يبحثُ موضوعاً من المواضيعِ وإن كانَ يلتزمُ بأسلوبِ الطّرحِ العلميِّ وبتقديمِ أدلَّةِ ما يطرحهُ من مضامين.

والحقيقةُ هي أنَّ من خصائصِ هذا الكتابِ المُبارك أنَّ اللّهَ تعالى الّذي أنزلهُ يوزِّعُ عناصرَ الموضوعِ الواحدِ على أكثر من سورةٍ واحدة.ويُخالفُ في ذلكَ ما تعارفَ عليهِ الأدباء.فهو يوردُ كلَّ عُنصُرٍ من عناصرِ الموضوعِ الواحدِ وفقَ ما يقتضيهِ تسلسلُ موضوعِ السورة نفسها الواردُ فيها.ويترُكُ اللّهُ جلَّ شأنهُ للباحثِ المتدبِّر حرّيةَ اكتشافِ تلكَ العناصرَ والقيامِ بجمعِها وبترتيبِ مضامينها وليشكِّلَ كلُّ ذلكَ بينَ يديهِ موضوعاً كاملاً لهُ أبعادُهُ واستقلاليَّتهُ أيضاً.وتختلفُ منهجيّتهُ من حيثُ الشكلِ فهو لا يعتمدُ شكليَّةَ التَّنقيطِ التي يقومُ بها الأدباءُ بل يُقسِّمُ كلامهُ إلى آيات يبدو تقسيمها غريباً في أعينهم ثمَّ إنَّهُ تعالى يأتي بكلامهِ على صورةٍ يتبادرُ منها لذهنِ قارئهِ غيرَ ما قصدهُ تعالى منه.ويُجيبُ على الأسئلةِ التي تطرحُ نفسها بأسلوبهِ الخاصِّ بهِ ووفقَ قواعدَ خاصّةٍ أيضاً.ويمزجُ جميعَ ما يطرحهُ بترغيبٍ وترهيبٍ ظاهرين.ويوردُ ألفاظهُ في مُنتهى الدِّقَّةِ في التّعبيرِ المناسبِ لِسباقِ الكلمةِ وسياقها وعلى صورةٍ مؤانسةٍ لهما وللتّسلسُلِ الموضوعيّ وبفصاحةٍ تبلُغُ حدَّ الإعجاز وغيرها من خصوصيّات يُطالعها المرء في مؤلَّفي(**خصوصيّات القرآن المجيد**)وإنَّ هذه المنهجيَّةَ المُعجزةَ هي الّتي صبغت على هذا القرآن المجيد صِبغةَ الإعجازِ من حيثُ الصّياغةِ ومن حيثُ المضمون أيضاً.المضمونُ الّذي أتى بما لا يُخالفُ العلمَ لا فيما يطرحهُ من مضامينَ ولا في

أسلوبِ الطّرحِ العلميّ.وهكذا اكتسبَ هذا القرآن المجيد اسمَ (**كتاب**) من جهةٍ كما اكتسبَ سمةَ الإعجاز الّذي لا ريبَ فيه.

وعليهِ كانَ من واجبي إثباتَ مصداقيَّةَ ما ذكرتُهُ حتّى الآن:إثباتَ تسميةِ هذا القرآن المجيد باسم (**كتاب**)من جهةٍ.وإثباتَ المنهجيَّةِ العلميَّةِ الّتي التزمَ بها في طرحِهِ لمضامينهِ ومواضيعه.وإثباتَ أنَّهُ أتى في كلِّ ذلكَ مقروناً بتحدّيات.

فإن نحنُ حاولنا تدبُّرَ آياتِ هذا القرآن الكريم،ونحنُ مُنطلقينَ في بحثنا بدافعِ ما ذكرناه.نعثرُ حينئذٍ على المطلوبِ،ومن خلالِ الآياتِ الأوائلِ من آياته الكريمة.فأقول:

القرآنُ المجيدُ (كتابٌ وعلميٌّ):

لقد أطلقَ اللّهُ جلَّ شأنهُ اسمَ (**كتاب**) على هذا القرآن الكريم وذلكَ في أوّلِ آيةٍ من آياتِ أوّلِ سورةٍ من سورهِ وهي سورةُ البقرة.حيثُ استهلَّ جلَّ شأنهُ سورةَ البقرة بقولِه(**ألم.ذلكَ الكتاب لا ريبَ فيهِ هدىً للمتّقين**) أي أنّهُ تعالى قد أتى في هذه الآيةِ الكريمةِ بادّعاء مؤلّفٍ من عدَّة بنود هي

١ -تسميةُ هذا القرآنَ المجيدَ باسم (كتاب)بمعنى أنَّ لهُ مقدِّمةٌ وموضوعٌ وخاتمة.

٢ -وأنَّ هذا الكتاب يخلو من الأفكارِ الظّنيّةِ، وتتَّصفُ أفكارهُ بصفةِ العلميّةِ الموثّقة.فهو كتابٌ (**لا ريبَ فيه**).

٣ -وأنَّ ما وردَ في هذا الكتابِ من حقائقَ وتعاليمَ تشكِّلُ كُلاًّ لا يتجزّأ، فهي (**هدىً للمتّقين**).وإنَّ هذه الأمورُ بمجموعها تُشكِّلُ أوّلَ عُنصرٍ من عناصرِ الادّعاءِ القائل بأنَّ القرآنَ الكريمَ الّذي هو بينَ أيدينا ما هو بكتابٍ عاديٌّ كبقيَّةِ الكتُبِ الوضعيَّة.بل هو كتابٌ مُتميِّزٌ وعظيم.

وفي الحقيقة فإنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد رتَّبَ هذا القرآنَ الكريمَ على صعيدِ الواقعِ،فجعلَ له مقدِّمةً مؤلَّفةً من سبعِ آياتٍ سمّاها (**السبع المثاني**) بسببِ أنّهُ

تعالى قد أمرَ أن يتلوها المؤمنُ في كلِّ رُكعةٍ من رُكعاتِ صلواته وعلى شكلِ دعاءٍ أيضاً.كما أنَّ اللّهُ جلَّ شأنهُ لخَّصَ مَضامينَ كتابهِ العزيزِ من خلالِ خاتمتين: وردتِ الخاتمةُ الأولى مُطوَّلةً وتضمَّنها آخرُ جزءٍ من أجزاءِ هذا القرآنِ الكريم، وهو الجزء الّذي سُمّيَ باسم جزء (**عمّ**).والخاتمةُ الثّانيةُ وردت موجزةً اشتملت عليها المعوَّذات الثلاث الأخيرة. وبذلكَ يكونُ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد أثبتَ وبصورةٍ عمليَّةٍ ومن خلالِ ما ذكرناه مِصداقيَّةَ ما ادّعاهُ في الآيةِ الأولى من سورةِ البقرةِ الّتي أوردناها.ويكونُ جلَّ شأنهُ قد أتى بأوَّلِ ادّعاءٍ ومُبرهناً على مصداقيَّتهِ وبصورةٍ عمليَّةٍ أيضاً.وإلى جانبِ أنّهُ تعالى قد استعملَ كلمةَ (**كتاب**) بهذا المعنى خاصَّة،وليسَ بمعانيهِ الأخرى.ولا يكتشفُ هذه الحقيقةَ إلاّ المؤمنونَ المتدبِّرون.

وما دمنا قد انتبهنا إلى البرهانِ العمليِّ الّذي أثبتَ كونَ هذا القرآنَ الكريمَ هو في حقيقتهِ (**كتاب**) فقد بقيَ علينا أن نبحثَ عن الدّليلِ النّظريِّ أيضاً والّذي يثبتُ من خلالهِ مصداقيَّةَ هذا الادّعاءِ الأوّلِ الّذي أوردناه.

والحقيقةُ هي أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ وبعدَ أن طرحَ على النّاسِ المبادئَ والتّعاليمَ الّتي تضمَّنها هذا الكتاب وردودَ الفعلِ الّتي ستنجمُ عن ظهوره.فقد توجَّهَ بعدَ ذلكَ إلى مخاطبةِ هؤلاءِ النّاسِ قاطبةً يدعوهم إلى عبادةِ اللّهِ الّذي أنزلَ هذا الكتابَ وقال (**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**.) فلمّا فرغَ جلَّ شأنهُ من خطابهِ هذا،أعادَ إلى الأذهانِ قولهُ تعالى في آيةِ الادّعاءِ وهو قولهُ تعالى هناكَ بحقِّ كتابهِ (**لا ريبَ فيه**). ومن ثمَّ أتى **بتحدٍّ عظيمٍ** ليُثبتَ من خلالهِ مصداقيَّةَ ذلكَ الادّعاءِ وقال: (**وإن كُنتم في ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثلهِ وادعوا شُهداءكم من دونِ اللّهِ إن كنتُم صادقين.فإن لم تفعلوا ولَن تفعلوا فاتّقوا النّارَ الّتي وقودُها النّاسُ والحجارةُ أُعِدَّت للكافرين.وبشِّرِ الّذينَ آمنوا وعملوا الصّالحاتِ أنَّ لهم جنّاتٍ تجري**

من تحتها الأنهارُ كُلّما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الّذي رُزقنا من قبلُ وأُتوا بهِ مُتشابهاً ولهم فيها أزواجٌ مُطهَّرةٌ وهم فيها خالدون.).

فهذه الآياتُ الكريمةُ حملت للناسِ تحدّياً عظيماً.ولم يورده اللّهُ تعالى على شاكلةِ التحدّيات الّتي يقومُ بها الكُتّابُ والشعراء.بل لقد أوردَ اللّهُ تعالى تحدّيهِ المذكور مقروناً بإنذارِ الكافرينَ بحقيقتهِ وبعذابِ النّار.

لذلكَ نتساءلُ عن أبعادِ هذا التّحدّي المَذكورُ؟ وعن كيفيَّةِ تشكيلهِ لهذا الدّليلُ الّذي يثبتُ من خلالهِ مِصداقيَّةُ الادّعاءِ الّذي تضمَّنتهُ الآيةُ الأولى من سورةِ البقرة؟؟

وأنا أُخطِّئُ ما تبادرَ قديماً لأذهانِ المفسرينَ رحمهم اللّه من أنَّ اللّهَ تعالى تحدّى هنا أن يأتيَ أحدٌ بمثلِ هذا القرآن الكريم ولا أن يأتيَ بسورةٍ قصيرةٍ أو طويلةٍ مثيلةٍ لسوره.بل إنَّ قولهُ تعالى في الآيةِ الأولى(**لا ريبَ فيهِ**) معناهُ أنَّ هذا الوحيَ الّذي اشتملَ على هذه المعلوماتِ الّتي تضمَّنتها الآياتُ العشرونَ السابقةُ لهذا التّحدّي،يستحيلُ على أحدٍ من النّاسِ أن يطعنَ في مضامينها أو أن يشكَّ في حقائقها.فاللّهُ تعالى يقولُ أتحدّاكم أيُّها النّاس وفي أيِّ زمانٍ ومكانٍ وُجدتم فيه فأتوا بعلامةٍ أو بدليلٍ يُثبتُ صحَّةَ ظنونكم وارتيابكم بمصداقيَّةِ ما ذكرناه.ولتأتوا أنتم من طرفكم بشهودٍ يُوازنُونَ ما بينَ صحَّةِ مضامينِ وحيِ هذه الآيات وما بينَ صحَّةِ ما ستعترضونَ بهِ وترتابونَ فيهِ ونحنُ نرضى بشهادتهم ولا نشترطُ أحداً لِيشهدَ على ذلكَ من جانبنا. وإنَّ هذا التّحدّي ينحصرُ فيما يبدو منهُ فقط في قولهِ (**فيما نزَّلنا**) من مضامينَ اشتملت عليها آياتُ ما قبلَ هذا التّحدّي. خصوصاً وأنَّ هذا (**الكتاب**) ما يزالُ في أوّلهِ من حيثُ ترتيبِ تلاوته.أي أنَّ هذا التّحدّي سالف الذّكر قد انحصرَ تحدّيهِ في مجموعِ مضامينِ آياتِ ما قبلَ هذا التّحدّي وحسبَ ترتيبِ تلاوته.وهذه المضامينُ تتلخَّصُ فيما يلي:

أوّلاً-إنَّ الأحرفَ المقطَّعة (ألم) تمثّلُ تحدّياً في فنِّ الاختزالِ الجاهليّ.

ثانياً–وبدلاً من أن يقولَ جلَّ شأنهُ تعالى (هذا الكتابُ) فقد استبـــــدلَ اسم الإشارة القريب باسم الإشارة للبعيد (**ذلكَ**) وكانَ القصدُ من ذلكَ إظهارِ عظمة هذا الكتاب.

ثالثاً–وإنَّ أداةَ التَّعريفِ الّتِي عُرِّفَتْ بها كلمةُ (**الكتاب**) وردت بمعـــــنى المعهودِ الذهنيّ وليُشيرَ اللَّهُ تعالى بها إلى نبوءة سفر التّثنية ١٨/١٨ الـــــواردة في التّوراةِ المُتداولة المعاصرة.

رابعاً–ثمَّ إنَّ التّعاليمَ الواردة بعدَ قولهِ تعالى (**هـــدىً للمتّقـــين**) وهـــي المُصاغةُ صياغةً بلاغيَّةً وبصياغةٍ دستوريَّةٍ عامَّة المعاني وشاملة مشمولةٌ مضامينها أيضاً بالتحدّي المذكور.

خامساً– وإنَّ نبوءات تقسيم النّاس إلى فرقاء ثلاثة مشمولةٌ بهِ أيضاً.

فهذه هي الصّورةُ الحقيقيَّةُ لهذا التّحدّي الأوَّل الموجَّه إلى النّاسِ كافّـــــةً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم ولُغاتهم وليثبتَ اللَّهُ تعالى من خلالـــهِ مِصداقيَّةَ ما ادّعاهُ في هذه الآيةِ الأولى من سورةِ البقرة.

ولم يكتفِ اللَّهُ تعالى بهذا التّحدّي الأوَّل المذكور.والمتناسبُ معَ سِـــباقهِ الموضوعيّ .بل وأتى تعالى فيما بعدُ بأربعِ تحدِّياتٍ أُخرى.فمن تلكَ التّحدّيـــات ما تحدّى بهِ اليهودَ.ومنها ما تحدّى فئةَ المسيحيّين.ومنها ما تحدّى به النّـــاطقينَ بلُغةِ الضّادّ.وأوردَ تعالى كلَّ ذلكَ تبعاً للمُناسبات الواردة فيها. فكانَ أهمُّـــــها التّحدّي الوارد في الآية ٨٨ من سورةِ الإسراء والّذي قالَ تعالى فيه: (**قل لـــو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذه القرآن، لا يأتونَ بمثله، ولَـــو كانَ بعضُهم لِبعضٍ ظهيراً**)وبذلكَ يكونُ اللَّهُ تعالى قد نوَّعَ تلكَ التّحدّيات الّتِي أثبتت مِصداقيَّةَ ما ادّعاهُ جلَّ شأنهُ في هذه الآيةِ الأولى من سورةِ البقرةِ والّـــتِي قالَ تعالى فيها (**ألم. ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيهِ هدىً للمتّقين.**).

والّذي أرجوهُ من القارئِ العزيزِ أن يتذكَّرَ دوماً أنَّهُ قد مضى على تلك التّحدّيات أربعة عشر قرناً من الزّمان.ولم يتمكّن أحدٌ من مُضارعةِ هذا الكتاب ولا الرّدِّ على تحدّياته.

القرآنُ الكريمُ في كتاب مكنون:

ومن ادّعاءاتِهِ سبحانه وتعالى أنَّهُ قد صاغَ هذا القرآنَ العظيمَ(**في كتاب مكنون**)وأنّهُ (**لا يمسُّهُ إلاّ المطهَّرون**).لقولهِ تعالى في سورة الواقعة (**فلا أُقسمُ بمواقعِ النّجوم.وإنَّهُ لَقسمٌ لو تعلمونَ عظيم. إنَّهُ لقُرآنٌ كريم.في كتاب مكنون.لا يمسّهُ إلاّ المُطهَّرون.تنزيلٌ من ربِّ العالمين.أ فبهذا الحديثِ أنتُم مُدهِنون.وتجعلونَ رزقكم أنَّكم تكذّبون؟**) الآيات ٧٥-٨٢ .

وهذا الادّعاءُ الّذي تضمّنتهُ هذه الآياتُ الكريمةُ أضخمُ أبعاداً وأهيبُ قوّة.فإنَّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ادّعى في هذه الآياتِ الكريمةِ أنَّ عطاءات القرآن ليست بمتناول فهمِ كلِّ إنسان.لكونها مكنونة بمعنى مخفيَّة ومستورة.فنبعُ زمزم سمّوها قديماً (**مكنونة**) لأنَّها كانت مستورةً عن الأعيُن.ولم يُزل عنها الخفاءَ إلاّ زمزمةُ أرجُلِ إسماعيلَ عليهِ السلام (محيط المحيط).وعليهِ فلا يتمكّنُ المرءُ من التقاطِ دُرَرِ العطاءاتِ المكنونة في هذا القرآن إلاّ (**المطهَّرون**) وليس المتطهِّرون.وإنَّ ما بينَ الكلمتينِ الأخيرتين فرقٌ شاسعٌ، وكبير.فالإنسانُ المُتطهِّر هو الّذي نظَّفَ جسدهُ التّرابيّ بالماءِ الطّاهر.أمّا الإنسانُ المُطَّهَّر،فهو المؤمنُ الّذي طهَّرتْ قِوى الغيب فؤادهُ من أوساخِ الحقدِ والحسدِ والجُبنِ والبخلِ وغيرها من الأوساخِ وعلى قدَرِ التزامهِ بأوامرِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ وبمواعظِهِ وبألفاظ أخرى أن يكونَ تقيّاً.

ثمَّ إنَّ اللَّهَ جلَّ اسمهُ قد شبَّهَ عطاءات هذا القرآنِ الكريم في الآيات سالفة الذّكر، شبَّهَ سِعتها وسعةَ الخبرة الّتي كانت وراءها، أقولُ شبَّهها (**بمواقعِ النّجوم**) الّتي أقسمَ بها في أوّلِ آيةٍ من **هذه** الآيات الكريمة التي أوردتُها آنفاً.أي أنَّهُ تعالى قدَّمَ مواقعَ النّجومِ شهادةً تشهدُ وتُصوِّرُ لأذهاننا مدى سعةِ عطاءاتِ

مضامين كتابهِ العزيز.ومن باب أنَّ (قَسمَ) اللّهِ تعالى بالأشياء المخلوقـــةِ يعـــني تقديمهُ لِتلكَ الأشياءَ الّتي أقسمَ بها بمثابةِ شهادةٍ تشهدُ على مصداقيَّةِ ما أقسمَ اللّهُ تعالى من أجلِ التّدليلِ عليه.وعلى هذه الصّورةِ يكونُ اللّهُ تعالى قد نبَّهَ الأذهـــانَ من خلالِ هذه الآياتِ سالفةِ الذّكرِ إلى ادّعاءٍ أوسعَ وأشملَ وأعظمَ من الادّعـــاءِ الأوّلِ الّذي أسلفنا ذكره. وقد تضمَّنَ هذا الادّعاء الجديد بندينِ اثنـين: **الأوّل**- أنَّ معانيَ آياتِ هذا القرآن الكريم مستورةٌ ويتبادرُ لِذهنِ قارئها معاني تُخـــالِفُ المقصودَ منها **والبندُ الثّاني**-حدَّدَ فئةَ النّاس الّذينَ باســـتطاعتهم الوصـــول إلى المعانيَ الحقيقيَّةَ للآيات القرآنيَّة.وهو الأمرُ الّذي ثبتَتْ مصداقيَّتهُ حتّـــى وقتنـــا الحاضر.فلم يكتشفْ أحدٌ من مفسّريّ هذه الأمَّة وُجودَ منهجيَّة وأصول لهـــذا القرآن المجيد لِيلتزموا بها عندَ قيامهم بتفسيرِ آياتهِ ومن بابِ لأنَّ هذا القـــرآنَ الكريمَ (**مكنون**).لذلكَ نلاحظهُم وقد ابتدعوا خمسَ طرائقَ واختلفوا فيما كانوا يفهمونهُ من هذه الآيات.فلو لم تكن معاني هذا الكتاب مكنونـــة أي مخفيَّـــة، فلماذا وُجدَ هذا العددُ الكبيرُ من التّفاسيرِ وهذا العددُ الكبيرُ من المفسّـــرينَ ولَمَ وقعَت فيما بينهم اختلافاتٌ في الفهمِ والتّفسيرِ إذا جمعناها تحتاجُ عندَ جمعها إلى مئات المجلّدات؟؟

القرآن قد اشتملَ على نبوءات غيبيَّة:

ثمَّ إنَّ ما يميِّزُ هذا (**الكتاب**) عن الكتبِ الأرضيَّةِ العاديَّةِ أنَّهُ قد وردَ فيـــهِ من النّبوءاتُ الغيبيَّةُ ما لا يتَّسعُ لذكرها هذا المقام.ولذلك تراني سأكتفي بذكـــرِ بعض النّبوءات المشهورة والّتي تحقَّقت بشهادةِ أكثريَّةِ النّاسِ في العالم.فمن تلكَ النّبوءاتُ المشهورةُ والمُتَّفقُ على تحقُّقِها:

١-نبوءةُ فتح مكَّة المكرَّمة:وإنَّ ما يُثبتُ أنَّ هذا (**الكتاب**)هو كتـــابٌ غيرُ عاديٍ هو أنَّهُ قد وردَ فيهِ وعدٌ إلهيٌّ في سورةِ الإسراءِ الّتي كانَ قد أنزلها اللّهُ جلَّ شأنهُ في الدّورِ الأوّلِ من الدّعوةِ الإسلاميَّةِ في مكّةَ يومَ كانَ محمَّـــدٌ (ص)

ومن آمن معهُ في أشدِّ حالات اضطهاد قومهم إيّاهم.وهذا الوعدُ الإلهيُّ كـــانَ متعلّقاً بالهجرةِ من مكّةَ إلى المَدينةَ ومنَ ثمَّ بعودةِ رسولُ اللّهِ تعالى منها فاتحاً لمكَّةَ الّتي اضطرَّهُ أهلها إلى الهجرةِ منها وإلى تركِ دارهِ وجميعَ ما كانَ يملكُ فيها مـــن أشياء.وقد أتيتُ على ذكرِ هذا الوعد وما تبعهُ من أحداث (في ظلالِ تفســـيرِ سورةِ الإسراء من صفحة (١٤٤-١٥٤) وأكتفي هنا بذكرِ الآيـــاتِ القرآنيَّـــة وبتلخيصِ مضامينها.

فلقد قالَ تعالى هناكَ (**ومن اللّيلِ فتهجَّد بهِ نافلةً لـــكَ عســـى أن يبعثكَ ربُّكَ مقاماً محموداً . وقل ربّي أدخلني مُدخلَ صِدق وأخرجني مُخـــرجَ صِدق واجعل لي من لدُنكَ سُلطاناً نصيراً. وقل جاءَ الحقُّ وزهقَ البـــاطلُ إنَّ الباطلَ كانَ زهوقاً.ونُنزّلُ من القرآنِ ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ ولا يزيـــدُ الظّالمينَ إلاَّ خَساراً.**).

ففي الآيةِ الأولى أمرَ اللّهُ تعالى رسولهُ الكريم وهو يراهُ يُعاني من اضطهاد قومِهِ إيّاهُ أن يدأبَ على القيامِ ليلاً لصلاةِ التَّهجُّدِ لِيدعو ربَّهُ حتّى يبدّلَ حالـــهُ الّذي كانَ فيهِ وليهبهُ بينَ قومهِ منزلةً رفيعةً بعدَ أن كانَ في نظرهم غيرُ صادق في نبوَّته.وليقفَ بعدَ هجرتهِ فاتحاً لمكَّةَ وقائلاً (**جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ البـــاطلَ كانَ زهوقاً**).ولذلكَ أضافَ تعالى بعدَ ذلكَ يقول (**ونُنزّلُ من القرآنِ ما هـــو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ ولا يزيدُ الظّالمينَ إلاّ خساراً**).فليراجع القارئ الكـــريمُ تفسيرَ هذه الآياتِ في كتاب (**في ظلال تفسير سورة الإسراء**).

فالّذي حدثَ بعدَ نزولِ هذه الآيات المذكورة أعلاه أنَّ اللّهَ تعالى أمـــرَ رسولهُ الكريم بالهجرة إلى المدينة. ومن ثمَّ أعادَهُ بعدها فاتحاً لمكَّةَ نفسها علـــى رأسِ عشرةِ آلافِ صحابيِّ وبذلكَ تكونُ قد تمّت هذه النّبوءةُ حرفاً بحرف.

وقد فسَّرت الآية ٨٥ من سورة القصَص مضمونَ هذه الآيات الكريمة وذلكَ من خلالِ قولهِ تعالى فيها (**إنَّ الّذي فرضَ عليكَ القرآنُ لَرادُّكَ إلى مَعادٍ،قل ربّي أعلَمُ مَن جاءَ بالهُدى ومَن هو في ضلالٍ مّبين**).

٢-نبوءةُ سورة الرّوم:

ومن المعلومِ تاريخيّاً أنّهُ كانَ لِدولةِ فارس تأثيرها البارز في نواحي كثيرة من شبه الجزيرة العربيَّة قبيلَ ظهورِ الدّين الإسلاميّ الحنيف.وفي سنوات الدّورِ المكّيِّ حدثت حربٌ ما بين الفرسِ وما بينَ الرّوم.ففرحَ أهلُ مكّةَ لانتصارِ الفرسِ على الرّوم.وقد أنزلَ اللَّهُ تعالى سورةَ (الرّوم) في تلكَ الفترةِ من الزّمان واستهلّها اللَّهُ تعالى بآيات اشتملَت على نبوءةٍ واضحةِ المعاني بحقِّ انتصار الرّومِ على الفرسِ بعدَ تلكَ الواقعة لقولهِ(**في بضعِ سنين**).فقالَ اللَّهُ تعالى مُستهلاً السورةَ المذكورةَ بقولهِ تعالى(**ألم.غُلِبتِ الرّومُ.في أدنى الأرضِ وهم من بعدِ غلَبِهم سيغلِبون.في بضعِ سنينَ،للّهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرحُ المؤمنونَ.بنصرِ اللّهِ،ينصُرُ مَن يشاءُ وهو العزيزُ الرّحيم.وعدَ اللّهِ لا يُخلِفُ اللّهُ وَعدهُ ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمون.**).

وإنَّ هذه النّبوءةُ أيضاً يكادُ يُجمعُ المفسّرونَ القدماء على تحقّقِ ما وردَ فيها من نبأٍ ومن وعدٍ بنصرةِ اللّهِ للمؤمنين.وقد لزمَ من ذلكَ كُلّهِ النّظرَ إلى هذا (**الكتابَ**) المشتهرَ باسم (**القرآن**) أن يُنظرَ إليهِ على أنّهُ كتابٌ غيرُ عاديّ.

٣ :نبوءةُ سورة الكهف:

وقد أثبتُّ في كتاب (في ظلالِ سورةِ الكهفِ) أنَّ اللّهَ تعالى قد أنبأَ فيها عن نهضةِ المسيحيَّةِ الغربيَّة المُعاصرة.وبإمكانِ القارئ مُراجعةَ الكتاب المذكور للتأكُّد من مصداقيَّةِ ما ذكرتهُ آنفاً. ويكفي أن أنبِّهَ هنا إلى أنَّ المفسّرينَ القدماء فهموا قصَّةَ أهلِ الكهفِ على ظاهرِ ألفاظها. على حينِ أنَّها قصَّةٌ اختصرَ اللَّهُ تعالى من خلالها تاريخَ نشوءِ المسيحيَّة وبأسلوبٍ بلاغيٍّ مُعجزٍ وأنبأَ في الوقتِ

نفسهِ في تلكَ القصَّة عن النَّهضة الحديثة المُعاصرة وعن المصيرِ الّذي ستؤولُ إليهِ في نهايةِ المطاف.وإنَّ ما فهمهُ المفسّرونَ القدماء من هذه القصَّة هو أقربُ منهُ إلى الأسطورةِ منهُ إلى الحقيقة الواقعة.والذي تسبَّبَ في ذلكَ هو عدمُ اطّلاع أولئكَ المفسّرون على منهجيَّةِ القرآن الكريمِ وأُصولِ تفسيره.

شرط تدبُّر آيات القرآن الكريم:

وممّا يُثبتُ أنَّ هذا الكتابَ السماويَّ المقدّس ليسَ هو بكتاب عاديٍّ هو أنَّ ما يتبادرُ لذهنِ قارئِ آياتهِ الكريمة من معاني غالباً ما تكونُ غير صحيحة.ويكونُ المعنى المقصودِ من تلكَ الآية غير ما تبادرَ منها لذهنه.وهذا هو السببُ في أنَّ اللّهَ تعالى أمرنا بتدبُّرِ آياتِ هذا القرآن المجيد بمنهجيَّةِ القرآن وبأُصولِ تفسيرهِ وذلكَ من أجلِ أن نصلَ إلى المعنى الحقيقيّ المقصود.فهو تعالى قال في الآية ٢٩ من سورةِ (ص): (**كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مُباركٌ لِيدّبروا آياتهِ وليتذكَّرَ أولوا الألباب**). وقالَ من جهةٍ أخرى (**أفلا يتدبَّرونَ هذا القرآن أم على قلوبٍ أقفالُها؟**).وإنَّ هذه الآيات بحاجةٍ إلى شرحٍ لِيحيطَ القارئُ بدلالاتها.وإنَّ هذه العمليَّة أؤجّلُ القيامَ بها إلى حينِ سأُحاولُ فيما بعدُ الكلام عن عمليَّةِ التّدبُّرِ المطلوبة.



الفصلُ الثاني

فلسفةُ تسميةِ الكتاب (قرآن)و(فُرقان)

أُجيبُ على هذا السؤال الهام باختصار فأقول:إنَّ كلمةَ (**قرآن**) هي مصدر (قرأ).وقد استعملَ اللّهُ جلَّ شأنهُ هذه الكلِمةَ على سبيلِ وَصفِ كتابهِ العزيز، وليسَ كاسمٍ له.وقد أوردَ تعالى هذه الصفةَ على وزن (فعلان) هذه التّفعيلَةُ الّتي تُفيدُ معنى الكثرةَ في الشيءِ الموصوف.ومن بابِ أنَّ هذا الكتابَ السماويَّ كثيرُ العطاء ولذلكُ وُصِفَ بصفةِ (**الكريم**) أيضاً فنقول: (**قرآنٌ كريم**) بمعنى أنَّهُ كتابٌ مِعطاءٌ غزيرُ المعاني والمعارف.كما تعني كلمةُ (**قرآن**) أنَّ هذا الكتابَ سيحفظهُ المؤمنونَ ويقرؤونهُ بكثرةٍ ظاهرة.وعليهِ فإنَّ هذه الصّفة تحملُ نبوءةً قد تحقّقت ونتلمّسُ مِصداقيّتها دوماً وعلى مُختلفِ الأصعدةِ والمستويات.فهيَ صفةٌ ما امتازَ بها كتابٌ سماويٌّ من قبل هذا الكتاب.

ونتساءلُ عمّا فهمَهُ كبارُ المفكّرينَ من كلمةِ (**قرآن**)؟

فقد نُقِلَ عن الجاحظَ قوله (سمّى اللّهُ كتاباً مُخالفاً لِما سمّى العربُ كلامهم على الجملِ والتَّفصيل.سمّى جُملتهُ (قرآناً)، كما سمّوا ديواناً.وسمّى بعضَهُ (سورة) كقصيدة.وسمّى بعضَ السورةِ (آية) كالبيتِ من القصيدة.وسمّى آخرها (فاصلة) كقافية.).

وإنَّ قولَ الجاحظ آنف الذّكر،نقلهُ الأب حدّاد الّذي عاشَ في القدس وعلى رأسِ هذا القرن

كما نقلَ لنا قولَ عميدِ الأدب العربيّ الدّكتور طهَ حسين الّذي قــال (كــلامُ العرب شعرٌ ونثرٌ وقرآن. فالقرآنُ ليسَ بالشعرِ وليسَ بالنّثر: إنَّهُ نــثرٌ وشــعرٌ معاً،إنَّهُ قرآن (**وما علّمناهُ الشعرَ وما ينبغي لهُ،إن هو إلاّ ذكرٌ وقُرآنٌ مبين.**).

فالأب حدّاد عقَّبَ على قولِ هذينِ الأديبينِ العملاقينِ وقال (وفــاهَم أنَّ هذه الأسماء الجديدة الّتي تصفُ القرآنَ جُملةً وتفصيلاً منقولةٌ عن العبريَّةِ بطريــق السريانيَّة.ولكنَّها أوصافٌ تُميِّزُ القرآنَ عن سائرِ كلامِ العرب.) صفحــة ٣٢٨ والمؤسف أنّ الأب حدّاد زعمَ هذا الزعمَ ولم يوردِ أيَّ دليلٍ يُثبتُ مِصداقيَّته.

وأنا قد بيَّنتُ رأيي وهو أنَّ كلمةَ (**قرآن**) قد وردت كصفةٍ لهذا الكتابَ السماويِّ العظيمَ. ولم تُستعمل في القرآنِ المجيدِ كاسمٍ ذاتيٍّ له.فلاسمُ الذاتيُّ هــو كلمةُ (**كتاب**) الّتي وردت في أوّلِ آيةٍ من سورةِ البقرةِ وهي الآيةُ الّتي أوردناهــا من قبل.وبذلكَ يختلفُ رأيي معَ آراء جميعِ هؤلاءِ الّذينَ ذكرهُم آنفاً. فحجَّــتي على الجاحظِ أنَ كلمةَ (ديوان) تعني مُجتمعَ الصّحف والقصائد، وتُجمعُ علــى دواوين (محيط المحيط).ولذلكَ فما أخطأ الّذينَ قالوا إنَّ عمرَ الخطّاب رضي اللّــهُ عنهُ كانَ أوَّلَ الّذينَ رتّبوا الدّواوين.وعليهِ فلا يصحُّ تشبيه كلمةِ (قرآن) بكلمــةِ (ديوان). كما لا يصحُّ رأيُ المرحوم (طه حسين) بأنَّ القرآنَ هو نــثرُ وشــعرٌ معاً لِمخالفةِ هذا الرأي دلالةَ الكلمة الّتي نزلت على وزن فعلان.

وعلى هذه الصّورةِ فقد عادَ هذا (**الكتاب**) السماويُّ مُنفرداً ومتميِّزاً في أسلوبِ تسميتهِ وفي عَرضهِ للمواضيعَ التي اشتملَ عليها عمّا هو معروفٌ لــدى الكُتّابِ والشعراءِ وبما لم يُعهد عن أديبٍ وشاعرٍ من قبلِ إنــزالِ اللّــه تعــالى إيّاه.الأمرُ الّذي تسبَّبَ في تشتُّتِ الآراء الّتي استعرضناها والّتي أثبتنا عدم صحَّــةِ مَضامينها.

ثمَّ إنَّ كلمةَ (سورة) في اللُّغة، هي كلمةٌ تُطلقُ على القطعةِ المُستقلَّةِ مــن الشيء ، كما تعني المنزلةَ والشرفَ وما طالَ من البناء إلى جهةِ السماء وحسُــنَ

أيضاً (محيط المحيط).وهذه المعاني جميعها سُمّيت الفصولُ الّتي تألَّفَ منها هذا (الكتابُ) السماويُّ الموصوفُ بكلمة (قرآن).وليسَ تشبيهاً بالقصيدةِ عندَ العرب وعلى حدِّ ما نُقِلَ عن المرحوم الجاحظ.

والّذي أريدُ قولهُ بعدَ هذا الّذي ذكرناهُ. هو أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ لم يستعمل لِوصفِ (الكتاب) العزيزَ صفةً واحدةً هي صفةُ (قرآن). بل وصفهُ اللّهُ تعالى بعدَّة أوصاف.فمن جُملةِ تلكَ الأوصاف أنّه وصفهُ بكونهِ(فُرقان)والقصدُ من ذلكَ الدّلالةُ علَى أنَّ جميعَ ما اشتملَ عليهِ كتابُ اللّهِ من معارفَ ومعلوماتٍ تمثّلُ(الحقُّ) من بابِ أنّها فرّقت بين ما هو حقٌّ وبينَ ما هو باطلٌ، وعلى مُختلفِ الأصعدة والمستويات.

فلسفةُ تسميتهِ (ذكر):

كذلك وصفَ اللّهُ تعالى كتابهُ العزيزُ بصفةِ (الذّكر).بداعي ما لهذه الكلمة من معاني عظيمة الدّلالة.فمن دلالاتها أنّها تعني حِفظُ الشيءِ والتّفوّهُ بهِ وبحيثُ يجري على اللّسان.وقد أُشيرَ بهذا المعنى إلى ظهورِ طبقةِ حُفّاظ هذا الكتاب الذّكر، وإلى التّفوّه بهِ تلاوتهِ وجريان آياتهِ على كلِّ لسان.ومن دلالاتِ كلمة (ذكر) أنّها تعني الشرفَ والصّيتَ والثّناءَ والدُّعاء (محيط المحيط).وقد أشارَ اللّهُ تعالى من خلالِ هذه الدّلالاتِ إلى أنَّ هذا الكتابَ سيُشرِّفُ هذا القومَ الذي اختصَّهم ربُّهم بإنزالِهِ على أحدِ رجالاتهم العظام.ويتسبَّبُ بنشرِ صيتِهم في الآفاق ويجلبُ عليهم كلَّ ثناء وليصبحَ هذا الكتابُ بينَ أيديهم أداةَ دُعاءٍ مستجاب بين يدي اللّهِ الواحدِ الأحد الّذي لا شريكَ لهُ في مُلكه.فللإشارةِ إلى جميعِ هذه الدّلالات قد وصفَ اللّهُ جلَّ شأنهُ الكتابَ بأنّهُ (ذكرٌ) لكَ يا محمَّد ولِقومك.

فلسفةُ تسميتهِ (مُباركٌ):

كذلكَ وصفَ اللّهُ تعالى كتابهُ العزيز بصفةِ(**مباركٌ**)بمعنى أنّهُ كتابٌ نفّاعٌ ينفعُ كلَّ إنسانٍ يعملُ على تعاليمه ويتدبّرهُ بقصدِ الانتفاعِ بما اشتملَ عليهِ من علوم.

فلسفةُ تسميتهِ (الحكيم):

كذلكَ وصفَ اللّهُ تعالى كتابهُ العزيز بكونهِ (**الحكيم**) وبمعنى أنَّ هذا الكتابَ العزيزَ إذا قدَّمَ حُجَّةً وبرهاناً، فإنَّهُ يقدِّمُ حُججاً وبراهين قاطعة الدّلالةِ، وبحيثُ لا يجدُ الباحثُ أيَّةَ وسيلةٍ منطقيَّةٍ ومعقولةٍ لِدحضها أو الرّدِّ عليها.وقس على هذه الصّفاتِ ما وردَ من أوصافٍ أخرى وصفَ اللّهُ تعالى بها هذا (**الكتاب**) العزيز.

الفصـــلُ الثالث

التدبُّرُ لا يكونُ إلاّ وِفقَ منهجيّةٍ وأُصولِ تفسير

أقول:إنّنا إذا انطلقنا من كونِ هذا الكتـــاب الســـماويّ كتابـــاً غـــير عاديّ.وأنَّ اللّهَ الّذي أنزلهُ قد وصفهُ بجملةِ أوصاف يُفهمُ منها أنَّ هذا الكتـــابَ بستانٌ إذا عرفنا أوّلهُ يعسرُ علينا أن نصلَ إلى حدودهِ النّهائيَّة.وفيهِ مـــن كـــلِّ فاكهةٍ صنوان.والنَّجمُ والشجرُ فيهِ يسجُدانِ للّهِ الّذي أبدعَ هذه الرّوضةَ الغنّاء. وأنَّ كلَّ إنسانٍ يغوصُ في بحرِ هذه الكتاب، يزدادُ إيماناً على إيمانهِ وتبتعدُ عنـــه ظنونُ السوءِ وكلُّ ريبٍ وتُهمةٍ ربّما تُراودُ أفئدةَ مكذّبيهِ ورافضيه.

أقولُ: إنّنا إذا انطلقنا من هذا المُنطلق.وسمعنا أنَّ اللّهَ تعالى يأمرُ ويقولُ في الآيات ٢٧-٢٩ من سورةِ (ص): **(وما خَلقنا السماءَ والأرضَ وما بينـــهما باطلاً،ذلكَ ظنُّ الّذينَ كفروا، فويلٌ للّذينَ كفروا من النّار.أم نجعلُ الّذيـــنَ آمنـــوا وعملـــوا الصّالحـــات كالمفســـدينَ في الأرض أم نجعـــلُ المُتّقـــينَ كالفجّار. كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مُبارَكٌ، لِيدّبّروا آياته،وليتذكَّرَ أولوا الألباب.)**

أقولُ إذا أردنا تفحُّصَ دلالاتِ هذه الآيات وتدبُّرَ معانيها.نُدرِكُ عنـــد كلِّ خُطوةٍ نُقدمُ عليها على هذا الطّريقِ أنّنا لا نرتكزُ في عمليَّةِ تفحُّصنا وتدبُّرنا هذه على أرضٍ ثابتةٍ ما لم نكن مُرتكزينَ في ذلكَ إلى منهجيَّةٍ وأصولٍ نابعةٍ مـــن هذا الكتابِ نفسه، وليسَ من جهةٍ خارجةٍ عنه.

ذلكَ أنّهُ تُواجهنا أسئلةٌ كثيرةٌ خلالَ إجراءِ عمليَّةِ تدبُّرنا المُشارُ إليـــها: فكيفَ نصِلُ إلى فهمِ كلِّ فقرةٍ من فقراتِ هذه الآياتِ الكريمةِ؟ وكيفَ نربـــطُ بينَ كلِّ فقرةٍ وفقرةٍ برابطةٍ موضوعيَّةٍ؟ وما هي المنهجيَّةُ والأصولُ الّتي ينبغــي التَّقيُّدَ بها عندَ كلِّ خُطوةٍ نقومُ بها على هذا الطَّريقِ؟والأهمُّ من ذلكَ كلِّه هو أن نُدركَ حكمةَ ومعنى هذه النّقلة التي حدثت ما بـينَ مضمــونِ الآيتــينِ الأولى والثّانية، وما بينَ مضمونِ الآيةِ الثّالثةِ الّتي قالَ اللّهُ تعالى فيها (**كتــابٌ أنزلنــاهُ إليكَ مُبارَكٌ، لِيدّبّروا آياته، وليتذكَّر أولوا الألباب.**)؟ ثمَّ ما معنى قولهُ تعــالى (**لِيدَّبّروا آياته**) ؟فهل أنَّ لعمليَّةِ تدبُّرِ الآياتِ القرآنية مفهوماً خاصّا بها وشروطاً مُعيَّنة ؟ لذلكَ سأحاولُ الإجابةَ على هذينِ السؤالينِ قبلَ كلِّ شيءٍ لعلَّ ذلــكَ يُساعدنا على طريقِ سعينا لمعرفةِ منهجيَّةِ القرآنِ وأصولِ تفسيرِه.

ونبدأُ من فهمِ معنى كلمة (**تّدبُّر**) ؟فقد وردَ في التّعريفات: التّدبُّر عبــارةً عن النّظر في عواقبِ الأمور وهو قريبٌ من التّفكُّر. إلاّ أنَّ التّفكُّرَ تصرُّفُ القلب بالنظر في العواقب. ووردَ في الكلّيات:إنَّ التدبُّرَ هو تصرُّف القلب بـــالنّظر في الدّلائل، بينما التّأمّل هو استعمالُ الذِّكر.ووردَ في (محيط المحيـــط): إن أنــتَ أدخلتَ الفاء على كلمةِ (**تدبّر**) وقلتَ لشخصٍ (**فتدبّر**) فأنتَ تدفعُـــهُ حينئـــذٍ وتؤكِّدُ عليهِ أن يُحاولَ فهمَ ما حقَّقتهُ وما قرَّرته.ووردَ في (معجـــم مقــاييس اللّغة): الدّال والباء والرّاء أصلُ باب (دَبَرَ) ومعظمهُ في قياسٍ واحدٍ وهو آخـــرُ الشيءِ وخلفه،وخلاف قبله.وتشذُّ عنهُ كلماتٌ يسيرة.والتّدبير أن يُدبّرَ الإنســانُ أمره بمعنى أن ينظرَ فيما تصيرُ إليهِ عاقبتهُ وآخره وهو دُبُره.تقولُ دبَّرتُ الحديــثَ عن فلان، إذا حدَّثتَ بهِ عنه.لأنَّ المحدِّثَ الآخر يدبّرُ الأوّل ويجيء خلفه.والدَّبــرُ المالُ الكثير.

فإن نحنُ استقرأنا هذه الأقوال جميعها،نفهمُ من كلمةِ (**التّدبُّر**) دلالتـــها على النّظرِ في عواقبِ الأمورِ الّتي نتدبَّرها، وأن نُدخل قلبنا في مُعادلـــةِ هـــذه

العمليَّة ليتولَّدَ عندنا انشراحُ الصّدر والاطمئنان إلى ما توصّلنا إليـــه.وإنَّ هـــذه الأمورُ الّتي تتطلّبُها عمليَّةُ التّدبُّر تُنبِّهنا من طرف خفيٍّ إلى حقيقةٍ هامّةٍ وهـي أنَّ فهمَ دلالات ومعاني آياتِ القرآن المجيد لا تحصلُ من خلالِ أخذنا لها بما يتبـادرُ لأذهاننا من معاني آيةٍ بعينها وكما هو حاصلٌ حينَ النّظـــر لفـــهم أيّ كـــلامٍ عاديٍّ.بل إنَّ هذا المعنى المُتبادر لا يكونُ على الأغلب هو المعنى الحقيقيّ للآيـــةِ الكريمةِ خصوصاً المُصاغة بصياغةٍ بليغةٍ .وأنَّ الوصولَ إلى المعنى الحقيقـــيِّ هـــو بحاجةٍ لاستيفاءِ الأمور الّتي دلَّت عليها كلمةُ **(التَّدبُّر)**.

وهل بالإمكانِ أن نقومَ بتلكَ الخطوات الّتي تتطلّبُها عمليَّةُ**(التّدبُّر)** مـــن دونِ منهجيَّةٍ ومن غيرِ أُصولٍ نلتزمُ بها عند قيامنا بتلكَ الخُطـــوات؟؟الجـــوابُ بسيطٌ وهو أنَّهُ يستحيلُ تدبُّرُ هذه الآياتِ القرآنيَّة بدونِ منهجيَّةٍ واضحةِ المعـــالم ومن غيرِ الاستناد إلى أصولٍ محدّدة لِتفسيرِها.

فإن نحنُ نظرنا إلى هذه المُتطلّبات على أنّها لا ضرورةَ لها.نكـــونُ قـــد تناسينا أنَّهُ كانَ قد ثبتَ لدينا بأنَّ هذا القرآنَ هو كتابٌ غيرُ عاديٍّ ، وتناسَـــينا أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ في كتابٍ مكنـــون.وتناســـينا وُجـــودَ نبـــوءات فيـــهِ أيضاً.وتناسينا حكمةَ وصفِ هذا الكتاب بصفات عديدة منها وصفُهُ بأنَّهُ (قرآنٌ كريم).وتناسينا فوقَ ذلكَ كلِّهِ بأنَّ هذا الكتابَ قدْ اشتملَ على تحدّياتٍ تحـــدّى تعالى من خلالها النّاسَ على أن يأتوا بكتابٍ مثلهِ ولو كانَ بعضهم لبعضٍ ظهيراً.

وهل يتميَّزُ هذا الكتابَ السماويَّ بجميعِ ما ذكرناهُ من مُميِّزات،لـــو لم يكنِ اللَّهُ جلَّ شأنهُ قد صاغهُ في قُمَّةِ الفصاحةِ والبلاغةِ وأنَّهُ جعلهُ القرآنَ الفرقانَ وبحراً يفيضُ بالمعاني والدّلالات الّتي كلما غاصَ المتدبِّرُ في بحرِها كلّما تفتَّحـــت أمامهُ آفاقٌ وعطاءاتٌ جديدةٌ مُذهلةٌ للعقولِ ودُررٌ وجواهر تأخذُ بالأبصار؟؟

ألا إنَّ كتاباً على هذا المستوى من الرِّفعةِ والمنزلةِ يستحيلُ أن نتمكَّنَ من تدبُّرِ آياتهِ إذا لم تكن بينَ أيدينا منهجيَّةٌ وأصولُ تفسيرٍ تُساعدُنا علـــى بلـــوغ

معرفةِ ما اشتملَ عليهِ من معارفَ وعلومٍ ومضامينَ حقيقيَّة.خصوصاً وأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد جعلهُ خاتمةَ الكتبِ السماويَّةِ المُنزلةِ ولتصلُحَ تعاليمـــهُ لكـــلِّ زمـــانٍ ومكان.

التّحدّيات القرآنيَّة مؤشِّرٌ وُجود منهجيَّةٍ وأصول:

فإن نحنُ علِمنا بوجود خمسِ تحدّيات قرآنيَّةٍ في هذا الكتاب العظيم.فـــلا يكونُ هناكَ من معنى لِتلكَ التَّحدِّيات القرآنيَّة إلاّ أن تكونَ مؤشِّراً على وجـــودِ منهجيَّةٍ لهذا القرآنِ الكريمِ وأصولِ تفسيرٍ تُميِّزهُ عن المعروفِ من كُتُبِ الأدبـاء؟ فالتّحدّي الموجَّه إلى أهلِ اللّغةِ العربيَّة، لا يعني أنَّ اللَّهَ تعالى يتحدّاهم أن يـــأتوا بكلامٍ مؤلَّفٍ من مُسندٍ ومن مُسندٍ إليهِ والموضَّح في بابِ النّحوِ وأحكامه.فلـــو كانَ التّحدّي ينحصرُ في هذه النّاحيةِ لكانَ من السهلِ على الكتّابِ والأدبـاء أن يُسارعوا إلى الدّخولِ في هذه المباراةِ الّتي فتحتها التّحدّياتُ القرآنيَّـــةُ بســـهولةٍ تامّة.

ألا إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد تحدّى أهلَ اللّغةِ العربيَّةِ بكتابٍ اشتملَ على جميعِ فنونِ اللّغةِ العربيَّة من حقيقةٍ واستعمالاتها، إلى مجازٍ واستعمالاتهِ، إلى اســتعاراتٍ واستعمالاتها، إلى كناياتٍ وغيرها من فنونِ اللّغةِ وعلمِ المعاني والبيان.بالإضافـــةِ إلى أنَّهُ تعالى قد تحدّاهم أن يتضمَّنَ كتابهم ما تضمَّنهُ القرآنُ الكريمُ من علـــومٍ تفصيليَّةٍ في مختلفِ مجالاتِ العلومِ الّتي تطرَّقت لها آياتهُ.بل وتحدّاهم حتّى في الفنِّ الّذي نُسمّيهِ في عصرنا بفنِّ الاختزال.وقد جعلَ الأحـــرُفَ المقطّعـــةَ عنـــاوينَ لسوره.فكانَ جلَّ شأنهُ يأتي بحرفٍ أو أكثر مُختزلينَ من أسماءِ اللَّهِ الحسنى وبمـــا يتناسبُ والبحثُ الّذي يقومُ فيهِ في تلكَ السورةِ بالذّات.وهو أمرٌ كتبتُ فيـــهِ كتاباً أسميتهُ(**فنّ الاختزالِ في القرآن الكريم**).فهل يُعقلُ أن يستطيعَ مفسرٌ بحّاثـة أن يتوصّلَ إلى المعاني الحقيقيَّةِ لكتابٍ هو على هذا المستوى من العظمةِ والسبكِ

والبيانِ من دونِ أن يستندَ إلى منهجيَّةٍ وأصولٍ قد سنّها اللَّهُ عزَّ وجلَّ نفسُهُ وهو الّذي أنزلَ هذا الكتابَ مُتضمِّناً هذا التّحدّي المجسَّم؟؟

القرآنُ مُعجزةٌ خالدةٌ ومحفوظةٌ فلا يخلو من منهجيَّةٍ وأُصولٍ:

ثمَّ إنَّ اللَّهَ جلَّ شأنُهُ قد وعدَ محمّداً (ص) بالمحافظةِ على هذا (**الذّكــــر**) الّذي أنزلهُ عليهِ وقال (**إنّا نحنُ نزَّلنا الذّكرَ وإنّا لهُ لَحافظون**) وقد جعل هــــذا الذكرَ مُعجزةَ محمَّدٍ (ص) الخالدةَ الباقية على مدى الدّهر.وها هو قد مضى على نزولِ هذا الكتاب المقدّس أربعةَ عشر قرن من الزّمان ومترلة القرآن تعلو وتزداد رفعةً مِصداقَ التّحدّيات القرآنيَّة التّي اشتملَ عليها هذا الكتابُ (**الذّكر**) وقائمةٌ ما قامَ هذا الكتابُ وبقي أهلهُ على وجهِ البسيطة.ومِصداقاً لمعنى كلمة (**الذّكر**) وهو الرفعة والشرفَ والعلوّ.دلالةً على أنَّ رفعةَ وشرفَ وتقدُّمَ الإنسان وارتقاؤهُ مرتبطٌ كلٌّ ذلكَ بفهمِ مضامينهِ وبالعمل على تعاليمه.وهل يكونُ هذا الكتــابُ مُعجزةً خالدةً على وجهِ الدّهرِ وبهذا المفهومِ ويُترلهُ اللَّهُ تعالى بــدونِ منهجيَّــةٍ وأصول؟؟ لا وألفُ لا.

ألا إنَّ هذه المؤشّرات والموجبات جميعها تستلزمُ أن يكونَ جميعُ مــا وردَ في كتابِ اللَّهِ العزيزِ من بيانٍ قد استند اللَّهُ الّذي أنزلهُ إلى ما افترضنــــاهُ مــن منهجيَّةٍ وأصولِ تفسير.وكانَ علينا أن نفترضَ أيضاً أنَّ هذه المنهجيَّــة وتلــكَ الأصول قد أوردها اللَّهُ جلَّ شأنُهُ بطريقٍ مُعجزٍ أيضاً وليسَ على شاكلةِ ما يفعلهُ الكتّابُ الأرضيّون. وكانَ من واجبنا نحنُ أن نكتشفَ معالَمَ ذاكَ الإعجاز علــى هذا الصّعيدِ أيضاً.فهذا هو الأمرُ الّذي دفعَ بي لأُمضي فترات ليست بالقليلة وأنا أدعو وأبحثُ عن معالمِ منهجيَّة وأصولِ تفسيرِ هذا (**الكتاب**) السماويِّ المبــارك الّذي أنزلهُ بارئنا لصالحِ النّاسِ جميعهم، وليسَ لصالحِ المسلمينَ وحدهم.فاللَّـــهُ المُستعانُ وحدهُ في هذا المجال.

منهجيَّةُ هذا القرآن الكريم مَنهجيَّةٌ علميَّةٌ:

فإن نحنُ دقّقنا وتفحّصنا آيات هذا القرآن العظيم.يتبيَّنُ لنا أنَّ اللّهَ جلّ شأنهُ قد اختطَّ مَنهجيَّةً علميَّةً في كلِّ ما بيَّنهُ وبحثهُ وأنزلهُ من أحكامٍ وتعاليم في كتابهِ العزيز.وذمَّ في الوقتِ نفسهِ كلَّ إنسانٍ ابتعدَ عن هذه المنهجيَّةِ في حياتهِ واتّصفَ بصفةِ الجهلِ في تفكيره وفي مُعتقده وفي سلوكهِ اليوميّ.

أ فلم نُلاحظ كيفَ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد استهلَّ كتابهُ العزيزُ بالإشارةِ إلى هذه المنهجيَّةِ العلميَّة حينَ أتى بالأحرُفِ المقطَّعةِ (آلم) والّتي أوردَ بعضُ المفسّرينَ القدماء،فيما أوردوهُ من تفاسير، سنّيّينَ كانوا أو شيعة،حديثاً عن رسول اللّهِ (ص) أنَّهُ سُئلَ عن معنى (آلم) فأجابَ بأنَّ معناها أنا اللّهُ العليم؟ بمعنى أنَّ الألف مُختزلة من كلمةِ (أنا).وأنّ اللّام مختزلةٌ من كلمة (اللّه).وأنَّ الميم مختزلة من كلمة (عالمٌ أو عليم)؟ أي أنَّ اللّهَ تعالى قدَّمَ ذاتهُ المقدَّسةُ الّتي أنزلت هذا الكتابَ المباركَ على أنَّ (العلمَ) وما يمتُّ إليهِ من منهجيَّةٍ وأسلوب علميٌّ لبيانِ ما يريدُ تعالى بيانهُ هو المنهجُ الّذي انتهجهُ فيما أتى بهِ جميعُ ما تضمَّنهُ هذا القرآنُ الكريمُ من تعاليمَ وأحكامٍ ومعارفَ وعلوم.فاللّهُ تعالى قد نبَّهَ من خلالِ مُعطيات هذه الأحرُف (الم) **إلى ضرورة اليقين بأنَّ منبعَ الحقائق العلميَّة هو ذاتُهُ عزَّ وجلّ.فهذا شرطٌ اشترطهُ اللّهُ على كلِّ مؤمنٍ بهذا الدّينِ الإسلاميِّ الحنيف**.وقد أشرتُ إلى هذه الحقيقةَ في مؤلّفي(خصائص القرآن الكريم)ثمَّ إنَّ سورةَ البقرة نفسها قد اشتملت على علومٍ وعلى قِصصٍ تاريخيَّةٍ حقيقيَّةٍ، وليسَ على أساطير أو مزاعمَ غير مُسندةٍ بأدلَّةٍ علميَّةٍ وبراهين دامغة.

ولذلكَ سمّى اللّهُ تعالى الوحيَ الّذي كانَ أنزلهُ على محمَّدٍ بن عبد اللّهِ (ص) سمّاهُ (**كتاب**) لهُ مقدّمةٌ ومتنٌ وخاتمة. وقد سارَ تعالى في ذلكَ على نهجُ العلماء الّذي ينتهجونهُ لِتدوينِ ما توصّلوا إليهِ من علوم.كما وصفَ تعالى كتابهُ هذا بأنَّهُ (**هدى**) من بابِ أنَّ هذا العلمَ الّذي تضمَّنهُ هذا القرآنُ الكريمُ هو نورٌ

يهتدي الإنسانُ به ويتخلّصُ من جهالتِهِ الّتي شُبِّهت بالظّلام. كما اشترطَ اللّــهُ تعالى في هذا الكتاب على من يريدُ أن يؤمنَ بما فيهِ أن يكــونَ ممّــن يؤمنــونَ (**بالغيب**). والغيبُ هو كلُّ ما غابَ عن عينيكَ. وليشملَ هذا الإيمانُ كــلَّ مــا سيكشفُ عنهُ العلمُ من حقائقَ بعدَ نزولِ هذا القرآن العظيم. ولذلك قالَ تعالى في المكانِ المُلائمِ وهو الآية ٥١ من سورةِ الفرقان(**فاسأل بهِ خبيراً**) بمعنى أنَّ مــا ستتفتَّحُ عنهُ تحقيقاتُ العلماء المختصّينَ في المستقبل ستصبحُ مَرجعاً للمؤمنــينَ ليفسّروا عن طريقها ما وردَ في هذا الكتابِ من آياتٍ تضمَّنت حقائقَ علميَّــةً تختصُّ بتلكَ العلومِ والاختصاصات.

فإن نحنُ تفحَّصنا بعد ذلك ما كانَ اللّهُ تعالى يُنهي بهِ آيــاتِ كتابــهِ العزيز، لاحظنا أنّهُ كانَ يقولُ (**نفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمون**). وعندما كانَ يــذمُّ أصحابَ العقول التّقليديَّةِ كان يقولُ بحقّهم وبأسلوبٍ أدبيٍّ رفيعٍ (**ومن النّــاسِ من يُجادلُ في اللّهِ بغيرِ علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منير**). وبمعنى أنَّ أصحــابَ العقولِ التّقليديَّةِ لا يحاورونكَ بأسلوبٍ علميٍّ ولاَ يواجهونكَ بأدلّةٍ قائمةٍ علــى حقائقَ وعلمٍ و مَرجعيَّة. ولكنَّهم يُخاصِمونكَ ويعاملونكَ بأســاليبِ العنــفِ والتّهديد.

واستناداً إلى جميعِ ما ذكرناهُ نقولُ وكلُّنا ثقةٌ وإيمانٌ بما توصَّلنا إليهِ وقلناهُ بأنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ قد اختطَّ في كتابهِ القرآن منهجاً علميّاً وعلى نَسقِ منــاهجِ العلماء المعاصرين. وفي وقتٍ ما كان البشرُ حينَ نزولِ هذا القرآن العظيــم مــا كانوا يدرونَ عن هذه المنهجيَّةِ شيئاً. فالعربُ ومن كان حولهم كانوا يتسلّونَ بما يفهمونهُ من ظواهرِ الطّبيعةِ الّتي كانوا يعيشونَ فيها فما كانت قــد اكتشــفت الذّرةُ بعدُ، ولا كانوا يعلمونَ من عناصرِ الطّبيعةِ إلاّ العناصرَ الأربعة. فهذا هــو الحالُ الّذي كانَ عليهِ حالُ النّاسِ يومَ أن أنزلَ اللّهُ تعالى هذا(**الكتاب**) العزيــزَ

وبهذا النّهجِ العلميِّ والمُصاغُ بهذه الصّياغة البلاغيَّة المُعجزة وقبلَ أربعةَ عشر قرنٍ من الزّمان.

والدّليلُ على صحَّةِ ما ذكرتهُ آنفاً هو أنَّ حقائقَ علومِ القرنِ العشرين قد أبطلت وبيَّنت فسادَ أكثر نظريّات علماء القرنِ التّاسع عشر الّتي كانَ يتباهى بها أولئكَ العلماء والتي استندت إلى ظواهرِ المادّة وقوانينها وحسب.فما بالُكَ بحلل النّاس في أوربَّةَ قبلَ ذاكَ الحين بقرونٍ عديدةٍ يومَ أضاءت تعاليمُ القرآن الكريم في شبهِ جزيرةِ العرب قلوبَ وأذهانَ النّاس الّذينَ لبّوا صوتَ ربِّهم واستقاموا وفقَ تعاليمه.فأوربَّةَ كانت تعيشُ في ذاكَ الزّمن الغابرِ فيما يُسمّونهُ أنفسهم **بالقرون الوسطى المظلمة**.

ألا إنَّ معالمَ البحثِ العلميِّ المرتكز على الملاحظةِ والتّجربة والاستنتاج لم يبدو للعيانِ واضحاً جليّاً للعيان إلاّ في بدايةِ القرن العشرين وفي أوروبَّةَ خاصَّة.وعادت لهُ مميّزاتهُ أيضاً.وعادَ لكلِّ عالمٍ مميّزات كُتابتهِ أيضاً.والّذي سيُطالعُ كتابي هذا سيلاحظُ ممّا سأقدِّمهُ من أمثلةٍ تُثبتُ مِصداقيَّةَ ما أطرحهُ من أصولٍ قرآنيَّةٍ استخرجتُها لهُ من بطونِ سورِ هذا القرآن المجيد، فإنَّهُ سيتبيَّنُ لهُ بكلِّ وضوحٍ كيفَ أنَّ الأسلوبَ العلميَّ المُعاصرَ الّذي يتباهى بهِ علماءُ أوروبَّةَ قد طرقهُ اللّهُ جلَّ شأنهُ في هذا القرآنِ المجيدِ منذُ أربعة عشر قرنٍ من الزّمان.الأمرُ الّذي يثبتُ من خلالهِ أنَّ هذا الكتابَ العزيز قد التزمَ بمنهجيَّةٍ علميَّةٍ لم تعرفها البشريَّةُ إلاّ في القرنِ الماضي بينما هو عرفها والتزمَ بها من أوّلِ زمنِ نزوله من لدُن الذّات الإلهيَّة المقدَّسةِ الّتي تحملُ الأسماءَ الحسنى الّتي أطلعنا عليها بارئنا في هذا القرآن الكريم.

وعلى هذه الصّورة فقد اجتمعَ في هذا القرآن المجيد الادّعاءُ بالعلمِ الكاملِ والعلميَّة في الأسلوبِ والتَّعبيرُ والمنهجيَّةُ العلميَّةُ أيضاً.وهو أمرٌ وحقيقةٌ لم ينتبه إليها أحدٌ من أسلافنا لأسبابٍ عديدةٍ لا مجالَ لذكرها في هذا المقام.ويكفي

أسلافنا رحمهم اللَّهُ تعالى أنَّهُم قد خدموا تعاليمَ هذا الكتابَ المقدَّسَ على قدرِ ما فهموهُ منهُ وعلى قدرِ مُعطيات العصور الّتي مرّوا منها وبنيّات صادقةٍ أيضاً.

ثمَّ إنَّ الدّارسَ للُغةَ العرَب الشريفة والمطّلعَ على قوانينها وأصول أخــذِ ألفاظها وعلى دقَّةِ معاني تلكَ الألفاظ وحُسنِ رسمــها والنُّطـقِ بهـا وعلـى خصائصها.والعارفَ بكون اللّغة العربيَّة هي لُغةٌ علميَّةٌ وبذلكَ تختلفُ عن بقيَّـةِ لُغات العالمِ المحرومةِ من أكثرِ ما ذكرناه.وأنَّ الدّارسَ الّذي قد تيقَّنَ بعدَ الّـذي ذكرتَهُ لهُ آنفاً من أنَّ الوحيَ القرآنيَّ قد التزمَ بمنهجيَّةٍ علميَّـةٍ مـن أوّلـهِ إلى آخره.تبلُغُ فرحةُ هذا الدّارس والباحثَ ذروتها بسببِ أنَّهُ عاد يبحثُ في كتـاب مقدَّسٍ ومبارك ويتدبَّرُ آياتهُ بأصول تفسيرها ووفقَ منهجيَّتها،ويكونُ تجاهَ كتابٍ ذو الجناحين: لُغةُ آياتهِ لغةٌ علميَّةٌ.وأسلوبُ ما وردَ فيهِ من معلومات هو أسلوبٌ علميٌّ أيضاً.وهذا هو ما قلتُ بأنَّهُ نورٌ على نور.وبهِ يتمُّ كلُّ سرورٍ.فإن عسُـرَ على باحثٍ ما تبيُّنَ هذه الحقيقةَ.فأقولها بيقينٍ تامٍّ أنَّ النَّقصَ يعودُ عليهِ فيما قـامَ بهِ من سعيٍ،ولا يعودُ ذلكَ النَّقصُ على هذا القرآن المجيـد ولا علـى لُغتـهِ الشريفة.

ويكفينا أن نقولَ بأنَّ تحدّيات هذا الكتاب العزيزَ ومنهجيَّتـهُ العلميَّـةُ وخصائصهُ ومزاياهُ ونظمهُ وحُسنَ ترتيب تلاوتهِ وعذب موسيقيَّةِ أصوات آياتـهِ الكريمة وواسع بيِّناته.فكلُّ ذلكَ أخرسَ الألسُنَ عن أن تدّعي في مقابلتهِ شَيئاً أو تزعمُ وتقولُ أو تصول.

ظواهرُ دالّة على منهجيَّةِ القرآن العلميّة:

فإن نحنُ انطلقنا من أنَّ كلمةَ (علم) تستعملُ لُغةً عكسَ الجهل وتعـني اليقينَ والاعتقادَ الجازمَ المطابقَ للواقعِ وما يُزالُ بهِ الخفاء(محيط المحيط).فـالملاحظُ هو أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد أتى بكلمةِ (**يعلمون**) حوالي ٢٤ مرَّة. وكـانَ تعـالى يحذفُ في كلِّ مرَّةٍ مفعولَ فعل يعلمون لداعٍ بلاغيٍّ فاستنفذَ نصفَ هذا العـدد

في سورةِ البقرة وفي نهايات آياتٍ من آياتها. واستنفذَ النّصفَ الآخرَ في السور الواقعة بترتيبِ تلاوتها من بَعدِ سورةِ الكهفِ وحسبَ مُقتضيات المقام.

وأستعرضُ للقارئ هذه المنهجيّة العلميّة الّتي تجلّت اثنتا عَشرةَ مرّةً خلالَ حوارِ هذا القرآن الكريم معَ فريقيِّ اليهود والمسيحيّين. ففي الآيتين ٤١/٤٢ خاطبَ اللّهُ تعالى بني إسرائيلَ وقال محذّراً من المراوغةِ والابتعاد عن منهجيّةِ العلم (**وآمنوا بما أنزلتُ مُصدِّقاً لِما معكُم ولا تكونوا أوّلَ كافرٍ بهِ ولا تشتروا بآياتيَ ثمناً قليلاً وإيّايَ فاتّقون. ولا تُلبِسوا الحقَّ بالباطلِ وتكتموا الحقَّ وأنتُم تعلمون**

فقولُهُ تعالى(**ولا تَلبسوا الحقَّ بالباطل**) اشتقَّ (اللَّبسَ) من الشبهة والإشكال الّذي هو شكلٌ من أشكال المراوغةِ والتّعتيمِ على الحقيقةِ خلالَ الحوارِ والجدل الدّينيّ. فقالَ تعالى مُحذّراً إيّاهُم من سلوك هذا الأسلوب من الحوار الّذي يتنافى ومنهجيّةَ البحثِ والحوار الدّينيّ. لذلكَ أنهى تعالى هذه الآيةَ بقولهِ (**وأنتُم تعلمون**) وقد حذفَ مفعولَ تعلمون لِتوسيعِ المعنى وليصيرَ المعنى إيّاكم أن تحيدوا في حواركم معنا عن منهجيّةِ الحوارِ الّتي تعلمونها جيّداً وتعلمونَ مصيرَ كلِّ من يكونُ (**أوّلَ كافرٍ بهِ**) إن كانَ ما دعوناكم إليهِ حقّاً.

ومن ثمّ راحَ اللّهُ تعالى يذكّرُ بني إسرائيلَ بنعمهِ الّتي كانَ أنعمها عليهم نعمةً بعدَ نعمة. تلكَ النّعَم الإلهيّةِ الّتي كانت تتطلّبُ من بني إسرائيلَ الانجذابَ نحوَ هذا المنعم الأعظم وأن ترقّ أفئدتُهم من جرّاءِ ذلك. لكنَّ الّذي حدثَ هو عكسُ ذلكَ حيثُ قست قلوبهم. وقد صوّرَ تعالى هذه الحالة الّتي صاروا إليها تصويراً فنّيّاً رائعاً وقال في الآية ٧٤ (**ثمّ قَست قلوبكم من بعدِ ذلكَ فهي كالحجارة أو أشدُّ قَسوة وإنَّ من الحجارة لَما يتفجَّرُ منهُ الأنهار وإنَّ منها لَما يشَّقّقُ فيخرُجُ منهُ الماء وإنَّ منها لَما يهبطُ من خشيةِ اللّه وما اللّهُ بغافلٍ عمّا تعملون. أفتَطمَعونَ أن يؤمنوا لكم وقد كانَ فريقٌ منهم يسمعونَ كلامَ اللّهِ ثمّ**

يُحرِّفونهُ من بعدِ ما عقلوهُ وهم يعلمون). فالملاحظ هو أنَّ اللَّهَ تعالى أنهى الآيةَ بقولِهِ **(وهم يعلمون)**.وقد حذفَ مفعول فعل يعلمونَ هنا أيضاً لِيُوسِّعَ دلالتـهُ وليصبحَ المعنى أنَّ أفئدةَ هؤلاءِ اليهود بلغت من القسوةِ حدّاً عادوا معهُ يُحرِّفـونَ كلامَ اللّهِ وهم يعلمونَ النّتائجَ المترتِّبةِ على هذا التّحريف. ويعلمونَ أنَّهم بذلـكَ يُخالفونَ منهجيَّةَ الحوار.وأنَّهم يُثبتونَ من خلالِ عملهم المذكورُ أنَّهم لا يريدونَ وجهَ اللّهِ تعالى أيضاً.فهذه المعاني كلُّها نتجت عـن حـذفِ مفعـول فعـل **(يعلمون)**.

وفي الآية ٨٠ قالَ تعالى **(وقالوا لن تمسّنا النّارُ إلاّ أيّاماً معدودةً قـل أتّخذتُم عندَ اللّهِ عهداً فلَن يُخلِفَ اللّهُ عهدَهُ أم تقولونَ علـى اللّـهِ مـالا تعلمون.بلى من كسَبَ سيِّئةً وأحاطت بِهِ خطيئتُهُ فأولئكَ أصحابُ النّارِ هـم فيها خالدون.)** أي أنَّ اللّهَ تعالى انتهجَ في قولِهِ هذا منهجاً علميّـاً وطالبـهُم بالدّليلِ الّذي يثبُتُ من خلالِهِ أنَّ النّارَ لن تمسَّهُم إلاّ أيّاماً معدودة.ووضَّحَ مـن جانبِهِ أنَّ القاعدةَ الجزائيَّةَ المعروفة هي أنَّ من كسبَ سيِّئةً وأحاطت بِهِ خطيئتُـهُ فأولَئكَ أصحابُ النّارِ هم فيها خالدون وبذلكَ أثبتَ اللّهُ تعالى منهجيَّتهُ العلميَّـةَ في الحوارِ الدّينيّ.

ومن ثمَّ فقد راحَ اللّهُ جلَّ شأنهُ يُعدِّدُ لبني إسرائيلَ ما ارتكبوهُ من آثـام وما قتلوهُ من أنبياء بغيرِ حقٍّ وكيفَ أنَّهم فضّلوا الحياةَ الدّنيـا علـى الآخـرة وكيفَ اتّصفوا بصفةِ نقضهم للعهود.وانتهى من هذا كلِّهِ ليقولَ تعالى في الآيـة ١٠١ **(ولمّا جاءهُم رسولٌ من عندِ اللّهِ نُصدِّقٌ لِما معهم نبذَ فريقٌ من الّذيـن أوتوا الكتابَ كتابَ اللّهِ وراءَ ظهورهم كأنّهم لا يعلمون)** وقد حذفَ تعـالى في هذه الآيةِ أيضاً مفعول فعل (يعلمون) لِتوسيعِ دلالَتهِ.وليصبحَ المعـنى أنّـهم يتجاهلونَ نبوءةَ سفر التّثنية ١٨/١٨ الّذي يُنبئُ عن بعثةِ هذا الرّسول الّذي جاءَ

من عندِ اللّه.ويتجاهلونَ العقابَ المترتِّبَ على الإنسان الّذي يكفُرُ برسُلِ اللّهِ العزيز.وينسونَ منهجيَّةَ الأديان الّتي يُنبئُ كلُّ نبيٍّ فيها عن النبيِّ الّذي يأتي بعده.

وقد اتَّهمَ اللّهُ تعالى هؤلاءِ اليهود بعدَ انقطاعِ وحيِ اللّهِ تعالى عنهم من جرّاءِ بُعدِهِم عن ربِّهم والاستهتارِ برسلهِ الكرام.اتَّهمهُم بالميلِ إلى السحرِ والشعوذةِ بعدَ أن ابتعدوا عن روحِ توحيدِ ربِّهم عزَّ وجلَّ وقال في الآية ١٠٢ **(واتّبعوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلكِ سليمانَ وما كفرَ سليمانُ ولكنَّ الشياطينَ كفروا يُعلّمونَ النّاسَ السحرَ وما أُنزلَ على الملَكينِ ببابلَ هاروتَ وماروتَ وما يُعلّمانِ من أحدٍ حتّى يقولا إنّما نحنُ فتنةٌ فلا تكفُر فيتعلّمونَ منهُما ما يُفرِّقونَ بهِ بينَ المرءِ وزوجِهِ وما هم بضارّينَ من أحدٍ إلاّ بإذنِ اللّهِ يتعلّمونَ ما يضُرُّهم ولا ينفعُهم ولقد علِموا لَمَنِ اشتراهُ ما لهُ في الآخرةِ من خلاقٍ قف ولَبئسَ ما شرَوا بهِ أنفُسَهُم لو كانوا يعلمون.)**.

والملاحظ هو أنَّ اللّهَ تعالى عادَ فحذفَ مفعولَ فعل (يعلمون) هنا أيضاً ليصبحَ المعنى وكأنّهُم لا يعلمونَ بأنَّ الّذي يهجُرُ ربَّهُ ويُناجي سواهُ يقعُ في الكُفرِ وينحرِفُ بذلكَ عن روحِ توحيدِ اللّهِ جلَّ شأنه.وأنَّ هؤلاءِ اليهود ابتعدوا عن المنهجيَّة العلميَّة في حياهم والّتي تقتضي ألاّ يُقدِمَ المرءُ على شيءٍ إلاّ بعقليَّةٍ علميَّةٍ وبفهمٍ يقينيٍّ للأشياء.وبذلكَ يكونُ اللّهُ تعالى قد استعملَ فعل(يعلمون) بمفهومِهِ الّذي كُنّا وضحّناه.

وبعدَ أن أعطى اللّهُ تعالى فكرةً واضحةً عن حالِ بني إسرائيلَ أعلنَ نسخَ ما أنزلهُ عليهم من تعاليم.وحثَّ المؤمنينَ على سلوكِ نهجٍ مُغايرٍ لسلوكِ هؤلاءِ الكافرين.وراحَ يستعرِضُ جلَّ شأنهُ ما ابتدعَ هؤلاءِ يهوداً كانوا أو مسيحيّين من عقائدَ باطلة ومن ثمَّ يقدِّمُ الأدلّةَ والبراهينَ على بُطلانها.إلى أن قالَ تعالى في الآية ١٤٦ بحقّهم: **(الّذينَ آتيناهم الكتابَ يعرِفونهُ كما يعرِفونَ أبناءهُم وإنَّ فريقاً منهُم لَيكتُمونَ الحقَّ وهم يعلمون.)**.

وحسمَ تعالى بذلكَ ما ناقشهُ معهم من عقائدَ ومواضيع.وقد حذفَ هنا أيضاً مفعولَ فعل (يعلمون) من أجلِ توسيعِ دلالتهِ.وليصبحَ المعنى أنَّ هؤلاء الكفّار يعلمونَ مِصداقيَّةَ جميعِ ما طرحناهُ من أمور.ويعلمونَ انطباقَ نبوءة سفر التّثنية ١٨/١٨ على بعثةِ محمَّدٍ (ص).ويعلمون أنّنا ناقشناهم من خلالِ ما طرحناهُ بمنهجيَّةٍ علميَّةٍ أيضاً.

وكانت هناكَ بعدها فُرصةٌ لِيتوجَّه اللَّهُ تعالى إلى فئةِ المؤمنينَ لِيقوّ معنويّاتهم وليدفعهم لاحترامِ هذا البيتَ الحرامَ الّذي أعادَ بناءهُ جدُّهم إبراهيمُ وابنه إسماعيل عليهما السّلام من بعدِ أن هجرهُ هؤلاء الكُفّار من أهلِ الكتاب.وليتمسَّكَ المؤمنونَ بتعاليمِ هذا الكتاب الّذي حلَّ محلَّ كتابِ موسى المنسوخ.وقالَ تعالى يُخاطبُ المؤمنينَ ويقول في الآيتين ١٥١/١٥٢ **(كما أرسلنا فيكُم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتابَ والحكمةَ ويُعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون. فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون).**

وراحَ تعالى بعدَ ذلكَ يوضِّحُ لفئةِ الّذينَ آمنوا التّعاليمَ الجديدةَ الّتي اختصَّهُم بها الّصادرةَ عن إلهٍ واحدٍ لا إلهَ إلاَّ هو الرّحمانُ الرّحيم ودليلَ وجوده ومصداقيَّةِ ذلك.وندَّدَ بعدها بكلِّ من يبتعدُ عن مضمونِ التّوحيدِ الّذي بيَّنهُ تعالى لهم وبتعليلٍ علميٍّ.وصوَّرَ بتصويرٍ فنّيٍّ حالَ الّذينَ يفهمونَ عقيدةَ التّوحيد خلافَ ذلك وقالَ بحقِّ الذين كفروا في الآية ١٧١ **(ومثلُ الّذينَ كفروا كمَثَلِ الّذي ينعقُ بما لا يسمعُ إلاّ دُعاءً ونداءً صمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهُم لا يعقلون.)**. فلمّا فرضَ اللَّهُ تعالى على المؤمنينَ فريضةَ الصّومِ نبَّهَ أذهانَهم إلى أنّها قامت على أسُسٍ علميَّةٍ(وضّحتُ ذلك في كتاب الصّوم في الإسلام) فأتى ضمنَ آيات فريضةِ الصّومِ بآيتينِ أوردَ تعالى فيهما فعل **(يعلمون)** وحاذفاً مفعولَهُ أيضاً ليوسّعَ دلالتهُ على شاكلةِ ما كانَ يفعلهُ من قبلُ عندما كان يُخاطبُ أهلَ

الكتاب.وفرضَ الحجَّ والعمرةَ بعدَ ذلكَ إلى أن قالَ تعالى في نهايةِ الآيـــة ٢٣٠ وهو يُخاطبُ المؤمنين (**وتلكَ حدودُ اللَّهِ يُبيِّنها لِقومٍ يعلمون.**) تنبيهاً لأذهـــان المؤمنينَ إلى أنَّ جميعَ الفرائضِ والحدودِ الشرعيَّةِ الّتي شرَّعها تعالى لهم قد أسَّسها ربُّهم على أسُسٍ علميَّةٍ.ولا ينبغي فهمها إلاّ بمنظارٍ علميٍّ أيضاً كيلا يُصابونَ بما أُصيبَ بهِ مَن قبلهم من الأقوام.فهذا ما أشارَ إليهِ حذفُ مفعول فعل (**يعلمـون**) في هذا الموضعِ أيضاً.وقد أكّدَ تعالى ذلكَ في نهايةِ الآيةِ الكريمة ٢٣١ من خـلال قولهِ (**واعلموا أنَّ اللَّهَ بكلِّ شيءٍ عليم**) ونهايةِ الآيةِ الّتي بعدها (**واللَّهُ يعلـــمُ وأنتُم لا تعلمون**).

فالمهمُّ من جميعِ ما ذكرتُهُ للقارئ آنفاً أنّني قصدتُ منهُ إثباتَ وُجـــود منهجيَّةٍ علميَّةٍ التزمَ اللَّهُ تعالى بها في جميعِ آياتِ سورةِ البقرةِ الّتي هـــي أطـولُ سورةٍ من سور هذا القرآن العظيم.الأمرُ الّذي يُستفادُ منهُ وُجودُ منهجيَّةٍ علميَّـةٍ في أسلوبهِ تعالى وفي طرحهِ للمواضيع.

منهجُ هذا البحثِ:

إذا قلتَ لمسلم: لِمَ تؤدّي الصّلاةَ المفروضةَ عليكَ في كتابِ اللَّهِ العزيـــزِ وأنتَ تعالمُ بأنَّ اللَّهَ تعالى قالَ في ســـورةِ (المـــاعون) (**ويـــلٌ للمُصلّـــين.**)؟؟ فستلاحظ كيفَ أنَّ هذا المسلم يقولُ لكَ ببساطةٍ زائدة : ولِمَ تقطع هذه الآيـــةَ الكريمةَ عن الآية الّتي بعدها والّتي قالَ تعالى فيها (**الّذينَ هـــم عـــن صلاتهـــم ساهون.**)؟؟ فالويلُ للّذينَ يسهونَ عن تأديةِ الصّلاةِ المفروضة علـيـــهم، وليـــسَ الويلُ لمن يؤدّونَ صلواتهم المفروضة عليهم.

من خلالِ هذه المحاورة البسيطة والبريئة نستنتجُ بأنَّ قطعَ مضمونِ أيَّة آيةٍ من آيات هذا القرآن الكريم عن سباقها وسياقها يتنافى وترتيبَ تلاوة الآيـــات الكريمة ويُخلُّ بمعطيات مَضامينها.وإنَّ المثالَ البسيطَ الآنـــفَ الذّكـــر والّـــذي استقيناهُ من آياتِ سورِ الخُلاصة القرآنيَّة المطوّلة المسمّاة (جزء عمَّ) قد وضعَ بينَ

أيدينا إطارَ المنهجيَّةِ الشخصيَّة الّتي انتهجتُها في بحثي واستقرائي لمنهجيَّةِ القــرآن وأصولِ تفسيرِ آياتِه الكريمة.
وقد يدهشُ القارئُ لأوَّلِ وهلة فلا تتَّضحُ لهُ معالمُ الفكرة المطروحة مـن قِبلي فيما ذكرتهُ آنفاً.ويتساءلُ في حديثِ نفسهِ:وكيفَ أمكنهُ الرّبطَ ما بينَ هذا المثالَ المُتداول على ألسنةِ المسلمينَ وما بينَ ما سمّاهُ (إطار المنهجيَّة الشخصيَّة)؟؟
أقول: كلّنا يعلمُ بأنَّ اللَّهَ جلَّ شأنهُ قد أنزلَ هذا القرآن العظيم بـترتيب مُنجَّم خلالَ سنوات الدّعوة البالغة ثلاث وعشرين سنة تراوحت ما بينَ مكّـة والمدينة المنوَّرة.كما أنَّ اللَّهَ تعالى نفسه كانَ قد جعلَ لِتلاوة آيات هذا القـرآن الكريم ترتيباً مُختلفاً عن ترتيبهِ المنجَّم ومن أوَّلِ أيّامِ إنزالهِ أيضاً. وكانَ الملَـك جبريل عليهِ السلام يُحفِّظُ رسولَ اللّهِ (ص) الآياتِ النّازلةِ عليهِ بترتيبِ تلاوتها كما هو واردٌ في السيرِ التي وصلتنا كسيرةِ ابنُ هشامٍ والسيرة الحلبيَّة وغيرها من السيَر.
ومن المعلومِ أيضاً أنَّ الآيات التي نزلت مُنجَّمةً كانت تُعـالجُ أحـوالاً تعرَّضَ لها رسولُ اللّهِ (ص) في حياتهِ وهو يؤدّي مهمَّةَ تأديةِ رسالةِ ربِّـهِ عـزَّ وجلّ.وهو ما اصطلحَ القدماءُ على تسميتهِ **(أسباب النّزول)**.فلم تنزل الآيـات وقتئذٍ بنفسِ ترتيبِ التّلاوة الّذي هو بينَ أيدينا.فسورُ جزء (عمّ) علـى سـبيلِ المثال أُنزلت آياتُ سوره في مكةَ المكرَّمة على وجهِ العموم.على حـينِ جـاء ترتيبها حسبَ ترتيبِ التّلاوة الّذي هو بينَ أيدينا في آخر القرآن الكريم.
وقبلَ أن أطرحَ المنهجيَّةَ الّتي اختطُّها في بحثي، فأرى أن أقدِّمَ مثالاً آخـرَ من مَتنِ آياتِ القرآن الكريم.لأوَضِّحَ للقارئِ أهمّيَّةَ التّقيُّد بتسلسُـلِ الآيـات الموضوعيّ وارتباطها بنظمٍ وسبكٍ مُدهشين.
وأقتبسُ هذا المثال من الآية (١٠٥) وما بعدها من سورة البقرة والّـتي قالَ تعالى فيها **(ما يودُّ الّذينَ كفروا من أهلِ الكتابِ ولا المشركينَ أن يُـنزّلَ**

عليكم من خيرٍ من ربِّكم، واللَّهُ يختصُّ برحمتِهِ مَن يشاء، واللَّهُ ذو الفضلِ العظيم.ما ننسَخْ من آيةٍ أو نُنسها نأت بخيرٍ منها أو مِثلِها، ألم تعلَم أنَّ اللَّهَ على كلِّ شيءٍ قدير.ألَم تعلم أنَّ اللَّهَ لَهُ مُلكُ السماواتِ والأرض، وما لكم من دون اللَّهِ من وليٍّ ولا نصير.) .

فالّذي يتبيَّنُ من مضمونِ الآيةِ الأولى أنَّ اللَّهَ تعالى يُطلعُ المؤمنينَ على أنَّ الكفّارَ والمشركينَ الّذين كفروا بالإسلام كانوا يُثبتونَ من خلالِ أقوالهم وأفعالهم أنَّهم لا يحبّونَ أن يتنزَّلَ من بعدِ كتبهم ومُعتقداتهم كتاباً جديداً ومُعتقدات تُخالفُ ما توارَثوهُ عن آبائهم وأجدادهم.وعلى اعتبارِ أنَّ كلمةَ **(خيرٍ)** قُصِدَ بها تنزُّلُ آياتِ هذا القرآنِ الكريم، فدلالةُ هذه الكلمة عامَّةٌ وشاملة.

والآنَ فمن المنطقيِّ جدّاً أن يُعلِّلَ اللَّهُ تعالى أسبابَ إنزالِهِ هذا الخيرِ الجديدِ والّذي سينسخُ بصورةٍ آليَّةٍ الكتبَ والمعتقدات القديمة الموروثة.لِيُقنعَ عُقلاءَ الكفّارِ والمشركينَ بمصداقيَّةِ هذه الأسبابِ والدّواعي الّتي دعت اللَّهَ جلَّ شأنهُ للقيامِ بهذه الخطوةِ الإصلاحيَّة.

واستناداً إلى هذا المنطقِ السليمِ كانَ من واجبِ المفسِّرِ أن يُفسِّرَ قولهُ تعالى في الآيةِ الثّانيةِ **(ما ننسخْ من آيةٍ أو نُنسِها نأت بخيرٍ منها أو مِثلِها ألم تعلم أنَّ اللَّهَ على كلِّ شيءٍ قدير)**بهذا الفهمِ ومن هذا المُنطلق ، وأن يفهمَ من قولِ اللَّهِ تعالى**(ما ننسخ من آيةٍ أو نُنسِها)**إشارتهُ إلى نسخِ الكُتبِ التي كانَ قد أنزلها اللَّهُ تعالى من قبلِ القرآنِ الكريم.وأن يفهم من كلمةِ (آية) إشارتها إلى تلكَ الكتبِ المنسوخةِ الّتي كانَ كلُّ واحدٍ منها يُشكِّلُ في حدِّ ذاتِهِ (آيةً) دالَّةً على وجودِ اللَّهِ عزَّ وجلّ.لا أن ينسَ هذا المفسِّر مُعطياتِ الآيةِ السابقة ويفسِّرها بتفسيرٍ يخرقُ هذا التّسلسلَ الموضوعي.

فلو أنَّ القارئَ راجعَ التّفاسيرَ القديمةَ فسيتبيَّنُ لهُ عكسُ ما كانَ يتوقَّعُه.فسيُلاحظُ أنَّ المفسّرينَ القدماء نسوا تلكَ القرينةَ الّتي ذكرناها أو

تناسوها، وفهموا من قولهِ تعالى (**ما ننسخ من آية**) إشارتهُ إلى نسخِ بعض آياتِ القرآن الكريمِ نفسه. وانتهوا من ذلكَ إلى الاعتقادِ بوجودِ النّاسخ والمنسوخ في آياتِ هذا الكتاب (**المحكمة آياتُه**).أي أنّهم تناولوا هذه الآيةَ الكريمةَ منقطعةً عن سياقها الموضوعيّ ، وعلى شاكلةِ ما يفعلُ الإنسانُ الّذي اقتطعَ الآيةَ من سورةِ (الماعون) ونَهاكَ عن أداءِ فريضةِ الصّلاة وهو يقولُ لكَ أنسيتَ قولهُ تعالى (**ويلٌ للمصلّين**)؟ والدّليلُ العمليُّ على بطلانِ ما ذهبَت إليهِ أذهانُ هؤلاءِ المفسّرينَ رحمهم اللّه هو أنّهم اختلفوا في عدَدِ الآياتِ المنسوخة وفي أصولِ نسخها اختلافاً كبيراً، وإلى درجةٍ ما تزالُ الأمّةَ الإسلاميّةُ تحصدُ من ويلاته إلى الآن.وبذلكَ فتحوا لأعداءِ الإسلامِ باباً واسعاً للطّعنِ بالقرآنِ نفسهِ من خلالِ هذه النّافذةِ بالذّات.

وليسَ هذا وحسب.بل إنّهُم خالفوا القاعدةَ المعروفةَ المتعلّقة بإرجاعِ الضّمائرِ إلى أقربِ الأسماءِ إليها.فأعادوا ضميرَ المخاطب من قولهِ تعالى في هذه الآيةِ الثّانيةِ إلى المؤمنِ الّذي لم يُذكر اسمهُ في سياقِ الكلام.ولم يُرجعوا هذا الضّميرَ إلى (**الكفّار والمشركين**) المذكورينَ في الآيةِ السابقة.وهذا الخطأُ قد جرَّهم أيضاً إلى أن أعادوا ضميرَ المخاطب الوارد في الآيةِ الثّالثة إلى المؤمن أيضاً. معَ أنّ اللّهَ تعالى ما يزالُ يوضّحُ للكفّار والمشركينَ حيثيّات نسخهِ تعلى لكتُبهم الّتي أنزلها من قبلِ إنزالِهِ تعالى هذا الكتاب العزيز.

وهل يُعقلُ أن يحكي اللّهُ تعالى لنا من جهةٍ بأنّ الكفّارَ والمشركينَ (**مايودّون**) **أن يُنزّلَ على المؤمنينَ من خيرٍ من ربّهم**) ويُشيرُ تعالى بقولهِ هذا إلى الخيرِ المتمثّل في هذا الكتابِ العزيز.ومن ثمّ يأتي من جهةٍ ثانيةٍ لِيقولَ (**ما ننسخْ من آيةٍ**) ويكونُ مشيراً بالآيةِ إلى نسخِ آياتِ هذا القرآنِ الكريمِ الّذي لا يوجدُ لهُ ذكرٌ في سياقِ الكلامِ لِيعودَ الضّميرُ إليه؟؟؟

فلماذا يبخلُ الكفّارُ أن يَنزِلَ خيرٌ على المسلمينَ إلاّ أن يكونَ ذلكَ قد حدثَ بداعي خوفهم على نسخِ كُتُبهم من جرّاءِ إنزال هذا الكتاب الجديد؟؟فكلمةُ(**الآية**)عائدةٌ إذن إلى كُتُبِ هؤلاءِ لكونها آياتٌ من عند اللّهِ تعالى.فاللّهُ تعالى قادرٌ على نسخِ تلكَ الكتبِ (**الآيات**) واستبدالِ ما تضمّنتهُ القرآن بأحسنَ منها.وأن يُنزِلَ تعالى من التّعاليمِ ما يُشابهُ التّعاليمَ الحسنةَ المنسيَّةَ أيضاً.وهو المعنى المقصودُ هنا في آيةِ (**ما ننسخْ من آية...**).ولذلكَ أنهى اللّهُ تعالى هذه الآيةَ الكريمةَ بقولهِ (**ألم تعلم أنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قدير**).

فهذا مثالٌ آخرَ قدَّمتُهُ للقارئ العزيزِ ومن داخلِ مَتنِ القرآن الكريم لِيوضِّحَ لهُ كيفَ أنَّ القدماءَ رحمهم اللّه كانوا يقتطعونَ الآيةَ عن سباقها وكمن يقولُ للّذي يؤدّي ما عليهِ من فريضةِ الصّلاة كيفَ تُصلّي واللّهُ تعالى يقول (**ويلٌ للمصلّين**)؟؟ ولا يربطُ هذه الآيةَ بقولهِ تعالى (**الّذينَ هم عن صلاتهم ساهون**).

واستناداً إلى المثالينِ المذكورينِ لابدَّ أن يكونَ القارئ قد أدركَ معالمَ منهجيَّتي التي انتهجتُها في بحثي هذا الّذي اشتملَ عليهِ هذا الكتاب.فأنا لا آخذُ بأسبابِ النّزولِ وسيلةً لفهمِ مضامينِ القرآن الكريم.فأسبابُ النّزول مُرتبطةٌ ارتباطاً عضويّاً بترتيبِ نزولِ القرآن الكريم (**مُنجَّماً**) ولا تتعلّقُ بترتيبهِ الثّاني وهو ترتيبُ التّلاوة الّذي هو بينَ أيدينا والصّالحُ لكلِّ زمانٍ ومكان.والموعودُ بحفظهِ من جانبِ ربِّنا إلى أبدِ الآبدين.

كما أنّي أنظرُ إلى هذا الكتاب العزيزِ على أنَّ سورةَ الفاتحةَ تشكِّلُ مقدّمته. وأنَّ جزء (عمّ) هو خلاصةٌ مُطوَّلةٌ لِمضامينه. وأنَّ المعوَّذات الأخيرات تشكِّلُ خلاصةً موجزةً لهُ أيضاً.

كذلكَ أُحاولُ أن أفهمَ الآياتِ القرآنيَّة بمفاهيمَ علميَّة وليسَ بمفاهيمَ تقليديَّة مُستندةً إلى قيلَ وقال. ومن بابِ أنَّ اللّهَ تعالى نبَّهَ عقولَنا إلى هذه الحقيقةِ

والمنهجيَّة من أوَّلِ الطَّريقِ وعلى حسبِ ما بيَّنتهُ عند كلامي عن منهجيَّةِ كتابِ اللَّهِ العزيز.

ومن أساسيّات منهجيَّتي أيضاً أن أنظُرَ إلى هذا الكتاب العزيز على أنَّهُ كُلٌّ لا يجوزُ تجزئته: فجميعُ آياتُهُ مُرتبطةٌ بعضُها ببعضِها الآخرَ بصورةٍ موضوعيّةٍ. حتّى وإنَّ جميعَ سورِ هذا القرآن الكريم مرتبطةٌ أيضاً بعضُها ببعضِها الآخر، ولم تأت السورُ بهذا التّرتيب اعتباطاً.

كما أنظَرُ إلى الأحرُف المقطَّعةِ على أنَّها تمثِّلُ فنَّ اختزالٍ قرآنيٍّ تحدّى اللَّهُ تعالى بهِ قواعدَ فنِّ الاختزالِ الجاهليّ الّذي كانَ يتباهى بهِ شعراءُ الجاهليَّةِ العرب. وأنَّ السور غير المبدوءة بأحرف مقطَّعةٍ تكونُ تابعةً في مضامينها للسور المبدوءةِ بأحرف مقطَّعةٍ وتشكِّلُ فصولاً من فصولِ مضامينها.

فهذه هي النّقاط المنهجيَّة الّتي اعتمدتُها منهجاً لِفهمِ هذا الكتاب العزيز. ولِتقصّي ما اشتملَ عليهِ من أصول لتفسيرِ آياتهِ الكريمةِ. وإنَّ اللَّهَ تعالى قد وزَّعَ هذه الأصول بشكلٍ معجزٍ فأوردها مُوزّعةً بينَ مُختلَفِ مضامينِ سورِ كتابهِ العزيزِ ووفقَ خُصوصيَّتهُ وإلى درجةٍ من الإعجاز حتّى عجزَ القدماءُ رحمهمُ اللَّهُ أن يحيطوا بهذهِ الأصولِ علماً.

الفصل الرّابع

الحكمةُ من الأمر بتدبُّر آيات هذا الكتاب العزيز

ويذكرُ القارئُ العزيزُ كيفَ أنّي أثبتُّ استحالةَ إمكانيَّةِ تدبُّرِ هذا القرآن الكريمَ بدونِ منهجيَّةٍ وأصولِ تفسيرٍ وعلى اعتبارِ أنَّهُ كتابٌ غيرُ عاديٍّ وأنَّهُ في كتابٍ مكنونٍ وأنَّهُ مشتملٌ على نبوءات أيضاً.ولقد وضَّحتُ وقتئذٍ معنى قولهُ تعالى (**ليدَّبروا آياته**) لكنّي لم أشرح تلكَ الآيةَ الّتي وردت فيها هذه الألفاظ.وأرى أن أغتنمَ هذه الفرصةَ لأشرحَ تلكَ الآيةَ الكريمة المشار إليها لعلَّ ذلكَ يُساعد هذا القارئ على أن يعلمَ ويُدركَ الحكمةَ من أمرِ اللَّهِ تعالى إيّانا لِنقومَ بتدبُّرِ آيات هذا القرآن الكريم.

ألا إنَّ اللَّهَ جلَّ شأنهُ قالَ في الآية ٢٩ من سورةِ (ص) (**كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مُباركٌ لِيدّبروا آياته وليتذكَّرَ أولوا الألباب**) فكلمةُ كتاب نقلنا معانيها سابقاً.أمّا كلمةُ (**مباركٌ**) فمن باركَ اللَّهُ تعالى في هذا الكتاب ومعناهُ أنَّهُ تعالى أودعهُ قوَّةَ الزّيادة والنّماء.ولا فرقَ أن تكونَ قوّةُ الزّيادة والنّماء حسّيَّةً أو معنويَّة.فإن دعوتَ لأخيكَ وقلتَ: باركَ اللَّهُ فيك.فقد تمنَّيتَ على ربِّكَ أن يباركهُ ويقدِّسهُ وينمّي ما عندهُ من مال.وعليهِ فالبركةُ تعني نماءً وزيادةً معنويّين وحسّيين وسعادةً وثبوت الخير الإلهيِّ في الشيء ودوامه.فإن قُلتَ تباركَ اللَّه فقد نزَّهتهُ تعالى عن كلِّ نقص لِتُشعرَ القارئ بأنَّ اللَّهَ تعالى يمثّلُ الكمالَ في كلِّ ما صدرَ عنه.

فإن نحنُ أخذنا بعين اعتبارنا التّنوين الظاهر على آخرِ كلمة (**مُبـــارَكٌ**) علماً بأنَّ التّنوينَ يؤتى بِهِ للتّفخيمِ ولإظهار عظمةِ الشيء.فيصبحُ معنى كلمــــة (**مبارَكٌ**) بأنَّ هذا الكتاب عظيمٌ ومودعٌ قوّةَ الزيادةِ في العطاء والنّمــوّ حسّـياً ومعنويّاً ويثبتُ الخيرُ فيهِ ويدوم.

فإن نحنُ جمعنا ما بينَ دلالةِ كلمة (**كتاب**).وما بـــينَ دلالاتِ كلمـــة (**مبارك**) نُلاحظُ أنَّ هاتين الكلمتين التقتا في نقطةٍ هامَّةٍ جداً.وهو أنَّهُ لا ينبغـــي النَّظرَ إلى آياتِ هذا القرآن العظيمِ على شاكلةِ ما ننظرُ فيهِ إلى أيِّ كتاب آخـــرَ سواه.فالفرقُ ما بينَ هذا القرآن وما بينَ غيرِه من الكُتُبِ أنَّ الّذي يقرأُ أيَّةَ آيـــةٍ من آياتِهِ الكريمةِ يتبادرُ لِذهنهِ منها معنى غيرَ المعنى المقصود.لذلـــكَ لابُـــدَّ وأن يكونَ هذا القارئُ مُطّلعاً أصلاً من قبلُ على منهجيَّةِ القرآنِ وعلى أصولِ تفسيرِه لِيُمكِّنَهُ ذلكَ من الإحاطةِ بالمعنى الّذي شاءَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بيانه.ولولا ذلكَ فمـــا كانَ اللّهُ تعالى لِيأمرَ عبادهُ المؤمنينَ ليتدبَّروا آياتِ هذا الكتاب العظيمِ المقـــدَّسُ والمبارك.

أي أنَّ الدّافعَ الّذي دفعَ اللّهَ تعالى لِيأمرنا بتدبُّرِ آيـــاتِ هـــذا القـــرآنِ العظيمِ،هو بسبَبِ إخراجِ هذا الكتاب قُمَّةً في الفصاحةِ والبلاغةِ، وبحراً زاخـــراً من المعاني والدّلالات.فكلُّ من يحاولُ تفسيرَ آياتِ هذا الكتاب العظيم بعيداً عن التّدبُّرِ المطلوب،يزيغُ عقلُهُ عن المعنى المقصود.فالالتزام بتدبُّرِ آيِ الذّكرِ الحكيـــمِ من الضروريّ جداً القيامَ بهِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ بسببِ أنَّ تعاليمَ ومعــــارفَ وعلومَ هذا القرآن الكريم تظلُّ دوماً تنبضُ بالحيويَّةِ وتشفي ما في صّدورِ النّـــاسِ في كلِّ زمانٍ ومكان.فهذا هو سرُّ كونِ هذا الكتاب السماويّ المبـــارك آخـــرَ الكتبِ المنزلةِ والّذي لم يعُد البشرُ بحاجةٍ بعدهُ إلى أيِّ كتابٍ سمـــاويّ جديـــدٍ وبديل.

ثمّ إنَّ اللّام في قولهِ تعالى (لِيدّبّروا آياته) وردت بمعنى تعليلِ الأمر الإلهيّ الصادر لتدبُّرِ آياتِ هذا الكتاب المبارك.حتّى تأتي الدّلالاتُ محمودةَ العواقب.وليتبيَّنَ ما فيها من خيرٍ وباستعمالٍ شاقٍّ لعقلِ هذا المتدبِّر (محيط المحيط)

ولنلاحظ كيفَ أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ قد أوردَ فعل (أنزلناه)بصيغةِ الجمعِ وليسَ بصيغةِ المفرد. والحكمةُ من ذلكَ لِيُشعرنا جلَّ شأنهُ بأنَّ عظمةَ هذا الكتاب المبارك نابعةٌ من عظمةِ الذّاتِ الإلهيَّةِ المقدَّسة.وقد نهجَ تعالى في ذلكَ منهجَ الملوكِ والرّؤساء.الّذينَ يستعملونَ صيغةَ (نحنُ) حينَ يُصدرونَ المراسيم والقرارات.

كذلكَ لِنُلاحظ كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى أتى بالجار والمجرور (إليك) في هذه الآيةِ الكريمة المذكورة وللدّلالةِ على أنَّ هذا الكتابَ المباركَ قد صدرَ عن الذّاتِ الإلهيَّةِ مُباشرةً ومُنزلاً على قلبِ محمَّدٍ (ص). وأنَّ الملاك جبريل عليهِ السلام لم يكن إلاَّ مجرَّدُ وسيطٍ بينهما.وبذلكَ يكونُ تعالى قد نفى ما زُعم من وُجودِ لوحٍ محفوظٍ صدرَ عنهُ هذا القرآنُ العظيم.وذلكَ لأنَّ حرف الجرّ (إلى) يفيدُ انتهاءَ الغاية.

ولا تنسَ يا عزيزي القارئ أن تُلاحظ الفقرةَ الّتي أنهى تعالى بها هذه الآيةَ المذكورةَ.فهو تعالى أنهى الآيةَ الكريمةَ بقولهِ (وليتذكّر أولوا الألباب).أي أنَّهُ تعالى أدخلَ اللّام على فعلِ المضارع فنصبتهُ بأن مضمرة بعينها وباتّفاق الجمهور.وعلى شاكلةِ ما فعلهُ في مقامٍ آخرَ حينَ قال(وأنزلنا إليكَ الذّكرَ لِتبيِّنَ للنّاس).ولنلاحظ كيفَ أنَّ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد سمّى الّذينَ يتدبَّرونَ كتابهُ العزيزُ بمنهجيَّتهِ وبأصولِ تفسيرهِ ويستفيدونَ ممّا توصّلوا إليهِ منه، قد سمّاهم (أولوا الألباب).

بمنهجيَّتِهِ وبأصولِ تفسيرهِ ويستفيدونَ ممّا توصّلوا إليهِ منه، قد سمّاهم **(أولوا الألباب)**.

شوائبُ العقلِ الأربعة:

وعليهِ فمن هو الّذي يصلحُ أن نُسمّيهِ باسم **(من أولي الألباب)**؟ فقد وردَ في (محيط المحيط): اللُّبُّ يعني العقلَ وخالص كلِّ شيءٍ أو **الخالص من الشوائب**.فكلُّ لُبٍّ عقلٌ، وليسَ العكس بصحيح فمن خلالِ هذا المعنى نُدركُ بأنَّ اللّهَ تعالى نبَّهَ إلى أنَّهُ لا يستحقُّ هذه التّسميةَ إلاّ الإنسانَ الّذي يكونُ مالكاً لِكاملِ قواهُ العقليَّةُ. والّذي صانَ عقلهُ من مخالطتهِ للشوائب.

ومن واجبكَ يا عزيزي أن تتساءلَ عمّا قُصِدَ بكلمةِ (الشوائب) الّتي وردت في المعجم الّذي ذكرناه . ألا إنَّ المقصودَ بالشوائب وحسبما استنبطتُهُ من كتابِ اللّهِ تعالى نفسه هي :

أولاً–أن يَشوبَ تدبُّر الإنسان للآياتِ الكريمةِ أن يحيدَ عن جادّةِ المحاكماتِ العقليَّة وقواعدها.

ثانياً–أن ينجرَّ فيما يتدبَّرهُ بعقلٍ تقليديٍّ يدفعهُ لِيُقلّدَ ما توارثهُ من أفكار.فلابدَّ للمتدبِّر أن يكونَ مُتحرِّراً من جميعِ المؤثّراتِ الخارجيَّة.فإن لم يفعل تشوبُ عمليَّةَ تدبُّره شائبة.

ثالثاً–وعليهِ فإن هو لم يلتزم بمنهجيَّةِ هذا القرآنِ وأصولِ تفسيرهِ فقد شابت عمليَّةَ تدبُّره شائبة أيضاً.

رابعاً–فإن كانَ غيرَ تقيٍّ و لم يكنِ اللّهُ تعالى قد طهّر فؤادهُ من الهوى وغيرهِ من الشوائبِ فلا يكونُ هذا الإنسانُ المتدبِّرُ مؤهّلاً لِما يقومُ بهِ من تدبُّر. ولقولهِ تعالى **(لاَ يمسُّهُ إلاّ المطهَّرون)**.

فهذه هي الشوائبُ الأربعةُ الّتي هي في نظري تدخلُ في باب الشوائب الّتي تشوبُ عقلَ هذا الإنسان الّذي يتصدّى لِتفسيرِ آيات هذا القرآن العظيم حينَ يتصدّى لهُ ويجلِسُ يتدبَّرُ آياتهِ الكريمة. هذا وإنّي استنبطتُ ذلكَ من مُعطيات مضامينِ آيات القرآنِ الكريمِ نفسها.ذلك أنَّ اللّهَ تعالى دأبَ على مُخاطبةِ عقلِ هذا الإنسان.كما دأبَ على ذمِّ أصحابِ العقول التَّقليدية. ومن الطبيعيِّ جدّاً أن يذمَّ اللّهُ تعالى أيضاً كلَّ من لا يلتزمُ عند قيامهِ بعمليَّةِ تدبُّره لآياتِ هذا القرآن المجيدِ بمنهجيَّةِ القرآن وبأصولِ تفسيره.وإنَّ طهارةَ الفؤادَ ضروريَّةٌ جدّاً أيضاً لصريحَ قولهِ تعالى **(لا يمسُّهُ إلاّ المطهَّرون)** سورةُ الواقعة الآية ٧٧ — وهو قولٌ واضحُ الدلالةِ والمعنى.

والآنَ أفهمتَ يا عزيزي القارئ لماذا أمرنا اللّهُ تعالى بتدبُّرِ آيات هذا القرآن الكريم؟ قد أمرنا بذلكَ للفارقِ الكبيرِ ما بينَ هذا الكتاب العزيز وما بينَ كتبِ الأدباءِ وشعرِ الشعراء. فالفارقُ بينهم يساوي الفرقَ ما بينَ الأرضِ والسماء.لكونِ هذا القرآن المجيد لا يضنُّ على أحدٍ بعطاء.بل يُعطهِ على قدرِ ما عندهُ من عقلٍ وإدراك.ولكونهِ منهجيٌّ في كلِّ ما تضمَّنهُ من أحكامٍ وعلوم.ولكونهِ يستعصي فهمهُ على غيرِ العلماء الرّبانيّين.فهو كتابٌ مؤسَّسٌ على منهجيَّةٍ وأصولِ تفسيرٍ مُنبثّةٍ هنا وهناكَ ضمنَ آيات سورِ هذا الكتاب العزيزِ وبصياغةٍ فريدةٍ في صياغتها وفي أسلوبِ بثّها بينَ تلكَ الآياتِ المقدّسةِ والمُباركة.

فإنَّ هذا القرآنَ الكريمَ يا عزيزي القارئ هو كتابٌ أُحكمت آياتهُ ثمَّ فُصِّلت من لدُن حكيمٍ خبير.وقد أتت كلُّ سورةٍ من سورهِ كبناءٍ شاهقٍ ناطحٍ للسّحاب.وإنَّ لوقعِ تلاوةِ آيات هذا القرآن العظيمِ موسيقى تُشنِّفُ الآذان.فصحَّ تسميتهُ تارةً قرآناً وتارةً فرقاناً وتارةً ذكراً وحكيماً ومباركاً. واعلم يا عزيزي القارئ أيضاً أنَّهُ لولا إنزالُ اللّه تعالى لهذا الكتاب العزيز لكانت قد اندثرت

المعالم الحقيقيَّةُ للأديان السماويَّةِ السابقة ولكان قد امحى معها سماتُ القداسةِ والطّهارةِ من عالمِنا أيضاً. ولكُنتَ قد عُدتَ تسمعُ من تحتِ أقلامِ الكتّاب أسماءَ الأنبياء: آدمُ ونوحٌ وآلُ إبراهيمَ وغيرها من الأسماءِ على أنّها كانَ أصحابُها أبطال أساطيرَ وما كانوا رسلاً ولا أنبياء كرام.

لذلكَ أكرِّرُ وأقول: لقد آنَ للنّاسِ أن يعلموا بأنَّ هذا الكتاب ما هو بكتابِ عاديٍّ، ولا يجوزُ للإنسان أن يأخذَ من آياتهِ ما يتبادرُ لذهنهِ منها من معان.بَل إنَّ من واجبِ القيام بتدبُّرِ آياتهِ بمراعاتهِ البنودِ الأربعةِ الّتي ذكرتها آنفاً. وإنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ قد صدقَ فيما قالهُ في كتابهِ العزيز: **(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)** سورة القيامة ١٧-

مفهومٌ ينبغي تصحيحه:

وقد يتساءلُ المرء: لماذا أنهى هذا الكاتبُ الفقرةَ الأخيرةَ بالآية **(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)** ؟

أقول: إنَّ هذه الآية الكريمة اقتطعتُها من سورةِ القيامة.وبما أنّي نوّهتُ من قبلُ إلى أنَّهُ لا يجوزُ اقتطاعُ أيَّة آيةٍ بمعنى يتنافى مع سباقها وسياقها في السورةِ الواردةُ فيها.وكانَ المفسّرونَ القدماء قد أشاعوا لهذه الآيةِ الكريمةِ تفسيراً مُتبادراً للأذهانِ ومُقتطعاً عن سباقهِ أيضاً.فقد اضطرَّني هذا الأمرُ لأقولَ بضرورةِ تصحيح المعنى المتوارث المذكور.

ولا أدعُ هذا الإنسانَ يُراجعُ ما كتبهُ ابنُ كثيرٍ رحمه اللّه في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمة.بل أنقلُ لهُ ذلكَ تسهيلاً عليه.قال ابن كثير (هذا تعليمٌ من اللّه عزَّ وجلَّ لرسولهِ (ص) في كيفيَّةِ تلقّيهِ الوحيَ من الملك.فإنَّهُ كانَ يُبادرُ إلى أخذه ويُسابقُ الملكَ في قراءته.فأمرهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ إذا جاءهُ الملكُ بالوحيِ أن يستمعَ

له.وتكفَّلَ اللَّهُ لهُ أن يجمعهُ في صَدره.وأن يُيسّرهُ لأدائهِ على الوجهِ الّذي ألقاهُ إليه.وأن يبيِّنهُ لهُ ويفسّرهُ ويوضِّحُه.فالحالةُ الأولى جمعهُ في صَدره.والثانية تلاوتُه.والثالثةُ تفسيرُهُ وإيضاحُ معناه.ولهذا قال تعالى(**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**)أي بالقرآن.كما قالَ تعالى (**ولا تعجل بالقرآن من قَبلِ أن يُقضى إليكَ وحيُه وقل ربِّي زدني علماً**).ثمَّ قالَ تعالى (**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ**) أي في صدركَ.(**وَقُرْآنَهُ**) أي أن تقرأه(**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ**) أي إذا تلاهُ عليكَ الملكُ عن اللَّهِ تعالى(**فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**) أي فاستمع لهُ ثمَّ اقرأهُ كما أقرأك(**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**)أي بعدَ حفظِهِ وتلاوتِهِ نُبيِّنهُ لك ونوضِّحهُ ونُلهمكَ معناه على ما أردنا وشرَّعنا)- تفسير ابن كثير تحت الآية سالفة الذّكر-

وأنا أسألُ هنا: وهل من فرقٍ بينَ تفسيرِ ابن كثيرٍ لهذه الآيات وما بينَ تفسيرِ(**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ**) المقتطع عن سياقه؟ وكيفَ أمكنهُ رحمهُ اللَّه تحديد الاسم العائد إليهِ ضمير (**بِهِ**) ؟ وما هي علاقةُ قوله تعالى (**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ**) بقولهِ تعالى قبلهُ (**بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**)؟ وما علاقتهُ بما بعدهُ أيضاً وهو قولهُ تعالى (**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ**)؟ وما هو موقعُ ذلكَ كلِّهِ من مضمونِ سورةِ القيامة؟ فهذه أسئلةٌ كثيرةٌ ينبغي الإجابةَ عليها لِتقريرِ مدى صحَّةِ التَّفسيرِ المذكور وهي أسئلةٌ يُفرزُها عمليَّةُ تدبُّرِ هذه الآيات الكريمة.وأنا أكتفي هنا بطرحِ هذه التّساؤلات.إنّما سأجيبُ عليها في الوقتِ المناسبِ لذلكَ فيما بعد. وأنتقلُ الآنَ إلى بحثِ أصولِ التّفسيرِ نفسه.

البـــاب الثاني

- الفصلُ الأوّل : تمهيدٌ ضروريّ
- الفصلُ الثّاني : الأصلُ الثاني للتّفسير (اللّغة)
- الفصلُ الثالث : الأصل الثّالثُ للتّفسير (كلّ ادّعاءٍ ودليلُه)
- الفصل الرّابع : الأصل الرّابع للتّفسير مراعاة: (الرّحمان والرّحيم)
- الفصل الخامس : الأصلُ الخامسُ للتفسير
- الفصل السادس : الأصلُ السادسُ للتّفسير
- الفصل السابع : الأصلُ السابع:تسلسُل الآيات الموضوعيّ



الفصــــل الأوّل

تمهيدٌ ضروريٌ

لقد انطلقتُ، وعلى حسبِ ما كنتُ بيَّنتهُ سابقاً من أنّ جميعَ مفسّـــريّ أمّتنا الإسلاميَّة رحمهمُ اللّهُ تعالى لم يلتزموا في تفاسيرهم بأيَّةِ منهجيَّةٍ ولا أيَّـــةِ أصولِ تفسيرٍ نابعةٍ من ضمنِ مُعطيات هذا القرآن الكريمِ نفسه.وأنَّهُم حـــاولوا فقط أن يلتزمَ بعضُهم بما نظَّرهُ لهم العلاّمة ابنُ تيميَّة رحمه اللّهُ وهو هذه الطّرائـقُ الخمسةُ الّتي أسلفتُ ذكرها للقارئ من قبل.وبذلكَ يكونُ انقضى على ظـــهورِ الإسلامِ الحنيفِ أكثر منذ أربعة عشر قرنٍ من الزّمان، وقد ظلَّ الحالُ على مــــا وضَّحناهُ وبيَّناه فانتهى الأمرُ بهذه الأمَّةِ إلى ما تُعانيه حتّـــى ضـــاقَ المثقّفــونَ المعاصرونَ ممّا بينَ أيديهم من هذه التَّفاسيرِ الّتي تُخالفُ بعضُ مُعطياتها مُعطيـات حقائق عصرنا العلميَّة.وكادَ المثقّفُ الفطنُ المتحرّر يظنُّ بالتّالي أنَّ العلمَ وهـــذا القرآن الكريم لا يتّفقان ولا يُشكّلانِ وجهينِ لِعملةٍ واحدة . وفي وقتٍ نبَّـــهتُ فيهِ من أوّلِ الطّريق إلى أنَّ اللّهَ تعالى انطلقَ انطلاقةً علميَّـــةً وبمنهجيَّـــةٍ علميَّـــةٍ أيضاً.فلا يُعقلُ أن تختلَّ موازينُ هذه الانطلاقةِ من خلالِ مُعطياتِ آياتِ متنِ هذا الكتابِ العزيز.

كذلكَ وضَّحتُ من قبلُ بأنَّ اللّهَ تعالى الّذي أمرنا أن نتدبَّرَ آيات هـــذا القرآن الكريم.كانَ من المستحيلِ على هذا المتدبّر أن يصلَ إلى المعاني الحقيقيَّـــةِ للآياتِ بدونِ الالتزامِ بمنهجيَّةٍ وأصولِ تفسيرها. وقد شرحتُ للقارئِ معنى قول

اللَّهِ تعالى (**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**).تأكيداً للطّرحِ المذكور.

لكنَّ الأمرَ المخيف هو كيفَ انقضى أربعة عشر قرناً من الزّمان وظلَّ علماءُ هذه الأمَّةِ يجهلونَ هذه المنهجيَّةَ وتلكَ الأصولُ ؟؟ فهذا سؤالٌ مُحيِّرٌ حقّاً.ويستحيلُ أن تغيبَ هذه الحقيقةُ عن علمِ اللَّهِ الغيبيّ.فهل أشارَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ إلى هذه الحقيقةِ في أيِّ مقامٍ من كتابهِ العزيز؟ وهل يُعقلُ أن يتركَ اللَّهُ تعالى هذه الأمَّةِ على الحالِ المذكورِ وقد أكّدَ في كتابهِ العزيز أنَّ هذا الدّين هو آخر الأديان وأنَّ كتابهُ القرآن هو آخرُ الكتب السماويَّة وأنَّ محمَّداً (ص) هو (خاتم النّبيّين)؟؟

فهذه التّساؤلاتُ أرّقتني زمناً طويلاً.فما اعتدتُ أن أتقبَّلَ شيئاً بعقلٍ تقليديٍّ ويُرافقهُ شكوكٌ ومعَ ذلكَ أغمضُ طرفي عنها بشكلٍ من الأشكال.وهذه الحقيقةُ هي الّتي دفعتني لأعيدَ النَّظرَ في كلِّ ما تَوارثناهُ عن أجدادنا من تراثٍ دينيّ مهما كانَ مصدره.ومهما عَلَت مرتبةُ صاحبه.إنّما بدونِ تفريقٍ مذهبيٍّ وطائفيّ. وكانَ الشكُّ الّذي انطلقتُ منهُ هو المعينُ لي للاهتداءِ إلى الإجابةِ عن جميعِ ما ذكرتهُ من تساؤلات آنفة الذّكر.وكانَ الدّعاء بين يدي اللّهِ عزَّ وجلَّ المنفذَ الّذي تنفّستُ منهُ رياحَ الهدى على هذا الطّريق.كيفَ لا وقد حثّنا اللَّهُ تعالى نفسهُ على الدّعاءِ بينَ يديهِ وطلبَ منّا أن ندعوهُ ونحنُ مُتضرّعينَ ليستجيبَ أدعيتنا ؟ ونعمَ المولى ونعم النَّصير.

أقول: ألم تنتبه يا عزيزي القارئ كيفَ أنَّ اللَّهَ تعالى قد أتى بحوف (ثُمَّ) في الآيةِ الّتي أوردتُها لك من سورةِ (ص) ١٧وقال (**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**)؟ وكيفَ أنَّهُ تعالى قالَ قبلَ ذلكَ (**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ**)؟ فالقرآنُ الكريمُ قد هَيّأت أسبابُ جمعهِ من وراءِ الغيب، وكما هو معروفٌ تاريخيّاً.فذاتُ اللَّهِ تعالى لا تَترلُ بنفسها لِتحقيقِ ما وعدَنا به.بل إنَّ اللَّهَ جلَّ شأنهُ هو مسبِّبُ الأسبابَ الّتي

تؤدّي للوفاءِ بوعوده.فهذه حقيقةٌ تنطبقُ على جميعِ ما وعدَ اللَّهُ تعالى بهِ عباده.وكما أنَّهُ تعالى وعدَ بجمعِ القرآن وسبَّبَ أسبابَ الوفاء بما وعدَ.فينبغي علينا أن نقيسَ وعلى تلكَ الصّورة نفسها وعدهُ هنا (**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**).وكان علينا أن نفترض بأنَّ اللَّهَ تعالى كانَ سيُسبِّبُ الأسبابَ الّتي تؤدّي إلى بيانِ المعاني الحقيقيَّة لهذا الكتاب العزيز.

فالحرف (ثمّ) يستعملُ للعطفِ مُطلقاً.وللعطفِ والتَّرتيب لقولهِ تعالى (**إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا**) (محيط المحيط).فبالنَّظر إلى هذه الدّلالة يكونُ اللَّهُ تعالى قد نبَّهَ أذهاننا من خلالِ حرف (ثمّ) هذا إلى أنَّ الأمَّةَ الإسلاميَّةَ ستمرُّ من مَرحلتينِ مُنفصلَتين.المرحلةُ الأولى الّتي يتحقّقُ فيها جمعُ القُرآنِ الكريمِ وقُرآنه.ومرحلةٌ أُخرى تأتي بعدها ويتمُّ فيها بيانُ المعاني الحقيقيَّةِ للقرآن المجيد.فهذا هو ما فهمتهُ أنا من قولِهِ تعالى (**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**). فهذا التَّفسيرُ نابعٌ من واقعِ تاريخِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ نفسها.إذ أنّنا على أبوابِ هذه المرحلةِ الثانيةِ الّتي نطّلعُ فيها على منهجيَّةِ هذا القرآنِ الكريمِ وأصولِ تفسيرِه وبفضلٍ من اللَّهِ ذو الجلال والإكرام.وتبدأ المعاني الحقيقيَّة تطفوا على السطحِ نتيجةً للأخذِ بهذه المنهجيَّةِ والأصول النّابعةِ من القرآن الكريمِ نفسه ولالتزامنا بها حينَ نجلِسُ نتدبَّرُ في هذه الأيّام آيات هذا الكتاب العزيز. أمّا بيانُ الرّابطة الموضوعيَّة لهذا المعنى المتعلّقُ بالنّصِّ القرآنيِّ المذكور فأؤجّلُهُ إلى حينِ تأتي مُناسبةُ بيانه لكيلا أشطَّ عما أنا موضّحهُ في هذا المقام.

فالمهمُّ في الأمر هو أنَّ القارئَ إذا أخذَ بوجهةِ نظري هذه.يزولُ استغرابُهُ الّذي كانَ قد عبَّرَ عنهُ وقال من قبلُ:كيفَ يُمكِنُ أن تمضِ على أمَّتنا هذه المدَّة الطويلةُ ولا تتَّضِحُ خلالها لأعيُنِ مفسّري أمّتِنا رحمهم اللَّهُ معالمُ منهجيَّةِ القرآن الكريمِ وأُصولِ تفسيره.أما وقد اعتقدَ بأنَّ هذا الأمرُ كانَ مُقدَّراً من جانبِ ربِّنا

عزَّ وجلَّ هذا الإلهُ الّذي شاءَ أن يُثبتَ للعالَمِ أجمع من خلالِ تحقيقِ ذلكَ التّقدير بأنّهُ تعالى هو علاّمُ الغيوب وأنّهُ سيُسبِّبُ ما يلزمُ من الأسبابِ لِتحقيقِ ما سبقَ لهُ تعالى أن قدَّره.وأنّهُ جلَّ شأنهُ فعّالٌ لِما يريد.ولِيُثبتَ من خلالِ ذلكَ كلِّهِ عظمةَ ذاتهِ وعظمةَ هذا الكتاب السماويّ المبارك والأخير من بينِ الكتبِ المنزلةِ من لدُنه جلَّ شأنه فلا يعودُ هناكَ من استغراب.

فاعلم يا عزيزي القارئ بأنّنا اليومَ على أبوابِ دورٍ جديدٍ في مجالِ تفسير هذا الكتاب المقدّس إن شاءَ اللّهُ العزيز.وسيثبُتُ للعالَمِ من الآن فصاعداً أنَّ حقائقَ العلمِ ومُعطيات آيات هذا القرآن المجيدِ ما هما إلاّ وجهانِ لِعملةٍ واحدة. فاللّهُ هو مُبدِعُ هذا الكونِ واللّهُ هو مُنزّلُ هذا الكتاب العزيزَ.فمصدر العلمِ والقرآنِ واحدٌ أيضاً وبذلك فلن يوجدَ تناقضٌ ما بينَ العلم والدّينِ الّذي تدينُ بهِ تعاليمُ هذا القرآن العظيم.

وأضيفُ في هذا التّمهيد فأقول: سأحاولُ حينَ أستنبطُ أصولَ تفسيرِ هذا القرآن العظيم من خلالِ مُعطيات آياتهِ الكريمةِ.فسأحاولُ التّقيُّدَ بالأسسِ العلميَّةِ الثلاثةِ المعروفة وهي الملاحظةُ والتّجربةُ والاستنتاج. لأنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد جعلَ هذه الأسسَ الثلاثة عاملاً مُساعداً لِعقلِ الإنسانِ لإدراك ما في هذا الكون من حقائقَ مَخفيَّةٍ عن الأنظار.وهي حقيقةٌ وضّحتُها في مؤلَّف (**نظريَّةُ جذور الأخلاق**) وهو كتابٌ بإمكانِ القارئ مراجعتهُ والتّوسُّعَ في فهمِ هذا الموضوع هناك.

فبهذا الفهمِ وبهذه الرّوح المطلوبة من الباحثِ المحقّق أتوكّلُ على ربّي كي يؤيّدني في كلِّ ما سأقدّمهُ للقارئ في هذا المؤلَّف من حقائقَ ومعلومات.وأدعوهُ سبحانهُ وتعالى أن يجعلَ ذلكَ كُلّهِ نبراساً يهدي بهِ من يشاء من عبادهِ. أللّهمَّ آمين.

الأصلَ الأوّل للتّفسير:

وبأسلوب الملاحظة العلميّ دقّقتُ نظري في قولهِ تعالى (**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**).وحينَ راجعتُ سِياقَ هذه الآية الكريمة لاحظتُ هناك أنَّ اللَّهَ تعالى استهلَّ سورةَ (ص) هذه بقولهِ تعالى: (**ص وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ**) بمعنى أنَّهُ تعالى أقسمَ في هذه الآيةِ الأولى بكلمةِ (**وَالْقُرْءَانِ**) وهي صفةٌ للكتاب العزيز وليست اسماً لهُ وعلى حسب ما وضَّحتُهُ سابقاً. فلمَّا كانَ قد أمرنا اللَّهُ جلَّ شأنهُ بتدبُّرِ هذا القرآن لا حظنا بأنَّهُ تعالى أعرضَ هناكَ عن إيراد هذه الصِّفة (**قُرْءَانِ**) واستهلَّ الآيةَ الكريمة بالاسمِ الذاتي لهذا القرآن وهو كلمةُ(**كِتَابٌ**) ومنوّنٌ على آخره. ومن المعلومِ أنَّ اللَّهَ تعالى لا يُجري مثلَ هذا التَّبديلِ بدونِ مبرِّرٍ وحكمةٍ جليلة القدر.ولذا تساءلتُ في حديثِ نفسي عن سرِّ ذلكَ الاستبدالِ.فكيفَ يُقسمُ اللَّهُ تعالى بالصِّفة في آيةِ الاستهلال. ويوردُ كلمةَ (**كِتَابٌ**) في هذه الآيةِ الّتي يأمُرُنا فيها بتدبُّرِ آياته؟ ولِمَ لَم يُكرِّر كلمةَ (**قُرْءَانِ**)؟

وراجعتُ الآياتِ الأواخر من سورةِ الصّافّات الّتي أتت قبلَ سورةِ (ص) بترتيبِ تلاوتها.وقد انطلقتُ في مراجعتي هذه من مُنطلقِ أنَّ بينَ كلِّ سورةٍ وسورةٍ علاقةٌ موضوعيَّةٌ ورابطةٌ تربطُ بينهما فلاحظتُ هناكَ بأنَّ اللَّهُ تعالى غمزَ جانبَ أهلِ التّثليثِ وذلك في الآية ١٥٢ من سورة الصّافّات الّتي قالَ تعالى فيها (**أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**).وقالَ في الآيةِ ١٥٩ (**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**)وقد أنهى تعالى سورةَ الصّافّات بقولهِ تعالى (**وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ. وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ. سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) الآيات ١٧٨-١٨٢-وخلاصةُ ذلكَ هو أنَّ اللَّهَ تعالى لم يُقرِّر إهلاكَ أهلِ التَّثليثِ في زمنِ محمَّدٍ

(ص) كما يبدو من هذه الآياتِ الّتي أوردتُها آنفاً.بل تركهم (**حتّى حين**) لقولهِ تعالى (**فتولَّ عنهم حتّى حين**).

ذلكَ أنَّ من المعلومِ هو أنَّ حرف الجرّ (**حتّى**) يغلُبُ استعمالهُ لانتهاء الغاية.كما هو واردٌ في هذا الموضع.أمّا كلمةُ (حين) فتدلُّ على وقتٍ مُبهمٍ غير معيَّن وتصلحُ للدّلالةِ على جميعِ الأزمان طالَ هذا الزّمنُ أو قَصُر (محيط المحيط).وقد أثبتُّ في مؤلّفي (**في ظلال تفسير سورة الكهف**) أنَّ هذا الحين يُشيرُ إلى نهضةِ أهلِ التّثليث المعاصرة.فالإنذارُ بهلاك هؤلاءِ مُتعلّقٌ بوقتنا الحاضر.ولا حاجةَ بنا للخوضِ في التّفاصيل. فإن نحنُ أخذنا هذه المعاني الّتي أورَدَها سورةُ الصّافّات.يكونُ اللَّهُ تعالى قد استهلَّ سورةَ (ص) بقولهِ تعالى(**ص وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ**)وليُنبئ اللَّهُ تعالى العالَمَ أجمع بأنَّ كتابهُ العزيزُ المُنزلُ ستُتلى آياتهُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وبكثرةٍ ظاهرةٍ وهو معنى كلمة (**قرآن**).وسيثبتُ من خلالِ بقائهِ على تلكَ الحالِ أنَّ اللَّهَ تعالى هو(صادقٌ) فيما أنذرَ بهِ أهلَ التّثليث وبما يتعلّقُ بمصيرهم فيما يسمّى(آخر الزّمان) في عُرفِ المسلمين.فهذا هو معنى حرف(**ص**)المختزل من كلمةِ صادق وليرجع القارئ تفصيليًا في ذلكَ إلى(**فنّ الاختزال في القرآن الكريم**).وإنّهُ (**قرآنٌ**) ذو الذّكر أيضاً.أي أنّهُ يُتلى دوماً ويُحضرُ في أذهانِ سامعيهِ وهي نبوءةُ سورةِ الصّافّات سالفة الذّكر. فهذا هو الدّاعي الّذي دعا اللَّهَ تعالى لِيوردَ كلمةَ (**قرآن**)على حدِّ رأيي في آيةِ الاستهلال.

والآن فإن نحنُ استبدلنا كلمةَ (**كتابٌ**) الواردةُ في الآية ٢٩ من سورةِ (**ص**) نفسها بكلمةِ (**قرآن**). تفقدُ الآيةُ حيويَّتها.بسببِ أنَّ هذه الصّفة لا تُفيدُ معنى كلمة (**كتابٌ**) ومنوَّنةٌ على آخرها. ومن خلالِ هذا الملاحظة الّتي لاحظناها آنفاً.فقد عادَ بإمكاننا أن نُدرك الحكمةَ من هذا الاستبدال الّذي قامَ بهِ اللَّهُ جلَّ شأنه.فما هو الأمرُ الّذي استنتجناهُ وما هي الحكمةُ منه؟

واستناداً إلى شرحي لهذه الآيةِ الكريمةِ السابق. أُجيبُ على هذا السؤال وأقول: إنَّ اللَّهَ تعالى ألقى في رَوعي بأنَّ وراءَ هذا الاستبدال حكمةٌ بالغةٌ وهي أنَّ اللَّهَ تعالى وبهذا الأسلوب قد أمدَّنا بأوَّلِ أصلٍ من أُصول تفسيرِ آيات كتابه العزيز.ويتمثَّلُ هذا الأصلُ التّفسيريّ في أنَّ اللَّهَ جلَّ شأنهُ يكونُ قد نبَّهَ ذهنَ المؤمنَ الّذي يريدُ أن يفسِّرَ آياتِ القرآن الكريم أن يلتزمَ بالانطلاق في تفسيره لتلكَ الآيات من كونها تمثّلُ جزءٍ لا يتجزَّأ من كتابٍ عظيمٍ ومباركٍ له مقدِّمتهُ ومتنهُ وخلاصتُه.فلا يقتطعَ الآيةَ من موضعها ويأخذَ لها معنى مُتبادراً لذهنهِ منها وهي مُقتطعةٌ عن سباقها وسياقها وتسلسلها الموضوعيّ بل إنَّ من واجبهِ أن يقومَ بتدبُّرِ ألفاظَ الآيةِ وصيغتها وليأخذُ للآيةِ المعنى الّذي يتَّفقُ مع سباقها وسياقها المذكورين وبِعُمقٍ يتناسبُ مع منزلةِ ومكانةِ هذا الكتاب ومنزلةِ ومكانةِ الذّات الإلهيَّةِ الّتي أنزلته.فإن اكتفى بمعنى سطحيٍّ تبادرَ لذهنهِ لا يكونُ قد التزمَ بمنهجيَّةِ القرآنِ ولا بأصولِ تفسيره.

وهكذا تتجلّى لأعيننا حكمةٌ بالغةٌ للاستبدال الّذي لاحظناهُ من جهة.ونكونُ قد عثرنا على الأصلِ الأوَّلِ للتّفسيرِ مُصاغاً صياغةً بلاغيَّةً فريدةً في نوعها.وتختلفُ في أسلوبِ عرضها عن أساليبِ جميعِ من نعرفهم من الأدباء والكتّاب والعلماء.وإنني توصَّلتُ إلى هذه النّتيجة بأسلوبِ الملاحظة العلميّ واستنتاجاته.

ثمَّ إنَّهُ وردَ في (محيط المحيط)بشأن كلمةِ (**كتاب**):أنَّ الرّسالةَ التّحريريّة تُسمّى كتاب.وأنَّ الرسالةَ الشفهيَّةَ تُسمّى أيضاً كتاب.وأنَّ كلمةَ (كتاب) تُطلقُ على كلِّ ما هو مكتوب.وعليهِ كانَ من واجبنا أن نُحيطَ علماً بالمقوِّماتِ الّتي يستحقُّها اسمُ (**كتابٌ**) ووفقَ المفهومِ الأدبيّ المتعارف عليهِ لننظُرَ هل استوفى القرآنُ المجيدُ هذه المقوّمات من حيثُ الواقع؟

مقوّمات الكتاب السبعة:

وفي نظري كمؤلّف فلا بُدَّ من توفُّر المقوِّمات التالية فيما استحقَّ اسمَ (**كتاب**) وهي:

أوّلاً-أن يُكتبَ الكتاب بلغةٍ معروفةٍ ووفقَ قواعدها ودلالاتِ ألفاظها وبتراكيبَها الأدبيَّة المعروفة.

ثانياً-وأن يكونَ للكتابِ مقدّمةً ومتناً وخاتمةً مُختصرة.وأن تأتِ الأفكارُ مُنسَّقةً تنسيقاً منطقيّاً معقولا

ثالثاً-وأن يمهِّدَ المؤلِّفُ لِموضوعهِ وأن يقسِّمهُ وحسبَ الضرورةِ إلى أبوابٍ وفصول.

رابعاً-وأن يراعي هذا الكاتبُ فيما يكتبهُ تسلسُلاً موضوعيّاً واضحَ المعالم.

خامساً-وألاّ تتّصفَ أفكارُ الكتابِ بالتشتُّتِ.بل أن تتَّصفَ بالوحدةِ في موضوعها وضمنَ محورٍ واحد

سادساً-وأن يتَّصفَ أسلوبُ الكاتبِ بصفةِ العلميَّة القائمة على الملاحظةِ والتّجربةِ والاستنتاج.

سابعاً-وأن يُثبتَ هذا الكاتبُ تضلُّعهُ فيما اختصَّ فيه من علوم.

فهل استوفى القرآنُ الكريمُ مُقوِّمات كتاب؟:

ففي رأيي فإنَّهُ إذا لم يستوفِ الكاتبُ فيما يكتُبهُ هذه المقوّمات السبعةَ سالفة الذّكر، فلا يستحقُّ ما يكتبهُ إعطاءهُ اسمَ (**كتاب**) بالمفهومِ الأدبيِّ والعلميّ. بل شبهَ كتاب. واستناداً للمقوِّماتِ المذكورة كانَ من واجبي إثباتَ أنَّ هذا القرآن الكريم قد استوفى هذه المقوِّمات جميعها وعلى وجهِ الكمال.والغايةُ من ذلكَ هو التأكيد على مِصداقيَّةِ الأَصلِ الأوّل للتَّفسير الّذي توصّلنا إليه.فإن كانَ هذا القرآنُ الكريمُ غيرَ مُستوفٍ للمقوِّماتِ الّتي ذكرناها.تضعفُ مِصداقيَّةُ الأصلِ التَّفسيريِّ المذكور وعلى حسبِ ما أراه.

وقد تقصّيتُ وجودَ هذه المقوّماتِ جميعها في كتاب اللّهِ العزيز.ولتشكّلَ الدّليلَ القاطعَ على استحقاقهِ اسمَ(**كتاب**).وأنّهُ كتابٌ مُنزلٌ مقــدّسٌ ومبــاركٌ أيضاً.وليأخذ الّذي يريدُ تدبُّرَ آياتهِ هذه الأمورَ حينَ قيامهِ بعمليّةِ تدبُّرهِ بعــينِ حُسبانه.

١-المقوّمةُ الأولى:

وبحثتُ عن لُغةِ القرآنِ الكريمِ ولسانهِ النّازلِ به.وقد يعترضني هنا قــائلٌ يقول:أتبحثُ عن بديهيّةٍ فنحنُ عربٌ ولسانُ القرآنَ الكريمِ عربيّ.فــأردُّ عليــهِ وأقول: لا أختلفُ معكَ في ذلكَ لكنّهُ الأسلوبُ العلميُّ هو الّذي يتطلّبُ منّــي ذلكَ ولأبرزَ النّصوصَ القرآنيّة نفسها الّتي تشهدُ على مصداقيّةِ هــذه المقوّمــة المشار إليها.

فأتناولُ أوّلُ ما أتناول ما استهلَّ اللّهُ تعالى بهِ سورةَ الأحقاف على سبيلِ المثال.فقد قالَ تعالى هناك: (**حم. تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيــزِ الْحَكِيــمِ**). وتوالت الآياتُ إلى أن قالَ تعالى في الآيةِ الثّانيةَ عشرة (**وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْــرَى لِلْمُحْسِنِينَ**).

فإن تساءلَ إنسانٌ عن لُغةِ هذا القرآن الكريم، فإنَّ اللّهَ تعــالى يُجيبــهُ ويقولُ في هذه الآيةِ الكريمة إنّ لُغة هذا القرآن هي (**لِسَانًا عَرَبِيًّا**).ولم يكتــفِ اللّهُ جلَّ شأنهُ بهذا التّصريحِ المذكور.بل نلاحظُ أنَّ اللّهَ تعالى قد ربطَ ما بينَ لُغةِ القرآن وما بينَ لُغةِ نبيِّهِ محمَّد (ص) ربطاً موضوعيّاً. فهو تعالى راحَ يقــولُ في الآية ٩٧ من سورةِ مريم (**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِــهِ قَوْمًا لُدًّا**).ولم يكتفِ اللّهُ تعالى بهذا التّصريحِ بل أكّدهُ في الآية ٥٨ من ســورة الدّخان الّتي قالَ فيها (**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**).والمعنى أنّــهُ لم يكن غرضنا من تيسيرِ هذا (**الكتاب**) بلِسانكَ أيُّها الرّسولُ الصّادقُ الأمينُ هــو

لِمجرَّدِ إنذارِ هذا القومِ فقط.بل وكانَ غرضنا أيضاً أن تقدِّمَ من أجلِ هدايتــهم تعاليمَ هذا **الكتاب** الّتي تكمُنُ فيها عزَّهم ورقّهم ولإنقاذهم من واقعِ تخلُّفهم.

فهل لاحظتَ يا عزيزي القارئ كيفَ أنَّ هذا القرآن الكريم قد اســتوفى المقوّمةَ الأولى وهي أنَّ اللّهَ تعالى قد أنزلهُ (**لِسَانًا عَرَبِيًّا**)، وبلسانِ محمَّــدٍ (ص) نفسه وموضِّحاً المقصدَ من ذلكَ أيضاً.

ومن واجبنا أن نفهمَ دلالةَ قولِ اللّهِ تعالى بحقِّ كتابــه كونــه (**لِسَــانًا عَرَبِيًّا**).فاللّسانُ يعني اللّغة. وما دامت الكلمة وردت منوَّنةً فللإشعارِ بعظمــةِ اللُّغةِ الّتي أُنزلَ بها هذا **الكتابُ** العظيم.وأمّا قولهُ تعالى (**عَرَبِيًّا**) فلا يُقصدُ بهــذه الكلمة مجرَّدَ نسبِ لُغةِ القرآن إلى القومِ العربيِّ.بل إنَّ كلمــةَ(**عَرَبِيًّــا**) تحمــلُ دلالات غير ذلك.فأنت تقول: أعربَ الرّجلُ في كلامهِ معناه أنّهُ حسَّنهُ وأفصــحَ ولم يُلحن في التّكلُّم والإعراب والسؤالِ والجواب(محيط المحيط).وعليهِ فقد قُصِــدَ بقولهِ تعالى (**لِسَانًا عَرَبِيًّا**)بأنَّ هذا الكتاب أُنزلَ بلُغةٍ تمتازُ بقوَّة الإبانةِ والإيضــاح والرّزانة.فكلمةُ (**عربيّاً**) تُستعملُ في اللُّغةِ عكسَ كلمةِ **أعجميّاً** الّتي تدلُّ علــى عدمِ الفصاحةِ في الكلام.فهاتان الكلمتان مُتقابلتان ومُتضادّتان في المعنى.وما دام اللّهُ تعالى قد أوردَ كلمةً(**عربيّاً**)منوّنةً على آخرها.فللإشعارِ بعظمــةِ الصّياغــة البلاغيَّةِ المُعجزةَ للّغةِ الّتي صاغَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بها آيات كتابهِ العزيز حتّى عــادَ هذا القرآنُ الكريمُ مرجعاً للعربِ في لُغتِهم.وبذلك يكونُ هذا الكتابُ العزيزُ قــد حفظَ للعربِ لُغتهم أيضاً.فهذه هي دلالاتُ قولِ ربِّنا جلَّ شأنهُ هنا بحقِّ كتابــهِ العزيز (**لِسَانًا عَرَبِيًّا**).

ألا إنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ امتازت عن جميعِ لُغاتِ العالم من حيثُ كونها (**لُغــةٌ علميَّةٌ**). وهذه حقيقةٌ شهدَ بها كبارُ رجالاتِ العالم اللّغويين.فهي تقومُ علــى قواعدَ من الصّرف والنّحوِ والاشتقاق وعلى صورة لا تشوبها شائبة.وللعربيَّــةِ نظامُ مُفرداتٍ كاملِ الجوانب.والباحثُ المدقّقُ يصلُ إلى أنَّ ما بينَ العربيَّةِ ومــا

بينَ صحيفةِ القُدرةِ **علاقةٌ طبيعيَّةٌ وانعكاساتٌ أبديَّة** وكأنَّهما **مرايا مُتقابلة وتوأمان**. ولهذا السبب أنزلَ اللّهُ تعالى كتابهُ باللُّغةِ العربيَّةِ لكونها (**لُغة البيان**).

فمن خلالِ هذه النُّصوصِ القرآنيَّة الّتي أوردناها نكونُ قد أثبتنا استيفاءَ هذا القرآن المجيد لهذه **المقوِّمة الأولى** الّتي تجعلهُ مُستحقّاً اسمَ (**كتابٌ**) وكما وردَ في الآية ٢٩ من سورةِ (ص).

٢-المقوِّمةُ الثانية:

وسبقَ لنا أن قلنا أنَّ من الضروريّ للكاتبِ أن يُمهِّدَ لموضوعِ كتابهِ بمقدّمةٍ وأن يختمهُ بخاتمةٍ يلخِّصُ فيهما الأفكارَ الّتي بحثها في كتابه.فإن نحنُ تفحَّصنا كتابَ اللّهِ العزيز وبأسلوب علميٍّ تتراءى لأعيُننا توفّرُ هذه المقوّمةُ الثانيةُ فيه.فالملاحظُ هو أنَّ لهذا القرآن الكريمَ مقدّمة هي سورةُ الفاتحة الّتي اختُصرَت فيها جميعُ المواضيع الّتي بحثها هذا الكتابُ العزيز وبصورة مُدهشةٍ أيضاً.كذلكَ نلاحظُ أنَّ اللّهَ تعالى اختصر تلكَ المضامينَ بأسلوب آخرَ من خلالِ الجزءِ الأخيرِ الّذي أنهى بهِ كتابهُ العزيز.ومن خلالِ سور المعوَّذات الثلاث الأخيرات.بل وأتى قبلها بخلاصةٍ مُطوَّلةٍ تضمّنتها سورُ جزء (عمّ).وقد سبقَ لي أن أشرتُ إلى هذه الحقيقة قبلَ الآن.أمّا مَتنُ هذا القرآن الكريم فقد نُسِّقت مضامينهُ تنسيقاً مُحكماً ووردت مُتقنةً ومُحكمةً من جانبِ خبيرٍ حكيمٍ وإلى حدٍّ لا يستطيعُ الإنسانُ أن يُحدِثَ فيها أيَّ تقديمٍ وتأخيرٍ.لذا كانَ بإمكاننا أن نجزمَ باستيفاءِ هذا الكتاب العزيز للمقوّمةِ الثانيةِ المطلوبة.

٣-المقوّمةُ الثالثة:

وقد مهَّدَ اللّهُ جلَّ شأنهُ قبلَ دخولهِ في موضوعِ كتابهِ العزيزِ ومن خلال الآيات العشرين الأولى من سورةِ البقرة.نبّهَ أذهاننا فيها إلى أنَّ هذا القرآنَ المجيدَ قد أنزلهُ اللّهُ تعالى مِصداقاً لِنبوءة سفرِ التّثنيةِ ١٨/١٨ وفيما يُسمّونهُ (العهدَ القديم).كما نبَّهَ إلى أنَّهُ كتابٌ مُتّصفٌ بالكمالِ من حيثُ

مُستوى صياغتِهِ ومن حيثُ مستوى مضامينِهِ فهو (**كتابٌ**)لا ريبَ فيهِ.وأنَّـــهُ يهدي المتّقينَ سبيلَ معرفةِ اللّهِ عز وجل.وبعدَ أن عدّدَ اللّهُ جلَّ شأنهُ الصّفـــات الواجب أن يتّصفَ بها كلُّ مؤمنٍ شاءَ أن يسلكَ دربَ عِرفانِ ربِّهِ.كذلكَ نبَّـــهَ ذهننا إلى أنَّ الّذينَ يكفرونَ بهذا الكتاب،لا يكفرونَ بسبَبِ عدمِ كفايةِ الأدلَّـــةِ والبراهينِ الّتي أوردها هذا الكتاب العزيزُ، بل بسبَبِ أمراضِهم النَّفسيَّةُ والعمليَّـــةُ الّتي ابتلوا فيها والّتي أدّت إلى أن يختمَ اللّهُ على قلوبهم وعلى سمعـــهم وعلـــى أبصارهم بغشاوة ولهم عذابٌ عظيم.ومن ثمَّ أنبأ عن ظهورِ فئتينِ من المنـــافقينَ تُرافقُ بعثتي الإسلامِ المقدَّرتين.فلمّا فرغَ تعالى من ذلكَ كُلِّهِ بدأ بمضمونِ الكتاب فاستهلّهُ بمخاطبةِ النّاسِ جميعهم وقال في الآية الإحدى والعشرين (**يا أيُّها النّـــاس اعبدوا ربَّكم الّذي خلقكم والّذينَ من قبلكم لعلّكم تتقون**) وبذلكَ يكـــونُ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد مهّدَ لموضوعِ كتابِهِ العزيزِ بتمهيدٍ قد استوفى جميعَ العنـــاصرِ المطلوبةِ على هذا الصّعيد.

والملاحظُ هو أنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ قد قسَّمَ كتابهُ العزيزُ إلى أبوابٍ وفصـــولٍ أيضاً.فجعلَ لكلِّ باب عُنواناً من أحرف مُختزلةٍ من أسماء اللّهِ الحسنى وبذلـــكَ يكونُ قد تحدّى في ذلكَ فنَّ الاختزالِ الجاهليِّ الّذي كان يتفاخرُ بـــهِ شـــعراء الجاهليَّة.وكانَ يأتي بحرف أو أكثرَ مختزلينِ وحسبَ الضّرورة. وهو فنٌّ شـــرحتهُ في مؤلّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم). كذلكَ ألحقَ بهذه الأبوابِ فُصـــولاً سُمّيت سوراً. فالسورُ الّتي لم تَبتدئ بأحرُف اختزال،تكونُ تابعةً في موضوعـــها للسورِ المُبتدئةِ بتلكَ الأحرُف وعلى هذه الصّورةِ يكونُ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد أبـــدعَ أسلوباً مُنقطعَ النّظير على صعيدِ الأدبِ العربيّ. لم يعرفهُ أدباءُ الجاهليَّةِ العرب ولا مَن جاءَ بعدهُم.هذا وقد بلغت فُصولُ هذا الكتابِ العزيزِ (١١٤) فصـــلاً أي سورة.والشيءُ المُدهشُ والعظيمُ حقّاً هو أنَّ جميعَ سورِ هـــذا القـــرآن المجيـــدِ ارتبطت كلُّ سورةٍ منها بسابقتها وبلاحقتها برابطـــةٍ موضوعيَّـــةٍ مَذهلـــةٍ لم

يُلاحظها أكثر المفسّرينَ القدماء. والمهمُّ هو أنَّ هذا الكتاب العزيـــزَ اســـتوفى المقوّمةَ الثالثةَ استيفاءً كاملاً.

٤-المقوّمةُ الرّابعة:

وليلاحظ القارئ هذا التّسلسُلَ الموضوعيّ الّذي بدت معالمـــهُ في هـــذا الكتابِ العزيز. فاللّهُ تعالى أتى بسورٍ: البقرة وآلِ عمـــرانَ والنّســـاء والمـــائدة والأنعام.وقد خصَّصها جميعها لبيانٍ واسعِ علمِهِ تعالى بما يتعلّقُ بالزّمن المـــاضي والحاضر والمستقبل.وهذا الأمرُ يبدو من خلالِ استهلالِ ســـورتي البقـــرة وآلِ عمران بالأحرف المقطّعة (آلم).

كما أتى بعدَ هذه السور بمجموعةٍ أخرى من السور هـــي: الأعـــراف والأنفال والتّوبة.وقد استهلَّ السورةَ الأولى منها بالأحرف المقطّعـــة (المـــص) المختزلةَ من أنا اللّهُ العليم الصّادق.وللدّلالة على مصداقيَّةِ علمِ اللّهِ الأزليّ.

ومن ثَمَّ أتى بمجموعةٍ من السور مُستهلّةً بـــالأحرُف المقطّعـــة (الـــر) والمختزلة من أنا اللّهُ أرى. وهي سور:يونس وهود ويوسف.وقد بحثَ اللّهُ تعالى في هذهِ السور واسعَ رؤيتهُ تعالى للأمورِ سواءً منها الماضيةُ وسواءً منها الحاضرة وسواءً منها المستقبليَّة.

ثُمَّ أتى تعالى بسورةِ الرَّعدِ فاستهلَّها الأحرف المقطَّعة (المر) والمختزلة من أنا اللّهُ العليمُ أرى كلَّ شيءٍ فلا يغيـــبُ عـــن نـــاظري شـــيءٌ في الســـماءِ والأرض.ولذلك بحثَ تعالى في هذه السورةِ حقـــائقَ كونيَّـــةً كشـــفَ عـــن مِصداقيَّتها العلمُ الحديثُ.

ومن ثَمَّ أتبعَ تلكَ المجموعات مجموعةً أخرى من سورِ القـــرآنِ الكـــريمِ هي:سور إبراهيم والحجر والنّحل والإسراء والكهف.وقد استهلَّ تعالى ســـورتي إبراهيم والحجر بالأحرف المقطَّعة (الو) المختزلة من أنا اللّهُ أرى. فبحثَ فيـــها مواضيعَ أحداثٍ حدثت في الزّمن الماضي وتنبعُ رؤيةُ اللّهِ تعالى إيّاها من حيـــثُ

دلالة الأحرف المقطّعة (الر)التي استهلّ اللّهُ تعالى بها تلكَ السور.وقد صحَّحَ تعالى من خلالها كثيراً من الأمورِ التّاريخيَّةِ الشائعةِ بينَ النّاسِ خطأً.

وما إن فرغَ اللّهُ جلَّ شأنُهُ من بيانِ ذلكَ كلِّهِ إلا وقد لاحظناهُ وقد انبرى لِتوضيحِ تاريخِ نبيِّ المسيحيَّةِ.فخصَّصَ لهذا الموضوعِ سورةَ مريم واستهلّها بالأحرف المقطّعة (المص) والمختزلة من أنا اللّهُ العليمُ الصّادق.فألقى في هذه السورةِ الضّوءَ على هذا الموضوعِ وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزةٍ تكشفُ عن خفاياه الّتي غابت عن أذهانِ المسيحيّينَ أنفسهم وصحّحت ذاكَ التّاريخ.

ومن ثمَّ انبرى بعدَ بحثِهِ تعالى لجميعِ ما ذكرناهُ من مواضيعَ، أقولُ انبرى لِيخاطبَ رسولهُ الكريم (ص).فخاطبهُ بما كانَ العربُ في جاهليَّتهم يُخاطبونَ بهِ عُظماءهم وهو أنَّهم كانوا يُنادونَ الرّجلَ العظيمَ بخطاب (طه).لذلكَ نلاحظُ أنَّ اللّهَ تعالى استهلَّ هذه السورةِ بحرفي (طه)وهو يخاطبُ رسولهُ العظيم وبذلكَ يكونُ قد خاطبهُ بنفسِ الخطاب (طه)المُتعارف عليهِ بينَ أفرادِ الأمَّةِ العربيَّة.وقد ألحقَ تعالى بهذه السورةَ سور: الأنبياء والحجّ والمؤمنون والنّور والفرقان.وقد بحثَ اللّهُ تعالى في هذه السور أهمَّ ما شاءَ تعالى أن يُخاطبَ بهِ رسولَهُ الكريمُ من مواضيعَ تتعلّقُ بالرّسالةِ السماويَّةِ الّتي حمّلهُ تعالى مسؤوليَّةَ تبليغها للنّاسِ قاطبةً.

والّذي يريدُ مُتابعةَ جميعِ تلكَ المجموعاتِ من السور بإمكانهِ مراجعةَ ذلكَ في كتابي وهو (فنّ الاختزال في القرآنِ الكريم).وسيلاحظُ هذا القارئُ هناك كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى قد أتى أخيراً بمجموعتين استهلَّ المجموعةَ الأولى بالحرف (ق) المختزل من قادر وأتبعهُ بسبعةَ عشرةَ سورة أثبتَ اللّهُ تعالى من خلالها واسعَ قُدراته. واستهلَّ المجموعةَ الثانية بالحرف (ن) المختزل من كلمةِ نحنُ. وضمَّ إليها تسعةَ سورٍ وضّحَ من خلالها واسعَ نُصرةِ اللّهِ تعالى لنبيِّهِ الكريم.

وأكتفي هنا بما ذكرتهُ إلى الآن والّذي يكشفُ عن استيفاء كتاب اللّه العزيـــز لهذه المقوّمة الرّابعة المطلوبة.

٥-المقوّمة الخامسة:

ثمَّ إنّنا إذا أعملنا نظرنا في جميعِ ما بحثهُ هذا الكتـــابُ مـــن مواضيـــعَ رئيسيَّة.فسنلاحظُ بأنَّ جميعَ تلك المواضيع تمحورت حولَ وجودِ اللَّـــهِ الخـــالقِ الّذي لا إلهَ غيره ولا شريكَ لهُ في ملكه.لذا فالملاحظُ هو أنَّ اللَّهَ تعالى عندمـــا لخَّصَ ما بحثهُ في كتابِهِ العزيزِ من خلالِ سورِ المعوِّذات الأخيرات. فهو تعالى أتى بسورةِ الإخلاصِ وقد اختصرَ فيها موضوعَ توحيدِ اللّهِ عزَّ وجلّ.لذلكَ وردَ عن رسولِ اللَّهِ (ص) قولهُ بحقِّ سورةِ الإخلاص بأنّها توازي ثلثَ القرآن الكريم.

فإن سألني القارئُ عن معالمِ اختصار هذه العقيدة في سورةِ الإخـــلاص؟ فأقول: إنَّ اللَّهَ تعالى عندما أمرَ وقال (**قل هو اللَّهُ أحد**) ففعل الأمر (**قل**) معنـــاهُ (**بلِّغ**). أمّا قولهُ (**هو اللّهُ أحد**) فيعني أنَّ اللّهَ تعالى واحدٌ لا شريكَ لهُ في ذاتـــهِ ولا في صفاته.وقد قدَّمَ تعالى بعدَ هذا الادّعاء دليلَ مِصداقيَّةِ وحدانيَّتهِ في ذاتـــهِ عندما قال (**اللّهُ الصّمد**).وقد قدَّمَ تعالى دليلَين على مصداقيَّـــةِ وحدانيَّتـــه في صفاته عندما قال (**لم يلد ولم يولد. ولم يكن لهُ كفواً أحد**).وبإمكانِ القـــارئ ملاحظةَ تفصيلِ هذا الإجمال عندما أُبرزُ كيفيَّةَ اختصار اللّهِ تعـــالى لموضـــوعِ وحدانيَّةِ ذاتهِ وصفاتهِ من خلالِ مُعطيات خلاصةِ هذا الكتاب العزيز.

وبما أنَّ اللّهَ تعالى قد أعلنَ في أوّلِ آيةٍ من آياتِ سورةِ البقرة بحقِّ كتابـــهَ العزيزِ بأنَّهُ تعالى أنزلهُ (**هُدىً للمتَّقين**)فقد اختصرَ تعالى هذه الهداية ولوازمها في المعوَّذتينِ الأخيرتينِ (الفلق والنّاس).وممّا لا مجالَ هنا للتّفصيلِ فيهِ أيضاً.

وعلى هذه الصّورةِ تكونُ أفكارُ هذا الكتاب المقـــدَّس والمبـــارك قـــد اتّصفت بوحدةِ الموضوعِ وأنّها دارت حولَ محورٍ واحدٍ هو وحدانيَّةَ اللّهِ عـــزَّ

وجلّ وما يمتُّ إلى موضوعِ وحدانيَّةِ اللَّهِ تعالى بصلةٍ من الصّلات.وبذلكَ يكونُ هذا الكتابُ العزيزُ قد استوفى المقوّمةَ الخامسةَ يقيناً.

٦-المقوّمة السادسة:

وهذه المقوّمة تتعلّقُ بضرورةِ التزام الكاتب بالأسلوبِ العلميِّ في مؤلّفهِ وإلاّ فإنَّ مؤلّفهُ لا يرقى حينئذٍ إلى مُستوى كتاب.والحقُّ يُقالُ إنّ كتابَ اللَّهِ العزيز قد انتهجَ هذه المنهجيَّة العلميَّة والأسلوب العلميّ بما يُضاهي ما توصّلت إليهِ أوروبَّةَ في هذا المجال.مع أنَّهُ كتابٌ قد مضى على إنزالهِ أربعةَ عشر قرن من الزّمان. وهذا الأمرُ وضَّحتهُ في بدايةِ مؤلّفي هذا.وسيتبيَّنُ للقارئ فيما بعدُ مزيداً من التّفصيل ويكفي القول هنا بأنَّ اللَّهَ تعالى عندما ابتدأ سورةَ البقرة، ابتدأها بادّعاءٍ وأثبتَ مِصداقيَّتهُ من خلالِ دليلينِ وليس من خلالِ دليلٍ واحد.فادّعاؤهُ دلَّ عليهِ اسم الإشارة للبعيد (**ذلك**) والّذي حلَّ محلَّ اسم الإشارة للقريب (هذا).وقد تضمَّنَ قولهِ تعالى بعد ذلكَ (**لا ريبَ فيهِ**) الدليلَ الأوّلَ الّذي يُثبتُ هذا الادّعاء.وإنَّ قولهُ تعالى بعد ذلكَ (**هدىً للمتّقين**) قد شكّلَ الدّليلَ الثاني أيضاً.وسيتبيَّنُ للقارئ فيما بعدُ بأنَّ من أُصول تفسيرِ آياتِ هذا القرآنِ الكريم أن نبحثَ بعدَ كلِّ ادّعاء مباشرةً عن الدّليلِ الّذي يُثبتُ مِصداقيَّة الادّعاء.وهي حقيقةٌ لم ينتبه إليها مُفسّروا أمّتنا القدماء رحمهم اللّه.

والمدهش هو أنَّ اللّهَ تعالى قد اختطَّ خطَّةً في كتابه العزيز.وتجلَّت هذه الخطَّةُ في أنَّهُ تعالى قد راعى ظروفَ وأحوالَ كلِّ فريقٍ خاطبهُ في كتابهِ العزيز. وكانَ يُقدّمُ لكلِّ فريقٍ من الأدلّةِ ما يُناسبُ مُعطياتِ عصرهِ ومستوى تفكيره.وهذه الظّاهرةُ سيتبيَّنها القارئُ من خلالِ الأدلَّةِ الّتي سأوردها حينَ أتكلّمُ عن الأصلِ التفسيريِّ المتعلّقِ بكلِّ دعوى وما وراءها من دليل.

ثمّ إنَّ الملاحظ هو أنَّ الأسلوبَ العلميَّ اقترنَ في هذا الكتابِ العزيزِ بظهورهِ في حلَّةٍ أدبيَّةٍ مُتميِّزةٍ عن جميعِ ما عرفناهُ في تاريخِ العربِ من أساليبَ

أدبيَّة.ولربَّما يكونُ هذا هو السببُ الّذي دفعَ المرحوم عميد الأدب العربيّ طـــه حسين ليقول (إنَّ القرآن لا هو نثرٌ ولا هو شعر).

والّذي سأثبتهُ في هذا المؤلَّفِ أيضاً هو أنَّ الأدلَّةَ القرآنيَّةَ جميعها قد استندَ اللَّهُ تعالى ضمنها إلى الدّعامات العلميَّة التّي انحصرت في الملاحظةِ والتجربـــةِ والاستنتاج.هذه الّدعاماتُ الّتي تدخلُ في بابِ العواملِ المساعدةِ للعقلِ البشـــريّ على مستوى الحاضر.

وعليهِ أقولُ عن يقينٍ ثابتٍ أيضاً بأنَّ أسلوبَ هذا الكتـــاب الســـماويّ المقدَّس والمبارك هو بدورهِ قد اتَّصفَ بصفةٍ علميَّةٍ وإن كانت تفاسيرُ القدمـــاءِ رحمهم اللّه لا تُظهرُ هذا القرآنَ بالصّفةِ المذكورة بسببِ أنَّهم كـــانوا يجـــهلونَ منهجيَّةَ وأصولَ التَّفسير. وبذلكَ يكونُ هذا القرآنُ المجيدُ قد اســـتوفى المقوّمـــة السادسةُ الّتي ترفعهُ إلى مرتبةِ (**كتاب**)يقيناً.

٧-المقوّمة السابعة:

ونأتِ إلى المقوّمةِ السابعة الّتي تقتضي أن يكونَ الكاتبُ ضليعـــاً فيمـــا يكتبهُ وضمنَ اختصاصهِ العلميّ.فحدِّث معي يا قارئي العزيزِ في هذا المجـــالَ ولا حرج. بسبَب أنَّ كلَّ آيةٍ من آيات هذا القرآن المجيد توحي لكَ وبصورةٍ غـــير مباشرة بأنَّ اللَّهَ الّذي أنزلها، قد صاغها وهو مُتَّصفٌ بأكثرَ من مائةِ صفةٍ لا تجد لها كفؤاً في عالمنا الماديّ.وفي وقتٍ لم يكشف اللَّهُ تعالى المتّصف بالأسماءَ الحسنى عن ذاتهِ المقدّسةِ بحالٍ من الأحوال.فالّذي يتقصَّى جميعَ آياتِ هذا القرآن العظيمَ لا يعثرُ على آيةٍ واحدةَ ألقتِ الضوءَ على حقيقةِ ذاتِ اتللّهِ عزَّ وجلّ.والســـببُ في ذلكَ أنَّ عقلَ الإنسانَ لا يحملُ مُقوِّمةَ فهمِ ذلك.

فالقرآنُ استوفى مقوّمات كتاب:

ويكفي هذا الكتابُ المقدَّس والمباركَ فخراً أن أخبرنا اللَّهُ تعالى فيهِ عـــن أطوارِ خلقِ السماواتِ والأرضِ، وعن وحدةِ القوانينِ النّاظمةِ لهذا الكونِ الماديّ

المخلوق. وعن تاريخ الأممِ والشعوبِ. وعن القيمِ الأخلاقيَّةِ الّتي تؤهّلُ هذا الإنسانَ للتّعرُّف على ربِّهِ عزَّ وجلَّ. وهو اللّهُ الّذي كانَ قد أنزلَ هذه التّعاليمَ والأحكامَ الشرعيَّةَ الّتي ثبتت مِصداقيّتها بالرّغمِ من أنّهُ انقضى على إنزالها أربعة عشرَ قرن من الزّمان.وبالإضافةِ إلى جميعِ ما ذكرناه فقد قدَّمَ لنا هذا القرآن العظيمُ الأدلَّةَ القاطعةَ على أنّهُ قد خلقَ هذا الإنسانَ منذُ ملايينِ السنوات.وأنّهُ تعالى أشرفَ على تطويرهِ إلى أن بعثَ نبيَّهُ آدم كأوّلِ رسولٍ لتهذيبِ هذا البشرَ وترقيتهِ وتحضيرهِ وتحقيقِ قفزةٍ نوعيَّةٍ في حياته.وأنّهُ تعالى ظلَّ يرسلُ رُسُلَهُ تِباعاً إلى أن بعثَ محمَّداً (ص) خاتمَ النبيّينَ بهذا الكتابِ السماويِّ الأخيرِ والصالحُ في جميعِ ما اشتملَ عليهِ لكلِّ زمانٍ ومكان.

وهل يعجُّ كتابُ اللّهِ تعالى بجميعِ ما ذكرناهُ من أخبارٍ ومعلومات،ولا يكونُ اللّهُ تعالى الّذي أنزلهُ ضليعاً وعليماً في كلِّ شيءٍ تطرّقَ لِذكره؟؟ حاشاه أن يُتّهمُ بهذا الاتّهام.

ألا إنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ الّذي أنزلَ هذا القرآنَ العظيمَ قد أنبأنا بمئات النّبوءات في هذا الكتاب العزيز. ومن أهمِّ هذه الأنباءِ أنّهُ قدَّمَ لنا الأدلَّةَ القاطعةَ على أنَّ هذا العالمَ الماديَّ زائلٌ في يومٍ من الأيّام وأنَّ الإنسانَ مُبتلى في هذا العالمِ وأنَّ من يموتُ فهو سيُبعثُ بعدَ موتهِ لِيُحاسبَ على أعماله ويُجزى أو يعاقبُ ومن ثمَّ يخلُدُ في جنَّةِ الخلدِ بعد محاسبته.فهل يخطرُ للإنسانِ المفكّرِ المؤمن ولو للحظةٍ واحدة بعد معرفتهِ هذه الحقائقَ جميعها أن يدعَ لِسانهُ يتّهم اللّهَ تعالى خالقهُ الّذي أنزلَ هذا الكتابَ العظيمَ بأنّهُ أنزلَ هذا الكتابَ العظيمَ وهو غيرُ ضليعٍ فيما أوردهُ فيه ولا هو بعليم وهو الإلهُ الّذي صدقَ حتّى الآن جميعَ نبوءاتهِ الّتي أنبأَ عنها بما يتعلّقُ بكلِّ ما جرى من أحداثٍ هامّةٍ في سابقِ الأيّام ؟؟ حاشا للّهِ ثمَّ حاشا.

ثمَّ إذا أمعنَ القارئ نظرهُ في صياغةِ هـذا الكتاب العزيز البلاغيَّةِ المُعجزة.وفيما اشتملَ عليهِ من تحدّيات أيضاً مستمرَّةٌ المفعول إلى يوم الدّين.فإنَّهُ سيوقنُ لا محالةَ بأنَّ هذا الكتابَ العزيزَ قد استوفى المقوِّمةَ السابعةَ والأخيرةَ يقيناً.ويكفي أنَّهُ كلّما ازدادَ البشرُ وعياً وتقدُّماً حضاريّاً، فإنَّكَ لا تشعرُ بجفاءٍ تجاهَ هذا الكتاب المقدَّس.بل إنَّ الّذي تشعرهُ هو كأنَّ هذا القرآن المجيد قد أنزلهُ اللّهُ تعالى في هذا العصرِ بالذّات لِيداوي وليعالجَ المشاكلَ الطّارئةَ عليهِ وليأخذَ بأيدي النّاسِ إلى دربِ التّعرُّف على خالقهم عزَّ وجلّ.وليهديهم سبيلَ الرّشاد.

مسؤوليَّةٌ تترتَّبُ على الأصلِ الأوّل المذكور:

ألا إنَّ الأصلَ الأوّلَ للتّفسيرِ الّذي توصّلنا إليهِ يُلقي على عاتقِ المفسّرِ مسؤوليَّةً كبيرةً إذ يعودُ من واجبِهِ أن يضعَ هذه المسؤوليَّةَ نصبَ عينيهِ وبأخذها في حُسبانهِ حينَ يجلِسُ وهو يُحاولُ التّصدّي لتفسيرِ آياتِ هذا القرآن الّذي استحقَّ تسميتهُ باسمِ (**كتاب**) عن جدارة واستحقاق.فما هي هذه المسؤوليَّة المشارُ إليها؟؟ إنَّ المسؤوليَّةُ المُشارُ إليها تتلَخَّصُ فيما يلي:

١-مُراعاةُ مُعطيات كلمةِ (كتاب):

فالمسؤوليَّة الّتي أشرتُ إليها تتلخَّصُ في أنَّ من واجبِ هذا المفسّرِ أن يأخُذَ بحُسبانهِ حينَ يبدأ بتدبُّرِ أيَّةِ آيةٍ بعينها.أن ينظُر:هل تعودُ هذه الآيةُ إلى فاتحةِ الكتابِ أم هي تعودُ إلى خلاصتهِ المطوَّلة الّتي اشتملَ عليها جزء (عمَّ) أم تعودُ إلى خلاصتهِ المختصرة التي اشتملَت عليها سورُ المُعوذات الثلاثة الّتي اختتَمَ اللّهُ عزَّ وجلَّ بها كتابهُ العزيز؟ وأن يُراعي مُعطياتِ الحروفِ المقطّعةِ الّتي عُنونَت بها السورةُ أو السور التّابعةُ لها مَوضوعيّاً والمشكّلة إحدى فصولها.وفوقَ كلِّ هذا وذاكَ ألاّ يكتفي هذا المفسِّرُ بما قد يتبادرُ لِذهنهِ من معانٍ، بل يتدبَّرَ الآياتِ الكريمةِ بمنهجيَّةِ القرآن وأصولِ تفسيرِه وأن يأخذَ بعدَ ذلكَ بالمعاني

والدّلالات الأبعد عُمقاً من باب أنّهُ تجاهَ كتاب مقدّسٍ ومبارك ومُصاغةٍ آياتُهُ بصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزة. وليسَ بصياغةٍ عاديَّة.

وقد يستغربُ القارئُ أن تكونَ سورةُ الفاتحة قد لخَّصت جميعَ مضامينِ هذا الكتابُ الكبيرُ الحجم والواسعُ الدّلالات.وفي وقتٍ لا يتجاوزُ عددُ آياتها سبع آيات.

فأقول:إنَّ كلَّ موضوعٍ من المواضيعِ يشتملُ في الأصلِ على أصول وفروع.وإنَّ الفاتحةُ قد اختصر اللَّهُ جلَّ شأنهُ فيها الأصولُ الموضوعيَّةُ وليسَ الفروع. ومن جهةٍ ثانيةٍ فمن المعروفِ أنَّ هذا القرآنَ المجيدَ لم يبحث موضوعاً واحداً أو سبعَ مواضيعَ.بل بحثَ عشراتِ المواضيع.فهو لم يترُك مجالاً من المجالات إلاّ وتناولها بالبحثِ والتَّبيينِ والإرشادِ إلى ما فيها من خيرٍ وشرّ.فكيفَ أمكنَ اختصارُها جميعها في سبعِ آياتٍ قليلةِ الألفاظ.؟ فهذه هو الأمرُ الّذي يحتاجُ من طرفي إلى الشرحِ والتَّبيين.

فأتناولُ هذه المسألة من الوجهةِ النّظريَّة.ذلكَ نَّ كلَّ من طالعَ مؤلَّفي (النظريّة القرآنيَّة الكونية حولَ خلقِ العالم) لعلَّهُ يتذَّكر ما كتبتُهُ هناكَ بما يتعلَّقُ بنظريَّةِ الانفجارِ العظيم المشهورة في الغرب.فقد ثبتَ لِصاحبِ تلكَ النَّظريَّة بأنَّ الكونَ كلَّهُ كانَ مُنضغطاً في ذرَّة تكادُ لا يكونُ لها حجمٌ يُذكَر.فاللَّهُ الخالقُ الّذي استطاعَ تكوينَ هذه الكونَ كلِّهِ وضغطهُ في مثلِ ذاكَ الحجم الّذي لا يكادُ يُذكرُ.فليسَ بمُستبعدٍ عليهِ أن يلخِّصَ عشرات المواضيع في سبع آياتٍ من مثلِ آياتِ سورة الفاتحة.

هذا فإن أنا بحثتُ هذه المسألةَ وتناولتُها من الوجهةِ العمليَّة. فقد باتَ عليَّ أن أضربَ للقارئ أمثلةً تشرحُ هذه الحقيقةَ وتُثبتُ مِصداقيَّتها.وهي مسؤوليَّةٌ سأقومُ بتأديتها بأسلوبٍ علميٍّ أيضاً استندُ فيما أبيِّنهُ إلى الملاحظة والتّجربة والاستنتاج.

الفاتحة وموضوعَ الوحدانيَّةِ:

فلنتناول أهمَّ موضوعٍ بحثهُ كتابُ اللَّهِ العزيزُ ألا وهو وجودُ اللَّهِ تعالى ووحدانيَّتهُ في الذّات وفي الصّفات. ولنتبيَّن كيفَ تمكَّنَ اللَّهُ تعالى اختصارَ هذا الموضوعَ في سورةِ الفاتحةِ وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزة. فليلاحظ القارئ كيفَ ألزمنا اللَّهُ تعالى أنْ نُبسمِلَ أي أن نقولَ (**بسمِ اللَّهِ الرّحمان الرّحيم**) وذلكَ قبلَ أن نبدأَ بتلاوةِ سورة الفاتحة. ونتساءلُ هنا: لِمَ أمرنا اللَّهُ تعالى أن نشرعَ بقولنا بسمِ اللَّه؟

فللإجابةِ على هذا السؤال نُدقّقُ النَّظرَ في حرف الباء أوّلاً. فقد دخلت الباء هنا على آلةِ الفعلِ وهي لفظُ الجلالة (**اللَّه**). وبذلكَ تكون هذه الباء قد اكتسبت معنى الالتزام والمُصاحبة (محيط المحيط). أمّا لفظُ الجلالة نفسه، فهو الاسمُ الدّالُّ على ما للَّهِ تعالى من أسماءٍ حسنى تتَّصفُ بها ذاتهُ المقدّسة وتتجاوز المائةَ صفة. فان نحنُ جمعنا ما بينَ ما حصّلنا عليهِ من دلالات يصحُّ معنى قولنا (**بسمِ اللَّه**) أنّني أبتدئُ التّلاوةَ بدعاءِ الفاتحةِ وأنا مؤمنٌ ومقرٌّ بوجود اللَّهِ ذو الأسماء الحُسنى المعروفة. وهذا الإيمان الّذي ابتدأ المؤمنُ بهِ تلاوة سورة الفاتحة يكونُ بمثابةِ صكٍّ تعهُّدٍ من قِبلِ هذا المؤمن يتعهّدُ فيهِ بإطاعةِ اللَّه تعالى وعدم معصيته لأوامر ربِّهِ بحالٍ من الأحوال، وعلى اعتبار دلالةِ هذه الباء على معنى المُصاحبة. وتفكَّر يا عزيزي القارئ هل يُصاحبُ امرؤٌ شخصاً آخرَ سواهُ ويُصاحبهُ وهو لا يكونُ على وِفاقٍ معه؟ وعليهِ فإنَّ المؤمنَ الّذي يشرعُ بالدّعاءِ بدُعاءِ سورةِ الفاتحة بينَ يدي ربِّهِ عزَّ وجلَّ والّذي يُنهي دُعاءهُ بقوله (**آمين**) أي استجب دُعائي يا ربّي. وهو غيرُ مُطيعٍ لأوامرِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ بل كانَ يعصيهِ فلا يستجيبُ اللَّهُ تعالى دُعاءه. وعلى هذه الصّورةِ نكونُ قد لاحظنا أنَّ اللَّهَ تعالى قد اختصرَ جميعَ المعاني الّتي توصّلنا إليها من خلال كلمتينِ اثنَتينِ فقط هما (**بسمِ اللَّه**). وقد جاءت هذه الصّيغةُ مُصاغةً صياغةً بلاغيَّةً مُعجزة.

لكنَّ الملاحظ هو أنَّ اللَّهَ تعالى لم يأمرنا بالقولِ (**بسم اللَّه**) وحسب. بل أمرنا أن نُضيفَ إلى لفظ الجلالة صفتينِ هما (**الرّحمان الرّحيم**) وليصبح (**بسم اللَّهِ الرحمان الرّحيم**).فإن بحثنا عن حكمةِ تلكَ الإضافة فهي لدلالةِ هاتينِ الكلمتينِ على معنى الجلالِ والجمالِ الّذي اتَّصفت هِما الذاتُ الإلهيَّة.

ولِدحضِ عقيدةِ (**وحدة الوجود**).إذ يستحيلُ أن يتَّصفَ هاتينِ الصّفتينِ إنسانٌ مخلوقٌ ضعيف.وعليهِ يكونُ اللَّهُ تعالى قد جمعَ في البسملةِ المعاني سالفةِ الذّكرِ مع ضرورةِ أن ينطلقَ هذا المؤمن من وحدانيَّةِ اللَّهِ تعالى.وليسَ أن ينطلق من عقيدةِ (وحدةِ الوجود) المذكورة.وبذلكَ يكونُ تعالى من خلالِ أمرهِ بتلاوة البسملة قد أحكمَ في فكرِ هذا المؤمن وفي صميمِ فؤاده أنَّ اللَّهَ أحدٌ ولا شريكَ لَهُ في مُلكهِ وأنَّهُ يستحيلُ أن يتَّحدَ اللَّهُ تعالى إنساناً من تُرابٍ وينحلَّ في قالبه.خصوصاً وأنَّ صفةَ(رحمان)هي على وزنِ فَعلان. وهذا الوزنُ من التَّفعيلة يفيدُ كمالَ الغلبةِ والامتلاء.لذلك نعتقدُ بأنَّ ربَّنا جلَّ شأنهُ هو مصدرُ كُلِّ رحمةٍ وعطاء.وإنَّ صفةَ (الرّحيم)هي على وزنِ (فعيل).وهو وزنٌ يدلُّ على التّكرارِ وزيادةِ العطاء لذلكَ نعتقدُ بأنَّ مَن يرحمهُ ربُّهُ يُغدقُ عليهِ من العطاء أكثرَ من استحقاقه.

واستناداً إلى ما ذكرناهُ آنفاً نكونُ وبأسلوبِ الملاحظة العلميّ قد أدركنا كيفَ اختصرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ موضوعَ وجودِ اللَّهِ تعالى ووحدانيَّتهُ واتِّصافهُ بصفتي الجلالِ والجمالِ الّتي يستحيلُ أن يتَّصفَ هما أحدٌ سواهُ وبذلكَ دحضَ تعالى أيضاً عقيدةَ وحدةِ الوجود.وقد فعلَ اللَّهُ تعالى ذلكَ كُلّهِ من خلالِ البسملة الّتي لم يتجاوز عدَدُ كلماتها أربع كلمات.

وبنفسِ أسلوب الملاحظة العلميّ نُدقّقُ في الآيةِ الأولى من سورةِ الفاتحة. وهي قولهُ تعالى (**الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمين**).فنتساءلُ عن معنى (**الحمدُ للَّه**)؟ وعن حكمةِ أمرهِ جلَّ شأنهُ إيّانا أن نقولَ (**الحمدُ للَّه**)؟

فقد نبَّهَ الّذينَ كتبوا معاجمَ اللُّغةِ أذهاننا إلى وجـــودِ أربـــع كلمـــات يستعملُها العربُ لِيعبِّروا بها عن اعتراف العـــربيِّ لصـــاحبِ الفضـــلِ عليـــهِ بفضلِه.وهذه الكلماتُ (**المديحُ والشكرُ والثّناءُ والرّضا**). لكنَّ الملاحظ هو أنَّ اللَّهَ تعالى أعرضَ عن الأخذِ بأيَّةِ كلمةٍ من هذه الكلمات.وأمرَ باستعمالِ كلمــةِ (**الحمد**)وأن نبتدئَ بالدّعاء من اللَّهِ تعالى بقولنا (**الحمدُ للّه**)، وليس أن ندعـــو ونقول (الثّناء على اللّه) أو (الشكرُ للّه) وغيرها من الألفاظ.فما حكمةُ ذلك؟

فإن شاءَ القارئُ معرفةَ السَّببَ والحكمةَ من ذلكَ فيُفترضُ أن يُجـــري موازنةً بينَ معاني هذه الألفاظ الخمسة وينظر أيّةُ تلك الألفاظ أوسعُ دلالةً ومـــن ثمَّ يُحاولُ معرفةَ حكمةَ تعريفَ كلمة الحمد بالألف واللّام.لذلك أستعرضُ الآنَ للقارئ دلالات كلِّ لفظٍ من تلكَ الألفاظ ومن مُعطيات معاجم اللّغويّين أيضاً:

أوّلاً– **إنَّ** كلمةَ (**رضا**) لا معنى لها إلاّ أن تُفيدَ مجرّدَ قبول الرّاضي بإحسانِ هذا الّذي أحسنَ إليهِ.ولا تُفيدُ معنىً أكثر من ذلك.

ثانياً –وإنَّ كلمةَ (**شكر**) لا معنى لها إلاّ أن تُفيدَ مجرَّد الثّناء على الّذي أحســـنَ إليَّ.ولا شيءَ أكثر.

ثالثاً–**وإنَّ** كلمةَ (**ثناء**) فتُستعملُ لِوصفِ وتعظيمِ هذا الّذي أحسنَ إليكَ ليـــسَ إلاّ.

رابعاً –وإنَّ كلمةَ (**مديح**) هي أوسعُ هذه الألفاظِ الثلاثةِ دلالةً.إذ تحملُ ثنــــاءً مُناسباً على الّذي أحسنَ إليك. كما تُوضِّحُ في الوقتِ نفسه ما للمحسنِ مـــن صفات جماليَّةٍ في خِلقته وسواء أوردَ هذا الوصفُ الّذي تضمَّنهُ المديحُ اختياريّـــاً أو كانَ لا شعوريّاً.ظنّيّاً كانَ أو مُستحسناً.لكنَّكَ لا تكونُ قد بلغـــتَ فيمـــا مدَحتَ بهِ هذا المُحسن حدَّ الكمال.

تحقيقٌ لُغويٌّ بحقِّ كلمة الحمد:

فإن نحنُ تناولنا كلمةَ (**الحمد**) وراجعنا معاجمَ اللُّغويّين يتبيَّنُ لنا أنَّ هذه الكلمة أوسعُ وأشملُ دلالةً ومعنى من الدّلالاتِ والمعاني الّتي تضمَّنتها الكلماتُ الّتي ذكرناها.فالإنسانُ الّذي يحمدُ إنساناً آخرَ يكونُ راضٍ على الإحسانِ الّذي أحسنهُ هذا الشخصُ إليهِ.هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانيةٍ يُثني عليهِ أيضاً.ومن جهةٍ ثالثةٍ يكونُ شاعراً بفضلِ هذا المُحسنِ عليه.ومن جهةٍ رابعةٍ يُقرُّ لهُ بإحسانهِ عليهِ أيضاً.أمّا من جهةٍ خامسةٍ فيتضمَّنُ معنى الحمد دلالاتهُ على كمالِ الصّفات الّتي يتمتَّعُ بها من أحسنَ إليه. لذلكَ فإنَّ الّذي يحمدُ الّذي أحسنَ إليهِ يكونُ قد مدَحهُ أيضاً كما يكونُ قد أثنى عليهِ بكاملِ اختياره ويكونُ على علمٍ تامٍّ أيضاً بما اتَّصفَ بهِ هذا المحسنُ من صفاتٍ بالغة الكمال.وعليهِ فقد كانَ اختيارُ اللَّهِ تعالى لكلمةِ (**الحمدِ**)في هذه الآيةِ الكريمةِ من سورةِ الفاتحة لم يأتِ عبثاً.بل أتى عن علمٍ بكلِّ معانيها وبدرايةٍ تامَّين أيضاً.

ونعودُ نتساءل: لماذا أوردَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ كلمةَ (**الحمد**)مُعرَّفةً بالألفِ واللّام ؟ وللإجابةِ على هذا السؤال نقول: إنَّ اللّه جلَّ شأنهُ قد استعملَ هذا التّعريف بمعنى الاستغراق في جميعِ ما تحملهُ كلمةُ (**الحمدِ**) من دلالات.

وبالإضافةِ إلى هذا وذاكَ فالّذي نُلاحظهُ هو أنَّ اللَّهَ تعالى أوردَ كلمةَ (**الحمد**) بصيغةِ المصدرِ وليسَ بصيغةِ الفعل.فلو علَّمنا أن نقولَ (**نحمدُ اللَّه**) لأفادت كلمةُ (**الحمد**) اقتصارَ معناها على زمنٍ معيَّن.أمّا وقد وردت كلمة (**الحمد**) بصيغةِ المصدر فقد دلَّت على شموليَّةٍ تامَّة أيضاً فيما تُفيدهُ هذه الكلمة من معاني وبصورةٍ يقينيَّة.ومن بابِ أنَّ صيغةَ المصدر تعني اسمَ الحَدَث الجاري على الفعل.

ونستنتجُ من جميعِ ما ذكرناهُ آنفاً بما يتعلَّقُ بدلالاتِ هذه الكلمات الخمسة (**رضا، شكر، ثناء، مديح وحمد**) بأنَّها كانت هناكَ حكمةٌ بالغةٌ

اقتضت تقديمَ كلمة (حمد) على بقيَّةِ هذه الكلمات الّتي ذكرناها والّتي يستعملُها العرب في هذه المجالات المذكورة. كذلكَ إيرادها وصياغتها بصيغةِ المصدر وهي مُعرَّفةً بالألف واللّام الّتي تفيدُ الاستغراق وليُستهلَّ بها تعالى دُعاء سورة الفاتحة.

فلقد فعلَ اللّهُ تعالى ذلك ليدفعَ هذا المؤمن ليُقرَّ في كلِّ رُكعةٍ من رُكعات صلواتهِ كلّها بواسع إحسانِ ربِّهِ عليهِ. وليُقِرَّ في الوقتِ نفسهِ أنّهُ يعلمُ ما تحملهُ ذاتُ ربِّهِ من أسماءِ حُسنى وصفات مُنقطعةِ المِثال وهو مُختارٌ وغير مُكره على ما يفعلهُ. ومُندفعاً في ذلكَ كلِّهِ ممَّا اتَّضحَ له من دلالات (**بسم اللّهِ الرّحمانِ الرّحيم**)الّتي استهلَّ بها دُعاءه. وهو مُطيعٌ لربِّهِ الّذي لم يخلقهُ عبثاً بل خلقهُ لمقصدٍ سامٍ مُحدّد. وهو أن يسعى للتّعرُّف على ربِّهِ عزَّ وجلَّ وليفوزَ بمحبَّتهِ وقُربهِ ورضوانهِ وهو مُعتقدٌ أيضاً بفلسفةِ هذه الحياة الدّنيا وبوجود الآخرةِ ويوم الحساب. أضف إلى ذلكَ بأنَّ اللّام في كلمةِ (**للّه**) هي لام الاستحقاق. لِوُقوعِ اللّام بين معنى وذات (محيط المحيط).

فهذا أنموذجٌ ومثالٌ وضعتهُ بين يدي القارئ العزيز ومُستخلَصاً إيّاهُ ممّا لخَّصهُ اللّهُ جلَّ شأنهُ فيما ذكرناهُ من البسملة وكلمتي(**الحمدُ للّه**)فقط. وقد حصلنا عليهِ بأسلوبِ الملاحظة العلميِّ أيضاً وقد أبرزتُ هذا المثالَ لبيان الأسلوب الإلهيِّ الّذي عمدَ إليهِ لِتلخيصِ موضوعِ توحيدِ اللّهِ تعالى في ذاتِهِ تعالى وفي صفاته. أي أنّهُ تعالى ضمَّنَ البسملةَ وهاتين الكلمتين ليسَ موضوعاً واحداً في حقيقةِ الأمر. بل ضمَّنهُم أكثرَ من موضوع. فقد ضمَّنهم مواضيعَ: وجودِ اللّهِ الخالق. ووحدانيَّتهِ في الذّات وفي الصّفات. وأنَّ اللّهَ تعالى خلقَ هذا الإنسان لِعبادتهِ وللتَّعرُّفِ على ربِّه. وليكونَ مُطيعاً غير عاقٍّ ولا عاصي لربِّه عزَّ وجلَّ. وأن يستعينَ في الأزماتِ وفي كلِّ ما يحتاجهُ بوسيلةِ الدّعاء بينَ يدي ربِّهِ لِيحلَّ لهُ احتياجاته. وأنَّ الّذي يعصي ربَّهُ ولا يُخلِصُ سلوكهُ معهُ وهو يدعو في معيَّةِ

ربِّهِ يستحقُّ في الآخرة العقابَ والعذاب.فهذه المواضيعُ جميعها وُضِعت لها جذوراً في (**البسملةِ**) وفي كلمتي (**الحمدُ للّه**).

فإن أنتَ تفحّصتَ يا عزيزي القارئ إلى جانبِ ما ذكرناه كلمتي(**ربِّ العالمين**)اللّتين تُكملانِ دُعاء(**الحمدُ للّه**)وليصبحَ(**الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين**).فتكونُ قد أضفتَ إلى المواضيعِ الّتي ذكرناها، عدّةَ مواضيعَ جديدة.ومن أهمِّ هذه المواضيع دلالةُ هاتين الكلمتينِ المُضافتين على وحدةِ القوانين الكونيّة وعلى خُضوعِ هذا العالم المادّي في كلِّ حالاتهِ لتدخُّلِ الخالقِ جلَّ شأنه في شؤونه.وأنَّ هذا العالم مَرحليٌّ وزائلٌ في يومٍ من الأيّام لدلالةِ كلمة (**ربّ**) على هذه الحقيقة. فالرّبُّ هو الّذي يُطوِّرُ الشيءَ من حالٍ إلى حالٍ وليبلُغَ بِهِ مرتبةَ التّمام(اقرب الموارد).ثمَّ إنَّ كلمةَ(العالَمين)لا تشملُ الإنسانَ وحده. بل تشملُ جميعَ أنواعِ العوالمِ والمخلوقات (مفرداتُ الرّاغب الأصفهاني).وما دامَ كلُّ شيءٍ في عالمِنا مؤلّفٌ من جسدٍ وروح فإنَّ كلمةَ العالمين تشملُ تطويرَ الأجسادِ والأنفسَ والأرواح معاً أيضاً.فهذه المواضيع جميعها قد أضيفت إلى ما سلفَ ذكرهُ من مواضيعَ سابقة من خلالِ إضافةِ كلمتي (**ربِّ العالمين**) في هذه الآيةِ الأولى من سورةِ الفاتحة فتفكّر.

الحكمةُ من صيغةِ (الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين):

وملاحظةٌ أخرى نلاحظها على دعاء (**الحمد للّهِ ربِّ العالمين**) وهي صيغةُ (**ربِّ العالمين**). فاللّهُ تعالى لم يُعلّمنا أن نقولَ (الحمدُ للّهِ ربِّ المؤمنين)بل أن ندعو (**ربِّ العالمين**).إشعاراً من جانبِ اللّهِ تعالى النّاسَ إلى أنَّ دعوةَ الإسلامِ ما هي بدعوةٍ قوميَّةٍ لكنَّها دعوةٌ عالميّةٌ **موجّهةٌ إلى** النّاسَ قاطبةً وليس إلى العربِ من دونِ النّاس.

والّذي قصدتهُ من تقديمي للمثالِ آنفِ الذّكر هو أن أُعطي القارئَ أنموذجاً يوضِّحُ كيفيَّةَ تلخيصِ اللّهِ تعالى لِمضامينِ القرآنِ الكريمِ من خلالِ سبعِ

آيات لا أكثر من ذلك.وليكونَ في هذا الأنموذجُ درساً وعبرةً أيضاً لكلِّ من يريدُ استخلاصَ أساسِ كلِّ موضوعٍ قرآنيٍّ يُريدُ معرفةَ أساسهِ المضغوط في آيات سورة الفاتحة.والغرضُ الثاني من ذلكَ يتلخَّصُ في أنَّ اللَّهَ تعالى الَّذي ضغطَ هذا الكونَ في ذرَّةٍ واحدة وِفقَ نظريَّةِ (الانفجار العظيم) لا يُعجِزهُ أن يُلخِّصَ مضامينَ هذا الكتابِ العزيز من خلال (السبعِ المثاني) يقيناً.

تلخيصُ الإخلاص لموضوع الوحدانيَّة:

فإن اطمأنَّ القارئ إلى حقيقةِ ومصداقيَّةِ ما أطلعتهُ عليهِ آنفاً تَتوقُ نفسُهُ لِيطَّلِعَ على كيفيَّةِ تلخيصِ سورة الإخلاص وهي إحدى سور المُعوّذات والخلاصة الأخيرة لمضامين القرآنِ الكريم على كيفيَّةِ تلخيصها لنفسِ موضوع وحدانيَّةِ اللَّهِ تعالى في ذاتهِ وفي صفاتهِ ومن خلالِ أربعةِ آيات قرآنيَّةٍ فقط؟

وأُلبّي هذه الرّغبةَ المحتملُ ظهورها في نفسِ القارئ لذلكَ أُحاولُ بيانَ ذلكَ وبنفسِ الأسلوبِ العلميِّ الّذي سرتُ عليهِ فيما سبقَ من بيانِ للأمورِ الماضية.ولأُبرزَ عظمةَ هذا الكتاب العزيز على هذا الصَّعيدِ أيضاً.

أقولُ أفلا تذكرُ يا عزيزي القارئ كيفَ أنّني سبقَ لي أن نبَّهتُكَ إلى أنَّ اللَّهَ تعالى قد لخَّصَ موضوعَ وحدانيَّةِ ذاتهِ وصفاتهِ في سورةِ الإخلاص؟ وأوجزتُ لكَ القولَ في هذا الأمرِ أيضاً؟ ونبَّهتُكَ إلى أنّي سأشرحُ لكَ ذلكَ فيما بعد؟ فها أنَّهُ قد آنَ لي أن أفي بما وعدتُكَ بهِ هناك.

أقول: أفلا تُلاحظُ يا عزيزي القارئ كيفَ أنَّ هذه السورةَ الأولى من سورِ المعوّذات سمِّيت بسورةِ الإخلاص؟ لقد وردَ في معجم (محيط المحيط): الإخلاص مصدر أخلصَ.وقالَ السيِّد الجُرجانيّ في التّعريفات: الإخلاصُ في اللُّغة معناهُ تَركُ الرِّياء في الطّاعات.وفي الاصطلاحِ: تخليصُ القلب عن شائبةِ الشوب المكدِّر لِصَفائه.وتحقيقهُ إنَّ كلَّ شيءٍ يُتصوَّرُ أن يشوبهُ غيرُه.فإذا صفا من شَوبهِ

وخلَصَ عنهُ يُسمّى خالصاً.وقيلَ الإخلاصُ معنـــاهُ تصفيـــةُ الأعمـــالِ مـــن الكدورات.

فاستناداً إلى هذه المعاني سمِّيت هذه السورة(**سورة الإخلاص**).حيـــثُ أنَّ مضمونُ هذه السورة قد اشتملَ على موضوعِ توحيدِ اللّهِ تعـــالى في ذاتـــهِ وفي صفاتهِ ولِيُصبحَ عقيدةً راسخةً في قلوب المؤمنينَ المخلصينَ للّهِ ربِّهم عزَّ وجـــلَّ وعلى صورةٍ لا تَشوبُها شائبةٌ من رياءٍ أو شركٍ جليٍّ أو شركٍ خفيٍّ في عبـادهم وإطاعتهم للّهِ ربِّهم وخالقهم. فهذهِ هي حكمةُ تسميةِ هذه الســـورة بســـورةِ (**الإخلاص**).

أمّا كيفَ اختصرَ اللّهُ تعالى في هذه السورةِ موضوعَ عقيدةِ توحيدِ ذاتـــهِ تعالى وصفاته.فاعلم بأنَّ هذه السورة قد اشتملت على مقولَتَين: فالأولى منـــهما بحثت مِصداقيَّةَ تفرُّد الذّات الإلهيَّة.والمقولةُ الثانية بحثت مِصداقيَّةَ تفـــرُّد هـــذه الذّات الإلهيَّة فيما تَحملهُ من صِفات.

إنَّ المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّه ممّن كانوا يجهلونَ منهجيَّـــةَ وأصـــولَ تفسيرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز.فقد ذهبت أذهانُهم إلى أنَّ اللّهَ تعالى عـــدّدَ في هذه السورةِ بعضَ صفاته.أمّا كيفَ ولماذا ؟ فلم يتساءلْ هؤلاءِ هـــذا الســـؤال ولربّما ظنّوهُ يدخلُ في بابِ الاعتراضِ على ربِّهم وعلى مشيئته.وبإمكانِ القارئ الرّجوعَ إلى التّفاسيرِ القديمةِ لِيتأكّدَ ممّا أقول.

أمّا الحقيقة فهي ما ذكرتهُ لكَ آنفاً.فلم يُعدِّد اللّهُ جلَّ شأنه بعضَ صفاتهِ في هذه السورة بلا أوجه وعلى حسبِ ما شاء. فجلَّ اللّهُ تعالى أن يصدُرَ عنـــهُ مِثل هذا الفعل.فإن تدبَّرنا آيات سورةِ الإخلاص يتبيَّنُ لنا أنَّها صيغت بصياغـــةٍ مُعجزةٍ وتَحملُ أدلّةَ وَحدانيَّةِ اللّهِ تعالى في ذاتهِ وفي صِفاتِه.

فاعلم يا عزيزي القارئ بأنَّ اللّهَ جلَّ اسمه قد استهلَّ هذه السورة بفعـــل الأمر (**قل**).ولم يقصد من أمرهِ هذا أن يتلفَّـــظ رســـولهُ الكـــريم (ص)بهـــذهِ

الآيات.بل قصدَ من فعل الأمر(**قل**)هنا معنى آخرَ وهو أن قم يا محمَّد وبلِّغ النّاس. فأنتَ تأمرُ فلاناً من النّاسِ أن يُبلّغَ سلامكَ إلى مَن تُحبُّه فتأمرهُ وتقولُ له: قل لفلان كذا وكذا وبمعنى: بلّغه ذلك.أمّا لماذا أمرَ تعالى رسولهُ الكريم بتبليغِ هاتينِ المقولتين في هذه السورةِ بالذّات مع أنّها لم تكن أوّلَ سورة أُنزلَت من لدُنّ اللّه عزَّ وجلّ؟ فسبَبُهُ تعلُّق مضمون هذه السورة بمضمونِ السورة الّتي سبقتها وهي (**سورةُ أبي لهب**) وبإمكانِ القارئ مُراجعةَ ذلكَ في (فنّ الاختزال في القرآن الكريم).

فالمقولةُ الأولى اشتملَ عليها قولهُ تعالى (**هو اللّهُ أحد. اللّهُ الصّمد**).وإنَّ ضمير (**هو**) الواردَ هنا هو ضمير الشأن تنبيهاً إلى عظمةِ شأنِ الّذي يردُ ذكرهُ وهو (**اللّهُ**) جلَّ وعلا.هذا الاسم الّذي لا اشتقاقَ لهُ في لُغةِ العرب.

ثُمَّ إنَّ كلمةَ (**أحد**) تُفيدُ عدَداً لا يُثنّى في اللُّغةِ العربيَّة.فلا يصحّ أن يُقال: أحد اثنان.وهذه المزيَّة استُعملَت هنا للدّلالةِ على الادّعاءِ بأنَّ الذّاتَ الإلهيَّةَ عظيمةَ الشأن الّتي أمرتُكَ يا محمَّد أن تُبلّغ حقيقتها إلى النّاس، فهي ذاتٌ مُتفرِّدةٌ يستحيلُ أن يُماثلها ذاتٌ أُخرى في هذا الوجود.وبما أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ ما كانَ لِيدَّعي ادّعاءً بلا دليلٍ يحاولُ من خلالِهِ إثباتَ مِصداقيَّةِ ما ادّعاه.وقد ادّعى هنا تفرُّدَ ذاتِهِ عزَّ وجلَ لذلكَ فقد راحَ اللّهُ تعالى يُقدِّمُ دليلَ مصداقيَّةِ ذلكَ الادّعاء لذلكَ لاحظناهُ سبحانهُ يُضيفُ ويقول(**اللّهُ الصّمد**)فهاتان الكلمتان تحملانِ إذاً دليلَ مصداقيَّةِ تفرُّدِ اللّهِ تعالى في ذاتِهِ عزَّ وجلّ وليس ذلكَ من قبيلِ تعداد صفةٍ أُخرى في هذه السورة.

أمّا كيفَ شكّلت هاتان الكلمتان(**اللّهُ الصمد**)هذا الدّليلَ ؟فاعلم يا عزيزي أنّهُ وردَ في معجم (مفرداتُ الرّاغب) : كلمةُ (**الصّمد**) **تعني السيّد** الّذي يُصمدُ إليهِ عندَ الحاجةِ والضّرورة.أما في معجم (أقرب الموارد) فقال: إنَّ كلمةَ (**الصّمد**) تعني السيّد الّذي لا يُقضى دونهُ أمرٌ فهو الدّائمُ والرّفيع.وأمّا في

معجم (محيط المحيط) فقال: الصّمد هو المكانُ المُرتفعُ الغليظُ والصَّخرةُ الرّاسيةُ في الأرض:المستويةُ أو المرتفعةُ الّتي لا تطولُها الخُطوب والطّوفان مهما ارتفعَ وعتَا هذا الطّوفان.

فإن أنتَ أخذتَ بجميعَ هذه الدّلالات والمعاني لكلمةِ (**الصّمد**) الواردة في قولهِ تعالى (**اللّهُ الصّمد**).تكونُ قد أدركتَ حقيقةَ هذا الدّليل الّذي شاءَ تعالى أن يُثبتَ من خلالهِ مِصداقيَّةَ كونهِ مُتفرِّداً في ذاتهِ عزَّ وجلّ.ذلكَ أنَّ اللّهَ تعالى قد لفتَ أذهاننا من خلال هذه الصّفة(**الصمد**)إلى تاريخ بعثات أنبيائهِ ورسلِ الكرام.ومن حيثُ كانوا يمثّلونَ هذه الذّات الإلهيَّة المتفرِّدة من الوجهةِ النَّظريَّةِ والعمليَّة. ولَطالما واجهتهُم أعاصيرُ وهجمات أعدائهم عليهم وفي وقتٍ كانوا فيهِ ضُعفاءَ في الرّجالِ والعتادِ ومعَ ذلكَ فقد صمدوا في وُجوه تلك الأعاصير والهجمات بل وانتصروا على جميع أعدائهم أيضاً. والسببُ في ظاهرة صمودهم وانتصارهم يرجعُ إلى كونهم يمثّلونَ (**اللّهَ الصّمد**) يقيناً.فهو تعالى كانَ وراء صمودهم وانتصاراتهم على أعداء اللّهِ تعالى وأعدائهم.وهذا الدّليل التّاريخيُّ المذكورُ يشكّلُ هذا الدّليلَ المطلوبَ لإثبات مِصداقيَّةِ ما ادّعاهُ اللّهُ جلَّ شأنه من أنَّهُ مُتفرِّدٌ في ذاتهِ عزَّ وجلّ.وإضافةً إلى ذلكَ يا عزيزي فإنَّ اللّهَ تعالى أوردَ كلمةَ (**الصّمد**) مُعرَّفةً بالألف واللّام.ولحكمةٍ بالغةٍ وهي أنَّهُ تعالى شاءَ إشعاركَ بأنَّ اللّهَ (**الصّمد**) هو (**اللّهُ**) المعهودُ في أذهان المؤمنين. **فالتَّعريفُ** المُشارُ إليهِ هو الّذي دفعنا لِنبحثَ عن الدّليلِ التّاريخيِّ الّذي يثبتُ من خلالهِ مِصداقيَّةَ كونِ اللّهِ تعالى (**أحدٌ**) في ذاتهِ عزَّ وجلّ.فهذه هي حقيقةُ المقولة الأولى.

وأمّا المقولةُ الثانية فقد اشتملَ عليها قولهُ تعالى: (**لم يلد ولم يولد.ولم يكن لهُ كُفواً أحد**). أقول: فعلى حين أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ كانَ قد قدَّمَ لنا لإثبات مِصداقيَّةِ مقولتهِ الأولى دليلاً تاريخيّاً. فإنَّهُ تعالى قد راحَ يقدِّمُ لنا لإثباتِ مقولتهِ

الثانية دليلاً علميّاً قائماً على الملاحظةِ والتّجربةِ والاستنتاج. أمّا كيفَ يُشكِّلُ قولهُ تعالى (**لم يلد ولم يولد.ولم يكن لهُ كفواً أحد**) هذا الدّليلَ العلميَّ المُشارُ إليه ؟فهذا ما بدأتُ أشرحهُ وأُعطي القارئَ معالمَ أُطُرِه وحقيقته.

فكأنَّ اللّهَ تعالى قد نبَّهَ عقولنا من خلالِ قولهِ تعالى (**لم يلد ولم يولد**) إلى أنّكم إذا لاحظتُم كلَّ شيٍ حيٍّ في هذا الوجود.فستُلاحظون احتياجَ كلِّ شيءٍ أيضاً في هذا الوجودِ إلى قانونِ التّوالُد والتّكاثُر لِلإبقاءِ على وُجودِه وللإبقاء على ذكراه.لكنَّكم إذا لاحظتم كلَّ ما يعودُ لهذا الإلهِ الخالق من صفاتٍ فلا تُلاحظونَ احتياجهُ للإبقاءِ على وُجودِه وعلى ذكراهُ إلى قانونِ الاحتياجِ العامّ الّذي ذكرناه.فأنتُم تُلاحظونَ على سبيلِ المثال بأنَّ آدمَ كانَ يتلقّى من هذا الإلهِ وحيه. وأنَّ نوحاً كانَ يتلقّى من هذا الإلهِ وحيه.وأنَّ كلَّ نبيٍّ بعثهُ اللّهُ تعالى من بعدِ هذينِ المذكورينِ كان يتلقّى وحيهُ من هذا الإلهِ نفسه.وقد أجمعوا جميعهم على وجودِ إلهٍ حيٍّ قيّومٍ لهذا الكونِ ولا تأخذهُ سنةٌ ولا نوم.فإن كنتم تقبلونَ في المحاكمِ بشهادةِ شاهديّ عَدلٍ لإثباتِ مِصداقيَّةِ قضيَّةٍ من القضايا المطروحة. فمن السخافةِ والعيبِ أن ترفضوا جميعَ هذه الشهاداتِ الّتي لا يوجدُ فيما بينها من تناقُضَاتٍ من جهةٍ ، ولكونِ هذه الشهادات قد صدرت عن شُهود عَدْلٍ وأبرارٍ من جهةٍ أُخرى.فهذهِ هي دلالةُ قولهِ تعالى في هذه المقولةِ الثانية (**لم يلِد ولم يولَد**).

والآنَ لاحظوا كلَّ ذرَّة في هذا الكون وبتفحُّصٍ علميٍّ فستُقرّونَ بأنّهُ لا توجدُ في هذا الكونِ ذرّةٌ مادّيةٌ واحدةٌ تتّصِفُ بالكمالِ والاستقلاليَّة.بل الّذي ستُلاحظونه وبهذا الأسلوبِ العلميِّ بأنَّ جميعَ ذرّاتِ هذا العالم تخضعُ لقانونِ احتياجٍ عامٍّ.فكلُّ ذرّةٍ من الذّرات لا تقومُ إلاّ بإعانةِ ذرّةٍ أو أكثرَ. وإن توصّلتُم إلى هذه النّتيجةِ فتستنتجونَ بالتّالي مِصداقيَّةَ قول ربِّكم جلَّ شأنهُ في هذه المقولةِ الثانية (**ولم يكن لهُ كُفواً أحد**).فهذا دليلٌ حسّيٌّ من واقعِ هذا الكونِ يؤكّدُ لكَ

أيُّها الإنسان أنَّ اللَّهَ تعالى مُتفرِّدٌ أيضاً وغير مُحتاجٍ ليسَ في ذاتهِ فقــــط، بـــل ومُتفرِّدٌ أيضاً في صِفاتهِ يقيناً.

فهذه هي دلالاتُ آياتِ سورةِ الإخلاص.فلم يُعدِّد اللَّهُ جلَّ شانهُ مـــن خلالها بعضاً من صِفاتهِ وعلى حسبِ ما ذهبت إليهِ أذهانُ المفسّرينَ القدمــــاء رحمهمُ اللَّه.بل إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد اختصرَ من خلالِ آياهَا موضوعَ وَحدانيَّـــةِ اللَّهِ تعالى في ذاتهِ وفي صفاتهِ وبصياغةٍ بلاغيَّـــةٍ مُعجـــزة لم تـــرقَ إلى عقـــولُ الأقدمين.إلاّ إنسانُ واحدٌ من بينهم وهو صاحبُ هذه الرِّسالةِ الّتي مثّلتها تعــاليمُ هذا القرآنِ الكريم وهو محمّدٌ بن عبد اللَّهِ (ص) الّذي كانَ قد أوتيَ من جـــانبِ ربِّهِ عزَّ وجَلَّ (**جَوامعَ الكلم**) وفهمَ من هذه السورةِ ما فهمناهُ لذلكَ وصلَ إلينا قولهُ المأثور: (**والّذي نفسي بيده إنَّها أي سورة الإخلاص لَتعدِلُ ثُلُثَ القرآن الكريم**) فهذا ما نقلهُ لنا أكثرُ المفسّرينَ في تفاسيرهم.وهل يعني هذا القولُ إلاّ أنَّ يكونَ موضوعَ وَحدانيَّةِ اللَّهِ تعالى وتفرُّدهُ في ذاتهِ وفي صفاتهِ قد اختصرهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورةِ الإخلاصِ هذه وأنّهُ كانَ مَدارَ بحثِ ثُلُثِ آيات هـــذا القـــرآن الكريم؟؟ وهكذا أكونُ قد أتيتُ على ذكرِ مِثال آخرَ يريكَ يا عزيزي القـــارئ كيفَ لخّصَ ربُّكَ موضوعَ وَحدانيَّتهِ في سورِ المُعوّذات.

أمّا المفسّرونَ القدماء رحمهم اللَّهُ الّذينَ لم يلتزموا بمنهجيَّةِ القرآنِ الكـريمِ ولا بأُصولِ تفسيره الّتي تُلاحظني أوردُها في هذا المؤلَّف.فإنَّهُم لم يفهموا مـــن سورةِ الإخلاص إلاّ تَعدادَ صفات إلهيَّةٍ فيها وليسَ ما ذكرناهُ أعـــلاه.وأرى أن أنقُلَ للقارئ وباختصارٍ شديدٍ ما فهموه من هذه السورة.

فابنُ كثير رحمةُ اللَّه على سبيلِ المثال نقلَ من جملةِ ما نقلهُ من روايـــات في أسبابِ نزولِ هذه السورة بأنَّ المشركينَ طلبوا من رســـولِ اللَّـــهِ (ص) أنَّ ينسُبَ لهم ربَّهُ فأنزلَ تعالى هذه السورة.وأمّا ما فسَّرَ بهِ آياهَا.فقد قال (**قل هـــو اللَّهُ أحد**)يعني هو الواحد الأحد الكامل في جميعِ صفاتهِ وأفعاله. (**اللَّهُ الصّمــد**)

أنَّهُ اللَّهُ الّذي يصمُدُ إليهِ الخلائق في حوائجهم ومسائلهم،والعظيم الّذي كمُلَ في عظمته.وهو الّذي كمُلَ في أنواعِ الشرفِ والسؤدُد.والباقي بعد خلقه.والحيُّ القيّومُ الّذي لا زوالَ له.وأنّهُ تعالى راحَ بعدها يشرحُ قولهُ (**اللّهُ الصمد**) فقال (**لم يلد ولم يولد**). أمّا (**ولم يكن لهُ كفواً أحد**) يعني لا صاحبةَ له.فهذه خلاصةٌ لِما أوردهُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرهِ لآياتِ سورةِ الإخلاص.

وأمّا الرّازيّ رحمهُ اللّه فألخّصُ للقارئِ أيضاً ما أوردهُ في تفسيره الكبير.فقد نقلَ لنا رواياتٍ توضّحُ لنا أسبابَ نزولِ هذه السورة بما لا يُخالفُ ما نقلناهُ عن ابنِ كثيرٍ رحمه اللّه.أمّا بشأن تفسيرهِ لقولهِ تعالى (**قل هو اللّهُ أحد**) فقد قالَ إنَّ العقلَ طلبَ معرفةَ المولى ليشكرهُ على نعمائهِ.فبعثَ اللّهُ رسولهُ يقولُ لهُ (**قل هو اللّهُ أحد**) وكفاهُ مؤونةَ النّظرِ والاستدلال.وأمّا قولهُ تعالى (**اللّهُ الصمد**) فمعناهُ أنَّ اللّهَ هو السيّدُ الّذي يُصمدُ إليهِ في الحوائج والفردُ الماجد الّذي لا يُقضى في أمرٍ دونه.وأمّا قولهُ تعالى (**لم يلد ولم يولد**)فقوله (**لم يلد**) فيهِ إشارةٌ إلى نفيِ الوالد في الحقيقة.ونفى في قوله تعالى (**ولم يولد**) المولوديَّةَ أيضاً.وأمّا قولهُ تعالى (**ولم يكن لهُ كفواً أحد**) فقد نفى اللّهُ تعالى عن ذاتهِ أنواعَ الكثرةَ من خلال قولهِ (**أحد**). ونفى عنها النقصَ والمغلوبيَّةَ من خلالِ قولهِ (**الصّمد**). ونفى المعلوليَّةَ والعلّةَ من قولهِ (**لم يلد ولم يولد**). ونفى عنها الأضدادَ والأنداد من خلالِ قولهِ (**ولم يكن لهُ كفواً أحد**).

فهذه خلاصةٌ جدّ صغيرة لما وردَ في التّفسيرينِ آنفي الذّكر. أوردتهما لِيُساعدا هذا القارئَ على المقارنة ما بينَ ما فهمناهُ من سورةِ الإخلاصِ وما بينَ ما فهمهُ هذان المفسّران الجليلان.وإنّما الأعمالُ بالنّيات.

فاستناداً إلى هذينِ المِثالَينِ سالفي الذّكرِ واللّذين قدَّمتهما لبيانِ موضوعِ الوحدانيَّةِ وهو مُلخَّصٌ في سورتي الفاتحة والإخلاص.يتأكّدُ لكَ مِصداقيَّةَ كونَ هذا الكتاب العزيز ذو مقدّمةٍ هي سورةُ الفاتحة وذو خلاصةٍ هي سورُ المعوّذات

الثلاث.وذو خلاصةٍ مُطوَّلةٍ هي سور جزء (عمّ). وذو متنٍ هي جميعُ السور الكائنة ما بين المقدِّمةِ وما بينَ ما أشرنا إليهِ من هذه الخلاصة.وأنَّ من واجبِ كلٍّ من يتصدّى لِتفسيرِ آياتِ هذا الكتابِ العزيز أن ينطلِقَ من هذا الفهمِ المذكور. كيلا يزيغَ عقلُهُ وهوَ يتدبَّرُ آياتَ هذا القرآن المجيد عن المعاني الحقيقيَّة للآيات الكريمة.

وألخِّصُ ما ذكرتهُ آنفاً فأقولُ في موضوعِ هذا الأصلِ الأوّل للتَّفسيرِ إنَّ جميعَ ما وضَّحتهُ لكَ يا عزيزي القارئ تحتَ عُنوانهِ. وبغايةِ تذكيرك بالنّقاط الأساسيَّة الواردةُ فيه.فأقول: اعلم يا عزيزي القارئ بأنَّ ربَّنا جلَّ شأنهُ ما انتهجَ نهجَ الكتّابِ الأرضيّين حينَ أرادَ بيانَ الأصولِ الواجب الالتزام بها عند محاولة تدبُّر آيات هذا القرآن الكريم.بل انتهجَ نهجاً آخرَ مُغايراً وهو أنَّهُ تعالى وزَّعَ هذه الأصول على جميعِ سُورِ كتابهِ العزيزِ وعلى صورةٍ لا تُدركُ حقيقتُها إلاّ بعد البحثِ والتَّمحيصِ في كلِّ كلمةٍ وفي كلِّ إشارةٍ وقفٍ وصيغةٍ ولنستطيعَ من خلالِ ذلك التّدبُّرُ والتّمحيص أن نُمسكَ بأطراف هذه الأصول التَّفسيرية المقصودة.ومن باب أنَّ هذا القرآن الكريم هو كتابٌ مكنونٌ أيضاً لا يمسُّهُ إلاّ المطهّرون.وأنَّهُ ليس بكتاب عاديٍّ كمؤلَّفات الكُتّابِ الأرضيّين.

فمن هذا المُنطلق كُنتُ قد أثبتُّ أنَّ اللَّهَ تعالى حينَ قال في الآية ٢٩ من سورةِ (ص) (**كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مُباركٌ لِيدَّبَّروا آياتهِ ولِيتذكَّرَ أولوا الألباب**).ومن خلالِ استبدالِ كلمةَ (**قُرآن**) الّتِي استُهلّت بها أوّلَ آيةٍ من هذه السورة أنَّها استُبدِلَت بكلمةِ (**كتابٌ**)من أجلِ أن يُنبِّهَ اللَّهُ تعالى أذهاننا حينَ نجلِسُ لِتدبُّرِ آيات هذا القرآن الكريم أن نتدبَّرها ونحنُ آخذينَ بحُسباننا أنّنا نتدبَّرُ آيات (**كتابٌ أنزلناهُ إليك**). وبهذا الأسلوبِ يكونُ اللَّهُ تعالى قد نبَّهَ أذهاننا إلى **الأصلِ الأوّل** من أصولِ تفسيرِ آيات كتابهِ العزيز. وبمعنى إيّاكم أن تجلِسوا لِتدبُّرِ الآياتِ وأنتم مُتناسينَ أنَّ هذه الآيات تؤلِّفُ جزءً من(**كتابٌ**)منزلٍ

ومؤلّفٍ من مقدّمةٍ ومتنٍ وخلاصةٍ وعلى نهجِ ما تعرفونهُ من كُتبِ المؤلّفينَ والأدباء فلم يُنزل اللّهُ جلَّ شأنهُ كتاباً يختلفُ في هذه النّاحيةِ عمّا انتهجه الكُتّابُ والأدباء.لذلكَ من واجبكم أن تلتزموا بهذا الأصلِ حينَ تقومونَ بتفسيرِ آياتِ هذا القرآن الكريم. فإن أنتم غفلتُم عن الأخذِ بهذا الأصلِ في التّفسيرِ فمنَ الممكنِ جدّاً ألاّ تصلوا حين تدبُّركم لآياتهِ إلى المعاني الحقيقيَّةِ المقصودة.وما دامَ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد أضافَ إلى كلمةِ **(كتابٌ)** كلمةَ **(مُبارَكٌ)** فقد أكّدَ حقيقةَ الأصلِ التّفسيريِّ الذي ذكرناه.

وإضافةً إلى هذا فقد قدَّمتُ للقارئ العزيزِ مِثالين منَ المقدّمة ومنَ الخلاصة الأخيرة أثبتُّ من خلالهما كيفَ لَخَّصتا موضوعَ توحيدِ اللّهِ تعالى ووحدانيّتهُ في الذّات والصّفات وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُذهلة ومُعجزة أيضاً.وكانَ الغرضُ من تقديمي لهذين المثالَين أن أُعطي القارئ فكرةً واضحةً تُوضِّحُ لهُ الأسلوبَ الّذي انتهجهُ اللّهُ تعالى وهو يُلخِّصُ المواضيعَ الّتي تضمّنها كتابُ اللّهِ العزيز.

فهذه هي خُلاصةُ ما أردتُ بيانهُ فيما كتبتُهُ آنفاً لِبيانِ وشرحِ هذا الأصل الأوّل من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن المجيد .



الفصـــلُ الثاني

الأصلُ الثاني لِلتّفسيرِ (اللُّغة):

وقد سبقَ لي أن وضَّحتُ بأنَّ أوَّلَ مُقوِّمةٍ لأيِّ كتاب استحقَّ اسمَ كتاب تتجلّى في أن يكتُبَهُ مؤلِّفهُ بلُغةٍ معروفةٍ ووفقَ قواعدِ هذه اللُّغةَ وقوانينها ودلالاتِ ألفاظها وبتراكيبها الأدبيَّةِ المعروفةِ لدى أدباء تلكَ اللُّغة.

وما دامَ الأصلُ الأوّلُ لِتفسيرِ آيات القرآن الكريم قد تحدَّدَ في ضـــرورةِ الالتزام عندَ تدبُّرِ آياتهِ بكونهِ كتاباً له مقدّمةٌ ومتنٌ وخلاصة.فإنَّ هذه المقوِّمـــةِ الأولى الّتي ذكرناها تتطلّبُ من المفسِّرِ المتدبِّرِ أن يلتزِمَ أيضاً بلُغةِ القرآنِ الكـــريمِ وما يتعلّقُ بها من قواعدَ وقوانينَ تنظُمُ صياغةَ آياتهِ وكلماتـــه العربيَّـــةِ وعـــدم تجاوزها.وأن يشكّلَ هذا الالتزامُ أصلاً ثانياً من أصولِ تفسير آيـــات القـــرآن الكريم.فهذا في رأيي أمرٌ يفرضهُ العقلُ والمنطِقُ السليم.وهل بإمكانِنا أنْ نُفسِّـــرَ كتاباً مكتوباً بلُغةٍ أخرى غيرَ لُغة الكتاب نفسه؟

هذا التّنظيرُ يحضُرُني من الوجهةِ النّظريَّةِ في هذا الموضوع.أمّا من حيـــثُ مُعطيات القرآنِ الكريمِ نفسه فلا نستطيعُ تقريرَ ذلكَ إلاّ بدليلٍ بيِّـــنٍ وواضـــح الدّلالةِ على ما ذكرناه.فهل نبَّهَ اللّهُ جلَّ شأنهُ أذهاننا في كتابهِ العزيزِ إلى هـــذا الأصلِ الثاني المتعلّق بلُغةِ هذا الكتاب العزيز؟ وبأُسلوب صياغتهِ المُتميِّزِ الّذي لا يُدركُ بما يتبادرُ منهُ للأذهان؟.وكيفَ أنَّ الباحثَ المتدبِّـــرَ بحاجـــةٍ إلى تدقيـــقٍ وتمحيصٍ كبيرينِ ووفقَ منهجيَّةٍ وأصولِ تفسير؟؟

أقول:إنَّ مِمّا لا يختلِفُ فيهِ اثنانِ من النّاسِ هو أنَّ هذا الكتابَ العزيزَ المُبارك قد صيغَ بلُغةِ عرب الجاهليَّة وبلهجةِ قريشٍ خاصّة.لكنَّ الاختلاف يبدأ عندما نتساءل: ولماذا أنزلَ اللّهُ تعالى كتابهُ هذا بهذه اللُّغةِ وليسَ بلُغةِ قومٍ آخرَ غير لُغةِ الضّادّ؟؟

فالعربُ خلالَ تاريخهمُ الطّويلُ كانوا أمَّةً تجهلُ القراءةَ والكتابة.ولذلكَ سمّاهم هذا الكتابُ العزيز نفسُه (**أمِّيّين**) وبنصٍّ صريحٍ أيضاً.ومن هو المؤمنُ الّذي لا يتلو في حياتهِ اليوميَّة قولَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ (**هو الّذي بعثَ في الأمّيينَ رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتهِ ويزكّيهم ويُعلّمهمُ الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين**) ؟ فالسؤالُ الّذي يطرحُ نفسه:ما الدّاعي لِيُنزِلَ اللَّهُ تعالى هذا الكتابَ المُقدّس والمبارك بلُغةِ أمَّةٍ ذات تاريخٍ يشهدُ على عَراقتِها في الأمّيَّة وإلى الحدِّ الّذي اعترفَ بهِ القرآنُ الكريمُ بهِ نفسُه؟

فأنّى للعربيِّ الأمّيِّ أن يبتدعَ لُغةً علميَّةً كَلغةِ الضّادّ ؟ تلكَ اللُّغةُ الّتي تنظُمها قواعدُ وقوانين وهي لُغةٌ علميَّةٌ وبشهادة كِبارِ اللُّغويّين وعلماء اللّسان؟ إلاّ أن يكونَ قد لقّنَ هذا الأمّيّ هذه اللُّغةَ الّتي يَتكلَّمُها عالمٌ ضليعٌ بهذه اللُّغةِ العلميَّةِ وبقوانينها وبقواعدها ولو بأسلوبِ التّلقينِ الشفهي؟

فالإنسانُ الّذي يتفحَّصُ جميعَ لُغاتِ الأقوامِ في العالم.سيصلُ إلى نتيجةٍ توصَّلَ إليها العلاّمة (لين بول) الّذي قامَ بترجمةِ معجم (لسان العرب) إلى لُغتهِ الأوربّية. وهو أنَّهَ لا توجدُ في العالمِ قاطبةً لُغةٌ تُماثلُ اللُّغةَ العربيَّةَ مُطلقاً من حيثُ كونها لغة علميَّةً وذات سعةِ مفردات ودلالات.ومن أضرِّ الضّرورات أن نبحثَ وبشكلٍ علميٍّ أيضاً لِنعلمَ كيفَ أمكَنَ للعربِ الأمّيّينَ أن يتكلّموا لُغةً على هذا المستوى الرّفيع الّذي لم تُضاهِهِ لُغةٌ في العالمِ قاطبة؟؟

ولقد أجبتُ على هذا السّؤال في مؤلّف (نشوءُ الإنسان وتطوُّره).أمّا هنا في هذا المقام فأنا بصدَدِ إثبات أنَّ القرآنَ الكريمَ أجابَ على هذا السؤال ونبَّهَ أيضاً إلى هذا الأصلَ الثّاني من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز.

سورة الرّحمن والأصلَ الثاني للتّفسير:

ففي الآياتِ الأوائلِ من سورةِ الرّحمان قد نَبَّهَ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ أذهاننا إلى الأصلِ الثاني لتفسيرِ آياتِ كتابهِ العزيز.وبأسلوب بلاغيٍّ مُعجزٍ يأخذُ بمجامع الألباب.فهو تعالى نَبَّهَ هناكَ في تلكَ الآيات إلى أنَّهُ جلَّ شأنهُ كَانَ وراءَ جميع التَّطوُّراتِ الّتي حدثت في الأرضِ هنا وهناك.ومن جملةِ ذلكَ أنَّهُ تعالى هو الّذي أخرجَ البشرَ ونقلهُ من حياةِ الكهوفِ إلى العيشِ خارجها عن طريقِ بعثةِ أوّلِ نبيٍّ في تاريخِ هذا البشر الّذي ظلَّ يعيشُ في الكهوفِ ملايين السنوات.وعلّمَ تعالى هذا البشرَ كلَّ ما يحتاجُ إليهِ من أمورٍ تفيدهُ في حياتهِ الجديدة وتُساعده على اجتيازِ ما يُصادفهُ في طريقهِ من عقباتٍ.ومن جملةِ ما علّمهُ، فقد علّمهُ النُّطقَ بأحرُفِ هجاء تُساعدهُ على بيانِ ما في نفسه.وقد كانت أحرفُ الهجاء تلكَ هي نفسَ أحرفِ الهجاء الّتي نزلَ بها هذا القرآن العظيم.فقد كانَ اللّٰهُ تعالى يعلمُ أنَّ هؤلاءِ البشر يحتاجونَ بعدَ بعثةِ آدمَ إلى أن يُنزلَ اللّٰهُ تعالى لِصالحهم تعاليمَ شرائعَ تهديهم سواءَ السّبيل.ولتنقلَهم بالتّدريج من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ إلى أن يحتاجوا إلى شريعةٍ كاملةِ التّعاليم وصالحةٍ لكلِّ زمانٍ ومكان. وأنَّ هذا الشريعةَ ستنزلُ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ أحرُفُ هجائهِ نفسُ أحرفِ الهجاءِ الّتي علّمها تعالى لآدمَ عليهِ السلامُ.وأنَّ الأقوامَ الّتي ستتوالدُ وتتناسلُ من بعدِ آدمَ سيطوّرونَ لُغةَ النُّطقِ هذه الّتي ورثوها عن جدِّهم آدمَ عليهِ السلام حتّى يصلوا بهذهِ اللّغةِ إلى أوجِ رُقيِّها زمن إنزالِ هذه الشريعةِ كاملةِ التّعاليم.

وعليهِ فينبغي اعتبار الرّجوع إلى هذه اللّغةِ الشريفةِ الّتي وضعَ اللّٰهُ تعالى أساسها على أيدي نبيِّهِ آدمَ، ينبغي الرّجوعُ إليها مُعتبرينَ بأنَّ الرّجوعَ إليها يشكّلُ

الأصلَ الثاني لتفسير آيات هذا القرآن الكريم الّذي أَنزلهُ اللّهُ تعالى وفــقَ هــذا المخطَّطِ الإلهيِّ الّذي ذكرناهُ آنفاً.فما هي تلكَ الآياتُ المشارُ إليها من ســورةِ (الرّحمن). وكيفَ استنبطنا منها هذه الدّلالات؟؟

فهذه الآياتُ الّتي تضمَّنت تلكَ المعلومات الّتي أسلفتُ ذكرهــا هــي الآياتُ الأوائلُ من سورة (الرحمن) والّتي قالَ اللّهُ تعالى فيها **(الرّحمــن.علّــمَ القرآن.خلقَ الإنسانَ.علّمهُ البيان.الشمسُ والقمرُ بحُسبان. والنّجمُ والشجرُ يسجُدان.والسماءَ رفعها ووضعَ الميزان.ألاّ تَطغَوا في الميزان.وأقيموا الــوزنَ بالقسط ولا تُخسروا الميزان)**.

أمّا كيفَ أمكننا أن نستنبطَ منها هذه الدّلالات.فاعلم يا عزيزي القارئ بأنَّ اللّهَ تعالى لم يستهلّ هذهِ السورة بصفةِ (الرحمن) عن عبث.بل استهلّها تعالى بهذه الصّفة إشعاراً من جانبهِ تعالى إيّانا بأنَّ جميعَ المواضيع الّتي تضمّنتها هــذه السورة إنّما ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بعطاءات ربِّنا هذا الإله الرّحمان.لذلكَ كانَ من واجبنا أن نُحيطَ علماً بادئ ذي بدءٍ بدلالةِ كلمةِ **(رحمان)** الّتي هي علــى وزن فَعلان. هذا الوزنُ من التّفعيلة الدّالُّ على السعةِ في العطاء وعلى كمالِ الغلبــة والامتلاء.فصفةُ اللّهِ الرّحمان وعلى حسبِ مُعطيات معاجمِ اللُّغةِ العربيَّة، تُشــيرُ إلى أنَّ كلَّ ما في هذا الكونِ من أشياء فهيَ من عطاءات اللّهِ الرّحمان ومــن دونِ أن يُقابلها سعيٌ وجهدٌ من طرفِ هذا الإنسانِ أو غيرُهُ من هذه المخلوقات.

وما دامَ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد استهلَّ هذه السورة بصفتهِ **(الرّحمان)** فــهذا يفرضُ علينا أن نفهمَ الآياتِ الّتي أتت بعدها على أنّها تشرحُ بعضاً من عطاءات الرحمان.وما دامَ اللّهُ تعالى قالَ بعد ذلك **(علّمَ القرآن)**. فهذا يعني أنَّ تعليــمَ محمَّدٍ (ص) القرآن يدخلُ تحتَ عَطاء اللّهِ الرّحمان ومن دونِ أيِّ مُقابلٍ من هــذا الرّسولِ الإنسان.فلا محمَّدٌ سعى لِيُنزِلَ اللّهُ عليهِ ما علّمهُ إيّاه.ولا سعى لذلــك الشيء طرفٌ آخرَ سواه

كيفَ ابتدأ ظهور اللُّغة العربيَّة:

وقد ذكرَ اللّهُ جلَّ شانهُ عطاءً آخر وقال (**خلقَ الإنسـان**).واختصـرَ المراحلَ الّتي مرَّ بها هذا الإنسانُ إلى أن اكتملَ نموُّ عقلِهِ.وهذه إحدى خصائصهِ تعالى في هذا الكتاب العزيزِ.وذكرَ عطاءً ثالثاً عظيم الأهميَّـةِ في تـاريخ هـذا الإنسان وقال (**علّمهُ البيان**). والبيانُ للّذي في صدر الإنسـان لا يكـونُ إلاّ بالنُّطقِ بلُغةِ بيانٍ ذات"أحرُف هجاء.فقد حذفَ اللّهُ تعالى اسمَ اللُّغـةَ في هـذا المقام وأبقى تعالى على ما تتّصفُ به تلـكَ اللُّغـة مـن صفـةٍ هـي صفـةُ (**البيان**).والبيانُ في اللُّغة يعني الفصاحة. فأنتَ تقولُ بيَّنتُ ما في نفسي وتعـني أنّكَ أفصحتَ عنه.ولا توجدُ في عالمنا الحاضر لُغةٌ أكملُ من لُغتنا العربيَّة لتأديـةِ مهمَّةِ الإفصاحِ عمّا في صدرِ الإنسان وبأوسعِ التّفاصيلِ وأقلِّ الألفاظ.فهذا أمـرٌ باتَ من الحقائقِ الّتي سلّمَ بها علماءُ اللّسان.

وعليهِ فإنَّ اللّهَ تعالى حينَ ذكرَ أُعطيةَ (**علّمهُ البيان**) فقد ربطَ موضوعيّاً ما بينَ أعطيةِ (**علّمَ القُرآن**) وما بينَ هذه الأُعطيةَ الأخيرة الّتي تتعلّـقُ بتعليـمِ الإنسان لُغةَ الفصاحةِ والبيان.ومن أجلِ أن يُنبِّهَ تعالى أذهاننا إلى أنَّ الّذي كـان قد علّمَ الإنسانَ الأوّلَ لُغةَ الفصاحةِ والبيان وأحرُفَ هجائها،أنّهُ هو اللّهُ تعـالى نفسهُ الّذي علّمَ محمّداً القرآن.وبنفسِ الطّريقـةِ أيضـاً أي بطريـقِ الوحـيِ الإلهيّ.نستنتجُ بأنَّ لُغةَ الإنسانِ الأوّل كانت هي نفسها لُغةُ القرآن.

فلماذا ربطَ اللّهُ تعالى هذا الرّبطَ الموضوعيَّ ما بينَ هذيـن الأمريـن؟ الجوابُ هو أنّهُ كانَ في علمِ اللّهَ تعالى الغيبيِّ أنّهُ سيبعثُ هذا الرّسولَ الصّـادقَ الأمين وليحمّلهُ أكملَ الرّسالاتِ السماويّة التي يتضمّنها هذا القرآن.ولا تصلُـحُ لكتابةِ هذا القرآن إلاّ لُغةُ الفصاحةِ والبيانِ لذلكَ فإنَّ اللّهُ تعالى كانَ قد وضـعَ أساساً للُغةِ القرآن على أيدي أوّل إنسانٍ اكتملَ نموُّ عقلهِ وعادَ بحاجةٍ للنُّطـقِ وبيانِ ما في صدرهِ من أفكارٍ وتصوُّراتٍ وأحاسيسٍ ورغبات. فـهذهِ مقولـةٌ

مُترابطةُ المواضيعِ وتشكّلُ ادّعاءً عظيماً من جانبِ اللّهِ جلَّ شأنه.وهي بحاجةٍ للتّدليلِ على مِصداقيّتها أيضا.وهذه الحاجةُ تدعونا للبحثِ عن هذا الدّليلِ والوارد بعدَ هذه المقولة مباشرةً وبدون وجودِ أيِّ فاصلٍ يفصلُ ما بينَ هذا الادّعاءِ وما بينَ دليلِ مِصداقيّته.فهل قدَّمَ اللّهُ تعالى هذا الدّليلَ المطلوب؟؟

دليلُ المصداقيَّةِ العلميّ:

والحقيقةَ هي أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ حينَ قالَ بعدَ ذلك (**الشمسُ والقمرُ بحُسبان.والنّجمُ والشجرُ يسجُدان**)فقد أتى جلَّ شأنهُ على مقولةٍ ثانيةٍ اشتملت على الدّليلِ المطلوب.فما هي معالمُ هذا الدّليل الّذي تضمَّنتهُ هذه المقولةُ الثانية؟؟

قالَ تعالى لو أنّكم راقبتُم الشمسَ والقمرَ وأمعنتُم فكركم فيما يجري تُلاحظونَ أنّهما يجريانِ مُتعاقبان.ويستمدُّ أحدهما نورهُ من الآخر.فكذلكَ حالُ لُغةُ البيانِ والقرآن.فإنّهما تعاقبا ويستمدُّ أحدهما دلالاتهِ ومعانيهِ من الآخر.ثمَّ إنَّ الشمسَ لا ينبغي لها أن تُدركَ القمر.كذلكَ فإنَّ هذا القرآن ما كانَ لهُ أن يُدركَ عصرَ تعليمِ لغةِ البيان.وكلٌّ في فلكٍ يسبحون.أي أنَّ دائرةَ سيرِ كلِّ واحدٍ من هؤلاءِ جميعهم مُستقلّةٌ عن الأخرى.

وفوقَ هذا وذاكَ فإنَّ القوانين النّاظمةَ والمُبدعةَ لهذينِ النّظامين قد حدثت(**بحُسبان**).فلا يُعقلُ أن تتجمَّعُ صُدفةً ومن نفسها.بل لابدَّ وأن يكونَ الّذي سنَّ هذه القوانينَ وأبدعَ هذا النّظام قد أجرى قبلَ ذلك عمليَّةً حسابيَّةً بالغةَ الدّقّة.

ثمَّ إذا كانت الشمسُ هي الأساسُ في النّظامِ الشمسيِّ. فإنَّ القرآن هو شمسُ النّظام الثاني الأرضيّ.فنورُ القرآنِ نورٌ تامٌّ لكونهِ كامل التّعاليم.ولكونِ تعاليم النّورِ الأوّل هو جزءٌ من أجزاءِ نورِ وتعاليمِ القرآن.

فهذه مُلاحظاتٌ قُمنا بملاحظتها بالأسلوبِ العلميِّ.ووردت استنتاجاتنا الّتي استنتجناها منها بالأسلوب العلميِّ نفسهِ أيضاً.وقد شكَّل ذلكَ كُلّهِ دليلاً استقرائيّاً علميّاً أيضاً.قد ثبتَ من خلالهِ أنَّ الّذي أبدعَ النّظامَ الشمسيَّ وأبدعَ لُغةَ البيانِ.وخلقَ الإنسانَ وعلَّمَ القرآن هو ذاتُ إلهٍ واحدٍ يملكُ من القدراتِ ما يفوقُ تصوّراتِ عقل هذا الإنسانِ.

فهذا هو ما أفادهُ مضمونُ المقولةِ الثانية الّتي عبَّرَ اللّهُ جلَّ شأنهُ عن طرفها الأوّل بقولهِ تعالى : (**الشمسُ والقمرُ بحُسبان**).وقد راحَ اللّهُ جلَّ شأنهُ يُفصِحُ عنِ المقاصدِ الّتي أراد تحقيقها من وراءِ هذينِ النّظامين السماوي والأرضي.فقالَ في الطّرف الثاني من هذه المقولةِ الثانية (**والنَّجمُ والشجرُ يسجُدان**).وبإمكاننا إدراكَ دلالةِ هذا القولِ بنفسِ الأسلوبِ العلميّ.

فمن المعلومِ أنَّ النّباتات بمختَلفِ أنواعها مُرتبطٌ وُجودها بوجود هذا النّظامِ الشمسيّ.فهذه حقيقةٌ علميَّةٌ لا تقبلُ النّقاشَ ولا الجدال.وبمعنى أنَّ اللّهَ تعالى الّذي أبدعَ هذا النّظامَ الشمسيَّ كانَ يقصدُ من وراءِ ذلكَ أن يظهرَ إلى الوجود صغيرَ النّباتات وكبيرها.وإلاّ فلا يكونُ لإبداعِهِ تعالى لهذا النّظام الشمسيّ من معنى.ويشكّلُ بالتّالي عمليَّةَ عبثٍ لا طائلَ تحتها.وهو أمرٌ يتنافى وشأنَ وعظمةَ ما للّهِ تعالى من قُدراتٍ مكّنتهُ من إبداعِ هذينِ النّظامينِ المتوازيَين المذكورينِ آنفاً.

وليسَ هذا وحسب، بل ويُستنتجُ من جميعِ مُعطيات طرفي هذه المقولةِ الثانية بأنَّ جميعَ ذلك خاضعٌ في حقيقةِ أمره لِسُلطان اللّهِ الّذي أبدعَ هذه الأشياء جميعَها.ولا إرادةَ ذاتيَّةَ لهذه الأشياء فيما تحقّقَ وظهرَ إلى مَعرَضِ الوجود.

فمن خلالِ ما فهمناهُ حتّى اللّحظة من قولهِ تعالى (**الرحمن.علَّمَ القرآن.خلقَ الإنسانَ.علّمهُ البيان.الشمسُ والقمرُ بحُسبان.والنَّجمُ والشجرُ يسجُدان**) يكونُ قد تبيَّنَ لنا أنَّ هذه الآيات نبَّهت أذهاننا إلى أنَّ اللّهَ تعالى كانَ

ومنذُ أن أبدعَ هذا النّظامَ الشمسيَ فقد كانَ مُصمِّماً علـــى خَلــقِ الإنســـان وتطويره.حتى إذا أكملَ تطويرَ عقلِهِ وكانَ قادراً على النُّطقِ.أنطقـــهُ بـــأحرُفَ هجاءِ هذه اللُّغةِ العربيَّةِ الّتي نتكلَّمُها.وحمَّلَ آدمَ وذرِّيتهُ أمانةً تطويرِ هذه اللُّغـــةِ لِيبلُغوا بها أوجَ رُقيِّها وكمالها.وليجعلوها أُهيتهم في صحراءِ شبهِ جزيرتهم.إعداداً لها لِتصبحَ اللُّغة الّتي يترلُ بها أعظمُ كتابٍ سماويٍّ كامل التّعاليم عرفتهُ البشـــريَّةُ منذُ عهدِ آدمَ الّذي وُضعت على أيديهِ بذورُ هذه اللُّغةِ الشريفة.والّذي كانَ قـد بعثهُ اللَّهُ تعالى في تلكَ البقعةِ من الأرضِ.والواقعةِ على خطِّ الاستواء.والّتي ثبتَ لِعلماءِ المناخِ والجيولوجيا أنَّها وجميعَ مناطقَ خطِّ الاستواء ما أثَّـــرَت عليـــها التّغيُّراتُ المُناخيَّةُ بسوءٍ بالرّغمِ من طِولِ الأزمنةِ الغابرة.

فهذه الحقيقةَ الّتي توصَّلنا إليها ومن ضمنها دليلُ مِصداقيَّتها العلميِّ الّذي حصلنا عليهِ بطريقِ الاستنتاج.والّذي تبيّنّاهُ من خلالِ انتقالهِ تعالى فوراً من قولـهِ **(علَّمهُ البيان)** إلى قولهِ تعالى **(الشمسُ والقمرُ بحُســبان.والنّجـــمُ والشـــجرُ يسجُدان)** وبمعنى أنَّ النّجمَ والشجرَ يخضعان لهذا النّظامِ الشمســـــيِّ ويرتبـــطُ وُجودهما بوجوده.إنَّ هذه الحقيقةَ اقتضت أيضاً من جانبِ اللّهِ تعالى لِيقولَ بعـدَ ذلكَ كلِّه: **(والسماءَ رفعها ووضعَ الميزان.ألاّ تطغَوا في الميزان.وأقيموا الـوزنَ بالقسطِ ولا تُخسروا الميزان)** وليشيرَ من خلالها وبأُسلوبٍ وصياغةٍ بليغتـين إلى أنَّ **اللّهَ تعالى عندما خلقَ هذا الإنسان. ميَّزهُ عن سائرِ المخلوقات الحيَّةِ مـــن حولهِ بالعقلِ والإرادة وحرّيةِ الاختيار**.وقد ميَّزَ حُنجرتهُ أيضاً عـــن حُنجـــرةِ الكائنات جميعها من أجلِ تأهيلِهِ للنُّطقِ ولامتحانِهِ في مجالِ العملِ على ما كـــانَ تعالى سيُترلهُ على هذا الإنسان من تعاليمَ سماويَّة.ولذلكَ بعثَ لهُ أوّلَ نبيٍّ وهـــو آدمُ عليهِ السلام وعلَّمهُ لُغةَ البيان.وأكملَ لهُ وبما يناسبُ قُدُراتهِ رسالةَ الإســـلامِ الّتي يمثّلها هذا القرآن الكريم.وفتحَ لهُ أبوابَ الرّقيِّ السماويِّ الرّوحيِّ إن هـــو

حافظَ على العملِ على عدالةِ تلكَ التّعاليم.فلا يطغى ولا يُخسرُ المـــيزان.أي أنَّ كلمةُ (الميزانُ) استُعملت هنا بمعنى العدل (محيط المحيط).

وعلى هذه الصّورةِ يتجلّى لأعيُننا التّرابطُ الموضوعيُّ بينَ هذه الآيـــات جميعها.والّتي أوردها ربُّنا عزَّ وجلَّ مُصاغةً صياغةً بلاغيَّةً مُدهشة.وتضطرُّ الّـذي يبحثُ عن أصولِ التّفسيرِ أن يُسلِّمَ تبعاً لهذه المعاني الّتي أفادتنا بها هذه الآيـــاتُ الأوائلُ من سورةِ (الرحمن) أن يسلِّمَ معي بأنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ وبهذا الأسلوبِ من البيان قد نبَّهَ أذهانَنا إلى الأصلِ الثاني للتّفسيرِ .وهو ضرورةُ الالتزامَ باللُّغةِ العربيَّةِ وبما لها من قواعدَ ودلالات ألفاظ عند قيامنا بتدبُّرِ آيات كتابهِ العزيـــز.ومـــن مُنطلَقِ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد أعدَّ هذه اللُّغَةَ الشريفةَ منذُ أن بعـــثَ آدمَ وعلَّمـــهُ النُّطقَ بأحرُفِ هجائها لِتُصبحَ في نهايةِ المطاف لغةَ القرآن العظيم.ولِنلتزمَ بكلِّ ما يمتُّ إليها بصلةٍ على اعتبارِ أنها لُغةٌ علميَّةٌ من ترتيبِ اللّهِ تعالى وليست من صُنعِ البشر.فإن نحنُ أهملنا هذا الأصلَ وأخذنا بما كانَ قد وصلنا من روايات لا يصل مُستواها مُستوى ومنزلةَ هذا القرآن المجيدِ ومن ثمَّ حكَّمنـــا مُعطيـــاتِ تلـــك الرّوايات على آيات كتابِ اللّهِ العزيز وحاولنا تدبُّرَ آياتِ هذا الكتاب العزيـــز استناداً إلى ما أفادتهُ تلكَ الرّوايات.فلا نصلُ حينئذٍ إلى المعاني الحقيقيَّةِ لآيـــات هذا الكتاب السماويِّ المقدّس والمبارك والّـــذي يتّصـــفُ بكمـــالِ العطـــاءِ والنّماء.ولا نكونُ حينئذٍ قد أعطينا هذا الكتابَ العزيزَ حقّهُ من المكانةِ والقـــدرِ أيضاً.تلكَ المكانة الّتي ترتبطُ حقّاً بمكانةِ اللّهِ جلَّ شأنهُ الّذي كانَ قد أنزله.أمّـــا إن نحنُ التزمنا بمنهجيَّتهِ وبأصولِ تفسيرِ هذا الكتاب العظيم فنكونُ قد اهتدينـــا إلى الرّشاد والتزمنا جادَّةَ الصوابِ.

ألا إنَّ كلَّ مَن اطَّلعَ على الطّرائقِ الخمسة الّتي وضعها العلاّمة ابنُ تيميَّـــة رحمهُ اللّهُ أساساً لِتفسيرِ آيات القرآن الكريم في مقالتهِ الّتي سبقَ لي أن كلَّمـــتُ القارئ عنها من قبل.يُلاحظُ أنّهُ رحمهُ اللّه كانَ قد جعلَ الرّجـــوعَ إلى اللُّغـــةِ

العربيَّة عند قيامهِ بتدبُّرِ الآيات في المرتبةِ الخامسةِ ومن بعدِ أن يعجزَ المتدبِّرُ عن تفسيرِ الآياتِ بالرّواياتِ الّتي بينَ يديهِ.فأنا أرى أنَّهُ قد أخطأ في هذا الأمرِ بالذّاتِ وفقَ ما توصّلنا إليهِ من مُعطياتِ الآياتِ الأوائلِ من سورةِ (الرحمن) وبالأسلوبِ العلميِّ أيضاً.هذه الآياتُ الّتي أفادتنا بهذا الأصلِ الثّاني للتّفسيرِ والّذي أوردَهُ ربُّنا عزَّ وجلَّ مُصاغاً صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً لم ينتبه ابنُ تيميَّة وغيرهِ من علماءِ أمَّتنا السابقينَ إلى ما في هذه الآياتِ من مُعطياتٍ بالرّغمِ من علوِّ مقامهم وطولِ باعهم في علومِ هذا الدّين الإسلاميِّ الحنيف.

مُميِّزات اللّسان العربيّ:

وبعدَ أن نعثرَ على هذا الأصلِ الثاني للتّفسيرِ قد يسألُني قارئي العزيز أن أشرحَ لهُ ما تمتازُ بهِ هذه اللُّغةُ العربيَّةُ عن سائرِ لُغاتِ العالم من ميِّزةٍ أهَّلتها لِتكونَ لُغةَ هذا القرآن المعجز العظيم.أقول:

أوّلاً- اللُّغةُ العربيَّةُ لُغةٌ عِلميَّة:

فينبغي عليكَ يا عزيزي القارئ أن تضعَ بحسابكَ بادئَ ذي بدء أنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ هي لُغةٌ علميَّةٌ قامت على أصولٍ وقواعد وقوانين ثابتة.وأمّا اللُّغاتُ الأخرى المعروفة فليست هي كذلكَ. وأن تضعَ في حسابكَ أيضاً أنَّ هذه اللّغة العربيَّة قديمةٌ جدّاً قِدَمَ خروجِ الإنسانِ من سكناهُ الكهوف . ودليلي على مِصداقيَّةِ هذا الادّعاء أنَّ كلَّ مَن طالعَ علمَ الصّرف والنحو يُلاحظُ وبشكلٍ واضحٍ لا لُبسَ فيهِ بأنَّ العلماءَ الّذينَ وضعوا هذا العلم لم يأتوا فيهِ من عندِ أنفسهم بشيءٍ جديدٍ من قواعدِ علمِ الصّرف والنحو.بل الّذي فعلوهُ هو أنّهم استنبطوا هذا العلمَ الذي هو بينَ أيدينا اليوم من اللُّغةِ العربيَّةِ نفسها الّتي قامت على أُسسٍ ومبادئِ هذا العلمِ منذُ ابتداء نشأها.وإنَّ هذه الحقيقة إن دلَّت على

شيءٍ فإنّما تدلُّ على قِدَمِ ما اشتملَت عليهِ هذه اللُّغة من قواعد علــم النّحــو والصَّرف.هذا وقد أنزلَ اللّهُ تعالى هذا القرآنَ الكريمَ فحفظَ لنا بواسطتهِ هــذه اللُغةَ العربيَّة وما اشتملت عليهِ من نحوٍ وصَرف وبهذه الصّياغة الّتي صاغها جــلَّ شأنهُ وِفقَ قواعدِ هذا العلم. وها هو قد مضى على إنزالِ هذا القرآن المجيدِ قُرابـةَ أكثرَ من أربعةَ عشرَ قرناً من الزّمان.وما تزالُ هذه اللّغةُ العربيَّةُ تحتفظُ بشــبابها وبحيويَّتها.وعليهِ فبإمكانكَ أن تستنبط ممّا ذكرناهُ قدَمَ تاريخِ هذه اللُّغة الشــريفة وقِدَمَ قواعدِ صرفها ونحوها وأنَّهُ يعودُ إلى آلاف السنين.

فإن أنتَ دقّقتَ نظركَ في مُفرداتِ اللُّغةِ العربيَّة يتبيَّنُ لكَ أنّها قد قــامت على أصولٍ علميَّة فهي جُملةُ مجموعات من المفردات. وقد اشتُقَّت كلُّ مجموعةٍ من تلكَ المجموعات من المفردات من مصدرٍ ثُلاثيّ الأحرُف.الأمرُ الّذي ســاعدَ كلَّ مُفردة أن تحتفظَ بنسبها.على حين أنَّ هذه الميِّزة العلميَّة مفقودة في بقيَّـــةِ لُغات العالَم باعترافِ علماءِ اللسانيّات.ولذلكَ قُلتُ إنَّ اللّغة العربيَّةَ هــي لُغــةٌ علميَّةٌ

وليست هي كبقيَّةِ اللُّغات.

ثانياً–اللّغةُ العربيَّةُ أقدمُ لُغات العالم:

ثمّ إنَّ من المعلومِ لدى علماءِ اللّسانيّات هو أنَّ تاريخَ وُجــود الألفــاظ اللّغويَّة يسبقُ وجود قواعدَ اللّغة ومركّباتها.ومن هذا المنطلقِ فإنَّ كلَّ لُغةٍ يُقــاسُ قِدمُ تاريخها بقلّةِ أحرُفِ ألفاظها الغارقة في القِدم وهي حقيقةٌ سأقدِّمُ للقـــارئِ مثالاً من لُغتنا العربيَّة يشرحها.

فكلمةُ (**أب**)على سبيلِ المثال هي كلمةٌ عربيَّةٌ أصيلة.وقد راحَ مــؤلّف معجم (محيط المحيط) يشرحُ معنى هذه الكلمة ويقول : الأبُ معنــاه : **الّــذي يتولَّدُ منهُ شخصٌ آخر من نوعه.ومن كانَ سبباً لإيجادِ شيء أو إصلاحــه أو ظهوره.**

وهذا المعنى الّذي أورده (محيط المحيط)يعني بألفاظ أُخرى وُجودُ نُطفةٍ تتوسَّطُ ولادةَ الابن من الأب.وأن لا دخلَ لهذا الأب في خلقِ وصُنعِ هذا النُّطفة الّتي يتولّدُ منها ابنُهُ في رَحِمِ امرأته.أي أنَّ كلمةَ (**أب**) استُعملت منذُ الابتداء لِيُعبِّرَ بها الإنسانُ الّذي نطقَ بهذه الكلمة عمّا ذكرناهُ من معنى وعليهِ فإنَّ تاريخَ هذه الكلمة من هذه الجهة قديمٌ وقديمٌ جدّاً وقِدمَ الإنسان العربيّ نفسهُ الّذي نطقَ بها أيضاً.وهي كلمةٌ لا تزيدُ أحرُفها عن حَرفينِ اثنينِ فقط.فإن أنتَ أردتَ تصريفَ كلمة (**أب**) تقولُ أبي،أبوكَ أبوهُ أبوهما أبوهم أبوهنَّ.أي أنَّ كلمةَ (**أب**) تخضعُ لعلمِ الصّرف والنّحو.وتشكّلُ جزءً لا يتجزَّأُ من لُغةٍ علميَّةٍ.ومرتكزةٌ من حيثُ نُشوئها إلى علمِ فقهِ اللُّغةِ أيضاً.ومنذُ نطقَ الإنسانُ بهذه الكلمة (**أب**) .

فإن نحنُ بحثنا عمّا يُقابلُ كلمةَ (**أب**) في بقيَّةِ لُغات العالم.فلا نعثرُ على لُغةٍ منها قد استعملت كلمةً مقابلةً ودالّةً على المعنى الّذي دلَّت عليهِ كلمة (**أب**) إلاّ وتكونُ أكثرَ من حَرفين.وإنّها لحقيقةٌ واقعةٌ يعرفُها كلُّ إنسانٍ اطّلعَ على اللُّغات الأخرى غير العربيَّة.فإن دلَّ ذلكَ على شيءٍ فإنّما يدلُّ على أنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ الّتي ترجعُ إليها كلمةُ (**أب**) هي أقدمُ لُغاتِ العالم قاطبة.لأنّها أقلُّ لُغاتِ العالمِ أحرفاً من جهة.وتخضعُ لقواعد تصريفِ الكلمات.ومن جهةٍ أخرى فلو حقّقنا في هذه الكلمات البديلة المستعملةِ في اللُّغاتِ الأخرى لتبيَّنَ لنا أنّها إمّا أن تكونَ محرَّفةً عن هذه الكلمةِ العربيَّة.أو تكونُ منحوتةً بلا أصلٍ وبلا مرجعيَّةٍ قاعديَّة.

ثالثاً–مفرداتُ العربيَّةِ مُحتفظةٌ بأنسابها:

ثمَّ إنَّ كون اللُّغة العربيَّة **لغةٌ علميَّة ساعدَها ذلكَ على احتفاظ مُفرداها بأنسابها.على حين أنَّ اللُّغاتِ الأخرى قلّما حافظت مُفرداتُها على أنسابها. فتسألُني أن كيفَ ؟؟**

أقول: إنَّ الباحثَ يُلاحظُ أنَّ مُفردات اللّسانِ العربيّ تُشكّلُ مجموعــات. وإنَّ كلَّ مجموعةٍ من تلك المجموعات تدورُ حولَ مَصدرٍ ثلاثيِّ الأحرُف.ولذلكَ يحافظُ كلٌّ لفظٍ من تلك المجموعةِ على أصلِهِ ونسبهِ المتّصل بـــالمصدرِ المشــتقِّ منه.على حين أنَّ هذه الميّزة لا تُلاحظها في بقيَّةِ لُغاتِ العالم.وإن دلَّت هذه الميِّزة على شيءٍ فإنَّما تدلُّ على أنَّ هذه اللُّغة هي لُغةٌ علميَّة.وأنّى للإنسانِ القــديمِ أن يمُتَّ أصلاً إلى العلمِ بصلةٍ وأن تكونَ معارفهُ تُساعدهُ على وضعِ لغةٍ علميَّةٍ مــن هذا القبيل؟؟

وعلى هذه الصورة أكونُ قد أعطيتُكَ أيُّها القارئ العزيز فكرةً واضحــةً عمّا تمتازُ بهِ هذه اللغةُ

العربيَّة من ميِّزات هامّةٍ ميّزها عن بقيَّةِ لُغاتِ العالم.وأكسبتها حيويَّةً دائمةً ولياقةً لِتُمكّنُكَ من التّعبيرِ بها عن أدقِّ خَلَجاتِ فؤادك وتصوُّراتكَ الفكريَّة.

اللُّغةُ العربيَّةُ والقرآن وَجهان لِعُملةٍ واحدة:

ثُمَّ إنَّ أهمّيةَ هذا الأصلِ الثاني للتّفسير ينبعُ من كونِ مُفــرداتِ القــرآن الكريم تُشكّلُ وجهاً مُطابقاً لِوجهِ اللُّغةِ العربيَّة وكأنّهما وجهانِ لِعُملةٍ واحــدة وسأوضّحُ لك هذه الحقيقة من واقعِ القرآنِ الكريم نفسه.ذلكَ أنَّ العالمَ الّــذي يتبحَّرُ في هذا الكتاب العزيز.يتبيَّنُ لهُ أنَّ هذا الكتابَ المقدَّسَ قد اشتملَ علـــى عشرِ أنظمةِ مُفردات:

عشرةُ أنظمة لِمفردات القرآن المجيد:

فنظامُ المفردات الأوّل يشتملُ على بيانِ وجودِ اللّهِ تعالى والدّلائل الدّالةُ على وجودهِ عزّ وجل.وبيان صفات وأسماء اللّه الحسنى وأفعالِ اللّـــهِ وسُــنَنهِ وعاداته والمختصّينَ بذاتهِ تعالى.إلى جانبِ الكلمات الّتي تمدحُ ذاتَ اللّهِ تعــالى مدحاً كاملاً وتثني عليهِ ثناءً عطراً.وتُجلّي جلالَ اللّهِ وجمالهُ وعظمتهِ وكبريائه.

ونظام المفردات الثاني يشتملُ نظامُ مفرداتِهِ على الكلامِ على وحدانيَّةِ اللّهِ جلَّ شأنه ودلائل مصداقيةِ هذه الوحدانيَّة العائدة إلى الذّات وإلى الصّفات.

ونظامُ المفردات الثالث تشتملُ دائرةُ ألفاظِهِ على المفردات الّتي توضِّحُ صفات وأفعال وأعمال وعادات الحالات الروحيَّة والنّفسانيَّة الصادرة عن الإنسان والموافقة لمشيئةِ اللّهِ عزَّ وجلّ أو المخلفة لهُ جلَّ وعلا.

ونظامُ المفردات الرّابع يشتملُ نظامُ مفرداتِهِ على كاملِ هدايةِ اللّهِ تعالى فيما يتعلّقُ بالوصايا والتّعاليم الأخلاقيَّة وبحقوقِ اللّهِ وحقوقِ العبادِ وعلوم الحكمةِ والحدود والأحكام والأوامر والنّواهي والحقائق والمعارف الّتي هدانا إليها اللّهُ عزَّ وجلّ.

ونظامُ المفردات الخامس يشتملُ نظامُ مفرداتِهِ على الكلماتِ الّتي تشرحُ حقيقةَ النّجاة والوسائل الّتي تُساعدُ الإنسانَ على تحصيلِ النّجاة وعلى الآثار والعلامات الّتي تميِّز المؤمنينَ المقرّبين.

ونظام **المفردات السادس** وهو هذا النظامُ الّذي تشرحُ مفرداتهُ حقيقةَ الإسلام.وحقيقةَ الكفرِ والشرك. ودلائلَ مصداقيَّةِ ذلك.والرّدُّ على مختلفِ الاعتراضات العائدة إلى هذينِ الموضوعين.

ونظامُ المفردات السابع وتطالُ مفرداتُ هذا النّظام دحضَ جميعِ عقائدِ المخالفينَ الباطلة سواءً أكانوا من أهلِ الكتاب أو من غيرهم من الأقوام.

ونظام المفردات الثامن تشتملُ مفرداتهُ على الإنذارِ وعلى التّبشيرِ وعلى الوعدِ والوعيدِ وبيانِ ما يتعلّقُ بعالَمِ المعاد وعلى مفردات تقديم الأمثلةِ العائدة لموضوعه والنّبوءات الموجبةِ لزيادةِ الإيمان والقصصِ المخوّفة والمبشّرة أيضاً.

نظامُ المفردات التّاسع وتشتملُ مفرداتُ هذا النّظام على ما يتعلّقُ بمراحلِ عمرِ محمَّدٍ رسول اللّه (ص) وصفاتِهِ الطّاهرةِ وأسوتِهِ العمليَّةِ النّموذجيَّة وعلى دلائلَ كاملةٍ على صدقِ نبوّتهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم.

نظام المفردات العاشر وتشتملُ مفرداتُ هذا النّظام على بيانٍ ما يتَّصفُ بهِ هذا الكتابُ العزيزُ من صفاتٍ وتأثيراتٍ وخواصٍّ ذاتيَّة.

فهذه هي الأنظمة العشرةُ للمفرداتِ القرآنيَّة الّتي يستحيلُ أن تؤدّي معانيها ومضامينها لُغةٌ أخرى من سائرِ لُغاتِ العالم سوى اللُّغةُ العربيَّةُ المؤهّلةُ منذُ النُّطقِ بها لِتأديةِ هذه المهمَّة العظيمة الشاقَّة بدليلِ أنَّ الّذينَ حاولوا ترجمةَ القرآنِ المجيدِ إلى بقيَّةِ لُغاتِ العالم واجهوا هذه الصّعوبة حتّى الآن.ومن بابِ أنَّ ماءَ بحرٍ واسعٍ يستحيلُ أن تكفيهِ بحيرةٌ لاستيعابِ مياهه الّتي لا يكفي لاستيعابها إلاّ بحرٌ مثيل.

وبألفاظ أُخرى فقد كانَ في علمِ اللّهِ الغيبيِّ أنَّهُ سينزلُ هذا الكتابَ العزيزَ ويحتاجُ يومئذٍ للُغةٍ تستوعبُ أنظمةَ مفرداتِهِ الّتي أتينا على ذكرها.وهذا هو السببُ في أنَّهُ جلَّ شأنهُ أنطقَ الإنسانَ الأوَّلَ آدمَ عليهِ السلام بأحرُف هجاءِ هذه اللُّغة الشريفة العلميَّة ومن أجلِ أن تتطوَّرَ على أيدي أهلها الّذينَ نطقوا بأحرُف هجائها وبقواعدِ استنباط أسماءِ الأشياء منها وحسبَ قوانينها وقواعدِ صرفها.ولِتبلُغَ أوجَ رُقيِّها يومَ إنزالِ اللّهِ تعالى لهذا الكتابِ المعجز العظيم.وهذا هو السببُ الحقيقيُّ الّذي دفعني لأقولَ إنَّ العربيَّةَ والقرآنَ هما وجهانِ لِعملةٍ واحدةٍ وعلى وجهِ اليقين.

أدلّةٌ إضافيَّةٌ على علميَّةِ العربيَّة :

ولا بدَّ أن لاحظَ القارئُ أنّي كرّرتُ وصفَ اللُّغةِ العربيَّة بكونها لُغةً علميَّةً.وقد يُطالبني بما يُثبتُ صحَّةَ هذا الرّأي فألبّي رغبتهُ لِيزدادَ يقيناً بجميعِ ما بيَّنتهُ لهُ حتّى الآن.وليعلم هذا القارئُ بجودِ أكثر من دليلٍ على مِصداقيَّةِ ما ذهبتُ إليه وإليكَ بعضاً من هذهِ الأدلَّة المسمّاة (**أدلَّةً ضمنيَّةً**):

أولاً –دليلُ العناصر الثلاثة:

فالعنصرُ الأوّلُ يتألّفُ من الأصوات الّتي تصدُرُ عن المتكلِّم بهذه اللُّغة.والعنصرُ الثاني هي هذه الكلماتُ الّتي تشتملُ عليها هذه اللُّغة.والعنصرُ الثالثُ هو ما ينبعُ عن تلكَ اللُّغة من صيغٍ وتراكيب.

فالملاحظُ هو أنّ اللُّغةَ العربيَّةَ قد استوفت تلكَ العناصرَ الثلاثة الّتي ذكرناها.وفوقَ ذلكَ فقد امتازت عن تلكَ اللُّغات بكونِ مفرداتها تشكّلُ مجموعات مستقلّةٍ بعضها عن بعض.وتشتركُ كلُّ مجموعةٍ منها في حروف ثلاثة هي مصادرها وبمعنى مخصوص.وإنّهُ كلّما ابتعدت مفردةٌ من مفردات المجموعة في دلالتها عن معنى المصدر الّذي اشتُقّت منهُ.فإنَّها تظلُّ محافظةً على أصلها وعلى نسَبها.بل وتدورُ معهُ حيثُ دارت هذه المفردة أيضاً وهذه المزيَّة تشكّلُ دليلاً على أنَّ اللّغةَ العربيَّةَ هي لغةٌ علميَّة

ثانياً–دليلُ ارتباط الحروف بمخارجها:

يتجلّى هذا الدّليلُ في أنّ كلَّ مصدرٍ من المصادر الّذي تدورُ حولهُ مجموعتهُ والّذي يتضمَّنُ معنىً أو أكثرَ من معنىً.فإنّ أحرُفَ هذا المصدر يرتبطُ برابطةٍ علميَّةٍ تربطُهُ بمخارجِ كلِّ حرفٍ من حروفهِ بمخارجهِ الحلقيَّة ويرتبطُ المصدرُ بالتّالي بالمسمّى الصادرِ عنه.وإلى جانب هذا وذاكَ فإنَّ عمليّات الاشتقاقِ الحادثة هذه لا تتمُّ بصورة عشوائيَّةٍ.لكنَّها تتمُّ وِفقَ قواعد اشتقاقٍ معلومة تعارفَ عليها أهلُ اللُّغةِ العربيَّة خلالَ تاريخهم العريقُ في القدم.وهذه الأمورُ جميعها تشكّلُ دليلاً ضمنيّاً وعلى حسب ما سبقَ لي أن ذكرته من أنَّ لغةَ الضّاد هي لُغةٌ علميَّةٌ ومنطقيَّةٌ أيضاً.خصوصاً وأنّها نشأت على هذا الحال وفي وقتٍ كانَ من حولها ممّن ينطقونَ بها أمّيّين لا يعرفونَ الكتابةَ ولا الحساب. وبألفاظ أخرى فإنّ أولئكَ الأمّيّنَ عُلّموا تلكَ اللُّغة ولم ينطقوها بصورةٍ طبيعيَّةٍ كما حدثَ لأهلِ بقيَّةِ لُغاتِ العالم الأخرى والّتي ليست هي

لُغاتٌ علميَّةٌ ولا منطقيَّةٌ ولا تُعرفُ أنسابُ مفرداتها ولا تنظمُها أصولٌ شــــاملةٌ ولا قواعدُ وقوانين.

ويكفيكَ يا عزيزي القارئ أن تعلمَ بأنَّ العربَ كانوا قد أُخذوا بلُغــــةِ القرآنِ الكريمِ أيّامَ نزولِ آياتهِ الكريمةِ لكونهِ كانَ يمثّلُ وجهاً آخرَ للوجــهِ الأدبيِّ الّذي توارثوهُ أباً عن جدٍّ.

وألخِّصُ الآنَ للقارئ جميعَ ما ذكرتهُ بما يتعلّقُ بالأصلِ الثــاني للتّفســيرِ فأقول:لقد اقتضت المقوِّمة الثانية للكتاب أن تكونَ لهُ لُغةٌ معلومة.وقد علِمنا من داخلِ القرآنِ الكريمِ بأنَّ ربَّنا قد أنزلهُ بلسانٍ عربيٍّ مبين.وقد نبَّهنا اللّهُ عزَّ وجــلَّ الّذي أنزلَ هذا الكتابَ العزيزَ إلى الأصلِ الثّاني من أُصولِ تفسيرِ آياته، وذلــكَ في الآياتِ الأولى من سورةِ (الرّحمن).فنبَّهَ عقولنا هناكَ بأنَّهُ تعالى قد أعدَّ هــذه اللّغةَ الشريفةَ منذ عهدِ آدمَ عليهِ السلام.فأنطقهُ بأحرُفِ هجائها وعلّمهُ قواعــدَ وضعِ أسماء الأشياء وأقامَ تعالى هذه اللُّغة على قواعدَ وأصولٍ علميَّةٍ.وقـــدّمَ في تلكَ الآياتِ دليلَ مصداقيَّةِ ما ادّعاه.ومن خلالِ ما يُستنتجُ ويُستخلصُ من هــذا النّظامِ الشمسيِّ الّذي قامَ بحُسبان.

كذلكَ قدَّمتُ للقارئ الأدلّةَ الّتي تُثبتُ أنَّ لُغةَ العربِ هي لُغـــةٌ علميَّـــةٌ وليست هي من وضعِ العربِ أنفسهم خصوصاً وأنّهم كانوا أمّيينَ.كما قدّمـــتُ للقارئ أدلّةً من ضمنِ هذه اللُّغةِ العربيَّةِ تثبتُ كونها لغةً علميَّةً أيضاً.وانتـــهيتُ من ذلكَ كلِّهِ إلى أنَّ دوائرَ أنظمةِ مفرداتِ القرآنِ الكريمِ ومفرداتِ هذه اللُّغـــة العربيَّة تشكّلُ وجهانِ لِعُملةٍ واحدة.

وأزيدُ على ذلكَ فأقول: لا يذهبُ ظنُّ القارئ إلى أنّي طرحتُ اليـــومَ طرحاً جديداً بما يتعلّقُ بكونِ اللُّغة العربيَّة لُغةً سماويَّة.بـــل إنَّ مؤلّـــف كتـــاب (الخصائص) المرحوم أبي الفتح عثمان بن جنّي المُعتبر من أعلامِ اللّسانِ العربيِّ قد كتبَ على الصّفحة ٤٧ من المجلّد الأوّل يقول: (وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ أصـــلَ

اللُّغات كلّها إنّما هو من الأصوات المسموعات، كدويّ الرّيحِ وحنين الرّعدِ وخرير المياه وشحيج الحمار ونعيق الغُراب وصهيلِ الفرسِ ونزيبِ الظّبي ونحو ذلك.ثمّ ولدت اللُّغات عن ذلكَ فيما بعد.واعلم فيما بعدُ أنّني على تقادُم الوقتِ، دائمُ التّنقيرِ والبحث عن هذا الموضِع.فأجدُ الدّواعي والخوالج قويّة التّجاذُبِ لي، مُختلفة جهاتِ التّغوّل والاشتباه على فكري.وذلكَ أنّني إذا تأمّلتُ حالَ هذه اللُّغة الشريفة الكريمة اللّطيفة، وجدتُ فيها من الحكمةِ والدّقةِ والإرهافِ والرّقةِ ما يملِكُ عليّ جانبَ الفكر.حتّى يكاد يطمحُ بهِ غاية السّحر.فمن ذلكَ ما نبّهَ عليهِ أصحابنا رحمهم اللّه.ومنهُ ما حذوتُهُ على أمثِلتِهم.فعرفتُ تتابُعهُ وانقيادهُ وبُعدَ مراميهِ وآماده، صحّةَ ما وُفّقوا لِتقديمِهِ منهُ، ولُطفَ ما أُسعِدوا بهِ، وفُرِقَ لهم عنه.وانضافَ إلى ذلكَ واردُ الأخبار المأثورة بأنّها –أي اللّغةُ العربيّة–من عندِ اللّهِ جلّ وعزّ. فقويَ في نفسي اعتقادُ كونها توفيقاً من اللّهِ سبحانهُ وأنّها وحي.).

فإن أنتَ دقّقتَ نظركَ فيما اقتبستُهُ لكَ من أقوالِ مؤلّف كتاب (الخصائص) الّذي اشتملَ على ثلاثِ مجلّدات. يتبيّنُ لكَ بصورة جليّةٍ بأنّ المؤلّفَ المذكور قد أحسّ بأنّ اللّسانَ العربيّ هو لغةٌ علميّةٌ ويستحيلُ أن تكونَ من وضعِ أمّةٍ (أميّة).وبذلكَ يكونُ (ابنُ جنّي) رحمهُ اللّه قد سلّمَ بكون هذه العربيّة قد جاءت بطريقِ الوحيِ السماويّ وليست من وَضعِ بشر.فاتّفقَ ما توصّلَ إليهِ هذا المؤلّف مع مُعطياتِ الآياتِ الأوائل من سورةِ (الرحمن) من حيثُ لم يشعُر.

ما يترتّبُ على الأصلُ الثاني للتّفسير:

وما دامَ اللّهُ عزّ وجلّ هو الّذي جعلَ اللسانَ العربيّ المبين أصلاً ثانياً من أصولِ تفسيرِ كتابهِ العزيز.وقد سبقَ لنا أن رأينا بأنّ اللّهَ تعالى قد تحدّى بهذا الكتاب العزيز الإنسَ والجنّ على أن يأتوا بمثلِهِ أو بمثلِ سورةٍ منه.وأنّ تحدّيهِ قد

وردَ في خمسِ مواضعَ منه.وبمختَلفِ المناسبات الموضوعيَّة.وكانَ تحدّيـــهِ مـــن الوجهةِ اللُّغويَّة ومن وجهةِ المضمون.فالتّحدي في اللُّغة لـــهُ معنـــاهُ ودلالتُـــه. والتّحدّي في المضمون لهُ دلالتُهُ ومعناه أيضاً .

أمّا معنى التّحدّي اللُغويِّ فهو أنَّ هذا القرآنَ قد جاءَ مُصاغـــاً صياغـــةً وردت في قمَّةِ البلاغةِ والإعجاز.وأمّا دلالةُ التّحدّي اللُّغـــويّ فـــهي أنَّ هـــذا التحدّي اللُغويّ قد شملَ جميعَ فنونِ اللُّغة. وليس في ناحيةٍ معيَّنةٍ منـــها.ومـــن مُنطلقِ أنَّ هذه التّحدّيات القرآنيَّة ما وردت مُختصَّةً بفنٍّ مُعيَّنٍ.ولكنَّـــها وردت شاملةً جميعَ فنونِ اللُّغةِ العربيّة.

وإنَّ هذا النّوعَ من التّحدّي اللّغويّ الّذي ذكرناهُ لهُ تَبعاتُهُ الّتي يفرضُـــها على الإنسانِ الّذي يتصدّى لِتدبُّرِ آياتِ هذا القرآن الكريمِ.ومُراعياً هذا الأصـــلَ الثّاني لِتفسيرِها.فلا يصحُّ ذلكَ التّدبُّر إلاّ ضمنَ الشروطِ التّالية الّـــتي يشـــملها التحدّي اللُّغويّ المذكور:

أوّلاً-أن تتوفَّرَ في عمليَّةِ تدبُّرِ آياتِ هذا القرآن الكريم مُراعاة كونِ هـــذا القرآنِ الكريمِ كتابٌ لهُ مقدّمتهُ ومتنهُ وخلاصته.فسورة الفاتحةُ هي السبعُ المثاني وهي مُقدّمتُه وإنَّ سور المعوّذات الأخيرة هي خلاصةُ خلاصتـــه.وإنَّ الســـورَ الكائنةَ ما بينَ هذا وذاكَ من السور فهي سورُ مَتْنِ هذا الكتـــاب الســـماويّ المقدَّس والمبارك العظيم.

ثانياً-وينبغي النّظرَ أيضاً إلى هذا القرآنِ الكريم على أنَّهُ كتـــابٌ غـــيرُ عاديّ.وأنَّهُ مُشتملٌ على آياتٍ قد صاغها العليُّ القديرُ في قمَّةِ الصّياغة البلاغيَّـــة المعجزة وتتراوحُ ما بينَ الحقيقةِ والمجاز وأنَّها تضمَّنت الاستعارات والتّشـــابيه والتّصويرَ الفنّيّ والمسرحيّ والحذفَ البلاغيُّ.والتّقديم والتّأخير البلاغيّ أيضاً.وأنَّ جميعَ تلكَ الفنون اللّغويَّة قد خالطت ما صاغهُ اللّهُ تعالى من آياتٍ كريمةٍ علـــى مُستوىً من الإعجازِ يفوقُ مُستوياتِ ما يؤدّيهِ أدباءُ هذه اللُّغةِ الشّريفة.

ثالثاً-وأمّا ما يتعلّقُ بالكلمات.فمن المعلومِ أنَّ لكلِّ كلمةٍ في العربيَّةِ أكثرَ من معنى.ولذلكَ فقد جازَ للّهِ تعالى استعمال الكلمةِ الواحدة في كلِّ مُناسبةٍ موضوعيَّةٍ بمعنى يُناسبُها ولا ينبغي للمفسِّرِ أن يأخذَ للكلمةِ القرآنيَّةِ معنىً واحداً في جميعِ آياتِ هذا الكتاب العزيز.هذا وإنَّ التّحدّيات الخمسة الّتي اشتملَ عليها هذا القرآنُ الكريمُ تقتضي أن يكونَ اللّهُ تعالى جرى على هذا النّسقِ الّذي ذكرناهُ وأنّهُ استعملَ كلَّ كلمةٍ بمختلَفِ معانيها وفي المواضعِ المناسبة لها أيضاً.

وعلى سبيلِ المثال فإنَّ كلمةَ الإيمان لا ينبغي أن نأخذَ لها معنى الإيمان باللّهِ تعالى في كلِّ آيةٍ من الآيات.بل أن نُراعي موضعَ هذه الكلمة من التّسلسل الموضوعيّ.فنأخذ لها معناها الّذي يُناسبه. وكمثلها كلمات الكفر والجنّ وغيرها من الكلمات.وسأوردُ الأمثلةَ الحيَّةَ الّتي تشرحُ مِصداقيَّةَ ذلكَ في الأمكنة المُناسبة لها من هذا الكتاب.

رابعاً-وأمّا على صعيدِ الأحرُفِ العربيَّة المنفصلة منها والمتَّصلة.فمن المعلومِ أنَّ لكلِّ حرف من تلكَ الأحرُفَ هي الأخرى أكثرَ من معنىً.وبشروط مُعيَّنةٍ أوردها معاجمُ اللُّغة.ومن واجب كلِّ من يتدبَّرُ الآيات القرآنيَّة أن يضعَ في حسابهِ أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ لا يستعملُ الحرفَ الواحدَ في جميعِ المواضعِ بمعنىً واحدٍ.بل يستعملهُ في كلِّ موضعٍ بمعنى يُناسبُ ذاكَ المقام.وتبعاً للشروطِ الواردةِ في معاجمِ اللُّغة وعلى مُستوىً يندرُ أن يبلُغَ مُستواهُ أديبٌ لُغويٌّ مشهور.

فهذا كلُّهُ على صعيدِ التّحدّي اللُّغويّ دلالةً ومعنى.وأمّا على صعيدِ التّحدّي في المضمون.فإنَّ لهذا التّحدّي المذكورُ تَبعاتُهُ من حيثُ الدّلالات والمعاني على الّذي يقومُ بعمليَّةِ تدبُّر آيات هذا القرآن الكريم وضمنَ الشروطِ التّاليةِ أيضاً.وهي شروطٌ من الأهميّةِ بمكانٍ كبير:

أوّلاً-من المعلومِ أنَّ قارئَ كلِّ نصٍّ من النّصوصِ الأدبيَّةِ يتبادرُ لذهنهِ ممّا يقرأهُ معنى خاصّا ومُباشراً ومن دون أن يكونَ قد تدبَّرَ النّصَّ المُشارُ إليه.فهذا الأمرُ يحدُثُ حينَ نُطالعُ نُصوصاً عاديَّةً.

أمّا هذا القرآن المجيد فلا يدخلُ في زمرِ مؤلّفاتِ العاديَّةِ لِنأخُذَ بالمعاني التي تتبادرُ لأذهاننا حينَ نقرأُ أيَّةَ آيةٍ من آياتهِ الكريمة.بل هو كتابٌ غيرُ عادي وعلى حسبِ ما بيّناهُ في الفصلِ الأوّلِ من هذا الكتاب.لذا يترتّبُ على الإنسان الّذي يتدبَّرُ آيات هذا الكتاب العزيز أن يوقنَ بأنَّ ما تبادرَ لذهنهِ من الآيةِ من معنى هو في الغالبِ ليس هو المعنى المقصود.بل إنَّ وراءَ هذا المعنى المتبادر معنىً آخر أعمقَ منه.ومن هذا المُنطلقِ فمن واجبهِ البحث عن المعنى الأعمق لتلكَ الآيةِ الكريمة.وسأقدِّمُ الأمثلةَ المطلوبةَ على مصداقيّةِ ذلكَ التي تثبتُ مِصداقيَّةَ ذلك في الأمكنةِ المناسبة.

ثانياً-ويترتَّبُ كذلكَ على من يقومُ بعمليَّةِ تدبُّرِ الآياتِ القرآنيَّة من حيثُ مضمونها.أن يأخُذَ بعينِ اعتبارهِ جميعَ الشروط الّتي أوردناها على صعيدِ التّحدّي اللُّغويّ.فلا ينظر إلى النّصوصِ بظواهرها بل إنَّ من واجبهِ أن يتحسّسَ أينَ الحقيقةَ وأينَ المجاز وأين الاستعارةَ وأينَ التّشبيه.وهل يوجدُ حذفٌ بلاغيٌّ وما هي دلالتُه. وهكذا دواليك.

ثالثاً-ويترتَّبُ على من يقومِ بعمليّةِ تدبُّرِ آياتِ هذا القرآنِ المجيدِ أن ينظُرَ إلى هذا الكتابِ العزيزِ على أنَّهُ كلٌّ لا يتجزّأ.وأن يُراعي خصائصَ هذا الكتاب العزيز ومن تلكَ الخصائصِ أنَّ اللّهَ تعالى يوزِّعُ عناصرَ الموضوعِ الواحدِ على جميعِ سورِ كتابهِ العزيز.وبلا تناقضٍ بينَ مُعطياتِ تلكَ العناصر.فالّذي لا يراعي هذه النّظرةَ الشاملةَ.ويأخذُ للآيةِ معنى مقطوعاً عن مُعطياتِ بقيَّةِ الآياتِ المتعلّقة بمضمونها. لا يكونُ قد أدّى واجبهُ كمفسّرٍ للآياتِ الكريمةِ ولا يكونُ قد التزمَ بما فرضتهُ عليهِ تحدّياتُ هذا القرآن الكريم على صعيدِ المضمون.

رابعاً-ويترتّبُ على المفسِّرِ أيضاً أن يكونَ مُحيطاً بعلمِ جميعِ أُصولِ تفسيرِ الآياتِ القرآنيَّة وليساعدهُ ذلكَ على الوصولِ إلى المعاني الحقيقيَّةِ لآياتِ هذا الكتاب العزيز.

ونصيحتي لهذا الإنسان أن لا يُقدمُ على تدبُّرِ أيَّةِ آيةٍ من آياتِ هذا القرآن المجيدِ إلاّ بعدَ أن يتوجَّهَ بالدّعاء من اللّهِ تعالى الّذي أنزلَ هذا الكتابَ المكنونَ.لِترتبطَ ما يكشفهُ من معانٍ بمشيئةِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ وهو القائل (....ولا يحيطونَ بشيءٍ من علمهِ إلاّ بما شاءَ ...) البقرة ٢٥٥.

وإنَّ الدّاعي الّذي دعاني لِتقديمِ هذه النّصيحةِ أيضاً هو أنَّ علومَ هذا الكتاب العزيز لا تختصُّ بزمانٍ ومكانٍ معيّنَين.بل هي علومٌ تتكشَّفُ على أوقاتها بسبَبِ أنَّ اللّهَ تعالى قد أنزلَ هذا الكتابَ العزيزَ لِيصلُحَ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ.لذلكَ كانَ من الضروريِّ جداً أن يَستعينَ هذا المفسِّرُ باللّهِ تعالى من أجلِ أن يُعينهُ على الكشفِ على المعاني المُختصَّة بالزّمانِ الّذي هو فيهِ وفي الوقتِ المناسب.

منزلةُ وأهمّيةُ معاجم اللُّغةِ العربيَّة :

والسؤالُ الّذي يطرحُ نفسهُ بعدَ جميعِ الّذي ذكرناهُ هو من أينَ نستقي المعاني الحقيقيَّة لمفردات آياتِ هذا القرآن الكريم ؟؟

أقول في الإجابةِ على هذا السؤال: لقد انكبَّ المفكّرون من أمّتنا العربيَّة في القرونِ الأولى الّتي تلت ظهورَ الإسلام على جمعِ وتصنيفِ مفردات اللُّغةِ العربيَّة من رواتها ومستدلّينَ على صحَّةِ استعمالاتها ممّا أفادنا بهِ هذا الكتاب السماويُّ العظيم الّذي حفظَ لنا لُغتنا على مستوى يستحيلُ أن تهُزَّهُ الأعاصير.فعادت بعضُ المؤلَّفات تجمعُ من المفردات ما يعودُ إلى موضوعٍ واحدٍ.فهذا ما نجدهُ في أخبارِ الأصمعي وأبي زيدٍ وقُطرب والأخفش والنّضر بن

شميل وغيرهم من الرّجال. كذلكَ منهم مَن أَلَّفَ كتباً في غريبِ القرآن وفي نوادر اللُّغة.

وقد شكّلت تلكَ المؤلّفات الأساسَ الّذي قامت عليهِ معاجمُ اللُّغةِ العربيَّة. أمثال مِعجم المحيط، ومعجم لِسان العرب، ومعجم مفردات الرّاغب الأصفهاني، ومعجم أقرب الموارد وغيرها. وعادت هذه المعاجم تشكّلُ المرجعَ الموثوقَ لمفرداتِ القرآن الكريم وباتّفاق الأمَّة أيضاً. ولقد قامَ المعلّم بطرس البستاني في القرنِ الماضي بوضع معجم (محيط المحيط) الّذي جمعَ فيهِ كثيراً من المعاني التي استقاها من مُختلف المعاجم اللُّغويَّةِ المعروفة وخاصَّةً منها معجم المحيط. ولذلكَ سمّاهُ (محيط المحيط).

وقد أتت بعدَ المرحلَتينِ السابقتين مرحلةٌ ثالثةٌ ظهرت فيها مؤلّفاتٌ عظيمةُ الشأن استنتجَ فيها مؤلّفوها قواعدَ الصّرفِ والنَّحوِ والقواعدَ الّتي تَنظُمُ اللّسانَ العربيَّ. فعلوا ذلكَ بأسلوبٍ علميٍّ رائع. وبذلكَ فقد ظهرت في القرن الثاني للهجرة مؤلّفاتٌ للّغويٍّ الشهير (سيبويه) وذلكَ عام ١٨٠ هجري وكتاب (المقاييس) في النّحو والاشتقاق للأخفش عام ٢٢١ هجري وكتاب (العلَل في النحو) لقطرب عام ٢٠٦ هجري. ومنها كتاب (القلب والإبدال والاشتقاق) للأصمعي عام ٢١٤ هجري. وكتاب (الأبنية والتّصريف) للجرميّ. وكتاب (التّصريف) للمازنيّ عام ٢٤٩ هجري. علماً بأنَّ التواريخَ الّتي ذكرتُها هي تواريخُ وفاة المؤلّفينَ المذكورين رحمهمُ اللّه جميعهم. وغيرُها من المؤلّفات.

أمّا في أواخرِ القرن الثالث الهجري فقد تطوَّرَ البحثُ اللُّغويّ وبلغَ شأواً كبيراً. فظهرت مؤلَّفاتٌ للُّغويٍّ الشهير (ابن فارس) مؤلّف كتاب (الصاحبيّ) في فقه اللّغةِ العربيَّة. وكتاب (الخصائص) و(مقاييس اللُّغة) لابن جنّي. فكانَ العالمان المذكوران على مستوى علماء اللّسانيّات المعاصرين.



الفصلُ الثالث

الأصل الثالثُ للتَّفسير (كلُّ ادّعاءٍ ودليلُه)

لقد سبقَ لنا أن أثبتنا في الفصلِ الثالث من البابِ الأوّل بأنَّ القرآنَ الكريمَ هو كتابٌ قد التزمَ اللّهُ تعالى فيما يوردهُ فيهِ بمنهجيَّةٍ علميَّةٍ وبأسلوب علميٍّ في البحثِ والاستقراء والحوار وعلى أساسِ الحجَّةِ والبرهان.هذا وإنَّ هذهِ المنهجيَّة العلميَّة تقتضي وبصورةٍ آليَّةٍ ألاّ يطرحَ هذا القرآن الكريمُ ادّعاءً من أيِّ نوعٍ كان إلاّ ويُتبعهُ بدليلٍ يُثبتُ من خلالهِ مِصداقيَّته.فإن لم يفعل ذلكَ يختلُّ هذا الطرحُ لهذه المنهجيَّةِ وذاكَ الأسلوبُ العلميّ.

فما بالُنا إذا تبيَّنَ لنا أنَّ هذا الكتاب العزيز قد التزمَ بهذا النّهجِ وبهذا الأسلوب العلميِّ ابتداءً من سورةِ البقرة وإلى آخره.وليصبحَ بحيثيَّتهِ الكلّيةِ بُرهانا علميّاً مجسَّماً أيضاً ؟

إنَّ هذه الحقيقةَ تقتضي أن يكونَ لها أصلٌ بينَ أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز.ليلتزمَ المتدبّر للآيات بمُعطياتِه.وهذا الأمرُ يُلحُّ علينا أن نُشيرَ إلى الآيةِ الكريمةِ الّتي صيغت صياغةً بلاغيَّةً وهي تحملُ في مضمونها هذا الأصلَ الثالثَ من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن العظيم .

أقولُ: أجل قد وفَّقني ربّي لأعثرَ على هذا الأصلِ الثالث في الآية ١٧٤ من سورةِ النّساء الّتي قالَ تعالى فيها وهو يُخاطبُ النّاسَ جميعاً (يا أيُّها النّاسُ

قد جاءكم بُرهانٌ من ربِّكم وأنزلنا إليكم نوراً مُبيناً).وهذا المضمونُ اقتضى أن يزيدَ تعالى عليهِ ويقول بعده (**فأمّا الّذينَ آمنوا باللّهِ واعتصموا بهِ فسيُدخِلُهم في رحمةٍ منهُ وفضلٍ ويهديهم إليهِ صراطاً مُستقيماً**).

ونتدبَّرُ أوّلاً الآيةَ المذكورةَ.فالّذي نلاحظهُ هو صياغتهُ تعالى لقولهُ فيها (**قد جاءكم بُرهانٌ من ربِّكم**) على شاكلةِ صياغتهِ لقولهِ تعالى في مقامٍ آخر (**لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم**).وهذا يعني أنّهُ تعالى قصدَ من قولهِ (**قد جاءكم**) قد ظهرَ لكم.وهو رأيٌ واضع معجم (محيط المحيط).وأوردَ تعالى كلمةَ (برهانٌ) مُنوَّنةٌ على آخرها.ومحذوفاً بيان المقصدَ من هذا البرهان.والتّقديرُ في نظري هو قد ظهرَ لكم بُرهانٌ من ربِّكم على وجودِ اللّهِ عزَّ وجلَّ الّذي هو ربُّكم لِتؤمنوا به.وللحذفِ البلاغيِّ دلالتُهُ.كما للتّنوينِ دلالتُه.

وردَ في معجم (محيط المحيط) بشأن كلمة (برهان) قولهُ البرهانُ هو الحجَّةُ والدّليل والبيِّنة ويُجمعُ برهان على براهين.وقالَ الخليل: البرهان هو بيان الحجَّة وإيضاحُها..وقالَ أبو البقاء: البرهان هو الّذي يقتضي الصّدقَ أبداً لا محالة.وقالَ ابنُ جنّي: بُرهانٌ هو عندنا على وزن فَعلان من البَرَه وهو القطع، ونونهُ زائدة.وقالَ الأصوليّون: البرهان ما فصلَ الحقَّ عن الباطل. وعندَ أهلِ الميزان: البرهانُ هو قياسٌ مؤلّفٌ من مُقدّمات قطعيَّة، يُنتِجُ نتيجةً قطعيَّة.فإن كانَ مع ذلكَ علّةً لِوجودِ النّسبة في الخارج، فهو بُرهانٌ (لَمّيّ) نسبةً إلى حرف التّساؤل (لِمَ). وإلاّ فهو بُرهانٌ (إنّيّ) نسبةً إلى حرف إن ثمّ

إنَّ تنوين كلمة(**برهانٌ**)ورد لإظهارِ عظمةِ هذا البرهان.وإنَّ الحذفَ البلاغيَّ الحادثُ في هذا الكلام كان القصدُ منهُ تصريفُ المعنى إلى أكثر من جهةٍ كما سنراهُ حينَ نوضِّحُ المعنى المرادُ من هذه الآيةِ الكريمة.وأمّا قولهُ تعالى في هذه الآيةِ الكريمة (**نوراً مُبيناً**) فكلمةُ (**نور**) تعني الضّوءَ أيّاً كان وخلاف الظّلمة.والنّورُ هو العاملُ المساعدُ لعينِ الإنسان لِتبيينِ الأشياء وتوضيحِ حقيقتها.وقد استُعيرَ في

هذه الآيةِ الكريمةِ لِما يحملهُ هذا الكتابُ المقدَّسُ والمباركُ من براهينَ ودلالات.ولذلكَ أصبحَ هذا الكتابُ **(نوراً مُبيناً)** أي أداةً توضِّحُ الحقائقَ الكونيَّةَ وحقائقَ المعاد.وغيرها من الحقائق الغائبةِ عن الأذهانِ والأبصار.

واستناداً إلى دلالاتِ مفرداتِ وصيَغةِ هذه الآيةِ الكريمةِ ومعاني ألفاظها نصلُ إلى أنَّ اللَّهَ تعالى عندما قال:**(يا أيُّها النّاسُ قد جاءكم بُرهانٌ من ربِّكم وأنزلنا إليكم نوراً مُبيناً)**فقد أرادَ أن يُخاطبَ جميعَ الّذينَ كان قد خاطبهم في السورِ الماضيةِ ابتداءً من سورةِ البقرة ومروراً بسورةِ آلِ عمران، وانتهاءً بهذه السورة وهي سورة النِّساء.قد خاطبهم جلَّ شأنهُ موضِّحاً لهم بأنَّهُ ومن خلالِ ما بيَّنهُ لهم في هذا الكتابُ العزيزُ ضمنَ السورِ الثلاث الماضية.أنَّهُ قد ظهرَ لكم بُرهانٌ مُجسَّمٌ من جانبِ ربِّكم فإن أنتم استفدتم مّما أوردهُ اللَّهُ تعالى فيهِ من بيِّنات يعودُ يشكِّلُ هذا القرآن الكريمَ نوراً لأعيُنِكُم يبيِّنُ لكم حقائقَ الأشياءِ الّتي أنتم عنها غافلون.

وهذا المعنى الّذي وضّحناهُ اقتضى من جانبِ اللَّهِ تعالى أن يقولَ بعدَ هذه الآيةِ الكريمة**(فأمّا الّذينَ آمنوا باللَّهِ واعتصموا بهِ فسيُدخلهم في رحمةٍ منهُ وفضلٍ ويهديهم إليهِ صراطاً مُستقيماً)**وقد استعملَ اللَّهُ تعالى حرف **(أمّا)** في هذه الآيةِ الكريمةِ كحرف تفصيل تُرِكَ تكرارُها (محيط المحيط).ولم يورد اللَّهُ تعالى حرف **(أمّا)** هذا كحرف شرط مُحتاجةٍ إلى جُملةٍ تحملُ جوابها.

وإنَّ ما يؤكِّدُ المعنى الّذي توصَّلنا إليهِ شرحاً للآيةِ الأولى.فهو سباقها الّذي استُهلَّ بقولهِ تعالى **(يا أهلَ الكتابِ لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على اللَّهِ إلاّ الحقّ إنّما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ اللَّهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منهُ فآمنوا باللَّهِ ورُسُلِهِ**-وهنا إشارةُ وقف-**ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم إنّما اللَّهُ إلهٌ واحدٌ سُبحانهُ أن يكونَ لهُ ولدٌ لهُ ما في السماوات والأرض وكفى باللَّهِ وكيلاً .لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً للَّهِ ولا الملائكةُ**

المقرَّبون ومَن يستنكِف عن عبادتِهِ ويستكبِر فيحشُرُهم إليهِ جميعاً.فأمّا الّذيـنَ آمنوا وعملوا الصّالحات فيُوفّيهم أُجورهُم ويزيدُهم من فَضلِه وأمّــا الّذيــنَ استنكفوا واستكبروا فيُعَذّبُهم عذاباً أليماً ولا يجدونَ لهم من دونِ اللّهِ وليّــاً ولا نصيراً).

فمن خلالِ ما فهمناهُ من هذه الآياتِ جميعها قد اتّضحَ لأعيُننا تسلسُــلاً موضوعيّاً مُدهشاً . ولنُلاحظ كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى استعملَ كلمةَ (**النّاس**) عنــدَ مُخاطبتِهِ أهلَ الكتاب بمعنىً محدود بهم.وفي وقتٍ تدلُّ كلمةُ (**النّـــاس**) علــى جنسِ النّاسِ قاطبةً.أي أنّهُ تعالى عرّفَ الكلمةَ بأداة التّعريف المستعملة للمعــهودِ في ذهنِ القارئ وهم (**أهلُ الكتاب**).ولم يقصد بهِ النّاسَ قاطبةً.وهو مِثالٌ يفيــدُ فيما يتعلّقُ بالشرطِ المتعلّق بالمفردات حينَ كنتُ بصدَدِ الكلام عن الأصلِ الثّــاني للتفسيرِ .

والّذي يهُمُّنا مّما ذكرناهُ حتّى الآن هو أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ قد نبَّهَ أذهاننــا من خلالِ قولهِ تعالى (**يا أيُّها النّاسُ قد جاءكم بُرهانٌ من ربّكم وأنزلنا إليكــم نوراً مُبيناً**) أقول قد نبَّهنا إلى الأصلِ الثالثِ من أصولِ تفســيرِ آيــاتِ كتابــهِ العزيز.ويتلخَّصُ هذا الأصلُ الثالثُ في أنَّهُ حيثما تردُ ملامحُ ادّعاءٍ في آيةٍ مـــنَ الآياتِ الكريمة.فلابدَّ أن يردَ بعدَ الادّعاء المُشار إليه دليلُ مِصداقيَّته.فالإدّعـــاءُ في الآياتِ الكريمة مُقترنٌ دوماً بدليلِ مِصداقيَّته.وإنَّ كُلَّ من لا يلتزمُ بهذا الأسـلوبِ من الفهمِ للآياتِ الكريمة يضلُّ فكرهُ عن المعنى الحقيقي المقصود هناك.

فهل أدركَ سلفنا الصّالحُ من الآيةِ الّتي استشــهدنا بهـــا مـــا أدركنـــاهُ وفهمناه؟؟

أمّا ابنُ كثيرٍ رحمه اللّه فقد كتبَ يُفسِّرُ هذه الآيةَ ويقول: (يقولُ تعالى مُخاطبـــاً جميعَ النّاسِ ومُخبِّراً بأنّهُ قد جاءهم منهُ برهانٌ عظيمٌ وهو الدّليلُ القاطعُ للعُــذر،

والحجَّة المزيلة للشبه.ولهذا قال: وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً.أي ضياءً واضحاً على الحق) ج١ صفحة ٥٩٢.

وأمّا الفخر الرّازي رحمه اللّه فكتبَ يفسّرُ هذه الآيةَ ويقول (لّما أوردَ الحُجَّة على جميعِ الفِرق من المنافقينَ والكفّار واليهود والنّصارى.وأجابَ على جميعِ شُبُهاتِهِم.عمَّمَ الخطاب ودعا جميعَ النّاسِ إلى الاعتراف برسالةِ محمّد عليهِ الصّلاةُ والسلام فقال(يا أيُّها النّاسُ قد جاءكم بُرهانٌ من ربِّكم) والبرهان هو محمَّد عليهِ الصّلاةُ والسلام.وإنّما سمّاهُ بُرهاناً لأنَّ حرفتهُ إقامة البرهان على تحقيقِ الحقِّ وإبطالِ الباطل.والنّورُ المبينِ هو القرآن.وسمّاهُ نوراً لأنَّهُ سببٌ لِوقوعِ نورِ الإيمان في القلب.ولّما قرَّرَ على كلِّ العالمين كون محمَّدٍ رسولاً.وكون القرآن كتاباً حقّاً أمرهم بعدَ ذلكَ أن يتمسّكوا بشريعةِ محمّد (ص) ووعدهم عليهِ بالثّواب...).

فهذا هو ما فهمهُ هذان المفسّرانِ القديمان. وأترُكُ للقارئ الباحثِ الحكمَ على مدى إصابةِ كلٍّ من هذه الأطراف الثلاثة.

أمثلة تُثبتُ مِصداقيَّةَ الأصل الثالث :

ولا تتّضحُ مصداقيّةُ هذا الأصلُ الثالثُ للتّفسيرِ إلاّ بتقديمِ الأمثلة العديدة على مِصداقيَّته ولذا أبدأُ بتقديمِ أمثلةٍ من هذه السور الثلاث نفسها:البقرة وآلِ عمران والنّساء، وهي السورُ الّتي اختُتِمت بالأصلِ الثالث سالف الذّكر.

المِثالُ الأوّلُ من سورة البقرة الآية ١١١:إنَّ أوَّلَ سورةٍ من هذه السُور الثلاث هي سورةُ البقرة المُستهلّة بالأحرُف المقطّعة (آلم) هذه الأحرُفُ المقطّعةُ التي تعني أنا اللّهُ العليم.فلقد خاطبَ اللّهُ تعالى في هذه السورة بني إسرائيلَ قائلاً (...**ولا تكونوا أوّلَ كافرٍ به**...) وراحَ تعالى بعدَ ذلكَ فذكَّرهم بما أنعمَ عليهم من قبلُ وكيفَ أنّهم كانوا قد عذّبوا موسى بمطالباتهم ونسوا ميثاقَ ربِّهم الّذي وثّقهُ معهم وكيفَ أنّهم نقضوهُ ومن ثمّ لم يستجيبوا لهذا الكتاب الّذي أنزلهُ اللّهُ جلَّ شأنهُ على رسولهِ الكريم محمَّد بن عبد اللّه (ص) مِصداقَ نبوءةِ

سفر التّثنية ١٨/١٨ بل وراحوا يسعونَ لِيردّوا المؤمنينَ عن إيمانهم.وكيفَ أنَّ اللَّهَ تعالى نسخَ كتابَ موسى بهذا القرآن المجيد.فلمّا فرغَ اللَّهُ تعالى من ذلكَ كلِّـــهِ عندَ الآية ١١٠ .نقلَ عن لسانهم وعن لسانِ النّصارى قولهـــم في الآيـــة ١١١ (**وقالوا لن يدخُلَ الجنَّةَ إلاّ مَن كانَ هوداً أو نصارى تلكَ أمانيُّهم قل هـــاتوا بُرهانكم إن كنتم صادقين**).

فلنلاحظ الأسلوبَ العلميَّ في الحوار الوارد في هذه الآيةِ الكريمة.فـــهو تعالى نقلَ أوّلاً ادّعاءهم سالف الذّكر ومن ثمَّ عقّبَ عليهِ بقولهِ تعـــالى(**تلـــكَ أمانيُّهم**)والمعنى إنَّ الادّعاءَ ينبغي أن يكونَ مقروناً بدليلِ مِصداقيَّته. فأنتم عـــبَّرتم عن أُمنياتكم القلبيَّة ليس إلاّ و لم تدعموا ادّعاءكُمُ المذكور بدليلٍ يثبـــتُ منـــهُ مِصداقيَّته.لذلك أضافَ تعالى يقول (**قل هاتوا بُرهانكم إن كُنتم صادقين**).

وبما أنَّ أهلَ الكتابِ لا يملكونَ أيَّ دليلٍ يُثبتُ ما ادَّعوهُ فقد راحَ جـــلَّ شأنهُ وبأسلوب بلاغيٍّ مُعجزٍ فوضّحَ لهم الأمورَ الّتي تؤهِّلُ الإنسانَ لِدخـــولِ الجنَّة.فاستهلَّ الآيةَ بكلمةِ (**بلى**)وقد وضعَ بعدها إشارةَ وقف.وليصبحَ المعـــنى: أنّنا نتّفقُ معكم يا معشر أهلِ الكتابِ في موضوعِ وجودِ جنَّةٍ يدخلُها المؤمنُ بعدَ موته.لكنَّ دخولَ الجنَّةِ لهُ شروطه.وقد عبَّرَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ عن هـــذه الشـــروطِ بقوله: (**مَن أسلمَ وجههُ للّهِ وهو مُحسنٌ، فلهُ أجرُهُ ولا خوفٌ عليهِم ولا هم يحزنون**).وإنَّ هذه الشروطُ الّتي تضمَّنها قولهُ تعالى في هذه الآية هي:

أوّلاً–أن يكونَ هذا المؤمنُ مُعتقداً بوحدانيَّةِ اللَّهِ عزَّ وجلّ.فلا يُشركُ بِهِ أحداً.

ثانياً–وأن يصبغَ مظهرهُ وسلوكهُ الشخصيّ بمظهرِ المؤمن المُنقادِ لهذا الإلهِ الّـــذي لا شريكَ له.

ثالثاً–وألاّ يكونَ صاحبَ عقلٍ تقليديٍّ يقلِّدُ غيرهُ بدون فهم.بـــل أن يكـــونَ (**مُحسن**) العمل على تعاليمِ ربِّهِ عزَّ وجلّ. ومن بابِ أنَّـــهُ مُـــدركٌ لِجوهـــرِ الأحكامِ وروحها.ولا ينظرُ إليها بظواهرها وقشورها

رابعاً–وألاّ ينتظر هذا المؤمن من ذلكَ كلِّهِ أجراً ماديّاً عارضاً.بل أن يعملَ وهو مُعتقدٌ بوجودِ الحياةِ الآخرةِ الّتي ينتظرُهُ أجرهُ فيها هناك عندَ ربِّه.فهذا هو معنى **(فلهُ أجرهُ عندَ ربِّه)**.

خامساً–وأن يكونَ هذا المؤمن على يقينٍ ممّا يأتي بهِ المستقبل لِصالحه.ومن مُنطلَقِ أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ هو وكيلهُ في هذه الحياة الدّنيا وفي الآخرة.فهذا هو معنى قولهُ تعالى **(لا خوفٌ عليهم)**.ومن بابِ أنَّ الإنسانُ يخافُ ممّا يُخبِّئهُ لهُ المستقبلُ في الحياة الدّنيا خاصّة.

سادساً–والشرطُ السادسُ هو ألاّ يحزن المؤمنُ على ما فاتهُ قبلَ يومهِ من أشياء. واعتقاداً من جانبهِ بأنَّ الخيرةَ فيما اختارهُ اللّهُ تعالى له.وأن يقولُ **(وعسى أن تُحبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم)**.

فهذه هي الشروطُ الستّة الّتي يجبُ توفُّرها لدى الإنسان الّذي يضمنُ دخولَ الجنَّةِ بعد موتهِ والّتي تضمّنها قول اللّهِ عزَّ وجلَّ في الآيةِ الّتي أوردناها. فبهذا الأسلوب العلميِّ من الحوار الّذي اطّلعنا عليهِ آنفاً تناولَ اللّهُ تعالى ادّعاءَ أهلِ الكتابِ بأنَّ لهم الجنَّةَ من دونِ النّاس كلّهم.فهو تعالى لم يعمد إلى الطّعنِ ومهاجمةِ ادّعائهم ونفيهُ تجبُّراً من جانبهِ تعالى.بل تناولهُ بهدوءِ أعصابٍ وقد حاكمهُ بالحجَّةِ والبرهان وعلى حسبِ ما يقتضي المقام.

وعلى هذه الصورةِ أكونُ ومن خلالِ هذا المثال الآنف الذّكر قد قدَّمتُ للقارئِ أوّلَ مِثالٍ من نفسِ السورِ الثلاث الّتي أنهاها اللّهُ تعالى بالتّنبيهِ إلى هذا الأصلِ الثالثِ من أصولِ تفسيرِ آيات كتابهِ العزيز.والّذي تضمَّنهُ قولهُ تعالى في الآية ١١١ من سورةِ البقرة **(يا أيُّها النّاسُ قد جاءكم بُرهانٌ من ربِّكم وأنزلنا إليكم نوراً مُبيناً)**.

مثالٌ من سورةِ آلِ عمران:وأقدِّمُ للقارئ مثالاً آخر في هذه المرَّة من آياتِ سورةِ آلِ عمران فليلاحظ القارئ كيفَ أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ قد استهلَّ

سورةَ آل عمران بقولهِ تعالى (**الم.اللّهُ لا إلهَ إلاّ هو الحيُّ القيّوم**). فالأحرف المقطّعة (**الم**) تعني أنا اللّهُ العليم.وهو عُنوانٌ عُنونَ بهِ بابُ هذه السورة أمّا قولهُ تعالى (**اللّهُ هو الحيُّ القيّوم**) فقد تضمَّنَ ادّعاءً مُرتكزاً إلى مُنطلقينِ رئيسيّين هما كونُ اللّهِ هو (**الحيّ**) وكونهُ تعالى هو (**القيّوم**).

فكلمةُ (الحيّ)ومُعرَّفةً بالألف واللّام تعني المملوءَ حياةً ونشاطاً ويتجلّى كلُّ ما يُجريهِ سبحانهُ ويفعلهُ في هذا الكونِ في كلِّ لحظةٍ وآنٍ لأعيُنِ النّاظرين.وأمّا كلمةُ(القيّوم)ومعرَّفةً أيضاً بالألف واللّام فتعني كونُهُ تعالى هو قَوامُ كلِّ شيء.فلا يقومُ شيءٌ في هذا العالم بدونه.وعلى هذه الصّورة يعودُ قولهُ تعالى (**اللّهُ لا إلهَ إلاّ هو الحيُّ القيّوم**)قد تضمَّنَ ادّعاءً بالغ الأهمّيّة. وكانَ ينبغي أن يُقدِّمَ اللّهُ تعالى دليلَ مِصداقيَّةِ ما ادّعاهُ في هذه الآيةِ الكريمة.فبدون تقديمِ بُرهانٍ قاطعٍ من جانبهِ تعالى الّذي أعلنَ هذا الإعلان لا يثبُتُ ما أوردهُ تعالى من ادّعاء. فهل قدَّمَ تعالى بعدَ هذا الإدّعاءِ أيَّ دليلٍ كان ؟؟

وللإجابةِ على هذا السؤال فمن واجبنا تدبُّرُ الآيات ما بعدَ هذا الادّعاء والتزاماً بالأصلِ الثالثِ للتّفسيرِ الّذي ذكرناه من قبل.وينبغي أن يتضمَّنَ ما بعدَ الادّعاء المذكور دليلَ مِصداقيّتِه.والحقُّ هو أنَّ اللّهَ تعالى راحَ يُقدِّمُ الدّليلَ المطلوبَ وقال: (**نزَّلَ عليكَ الكتابَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بينَ يديهِ وأنزلَ التّوراةَ والإنجيل.من قبلُ هُدىً للنّاسِ وأنزلَ الفُرقان إنَّ الّذينَ كفروا بآياتِ اللّهِ لهم عذابٌ شديدٌ واللّهُ عزيزٌ ذو انتقام**).

فإن نحنُ تدبَّرنا هاتين الآيتين الكريمتين يتبيَّنُ لنا من مضمونهما أنَّ اللّهَ تعالى قد قدَّمَ في هذه الآيات دليلاً تاريخيّاً يُثبتُ من خلالهِ كونهُ الإلهُ (**الحيُّ**) الّذي لا يموت.فما هي معالمُ هذا الدّليل التّاريخي المُشارُ إليه؟؟

إنَّ في الآيةِ الأولى تقديمٌ وتأخيرٌ استلزمهُ المعنى.فلم يقل تعالى إنَّ اللّهَ كان أنزلَ التوراةَ والإنجيلَ ومن ثمَّ أنزلَ عليكَ هذا الكتابَ بالحقِّ لِيُصدِّقَ ما كانت

قد اشتملت عليهِ التوراةُ والإنجيلُ من نبوءات مُتعلّقةٍ بهذا الكتاب وبإنزاله.بل إنَّهُ تعالى قدَّمَ ذكرَ هذا الكتاب العزيز لكونهِ مِحورَ الكلام.ولذلكَ نُلاحظُ أنَّهُ تعالى قالَ في مُستهلِّ الآيةِ الثّانية (من قبلُ)وليتداركَ هذا التّقديمَ والتّأخير.هذا وإنَّ علمَ البلاغة لا ينفي إمكانيَّةَ إجراءِ مثلِ هذا التّقديم والتّأخير وللضرورة الّتي أشــــرنا إليها. —راجع دلائل الإعجاز للجرجاني

ومن ثمَّ جمعَ اللَّهُ تعالى بين هذينِ المقصدينِ الهامّينِ المرجوّينِ من إنــزال هذه الكتبُ الثلاثة وأضافَ قائلاً :(**هُدىً للنّاسِ وأنزلَ الفرقان**).وبمعنى أنَّ تلكَ النّبوءات الّتي كانت قد تضمَّنتها التّوراةُ والإنجيلُ كانَ القصدُ منها أن تُصبـــحَ (**هُدىً للنّاس**) تهديهم إلى هذا الكتابِ العزيزِ وإلى هذا الرّسولِ المترل عليهِ هــذا الكتاب.

فإن نحنُ جَمعنا بينَ هذه الفعّاليّاتِ الثلاث المؤلّفة من التّوراةِ والإنجيـــلِ والفرقان والّتي استغرقَ القيام بها أكثرَ من ثلاثةِ آلافِ عام.فإنَّ هذه الفعّاليّـــات تشهدُ تاريخيّاً على وُجودِ الإلهِ (**الحيّ**) المذكور. فهذهِ هي معالمُ الدّليلِ التّــاريخي الّذي قدَّمهُ اللَّهُ تعالى لإثباتِ مِصداقيَّةِ كونهِ الإله (**الحيّ**).

وهذا هو السببُ في أنَّ اللَّهَ تعالى أنهى هذه الآية الثّانية بقولهِ (**إنَّ الّذينَ كفروا بآياتِ اللَّهِ لهم عذابٌ شديدٌ واللَّهُ عزيزٌ ذو انتقام**).وبمعنى أنَّ الّذيـنَ لم يُعطوا تلكَ النّبوءاتِ الّتي اشتملت عليها التّوراةُ والإنجيلُ الأهمّيةَ اللّازمةَ وكفروا أي عَتَّموا على مصداقيَّةِ تلك النّبوءات الّتي تشكّلُ آيات من آياتِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وتشهدُ على كونهِ الإله (**الحيّ**) قد أعدَّ اللَّهُ تعالى (**لهم عذابٌ شديدٌ**) ومن باب أنَّ من جُملةِ صفاتِ اللَّهِ الحيِّ كونهُ(**ذو انتقام**)فلا يفلتُ أمثالُ هؤلاءِ المُعتِّمــينَ على نُبوءاتهِ من عِقاب .

وبعدَ أن فرغَ اللَّهُ تعالى من إثباتِ مِصداقيَّةِ كونهِ الإله (**الحيّ**)ومن خلال هذا الدليلِ التّاريخي الّذي وضّحنا معالمه.فقد قدَّمَ تعالى بعدَ ذلكَ دليلاً علميّــاً

يشهدُ على كونهِ الإله (**القيّوم**).وقد عبَّرَ عنهُ بقولهِ تعالى (**إنَّ اللَّهَ لا يخفى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء.هو الّذي يُصوِّرُكم في الأرحامِ كيفَ يشاءُ لا إلهَ إلاّ هو العزيزُ الحكيم**).

وهذا الدّليلُ العلميُّ يتألّفُ من مقدّمةٍ ومن نتيجة.فالمقدّمةُ عبَّرَ تعالى عنها في الآيةِ الأولى الّتي قال فيها (**إنَّ اللَّهَ لا يخفى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء**)والمعنى أنَّهُ ما دامَ اللَّهُ تعالى هو خالقُ كلِّ شيءٍ و(**الحيّ**)الّذي أثبتَ نشاطهُ وحيويَّتهُ من خلالِ الدّليلِ التّاريخي الآنفِ الذّكر.والّذي تنبّأ من خلالِ التّوراةِ والإنجيلِ عن ولادةِ محمَّدٍ (ص)وأنَّهُ سيكونُ نبيّاً رسولاً يُنزلُ اللَّهُ تعالى عليهِ هذا الكتاب العزيز.فهذه الحقيقةَ دلَّت على أنَّ اللَّهَ تعالى (**لا يخفى عليهِ شيءٌ في الأرضِ والسماء**).واستناداً إلى هذه المقدِّمة فقد توجَّبَ أن تخرجوا من ذلكَ كلِّهِ بنتيجةٍ وهي أنَّ اللَّهَ جلَّ شأنهُ (**هو الّذي يُصوِّرُكم في الأرحامِ كيفَ يشاء**).وبمعنى أنَّهُ لا يقومُ شيءٌ في هذا العالم بدونهِ.فهو (**الحيُّ القيّوم**).

وعلى هذه الصّورة نستدلُ من خلالِ الادّعاء المذكور الوارد في قولهِ تعالى (**اللَّهُ لا إلهَ إلاّ هو الحيُّ القيّوم**) ومن خلالِ الدّليلينِ اللّذينِ أثبتا مِصداقيَّته.أقولُ إننا نستدلُّ من ذلكَ كلِّهِ على أنَّهُ تعالى ما فعلَ ذلكَ إلاّ لِحكمةٍ كبيرةٍ عبَّرَ عنها بعدَ ذلكَ بقوله تعالى (**هو الّذي أنزلَ عليكَ الكتابَ منهُ آياتٌ مُحكَماتٌ هُنَّ أمُّ الكتاب وأُخرُ متشابهاتٌ فأمّا الّذينَ في قُلوبِهم مرضٌ فيتَّبعونَ ما تشابهَ منهُ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِهِ وما يعلمُ تأويلهُ إلاّ اللَّهُ والرّاسخونَ في العلمِ يقولونَ آمنّا بهِ كُلٌّ من عندِ ربِّنا وما يذّكرُ إلاّ أولوا الألباب**).

ولا تتجلّى تلكَ الحكمةَ إلاّ إذا ربَطنا ما بينَ هذه الآيةِ الأخيرةِ وما بينَ المقدِّمة بربطٍ موضوعيٍّ يتحدَّدُ في أنَّ اللَّهَ تعالى يُنبِّهُ أذهاننا إلى أنَّهُ لا ينبغي أن نظنَّ بأنَّ مضامينَ هذا الكتاب الجديد المُنزل على محمَّد (ص) والّذي كانَ

مِصداقَ تلكَ النّبوءات السماويَّة الماضية.لا ينبغي الظَّنَّ بأنَّ جميعَ تعاليمهِ جديدةٌ.بل إنَّ هذا الكتاب أتى بتعاليمَ جديدةٍ تضمَّنتها (**آياتٌ مُحكماتٌ هُنَّ أمُّ الكتاب**).كما أتى بتعاليمِ تُشبهُ تعاليمَ التّوراة والإنجيلِ المنسوخة أو المنسيَّة والّتي ما تزالُ صالحةً للنّاس.فإنَّ تلكَ التّعاليمَ المُتشابهة مع تعاليمِ تلكَ الكتُب المنسوخة تضمَّنتها الآياتُ الّتي عبَّرَ تعالى عنها بقولِ اللّهِ تعالى (**وأُخرُ مُتشابهات**).

وبما أنَّ اللّهَ تعالى سبقَ لهُ أن قالَ بحقِّ الّذينَ يُعتِّمونَ على نبوءات الكتب السابقة بقولهِ (**إنَّ الّذينَ كفروا بآيات اللّهِ لهم عذابٌ شديدٌ واللّهُ ذو انتقام**).فقد راحَ تعالى يُوضِّحُ للقارئِ هنا كيفَ أنَّ الّذينَ في قُلوبهم زيغٌ من أولئكَ المُعتِّمين (**يتّبعونَ ما تشابهَ منهُ ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله**).

والمهمُّ في الأمرِ أنّهُ يوجدُ بينَ جميعِ الآياتِ الأوائلِ من سورةِ آل عمرانَ الّتي أوردناها تسلسلٌ موضوعيٌّ مُدهشٌ للعقول.ولكن لا يُدركُ حقيقتهُ إلاّ الّذي كانَ يتدبَّرُ هذه الآياتِ بمنهجيَّةِ القرآنِ وبأُصولِ تفسيره.كذلكَ نكونُ من خلال هذا المثالِ الثاني الّذي اقتبسناهُ من سورةِ آل عمران قد أثبتنا بأنَّ اللّهَ تعالى لا يدَّعي ادّعاءً في هذا القرآن الكريم إلاّ ويُتبعهُ بدليلِ مِصداقيَّته.وهو أمرٌ يؤكّدُ مِصداقيَّةَ الأصلِ الثالثِ للتّفسيرِ الّذي ذكرناه والّذي نحنُ بصددِ إثباته.-كلُّ من يشاءُ الاستزادةَ من الشرحِ فليُراجع الجزء الأوَّل من الرّدّ على القراءة المُعاصرة.

المثالُ الثالثُ من سورةِ النّساء الآية ١٧١/١٧٢/١٧٣/١٧٤:وأقدّمُ للقارئِ مثالاً ثالثاً من سورةِ النّساءِ للبرهنةِ على مِصداقيَّةِ هذا الأصلِ الثالث للتّفسير. فلقد قالَ اللّهُ تعالى في الآية ١٧١ منها وهو يُخاطبُ أهلَ الكتاب(**يا أهلَ الكتابِ لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على اللّهِ إلاّ الحقّ إنّما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ اللّهِ وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منهُ فآمنوا باللّهِ**

ورُسله-وقف-ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم إنّما اللّهُ إلهٌ واحدٌ سُبحانه أن يكونَ لهُ ولدٌ لهُ ما في السماواتِ والأرض وكفى باللّهِ وكيلاً).

فاللّهُ تعالى طالبَ أهلَ الكتابِ في هذه الآيةِ الكريمةِ بمُطالبتين تضمّنهما قولهُ تعالى(..**لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على اللّهِ إلاّ الحقّ..**).ففعل الأمر (**لا تغلوا**) اشتُقَّ من الغُلُوّ الّذي معناه عدم إمكان قبول ما يدّعيهِ أهلُ الكتاب في دينهم لا عقلاً ولا عادةً.أي أنّهم يُبالغونَ في وَصفِ المسيحِ ابن مريم وبما يزيدُ على ما كانَ يتّصِفُ بهِ المسيحُ ابنُ مريمَ في حياتهِ في الواقع من صفات.وأمّا كلمةُ (**الحقّ**)فمصدر ويعني الموجودَ الثابت والصّدق والعدل (محيط المحيط).**فالمطالبة الأولى** إذن تحدَّدت في طلبِ عدمِ وصف المسيح ابن مريم بما يزيدُ على واقعِ ما كانَ يتّصفُ بهِ من صفات.**والمُطالبة الثانية** تحدَّدت في ضرورةِ الالتزامِ بقولِ الصّدقِ وبما يتّفقُ مع الواقع والعدل.ولننظُر الآن في الأسلوبِ العلميِّ الّذي اختارهُ القرآنُ الكريمُ في هذا الحوارِ وفي موضوعِ تقديمِ الأدلّةِ على بُطلانِ ما يدّعيهِ أهلُ الكتاب بحقِّ المسيحِ ابن مريم عليهِ السلام.

فلنُلاحظ كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى أعلنَ أوّلاً نظرتهُ الواقعيَّة في الموضوع.وعبَّرَ عنها بقولهِ تعالى (**إنّما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ اللّهِ وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه**). فالمسيحُ أوّلاً هو (**رسولُ**) اللّهِ تعالى المُتّصفُ بالأسماءِ الحُسنى.والمسيحُ ثانياً هو (**كلمةُ**) اللّهِ أيضاً.والمسيحُ ثالثاً (**روحٌ منه**). فهذه ثلاثةُ نُقاطٍ مُحدَّدةٍ وصفَت بها الآيةُ المسيحَ من زاويةِ النَّظرِ الإسلاميَّة.

فمنْ هو الرّسول؟ هو الإنسانُ الّذي يكلّفهُ اللّهُ تعالى برسالةٍ سماويّةٍ ليقومَ بتبليغها إلى النّاسِ المُرسلِ إليهم وإنَّ (**كلمةَ اللّهِ**) تعالى تعني تقديرَهُ وبشارتَهُ الّتي ألقاها إلى مريمَ بشأنِ تبشيرها بحملِ المسيحِ نفسه قبلَ أن يمسَّها خطيبُها يوسف النّجار ووفق مُعطيات الإنجيل المُعاصرِ نفسه.هذا وقد أتى توقيتُ نفاذِ (**كلمة اللّه**)من خلالِ حدوثِ ذلكَ التّقديرُ الّذي حملتهُ البشلوة إلى

مريمَ أمّه بشأنِ ولادة المسيح الموعود المقدَّر لهُ أن يقومَ بإحياءِ تعـاليم شـريعةِ موسى في آخرِ مراحلها ولتُشكِّلَ ولادتهُ إرهاصاً على قُربِ استبدال اللّه تعـالى أمَّةَ موسى بأمَّةٍ أخرى هي أمَّةُ محمَّدٍ(ص)المُنبأ عن ظـهورهِ في سـفرِ التَّثنيـة ١٨/١٨ .هذا وإنَّ قولهُ تعالى(**وكلمتهُ ألقاها إلى مريم**) قد وردَ في معرضِ الدّفاعِ عن ولادة المسيحِ بدونِ أب ورداً على اتّهام اليهود مريمَ الصّديقة بأنّـها غـيرُ طاهرة.وأمّا قولهُ تعالى (**وروحٌ منه**) فكلمةُ (**روح**) وردت هنا بمعـنى النَّفـس (محيط المحيط). وليسَ القصدُ من كلمة (**وروحٌ منهُ**)امتيازاً خاصّاً امتازَ بهِ هـذا المسيح.فجميعُ الأرواحِ والأنفُس مصدرُها اللّهُ تعالى نفسُه.لقولِهِ تعالى في الآيـة ١٣ من سورةِ الجاثية (**وسخَّرَ لكم ما في السماوات وما في الأرضِ جميعاً منـهُ إنَّ في ذلكَ لآيات لِقومٍ يتفكَّرون**) أي أنَّ أرواحَ القططَ والكلابَ وغيرها مـن الكائنات الحيَّة المُسخَّرةَ لكم (**جميعاً منهُ**) وبما فيهم هذا الإنسان والمسيح ابـنُ مريم نفسُه.وقد كانَ القصدُ من قولِهِ تعال بحقِّ المسيحِ (**وروحٌ منه**) هو لتنبيـهِ الأذهان إلى أنَّ المسيحَ ابن مريمَ هو نفسٌ بشريَّةٌ ليسَ إلاّ وليسَ هو بكائنٍ مـن جنسٍ آخرَ .

فهذه هي خلاصةُ النَّظرةِ الواقعيَّة الإسلاميَّة الّتي تضمَّنها قولـهُ تعـالى (**رسولُ اللّهِ وكلمتُه ألقاها إلى مـريمَ وروحٌ منـه**)الـواردُ في هـذه الآيـةِ الكريمة.فهاتانِ خُطوتانِ قامَ اللّهُ تعالى بهما بصورةٍ تدريجيّةٍ.ولنُلاحظ الآن الخطوةَ الثالثة الّتي قامَ اللّهُ تعالى بها لينقُضَ من خلالها ما ادّعاهُ أهلُ الكتاب في دينـهم وعلى حسبِ ما ذكرناه.

فالملاحظُ هو أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ قد أمرَ أهلَ الكتاب من حيثُ المبدأ وقال (**فآمنوا باللّهِ ورُسُله**).والملاحظُ هو أنّهُ تعالى قد أوردَ بعدَ أمرِه المذكور آنفـاً إشارةَ (**وقف**).ولتعني هذه الإشارةَ الطّلب من القارئ أو من متدبّر هذه الآيات الكريمةِ أن يتوقّفَ لِبضعِ ثوانٍ ولِيتفكّرَ فيما وردَ قبـلَ هـذه الإشـارة مـن

معنى.وليدُلَّ أمرُ اللَّهِ تعالى (**فآمنوا باللَّهِ ورُسلهِ**) على أنَّ المسيحَ هو رسولٌ من جملةِ رُسُلِ اللَّهِ تعالى أمثال آدم ونوح وإبراهيم وموسى وليسَ بدعاً منهم.وليقولَ اللَّهُ تعالى بالتّالي لهؤلاء إنَّ من واجبكم إن كُنتم تُريدونَ وجهَ اللَّهِ فيما تدينونَ بهِ من عقائدٍ أن تنظروا معنا نفس نَظرتنا سالفة الذّكر وعليهِ فهذه هي دلالةُ قولهِ تعالى (**فآمنوا باللَّهِ ورُسُلِه**).

ولنلاحظ أيضاً كيفَ عاد اللَّهُ تعالى وأمرَ هؤلاء وقال (**ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم**) . وبذلكَ يكونُ قد دعاهم جلَّ شأنهُ من خلالِ قولهِ هذا إلى نَبذِ الاعتقادِ بعقيدةِ (**التّثليث**) الّتي يعتقدونها إن هم كانوا يفكّرونَ في عواقب الأمور.ومن ثمَّ أتى تعالى بحرف التّأكيد (إنَّ) وقال (**إنّما اللَّهُ إلهٌ واحدٌ**).فأكّدَ تعالى لأهلِ الكتابِ (**عقيدةَ التّوحيدِ**) الّتي اعتقدها جميعُ رُسُلِ اللَّهِ تعالى منذُ آدمَ وحتّى بعثةِ المسيحِ ابن مريم نفسه.وكأنّهُ جلَّ شأنهُ قد غمزَ بهذا الأسلوب جانبَ ما ابتدعوهُ من عقيدةٍ خالفت عقيدةَ وحدانيّةِ اللَّهِ تعالى المُتعارف عليها بينَ رسُلِ اللَّهِ جميعاً وابتدعوا عقيدة التّثليثِ.

وبعدَ أن تدرَّجَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ من خلالِ إجاباتهِ هذه وبصورةٍ تدريجيّةٍ.أتى بعدَ ذلكَ بدليلِهِ القاطعِ على مِصداقيّةِ عقيدةِ وحدانيّةِ اللَّهِ تعالى وعلى بُطلانِ عقيدةِ التّثليثِ وقال (**سبحانه أن يكونَ لهُ ولدٌ**).أي مُنزّهٌ اللَّهُ تعالى أن يحتاجَ إلى قانونِ التّوالُد والتّوارُث المحتاجُ إليهِ البشرُ المخلوق.فالبشرُ يحتاجُ إلى هذا القانون بسبَبِ أنَّ كلَّ فرد من أفراده يموتُ ويفنى ويحتاجُ إلى أن يكونَ لهُ ابنٌ يرثهُ ويخلّدُ وُجوده واسمه.أمّا هذا الإلهُ الخالقُ فليسَ هو بحاجةٍ إلى ذلكَ كلّه.وقد أكّدَ تعالى هذا النّفيَ من خلالِ ما أضافهُ جلَّ شأنهُ وقال(**لهُ ما في السماواتِ وما في الأرض**).وبمعنى أنّهُ أنّى للَّهِ تعالى الّذي يملكُ جميعَ ما في هذه السماواتِ والأرضِ والّذي يُسيِّرُها أن يحتاجَ إلى القانونِ الذي يحتاجُ إليهِ الإنسانُ المَخلوقُ الضّعيفُ الّذي يعيشُ سنواتٍ معدوداتٍ ومن ثمَّ يموت؟؟

ولم يكتفِ اللَّهُ تعالى بتقديمِ هذا الدّليلَ القاطعَ آنفِ الذّكر.بل وأضافَ حقيقةً أخرى على ذلكَ وقال (**وكفى باللَّهِ وكيلاً**).فما معنى هذه الألفاظ؟ إنَّ كلمةَ (**وكفى**) أتت من قولكَ: كفى الشيءُ يكفي كِفايةً ومعناهُ حصلَ بهِ الاستغناء عن غيره.وتقولُ وكَلَ باللَّه فمعناهُ استسلمَ إليه (محيط المحيط).

وليصبح معنى قولهُ تعالى (**وكفى باللَّهِ وكيلاً**) أنَّ من أسماء اللَّهِ تعالى (الغفورُ الرّحيمُ) فالّذي يستسلمُ للَّهِ تعالى لا يعودُ بحاجةٍ إلى مُخلِّصٍ يُخلِّصهُ من آثارِ ما ورثهُ أو ارتكبهُ من ذنوب.فهذهِ حقيقةٌ ثانيةٌ أضافها اللَّهُ تعالى إلى الدّليلِ القاطعِ الّذي أوردهُ آنفاً.

وعليهِ فهذا مثالٌ ثالثٌ قدّمتهُ للقارئِ مُقتبساً من سورةِ النّساء للبرهنةِ على مصداقيَّةِ الأصلِ الثالثِ لِتفسيرِ آياتِ هذا القرآن المجيد.هذا المثال الواردة الإشارة إليهِ في آخرِ سورةِ النّساء نفسها.ولا أكتفي بهذه الأمثلة الّتي اقتبستُها من هذه السور الثلاث البقرة وآلِ عمران والنساء بل أقدِّمُ للقارئِ الكريمِ أمثلةً أخرى ومن سورٍ أخرى غير السّورِ آنفة الذّكر.

المثالُ الرّابعُ من سورةِ الأنبياء الآية ٢٤:وأوردُ للقارئِ مثالاً رابعاً من الآية ٢٤ من سورةِ (الأنبياء)وعلى سبيلِ المثالِ أيضاً والّتي قالَ تعالى فيها(**أم اتَّخذوا من دونهِ آلهةً قل هاتوا برهانكم هذا ذكرُ مَن مَعيَ وذكرُ مَن قبلي بل أكثرُهم لا يعلمونَ الحقَّ فهُ مُعرضون.وما أرسلنا من قبلكَ من رسولٍ إلاّ نوحي إليهِ أنَّهُ لا إلهَ إلاّ أنا فاعبدوني**).

فلاحظ معي يا عزيزي القارئ أسلوبَ الطّرحِ وأسلوبَ الحوارِ معَ هؤلاءِ المشركينَ ولاحظ أيضاً الأسلوبَ العلميَّ في الرّدِّ عليهم ونقضهِ تعالى لِعقائدهم بوسيلةِ الحجَّةِ والبرهان مباشرةً.ألا إنَّ اللَّهُ تعالى طرحَ مسألةَ تعدّد الآلهة ومُستهلاً ذلكَ بحرف(أم) الّذي لا يتطلَّبُ إلاّ الإجابةَ على المُستفهمِ بكلمةٍ واحدةٍ سلباً أو إيجاباً فقال(**أم اتَّخذوا من دونهِ آلهةً**)والإجابةُ على هذا الطّرح

هي نعم اتّخذوا من دون اللّهِ آلهة.فلمّا أتت هذه الإجابة لم يعمد اللّهُ تعالى إلى تسفيهِ عقيدة تعدُّد الآلهة.بل طالبَ أصحاها بتقديمِ البُرهانِ على مِصداقيَّتها وقال (**قُل هاتوا بُرهانكَم**).وبمعنى أنَّ العقيدةَ لا تصحُّ إلاّ بعدَ البَرهنةِ على صحَّتها.فهذا ما فعلهُ اللَّهُ تعالى في مواجهةِ الوجهِ السلبيِّ للقضيَّة.ولم يكتفِ بهذا بل عمدَ إلى توضيح الوجه الإيجابي للقضيَّة ولإثبات بُطلاها فقال (**هذا ذِكرُ مَن معي ومَن قبلي**) والمعنى أنَّ أنبياءَ اللّهِ تعالى الكرام هم الّذينَ طرحوا مسألةَ وُجود اللّهِ الخالق جلَّ شأنه.لذلكَ كان من واجبنا أن نحصرَ هذه القضيَّة فيما أجمعَ عليهِ هؤلاءِ الرّسل.وأضافَ يقول (**هذا ذِكرُ مَن معي وذكرُ مَن قبلي**) والمعنى هو أنَّ ممَّن لهم شرفُ مُصاحبتي هم هو رسولٌ إنسانٌ من بينكم فاسألوه هل علَّمتُهُ عقيدةَ تعدُّد الآلهة؟وأما إن كانَ الّذينَ صاحبونِي من قبلُ من رسُلِ اللّهِ فقد تضمَّنَ هذا الكتابُ العزيزُ ذكرهم أيضاً.فالجميعُ أجمعوا على عقيدة وَحدانيَّةِ اللّهِ تعالى وليسَ على عقيدة تعدُّد الآلهة.ومن ثمَّ أتى تعالى بالحرفِ الّذي يفيدُ معنى الإضراب وقال (**بل أكثرُهم لا يعلمون**).فقرَّرَ من خلال قولهِ هذا حقيقةً توضِّحُ وتشرحُ واقعَ أصحاب عقيدة تعدُّد الآلهة وهي أنَّ أكثريَّتهم يجهلونَ ما ذكرناهُ آنفاً من حقيقة ولنلاحظ كيفَ أنهى اللّهُ تعالى هذه الآية الكريمةَ وقال(**الحقَّ فهم مُعرضون**).وقد قرَّرَ من خلالِ هذه الفقرة الأخيرةَ النتيجة المُترتِّبة على الحوارِ الآنفِ الذّكر.فأتى بكلمةِ (**الحقَّ**) منصوبة والمعنى إنّي أقولُ الحقَّ.ومن ثمَّ أتى تعالى بفاءِ الاستئناف بقصدِ أن يشرحَ ويُوضِّحَ هذه الحقيقةَ الّتي أسفرَ عنها حواره معَ هؤلاءِ المشركينَ وقال(**فهُم مُعرضون**)أي أنَّ واقعَ هؤلاءِ من أصحابِ عقيدة تعدُّدِ الآلهة هو أنَّهم لم يحقِّقوا فيما توارثوهُ عن آبائهم **من عقائدَ مَوروثة** لذلكَ لا يقدرونَ على الحوارِ معنا وهم مُعرضونَ عن قبولِ ما ندعوهم إليهِ لهذا السببِ بالذّات.

ولم يكتفِ اللّهُ تعالى بهذا الحوارِ ولا بالنّتيجةِ الّتي خلُصَ إليها أخيراً. بل راحَ اللّهُ جلّ شأنهُ يُوضّحُ موضوعَ هذه العقيدةَ فأتى بواو العطفِ الّتي تفيدُ معنى الحالِ لِدخولها على الفعلِ وأضافَ قائلاً (**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**). والمعنى هو أنّهُ ما دامَ رُسُلُ اللّهِ تعالى هم الّذينَ طرحوا عقيدةَ وجودِ اللّهِ عزّ وجلّ. فهيّا استعرضوا تواريخَ وقِصصَ هؤلاءِ الرّسلِ جميعهم فلن تعثروا على رسولٍ واحدٍ منهم قد لقّنَ أتباعهُ عقيدةَ تعدُّدِ الآلهة الّتي تعتقدونها . لذلكَ يتبيَّنُ لكم في نهايةِ المطاف بأنّهم أجمعوا جميعهم على أنّي أنا اللّهُ الّذي لا إلهَ إلاّ أنا مالكُ هذا الكونِ وقد أمرتُهم جميعهُم بأن يعبُدوني وحدي ونهيتُهم عن عبادةِ أيِّ شيءٍ ممّا خلقتُهُ أيضاً.

فهذا المثالُ الّذي اقتبستُهُ لكَ يا عزيزي القارئَ من سورةِ الأنبياء هو مثالٌ من خارجِ تلكَ السورِ الثلاث الّتي أنهاها اللّهُ جلّ شأنهُ بالتّنبيهِ إلى الأصلِ الثالثِ لِتفسيرِ آياتِ كتبهِ العزيز. وعليهِ أ فما لاحظتَ يا عزيزي ومن خلال هذا المثال كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى لا يطرحُ ادّعاءً إلاّ ويُتبعهُ بالدّليلِ الّذي يُثبتُ من خلالهِ مِصداقيّته ؟

٥ -المثالُ الخامسُ من سورةِ الفرقان(٥٩): وأقدِّمُ لكَ مثالاً خامساً من نوعٍ آخرَ للتّدليلِ بهِ على مِصداقيَّةِ هذا الأصلِ الثالث من أصولِ التّفسير فأقول: تعالَ معي يا قارئي العزيز إلى مثالٍ من نوعٍ آخرَ أستقيهِ لكَ من الآية ٥٩ من سورةِ الفرقان. فإن أنتَ تلوتَها والآية الّتي سبقتها تُلاحظُ أنَّ اللّهَ تعالى أمرَ رسولهُ الكريم بالتّوكُّلِ على ربِّهِ عزّ وجلّ وقال (**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا. الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ**-إشارة وقف-**فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**).

فأنتَ تلاحظُ من خلالِ مُعطيات هاتين الآيتين الكريمتين ادّعاءً عظيماً.وتجلَّت أبعادُ هذا الادّعاءِ من حيثُ أنَّ اللَّهَ تعالى ادّعى من جهةٍ أنَّهُ الإلهُ (الحيُّ الّذي لا يموت). ومن جهةٍ أُخرى أنَّهُ سبحانهُ ادّعى فقال(**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**) وهذا الادّعاءُ الّذي تضمَّنتهُ هذه الفقرةُ من هذه الآيةِ الكريمةِ يتجاوزُ حدودَ علمِ الإنسانِ العاديّ ويتجاوزُ حُدودَ تفكيرهِ العقليّ.فكيفَ تتصوَّرُ إمكانيَّةَ إثباتِ مِثلِ هذا النّوعِ من الادّعاء؟ فإن أنتَ قلّبتَ نظركَ يميناً وشمالاً فستقفُ في مُواجهةِ هذا السّؤال حيرانَ لا تستقرُّ على شيء.لكن إيّاكَ أن تتحيَّر فسأنبِّهُكَ إلى الأسلوبِ العلميِّ الّذي عمدَ إليهِ اللّهُ جلَّ شأنهُ لإثباتِ ما ادّعاهُ ومن خلالِ هاتينِ الآيتينِ الكريمتين.

فلاحظ يا عزيزي كيفَ أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ، وبعدَ أن فرغَ من ادّعائهِ المذكور أتى بإشارةِ (**وقف**)علماً بأنَّ إشارات الوقف القرآنيَّة القصدُ منها لفتَ نظرِ القارئ لِيتوقّفَ هُنيهةً يتفكَّر فيما سبقَ من قول.ولاحظ كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى قالَ بعد إشارةِ الوقفِ المشار إليها وقد استهلَّ ما يريدُ تعالى قولهُ بفاءِ الاستئناف أيضاً، قال (**فاسأل بهِ خبيراً**).

أ فلاحظتَ يا عزيزي كيفَ أنَّ اللَّهَ تعالى ومن خلالِ إشارةِ الوقفِ هذه قد أشارَ عليكَ بالتّوقّف والتمهّل قليلاً لتَتفكَّر فيما ادّعاهُ اللّهُ جلَّ شأنهُ أمامكَ.هذا الادّعاء الّذي سأشرحُ لكَ مضمونهُ فيما بعدُ على حقيقتِه.لكنَّ المهمّ هو أن تعرفَ القصدَ من قولِهِ تعالى هنا (**فاسأل بِهِ خبيراً**).

أ فما لاحظتَ يا عزيزي كيفَ أنَّ اللَّهَ تعالى وبعدَ أن طلبَ منكَ التّمهُّلَ والتّفكير.كيفَ أنَّهُ بدلاً من أن يُقدِّم لكَ دليلَ مِصداقيَّةِ ما ادّعاهُ شأنه.قد أتى بفاءِ الاستئناف لِيستأنفَ قولاً مُغايراً وقال (**فاسأل بِهِ خبيراً**).فما معنى هذه الفقرةِ الأخيرةَ الّتي أنهى اللّهُ تعالى بها هذه الآيةِ الثانية؟

فالملاحظُ هو أنّهُ جلَّ شأنهُ أتى بفعل الأمر(**فاسأل**) وبمعنى استخبر أيُّــها القارئ في هذا المقامِ والسبَبُ في أنّي ملتُ للأخذِ بمعنى الاستخبار هو أنَّ فعـــل (فاسأل) تعدّى بنفسهِ إلى المفعولَ الأوّل وتعدّى بالباء إلى المفعول الثاني (محيــط المحيط). كذلكَ أتى تعالى بكلمةِ (**خبيراً**).ومعنى كلمة الخبيرُ في اللّغةِ العربيَّة:هــو الإنسانُ ذو الخبرةِ التّامّةِ والعارف بكُنهِ الشيءِ وحقيقتهِ.ثمَّ إنَّ كلمةَ (الخــــبرة) تعني العلمَ بالشيءِ ومعرفتهُ عن تجرُبة (محيط المحيط).

واستناداً إلى المعاني آنفةِ الذّكر تُدركُ يا عزيزي القارئ بأنَّ ربَّكَ عــــزَّ وجلَّ قد راعى كونَ ما سبقَ لهُ أن ادّعاهُ هو فوقَ علمِ الإنسانِ العاديّ ويتجاوزُ أيضاً حدودَ تصوّرهِ وتفكيرهِ.لذلكَ تُلاحظُ بأنّهُ جلَّ شأنهُ قـــد حوَّلــكَ إلى (**خبيراً**) أي حوَّلكَ إلى عالمٍ خبيرٍ بموضوعِ خلــقِ الســماواتِ والأرضِ ومــا بينهما.أي أنّهُ تعالى قد حوَّلكَ إلى عالمٍ جيولوجيٍّ مكّنهُ عِلمهُ فهمَ حقيقةِ مــــا تضمَّنتهُ هاتان الآيتانِ من ادّعاء يتعلّقُ بخلقِ السماوات والأرضِ وما بينهما أيضــاً وللتّحقّقِ من مِصداقيَّةِ ما ادّعاهُ اللّهُ عزَّ وجل فيما سبقَ من كلام.

وهل يخطو مِثلَ هذه الخُطوة الّتي خطاها اللّهُ جلَّ شأنهُ في هذا المقــام.إلاّ من كانَ يتكلّمُ بأسلوب علميٍّ ويكونُ في الوقتِ نفسهِ على ثقـــةٍ تامَّـــةٍ ممّــا يدّعيه.وما دامَ اللّهُ عزَّ وجلَّ قد أقدمَ على هذه الخطوةِ في هذه الآيةِ الكريمةِ فقــد أثبتَ جلَّ شأنهُ أنّهُ لا يأتي بادّعاء إلاّ ويأتِي بعدهُ بدليلٍ يُثبتُ مِصداقيَّته.وبمـــا أنَّ الإيتاءَ بدليلٍ في هذا المقام هو فوقَ علمِ الإنسان الّذي عاصرَ نزولَ هذا الكتــاب العزيز.لذلكَ فقد حوَّل تعالى هذا القارئَ إلى علماء العصـــــرِ المختصّــين وإلى الوقتِ الّذي يظهرُ فيهِ علم الجيولوجيا الّذي يُمكّنُ القارئَ من أن يعرفَ عـــن طريقِ العلمِ المشار إليه صحّةَ هذا الادّعاء المذكور.

فإن أنتَ راجعتَ مؤلّفي (**النّظريَّة القرآنيَّة الكونيَّة حولَ خلقِ العــالم**) فستُدركُ لا محالةَ بأنّهُ قد ثبتَ لِعلماءِ الجيولوجيا مرورُ خلقِ السماواتِ والأرض

من ستَّةِ أدوارٍ جيولوجيَّةٍ.وأنَّ اللَّهَ تعالى قد استعملَ كلمةَ **(يوم)** في هذه الآيـــةِ بمعنى (الحين) و(الوقتُ مُطلقاً) وليدُلَّ اليومُ على الدّور الجيولوجيّ وهو مُصطلحُ علماءِ الجيولوجيا المعاصرين ووفقَ مُعطياتِ اللُّغةِ العربيَّةِ (محيط المحيط)و(أقـــرب الموارد).

وعليهِ يصبحُ معنى قولِ اللّه تعالى **(خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـــتَّةِ أَيَّامٍ)** أنَّهُ خلقهم في ستَّةِ أدوارٍ جيولوجيَّة وليسَ في ستَّةِ أيّامٍ عاديَّة.وهذه الحقيقة جهلها المفسّرونَ القدماء رحمهم اللَّه.بسبَبِ أنَّ علم الجيولوجيا لم يكن لهُ مـــن وُجودٍ في عصرهم من جهةٍ ولِتأثّرهم بأفكار اليهود المستقاةُ من سفر التّكويـــن من جهةٍ أخرى.

أمّا في عصرنا هذا فقد ظهرت نظريَّةُ **(الانفجار العظيم)** الّــتي ثبــتَ للعلماءِ من خلالِ مُعطياهما بأنَّ هذا الكونَ مخلوقٌ.وأنَّهُ خُلِقَ قبلَ ١٢–٢٠ مليار عام.فإنَ قسّمنا متوسّط هذا الرّقم على عدد ستّة وهو عددُ الأدوار الجيولوجيَّـــة نصل إلى أنَّ كلَّ دورٍ مرَّ بثلاثة مليارات عام.وهذا الرّقم يتّفق ومُعطيــــات مــــا كشفَ عنهُ علم الجيولوجيا المعاصر القائل بأنَّ عالمنا المادّيّ قد مرَّ بســـتَّةِ أدوارٍ جيولوجيَّة ويكونُ هذا القرآن المجيد قد كشفَ عن هذه الحقيقةِ قبلَ أربعةَ عشـــر قرنٍ من زماننا هذا الّذي كشفَ علماء الجيولوجيا فيهِ عن تلكَ الحقيقةِ وصدَّقوا قولَ ربِّنا عزَّ وجلَّ **(فاسأل بهِ خبيراً)**.

وأنقلُ للقارئ بهذه المناسبة ما فسَّرَ بهِ ابنُ كثيرٍ رحمه اللَّه هـــذه الآيـــةِ الكريمةِ وبما يتعلَّقُ بخلقِ اللَّهِ تعالى لهذه السماوات والأرضَ في ستَّةِ أيّام.قال رحمهُ اللَّه عندَ تفسيره للآية ٥٤ من سورة الأعراف (يُخبرُ اللَّهُ تعالى أنَّهُ خالقُ العـــالم وأرضه وما بينَ ذلكَ في ستَّةِ أيّام.كما أخبرَ بذلـــكَ في غـــير مـــا آيـــةٍ مـــن القرآن.والستَّةُ أيّامٍ هي الأحـــد والاثنـــين والثلاثـــاء والأربعـــاء والخميـــس والجمعة.وفيهِ اجتمعَ الخَلقُ كلُّه.وفيهِ خُلقَ آدم عليه السلام.واختلفوا في هـــذه

الأيّام هل كانَ يومٌ منها لهذه الأيّام كما هو المُتبادر إلى الأذهان؟ أو كلُّ يـــومٍ كألفِ سنة.كما نصَّ على ذلكَ مُجاهد والإمام أحمد بن حنبل.ويروي ذلكَ من روايةِ الضّحاك عن ابنِ عبّاس.فأمّا يومُ السبت فلم يقع فيهِ خَلق.لأنّـــهُ اليــوم السابع ومنهُ سُمّي السبت وهو القطع.).فهل يستسيغ القارئ الّذي يعيـــشُ في القرن العشرين مثلَ هذا التّفسير الّذي يتنافى ومُعطيات العلم الحديث كما يتنافى ومُعطَيات هذا الأصل الثالث للتّفسير الّذي نبّهنا اللّهُ جلَّ شأنهُ إليه في الآيةِ الّتي تضمّنته؟؟

فعلى هذه الصورة أكونُ قد قدَّمتُ للقارئ مثالاً خامساً مـــن آيـاتِ سورةِ الفرقان.وأثبتُّ لهُ من خلالهِ مِصداقيَّةَ هذا الأصل الثالث لتفسيرِ آيـــاتِ القرآنِ المجيد.وهي هذه الحقيقةُ الّتي لم ينتبه إليها المفسّرون القدماء الّذينَ مضـوا في أمّتنا الإسلاميَّة من قبل رحمهم اللّه.حيثُ أنّهم لم يُرجعوا ضمير (بهِ) الـوارد في هذه الآيةِ من سورةِ الفرقان إلى جهتهِ الحقيقيَّة.ولا كانوا أدركـــوا أنَّ اللّـــهَ تعالى فعلَ ما فعلهُ ليُفيدَنا أيضاً بأصلٍ من أصولِ تفسيرِ آياتِ كتابهِ العزيزِ وعلى حسبِ ما سآتي على بيانهِ فيما بعد.

المثالُ السادسُ من سورة النّحل الآية ٣٨: ولنتلو الآيات من ســورة النّحل فقد قالَ اللّهُ تعالى في الآية ٣٨ (**وَأَقْسَمُوا باللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَـــثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. لِيُبَيِّنَ لَـــهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ. إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَـيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.**).
فالملاحظُ هو أنَّ اللّهَ تعالى أوردَ ما زعمَهُ المشركون ومن خلالِ قولـــهِ تعـالى (**وأقسموا باللّهِ جهدَ أيمانهم لا يبعثُ اللّهُ مَن يموت**) وقد ردَّ اللّهُ تعالى علـــى زعمهم المذكور بقولهِ (**بلى وعداً عليهِ حقّاً ولكنَّ أكثر النّاسِ لا يعلمون**).أي أنّهُ تعالى استعملَ كلمةَ (**بلى**) وهو حرفُ مُختـــصٌّ بإبطـــالِ النّفـــي لجميـــع

أحواله(محيط المحيط).وليعني من وراءِ ذلكَ أنَّ الحقيقةَ هي عكسُ ما زعمهُ المشركون.وقد أتى اللَّهَ تعالى بقولهِ **(وعداً عليه)** بصيغةِ المصدر ومنوَّناً وبمعنى أنَّ بعثَ الأنفسِ هو تقديرٌ إلهيٌّ عظيمٌ أخذَ اللَّهُ تحقيقهُ على عاتقه لأهمّيته. وأنَّهُ تقديرٌ حقٌّ وأمرٌ مقضيٌّ وثابتٌ (محيط المحيط).

وإنَّ الّذي نُلاحظهُ من خلالِ ما زعمهُ المشركون ومن خلالِ ما ردَّ اللَّهَ تعالى عليهم بهِ أنَّهُ تعالى قد أعلنَ حقيقةً علميَّةً فلسفيَّةً وبمثابةِ ادّعاء من جانبهِ تعالى.ولذلكَ استدركَ وقالَ في نهاية الآيةِ الكريمةِ **(ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمون)**.

فإن نحنُ انطلقنا من هذا الأصلِ الثالثِ من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن الكريم توجَّبَ على متدبِّرِ هذه الآيةِ الكريمة أن يبحثَ في الآيةِ الّتي بعدَ الآية الّتي أوردناها عن دليلِ مِصداقيَّةِ الادّعاءِ المُشار إليه.

والحقيقة هي أنَّ اللَّهَ تعالى أتى بعد ذلكَ بدليلٍ فلسفيٍّ مُصاغٍ صياغةً بلاغيَّةً مُعجزةً لِيُثبتَ لِهؤلاءِ المشركينَ بُطلانَ زعمهم فقال **(لِيبيِّنَ لهم الّذي يختلفونَ فيهِ وليعلَمَ الّذينَ كفروا أنَّهم كانوا كاذبين)**. فكيفَ شكَّلت هذه الآيةُ الكريمةُ هذا الدّليل التّاريخيّ المُشار إليه؟

لِنلاحظ بأنَّ اللَّهَ تعالى استهلَّ الآيةَ بلامِ التّعليل لِيعلِّلَ ما ادّعاه.وقالَ **(لِيبيِّنَ لهم)** وإنَّ فعل **(يبيّن)**أتى من بانَ الشيءُ بمعنى اتَّضح.فهو فعل قد يتعدّى إلى مفعولٍ وقد لا يتعدّى (محيط المحيط) وعندما قال تعالى**(الّذي يختلفونَ فيهِ)**فلم يوضِّح تعالى معَ مَن يختلفون فيهِ لأنَّهُ حذفَ الجار والمجرور وتقديرُهُ **(معنا)**.ويصبحُ معنى قوله تعالى **(ليبيِّن لهم الّذي يختلفونَ فيه)** أنَّ هذا القرآن أُنزلَ على هذا الرّسولِ لِيوضِّحَ لهؤلاءِ الّذينَ كفروا بالبعثِ حقيقةَ البعثِ بعدَ الموت الّذي يختلفونَ فيهِ معنا.فمحمَّدٌ رسولُ اللَّهِ (ص)قد فعلَ ما فعلهُ جميعُ رُسُلِ اللَّهِ تعالى الّذينَ كُنّا أرسلناهم من قبله.وقد أعلنوا وُجودَ يومِ البعثِ من

بعدِ الموت فكذّبهم أعداؤهم ونصرناهم على أعدائهم وأثبتنا صدقَ ما جـــاءوا يدعونَ إليه. فهؤلاء الأعداء إن هم أنكروا حقيقةَ يومِ البعثِ يكونونَ قد كذّبـوا جميعَ رُسُلِ اللّهِ تعالى الّذينَ بعثهم اللّهُ تعالى من قبل محمَّدٍ (ص) والّذينَ ثبتَ من خلالِ انتصارهم على أعدائهم كونُ هذه العقيدة لها حقيقـــةٌ وخـــلافَ مـــا يزعمون.

وبعدَ أن قدَّمَ اللّهُ تعالى لهؤلاء المشركينَ هذا الدّليلَ التاريخي الإلزامـــيّ، راحَ تعالى يقدِّمُ دليلهُ الحقيقيّ ومستمِدّاً مضمونهُ ممّا تبيَّنَ لهؤلاء المشركينَ مـــن حقيقةٍ كونيَّةٍ سمّوها (نظريَّةُ الانفجار العظيم) فقال : (**إنّما قولُنـــا لِشـــيءٍ إذا أردناهُ أن نقولَ لهُ كُن فيكون**).والمعنى أ فلم يتبيَّن لكم يا من اتَّخذتُم للّهِ ولـداً وأصبحتُم بذلكَ مُشركِين ألم يتبيَّن لكُم وُجودُ عقلٍ مُطلقٍ وقادرٍ وأنّهُ هو الّـذي خلقَ هذا الكونَ وعلى حسبِ تقديراتكم التي تضمّنتـــها نظريَّـــةُ (الانفجـــار العظيم)قبلَ ما يُقارب(١٢-٢٠) مليار عام من خلالِ انفجارِ مادّةٍ مضغوطةٍ هي من الصّغر بحيثُ لا يكادُ يكونُ لها وزنٌ ماديّ؟أفلا يكفيكم هذا الاكتشـــاف تدليلاً على أنَّ اللّهَ تعالى إذا أرادَ شيئاً يقولُ له كُن فيكون ؟؟ وبهذه الإجابـــةِ العلميَّةِ المُصاغة صياغةً بلاغيَّةً يكونُ اللّهُ تعالى قد أفحمَ المشركينَ ثانيةً ونقـــضَ ما يدَّعونه.

وقد أتى اللّهُ جلَّ شأنهُ بدليلٍ ملموسٍ ثالثٍ تضمَّنهُ قولهِ تعالى (**والّذيـــنَ هاجروا في اللّهِ من بعدِ ما ظُلموا لَنُبوّئنَّهُم في الدّنيا حسنةً ولأَجـــرُ الآخـــرةِ أكبرُ لو كانوا يَعلمون.الّذينَ صبروا وعلى ربِّهم يتوكّلون**)والمعنى هو أنَّ اللّـــهَ تعالى لفتَ نظرَ هؤلاء الكافرينَ إلى ما كانَ يجري في زمانهم وكيـــفَ أنَّ اللّـــهَ تعالى وعدَ فئةَ المؤمنينَ الّذينَ اضطهدتموهم وأخرجتموهم من ديارهم، وعدهـــم ربُّهُم بأكثرَ من أجرٍ واحدٍ فقد وعدهم ربُّهم حسنةً في الدّنيا وأجراً أكـــبرَ في الآخرة.بسببِ ما لحقهُم من قبلِكُم من ظُلم.

وهكذا فإنَّهُ حينَ يثبتُ تحقّقُ هذا الأجرُ الدّنيويُّ وبتأييدٍ من اللّهِ تعالى ونُصرَتهِ إيّاهم يثبتُ من خلالِ حدوثهِ وبصورة آليّةٍ وجودُ الأجرِ الأخرويّ ويثبتُ معهُ وجودُ يومِ البعثِ أيضاً ومن مُنطلَقِ أنَّ ما بينَ الأجرِ الدّنيويّ والأجرِ الأُخرويِّ ما بينَ اللاّزم والملزوم.فهذا دليلٌ مُصاغٌ صياغةً بلاغيَّةً يتبادرُ منهُ غيرُ ما قُصِدَ به.ولذلكَ راحَ تعالى يُذكِّرُ هؤلاءِ الكافرينَ بمنطقِ التّاريخِ وقال بعد ذلك (**وما أرسلنا من قبلِكَ إلاّ رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهلَ الذّكرِ إن كنتُم لا تعلمون.بالبيّنات والزّبُرِ وأنزلنا إليكَ الذّكرَ لِتُبيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهم ولعلّهُم يتفكّرون**).أي أنّهُ تعالى دفعَ هؤلاءِ الكفّارِ لِيرجعوا إلى أهلِ الأديانِ التي يدينونَ بها لِيتثبّتوا ممّا ذكره لهم ولعلّهُم يتفكّرون.

وهكذا ثبتَ ومن خلالِ هذا المثالِ السادسِ الّذي قدَّمناهُ بأنَّ اللَّهَ تعالى لا يدّعي ادّعاءً إلاّ ويُتبعُهُ بدليلِ مِصداقيَّتهِ ولكن بصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزة لا يُدركُ مضمونها إلاّ إذا تدبَّرَ الإنسانُ الآياتِ وِفقَ منهجيَّتهِ القرآن وبأصولِ تفسيره.

وألخِّصُ ما بيَّنتهُ حولَ موضوعِ هذا الأصلِ الثالثِ لتفسيرِ آياتِ هذا القرآن المجيدِ فأقول: إذا عاودَ القارئُ مُطالعةَ الآية ٢١ من سورةِ البقرة والّتي قالَ اللّهُ تعالى فيها: (**يا أيُّها النّاسُ اعبدوا ربَّكم الّذي خلقكم والّذينَ من قبلِكم لعلّكم تتّقون.الّذي جعلَ لكم الأرضَ فراشاً والسماءَ بناءً وأنزلَ من السماءِ ماءً فأخرجَ بهِ من الثمراتِ رزقاً لكم فلا تجعلوا للّهِ أنداداً وأنتُم تعلمونَ**).فإنَّ هذا القارئُ يُدركُ بأنَّ اللَّهَ تعالى قد أتى في الآيةِ الأولى بادّعاءِ كونِ اللّه جلَّ شأنهُ هو الّذي خلقَ الإنسانَ ولمقصدٍ سامٍ وهو أن يتعرَّفَ على خالقهِ ويصبحَ عابداً إيّاه عن معرفةٍ وقناعة.كما يُدركُ بأنَّ اللَّهَ تعالى قدَّمَ دليلَ مِصداقيَّةِ ما ادّعاه وذلك في الآيةِ الثانية الّتي اشتملت على دليلٍ علميٍّ استنتاجيٍّ مُستندٍ إلى الملاحظة العلميَّة لآثارِ تصرُّفات هذا الخالق في هذا الكون ولِصالحِ الإنسانِ نفسه.فوضَّحَ تعالى لأعيُننا هناكَ وجودُ علاقةٍ جدليَّةٍ ما بينَ الأرضِ

والسماء الّتي لولا وُجودها بالفعل لاختلَّ كلُّ شيءٍ في هذا الكون.وهل أنَّ باستطاعةِ غيرِ اللّهِ الخالقِ لهذا الإنسان أن يُبدِعَ مثلَ هذا الإبداع؟

ولنلاحظ كيفَ أنَّ اللَّهَ تعالى تدرَّجَ بعدَ ذلكَ بخطوات منطقيَّةٍ فخاطبَ في سور البقرة وآل عمران والنّساء أوَّلَ ما خاطبَ أصحابَ الكُتُبِ السماويَّةِ السابقة الّتي أنزلها جلَّ شأنهُ في منطقتنا العربيَّة على أهلِ الكتاب من يهودٍ ومسيحيِّين.وناقشَ أحوالهم وعقائدهم الّتي تعرَّضَ ما فيها للتحريفِ والتّشويهِ والّتي لم تعُد صالحةً للعملِ عليها بعدَ حدوث مُتغيِّرات كبيرة.فناقش ذلكَ كلّهِ بأسلوبِ الحوارِ العلميِّ القائم على الحُججِ والبراهين الدّامغة.وبذلكَ أثبتَ من خلالِ ذلكَ كلِّهِ مِصداقيَّةِ ما ادّعاهُ في الآيةِ الأولى من سورةِ البقرة والّتي سبقَ لي أن شرحتُها في حينه وهي الآيةُ الّتي وضَّح تعالى من خلالِها منهجيَّةِ هذا الكتابِ العزيز.

ومادامَ اللّهُ تعالى قد وفّى بما وعدَ بهِ في السورِ الثلاث المذكورة فقد حقَّ لهَ أن يُعلِنَ في الآيةِ قبل الأخيرة من سورةِ النّساءِ عن هذا الأصلِ الثالثِ من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز الّذي ما انحرفَ عن هذا الصّراطِ المنهجيِّ طوالَ الأبحاثَ الّتي بحثها في أطولِ سوره والبالغُ عددُ آياتها أكثر من ستمائة وستّينَ آية من الآيات الطويلةِ أيضاً.

أقول: حقَّ للّهِ جلَّ شأنهُ أن يُعلِنَ عن هذا الأصلِ وهو يخاطبُ النّاسَ من جديدٍ ويقول: (**يا أيُّها النّاسُ قد جاءكم بُرهانٌ من ربِّكم وأنزلنا إليكم نوراً مُبيناً.فأمّا الّذينَ آمنوا باللّهِ واعتصموا بهِ فسيُدخِلُهم في رحمةٍ منهُ وفضلٍ ويهديهم إليهِ صراطاً مُستقيماً**).

فقد كانَ المقصودُ من كلمةِ (**البُرهانُ**) من ربِّنا هذه المنهجيَّة العلميَّة في البحثِ والاستقراءِ الّتي انتهجها سبحانهُ وتعالى في هذه السورِ الثلاث والدّالةِ على أنَّ اللّهَ تعالى لا يدّعي ادّعاءً إلاّ ويُتبعهُ بدليلِ مِصداقيَّتِهِ من جهةٍ وأنَّ للهِ

منهجيَّتهُ وأسلوبهُ العلميُّ في الحوارِ أيضاً من جهةٍ أخرى. تلكَ المنهجيَّةُ القائمة على أساسٍ من الحجَّةِ والبرهان. خصوصاً وأنّي أتيتُ بعدَّة أمثلةٍ مُستقاة من ضمنِ آياتِ هذه السور الثلاثِ ومن خارجها وأثبتُّ من خلالِ تلكَ الأمثلةِ مِصداقيَّةَ ما فهمتهُ من مُعطياتِ هذه الآية الأخيرةِ من سورةِ النّساء التي تضمَّنت هذا الأصل الثالث للتفسير.فاللَّهُ جلَّ شأنهُ وكأنَّهُ حينَ قالَ (**قد جاءكُم بُرهانٌ من ربِّكُم**) فقد قالَ بألفاظ أُخرى إنَّ من واجبِ كلِّ من يتصدّى لهذا القرآن المجيدَ تفسيراً أو مُحاورةً معَ ما جاءَ بِهِ من مُعتقدات أن يبحثَ عن دليلِ كلّ دعوى فيه عندها مُباشرةً أو أن يُقدِّمَ ما يطرحهُ في مواجهةِ هذا الكتاب بالمقابل أن يُقدِّمَ دليلاً وبرهاناً على مِصداقيَّةِ ما يدّعيه.وعلى شاكلةِ ما كنتُ أفعلهُ في هذه السورِ الثلاث الماضية: البقرة وآل عمران وسورة النّساء. فبهذا المفهومِ أوردَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ في هذه الآيةِ من سورةِ النّساء كلمةَ (**بُرهان**).

ما يترتَّبُ على الأصل الثالثِ للتّفسير:

وعلى شاكلةِ ما ذكرتُهُ من قبل بما يترتَّبُ على اكتشافِ كلِّ أصلٍ من أصولِ تفسيرِ آيات هذا القرآن المجيد من مسؤوليّات تقعُ على عاتقِ الإنسان المؤمنَ الّذي يُحاولُ تدبُّرَ آياتِ هذا الكتابِ العزيز لِيَفهمَ مَضامينها.فإنَّ اكتشافَ هذا الأصلِ الثالثِ من أصولِ التّفسيرِ يُرتِّبُ هو بدورهِ مسؤوليّةَ مُراعاتِهِ والأخذِ بمُعطياتِهِ عند تدبُّرِ آياتِ هذا القرآن المجيد.لذلكَ يتساءلُ القارئ عن تلكَ المسؤوليَّات التي يُرتِّبها هذا الأصلُ الثالثُ للتّفسيرِ على كلِّ عالِمٍ يتصدّى للتّفسير.

فأجيبُ وأقول:إنَّ هذا الأصل الثالث يفرضُ على كلِّ من يقومُ بعمليَّةِ تدبُّرِ الآيات الكريمة أن يتحرّى ما فيها من ادّعاء. فإن تأكَّدَ من وُجودِ ادّعاءٍ مهما كانت نوعيَّتهُ أن ينظُرَ إلى الآيةِ أو إلى الآيتينِ الّتينِ تأتيان بعد هذا الإدّعاء

وهو مُعتقدٌ بأنَّهما تحملان دليلَ مِصداقيَّةِ الادّعاءِ المُشارُ إليه.وقد ضربتُ لهـذا المُتدبِّر الأمثلةَ العديدةَ الّتي شرحَت كيفيَّةَ استنتاج دليل المصداقيَّة المطلوب.فـإن هو انتهجَ هذا النّهجَ الّذي لفتُّ نظرهُ إليهِ تعودُ الآياتُ تُمدُّهُ بمعلومات تختلـفُ عمّا تمدُّه بهِ من معلومات إن هو لم يراعِ مُعطيات هذا الأصل الثالثً للتّفسير.

والآن وبعدَ هذا الشرحِ الّذي شرحتُهُ للقارئ فيما يتعلّقُ بمعاني هذه الآيةِ الأخيرةِ من سورةِ النّساء .أنقلُ له ما فهمهُ منها ابن كثـير والفخـر الـرّازي رحمهما في تفسيريهما.لِيتمكّنَ هذا القـارئ مـن المقارنـةِ بـينَ مُعطَيـات الطَّرَفين.ولأدفعُ بهذا القارئ لمراجعةِ تفاسير هذين المفسّرين الآيات العائدة لبقيَّـةِ الأمثلة سالفة الذكر بنفسه.

فقد أوردَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللَّه يقولُ فيما اقتبستُهُ مـن تفسـيرِه للآيـةِ المذكورة: (قالَ يبيِّنُ اللَّهُ تَعالى اغترارَ اليهود والنّصارى بما هم فيه حيثُ ادّعـت كلُّ طائفة من اليهودِ والنّصارى أنُّ لن يدخُلَ الجنَّـة إلاّ مـن كـانَ علـى مِلّتها..قالَ لهم في هذه الدّعوى الّتي ادّعوها بلا دليل..(**تلكَ أمانيُّهم**)وقالَ أبـو العالية أماني تمنوها على اللَّهِ بغيرِ حقّ..(قل)أي محمَّد (**هـاتوا بُرهـانكم**)..أي بيِّنتكم على ذلكَ (**إن كنتم صادقين**)أي فيما تدَّعونه.ثمَّ قالَ تعالى(**بلـى مَـن أسلمَ وجههُ للَّهِ وهو مُحسنٌ**)أي من أخلصَ العملَ للّـه وحـدهُ لا شـريكَ له..(وجههُ) قالَ دينه. (وهو مُحسنٌ) أب اتَّبعَ فيهِ الرّسولَ فإنَّ للعملِ المُتقبَّـلِ شرطَين أحدهما أن يكونَ خالصاً للَّهِ وحده.والآخر أن يكونَ صوابـاً مُوافقـاً للشريعة.فمتى كانَ خالصاً ولم يكن صواباً لم يُتقبَّل...فعملُ الرّهبـان ومـن شابههم وإن فرض أنّهم مُخلصونَ فيهِ للَّه فإنَّهُ لا يُتقبَّلُ منهم حتى يكونَ ذلـكَ مُتابعاً للرسول (ص) المبعوثُ إليهم وإلى النّاسِ كافَّة...وقولهُ (**فلهُ أجرهُ عنـدَ ربِّه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**) ضمنَ لهم تعالى على ذلـكَ تحصيـل الأجور وآمنهم مّما يخافونه من المحذور.فلا خوفَ عليهم فيما يستقبلونه(**ولا هم**

يحزنون)على ما مضى ممّا يتركونه..) وأتركُ للقارئ أمرَ المقارنةَ ما بينَ ما فهمتهُ أنا من هذه الآية لكريمةِ بمنهجيَّةِ القرآن وبأصولِ تفسيره، وما بينَ ما أمسى بين يديهِ ممّا فهمهُ منها ابنُ كثيرِ الذي لم يتقيَّد بهذا الأصلِ الثالثِ للتّفسير.

وأختصرُ للقارئ أيضاً ما فهمهُ الفخرُ الرّازي رحمهُ اللّه من هذه الآية المذكورةِ لِيستأنسَ بها وليتمكّنَ من المقارنةِ بين الطّرفينِ أيضاً.

قال الرازي رحمه اللّه (واعلم أنّهُ تعالى لّما أوردَ الحجّة على جميعِ الفرق من المنافقينَ والكفّار واليهود والنّصارى وأجابَ عن جميع شُبُهاتهم عمَّم الخطاب ودعا جميع النّاس إلى الاعترافِ برسالةِ محمَّد (ص) فقال (**يا أيُّها النّاس قد جاءكُم بُرهانٌ من ربِّكُم**)والبرهانُ هو محمَّد عليهِ الصّلاةُ والسلام وإنّما سمّاهُ بُرهاناً لأنَّ حِرفتهُ إقامة البرهان على تحقيقِ الحقّ وإبطالِ الباطِل. والنّور المبين هو القرآن . وسمّاهُ نوراً لأنّهُ سببٌ لوقوعِ نور الإيمان في القلب.ولّما قرّرَ على كلّ العالمين كون محمّد رسولاً وكون القرآن كتاباً حقّاً، أمرهُم بعدَ ذلكَ أن يتمسّكوا بشريعةِ محمّد (ص) ووعدهُم عليهِ بالثواب فقال (**فأمّا الّذينَ آمنوا باللّهِ واعتصموا به**)والمراد آمنوا باللّهِ في ذاتِهِ وصفاته وأفعالِهِ وأحكامه وأسمائه واعتصموا به في أن يُثبّتهم على الإيمان ويصونهُم عن نزغِ الشّيطان ويدخلهم في رحمةٍ منه وفضل ويهديهم إليهِ صراطاً مستقيما.فوعدَ بأمورٍ ثلاثة:الرّحمةُ والفضلُ والهداية.قال ابنُ عبّاس الرّحمةُ الجنَّة والفضلُ ما يتفضّلُ بهِ عليهم ممّا لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت (ويهديهم إليهِ صراطاً مُستقيماً) يريدُ ديناً مُستقيماً.وأقول:الرّحمةُ والفضلُ محمولانِ على ما في الجنَّةِ من المنفعةِ والتّعظيم.وأمّا الهدايةُ فالمرادُ منها السّعاداتُ الحاصلةُ بتجلّي أنوارِ عالم القدس والكبرياء في الأرواح البشريَّة.وهذا هو السّعادة الرّوحانيَّة وأخّرَ ذكرها عن القسمينِ الأوّلين تنبيهاً على أنَّ البهجة الرّوحانيَّةَ أشرفُ من اللّذات الجسمانيَّة.)

وأترُكُ للقارئ أمرَ المُقارنة أيضاً ما بينَ ما فهمتُهُ أنا مـــن هـــذه الآيـــةِ المذكورةِ وما بينَ ما فهمهُ منها الفخرُ الرّازي رحمه اللّه.وأحاولُ الآن الانتقـــال للكلام عن الأصل الرّابع للتّفسير.



الفصـــل الرابع

الأصل الرّابع للتّفسير مراعاة: (الرّحمان والرّحيم)

لقد تبيّنت لنا حتّى الآن معالمُ ثلاثةِ أصولٍ من أصول التّفسيرِ الّتي ينبغي على كلّ مؤمنٍ يُحاولُ تدبُّرَ آيات هذا القرآنَ العظيم أن يلتزمَ بها خلال عمليَّةِ تدبُّره لها.وأوّلُ هذه الأصول أن ينظُرَ إلى هذا القرآنِ الكريم على أنّهُ كتابٌ **ذو مقدّمةٍ ومتنٍ وخلاصة**.فينظُر أهو يتدبَّرُ آيةً من المقدّمة.أم آيةً من المتن.أم آيةً من الخلاصة.والأصلُ الثاني يقتضي منهُ مُراجعةَ ألفاظ كلّ آيةٍ في معاجمِ اللُّغةِ العربيَّة وعلى اعتبارِ أنّ اللّهَ تعالى قد أنزلَ هذه القرآنَ الكريمَ **بلسان عربيٍّ مبين**.والأصلُ الثالثُ الّذي هو من أصولِ التّفسير يتطلّبُ منهُ ألاّ يُمرَّ على ادّعاءٍ إلاّ ويبحثُ بعدهُ مباشرةً عن دليلِ مِصداقيَّتِهِ فيما يليهِ من كلامِ ربّ العالمين.فإن تقيَّدَ هذا المتدبِّر بهذه الأصولِ الثلاثة تعودُ هذه الأصولُ الثلاثة مشاعل نورٍ بينَ يديهِ تهديهِ إلى معاني آياتِ هذا الكتابِ السماويّ المقدَّسِ والمبارك والمتَّصف بالنّماءِ والدّوام.

وقد يظنُّ القارئُ أنّ هذه الأصول الثلاثة هي وحدها الأصولُ الّتي قامت عليها آياتُ هذا الكتاب العزيز.فإن وقعَ في مِثلِ هذا الظّن.فسآخذُ بيده لأطلِعهُ على أصلٍ رابعٍ من أصولِ تفسيرِ هذه الآيات الّذي لا يكتشفُ مَكمَنهُ

إلاّ من كانَ قد جعلَ همَّهُ البحث والتّنقيب والدّعاء من ربِّـــهِ المُلـــهِمِ في هـــذا السبيل.

ويذكرُ القارئُ بأنّي انتهجتُ في بحثي حولَ أصولِ التّفسيرِ منهجاً علميّاً مُستنداً إلى الملاحظةِ والتّجربةِ والاستنتاج.ومن هذا المنظارِ نظرتُ إلى البســملة الّتي تبتدئُ كلُّ سورة بها وهي (**بسم اللَّهِ الرّحمان الرّحيم**).

فهذه البسملة تُفتتَحُ بها تلاوةُ كُلِّ سورةٍ من سورِ القرآنِ الكريمِ حيـــثُ يبدأُ القارئ حينَ يتلو أيَّةَ سورةٍ قرآنيَّة بقولهِ (**بسمِ اللَّهِ الرّحمـــان الرّحيـــم**)؟؟ فنتساءلُ: ما هي ضرورةُ استهلالِ كلِّ سورة بهذه البسملة؟؟ وقد أجابَ علـــى هذا السؤال كثيرون.ومستندونَ في ذلكَ إلى القرآنِ الكريمِ نفسهِ وإلى أحـــاديثِ رسولِ اللَّهِ (ص).وإنَّ إجاباتهم صحيحةُ المصادر الدّينيَّة.وأنا ممّن يتبنّونها أيضاً.

لكنَّ السؤال الغريب هو أن تسألَ يا عزيزي القـــارئ مؤمنـــاً: ولَمَ لا نكتفي بالقولِ (**بسم اللَّه**) فقط؟ ولِمَ يقرنُ اللَّهُ تعالى صفتيهِ(**الرّحمان الرّحيـــم**) باسمهِ **تعالى** في هذه البسملة،ولا يقرن باسمهِ تعالى في البسملةِ أيَّةَ صفةٍ أخرى من أسمائهِ الحسنى المعروفة،وفي وقتٍ نعلمُ فيهِ أيضاً بأنَّ لفظ الجلالة (**اللَّه**) هذا قـــد اشتملَ على جميعِ أسماءِ اللَّهِ الحُسنى ومن جملتها صفتا (**الرّحمان الرّحيم**)؟؟

فطرحُ هذا السؤالَ الأخير هو في حدِّ ذاتهِ طرحٌ جديدٌ لا أظنُّ أنَّ أحـــدا غيري قد طرحه وعلى حدِّ مُطالعتي للتّراث كذلكَ لم أعثر على أحـــدٍ أجـــابَ عليهِ بجواب موضوعيٌّ.ويعلمُ القارئ بأنّي كُنتُ وضَّحتُ معنى البسملة حـــينَ حاولتُ إثباتَ أنَّ سورةِ الفاتحة قد لخَّصت موضوع وحدانيَّةِ اللَّهِ عزَّ وجلّ.وقـــد أدَّت البسملة وقتئذٍ ما هو مطلوبٌ منها في ذاكَ المقام.لكنَّ تكـــرارَ الفاتحـــة في مُستهلِّ كلِّ سورة من سورِ القرآن الكريمِ لا يُعقلُ أن يكونَ لها هذه المهمَّـــة.ولا بُدَّ أن يكونَ لِضمِّ هاتين الصفتين (الرحمان الرّحيم)إلى (بسمِ اللَّه)مُهمَّةٌ أخـــرى موضوعيَّة.

وطالعتُ ما كتبــــهُ أســــلافنا القدمـــاء رحمـــهم اللّـــه في موضـــوع البسملة.فلاحظتُ من جديدٍ أنّهم

بدلاً أن يخطُرَ لهم ما خطرَ لي من سؤال.فقد راحوا يبحثونَ هل تُعدُّ البسملة من أصلِ السورة.أم أنّها لا تدخلُ في عدَد آياتها.كذلكَ اختلفوا في أمرِ جوازِ الجـــهرِ بالبسملة وعدمِ الجهرِ بها في الصّلاة.وكانَ كلٌّ فريقٍ يرجعُ إلى روايةٍ أو روايـات وصلتهُ تقرِّرُ وجهةَ نظره.وكانت تلكَ الرّواياتُ مَدعاةً لِـــبروز روحِ المذهبيَّـــةِ عندهم.فهذا مُسلمٌ شافعيٌّ يجهرُ بالبسملةِ في صلاته.وذاكَ حنفيٌّ يُســـرُّ بهـــا في صلاته.هذا وإنَّ الباحثَ الّذي يُريدُ الاستزادةَ في هذا الموضوع فما عليـــهِ إلاّ أن يُراجعَ التّفسيرَ الكبيرِ للعلاّمة الرّازي رحمةُ اللّه الجـــزء الأوّل صفحـــة ٢٠٣ — لِيُلاحظَ هناكَ هذه التّفاصيل.

وهكذا عُدتُ ألحُّ على نفسي لأفهمَ الحكمةَ من إضافةِ صفـــتيّ (**الرّحمـــان الرّحيم**) في البسملة على كلمتي (**بسم اللّه**) حينَ نستهلُّ بهذه البسملة تـــلاوةَ كلِّ سورةٍ من سورِ القرآن الكريم.فماذا يُضيرُ إذا اكتفينا بتلاوةِ (**بسمِ اللّـــه**)؟؟ **خصوصاً وأنَّ لفظ الجلالة (اللّه) يفيدُ جميعَ الأسماءِ الحُسنى بما فيـــها صفـــتي (الرّحمان الرّحيم).**

أقول: سبقَ لنا أن علمنا بأنَّ هذا القرآنَ الكريم لهُ منهجيَّته ولهُ أصـــولُ تفسيره.لذلكَ ما كُنتُ لأستسيغَ ما لفتُّ نظرَ القارئ إليهِ آنفاً.وظللتُ ثابتاً على رأيي بأنَّهُ ينبغي الإجابةَ على سؤالي المطروح بموضوعيَّة تامَّةٍ وليسَ اســـتناداً إلى روايات فعلت ما فعلَتهُ في جسمِ الأمَّةِ الإسلاميَّة وكما هو معـــروف. وعليـــهِ عاودتُ السؤال عن دورِ صفتي(**الرّحمان الرّحيم**) في(**بسمِ اللّهِ الرّحمن الرّحيـــم**) عندَ رأسِ كلِّ سورةٍ من سورِ القرآن المجيد عدا سورة الفاتحة؟؟

قلتُ في نفسي إنَّ نبوءةَ سفرِ التّثنيـــة ١٨/١٨ الموجـــودة في التّـــوراة المعاصرة والّتي أنبأت عن ظهورِ محمَّدٍ (ص) ودينهِ قد وردَ فيها (**أقيمُ لهم نبيّـــاً**

من وسطِ إخوتهم،مثلُك،وأجعلُ كلامي في فَمِه،فيكلِّمُهم بكلِّ ما أوصيه به.ويكونُ أنَّ الإنسانَ الّذي لا يسمعُ لكلامي الّذي يتكلَّمُ بهِ باسمي أنا أُطالبُه.).فالمحتملُ أن يكونَ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد جعلَ من علاماتِ الكتابِ الّذي يُنزلهُ على محمَّدٍ (ص) أن يُستهلَّ بهذه البسملة (**بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم**) **فهذا ما يُشيرُ إليه قولهُ تعالى في النبوءة المذكورة (باسمي)**.لكن إن صحَّ هذا الاحتمالُ فيظلُّ السؤالُ المطروحُ قائماً فهل ينبغي الاكتفاء عندَ استهلالنا للتّلاوة بقولنا (**بسم اللّه**) وليسَ (**بسم اللّهِ الرّحمن الرّحيم**) ؟وما دامَ هذا السؤال ما يزالُ قائماً لذلكَ كانَ عليَّ مُتابعة البحث والاستقراء الموضوعي والدّعاء للكشفِ عن الحكمة الموضوعيَّة لإضافةِ هاتينِ الصّفتين في البسملة من دون إضافة أسماء حُسنى غيرَ هاتين الصّفتين من بين أسماءِ اللّهِ ربِّ العالمين.

وأخيراً فقد هداني اللّهُ تعالى إلى الجوابِ الصّحيح والحقيقيّ وهو أنَّ الحكمةَ الموضوعيَّةَ من هذه الإضافة المذكورة هو أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ قد أضافَ هاتين الصّفتين على (**بسم اللّه**)في البسملةِ ولِتُصبحَ (**بسم اللّه الرّحمان الرّحيم**) معلماً بارزاً يحملُ أصلاً من أصولِ تفسيرِ آيات كلِّ سورة من سورِ كتابِ اللّهِ العزيز. أصلاً تفسيريّاً عامَّ الدّلالةِ ومن بابِ أنّهُ لا يجوزُ الأخذُ بأيِّ معنىً لأيِّ لفظٍ قرآنيٍّ خلالَ عمليَّةِ تدبُّرِ الآيات يكونُ مُخالفاً لِدلالات هاتين الصّفتين المذكورتين.ومن مُنطلَقِ أنَّ الذّاتَ الإلهيَّةَ هي **رحمةٌ مُجسَّمةٌ**.فلا يُعقَلُ أن يأمُرَ اللّهُ تعالى ويُخبرنا عن شيءٍ يتنافى ومُعطيات هذه الذّاتُ الرّحيمةُ الّتي هي **رحمةٌ مجسّمةٌ** عبَّرَتْ عنها صفتا (**الرّحمان الرّحيم**).

فهذهِ هي الحكمةُ الموضوعيَّةُ الّتِي هداني ربّي إلى معرفتهاإجابةً على السّؤالِ الّذي طالما أرَّقَ مضاجعي وشغلَ ذهني وأنا في أيِّ حالٍ من الأحوال.فهاتان الصّفتانِ تُشكّلانِ أصلاً رابعاً من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا

الكتاب السماويّ المقدّس والمبارك والمتّصفُ بالنّماءِ والدّوام.وقد شـكّلَ هـذا الأصلُ
الرّابعُ للتّفسيرِ الّذي تضمّنتهُ هذه البسملة مَعلماً على إعجازِ هـذا الأسـلوبِ القرآنيّ في الطَّرحِ والتّأليفِ الأدبيّ.فسبحانَ اللّهِ وبحمدهِ سبحانَ اللّهِ العظيم.

كيفَ تُراعى مُعطياتُ صفتي الرّحمان الرّحيم ؟

فلقد باتَ من المعلومِ أنّ لكلِّ مُفردةٍ من مُفردات ألفاظ اللُّغـةِ العربيَّـة أكثرَ من معنى.وإنَّ كلّ كلمةٍ قد يكونُ لها أصلٌ واحدٌ أو يكونُ لها أصلـينِ أو أكثر.وهذه الحقيقة استندَ إليها(**ابنُ فارس**) حينَ ألَّفَ معجمهُ المشهور (**مقاييسُ اللُّغة**).هذا المعجم الّذي افتتحهُ بعدَ الحمدِ للّهِ والاستعانةِ بهِ والصّـلاة علـى رسولِ اللّه قال (**إنّ للُغةِ العربِ مقاييسَ صحيحةً وأصـولاً تتفـرَّعُ منـها فروع.وقد ألَّفَ النّاسُ في جوامعِ اللُّغة ما ألّفوا، ولم يُعربوا في شيءٍ من ذلـكَ عن مقياسٍ من تلكَ المقاييس، ولا أصلٍ من الأصول**)-وهو يعـني بكلمـةِ (المقاييس) ما يُسمّيهِ بعضُ اللّغويّين في عصرنا (**الاشتقاق الكبير**) الّذي يُرجِـع مُفردات كلّ مادّة إلى معنى أو معانٍ تشتركُ فيها هذه المفردات-.

ولكي أُعطي القارئَ فكرةً عمّا فعلهُ (ابنُ فارس)في مِعجمه.أنقُلُ لهُ مـا كتبهُ أوّلَ ما كتبَ عن كلمةِ (**أبّ**)وهي مُهمَّزةُ الباء.قال:(اعلم أنّ للهمزةِ والباء في المُضاعف **أصلَين**:أحدهما المَرعى والأصلُ الآخر: القصدُ والتّهيُّؤ.فأمّـا الأوّل فقولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ (**وفاكهةً وأبّاً**)..قالَ أبو إسحاق الزّجّاج:الأبُّ هو جميـعُ الكلأ الّذي تعتلِفهُ الماشية..فهذا أصلٌ.وأمّا الأصلُ الثاني فقالَ الخليـلُ وابـنُ دُرَيد:الأبُّ صيغةُ مَصدَر.تقولُ أبَّ فلانٌ إلى سيفهِ إذا ردَّ يدهُ إليهِ لِيستلَّه.والأبُّ في قولِ ابن دُريـد يعـني الـنّزاعَ إلى الوطـن والأبُّ في روايتـهما التّـهيُّؤ للمسير..والأبُّ يعني القصد.حيثُ يُقال:أَبَبْتُ أبّه أي قَصدتُ قَصده..).

والّذي قصدتهُ ممّا اقتبستهُ من كلامِ (ابن فارس)فهو لتنبيهَ ذهنِ القارئ إلى أنَّ لِمفرداتِ اللُّغةِ العربيَّة اشتقاقُها الكبير واشتقاقها الصّغير.وقد اعتمدَ أصحابُ المعاجمِ المعروفة في معاجمهم (**الاشتقاقَ الصّغير**) فجمعوا بينَ معاني اللّفظِ الواحدِ في مكانٍ واحد.

هذا وإنَّ هذا الأُصل الرّابع للتّفسير الّذي نبهتنا إليهِ صفتا ربِّنا(**الرّحمان الرّحيم**) الّتي اشتملت عليهما البسملة وهي (**بسمِ اللّهِ الرّحمٰنِ الرّحيم**).هذه البسملةُ الّتي فَرضَ اللّهُ جلَّ شأنهُ علينا الابتداء بها عند التّلاوة.فقد كانَ القصدُ من صياغةِ هذا الأصل التّفسيري المذكور في هذه البسملة أن نحتاطَ عندَ مُراجعتنا لِمعاني كلِّ كلمةٍ من كلمات الآيةِ الواحدة فلا نأخذُ من معانيها إلاّ المعاني الّتي تتّفقُ ومُعطيات هاتينِ الصّفتينِ الإلهيَّتينِ اللّتينِ جسّمتا رّحمة اللّهِ عزَّ وجلّ.وإنَّ المفسِّرَ الّذي يُفسِّرُ الآيات بدونِ مُراعاةِ مُعطياتِ هاتين الصّفتينِ المجسِّمتينِ للرّحمةِ الإلهيَّةِ يزيغُ عن المعانِي الحقيقيَّةِ للآياتِ الكريمة.

الأصل الرّابع وأهمّيته:

فمن هذه النّاحية تبدو أهمّية هذا الأصلِ الرّابع الّذي لم يأخذهُ المفسّرونَ القدماء رحمهم اللّه بعينِ اعتبارهم لذلك يُلاحظُ الإنسانُ الّذي يُطالعُ التّفاسيرَ القديمةَ أنّها امتلأت بمفاهيمَ وصورٍ تُصوِّرُ اللّهَ عزَّ وجلَّ وكأنَّ الرّحمةَ لا تعرفُ إليهِ سبيلاً.تلكَ الصّوَر الّتي تُشعِركَ وأنتَ تقرأ تلكَ التّفاسير بأنَّ ربَّكَ هو أشبهُ بالطّغاة الجبّارين الّذين لا يهنأ لهم عيشٌ إلاّ برؤيةِ أحوالِ المعذّبين.وهذه الظاهرةُ تبدو لعينِ القارئ عندما صوّر المفسّرونَ القدماء عذابَ الجحيم على أنّهُ مكانُ اقتراف أبشعِ المجازرِ الّتي تفوقَ تصوُّرَ عقولِ بني نوع الإنسان.فقد صوَّروا رحمهمُ اللّهُ تعالى جهنّمَ على أنّها نارٌ موقدةٌ ويُلقى فيها الكافرُ والمشركُ والعاصي وبالمعنى المادّيِ للنّار.وأنَّ اللّهَ تعالى يُعذّبُ هؤلاءِ الكفّار فيها على

أيدي جلاّدينَ قساة غلاظ القلوبِ وبينَ متناولِ أيديهم أدواتُ تعذيبٍ لا تخطُرُ على بالِ أقسى الجلاّدين.

ألا إنَّ هذا الأصلَ الرّابعَ للتّفسيرِ يُحدثُ في المعاني التي توارثناها عن تفاسيرِ المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّه انقلاباً حقيقيّاً.إذ أننّا حينَ نأخذ بِهِ عندَ مُحاولتنا تدبُّرَ آيات هذا القرآن الكريم.فستتغيَّرُ الصّورة الموروثةُ بحقِّ عذاب جهنَّم خاصَّة.ويبدو لأعيُننا أنَّ ما أوردتهُ الآياتُ بحقِّ نارِ جهنَّم على أنَّها تُصوِّرُ لنا اللّهَ عزَّ وجلَّ على أنَّهُ **رحمةٌ مُجسَّمةٌ** وعلى حسبِ ما ذكرتهُ من قبلُ.وليسَ جزّاراً وفقَ مُعطَيات التّفاسيرِ القديمة. فاللّهُ هو (**الرّحمانُ**) وهو (**الرّحيمُ**) وهو الّذي لا يظلمُ أحداً من عبادِه.بل هو الّذي يعفو عن كثير.

فلمّا أصلُ بقارئي العزيزِ إلى هذا الحدِّ من البيان.أراهُ يستعجلُني أن أقدِّمَ لهُ أمثلةً مُقنعةً يثبتُ منها مِصداقيَّةُ هذا الأصلِ الرّابعِ المذكور.لكنّي أستميحُهُ عُذراً إذا حاولتُ قبلَ أن أُلبّي طلبهِ أن أشرحَ لهُ ولكلِّ قارئٍ ما اشتملت عليهِ البسملة من دلالات وهي الّتي تضمَّنت هاتينِ الصّفتين.ومن ثُمَّ ننطلقَ بعدها انطلاقةً تستندُ إلى مُعطياتِ هذا الأصل الرّابع للتّفسير.

شرحُ البسملة(بسم اللّهِ الرّحمن الرّحيم):

أقول:إنَّكَ يا عزيزي القارئ عندما تقولُ (**بسمِ اللّه**) ينبغي أن تضعَ في حُسبانكَ أنَّ هناكَ فعلٌ محذوفٌ قبلها وهو فعل (أقرأ باسمِ اللّه).ويذكِّرنا بهذا الفعل المحذوف أوّلُ وحيٍ تلقّاهُ محمَّدٌ رسولُ الله (ص) وهو (**اقرأ باسمِ ربِّكَ الّذي خلق**).وقد أُدخِلَت الباء على كلمةِ (**اسم**) ولتُصبحَ (**باسم**) لِتفيدَ معنى المعيَّةَ والاستعانة.فكأنَّكَ تقول: أقرأُ بالاستعانةِ باللّهِ تعالى وأنا أُطيعهُ وأمشي وِفقَ تعاليمه.وقد أسقطوا الهمزةَ لداعي دمجِ الباء بكلمةِ (اسم).لذلكَ تقولُ

باسمِ اللّه ولا تنطُقُ بالهمزة أمّا كلمة (**اسم**) نفسها فقد اشْتُقّت من الوسمِ أو من السموّ (أقرب الموارد).ثمّ إنّ لفظ الجلالة (**اللّه**) فهو اسمٌ ذاتيٌ مُختصٌ بذاتِ اللّهِ عزَّ وجلَّ وغيرُ مُشتقّ.وقد امتازت بهِ لُغتنا العربيَّة على سائرِ لُغاتِ العالَم.فلا توجدُ هذه الكلمة كاسمٍ لِذاتِ اللّهِ عزَّ وجلَّ في أيّةِ لُغةٍ من لُغاتِ العالَم.فإن وُجدت للّهِ تعالى تسميةٌ فتوجدُ كلمةٌ تدلُّ على إحدى صفاتهِ عزَّ وجلَّ ليسَ إلاّ.وإنَّ كلمةَ (**اللّه**)تدلُّ في اللُّغةِ العربيَّةِ على صفاتِ اللّهِ تعالى والّتي استعملَ لها القرآنُ المجيدُ مُصطلحَ (**الأسماءَ الحُسنى**).وهكذا فإنَّ معنى (**باسمِ اللّه**) هو أنّي أقرأُ ما أقرأهُ من آياتِ هذا القرآنِ المجيدِ وأنا مؤمنٌ بوجودِ ذاتِ اللّهِ تعالى الّذي خلقني وصاحب هذه الأسماء الحسنى وأنا مُلتزمٌ بالعملِ على تعاليمهِ طلباً لِقُربهِ ورضاه.

وقد زيدت على اسمِ الجلالة صفتان: الأولى صفةُ (**الرّحمان**) هذه الصّفةُ المُصاغة على وزن (فعلان)الدّالّ على معنى الغلبةِ والامتلاء.علماً بأنَّ هذه الصّفة مُختصَّةٌ هي أيضاً بذاتِ اللّهِ جلَّ شأنه فلا يصحُّ أن نقولَ فلانٌ رحمان.والّذي تعنيهِ صفةُ (**الرّحمان**)وهي مُعرَّفةٌ بالألف واللام تعني هذا الإلـه المعهود في الّذهن.تعني أنَّ كلَّ شيءٍ في هذا الوجود قد خلقهُ اللّهُ تعالى من غيرِ مِثال سابق وبلا مقابلٍ وتجسيماً لرحمةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ.أمّا صفةُ (**الرّحيم**)مُعرَّفةً أيضاً فتعني الإلهَ المعهودَ في أذهاننا والّذي إذا أعطى فإنَّهُ يُعطي الإنسانَ حقَّهُ وزيادة.فلا ينتقصُ من أجرهِ شيء.وإنَّ هذه الصّفة (**الرّحيم**)قد صيغت على وزن (فعيل).هذا الوزنُ والتَّفعيلةُ الدّالّةُ على معنى التّكرار في الرّحمةِ والعطاء –راجع جميع معاجم اللُّغة–

فصفةُ (الرّحيم) إذن تعني أنَّ اللّهَ تعالى الّذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقهُ وهداهُ إلى وُجودِ خالقهِ أيضاً رحمةً وشفقةً من جانبهِ تعالى عليهِ وعلّمهُ من التّعاليمِ الّتي إن هو عملَ عليها تجذبُ نحوهُ محبَّةَ ربِّهِ إليهِ وتُقرِّبهُ منهُ وينالُ ثوابَ

وأجرَ ما عملهُ وزيادةً عن استحقاقه وبرقّةٍ وعطفٍ كبيرينِ عليه.وعلى هذه الصّورة فإنَّ في إضافةِ اللّهِ تعالى لهاتينِ الصّفتينِ على اسمهِ في البسملة يكونُ جلَّ شأنهُ قد أعطانا في هذه البسملة **مَعلماً عظيماً** لا ينبغي علينا أن نتناساهُ عندَ قيامنا بتدبُّرِ آياتِ كتابِ ربّنا(**الرّحمان الرّحيم**).فمضمونُهما شكّلَ أصلاً رابعاً من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن العظيم وحسبما وضّحناه

فإن وَعيتَ يا قارئي العزيز هذه الحقيقةَ فقد حقَّ لكَ بعدها أن تُطالبني بتقديمِ الأمثلةِ الدّالةِ على مِصداقيَّةِ هذا الأصلِ الرّابع للتّفسير.ولِتتبيَّنَ لكَ من خلالِ ما سأقدّمهُ لكَ من هذه الأمثلة ملامحَ التّبديلِ الحادث الّذي أشرتُ إليهِ من قبلُ.

ما هي وظيفةُ كلِّ أصلٍ من أصولِ التّفسير؟

وقبلَ أن أبدأ بتقديمِ الأمثلة الضروريَّة،أرى أن أنبِّهَ ذهنَ القارئِ إلى حقيقةٍ لا بُدَّ من فهمها وهي أنَّ الأصول الّتي وضعها اللّهُ تعالى لِتفسيرِ آياتِ كتابهِ العزيز. لم يضعها عابثاً.ولكنَّهُ تعالى جعلَ لكلِّ أصلٍ من أُصولِ التّفسيرِ مُهمَّةً ووظيفةً يؤدّيها وهذه المهمَّة تتمثَّلُ في أن تُساعدَ هذا الإنسانَ الّذي يتدبَّرُ آياتِ هذا القرآنِ الكريم أن تُساعدهُ على الوصولِ إلى المعنى الحقيقي المقصودِ من تلكَ الآيةِ الكريمةِ الّتي يتدبّرها.

فالأصلُ الأوّلُ التّابعُ من كلمةِ (**كتاب**)يساعدُ المتدبِّرَ على معرفةِ تقسيمِ سورِ هذا القرآن الكريم إلى مقدّمةٍ ومتنٍ وخلاصة.وإنَّ الأصلَ الثاني للتّفسيرِ المتعلّق بلسانِ القرآن المبين يُساعدُ المتدبِّرَ على مراجعةِ معاني ودلالاتِ الألفاظِ القرآنيَّة في مراجعها وليسَ في الرّوايات.وإنَّ الأصلَ الثالثَ من أصولِ التّفسيرِ والّذي نصَّ على أنَّ كلَّ ادّعاءٍ وراءهُ دليله يُساعدُ هذا الإنسانَ الّذي يتدبَّرُ هذه الآياتِ القرآنيَّة ليبحثَ وراءَ كُلِّ ادّعاءٍ عن دليلِ مِصداقيّته.وإنَّ هذا الأصلَ الرّابعَ من أُصولِ التّفسيرِ المتعلّق بإضافةِ صفتيّ (**الرّحمن الرحيم**) على البسملة

وظيفتهُ أن يُساعدَ المؤمنَ الّذي يُحاولُ تدبُّرَ الآيات القرآنيَّة في آيَةٍ سورة من سورِ هذا القرآن العظيمِ على ألاَّ يأخذَ من معاني ألفاظها ما يتنافى ومُعطيات ودلالات صفتي اللَّهِ (**الرّحمان والرّحيم**).

علماً بأنّي سبقَ لي أن قُلتُ بأنَّ هذا الخطأ المُحتملُ في فهمِ حقيقة عذاب جهنَّم كثيراً ما يحدثُ عند تفسيرِ الآياتِ الّتي تتكلَّمُ في موضوعِ جهنَّم ونارها وعمّا يحدثُ فيها من أنواعِ العذاب وهذا الأمرُ يضطرُّني لِتقديمِ أمثلةٍ من تلكَ السورِ الواردُ فيها تلكَ الألفاظُ العائدةُ إلى موضوعِ عذابِ جهنَّم خاصَّة.

نماذجَ في التّفسير

مثالٌ من سورة الحاقّة

وفكَّرتُ بتقديمِ أوّلِ مِثالٍ وقد استقيتُهُ من سورة الحاقَّةِ والواردُ في الآياتِ منها قولهُ تعالى بحقِّ أهلِ جهنَّمَ وخزَنتِها (**خذوهُ فغُلّوهُ.ثمَّ الجحيمَ صلّوه.ثمَّ في سلسلةٍ ذرعُها سبعونَ ذراعاً فاسلُكوه**)والوارد فيها أيضاً (**فليسَ لهُ اليومَ ههُنا حميم.ولا طعامٌ إلاّ من غِسلّين.لا يأكلُهُ إلاّ الخاطئون**). علماً بأنَّ هذه السورة كانَ قد أنزلها ربُّنا عزَّ وجلَّ في مكّةَ المكرّمة.

ألا إنَّ المؤمنَ عندما يتوجَّهُ نحوَ ربِّهِ تعالى ويجلِسُ يتلو هذه السورةَ ويصلُ إلى هذهِ الآياتِ الّتي ذكرتُها آنفاً.تدورُ في مخيَّلتهِ أفكارٌ كثيرةٌ بشأنِ الإنسان الكافرِ بوجودِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ والّذي لا يؤمنُ بهِ ويُمضي حياتهُ في معصيته.ويشتاقُ كثيراً لمعرفةِ دلالات مضامينِ هذه الآيات الكريمة.فيشدُّهُ هذا الأمرُ لمراجعةِ ما أوردهُ المفسّرونَ القدماء رحمهم اللَّهُ تعالى ضمنَ تفاسيرهم تفسيراً لهذه الآيات الكريمة.

١-سورةُ الحاقّة وتفسير ابن كثير رحمهُ اللّه:

وينهضُ من فورهِ فيأتي بتفسيرِ ابن كثيرٍ على سبيلِ المثال.ويفتحُ على تفسيرهِ لِهذهِ السورةِ وهي سورة الحاقَّة.فيُسرعُ بإلقاءِ نظرةٍ سريعةٍ على تفسيرِ

الآيات الواردة قبلَ هذه الآيات الّتي أوردتُها آنفاً.فيلاحظُ كيفَ أنّ ابنَ كثير رحمهُ اللّه استهلّ تفسيرَ السورةَ بقولهِ (الحاقّةُ من أسماءِ يومِ القيامة لأنّ فيها يتحقّقُ الوعدُ والوعيدُ،ولهذا عظّمَ اللّهُ أمرَها فقالَ (**وما أدراكَ ما الحاقّة**).ثمّ ذكرَ تعالى إهلاكهُ الأُمَمَ المكذّبينَ بها فقالَ تعالى (**فأمّا ثمودُ فأهلِكوا بالطّاغية**) وهي الصّيحةُ الّتي أسكتتْهم والزلزلة الّتي أسكنتهُم.هكذا قالَ قتادة:الطّاغية الصّيحة.وهو اختيارُ ابنُ جرير.وقالَ مُجاهد:الطّاغية الذّنوب.وكذا قالَ الرّبيعُ بنُ أنس وابنُ زيد:إنّها الطُّغيان.وقرأ ابنُ زيد (**كذّبت ثمودُ بطغواها**)وقالَ السدي:فأهلِكوا بالطّاغية.قالَ:يعني عاقر النّاقة..).

إنّ المؤمنَ الّذي يقرأ هذا التّفسيرَ وفي وقتٍ تكونُ فيه ثقافتهُ محدودةٌ ومُقلّداً يُتابعُ مُطالعةَ ما يقرأهُ بدونِ تردّد،وهو مشدوهٌ بعظمةِ ما يقرأهُ من أقوالِ ابن كثير رحمهُ اللّه.لكنّ هذا المؤمنُ إن كانَ مُثقّفاً ثقافةً واسعةً ومفكّراً باحثاً فلا يفعلُ فِعلَه.لماذا؟

إنّ الباحثَ المفكّرَ الّذي يعلمُ بأنّ اللّهَ تعالى عندما قالَ بحقّ كتابهِ العزيز أنّهُ أنزلهُ بلسانٍ عربيٍّ مبين.لا يُراجعُ للاطّلاعِ على معنى كلمةِ(**الحاقّة**)ما وصلَ إليهِ من رواياتِ أشخاصٍ يُخطئونَ ويُصيبون إنّما يعودُ إلى معاجمِ اللّغةِ العربيّة لِيُلاحظُ أنّهم شرحوا هذه الكلمة وقالوا:إن قُلتَ فلانٌ حقّ فُلاناً فالمعنى أنّهُ غلبهُ على الحقّ كما تقول حقّ اللّهُ الأمرَ فمعناهُ أوجبهُ وأثبته عليه ففي سورةِ الزّمُر قال تعالى (**وحقّت كلمةُ العذاب على الكافرين**)بمعنى وجبت وثبتَت ووقعت وبدونِ أيّ شكّ.وعليهِ فإنّ معنى كلمة (**الحاقّة**)هو النّازلةُ الثّابتة فهذه هي أوّلُ صَدمةٍ تَصدِمُ هذا المُثقّف حينَ يرجعُ إلى تفسيرِ ابنِ كثير.حتّى أنّهُ يتساءلُ في حديثِ نفسهِ في هذا المقامِ أسئلةً كثيرةً.فمن هذه الأسئلة:لِمَ لَمْ يستهلّ اللّهُ تعالى هذه السورة بأحرُفٍ مُقطّعات؟ولِمَ وردت هذه السورة ترتيباً بعدَ سورةِ

(ن) ؟وما هي العلاقة الموضوعيَّة بينَ سورتي الحاقَّة و(ن)؟ لكنَّهُ لا يعثرُ على أيِّ جوابٍ في تفسيرِ ابن كثير المذكور.

وإنَّ هذه الصّدمةُ تدفعهُ ليتجاوزَ تفاسيرِ الآياتِ الّتي لا يبحثُ عن معانيها في التّفسيرِ المذكور وينتقل لمراجعةِ تفسير قولهِ تعالى بحقِّ أهلِ جهنَّمَ وعذابهم الّذي قال تعالى بحقّه (**فأمّا مَن أوتيَ كتابهُ بيمينهِ فيقولُ هاؤم اقرؤوا كتابيَه.إنّي ظنَنتُ أنّي مُلاقٍ حِسابيَه.فهو في عيشةٍ رّاضية.في جنَّةٍ عاليةٍ. قُطوفُها دانية.كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلَفتُم في الأيّامِ الخالية**).

ويتوقَّفُ عندَ هذه الآيات الكريمةِ المملوءة بالوعود لِمن أوتيَ كِتابهُ بيمينهِ.ويتساءلُ في حديثِ نفسهِ أسئلةً سريعةً: تُرى لِمَ قالَ تعالى (**في جنَّةٍ عالية**) فالعلوُّ عكسهُ الانخفاض.وهذه أمورٌ نسبيَّة.فهل أوردَ تعالى هذه الكلمة على سبيلِ الاستعارة، أم بمعناها الحقيقي ؟ فهو قد طالعَ في المعاجم أنَّ معنى العلاء: الرّفعة والشرف.فأطلَّ على ما وردَ في هذا التّفسير فلاحظَ ابنَ كثير رحمه اللّه يقول (**في جنَّةٍ عاليةٍ**) أي رفيعةٍ قُصورُها.حِسانٌ حورُها.نعيمةٌ دورُها.دائمٌ حُبورها)فارتاحَ نفسيّاً بعضَ الشيء.لكنَّهُ لاحظَهُ يقول بعدَ ذلك (وقد ثبتَ في الصّحيح: إنَّ الجنَّةَ مائةُ درجة.ما بينَ كلِّ درجتين كما بينَ السماءِ والأرض)فارتجَّ رأسهُ من جديد.ولم يسعَ لِمناقشةِ ذلك.وأسرعَ وراءَ بُغيتهِ وقرأ قولهُ تعالى (**وأمّا مَن أوتيَ كتابهُ بشمالهِ فيقولُ يا لَيتني لَمْ أوتَ كِتابيه.ولم أدرِ ما حسابيه.يا ليتها كانتِ القاضية.ما أغنى عنّي ماليَه.هلَكَ عنّي سُلطانيَه**).فلمّا قرأ هذا المفكّرُ الباحثُ هذه الآيات الكريمة انشدَّ إليها بسبَبِ أنَّهُ ينشُدُ معرفة معانيها.فقرأ ما فسَّرَ بِهِ ابنُ كثير رحمهُ اللّهُ هذه الآيات الكريمَة الّتي تكلَّمت عن النّارِ الّتي سيدخلها هذا الكافرُ الّذي أوتيَ كتابهُ بشمالهِ. فانكبَّ يُحملقُ بما استهلَّ بِهِ رحمهُ اللّهُ تفسيرهُ فوجدهُ يقول: (وهذا إخبارٌ عن حالِ الأشقياءِ إذا أعطى أحدهم كتابهُ في العرصات بشماله فحينئذٍ

يندمُ غايةَ النّدم)فتساءل:لِمَ أوردَ كلمةَ (العرصات) ؟ فهذه جمعٌ مُفردهُ (عرْصة)وتعني على حسبِ ما أوردهُ (محيط المحيط):ساحةَ الدّار وهي البقعةُ الواسعةُ بينَ الدّورِ التي ليسَ فيها بناء. فهل تصوَّرَ هذا المفسِّرُ وُجودَ بناءٍ يُحشرُ من أوتِيَ كتابهُ بشمالهِ فيه ؟ فكانَ هذا من طرفهِ هنا سؤالاً عابراً . وتابعَ القراءةَ فلاحظَ ابن كثيرٍ يقول : (**فيقولُ يا ليتني لَمْ أوتَ كِتابِيَه.ولَم أدرِ ما حسابِيَه. يالَيتها كانت القَاضية**) قالَ الضّحاك يعني مَيتةً لا حياتَ بعدها.وكذا قالَ محمّد بن كعب والرّبيع والسدي.وقالَ قتادة تمنّى الموتَ ولم يكُن شيءٌ في الدّنيا أكرهُ إليهِ منه.(**ما أغنى عنّي ماليه.هلَكَ عنّي سُلطانيه**) أي لم يدفع عنّي مالي ولا جاهي عذابَ اللّه وبأسه.بل خلصَ الأمرُ إلى وحدي فلا مُعينَ لي ولا مُجير.فعندها يقولُ اللّهُ عزَّ وجلّ (**خذوهُ فغُلّوه.ثمَّ الجحيمَ صلّوه**).

يتوقّفُ هذا الباحثُ المفكّرُ هنا هُنيهةً ليقولُ في حديثِ نفسه:الآنَ فهمتُ سببَ استعمال ابن كثير رحمهُ اللّهُ لكلمةِ (العرصات) من قبل.فهو تصوَّرَ وُجودَ قصرٍ منيفٍ للّهِ جلَّ شأنهُ هناكَ وكيفَ أنَّ ملائكةَ اللّه تعالى تحشرُ هؤلاءِ الجهنَّميّينَ في فناء قصرِ اللّهِ المنيف..والدّليلُ على مِصداقيَّةِ فهمي المذكور لكلمةِ (عرصات) التي استعملها ابن كثير هو أنّهُ رحمهُ تعالى تابعَ بعدَ ذلكَ يقول: (فعندها يقولُ اللّهُ عزَّ وجلَّ (**خذوهُ فَغُلّوهُ.ثمَّ الجحيمَ صلّوه**).أي يُطلُّ اللّهُ تعالى على ملائكتهِ من قصرهِ ويأمرُ الزّبانية أن تأخذَ كلَّ مجرمٍ عاصي عُنفاً من فناءِ هذا القصر الّذي حُشِرَ فيهِ هؤلاء المذكورين ولِتغلّهُ أي لِتضعَ الأغلالَ في عُنقه.ثمَّ توردهُ إلى جهنَّم فتُصليهِ إيّاها أي تغمُرهُ فيها.

ألا إنَّ الباحثَ المفكّرَ يقفُ طويلاً إثرَ مُطالعتهِ ما نقلتهُ لهُ من أقوالِ هذا المفسّرِ الّذي تخيَّلَ مثلَ هذا التّخيُّل من وُجودِ فِناءٍ يُحشرُ فيهِ المؤمنونَ والكافرونَ معاً فيؤتَونَ كُتُباً هذا بيمينهِ وذاكَ بشماله. ومن ثمَّ يُعطي الخالقُ أوامرهُ لِيدفعَ هذا إلى الجنَّة وذاكَ إلى النّار.فهو يتساءل عن نصيبِ هذه المفاهيمِ الظّاهريَّةِ من

الصّحّة وهل أنَّ وراءها حقائقَ تختلفُ عن هذه التّصوّرات المادّية؟؟ أم أنَّ لها معانيَ مُغايرةً لهذه المعاني المذكورة ؟

ويقولُ في حديثِ نفسهِ المهمُّ أنَّهُ ليسَ هذا الوقتُ هو وقتُ بحثِ هذا الموضوع.والّذي يهمُّنا هنا هو أن نُطالعَ ما فهمهُ ابنُ كثير رحمه اللّه بشأن عذاب أهلِ النّار ؟ووسائلِ ذاكَ العذاب ؟ وهل أنَّ فهمهُ لهذه المواضيع وتفسيرَهُ لها يتّفقُ ومُعطياتِ هذا الأصلِ الرّابع للتّفسير الّذي تضمَّنتهُ صفتا(**الرّحمان الرّحيم**)المُضافتانِ على (باسم **اللّه**) ضمنَ البسملة (**بسم اللّهِ الرّحمن الرّحيم**) والّتي نستهلُّ بها تلاوةَ كلِّ سورةٍ من سورِ هذا القرآن العظيم ؟؟

فهذا هو السؤالُ العريضُ الّذي يهمّنا في هذا المقام.لذلك أتابعُ نقلَ ما أوردهُ هذا المفسّرُ في تفسيره.فهو أضافَ يستندُ إلى الرّواياتِ الّتي وصلتهُ وقال(قالَ ابنُ أبي حاتم،حدّثنا أبو سعيدٍ الأشجّ،حدّثنا أبو خالد عن عمرو بن قيس عن المنهال بن عمرو قال:إذا قالَ اللّهُ تعالى (**خُذوهُ**) ابتدرهُ سبعونَ ألف ملك.إنَّ الملكَ منهم لَيقول هكذا،فيلْقي سبعينَ ألفاً في النّار.وروى ابنَ أبي الدّنيا في الأهوالِ أنّهُ يبتدرهُ أربعمائة ألف، ولا يبقى شيءٌ إلاّ دقّه.فيقولُ: مالي ولك؟ فيقول:إنَّ الرّبَّ عليكَ غضبان.فكلُّ شيءٍ غضبانٌ عليك. وقالَ الفضيلُ ابنُ عياض:إذا قالَ الرّبُّ عزّ وجلَّ (**خذوهُ فغُلّوهُ**) ابتدرهُ سبعونَ ألف ملكٍ أيُّهم يجعلُ الغلّ في عُنُقِه.(**ثُمَّ الجحيمَ صلّوه**) أي اغمروهُ فيها.وقولهُ تعالى(**ثُمَّ في سلسلةٍ ذرعُها سبعونَ ذراعاً فاسلُكوه**) قالَ كعبُ الأحبار:كلُّ حلَقةٍ منها قَدرَ حديدِ الدّنيا وقالَ العَوفيّ عن ابن عبّاس وابن جُريج بذراعِ الملك.وقال ابنُ جريج:قال ابنُ عبّاس (**فاسلكوه**) تدْخلُ في أستِهِ ثمَّ تخرُجَ من فيهِ ثمَّ يُنظمونَ فيها كما يُنظمُ الجرادُ في العودِ حينَ يُشوى.وقالَ العوفيّعن ابن عبّاس يُسلكُ في دُبُرِه حتّى يخرُجَ من مِنخريهِ حتّى لا يقوم على رجلَيه. وقالَ الإمام أحمد:حدَّثنا علي بن إسحاق أخبرنا عبدُ اللّه أخبرنا سعيد بن زيد عن أبي السمح عن عيسى

بن هلال الصّدفيّ عن عبد اللّه بن عمرو قال:قالَ رسولُ اللّـــهِ (ص)-لَـو أنّ رَضاضةً مِثلَ هذهِ وأشارَ إلى جُمجُمة، أُرسلت من السـماء إلى الأرض وهـي مسيرةُ خمسمائة سنة لبَلَغت الأرضَ قبلَ اللّيل.ولو أنّـها أُرسِلت مـن رأسِ السلسلة لَسارَت أربعينَ خريفاً اللّيل والنّهار قبلَ أن تبلُغَ قَعرهـا أو أصلَـها. وأخرجهُ التّرمذيّ عن سويد بن سعيد عن عبد اللّه بن المباركيهِ وقـال هـذا حديثٌ حسن.وقولهُ تعالى (**إنّهُ كانَ لا يؤمنُ باللّهِ العظيم. ولا يَحُضُّ على طعامِ المسكين.**) أي لا يقومُ بحقِّ اللّهِ عليه من طاعتهِ وعبادتهِ ولا ينفعُ خَلقَـهُ ويؤدّي حقّهم.فإنّ للّهِ على العباد أن يوحّدوه ولا يُشركوا بهِ شـيئاً.وللعبـاد بعضهم على بعضٍ حقّ الإحسان والمُعاونة على البرّ والتّقوى.ولهذا أمـرَ اللّـهُ بإقامةِ الصّلاة وإيتاءِ الزّكاة.وقبضَ النّبيُّ (ص) وهو يقول: الصّلاةُ وما مَلكـت أيمانُكم. وقولهُ تعالى (فليسَ لهُ اليومَ ههنا حميمٌ.ولا طعامٌ إلاَّ مـن غسـلّين.لا يأكلهُ إلاّ الخاطئون) أي ليسَ لهُ اليوم مَن يُنقذهُ من عذابِ اللّهِ تعالى لا حميـمٌ وهو القريبُ ولا شفيعٌ يُطاع ولا طعامٌ لهُ ههنا إلاَّ من غِسلّين .قالَ قَتادة هـو شرُّ طعام أهل النّار.وقال الرّبيعُ والضّحاك هو شجرةٌ في جهنّم..وقال ابـنُ أبي حاتم: حدّثنا أبي حدّثنا منصور بن أبي مُزاحم حدّثنا أبو سعيدٍ المـؤدّب عـن خصيف عن مُجاهد عن ابن عبّاس قال:ما أدري ما الغسـلّين ولكـني أظنُّـهُ الزّقوم.وقالَ شبيب بن بشر عن عِكرمة عن ابنِ عبّاس قال:الغسلّين الدّم والمـاء يسيلُ من لُحومهم.وقالَ علي بن أبي طلحة عنهُ: الغسلّين صديدُ أهلِ النّار).

وبعدَ أن نقلتُ إلى القارئِ الكريم ما فسَّرَ بهِ هذا المفسِّرُ رحمةُ اللّه هـذه الآيات من سورةِ الحاقّة والمتعلّقة بأهلِ النّارِ وبالعذابِ الّذي يُلاقونهُ فيها.أ فمـا يتّفقُ معي القارئُ بأنَّ هذه المعاني تتنافى وكونِ ربِّنا جلَّ شأنهُ (**الرّحمن الرّحيم**) ؟؟ هل أنَّ هذا التّفسير يؤكّد بأنَّ اللّهَ تعالى قد خلقَ الإنسانَ لِعبادتهِ فعصاهُ هـذا المخلوقُ لّما لم يتوفّر لهُ اليقينُ بوجودِ خالقهِ لأنّهُ لا يراهُ مُباشرةً رأيَ العينِ .فلمّا

يموتُ هذا الكافرُ وهو الّذي لم يعش عقوداً من السنوات يموتُ ويجدُ نفسهُ في فناءٍ بين يدي خالقهِ عزَّ وجلَّ وقد أخذَ يُذيقهُ هذا النّوعَ من العذابِ الّذي أوردهُ ابنُ كثيرٌ في تفسيره.فهل تُستساغُ هذه المعاني وتتّفقُ معَ ما للّهِ تعالى من أسماءٍ حُسنى وخاصّةً منها أنّهُ **(الرّحمانُ الرّحيم)** والّذي يمثّلُ هذه **(الرّحمةِ المجسّمةِ)** الّتي أمرنا اللّهُ جلَّ شأنهُ نفسهُ أن نستهلَّ بها تلاوةَ كلِّ سورةٍ من صورِ كتابهِ العزيز؟ أم أنَّ القارئَ يتّفِقُ معي بأنّهُ يوجدُ هناكَ تناقضٌ بين مُعطياتِ طرفَي هذه المعادلة المذكورة ويستشعرُ معي نفسَ ما استشعرتُهُ منها؟؟؟

ثمَّ لِنُحاكمَ معاً مُعطياتِ ما أوردهُ هذا المفسّرُ رحمهُ اللّهُ من روايات.فنحنُ لن نسألهُ عن مدى صحّتها.ولكنّنا نُناقشُ مضامينها.فإن كانَ اللّهُ تعالى كلّما أمرَ بحقِّ كافرٍ **(خذوهُ فغلّوه)** يُبادر **(سبعونَ ألف ملك)**أيّهم يضعُ الغلَّ في عُنُقه.أ فما كانَ يكفي للقيامِ بهذه المهمَّةِ ملكٌ واحدٌ من ملائكةِ اللّهِ عزَّ وجلّ ؟ أم أنَّ القضيَّةَ تحتاجُ إلى عمليَّةِ سباقٍ وتدافُعٍ ما بينَ سبعينَ ألفِ ملكٍ لتأديةِ هذه المهمَّة ؟

ثمَّ كيفَ يقبلُ عقلُنا أن يكونَ وزنُ كلِّ حلقةٍ من حلقات هذه السلسلةِ الّتي ذرعُها سبعونَ ذراعاً وزنُ كلِّ حلقةٍ بقدرِ وزن حديدِ الدّنيا بأجمعها ومن ثمّ يُقيَّدُ بها الإنسانَ الّذي ربّما لا يتجاوز وزنهُ سبعونَ كيلو غراماً ؟؟ فإن وُضِعَت هذه السلسلةُ في عُنُقهِ تقتُلُهُ من ثِقلِ وزنها.وإنَّ حلقةً منها تكفي لتجعلهُ بلا حراكٍ يقيناً.فما هي حكمةُ أن يكونَ طولُ السلسلة سبعينَ ذراعاً وأن يكونَ لكلِّ حلقةٍ من حلقاتها هذا الوزنُ المشارُ إليه؟؟

ثمَّ إنَّ العوفيَّ روى عن ابن عبّاس قوله (يسلُكُ-**السلسلة**-في دُبُرهِ حتّى يخرُجَ من مِنخرَيه حتّى لا يقومَ على رِجلَيه).فهل يُتصوَّرُ حدوثُ ذلك ويبقى جسمُ هذا الكافرِ سليماً وبشكلٍ من الأشكال ؟؟

وبالإضافةِ إلى هذه الرّوايات جميعُها، فكيفَ بالإمكان أن يُنظَمَ الكفّارُ في هذه السلسلةِ الّتي لها هذا الحجمُ والوزن (**كما يُنظم الجرادُ في العود حين يُشوى**)؟؟ فهل أنّ في هذه العمليّةِ إن أمكنَ حدوثُها شيءٌ يتّفقُ مع العقلِ السّليمِ والمنطقِ ومعَ كونِ اللّهِ تعالى (**رحمانٌ ورحيم**) ؟؟

والسؤالُ الأهمُّ من تلكَ الأسئلةِ كلّها هو: كيفَ تقبَّلَ هذا المفسّرُ هذه الرّوايات جميعها بروحِ التّسليمِ بها دونَ مُناقشةِ لمضامينها وعلى شاكلةِ ما ناقشناها به آنفاً؟؟ وهل تُفسَّرُ الآياتُ القرآنيَّة بغيرِ مَنهجيَّةٍ ولا بأصولِ تفسير تقيِّدُ المفسِّرَ لمضامينها أم أنَّ للمفسِّرِ أن يُفسِّرَ آياتِ هذا القرآن الكريمِ بما وصلهُ من رواياتٍ ظنّيَّةٍ هي من هذه النّوع وهذا القبيل؟؟

فهذه أسئلةٌ كثيرةٌ طرحَت نفسها علينا بعدَ قراءتنا لهذا التّفسيرِ الّذي فسَّرَ به ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللَّه هذه الآيات الكريمة ونجدُ أنفُسنا في مُواجهتها عاجزينَ عن أن نُجيبَ عليها بما يُوفِّقُ ما بينها وما بينَ مُعطياتِ كونِ اللّهِ (**الرّحمن الرّحيم**).

ألا إنَّ هذه الحياةُ الدّنيا قامت فلسفتُها على الابتلاء والامتحان وكما هو معلومٌ من كثيرٍ من آياتِ هذا القرآن الكريم نفسه. ومعلومٌ أنَّ من أنظمةِ الامتحانات أنَّ التّلميذَ الّذي ينالُ صفراً ويسقطُ في الامتحان يؤمرُ أن يُعيدَ سنتهُ الدّراسيَّةَ من جديدٍ. وليسَ أن يُعذَّبَ بأمثالِ هذه الأنواعِ من العذابِ الّتي وردت في تفسيرِ ابن كثيرٍ رحمهُ اللّه؟

٢- سورةُ الحاقّة وتفسيرُ الفخر الرّازي رحمه اللّه:

والمهمُّ في الأمرِ هو أنّ الّذي لاحظناه فيما تضمَّنهُ تفسيرُ ابن كثيرٍ رحمه اللّه لهذه الآياتِ المتعلّقةِ بعذاب أهلِ النّار. هو أنّ المفسِّرَ المذكورَ لم يلتزم فيما فسَّرهُ بمنهجيَّةٍ علميَّةٍ ولا التزمَ بأصولِ تفسيرٍ معروفة. لذلكَ ندعهُ وشأنهُ ولنتناول

ما فسَّرَ بهِ هذه الآيات الكريمة المُشار إليها العلاّمة الفخر الرّازي رحمهُ اللّه ضمنَ تفسيره الكبير البالغ حجمهُ اثنان وثلاثون مجلّداً.فلعلّنا نستشعرُ غيرَ ما استشعرناه من قبل.

ففي المجلّد الخامس عشر راحَ العلاّمة الفخر الرّازي رحمهُ اللّهُ يفسِّرُ قولهُ تعالى : (**خذوهُ فغلّوهُ.ثمَّ الجحيمَ صلّوه.ثمّ في سلسلةٍ ذرعها سبعونَ ذراعاً فاسلكوه**) وكتبَ يقول: (فأولّها أن تقولَ خزنةُ جهنّم خذوه.فيبتدِرُ إليهِ مائة ألفِ ملَك.وتُجمعُ يدهُ إلى عُنقهِ.فذاكَ قولهُ (**فغلّوه**).أمّا قولهُ(**ثمَّ الجحيمَ صلّوهُ**) قالَ: المبرد أصليَتهُ النّارَ إذا أوردَتهُ إيّاها وصلّيتهُ أيضاً.كما يُقال أكرمتُهُ وكرّمتُه.وقوله (**ثمَّ الجحيمَ صلّوهُ**) معناهُ لا تُصلّوهُ إلاّ الجحيم. وهي النّار العُظمى، لأنَّهُ كانَ سُلطاناً يتعظَّمُ على النّاس.ثمّ (**في سلسلة**)وهي حَلَقٌ مُنتظمةٌ.كلُّ حلقةٍ منها في حَلَقة.وكلُّ شيءٍ مستمرٌّ بعد شيءٍ على الوَلاءِ والنّظام فهو مُسلسل.وقولهُ (**ذرعُها**).معنى الذّرع في اللُّغة: التّقدير بالذّراع من اليد.يُقال ذَرَعَ الثّوبَ يذرعهُ ذَرعاً:إذا قدّرَهُ بذراعه.وقولهُ(**سبعونَ ذراعاً**)فيهِ قَولان: أحدهما أنّهُ ليسَ الغرضُ التّقديرَ بهذا المقدار.بل الوصف بالطّول.كما يُقال (**إن تستغفر لهم سبعينَ مرّة**) يُريدُ مرّات كثيرة.والقولُ الثاني: أنّهُ مُقدّر بهذا المقدار.ثمَّ قالوا: كلّ ذراعٍ سبعون باعاً. وكلُّ باعٍ أبعدَ ممّا بين مكّةَ والكوفة.وقالَ الحسن: اللّهُ أعلمُ بأيِّ ذراعٍ هو.وقولهُ تعالى (**فاسلُكوه**).قال المبرد: يُقالُ سلكهُ في الطّريق، وفي القيدِ وغيرُ ذلك. وأسلكتُهُ معناهُ أدخلتُه. ولُغةُ القرآن سلكته.قالَ تعالى (**ما سلَكَكُم في سَقَر**) وقال (**سلكناهُ في قلوب المجومين**).قالَ ابنُ عبّاس: تدخلُ السلسلة من دُبُره وتخرُجُ من حَلقِه.ثمَّ يُجْمَعُ بينَ ناصيتهِ وقدمَيه.وقالَ الكلبيّ:كما يُسلكُ الخيطُ في اللّؤلؤ.ثمَّ يُجعلُ في عُنُقِهِ سائرها.وههنا سؤالات:السؤالُ الأوّلُ ما الفائدة في تطويلِ هذه السلسلة.الجواب قالَ سويد ابنُ أبي نجيح:بلغني أنَّ جميعَ أهلِ النّارفي تلكَ

السلسلة.وإذا كانَ الجمعُ من النّاسِ مُقيَّدِينَ بالسلسلةِ الواحدةِ كانَ العذابُ على كلِّ واحدٍ منهم بذلكَ السببِ أشدَّ. السؤالُ الثاني: سَلْكُ السلسلة فيهم معقول. أمّا سلكهم في السلسلة فما معناه؟ الجواب: سَلْكُهُ في السلسلة أن تُلوى على جسده حتّى تلتفَّ عليهِ أجزاؤها.وهو فيما بينها مُرهقٌ مُضيَّقٌ عليهِ لا يقدرُ على حركة.وقال الفراء:المعنى ثمّ اسلكوا فيهِ السلسلة.كما يُقال:أدخلتُ رأسي في القلنسوة.وأدخلتُها في رأسي.ويقال:الخاتمُ لا يدخلُ في إصبعي والإصبعُ هو الّذي يدخلُ في الخاتم.السؤالُ الثالث: لِمَ قال في سلسلةٍ فاسلكوه.ولم يقُل فاسلكوهُ في سلسلة؟ الجواب المعنى في تقديمِ السلسلة على السّلك هو الّذي ذكرناهُ في تقديمِ الجحيمِ على التّصلية أي لا تسلُكوهُ إلاّ في هذه السلسلة لأنّها أفظع من سائرِ السلاسل.السؤالُ الرّابع: ذكرُ الأغلال والتّصلية بالفاء وذكرُ السّلك فبهذه السلسلة بلفظ (ثمّ). فما الفرق؟ الجواب:ليسَ المراد من كلمةِ (ثمّ) تَراخي المُدّة.بل التّفاوت في مراتبِ العذاب.).

ولمّا كُنا قد اطّلعنا من قبلُ على تفسيرِ ابن كثيرٍ رحمهُ اللّهُ لقولهِ تعالى بشأن طعامِ أهلِ جهنَّم(**فليسَ لهُ اليومَ ههنا حميمٌ.ولا طعامٌ إلاّ من غسْلين.لا يأكلُهُ إلاّ الخاطئون**).لذلكَ أنقلُ للقارئ الآن ما فسَّرَ بهِ الرّازي هذه الآياتِ الكريمة نفسها أيضاً.

فالعلاّمة الفخر الرّازي رحمه اللّه كتبَ يقول: ((**فليسَ لهُ اليومَ ههنا حميم**) أي ليس لهُ في الآخرةِ حميمٌ أي قريبٌ يدفعُ عنهُ ويحزنُ عليه.لأنّهم يتحامونَ ويفرّونَ منه.كقولهِ تعالى (**ولا يسألُ حميمٌ حميماً**).وكقولهِ (**ما للظّالمينَ من حميمٍ ولا شفيعٍ يُطاع**).قولهُ تعالى (**ولا طعامٌ إلاّ من غِسْلين**) فيهِ مسألتان: المسألةُ الأولى يُروى أنَّ ابنَ عبّاس سُئلَ عن الغسْلين فقال:لا أدري ما الغسْلين؟ وقالَ الكلبيّ:هو ماءٌ يسيلُ من أهلِ النّار من القيحِ والصّديدِ والدمّ.إذا عُذّبوا فهو (غِسْلين) فِعلينْ من الغسل والمسألةُ الثانيةُ:الطعامُ ما هُيِّئَ للأكل.فلمّا هُيِّئَ

الصديدُ لِيأكلهُ أهلُ النّار كانَ طعاماً لهم.ويجوزُ أن يكونَ المعنى أنَّ ذلكَ أُقيمَ لهم مقامَ الطّعامِ فسُمّيَ طعاما.).(ثمّ إنَّهُ تعالى ذكرَ أنَّ الغسلينَ أكلُ من هو؟ فقال(**لا يأكلهُ إلاّ الخاطئون**).الآثمون أصحابُ الخطايا.وخطئَ الرّجلُ:إذا تعمّدَ الذّنبَ وهم المشركون وقُرئَ (الخاطيون)بإبدالِ الهمزةِ ياءً.و(الخاطونَ) بطرحها. وعن ابنِ عبّاس أنّهُ طعنَ في هذه القراءة وقال:ما الخاطيون؟ كُلّنا نخطو، إنّما هو (**الخاطئون**).ما الصّابون؟ إنّما هو(**الصّابئون**)ويجوزُ أن يُجابَ عنهُ بأنَّ المرادَ: الّذينَ يتخطّونَ الحقَّ إلى الباطلِ ويتعدّونَ حدودَ اللّه.).

فإن أمعنَ القارئ نظرهُ فيما نقلتُهُ لهُ من أقوالِ الرّازي رحمهُ اللّه تفسيراً للآيات المتعلّقةِ بعذاب أهلِ جهنّم.فلا يُلاحظُ فروقاً كبيرةً ما بينَ المعاني الّتي ذكرها وما بينَ المعاني الّتي كانَ ابنُ كثيرٍ ذكرها من قبل.الأمرُ الّذي يدلُّ على أنَّ الوُعّاظَ كانوا إذا حذّروا من عذاب النّار.يعظونَ النّاسَ من مُعطيات أيٍّ من هذين التّفسيرينِ وبلا خلاف.وعليهِ فإنَّ الأسئلةَ الّتي سبقَ أن طرحت نفسها عند كلامنا على تفسيرِ ابن كثير مطروحةٌ هنا على تفسيرِ الرّازي بشكلٍ آليٍّ.لذلكَ لا حاجةَ بنا لإعادتها في هذا المقام.

هذا التّفسيرُ يتضاربُ معَ صفتي (الرّحمان والرّحيم):

والّذي يهمُّنا من جميعِ ما نقلتُهُ للقارئِ الكريم من النّصوصِ التّفسيريّةِ آنفةِ الّذكر أن يُلاحظَ بأنَّ المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّهُ تعالى لم يتدبّروا مُعطَيات صفتي (**الرّحمان الرّحيم**) الّلتين أضافهما اللّهُ جلَّ شأنهُ في البسملة (**بسم اللّهِ الرّحمن الرّحيم**)على (**بسم اللّه**)الّتي كانت تكفي لِيشرعَ المؤمنُ بعدها بتلاوة الآيات الكريمة.و لم يسألوا أنفسهم تلكَ الأسئلةَ الّتي ألهمني ربّي أن أسألها حولَ حكمةِ إضافةِ صفتي (**الرّحمان الرّحيم**)على (**بسم اللّه**)شاملةِ الدّلالة. ومن بابِ أنَّ اسمَ الجلالة (**اللّه**) يحملُ الأسماء الحُسنى ومنها هاتين الصفتين المذكورتين.

وما دامَ المفسّرونَ القدماء رحمهم اللّه لم يَدُر بخلَدِهم ما انتبهتُ إليهِ فما كانَ لِيخطُرَ لهم ما خطرَ لي من فهمٍ أيضاً.مع أنّهم لو راعوا أمرَ ربِّهم وهو ألاّ يبدأَ المؤمنُ تلاوةَ أيَّةِ سورةٍ من سورِ هذا القرآن العظيم إلاّ بعدَ هذه البسملة(**بسم اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم**).ولو كانوا قد فكّروا في مضمونها وفي حكمةِ هذا الأمرِ الإلهيِّ لكانوا أدركوا لا محالةَ أنَّ اللّهَ تعالى أمرهم بذلكَ الأمرِ ومن أجلِ أن ينتبهوا إلى هذا الأصلِ الرّابعِ من أُصولِ تفسيرِ آياتِ كتابهِ العزيز.وليأخذوا من معاني ألفاظ الآيات القرآنيَّةِ الكريمةِ أيَّ معنىً لا يتنافى وشأنَ اللّهِ تعالى المُتّصفُ بصفتيهِ (**الرّحمان والرّحيم**).

وعليهِ فلا ينبغي أن نسيرَ على نهجهما ونفسّر هذه الآيات الكريمةِ على صورة مُهملينَ معها مُراعاة مُعطيات هاتين الصّفتين. ولا ينبغي أن نُفسِّرَ الآيات بما تبادَرَ لأذهانِ مفسّريِّ أمّتنا القدماء الّذينَ خدموا هذا القرآنَ بإخلاصٍ كبيرٍ وإن أخطأوا الخَطأَ الّذي أتينا على ذكره .وهو التّفسيرُ الذي لم تُعينهم مُعطياتُ زمانهم على القيام به استناداً إلى وجودِ منهجيَّةٍ وأصولِ تفسيرٍ كانَ من واجبهم التّقيُّدَ بها حينَ قيامهم بتدبُّرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز.بل إنَّ من واجبنا أن نُعيدَ نظرنا في تلكَ التّفاسيرِ القديمة وأن نقوم بتفسيرِ هذه الآيات المتعلّقةِ بعذابِ جهنَّمَ بفهمٍ جديدٍ يتّفقُ ومُعطياتِ أصولِ تفسيرِ آياتِ كتابِ اللّهِ العزيزِ الّتي أعانني ربّي على الكشفِ عنها في هذا الكتاب.

العقابُ لا يكونُ إلاّ على قَدَرِ المخالفة:

ألا إنَّ اللّهَ عزَّ وجلّ قد وعظنا في الآية ٤٠ من سورةِ الشورى وقال (**وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلُها فمن عفا وأصلحَ فأجرُهُ على اللّهِ إنَّهُ لا يُحبُّ الظّالمين**)وما دامَ اللّهُ تعالى قد وعظنا بهذه الموعظةِ الّتي استحدثها بعدَ نسخهِ لأحكامِ الشرائعِ السابقة.والّتي تتْرُكُ لنا خَيارَ اتّخاذ القرارِ المناسب بحقِّ المُعتدي: مُعاقبتهُ على ما فعلهُ أو العفو عنه.وقد جعلَ نصَّ هذه الآيةِ الكريمةِ بمثابةِ نصٍّ

دستوريٍّ ومصدرٍ قانونيٍّ للقوانينَ الّتي نريدُ مُعاقبةَ المُعتدي والعاصي على أساسٍ منها.فبالأحرى أنْ يتعاملَ اللّهُ تعالى هو نفسهُ معَ عباده وعلى أساسٍ من هـــذا النّصِّ الدّستوريّ الّتي تضمنّتهُ هذه الآية الكريمة.مع كلٍّ مَن عصاهُ مـــن عبـــاده واستحقَّ مُعاقبته: أن يُعاملهم بالعفو.أو أن يُعاقبهم بسيِّئةٍ من مِثلِها.أي بعـــذابٍ يتناسبُ معَ جُرمهم الّذي ارتكبوه.فهذه مُسلَّمةٌ يقتضيها المنطقُ والعقلُ السليم.

وعليهِ كان من واجبنا أن نتساءل:هل تتناسبُ هذه الأهوالُ من العـذابِ ممّا أوردهُ المفسّرونَ القدماء رحمهم اللّه مع مُعطيات جُرمِ الكافرِ وظُلمِ المشـــركِ وعُصيانِ العاصي لأوامرِ ربِّهِ عزَّ وجلّ؟ خصوصاً وأنّهُ توجدُ في جميعِ الأحـــوال من المبرِّراتِ ما تدفعُ لِتخفيفِ الأحكامِ عن المحكومِ عليهم أيضاً فإن نحنُ أخذنـــا بهذا المنطلقِ فهل يصحُّ أن نُسلِّمَ بصحَّةِ ما فهمهُ المفسّرون القدماء رحمهم اللّه ممّا يتعلّقُ بعذابِ جهنّمَ وبصورتهِ المخيفةِ وعلى أنّهُ يصدُرُ عـــن اللّــهِ **(الرّحمـــانُ الرّحيم)** ؟؟

فحاشا للّهِ جلَّ شأنهُ أن يقومَ بتعذيبِ الظّالمينَ بمثلِ تلـــكَ الأســـاليب البشعة الّتي تبادرت من الآيات لأذهانِ أجدادنا من المفسّرينَ القدماء.وإنّي لعلـى يقينٍ أنَّ أيَّ واحدٍ منهم لو عاشَ في زماننا من جديدٍ وأخبرناهُ بوجـــود هـــذا الأصلِ الرّابعِ للتّفسيرِ الّذي نّبهني اللّهُ تعالى إليهِ وبضرورةِ مُراعاتهِ عنـــدَ تدبُّـــرِ الآياتِ القرآنيَّة.فكان لا بُدَّ أن يتراجعَ عمّا فسّرَ بهِ هذه الآيات حتّى ويســـتغفرُ ربَّهُ أيضاً.

ولِمَ نَنسَ قولَ ربِّنا عزَّ وجلَّ في الآية ٥٢ من سورةِ يونـــس **(ثُمَّ قيـــلَ للّذينَ ظلموا ذوقوا عذابَ الخُلدِ، هل تُجزَونَ إلاّ بما كُنتم تكسبون)** ؟ فاللّـــهُ جلَّ شأنهُ قد نبَّهَ أذهاننا من خلالِ مُعطيات مضمون هذه الآيـــةِ الكريمـــةِ إلى مسألتينِ هامّتين: .**المسألةُ الأولى** هي أنَّ عذابَ الآخرةَ يأتي على قدرِ جُرمِ هـــذا الّذي استحقَّ عذابَ الآخرة.و**المسألةُ الثانيةُ** هي أنَّ عذابَ الآخرةِ محدود.فكلمةُ

الخُلدِ تعني المُدَّةَ الطويلةَ دامت أم لم تدُم(محيط المحيط).وما دامَ عمُرُ الإنسانِ محدودٌ فبقاؤهُ في عذابِ جهنَّمَ محدودٌ أيضاً.وإنَّ هاتينِ الملاحظتين تتنافيانِ مع ملـ فهمَهُ المفسّرينَ القدماء فيما يتعلّقُ بالعذاب الجهنّميّ .

والآن وقد فرغتُ من نقلِ ما فسَّرَ بهِ ابنُ كثيرٍ والفخر الرّازي رحمهما اللّهُ تعالى الآيات من سورة الحاقّة والمتعلّقةِ بعذاب الآخرة.يُطالبني القارئُ بعرضِ ما فهمتُهُ أنا من مضامين الآيات المُشار إليها وأنا أُراعي مُعطيات هذا الأصلَ الرّابعَ للتّفسيرِ الّذي تكلّمتُ عنهُ وليُصبحَ ما سأبيِّنهُ لهُ مِثالاً حِسّيّاً يُثبتُ لـهُ مِصداقيَّةَ جميع ما أتيتُ على ذكره حتّى الآن.

تحقيقٌ شخصيٌّ بشأن مفهوم نار جهنَّمَ:

وأرى وقبلَ أن أشرحَ دلالات تلكَ الآيات من وجهةِ نظري واستناداً إلى الأصلِ الرّابعِ المُشار إليه.أرى أن أقومَ بخُطوةٍ تمهيديَّةٍ ضروريَّةٍ تتعلّقُ ببيانِ حقيقةِ نار جهنَّم وماهيَّتِهِ وبالمفهومِ والاصطلاحِ القرآنيِّ . وانطلاقاً من إحدى خصائصِ القرآن الكريمِ وهو أنَّ اللّهَ تعالى لا يوردُ الموضوعَ الواحدَ في سورةٍ واحدة بل يُوزِّعُ عناصرَ كلِّ موضوعٍ على العديدِ من السورِ وبما يتَّفقُ مع تسلسُلِ مضمونِ كلِّ سورةٍ من تلكَ السور.هذا وإنَّ موضوعَنا هـذا المتعلّق بحقيقةِ مفهوم نار جهنَّمَ وعذابَها لا يشذُّ عن هذه القاعدة الّتي تضمَّنتها هذه الخصوصيَّةُ القرآنيَّة المُشارُ إليها.

حقيقةُ مفهوم (نار جهنّم):

فأنا أجريتُ بحثاً فيما يتعلّقُ بمفهومِ وحقيقةِ نارِ جهنَّمَ المتواترُ ذكرُهُ في مُختلَفِ آيات هذا القرآن الكريم وتساءلتُ فيهِ هل أنَّ كلمةَ (النّار) الواردة في هذا الكتاب المَقدّس قُصِدَ بها النّارُ المادّيةُ المعروفة أم أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ استعارَ هذه الكلمة لِيكنّي بها عن نارٍ بمفهومٍ آخرَ غيرَ النّار المادّية المعروفة

ولقد تبيَّنَ لي من خلالِ هذا التّحقيقِ الذكور بأنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ كـان يُكنّي بكلمةِ النّار المُستعارةِ عن الآثار الجهنَّميَّة الّتي تتركها الصّفاتُ والأعمالُ الّتي فيها مَعصيةُ اللّهِ جلَّ شأنه.فلمَّا توصَّلتُ إلى هذه الإجابةِ المُقنعةِ ومن بابِ أنَّ هـذه العالم المادّي التي تنظمهُ قوانينهُ الخاصَّةُ بهِ هو آيلٌ إلى الزّوالِ في يومٍ من الأيّـام وتبعاً لِمُعطيات آياتِ القرآن الكريم نفسه المعروفة والمُتَّفق علـى دلالاتهـا.وأنَّ حقيقةَ العالم الآخر هي من ماهيَّةٍ غير مادّيَّةٍ وعلى حسبِ ما سأثبتهُ فيما بعـدُ بدلائلِ الآيات القرآنيَّةِ نفسها.لذلكَ أكملتُ تحقيقي مُحاولاً من خلالهِ تبيُّـنَ أبعاد موضوعِ هذه النّار الّتي تكلّمت عنها آياتُ هذا الكتاب العزيز ومُنطلقـات بحثهِ العقائديَّة وأُطُره والقوانين النّاظمة له وعن منشأِ هذه النّار وماهيَّتِها.

والّذي اتَّضحَ لي بعدَ البحثِ وتّقصّي هو أنَّ اللّهَ تعالى قد ضمَّنَ كتابـهُ العزيز مُصطلحات موضوعِ هذه النّار ومنطلقاتهِ وأُطُرِه والقوانينَ الّتي تنظُمُـهُ وضمنَ السور السّتَّة عشرةَ الأولى من سورِ كتابهِ العزيز.فمرَّرَ تلـكَ الأمـور المُشارُ إليها ضمنَ تلكَ السوَر وبما يتناسب معَ تسلسُلِ مضامينها.ومن ثمّ بحـث جلَّ شأنهُ في سورةِ الإسراء منشأ العذاب الجهنّميّ المذكور وماهيَّتَـه وضمـنَ تسلسُلِ آياتها الموضوعيّ أيضاً.وبحث جلَّ شأنهُ العناصرَ الباقيةَ من هذا الموضوع ضمنَ بقيَّةِ سورِ القرآنِ المجيد.وتبيَّنَ لي أيضاً بأنَّ هذا كلّهِ يُشكّلُ موضوعاً واسعاً جدّاً وإلى درجةٍ يحتاجُ المرءُ معهُ إن أرادَ شرحهُ بالتّفصيلِ إلى سِفرٍ مُستقلٍّ. الأمرُ الّذي يضطرُّني إلى اختصار ما توصَّلتُ إليهِ دفعاً للتّطويل.

أقول: لقد أمدَّتنا سورتا البقـرة وآلِ عمـران بمُصطلحـاتِ هـذا الموضوع.وقد صيغت تلك المُصطلحاتُ صياغةً بلاغيَّةً مُعجزةً.واستُعمِلتَ لهـا كلمات: (**النّار، جهنّم،وقود،أصحاب وخالدون**). ولا تفهمُ هذه الكلمات إلاّ بمراجعةِ معاجمِ اللُّغةِ العربيَّة.

فكلمةَ (**النّار**) كنّى اللّهُ تعالى بها عن عذابِ جهنّم واستُعملها على سبيلِ الكناية وليسَ على سبيلِ الحقيقة.فالنارُ الماديّة هي عبارةٌ عن جوهرٍ لطيفٍ يحرقُ ويُضيء.وقد تُطلقُ كلمةُ النّار على الرّأي ففي الحديثِ الشريف(لا تستضيئوا بنارِ أهلِ الشرك).أو تُطلقُ على سمةِ الرّجل فتقول: (نجّارُها نارُها) فهذا ما أوردَهُ معجم (محيط المحيط).

والكلمة الثانية الواردةُ في كتابِ اللّهِ العزيز والدّاخلةُ في هذا الموضوع هي كلمةُ (**جهنّم**). وهي اسمٌ ثانٍ من أسماءِ النّار.وإنَّ المعنى المادّيَّ لكلمةِ (جهنّم)هو القَعْرُ السحيقُ في الأرضِ ويهلكُ كلُّ من يقعُ فيها. وهذا المعنى أوردتهُ مُختلفُ معاجم اللّغة.ولذلكَ قال تعالى في سورةِ التّين (**ثمَّ رَدَدناهُ أسفلَ سافلينَ إلاّ الّذينَ آمنوا فلهُم أجرٌ غيرُ ممنون**) فمقامُ أسفل سافلينَ كنّى اللّهُ عزّ وجلَّ بهِ عن إبعاد العاصي عن ذاتِ اللّهِ عزَّ وجلّ إلى مكانٍ سحيقِ القعرِ مجازاً.ومن باب أنَّ الزّمانَ والمكانَ شيئان نسبيّان يرتبطُ وجودهما بالعالم المادّيِّ وليسَ بالعالَم الأخرويّ.

ثمَّ إنَّ الكلمةَ الثالثة التي ردّدها هذا الموضوعُ المُشارُ إليهِ هي كلمةُ (**وَقود**).فالوقودُ في اللّغةِ هو كلُّ شيءٍ ساعدَ على إيقادِ النّار.وعليهِ فإنَّ كلمةَ (وقود) القرآنيَّة قد استعملت على سبيلِ الكنايةِ أيضاً ولِنفسِ السببِ وللتّعبيرِ بها عن نتائجِ أعمالِ الّذينَ يكفرونَ باللّهِ تعالى ويشركونَ بهِ ويُنافقونَ ويعصونهُ عزَّ وجلّ.فنتائجُ أعمالهم الشّريرة تُشكّلُ في حقيقةِ دلالتها المجازيَّة وقودَ نارِ جهنّم الأخرويَّة فهذا ما أوردَتهُ معاجم اللُّغةِ أيضاً على هذا الصّعيد.

والكلمة الرّابعة هي كلمةُ (**أصحاب**)ومفردُها (**صاحب**) وتُطلقُ على كلِّ من يُلازمُ شيئاً من الأشياءِ أو شخصاً من الأشخاص.فيُقالُ هذا صاحبُ فلان.كذلكَ تُضافُ هذه الكلمة إلى مَسوسها فتقولُ هذا صاحبُ الجيشِ وذاكَ صاحبُ الأميرِ وفلانٌ صاحبُ النّار.وتُجمعُ ضمن قولكَ (أصحابُ

النّار) بسبَب مُلازمةِ النّار للكافرينَ والعاصين .كذلكَ تُطلقُ كلمةُ(**صـــاحب**) على كلّ من يملكُ شيئاً ويتصرّفُ به.والمهمُّ من ذلكَ كلّهِ هو أنّنا إذا قرأنا قولـهُ تعالى (**أولئكَ أصحابُ النّار**) يكونُ المقصودُ بأصحابِ النّارِ الكُفّارُ والمشركونَ والمُنافقون.فهذه المعاني أوردها معاجمُ اللُّغةِ أيضاً.

والكلمةُ الخامسة في الموضوعِ المشار إليه هي كلمةُ (**خالدون**) ومفردُهـا (**خالد**) فالخلودُ يُعبَّرُ بهِ في اللّغةِ العربيَّةِ عن المدَّة الطويلةِ دامت هذه المـدَّةُ أم لم تَدُم. ولا يُقصدُ بالخلودِ البقاء إلى مالا نهايةٍ إلاّ إذا توفَّرَت هناكَ قرينةٌ تُسـاعدُ على الأخذِ بهذا المعنى المذكور.وعليهِ فإنَّ بقاءَ إنسانٌ ما في مكانٍ ما مُدَّةً طويلـةً هو خلودٌ مكانيٌّ.وإنّ بقاءه في زمنٍ من الأزمنةِ مُدَّةً طويلةً أيضاً هـو خلـودٌ زمانيٌّ.وإنَّ هذه المعلوماتُ كلّها تتعلّقُ بمصطلحات بحث نار جهنَّم وعذابها.

أمّا ما يتعلّقُ بأطُرِ هذا الموضوعِ وحدوده. فموضوعُ نار جهنَّم هو هـذا الإنسانُ نفسُه.وبمعنى أنَّ النّارَ لا يدخُلُها إلاّ الكافرُ والمشركُ والمنافقُ من النّـاسِ .وليسَ كما يعتقدُ بعضهم خطأً أنّهُ تدخلُها كائناتٌ أخرى غيرُ النّاس. فهذا مـا أفصحت عنهُ الآية ٢٤ من سورة البقرة الّتي قالَ اللّهُ تعالى فيها: (**فإن لم تَفعلـوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّارَ الّتي وَقودُها النّاسُ والحجارة أُعِدَّت للكافرين**).

أفلا ترى يا عزيزي كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى حذفَ بلاغيّاً مُضـافَ كلمـة (**للكافرين**) ولتوسيعِ دلالاتِ هذه الكلمة ولِتشملَ المُنكرينَ لوجودَ اللّـهِ عـزَّ وجلّ. والمُنكرينَ للرّسالاتِ السماويّة.والمُنكرينَ للحقائقِ الرّوحيَّةِ وغيرها مـن الأمور. فكلمةَ (**الحجارة**)الواردةَ في هذه الآيةِ الكريمةِ لم يُقصدُ بها هذه الحجارةَ الصّماء الّتي صنعَ المشركونَ منها الأصنام.فما هو ذنبُ الحجر الّذي نحتهُ المُشركُ بيديهِ كيفما شاء واستعملهُ كما يشاء.فالحجرُ الأصمُّ مخلوقٌ أصلاً كوسيلةٍ بـينَ يدي هذا الإنسان ليصنَعَ به الأشياء الّتي يحتاجُ لِصُنعها لذلكَ فإنَّ الأحجـارَ لا تُحاسبُ لكونها صمّاء ووسيلة فهي بمثابةِ أداةٍ لا حولَ لها ولا قوّة.وعليهِ فـإنَّ

كلمةَ(**حجارة**)الواردةُ في الآيةِ سالفة الذّكر قد استُعمِلَت فيها على سبيلِ الاستعارة ولِيُكنّي اللّهُ تعالى بواسطتها عن زُعماءِ الكُفرِ والشركِ والإلحاد والعصيان. فأمثالُ هؤلاء الزّعماء هم ممّن اتّخذهم أتباعُهم بمثابةِ الأصنامِ لهم وأرباباً من دونِ اللّهِ عزَّ وجلَّ فهم يأتمرونَ بأمرهم ولا يأتمرونَ بأمرِ غيرهم ممّن بعثهم اللّهُ تعالى برسالاتهِ لإصلاحهم ولهدايتهم سبيلَ وطريقَ الرّشاد.

الأعمالُ الشرّيرة وآثارُها النّاريَّة:

وبعدَ أن أحطنا علماً بمدلولاتِ الكلمات الدّاخلةِ في موضوعِ (نار جهنّم)يُواجهنا سؤالٌ وهو كيفَ ومتى تطفو وتظهرُ هذه الآثارُ النّاريّةُ الّتي تترُكُها أفعالُ الفاسقين ؟

ألا إنَّهُ قد تبيَّنَ لي بأنَّ هذه الآثارَ النّاريَّةَ النّاتجةِ عن أعمالِ المرءِ تتمثَّلُ لهُ في منامهِ على صورةِ هذه الكوابيسِ المزعجة التي يراها وهو نائم فإذا ماتَ هذا الفاسقُ تتمثَّلُ لهُ آثارُ أعمالهِ النّاريَّة في عالم البرزخ ما بعدَ الموتِ وهي الآثارُ الّتي لا تُرى بالأعيُنِ المجرَّدة لكونها من حقيقةٍ غير ماديّة.وقد استعملَ لها رسولُ اللّهِ (ص) في أحاديثهِ الشريفةِ اصطلاح(**حفرةً من النّار**)فلو كانت هذه الحفرةُ من النّار ناراً حقيقيَّةً لكانَ لهبُها قد تركَ آثارهُ في قبورِ الفاسقين.

فهذه ه الحقيقةُ الّتي نبَّهَنا إليها اللّهُ جلَّ شأنهُ في الآية الثانيةِ عشرة من سورةِ آلِ عمران حيثُ قالَ: (**قُل للّذينَ كفروا ستُغلبونَ وتُحشرونَ إلى جهنَّمَ وبئسَ المهاد**) فهو تعالى قالَ هنا (**تُحشرونَ إلى**) ولم يقُل (تُحشرونَ في)الأمرُ الّذي يعني أنَّهُ لا وُجودَ مُستقلَّ لجهنَّم المُشار إليها.فهم سيُساقونَ إلى حيثُ تتمثَّلُ لهم نتائجُ أعمالهم على هيئةِ نار وهي التي سمّاها تعالى (جهنَّم).

كما نبَّهَ اللّهُ تعالى أذهاننا في الآية ١٠٦ من سورةِ آلِ عمرانَ نفسها إلى حقيقةِ نارِ جهنَّم وهو أنّها ليست ناراً ماديّةً.بل هي نارٌ تنبُعُ من داخلِ الإنسان نفسه وتُشكّلُها مجموعةَ آثار أعمالهِ الصّادرةِ عن هذا الكافر والعاصي ربَّهُ في

دُنياه.وقد صاغَ اللَّهُ تعالى ذلكَ صياغةً بلاغيَّةً لا تُدركُ إلاّ من خلالِ تدبُّرهـــا أصوليّاً. فاللَّهُ تعالى قال(**يومَ تبيضُّ وُجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ فأمّا الّذينَ اســودَّت وُجوهُهُم**-وهنا إشارةُ وقف-**أَ كفَرتُم بعدَ إيمانكم فذوقوا العذابَ بما كُنتــم تكفرون**).

إنَّ إشارةَ الوقفِ الواردة بعدَ قولهِ تعالى (**فأمّا الّذينَ اسودَّت وُجوههم**) كانَ القصدُ منها أن يتمهَّلَ القارئ وليتفكَّرَ في موضوعِ هذه النّارِ ومَنشئها والّتي تسبَّبت في اسوداد وُجوهِ الكافرين.ومن مُنطلَقِ أنَّ سوادَ وُجوههم تسبَّبت بــهِ أعمالُهم وما تركتهُ من آثارٍ ناريّة.فسوادُ وُجوهِ هؤلاءِ الكافرينَ لم يتأتَّ عــن لَفحِ نارٍ خارجيَّةٍ نتجَ عنها هذا الاسوداد.بل كانَ القصدُ من إشــارةِ الوقــفِ الواردةِ في هذهِ الآيةِ الكريمة هو لتنبيهِ ذهنِ قارئ هذه الآيةِ إلى هذه الحقيقةَ الّتي ذكرتُها آنفاً.فلَم ترد إشارةُ الوقف في هذا الموضعِ بالّذاتِ عبثاً فاللّهَ عزَّ وجلَّ لم يقُل في هذه الآيةِ(فأمّا الّذينَ احترقت وُجوههُم) فلو كانت نارُ جهنَّم ناراً ماديّةً خارجيَّةً وبالشدَّة المعروفةِ لكانت أحرقت الوجوه. فألفاظُ هذه الآيةِ الكريمــةِ كانت مُنتقاةً بدقّةٍ مُتناهيةٍ ومُعبِّرةً عن الحقيقةِ التي ذكرتُها أعظم تعبير.

وقد نبَّهنا اللَّهُ تعالى أيضاً إلى حقيقةِ نارِ جهنَّمَ ومنشئها وذلكَ في الآيــة ٧٧ من نفسِ سورةِ آلِ عمران حينَ قال (**إنَّ الّذينَ يشترونَ بعهدِ اللَّهِ وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئكَ لا خلاقَ لهم في الآخرة ولا يكلِّمُهم اللَّهُ ولا ينظُرُ إليهم يومَ القيامة ولا يُزكّيهم ولهم عذابٌ أليم**)أي أنَّ منبعَ عذاب نار جهنَّم يأتي مـــن حِرمانِ هؤلاءِ من توجُّهِ اللّهِ تعالى نحوهم وعن صُدودهِ عن مكالمتهِ إيّاهم وعــن عدمِ تطهيرهِ نفوسَهُم ممّا علِقَ بها من آثار ما ارتكبوهُ من آثام.لذلكَ فإنَّهُ تعـــالى أضافَ وقالَ (**ولهم عذابٌ أليم**) أي أنَّ هذه الحرمانَ سيؤدّي بهؤلاءِ إلى عــذابٍ أليمٍ يتلظّونَ بناره.

ولنلاحظ أيضاً كيفَ أنَّ اللّهُ تعالى قد وضعَ حدّاً فاصلاً لهؤلاء إن تجاوزوهُ فقد عادوا غير مقبولينَ في حضرةِ ربِّهم جلَّ شأنه وذلكَ في الآية ٨٥ من آلِ عمران التي قال تعالى فيها(**ومَن يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلمْ يُقبَلَ منه وهو في الآخرةِ من الخاسرين**).أي أنَّ الّذينَ لا يتقبّلونَ هذا الدّينَ الاسلاميَّ الحنيفَ ويكفرونَ بهِ هم في الآخرةِ من الخاسرينَ الّذينَ خسروا نعمةَ التَّشرُّفِ برؤيةِ ربِّهم عزَّ وجلَّ ومن مكالمتهِ .

ولقد لفتَ اللّهُ جلَّ شأنهُ أذهاننا إلى المنبعِ الحقيقي الّذي تنبُعُ منهُ الآثارُ الجهنَّميَّةُ وذلكَ في الآية العاشرة من سورةِ النّساء وهي الّتي قالَ تعالى فيها(**إنَّ الّذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظُلماً إنّما يأكلونَ في بُطونهم ناراً وسيصلَونَ سعيراً**).فمنَ المعروفِ أنَّ الّذي يأكلُ شيئاً يتحوَّلُ هذا الشيءُ في داخلهِ إلى شيءٍ آخرَ.وقد نبَّهَ تعالى إلى أنَّ أكلَ أموالِ اليتامى ظلماً شبيهٌ بأكلِ الأطعمةِ المادّيةِ يتحوَّلُ في صدرِ فاعلهِ إلى نار يصلاها هذا الخاطئُ سعيراً في الآخرة.أي أنَّ اللّهَ تعالى وبهذا الأسلوبِ المُتميِّزِ قد دفعنا لِنقيسَ فِعلَ السوءِ على أكلِ الطّعامِ فكما يتحوَّلُ الطّعامُ إلى غذاءٍ يُقوّي هذا الجسد فإنَّ عملَ السوءِ يتحوَّلُ إلى آثارٍ ناريَّةٍ تُضعفُ الكيانَ الرّوحيَّ النّفسي لهذا الكافر وتتسبَّبُ في إتلافه.وقس على ذلكَ كلَّ ما يمتُّ إلى الكفرِ والعصيانِ بصلةٍ من الصلات.وعليهِ فإنَّ فعل (**يأكلون**) لم يُستعمل هنا بمعناهُ الحقيقي بل استُعملَ بمعناهُ المجازي.ومن باب أنَّ المال لا يؤكلُ بل يُنفق.

ولم يكتفِ اللّهُ جلَّ شأنهُ ببيانِ جميع ما ذكرناه.بل وراح تعالى يوضِّحُ الصِّفات التي تَترُكُ في نفسِ الإنسانِ هذه الآثارَ الناريَّةَ.فوضَّحَ تلكَ الحقيقةَ بصياغةٍ بلاغيَّةٍ وبأسلوبِ التَّصويرِ الفنّي وذلكَ في الآيتين ٢٨/٢٩ من سورةِ النَّحلِ اللّتين قالَ تعالى فيهما(**الّذينَ تتوفّاهمُ الملائكة ظالمي أنفُسهم فألقوا السّلمَ ما كُنّا نعملُ من سوءٍ بلى إنَّ اللّهَ عليمٌ بما كُنتُم تعملون.فادخلوا**

أبوابَ جهنّمَ خالدينَ فيها فلَبئسَ مَثوى المُتكبِّرين). بمعنى أنَّ صفةَ التّكبُّر هي في حدٍّ ذاتها وإن كانت ليست عملاً. فهيَ تشكِّلُ باباً من أبوابِ جهنَّمَ يدخلُهُ المتكبِّرون. فكلمةُ (الباب) هذه وردت وقد كنّى تعالى بها عن المعصيةِ وعن أنواعها. فهذا هو السببُ في أنّهُ تعالى استعملَ في هذه الآيةِ الكريمةِ صيغةَ الجمع (أبواب).

وبعدَ أن وزّعَ اللّهُ تعالى جميعَ عناصر بحث موضوع حقيقةِ هذه النّار الجهنَّميَّة وبعدَ أن وضَّحَ من هم أهلُ جهنَّم وذلكَ ضمنَ مُعطيات هذه الآيات التي أوردناها الموزَّعة على ستّةِ عشرة سورة الأوائل من كتابِ اللّهِ العزيز. فقد عمدَ اللّهُ جلَّ شأنهُ بعدَ ذلكَ في الآيتين ١٢/١١ من سورةِ الإسراء إلى إعطائنا فكرةً عن مرجعيَّةِ مُحاسبتهِ الّتي يستندُ إليها في موضوعِ مُحاسبتهِ كلَّ فرد من أفرادِ بني نوعِ الإنسان فقال(**وكُلَّ إنسان ألزمناهُ طائره في عُنُقِهِ ونُخرجُ لهُ يومَ القيامةِ كِتاباً يلقاهُ مَنشوراً. اقرأ كِتابكَ كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ حسيباً**).

والمعنى أنَّ تراكُمات الآثار النّاريَّة الّتي كانتَ تَترُكها أعمالُكَ أيُّها الإنسانُ وصفاتُكَ التي كُنت تتّصفُ بها في حياتِكَ الدّنيا كانت تُعَدُّ عليكَ بصورةٍ آليَّةٍ وأنت لا تدري بما كانَ يحدُثُ في عُنُقِكَ. أي أنَّ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد صوَّرَ تلكَ الآثار النّاريَّة الّتي كانت تنتُجُ عن أعمالِ المرء تصويراً فنّيّاً حينَ قال في الآيةِ المذكورة(**ونُخرجُ لهُ يومَ القيامةِ كِتاباً يلقاهُ مَنشوراً**). علماً بأنَّهُ تعالى قد كنّى في هاتينِ الآيتينِ عن تلكَ الآثارِ النّاريَّةِ بكلمةِ (**طائر**) ومُشبِّهاً الآثار النّاريَّةَ التي تترُكها أعمالُ المرءِ وصفاتُه بما يطيرُ في خفاء عن عينَيه. فهي تحصي عليهِ معاصيهِ من خلالِ ما تترُكهُ من آثار ناريَّةٍ تبدو تلكَ الآثار يوم القيامةِ على شكلِ كتاب منشور. ونستنتجُ من ذلكَ كلِّهِ أنَّ الآثارَ النّاريّة الّتي تترُكُها أعمالُ المرءِ وصفاتهُ الّتي يتَّصفُ بها تشكِّلُ في حقيقةِ الأمرِ أساسَ العذابِ الجهنّميِّ لهذا الإنسان.

وقد نبَّهنا ربُّنا جلَّ شأنهُ في الآيةِ ٧٣ من نفسِ سورةِ الإسـراءِ إلى أنَّ هذه الآثار الجهنّميَّة الّتي تتركها أعمالُ المرءِ وصفاتُهُ تُصيبُهُ بالعمى الرّوحيّ وتحرمهُ من رؤيةِ أنوارِ ربِّهِ عزَّ وجلّ.كما تحرمهُ من جذبِ محبَّتِهِ تعالى إليه وتحرمهُ من نيلِ قُربهِ ورِضوانه.وهي الحقيقةُ الّتي عبَّرَ ربُّنا جلَّ شأنهُ عنها حينَ قال في الآيةِ المذكورة **(ومن كانَ في هذه أعمى فهو في الآخرةِ أعمى وأضلُّ سبيلاً)**. أمّا الإنسانُ المؤمنُ العابدُ المُطيعُ لِربِّهِ فيُحافظُ وعلى قدرِ مستوى تقواهُ على قوَّةِ رؤيتهِ الرّوحيَّة.وبالتّالي يُمكّنهُ ذلكَ من جذبِ محبَّةِ ربِّهِ إليهِ وقربهِ ورضوانه.

فمن خلالِ هذهِ المعلومات التي أمدَّتنا بها آياتُ القرآنِ المجيد أكونُ قد وضعتُ القارئَ ضمنَ إطار أبعاد هذا الموضوع المتعلّق بنار جهنَّم وبالجهنَّميّين.وعلى حسبِ ما قُمتُ بهِ من تحقيقٍ حولَ هذا الموضوع.فالّذي تبيَّنَ لي من خلالِهِ أنَّ اللَّهَ تعالى لم يستعمل كلمةَ النّارِ بمعناها الحقيقي.بل استعارها لِيستعملها كنايةً وقد كنّى بها عن العذاب المُنتظرِ وحقيقتهِ. هذا العذابُ الّذي سيصيبُ الكافرَ وممّن يعصونَ ربَّهم عزَّ وجلّ.ومن باب أنَّ الكافرَ العاصي سيُحرمُ في الآخرةِ من رؤيةِ أنوارِ ربِّهِ ومن مُكالمةِ ربِّهِ إيّاه ويحرمهُ من رضاه ومن تطوّرهِ الرّوحيِّ.وفي مُقابلِ ذلكَ فإنَّ الإنسانَ المؤمنَ والمُطيعَ يجذبُ محبَّةَ ربِّهِ وقُربهِ ورضوانه في هذه الحياةُ الدّنيا وفي الآخرةِ ويسعدُ برؤيةِ أنوارِ ربِّهِ وبكلامهِ اللّذيذِ وهو من خلالِ تطوّرهِ الرّوحيّ الّذي وصلَ إليهِ يسعدُ بجميعِ ما ذكرناه.لذا نُلاحظُ بأنَّ المؤمنين سُعداءُ في دُنياهم ومن جرّاءِ ما يتلقّونهُ من بشاراتِ ربِّهم ومن تأييدِه لهم على الدّوام.

وعليهِ فإنَّ حِرمانَ الكافرِ والعاصي من بشاراتِ ربِّهِ ومن تأييده لهُ في هذه الحياةِ الدّنيا هو في حدِّ ذاتهِ المؤشِّرُ الحقيقيُّ الدّالُّ عمّا ينتظِرُ هذا الشّقيَّ من الحرمانِ المُشار إليهِ والّذي سيتسبَّبُ لهُ في الآخرةِ بهذا العذابِ الجهنّميِّ الّذي

سيترافقُ معَ حسراتٍ تُرافقُها آهاتٌ تصدُرُ عنهُ أسفاً عمّا فرَّطَ في جنبِ ربِّهِ عزَّ وجلّ.

واستناداً إلى ذلكَ نُلاحظُ بأنَّ اللَّهَ جلَّ شأنهُ دأبَ على القولِ في مواضعَ كثيرة من كتابِهِ العزيزِ بحقِّ هؤلاء الكافرينَ المحرومينَ من تلقّي بشاراته قال (**وما ظلمناهم ولكن أنفُسهُم كانوا يظلمون**)أي أنَّ هذه العاقبةَ المُخزية الّتي صاروا إليها في الآخرةِ قد تسبَّبَت بها أعمالُهم وصفاتُهم الّتي اتَّصفوا بها في حياتهم الدّنيا وعليهِ يكونونَ هم الّذينَ ظلموا بذلكَ أنفُسهم وما كُنّا لهم من الظّالمين.

وعلى هذه الصورة يكونُ (**عذابُ جهنَّمَ**) الواردُ ذكرُهُ في هذا القرآن العظيم هو من هذا النّوعِ من العذاب الّذي بيَّنتهُ آنفاً.وليسَ من نوعِ العذاب المادّيّ الّذي تتسبَّبُ بهِ النّارُ الحقيقيَّةُ المادية والّذي ذهبت إليهِ أذهانُ المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّه وبدونِ تدبُّرٍ ولا تحقيق.

فهذا هو السّببُ في أنّهُم فسّروا آياتِ سورة(الحاقّة)وفقَ ما أوردوهُ في تفاسيرهم فبَدَت المعاني الّتي فهموها من الآياتِ القرآنيَّة مُتنافيةً تماماً معَ مُعطيات صفتيّ (**الرّحمان والرّحيم**)اللّتين أضافهما اللهُ تعالى على اسمِهِ الذّاتيّ (**اللّـه**) في (**بسمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحيم**).هذه البسملة الّتي أمرنا اللّهُ تعالى بتلاوتها في مُستهلّ كلِّ سورةٍ من سوره المائة والأربعةَ عشرة سورةً.

هذا وقد تسبَّبَ خطؤهم رحمهُمُ اللّهُ تعالى بتشويهِ حقيقةِ عذابِ جهنّم القرآني في أعيُنِ كلِّ مُفكّرٍ من النّاس وأصبحَ بالتّالي عقبةً على طريقِ إيمانِ هؤلاء المفكّرين.فإن كُنتُ قد أصبتُ فيما فهمتُهُ من كلامِ اللّهِ تعالى هذا الّذي تضمَّنتهُ هذه الآياتُ الّتي أوردتُها من قبلُ وفي هذا التّحقيقِ الّذي قُمتُ بهِ لِصالحِ الإسلامِ والمسلمين.فإنّي لا أرجو من اللّهِ ربّي إلاّ أن يؤتيني ثوابهُ وأجرهُ. وألاّ يحرمَ من أجرهِ أولادي وأحفادي أيضاً الّذينَ كانوا لي عوناً على الدّوام.وأن يُغيِّرَ اللّهُ جلّ

شأنهُ نظرةَ أعداء الإسلام الّتي يأخذونها على تعاليمِ هـــذا الدّيـــنِ الإســـلاميّ الحنيف.

ألا إنَّ ما توصَّلتُ إليهِ في بحثي المذكور يؤيِّدُهُ مضمونُ آيـــاتِ ســـورة (التّكاثر) الّتي لخَّصَ اللّهُ جلَّ شأنهُ فيها هذا الموضوع الّذي أتينا على ذكرهِ.والّتي لا تزيدُ آياتُها عن ثمانيةِ آيات.هذه السورةُ التي قالَ اللّهُ تعالى فيها (**ألهـــاكمُ التّكاثُر.حتّى زُرتمُ المقابر.كلاّ سوفَ تعلمون.ثمَّ كلاّ سوفَ تعلمون كلاّ لـــو تعلمونَ عِلمَ اليقين.لَترَوُنَّ الجحيم.ثمَّ لَترونّها عينَ اليقين.ثمَّ لَتُسألُنَّ يومئذٍ عـن النّعيم**).

فإن شاءَ القارئ التّأكُّدَ من صحَّةِ قولي بأنَّ هـــذه الســـورة لخَّصـــت الموضوعَ المذكورَ فما عليهِ إلاَّ أن يُراجعَ (**فتح البيان**)الّذي نقلَ عـــن رســـولِ اللّهِ(ص)أنَّ سورةَ التكاثُر لَخَّصت ألفَ آيةٍ قرآنيَّةٍ وتصونُ هذا الإنســـانَ مـــن الانحطاطِ ومن ويلاتِ الجحيم.

نتساءلُ: من أينَ أتتْ غزارةُ معاني هذه السورة؟ فالجواب هو أنَّها قـــد صيغت بصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزةٍ وتخلّلها حذفٌ بلاغيٌّ لِتوسيعِ دلالات آياها.ففعل (**ألهاكم**)اشتقَّ من لها المرءَ بشيءٍ ومعناهُ أنَّهُ أولعَهُ بذاكَ الشيءِ ولعبَ بـــه.أمّـــا كلمةُ (**التّكاثُر**)فمن تكاثر القومُ إذا تغالبوا في الكثرة (محيط المحيط).

والمُلاحظ هو أنَّ اللّهَ تعالى لم يُوضِّح لنا الشيءَ الّذي أولِعَ بهِ الإنســـانُ ولعبَ به.وقد أحدثَ تعالى هذا الحـــذفَ البلاغـــيَّ لِتوســـيعِ دلالاتِ كلمـــة (**التّكاثُر**).ولِيشملَ عمليَّةَ التّكاثُرِ بالأموالِ والأنفُسِ والعُدَد. ولِيُصبحَ معنى قولـــه تعالى (**ألهاكم التّكاثُر**)أيُّها النّاسُ الّذينَ أولِعوا بالتّكـــاثُرِ في جَمـــعِ الأمـــوالِ وبالإكثارِ من الأولادِ والعتاد وأصبحَ ذلكَ كلُّهُ مَلهاتكُم عن معرفةِ حقائقِ هـــذا الكونِ والإيمانِ بالخالقِ والآخرةِ بعدَ الموت.انتبهوا إلى أنَّ هذا التّكاثُر اســـتنفذَ

منكم سنيّ عُمركم (**حتّى زُرتُمُ المقابر**).وهذه المعاني تدورُ أصلاً في فَلَكِ أعمالِ الإنسان.

والمُلاحظ هو أنّ اللّهَ تعالى استعارَ كلمةَ(**زُرتُم**) للتّعبيرِ بها عن نتائجِ الأعمال.فأنتَ تقولُ: زارهُ بمعنى أتاهُ بقصدِ اللّقاء.وإنّ اللّهَ تعالى قد أرادَ باستعارتِهِ لكلمةِ (**زرتُم**) توضيحَ المصيرَ المحتوم لهذه الأعمال المتعلّقةِ بالتّلهّي بالتّكاثُرِ بالأموالِ والأنفسِ وغيرها من الأشياءِ .وبالتّالي فقد استعارَ اللّهُ تعالى أيضاً كلمةَ (**المقابر**) ليسَ ليقصُدَ بها القبور المعروفة بل قُصِدَ بها حالات الانحطاط الّتي تتأتّى من جرّاء تلهّي الإنسان بالتّكاثُرِ في الأموالِ والأنفسِ وغيرها من الأشياء.فهو تعالى أتى بحرفِ الجرّ (حتّى) بمعنى التّعليل. أي أنّ انحطاط البشر خُلُقيّاً وسياسيّاً وفي غيرِهما من المجالات سببُهُ غلبةُ التّفكيرِ بالأشياءِ الماديّةِ الّتي تترُكُ بآثارها على عقلِ هذا الإنسان وتنسيهِ أسلوبَ التّفكيرِ الرّوحيِّ المرتبط بمصائرِ هذه الأشياءِ الماديّةِ كما تُنسيهِ نتائجَ أعماله.

وبعدَ أن نبّهَ اللّهُ جلَّ شأنهُ إلى هذه الحقائق.أتى بحرف(**كلاّ**) الّذي يُستعملُ لِزجرِ الإنسان الغافل عن مسؤوليّاتهِ (محيط المحيط) وقالَ (**كلاّ سوفَ تعلمون**).فحذفَ مفعول فعل تعلمون و لم يوضّح سبحانهُ وتعالى ماذا سيعلمُ الّذينَ يتلهّونَ بالتّكاثُر.بل أتى بحرف(**ثمَّ**) الّذي يُفيدُ ترتيبَ الإخبار وأضافَ يقول (**ثمَّ كلاّ سوفَ تعلمون**).ومن ثمَّ عادَ جلَّ شأنهُ فأتى بحرف الزّجر (**كلاّ**) من جديدٍ وقال (**كلاّ لو تعلمونَ عِلمَ اليقين.لَتَرَوُنَّ الجحيم**) .

فبهذه الألفاظِ الأخيرةِ وضّحَ اللّهُ تعالى للإنسان بأنَّ نتائج آثار أعمالِهِ التي يعملُها هذا الإنسانُ وهو متلهٍّ أي مولعٍ بالتّكاثُرِ بالأموالِ والأنفسِ وغيرها من الأشياء،أنَّ من نتائجَ ذلكَ كُلّهِ أن تتراكم آثارُ أعمالِهِ النّاريّةِ الجهنّميّةِ في صَدره.وهذه الآثارُ الجهنّميّةُ مُرتبطةٌ بالمرحلة الّتي تأتي بعدَ الموت وهي مرحلةُ (**علم اليقين**).ثمَّ أتى اللّهُ تعالى بحرف (ثمَّ) للتّرتيبِ أيضاً وقال(**ثمَّ لَترونّها عينَ**

اليقين).أي أنّكم بعد البعثِ الأكبرِ سترونَّ هذه الآثار الجهنّميَّة الّتي تنتُجُ عن أعمالكم بأمِّ لأعيُنكم وهي الحقيقةُ الّتي عبَّرَ تعالى عنها بقولهِ (**عينَ اليقين**).ومن ثمَّ نبَّهَ اللّهُ تعالى هذا الإنسانَ وقال (**ثُمَّ لَتُسألُنَّ يومئذٍ عن النّعيم**).

وهكذا عادَ يُدركُ القارئ بأنَّ بحثي واجتهادي بما يتعلّقُ بعذابِ الآخرة هو أقربُ إلى الحقيقة ممّا تبادرَ لأذهانِ المفسّرين القدماء رحمهم اللّه.وإنَّ سورةَ التّكاثُر اختصرت لنا أسرارَ ازدهارِ جميعِ المُجتمعات الّتي هذّبت وخلّفت وراءها للإنسانيَّةِ أفضلَ التُّراث.كما وضّحت لنا أيضاً أسرارَ تخلُّفِ الأممِ وانحطاطها وانهيارها في نهايةِ المطاف.

وبما أنّي كُنتُ نبَّهتُ إلى أنَّ عالَمَ الآخرة ما هو بعالمٍ ماديّ وأنَّ حقيقةَ عالمِ الآخرةِ قد أخفاهُ اللّهُ تعالى عن النّاس ووعدتُ بتقديمِ الأدلَّةِ القرآنيَّةِ الّتي تُثبتُ ذلك.فأغتنمُ فُرصةَ الانتهاءِ من سردِ هذه التّحقيقات سالفة الذّكر لأتناولَ ما وعدتُ بهِ وللكلامِ فيه.

نفسُ الإنسان وعقلُهُ خالدان:

فأوّلُ ما ينبغي إثباتهُ هو أنَّ الحياةَ لا تنقطعُ بعمليَّةِ الموتِ الّتي تطرأُ على الإنسانِ في لحظةٍ من لَحظات حياتهِ الدّنيويَّة والّتي يُفارقُ بها هذا الإنسانُ مَعارفهُ إلى غيرِ رَجعةٍ إليهم إلاّ في رؤاهم وهم في حالةِ نوم. خصوصاً وأنَّ ما يراهُ النّائمُ في مَنامهِ لا يقدرُ أن يراهُ في يقظتِه.

وبأسلوبِ الملاحظةِ العلميِّ نُلاحظُ وُجودَ علاقةٍ رياضيَّةٍ بمُعادلةٍ عكسيَّةٍ ما بينَ حالةِ الجسدِ في عزِّ نشاط حواسّهِ وما بينَ حالةِ خمولِ حواسِ الإنسان.فالإنسانُ الّذي تُصابُ حواسهُ بتَعب شديدٍ وخمولٍ ذهنيٍّ يستسلمُ إلى نومٍ عميقٍ يدخلُ فيهِ إلى عالمٍ برزخيٍّ من ماهيَّةٍ غيرِ معروفةٍ ولهُ قوانينهُ الّتي تنظّمه أيضاً.ومن خواصِ عالمِ البرزخ أنّهُ تَتحرّرُ الأشكالُ المادّيةُ فيهِ من قُيودِ

القوانينِ النّاظمةِ لها وهي في عالمِ اليقظة وعلى شكلٍ يستعصي فهمهُ على معرفةِ هذا الإنسان.

ونُلاحظُ أيضاً أنَّ الجسدَ إذا بلغَ في حالةِ استرخائهِ نُقطةَ الصّفر والتي نُسمّيها (الموت) بألفاظ أُخرى تتحرَّرُ هذه النّفسُ البشريَّةُ بصورةٍ مُطلقَةٍ من قُيودِ جسدها التي كانتْ أسيرةً فيهِ وفيما لهُ من حواسّ وتنطلِقُ في عالمٍ جديدٍ لِخضوعها للمُعادلةِ الرّياضيَّةِ العكسيَّةِ الّتي استنتجناها سابقاً.هذا وإنَّ هذه الكلمة (البرزخ) المُستعملة لها دلالَتانِ في اللُّغةِ العربيَّة.فالمعنى الأوَّلُ الشائعُ استعمالُهُ هو دلالةُ هذه الكلمة (برزخ) على الأرضِ الفاصلةِ ما بينَ بحرينِ عظيمينِ وهو دلالتُها المادّية.وأمّا المعنى الثاني والمتعلّقُ بدلالةِ كلمة (برزخ) على معنىً مَعنويٍّ.فينبُعُ من كون هذه الكلمة رُكّبت أصلاً في سابقِ تاريخها من كلمتينِ هما (برّ) و(زخّ) واللّتينِ تُشيرانِ أصلاً إلى انسداد طريقِ كَسبِ الأعمال وإلى بقاءِ هذه النّفس في حالةِ خفاء بعدَ موتها الدّنيويّ. فقد وردَ في معجم الصّحاح (البرزخُ هو الحاجزُ بينَ الشيئينِ.وهو أيضاً الحاجزُ ما بينَ الدّنيا والآخرة من وقتِ الموت إلى البعثِ الأكبر.

هذا وإنَّ النّفسَ في حالتها البرزخيَّةِ المُشار إليها تجني الآثارَ الّتي نتجت عن أعمالها الّتي عملتها في الحياة الدّنيا وتكونُ هذه الآثارُ ناريَّةً أو نورانيَّة (حُفرةً من النّار أو حُفرةً من الجنَّة) .

وبأسلوبِ الملاحظةِ العلميِّ أيضاً نصلُ إلى تبيُّنِ ثلاثةِ فوارقَ كائنةٍ ما بينَ حالةِ اليقظةِ وما بينَ حالةِ النَّوم.وهذه الفوارقُ هي:

أوّلاً–إنَّهُ وإن تَشابهت صورُ الأشكالِ في المنامِ وفي اليقظةِ،فلا تكونُ هذه الأشكالُ من ماهيَّةٍ واحدة.بل إنَّ الأشكالَ في حالةِ النّومِ مؤلّفةٌ من ماهيَّةٍ لا ندري عنها شيئاً.

ثانياً–وإنّ القوانينَ النّاظمةِ لهذه الأشكالِ في عالمِ يقظتها الدّنيويّ،تختلفُ عن القوانينِ الّتي تنظمُ هذه الأشكال في عالمِ النّوم.حيثُ يعسُرُ على الإنسان الطّيرانَ في عالمِ يقظتِهِ بدونِ أجنحةٍ على حينِ يتمكّنُ من الطّيران في عالم نومهِ وبدونِ الحاجةِ إلى أجنحةٍ معروفة.

ثالثاً–ويلاحظُ أيضاً بأنّ عالم النّومِ هو عالمٌ تعملُ فيهِ المؤثّراتُ العضويّةُ والفكريّةُ الّتي تعتري النّائم على تضخيمِ إحساسهِ من أيّ نوعٍ كان.فالمريضُ المحمومُ يرى نفسهُ في نومهِ وكأنّهُ يحترقُ في النّار.وإنّ قرعَ الأصواتِ الّذي يقعُ في أُذنيهِ يتضخّمُ ليوحي للنّائمِ أنّهُ يسمعُ صوتَ قنابلَ تسقط عليه.

والمُدهشُ حقّاً هو أنّ اللّهَ تعالى لخّصَ لنا حالتي اليقظةِ والموتِ من خلال آيتينِ كريمتين وردتا في سورة الزّمُر حيثُ قال(**هو الّذي يتوفّى الأنفُسَ حينَ مَوتِها والّتي لم تَمُت في مَنامها.فيُمسكُ الّتي قضى عليها الموتُ ويُرسلُ الأخرى إلى أجلٍ مُسمّى إنّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكّرون**) .

فأشارَ تعالى من خلالِ قولِهِ هذا إلى حقيقةٍ وهي أنّ حالةَ نَومِ الإنسانِ شبيهةٌ بحالةِ موتهِ إلى حدٍّ ما.وأنّ عالمَ النّومِ هو من قبيلِ عالمِ البرزخِ الّذي سيدخلهُ الميّتُ بعدَ موته.وبلا فارقٍ كبير.وهذه الحقيقة صدّقها قولُ رسولِ اللّهِ (ص) الّذي قالَ فيهِ بأنّ القبرَ إمّا أن يكونَ حُفرةً من حُفرِ النّارِ وإمّا أن يكونَ قطعةً من الجنّة.أي أنّ آثار الأعمال النّاريّة أو النّورانيّ تتفاعلُ وتتضخّمُ في نفسِ الميّتِ بعد مماته.ذلكَ أنّ العلمَ أثبتَ خلودَ العقلِ والنّفس .وهي حقائقُ أوردتها في (نشوءِ الإنسانِ وتطوّره).وهذا هو السّببُ في أنّ رسولَ اللّهِ (ص) علّمنا أن ندعو عند استيقاظنا من نومنا (الحمدُ للّهِ الّذي أحيانا من بعدِ أن أماتنا وإليهِ النّشور.وللسببِ نفسهِ دعانا ربُّنا في الفقرةِ الأخيرةِ من هاتين الآيتينِ لِنتفكّرَ في موضوعِ حالتي اليقظةِ والنّوم وقال(**إنّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكّرون**).

عالمُ الآخرة هو عالمٌ غيرُ مادّي:

وبعدَ أن فرغتُ من إثباتِ خلودِ نفسِ الإنسانِ وبقاءِها بعدَ موتِ صاحبِها وحقيقةَ البرزخِ الّتي تنتقِلُ إليه.أحاولُ مُجدّداً إثباتَ أنَّ عالمَ الآخرةِ هو من ماهيَّةٍ أخرى غيرُ ماديَّةٍ وأنَّ بعثَ الأنفُسِ لا يكونُ ببَعثِ نفسِ هذه الأجسادِ التّرابيَّةِ وخلافاً للمفهومِ الموروثِ الّذي ورثناهُ عن المفسّرينَ القدماء .

فدليلي الأوّلُ على ذلكَ قولُ ربِّنا عزَّ وجلَّ في الآيةِ ٢٥ من سورةِ البقرة (**وبشّرِ الّذينَ آمنوا وعملوا الصّالحات أنَّ لهُم جنّات تجري من تحتِها الأنهارُ كُلَّما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رِزقاً قالوا هذا الّذي رُزِقنا من قبلُ وأُتوا بهِ مُتشابهاً ولهم فيها أزواجٌ مُطهَّرةٌ وهم فيها خالدون.**).

إنَّ اللّهَ تعالى يُخبرُنا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ ثمارَ الجنَّةِ مُختلِفةٌ عن الثمارِ المادّيةِ المعروفةِ وإن تشابهت في أشكالها من الثمارِ الدّنيويةِ.فإلى هذه الحقيقةِ وردت الإشارةُ في قولِهِ تعالى (**وأتوا بهِ مُتشابهاً**) وليسَ من نفسِ الماهيَّةِ المادّيةِ.فلو أنَّ أحداً أتانا بحجرٍ أبيضَ مصقولٍ وعلى شكلِ بيضةٍ وقالَ جئتُكم ببيضةٍ مُشابهةٍ فلن نفهمَ أنَّ ما جاءَ بهِ هو بيضةٌ حقيقيَّةٌ.وهذا المفهومُ يقتضي أن يكونَ بَعثُ اللّهِ تعالى للأنفُسِ في أجسادٍ هي من ماهيَّةٍ أخرى تصلُحُ لِحياةٍ أبديَّةٍ ولا يمسُّ صاحبها هناكَ نصبٌ ولا أمراضٌ ولا غيرها من فضلاتٍ وسواها المرتبطةِ بهذا العالمِ المادّي-راجع النّظريَّ القرآنيَّةص١٠٤ .

وعليهِ فإنَّ العالمَ المادّيَّ الّذي نحنُ فيهِ إنّما هو مجرَّدُ أداةٍ وهو إلى زوالٍ في يومٍ من الأيّام.

ودليلُنا الثاني يتجلّى من خلالِ قولِ ربِّنا عزَّ وجلَّ في الآية ١٥ من سورةِ محمَّد.فهو قال هناك (**مَثَلُ الجنَّةِ الّتي وُعِدَ المُتّقونَ فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يتغيَّر طَعمُهُ وأنهارٌ من خمرٍ لذَّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسلٍ**

مُصفّى).فكلمةُ (مَثلُ الجنَّة)يعني أنَّ أشياءَ الجنَّة الأخرويَّةِ ليست بأشياءَ ماديّة وإن أتت مِثلَها في أشكالها.

ودليلنا الثالثُ هو قولهُ تعالى في سورةِ الرّعد (**مَثلُ الجنَّةِ الّتي وُعِدَ المتّقون تجري من تحتها الأنهارُ أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها تلكَ عُقبى الّذين اتّقوا وعُقبى الكافرينَ النّار**).وهل يكونُ أُكلُ أشجار الجنَّةِ وظلُّها دائمٌ إن كانت نفس الأشجار المادّية المعروفة؟ فقولهُ تعالى هنا أيضاً (**مَثلُ الجنَّة**) فيهِ نفس الدّلالة الواردة في الآية السابقة.

وبعدَ أن فرغتُ من تقديمِ الأدلَّةِ التي يَثْبُتُ من خلالها أنَّ عالمَ الآخرة ليس هو من عالمِ المادّة الدّنيويَّة. أسعى الآن لِشرحِ آياتِ سورةِ الحاقّة وِفقَ مُعطياتِ الأصل الرّابع لِتفسيرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز والتّابع من إضافة صفتي (**الرّحمن الرّحيم**) في البسملة على (**بسمِ اللّه**).

ما فهمتُهُ من آيات سورة الحاقّة:

والآنَ وبعدَ هذا الشرحِ والتّبيينِ أعودُ إلى شرحِ تلكَ الآياتِ من سورةِ الحاقّة والمتعلّقة بعذابِ جهنَّم والّتي نقلتُ للقارئِ من قبلُ تفسيرَ ابنُ كثيرٍ والفخر الرّازي رحمهما اللّه لِتلكَ الآيات وبالمفهومِ الخاطئِ الّذي يتنافى ومُعطياتِ منهجيَّةِ القرآنِ الكريمِ وأُصولِ تفسيره.

أعودُ إلى قولهِ تعالى في تلكَ الآيات: (**وأمّا مَن أوتيَ كِتابهُ بشمالهِ فيقولُ يا ليتني لم أوتَ كتابيه.ولم أدرِ ما حسابيه.يا ليتها كانت القاضية.ما أغنى عنّيَ مالِيه.هلكَ عنّي سُلطانيه.خذوهُ فغُلّوهُ.ثمَّ الجحيمَ صلّوهُ.ثمَّ في سلسلةٍ ذَرعُها سبعونَ ذراعاً فاسلُكوه.إنَّهُ كانَ لا يؤمنُ باللّهِ العظيم.ولا يحضُّ على طعامِ المسكين.فليسَ لهُ اليومَ ههُنا حميمٌ.ولا طعامٌ إلاّ من غِسْلين. لا يأكُلُهُ إلاّ الخاطئون.فلا أُقسمُ بما تُبصِرونَ.ومالا تُبصرون.إنَّهُ لَقولُ رسولٍ**

كريم.وما هو يقولِ شاعرٍ قليلا ما تؤمنون).أعودُ لأفسّرها استناداً لهذا الأصلِ الرّابع وما ذكرناهُ من قبلٍ من أصول.

فإن نحنُ تدبَّرنا كُتلةَ الآيات الخمسة الأولى وهي قولهُ تعالى (**وأمّا من أوتيَ كتابهُ بشمالهِ فيقولُ يا ليتني لَم أوتَ كتابيَه.ولَم أدرِ ما حسابيَه.ا ليتها كانت القاضية.ما أغنى عنّي ماليَه.هلكَ عنّي سُلطانيه.**).نُلاحظُ أنَّ هذه الآياتِ الخمسة قد صوَّرَت لنا بتصويرٍ فنّيٍّ وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ وجدٌّ مُختصرة حالَ هذا الإنسانَ الجهنَّميّ خلالَ لَحظات بعثهِ من مَرقدِه.

ذلكَ أنَّ آثارَ أعمالِ هذا الكافرِ النّاريَّة وصفاتَهُ الّتي اتّصفَ بها في دُنيـاه: من غرورٍ بنفسهِ إلى استكبارٍ على سواهُ وغيرها من صفات مُنكرة.قد بدتْ لـهُ هذه الآثارُ النّاريَّةُ على شكلِ كِتاب دوَّنهُ طائرُهُ الّذي كانَّ ربُّما قد ألزمهُ عُنُقَهُ لأداء هذه الغاية.وبألفاظ أُخرى فإنَّ هذه الآيات الكريمة المشارُ إليها قد أشعرتنا بأنَّ آثارَ أَعمالِ هذا الكافر النّاريَّة والتي كانت خافيةً عن أعيُنهِ في حياتهِ الدّنيـا عادت واضحةَ الظّهورِ لِعينيه.لذلكَ راحَ يتأسّى ويألَمُ على ما فاتهُ من سُلطان وثروةٍ ماليَّة. ويتمنّى في الوقتِ نفسهِ لو أنَّ موتهُ كانَ (**القاضية**)أي لو كانت خاتمةً تلكَ الحياة الأولى.خصوصاً وأنَّهُ لم يُفاجئهُ نشرُ مضمون هذا الكتاب الّذي ذكَّرهُ بجميعِ ما عملهُ من قبلُ وما اتَّصفَ بهِ من صفات.وبذلكَ يكونُ اللّهُ تعالى قد أعطانا من خلالِ هذه المجموعة الأولى من الآياتِ الكريمة فكرةً واضحةً وبتصويرٍ فنّيٍّ رائعٍ قد صوَّرت حالِ النّاسِ الجهنَّميّين بعدَ بعثِهم من قُبورهم يوم البعثِ الأكبر.

لذلكَ ننتقلُ لُملاحظةِ المجموعة الثانية من تلكَ الآياتِ الكريمة الّتي أوردناها. ولنتدبَّرها ونحنُ نُراعي ما فهمناهُ من مُعطياتِ الأصلِ الرّابعِ للتّفسير.فقد قالَ اللّهُ تعالى في هذه المجموعةِ الثانية المؤلَّفة من ثلاثةِ آياتٍ كريمة

تضمَّنها قولهُ تعالى (**خذوهُ فغُلّوهُ.ثمَّ الجحيمَ صلّوهُ.ثمَّ في سلسلةٍ ذرعُها سبعونَ ذراعاً فاسلكوه**).

فالأصلُ الثاني من أصولِ التّفسيرِ يُطالبُنا أن نُراجعَ معاجمَ اللُّغةِ العربيَّة بشأن مُفردات وألفاظ هذه الآيات الثلاثة المذكورة.فنتساءلُ عن معنى (**خُذوهُ**)؟ فأَنتَ تقولُ أخذهُ بذنبهِ والمعنى عاقبهُ عليه.أمّا إذا قُلتَ أخذتُ الشيء فمعناهُ تناولتُهُ(محيط المحيط).وما دامَ اللّهَ تعالى قد أمرَ ملائكتهُ في هذه الآيات الكريمة وقالَ(**خذوه**)فقد قصدَ من أمرهِ المذكور أن عاقبوا الإنسانَ الّذي أوتيَ كِتابهُ بِشمالهِ وِفقاً لِجرائمهِ الواردةِ في هذا الكتاب.فهذا هو معنى فعل الأمر (**خذوه**) ووِفقاً لِما وردَ في المعجم.

أمّا فعل الأمر (**فغُلّوه**). فبالعودةِ إلى مِعجم اللُّغة (محيط المحيط) يتبيَّنُ لنا أنَّ لكلمةِ (**غلّ**)ليسَ معنىً واحداً ولكن ثلاثةَ معاني:

فالمعنى الأوّل:أنّكَ إذا قُلتَ غلَّهُ في الشيء معناهُ أدخلهُ فيه.كما تقولُ غلَّ الدُّهنَ في رأسه ومعناهُ أنَّهُ أدخلهُ في أصولِ شعره.فإن قُلتَ: غلَلتُ فُلاناً تعني أنَّكَ وضعتُ الغُلَّ في يديهِ أو حولَ عُنُقِه. والغُلُّ هو طَوقٌ من حديد.وقد استعمل القرآنُ المجيدُ هذا المعنى في الآية ٦٤ من سورةِ المائدة وبما يتعلّقُ بأهلِ الكتاب حيثُ قالَ اللّهُ تعالى (**وقالتِ اليهودُ يدُ اللّهِ مغلولةٌ غُلَّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداهُ مبسوطتينِ يُنفِقُ كيفَ يشاء ولَيزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ طُغياناً وكُفراً وألقينا بينهمُ العداوةَ والبغضاءَ إلى يومِ القيامة كلّما أوقدوا ناراً للحربِ أطفأها اللّهُ ويسعَونَ في الأرضِ فساداً واللّهُ لا يُحبُّ المُفسدين**).وإنَّ هذا المعنى هو الّذي أخذَ بهِ المفسّرونَ القدماء رحمهمُ اللّه وعلى حسب ما لاحظناهُ فيما نقلتُهُ من تفاسيرِهم.وهو معنى لا يتَّفقُ معَ مُعطياتِ البحثِ الّذي قمتُ بهِ في هذا الموضوع.حيثُ أوضحتُ هناكَ بأنَّ

كلمةَ (النّار) الواردة في الآياتِ من هذا الكتاب العزيز لم يكن المقصود بها هـذه النّارَ الحقيقيَّةَ الّتي تَحرِقُ وتُضيء.

والمعنى الثاني لكلمة(**غلّ**)تقولُ غلَّ الرّجُلُ غُلولاً فمعناهُ خـان.أو هـو خاصٌ بالفيء بمعنى أنَّهُ حصلَ على شيءٍ من مَغنم.وهذا المعنى الثـاني يتنـافى وتسلسُل الآيات الموضوعيّ.لذلكَ لا يؤخذُ بِهِ.فلا محلَّ لِمعنى الخيانةِ في الآيـات من سورةِ الحاقّة.على حين استعملَ القرآنُ المجيدُ كلمةَ (**غلّ**) بمعنى الخيانة وذلكَ في الآية١٦١ من سورةِ آلِ عِمران الّتي قالَ اللّهُ تعالى فيها(**وما كانَ لِنبيٍّ أن يَغُلَّ ومن يغلُل يأتِ بما غلَّ يومَ القيامة ثمَّ تُوفّى كلُّ نفسٍ ما كسـبت وهـم لا يُظلمون**).

والمعنى الثالث يتّضحُ لنا إذا قُلنا غُلَّ الرّجلُ غُلاً وغلالةً على المجـهول فمعناهُ عطِشَ واشتدَّ عطشُه.وإذا قُلتَ أغلَّ الرّاعي الإبلَ فمعناهُ أنَّهُ أساءَ سـقيَها فلم تُروَ ولم يذهب عطشُها.وبعيرٌ غالٌّ معناهُ أنَّهُ عطشان وشديد العطش.وعليـهِ فالغُلُّ يُفيدُ معنى العطش أيضاً أو شدَّةُ العطش. أو حرارةَ الجوف.والغُلَّةُ أيضـاً تعني العطشَ أو شدّةُ العطش.أو حرارةُ الجوف.وفي رأيي فإنَّ هذا المعنى كانَ هو المقصودُ من قولِهِ تعالى (خذوهُ فغُلّوه).وعلى اعتبارِ أنَّ للأعمـال والصّفـات السيّئة الّتي هي من قبيلِ مَعصية اللّهِ عزَّ وجلَّ آثارها النّاريَّةِ الّتي تَترُكُها في بـاطنِ الإنسانِ الصادرةِ عنهُ وعلى حسبِ ما سبقَ لنا أن وضّحناه.وقد استعملَ القرآنُ المجيدُ هذا المعنى نفسهُ في الآية ٤٧ من سورةِ الحجر والّتي رحَ اللّهُ تعالى يصـفُ فيها حالَ أهلِ الجنّةِ المُطهَّرينَ من آثارِ الأعمال والصفات النّاريَّة الّتي يعملُـها أهلُ جهنّم فقال (**ونزَعنا ما في صُدورِهم من غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتقابلين.لا يَمسُّهم فيها نَصَبٌ وما هم منها بِمُخرَجين**). فها أنَّ اللّهَ تعالى قالَ في هذه الآيةِ الكريمة (**ونزعنا ما في صدورهم من غلّ**) وهو عكسُ معنى (**فغلّوه**).

وعليهِ فإنَّ المفسّرينَ القدماء وقد فسّروا قولهُ تعالى(**خذوهُ فغلّوهُ**)بمعنى تناولوهُ وألقوهُ في نارِ جهنّم فما أصابوا المعنى المقصود.فليستِ المسألةُ مسألةَ إمساكٍ وإلقاءٍ في مكانٍ مُعيَّنٍ هو الجحيم.بل المقصودُ في هذا المقام هو المعنى الثّالثُ لكلمةِ (**غلّ**)وكما ذكرناه.فاللّهُ جلَّ شأنهُ يأمرُ ملائكتهُ يومَ الحشرِ الأكبرِ أن يَغُلّوا هذا الإنسان العاصي بمعنى أن يُسعِّروا ما في جوفهِ ما في تركيبهِ الباطن من آثارٍ ناريَّةٍ تركتها أعمالُهُ وصفاتهُ السيّئة فيه.والّتي تراكمت هناكَ على مدى سنيِّ عُمُره.ووفقاً للكتابِ الّذي يلقاهُ عند بعْثهِ من مَرقدِهِ والّذي يلقاهُ منشوراً.

وإنّنا إذ نأخذُ بهذا المعنى لقولهِ تعالى (**خذوهُ فغلّوه**) في هذا المقام.نكونُ قد راعَينا:

أوّلاً- وُجودَ فاءِ الاستئناف المُستهلّ بها كلمةُ (**فغلّوه**).فلو كانَ الأمرُ يتعلّقُ بأخذِ الكافرِ وإلقاؤهُ في مكان غيرَ المكان الّذي كانَ واقفاً عليه.فما كانَ من ضرورةٍ لفاءِ الاستئناف هنا.بل كانت الضرّورة تقتضي إيرادَ واو العطف ليعطفَ تعالى عمليَّةَ الأخذِ على عمليَّةِ الإلقاءِ في نارِ جهنّم وبالتّرتيب.

ثانياً-كذلكَ راعينا مُعطيات البحثِ الّذي قُمنا بهِ فيما يتعلّقُ بجهنَّمَ والجهنَّميّين.وهو بحثٌ أعطيتُ فيما سبقَ هذا القارئَ فكرةً موجزةً عنه.

ثالثاً-وقد برزت حينَ أخذنا بهذا المعنى الثالث لكلمةِ (**غُلّ**) مِصداقيَّةُ هذا الأصلِ الرّابع للتّفسير الّذي تضمَّنتهُ البسملة.وثبتَ بالتّالي صِدقُ قولِ اللّهِ تعالى (**وما ظلمناهم ولكن كانوا يظلمون**) أي كانوا يظلمونَ أنفُسهم من جرّاءِ كُفرهم وعصيانهم وارتكابهم السيّئات الّتي كانت تترُكُ هذه الآثار النّاريَّةَ في فطرتهم الباطنة.والتي كانت خافيةً في الحياة الدّنيا وغُلّت فظهرت في الحياةِ الآخرة.

رابعاً-وإنَّ ما يؤكّدُ صحَّةَ المعنى الّذي ذهبتُ إليهِ آنفاً لقولهِ تعالى(**خذوهُ فغلّوه**).هو أنَّ اللّهَ تعالى أتى بعد ذلكَ بحرفِ(**ثمّ**)الّذي يُفيدُ التّرتيب وأضافَ يقول (**ثمّ في سلسلةٍ ذرعُها سبعونَ ذراعاً فاسلكوه**)

والّذي تبادرَ لأذهانِ المفسّرينَ القدماء واستناداً للمعنى الّذي ذهبوا إليـــهِ خطـــأً حينَ فسّروا قولهُ تعالى (**خذوهُ فغلّوهُ**).فقد تبادرَ لأذهانهم رحمهم اللّه وُجـــود سلسلة من الحديدِ كلُّ حلقةٍ منها بوزنِ حديدِ الكرةِ الأرضيَّة وأنَّ اللّهَ تعـــالى يأمرُ ملائكتهُ أن يسلكوا الكُفّارَ فيها كما تُسلكُ العصافيرُ في سيخٍ واحد.فالمعنى المادّيّ الأوَّل الّذي أخذوا بهِ قد جرَّ هذا المعنى المادّيّ الثاني بصورةٍ طبيعيَّة.

أمّا وقد أخذنا بالمعنى الّذي وضّحتُهُ آنفاً.والّذي لا يمتُّ للمادَّة بصلةٍ من الصّلات.فيعودُ معنى قولهِ تعالى (**ثمَّ في سلسلةٍ ذرعُها سبعونَ ذراعاً فاسـلكوه**) أنَّ العدد (**سبعون**) فيه لا يُقصدُ بهِ عددُ حلقات سلسلةٍ مادّيّةٍ بل يُقصدُ بهِ عدد سنيِّ عمرِ هذا الكافر.والمعلوم هو أنَّ مُتوسّطَ أعمارِ النّـــاس في الحيـــاة الدّنيـــا بصورةٍ عامّةٍ يدورُ حولَ رقم (سبعون)المذكور في هذه الآيةِ الكريمة وساعدَ على تبنّي هذا المعنى فاءُ الاستئناف في كلمةِ (**فاسلكوهُ**) أيضاً.

ثمَّ إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ عندما قال (**والجحيمَ صلّوه**) فليسَ معنى ذلـــكَ أنَّ اللّهَ تعالى قد أمرَ من خلالِ قولهِ(**صلّوهُ**)أن اشووهُ على النّار.فهذا المعنى يُخـالفُ ما وردَ في مِعجم (محيط المحيط) الّذي قال: صَلِيَ الرَّجلُ النّارَ معناهُ قاسى حرَّهـا واحترقَ بها ودخلَ فيها.

لكنَّهُ تعالى قالَ هنا (**والجحيمَ صلّوه**) وقد علمنا بأنَّ كلمةَ الجحيم تعـني النّارَ شديدةَ التّأجُّج. وليصبحَ المعنى أنَّكم بعدَ أن تُسعِّروا آثارَ أعمالـــهِ النّاريَّـــة دعوهُ يُقاسي ويتلظّى بسعيرِ تلكَ النّيران الّتي تراكمت في صدرهِ حوالي ســـبعينَ عاماً .وعلى هذه الصّورة نكونُ قد فهمنا معاني آياتِ هذه المجموعةِ الثّانيةِ الّـــتي قال تعالى فيها (**خذوهُ فغلّوهُ.ثمَّ الجحيمَ صلّوه.ثمَّ في سلسلةٍ ذرعُها ســـبعونَ ذراعاً فاسلكوه**)أقول: نكونُ قد فهمنا معاني هذه الآياتِ بما لا يتنافى وصفـــتي اللّهِ تعالى (**الرّحمان الرّحيم**).

ألا إنَّ هذه الآيات الكريمة قد وردت مُصاغةً صياغةً بلاغيّـــةً مُعجـــزةً .وبتصويرٍ فنّيٍّ رائعٍ بحيثُ يتبادرُ منها غيرَ المقصودِ منها.وهذا هو السـببُ في أنَّ اللّهَ تعالى طلبَ من المؤمنينَ وغيرهم أن يتدبَّروا آيات هذا الكتــــاب المقــدّس والمبارك.وليسَ أن يفهموهُ بما يتبادرُ منهُ إلى أذهانهم.خصوصاً وأنَّهُ جلَّ شأنهُ قد صاغَ هذا القرآنَ وفقَ مَنهجيَّةٍ وأصولِ تفسيرٍ.

ونتتقلَ الآنَ لِنتدبَّرَ آيات المجموعةِ الثالثة الّتي قالَ تعالى فيها: (**إنَّهُ كانَ لا يؤمنُ باللهِ العظيم. ولا يحضُّ على طعامِ المسكين.فليسَ لهُ اليومَ ههنا حميــــمٌ. ولا طعامٌ إلاّ من غِسلين لا يأكُلُهُ إلاّ الخاطئون**).

فصفةَ(**العظيم**) تُستعملَ في مُقابلِ حقير.وإنَّ تعريفَ هذه الكلمة بالألفِ واللّام فللاستغراق في دلالتها.ثمَّ إنَّ فعلَ (**يحضُّ**)فهو اشتقَّ من قولكَ حضَّ فلانٌ فلاناً على إطعامِ المساكين معناهُ أنَّهُ حثَّهُ على إطعامِ المساكينِ وأحماهُ عليــــهِ أي جعلَ في فؤادهِ حميَّةً للقيامِ بهذا العملِ الحسن.ثمَّ إنَّ كلمةَ (**حميمٌ**) لها عدّةُ معاني:

فالمعنى الأوّل يُقصدُ بِهِ القريبُ والصّديقُ الّذي يهتمُّ بأمره.

والمعنى الثاني يُقصدُ بِهِ الماءُ الحارُّ والبارد فهو ضدٌّ جمعهُ حمائم.

والمعنى الثالث لكلمةِ (حميم)القيظُ والمطرُ الّذي يأتي بعدَ اشتدادِ الحـــــرّ والعرق.

ثمَّ إنَّ كلمةَ (**غِسْلين**) فلها عدّةُ معاني أيضاً:

فالمعنى الأوّل لكلمة (غسلّين)يعني ما يُغسلُ من الثوب أو نحوه.

والمعنى الثاني لهذه الكلمة هو كلُّ ما خرجَ من جرحٍ أو دَبَــرٍ وقمـــتَ بغسله.

والمعنى الثالث هو ما يسيلُ من جلودِ أهلِ النّار ولُحومهم ودمائهم.

والمعنى الرّابع لكلمةَ (**غسلين**) يفيدُ الحرَّ الشديد.

والمعنى الخامس هو شجرٌ في جهنَّم.

وأمّا كلمةُ (**الخاطئون**) فمفردها خاطئ ومعناهُ من تعمَّدَ فعل لِما لا ينبغي فِعلُه (محيط المحيط).

واستناداً إلى هذه المعاني يصبحُ معنى قولهُ تعالى (**إنَّهُ كانَ لا يؤمنُ باللَّهِ العظيم.ولا يحضُّ على طعامِ المسكين.فليسَ لهُ اليومَ ههنا حميم**).أنَّ الأسبابَ الرّئيسيَّةَ الّتي أوصلت هذا الإنسانَ الّذي أوتيَ كتابهُ بشمالهِ إلى هذا المصيرِ المشؤوم.هو أنَّهُ:

أوّلاً– كانَ لا يستعملُ عقلهُ استعمالاً صحيحاً ولا يتفكّر في عظمةِ السماوات والأرض وما فيهما والدّالتينِ على وُجودِ اللّهِ (**العظيم**) الّذي تنبُعُ عظمتُهُ من عظمةِ هذا الكونِ العظيم المخلوق فهذا هو معنى (**إنَّهُ كانَ لا يؤمنُ باللّهِ العظيم**).فصفةُ (**العظيم**) الّتي اقترنت باسمِ الجلالة (**اللّه**) هي الّتي أفادت المعنى المذكور.والسببُ الرّئيسيُّ الثاني الّذي تسبَّبَ لهذا الإنسان الجهنّميّ بالمصيرِ المشؤوم سالف الذّكر. أنهُ كانَ لا يهمُّهُ في الحياة الدّنيا إلاّ نفسهُ.فلم يكن يتحسَّسُ حاجاتِ المساكينِ الّذينَ لهم في الأصلِ نصيبٌ ممّا سخَّرهُ الخالقُ للنّاسِ جميعاً من أشياءِ هذا العالم المادّي.وبمعنى أنَّ هذا الكافر كانَ يحيا حياةَ أنانيَّةٍ بين بني جنسه.فما كانَ يُفكّرُ فيما لسواهُ من الأفرادِ المساكينِ من حقوق فيما يستفيدُ منهُ ذاتيّاً.بل وكانَ لا يحضُّ سواهُ على تفقُّدِ حالِ هؤلاءِ المساكين.

هذا ولمّا كانَ لكلِّ شيءٍ نتائجهُ القريبةُ والبعيدةُ.فإنَّ هذا الإنسانَ الجهنَّميَّ فقدَ محبَّةَ المساكينِ في حياتهِ الدّنيا ومحبَّةَ ربِّهِ وخالقهِ الّذي سخَّرَ للنّاسِ قاطبةً ما في الأرضِ جميعاً منه.فلمّا بُعِثَهُ ربُّهُ من مَرقده يومَ القيامة (**فليسَ لهُ اليومَ ههُنا حميمٌ**).أي أنَّهُ لم يبقَ لهُ ههنا ويقصد يوم القيامة أيُّ جهةٍ تعطفُ عليهِ وتُساعدهُ للأسبابِ سالفةِ الذكر.

فهذا الإنسانَ الأنانيّ الّذي تلهّى بمأكلِهِ ومشربِهِ في حياتهِ الدّنيا ولم يستعمل عقلهُ ولم يفكّر في خلقِ السماواتِ والأرضِ ولم يُعظّم خالقها.وفقدَ

محبَّةَ الخالقِ والنّاسِ أيضاً.فبماذا سيتلهّى في حياتهِ الآخرةِ الّتي غُلّت آثارُ أعمالـــهِ فيها وتأجّجت سعيراً ؟ أجابَنا اللّهُ تعالى على هذا السؤال وأضافَ يقـــول **(ولا طعامٌ إلاّ من غِسْلين)**.والمعنى أنَّ طعامهُ في الآخرةِ هو هذا الحرُّ الشديدُ الّـــذي راحَ يُعاني منهُ من أسىً على ما فرَّطَ بهِ في جنبِ ربِّهِ في حياتهِ الدّنيويّة.وقد بلـغَ بهِ هذا الأسف ليقولَ **(يا ليتها كانت القاضية)** فهذا الحرُّ الشديدُ سيكونُ نتيجةً طبيعيَّةً لِحُرقةِ قلبهِ وبسببِ ما تراكمَ من أفعالِهِ وصفاتهِ السّـــيئةِ الّـــتي عملـــها واتّصفَ بها طوالَ عُمُره.

فنحنُ ومُراعاةً لمُعطيات بحثِنا الّذي أجريناهُ على موضوعِ نـــارِ جـــهنَّمَ وأهلِ النّارِ من قبلُ. ومُراعاةً لِمُعطياتِ الأصلِ الرّابعِ للتّفسيرِ الّذي أفادتنا بـــهِ الصّفتان المُضافتانِ على اسمِ الجلالة **(اللّه)** في البسملة.فإنّنا راعينا ذلـــكَ كلّـــهِ وأخذنا لكلمةِ **(غسْلين)** في هذه الآيةِ الكريمةِ معنى **الحـــرّ الشـــديد** وبذلـــك ارتبطت معاني هذه المجموعةِ من الآياتِ ارتباطاً موضوعيّاً واضحَ الأبعاد.وتبيَّـــنَ بالتّالي خطأ أجدادنا من المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّه الّذينَ لم يطّلعـــوا علـــى أُصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن الّذي هو **(في كتـــابٍ مكنـــونٍ لا يمسّـــهُ إلاّ المطهرون)**.

ولْنُلاحظ كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى أردفَ بعدَ هذه الآيةِ الكريمةِ يقول بحـــقِّ الجهنَّميّين **(لا يأكلُهُ إلاّ الخاطئون)**.فحرفُ **(لا)** هذه ليست جازمة. فلو كـانت جازمة لَكانت جَزمت الفعل المضارع **(يأكلُهُ)**.وما دامت **(لا)** غيرُ جازمة فهي نافية.ويعودُ معنى قوله تعالى **(لا يأكلُهُ إلاّ الخاطئون)** أنَّ هذه الحُرقة والأســـى وحرّها الشديدُ لا يستطيعُ أن يحتملهُ إلاّ **(الخاطئون)** وبسبَبِ كتابهم الّذي أوتوهُ في شمالهم والّذي ذكّرهم بأعمالهم وصفاهم الخاطئة الّتي عملوها واتّصفوا بهـا في حياهم الدنيويّة.

وعليهِ فقد تبدَّلت معاني هذه المجموعةِ من الآياتِ الكريمةِ الثالثة الّتي قـال تعالى فيها (**إنَّهُ كانَ لا يؤمنُ باللَّهِ العظيمِ. ولا يَحُضُّ على طعامِ المسكينِ.فليسَ لهُ اليومَ ههُنا حميمٌ. ولا طعامٌ إلاّ من غِسْلين.لا يأكُلُهُ إلاّ الخاطئون**).وتبيَّنَ من خلالِ هذه المُعطياتِ الجديدةِ خطأ التّفاسيرِ القديمةِ.تلكَ التّفاسير الّتي لم تُراعـي الأصلَ الرّابعَ لِتفسيرِ آياتِ هذا القرآنِ المجيد ولا غيرهُ من أصول.وتسبَّبت بالتّالي بإساءةِ سُمعةِ اللَّهِ تعالى (**الرّحمان الرّحيم**) وكتابهِ العزيز.

ولنلاحظ أيضاً كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى قد راحَ يؤكِّدُ المعنى الّذي بيَّنّاه آنفـاً والمتعلّق بآثارِ أعمالِ وصفاتِ الإنسان النّاريَّة الخفيَّة عن أعيُنِ أصحابها وعلـى أنَّها حقيقةٌ ثابتةٌ لا غُبارَ عليها.فهو تعالى وبعدَ أن فرغَ من الكلامِ عـن حـالِ الّذينَ يؤتَونَ كتابهم بشمالهم يومَ القيامة فقد قال (**فلا أُقسمُ بما تُبصِرون.وما لا تُبصرونَ.إنَّهُ لَقولُ رسولٍ كريم.وما هو بقولِ شاعرٍ قليلاً مـا تؤمنون**).

فإن أقسمَ اللَّهُ تعالى يُقسمُ بما خلقهُ وأبدعه ويقدِّمهُ شهادةً على ما يريدُ إثباته.وما دامَ اللَّهُ تعالى قد أقسمَ بما نُبصِرُه وبما لا نُبصِرُه.يكونُ قد أشـار إلى هذه الآثارِ النّاريَّة الخفيَّة الّتي تتركها أعمالُ الإنسان وصفاتهُ السيّئة في جبلّتـهِ الباطنة والّتي لا نُبصرُها.وقدَّمها للإنسان الّذي يُنكِرُ وُجودَ الآخرةَ ويومَ البعـثِ الأكبرِ الّذي ستظهرُ فيهِ هذه الآثارُ الخفيَّةُ على شكلِ كتاب منشورٍ في شمـالِ الكافرِ الّذي لا يؤمنُ باللَّهِ العظيمِ ولا يحضُّ على طعامِ المسكين.

ولنُلاحظ كيفَ أنَّ اللَّهَ تعالى أتى بعدَ ذلكَ بحرفِ التّأكيد (**إنَّ**) وقال(**إنَّهُ لَقولُ رسولٍ كريم**)

فاستعملَ جلَّ شأنهُ كلمةَ (**قولُ**).وإنَّ لهذه الكلمةِ أكثرَ من معنى:

المعنى الأوّل هو الكلامُ أو كلُّ لفظٍ مَذَلَ بهِ اللّسان تامّاً أو ناقصاً.

المعنى الثاني ويطلقُ القولُ على الآراءِ والمُعتقَدات.فيُقالُ هذا قـــولُ أبي حنيفة أو قولُ الشافعي **والمعنى الثالث** إذ استُعملَ القولُ بمعنى الظّـــنّ فيعملُ عملهُ بشروط (محيط المحيط).

والّذي أراهُ هو أنّ اللَّهَ تعالى استعملَ كلمةَ(**القولُ**)في هذه الآيةِ الكريمــةِ بمعنى الرّأيِ والاعتقاد وليُصبحَ معنى قولهُ تعالى (**وإنَّهُ لَقولُ رسول كــريم**) أنّ هذه الحقيقةَ الّتي وضّحها اللّهُ تعالى بما يتعلّقُ بالآثار النّاريّةِ الخفيّةِ الّتي تترُكــها أعمالُ الخاطئ إنّما هي بسبَب معتقدات الكافر الّتي اعتقدَها وخلافاً لِمُعتقــدات هذا الرّسولُ الكريمُ المعطاءِ لِجميعِ ما أنزلهُ ربُّهُ وكشفهُ عليهِ من حقائقِ عــالَمِ الغيبِ الّذي تلقّى أمرَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ لِيعتقدها وليؤمن بها كلُّ مَن صدَّقهُ وكــانَ ممّن يؤمنونَ بالغيب وإشارةً إلى الآية التي تفرضُ على المؤمنُ ذلكَ قولهُ تعــالى (**الّذينَ يؤمنونَ بالغيب**).

ثمَّ إنَّ اللَّهَ تعالى قالَ بعدَ ذلك (**وما هــو بقــولِ شــاعرٍ قليــلاً مــا تؤمنون**).وبمعنى أنَّ اعتقادَ هذا الرّسول الكريم مــا هــو مــن قبيــلِ اعتقــادِ (**شاعرٍ**).فليسَ المقصودُ هنا بكلمةِ (**شاعرٍ**) الشاعر المعــروف في الاصطــلاحِ الأدبيِّ.بل استُعملت هذه الكلمةُ هنا بدلالَتِها اللُّغويَّة وقد حُذِفَ مُضافها لِعلّــةٍ بلاغيَّةٍ. فالأصلُ أن يُقال وما هو بقولِ شاعرٍ بهذه الحقيقة ولا يملكُ دليلاً علــى إثباتها.فالشاعر هنا من الشعور الّذي يعني إدراكاً من غيرِ إثبات وكأنّــهُ إدراكٌ مُتزلزلٌ.فأنتَ تقولُ: شعرَ بهِ معناهُ علِمَ بهِ وفطِنَ لهُ وعقَلَهُ وأحسَّ بــه (محيــط المحيط).

وعليهِ فإنَّ قولهُ تعالى (**وما هو بقولِ شاعرٍ**) يُلفِتُ اللّهُ تعالى من خلالــهِ نظرَ القارئ ويحذّرهُ من أن يذهبَ ذهنُهُ إلى أنَّ ما وضّحتهُ الآياتُ السابقة مــن حقائقَ لربّما أتى بها رسولهُ الكريم من غيرِ إدراك ولا شعوروبدون دليل.بل هي عقائدُ ثابتةٌ ومُقامٌ عليها دليلٌ وبرهان.لذلكَ أنهى اللّهُ تعالى هذه الآيــة بقولــهِ

تعالى(**قليلاً ما تؤمنون**).أي أنَّ النّاسَ حينَ يؤمنونَ بالمادَّة وقوانينها.لا يكونونَ آمنوا بكلِّ شيءٍ في هذا العالم.بل يكونونَ قد آمنوا بالقليلِ من حقائقه.فللخفيِّ من الحقائقِ في هذا الكون هو أكثرُ بكثيرٍ ممّا يعلمونه منها.لذلكَ جعلَ اللَّهُ تعالى من شروطِ إيمانِ كلِّ من يُريدُ أن يكونَ مُسلماً أن يؤمنَ بوجود هذا الغيب الخفيِّ عن الأنظار.

ولقد أضافَ اللَّهُ تعالى بعد ذلكَ يقول (**ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرون**).فنفى أيضاً أن

يكونَ اعتقادُ محمَّدٍ الرّسولُ الكريمُ المشارُ إليهِ من قبيلِ الكهانة.فكلمةُ(**كاهن**)تعني الإنسانَ الّذي يُخبرُ عمّا سيكونُ في المُستقبلِ ويدَّعي علمَ معرفةِ الأسرار ومُطالعةَ علمِ الغيب(محيط المحيط).وقد أنهى تعالى هذه الآية الكريمة بقولهِ تعالى (**قليلاً ما تذكَّرون**) أي أنَّهُ تعالى يأسفُ على هذا الإنسان الّذي يُطلِعهُ ربُّهُ على هذه الحقائقَ الثابتة ومن ثمَّ لا يحفظُها في ذهنهِ لِتدفعَهُ إلى الإيمان باللَّهِ عالمِ الغيبِ ولِيصونَ نفسهُ من العذاب.بل يُقدِمُ على مَعصيةِ ربِّهِ ويُخالفُ أوامرهُ وبالتّالي يصيرُ مصيرهُ في الآخرةِ إلى هذا المصيرِ الّذي وضّحناه.فهذا هو معنى قولهِ تعالى (**قليلاً ما تذكَّرون**).

والّذي نُلاحظهُ هو أنَّ اللَّهَ تعالى وبعدَ أن قامَ بهذا النّفيِ سالفِ الذّكر الّذي يمثّلُ النّاحيةَ السلبيّةَ لهذا الموضوع.فقد راحَ يُبيِّنُ النّاحيةَ الإيجابيَّةَ لها وقال (**تنزيلٌ من ربِّ العالمين**).

إنَّ كلمةَ (تنزيلٌ) هي خبر لمُبتدأ محذوف تقديرُهُ أنَّ هذا الاعتقاد الّذي اعتقدهُ محمَّدٌ (ص)هو تنزيلٌ وليسَ مجرَّدُ شعورٍ لا دليلَ يُثبتهُ ولا هو كهانةٌ اطّلعت على علم أسرارِ هذا الكون.وقد قدَّمَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ بعدَ ذلكَ دليلاً استقرائيّاً علميّاً ليُثبتَ من خلالهِ مِصداقيَّةَ ما ادّعاهُ.فعبَّرَ تعالى عنهُ بقولهِ جلَّ شأنه (**من ربِّ العالمين**).

فحرف (**من**) يدُلُّ على نُقطةِ الابتداء.وقد استُعملَ في هذا المقامِ لِيُفيدَ التّعليل.وكلمةُ (**ربّ**) تعني الّذي يُطوِّرُ الشيءَ حالاً بعدَ حالٍ إلى أن يصلَ بهِ مرتبةَ التّمام (أقرب الموارد) وكلمةُ العالمين تشملُ دلالتها مُختلفَ العوالِم الّتي ينطوي عليها هذا الكونُ من حولنا إنساناً كانَ أو حيواناً كانَ أو نباتاً وغيرهم (محيط المحيط).

وبذلكَ يكونُ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد علّلَ ما ذكرهُ من حقيقةٍ سالفةِ الذّكر ونبَّهَ ذهنَ القارئ من خلال قولهِ تعالى (**تنزيلٌ من ربِّ العالمين**) إلى أنَّ خالقَ هذا الكون قد أبدعَ هذا الكونَ وفقَ قانون التطوّر والارتقاء الّذي يعملُ في جميعِ جوانبه.وأنَّ هذا الإنسانَ يخضعُ لهذا القانون أيضا.فخالقُهُ جعلَ هذا الإنسانَ يمرُّ من عوالِمَ ثلاثة لِيبلُغَ المرحلة النهائيَّة الّتي خلقهُ من أجلِ الوصولِ إليها.وهذه الحقيقةُ اقتضت سنَّ هذا القانونِ المتعلّق بآثارِ أعمالهِ النّاريَّة.ومن أجلِ أن يلقى من خلالها جزاءَ كفره بوجودِ خالقهِ ومعصيتهِ لأوامره عزَّ وجلَّ.فهذا دليلٌ كونيٌّ استقرائيٌّ قدَّمَهُ اللّهُ جلَّ شأنهُ مُصاغاً هذه الصّياغةِ البلاغيَّةِ المُعجزةِ والّتي تضمَّنها قولهُ تعالى (**تنزيلٌ من ربِّ العالمين**).

وقد أتى اللّهُ جلَّ شأنهُ بعد ذلكَ بمجموعةٍ من الآياتِ يُظهرُ تعالى من خلالِها عظمتهُ فقال: (**ولو تقوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل.لأخذنا منهُ باليمين.ثمَّ لَقطعنا منهُ الوَتين.فما منكم من أحدٍ عنهُ حاجزين**).ولا حاجةَ بي في هذه المناسبةِ إلى التّوسُّعِ في تفسيرِ هذه الآيات أكثرَ ممّا بيَّنتُهُ من معانيها ومن معاني الآياتِ السابقة ومن باب أنَّ الّذي يُمعنُ نظرهُ في كلِّ ما وضَّحتُهُ لهُ فكفيهِ على قدرِ علمي واجتهادي، يكفيهِ لِيقتنعَ بما أردتُ إقناعهُ به.وهو أنَّ صفتي (الرّحمان الرّحيم) المُضافتينِ إلى (بسمِ اللّه) تحملان في حقيقةِ أمرهما الأصلَ الرّابعَ من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن المجيد.وإنَّ من واجبِ كلِّ من يتدبَّر آيات أيَّةِ

سورة كانت من واجبهِ مُراعاة هذا الأصلَ الرّابعَ للتّفسير.فإن لم يفعل يزيغُ عقلُهُ عن المعاني الحقيقيَّةِ المقصودة من مضامين تلكَ الآيات الكريمة.

سورة الفاتحة وعذابُ الآخرة:

وقد يسألُني القارئ بعدَ الّذي ذكرناه واطّلعَ عليه: إنَّكَ كُنتَ قد أثبتَّ لنا من قبلُ اشتمال سورة الفاتحةَ على موضوعِ وحدانيَّةِ اللّهِ عزَّ وجلّ.وبيَّنتَ لنا كيفَ اختُصِرَ موضوعُ الوحدانيَّةِ فيها. فهل بإمكانكَ أن تُرينا كيفَ اختُصِرَ موضوعُ عذاب الآخرةِ بدورهِ في فاتحةِ الكتاب المشار إليها وبما يتَّفقُ معَ مُعطيات هذا الأصل الرّابعِ للتّفسير؟؟

فأجيبُ وأقول: ألم تلاحظ يا عزيزي القارئ كيفَ أنَّ آيات سورة الفاتحة قد خلَت من كلمةِ نار؟ فلو أنَّ الفهمَ التّقليديّ الموروث حولَ نارِ جهنّم صحيحٌ لكانت سورةُ الفاتحة قد اشتملت على كلمةِ (نار) وأشارت إليها على أقلّ تقدير.

فلتُلاحظ معي كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى قسّمَ النّاسَ في سورةِ الفاتحة إلى ثلاثةِ فئات:

فالفئةُ الأولى سمّاها اللّهُ جلَّ شأنهُ فئةَ (**المُنعمِ عليهم**).

كما سمّى أفرادَ **الفئةَ الثانية** فِئةَ (**المغضوبِ عليهم**).

وسمّى أفرادَ **الفئةِ الثالثة** فئةَ (**الضّالّين**).

وبذلكَ يكونُ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد دفعنا لنتضرَّعَ بينَ يديهِ وليجعلنا من الفئةِ الأولى.ولنَدعوهُ سبحانهُ ألاّ يجعلنا من الفئة الثانية ولا من الفئةِ الثالثة.

ولا نفهمُ حكمةَ هذا التّقسيم الّذي ذكرناهُ إلاّ بعدَ الإحاطةِ بدلالةِ كلّ لفظٍ وردَ بحقّ كلّ فئةٍ من هذه الفئات الثلاثة. فأمّا كلمة(**أنعمتَ عليهم**)فقد أتت من قولكَ:أنعمَ اللّهُ تعالى عليهِ بنعمتهِ ومعناها أنّهُ أحسنَ إيصالها إليه.فإن تساءلتَ عمّن أحسنَ اللّهُ إليهم وأوصلَ إليهم نِعمته.تعثرُ على قولهِ تعالى في

الآية ٦٩ من سورة النّساء تلكَ الّتي قالَ تعالى فيها (**ومن يُطعِ اللّهَ والرّسولَ فأولئكَ معَ الّذينَ أنعمَ اللّهُ عليهم من النّبيّينَ والصّديقينَ والشهداءِ والصّالحينَ وحسُنَ أولئكَ رفيقاً.ذلكَ الفضلُ من اللّهِ وكفى باللّهِ عليماً**).

وعليهِ فإنَّ أفرادَ **الفئةِ الأولى** المُشارُ إليهم بقولهِ تعالى(**أنعمتَ عليهم**) هم الّذينَ ذكرتْهم هذه الآية الكريمةُ من سورةِ النّساء.وهم الّذينَ أحسنَ اللّهُ تعالى إيصالَ نعمتهِ إليهم وسمّى تعالى ذلك في الآيةِ الثانية (**الفضل من اللّه**) ومُعرِّفاً كلمةَ الفضل للإشارةِ إلى ما دلّت عليهِ كلمةُ(**أنعمتَ**).وهو تعالى عندما أنهى الآيةَ الثانيةَ بقولهِ (**وكفى باللّهِ عليماً**) فقد نبّهَ عقلَ القارئ إلى أنَّ الّذي يعلمُ من هو المستحقُّ لِنعمةِ اللّهِ تعالى وفضله فهو اللّهُ جلَّ شأنهُ نفسهُ وليسَ أحداً سواه.ثمّ إنَّ كلمةَ (**الفضل**) نفسها لا تُستعملُ إلاّ في الخير. وتعني الإحسان ومُطلقَ النّفع (محيط المحيط).فإن نحنُ تساءلنا عمّا كانَ اللّهُ تعالى قد أنعمَ بهِ على فئات النّبيّين والصّديقين والشهداء والصالحين فلا نعثرُ على أحدٍ منهم قد زعمَ بأنّهُ تلقّى من جانبِ ربِّهِ مالاً مادّياً.لكنّنا نُلاحظُ أنّهم جميعهم ادّعوا أنّهم كانوا من المحبوبينَ عندَ ربِّهم وعلى صلةٍ بهِ ويتلقّونَ وحيهُ وإلهامه.وبألفاظ أُخرى فقد كانَ المذكورونَ من المقرَّبينَ منَ اللّهِ عزَّ وجلّ والمَرضيّ عنهم ليسَ إلاّ.

وأمّا فئةُ(**المغضوب عليهم**) فكلمةُ المغضوب اشتقّت مِن غضِبَ اللّهُ عليهِ ضدّ رضي اللّهُ عنه.فلفظُ الغضب عامّ الدّلالة (محيط المحيط)هذا وأنَّ الإنسانَ الّذي يغضبُ اللّهُ تعالى عليهِ يقطعُ عنهُ وحيهُ وإلهامهُ ويطرُدهُ من حضرتهِ ولا يعودُ يُحبُّه.فلا يعودُ بالتّالي من الّذينَ أنعمَ اللّهُ تعالى عليهم ويكونُ موقفُ اللّهِ تعالى من هذا المغضوبِ عكس موقفهِ من ذاكَ المَرضيِّ عنه.

وأمّا فئةُ(**الضّالّين**) فمن ضلَّ ضدّ اهتدى وجارَ عن دين.وعدلَ عن الصّراط المستقيم عمداً أو سهواً قليلاً أو كثيراً(محيط المحيط).وهذا المعنى هو عكسُ الدّعاء الّذي علّمنا اللّهُ تعالى أن ندعو به وهو (**اهدنا الصّراطَ**

المستقيم).ومعناهُ ألاّ تدعنا يا ربَّنا نجورُ ونبتعدُ عن الدّين ولا أن نعدِلَ عن صّراطِكَ المستقيم كيلا تغضبَ علينا فتقطع عنّا وحيَكَ وإلهامكَ وتطرُدنا من حضرتكَ بعيداً عنك.فلا تعودُ تُحبُّنا ولا نعودُ في نظركَ من المقرَّبين.

فإن أنتَ دقّقتَ نظركَ يا عزيزي في هذه المعاني الّتي أفادهَا الألفاظُ الّتي استُعملت من خلال هذا التّقسيمِ الّذي قسَّمَ النّاسَ إلى ثلاثة فئات.تُدرك بالتّالي أنَّ الموضوعَ الأساسيَّ الّذي تدورُ حولهُ مُجرَيات الحياةِ الآخرة. يدورُ أصلاً حولَ هذه المعاني الّتي أفادهَا هذه الألفاظ المذكورة.

وكأنَّ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد قالَ لنا بألفاظ أخرى: إنَّ عذابَ الآخرة هو عذابٌ داخليٌّ ينبعُ من داخلِ هذا الإنسان الجهنّميّ المطرودِ من رحمةِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ بسبَبِ أنَّهُ إمّا أن يكونَ مغضوباً أو يكونُ ضالاً عن صراط اللّهِ المستقيم.فهذا الإنسان الجهنّميُّ تتملّكُ فؤادَهُ الآهاتُ والأسى والحسرات يومئذٍ على ما فرَّطَ في جنبِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ ولكونهِ أمسى من جرّاءِ ذلكَ بعيداً عن مُشاهدةِ أنوارِ ربِّهِ وعاد لا يكلّمهُ ربُّهُ ولا ينظرُ إليهِ وخلافاً ما يفعلهُ معَ فئةِ المُنعمِ عليهم الّذينَ يكونُونَ في جنَّةِ المقرَّبينَ من خالقهِم وبارئهم عزَّ وجلَ.وبذلكَ تكونُ الحياةُ الأخرويَّةُ الّتي يحياها المغضوب عليهم والضّالّين لا يماثلها في التّعاسةِ شيءٌ على الإطلاق.

وعلى هذه الصّورةِ تكونُ آياتُ سورةِ الفاتحة قد لخَّصت موضوعَ الحياةِ الجهنّميّةِ الّتي وردت مشروحةً في الآيات من سورةُ الحاقّةِ وغيرها من السور بأسلوبٍ مُتميِّزٍ على جميعِ ما عرفناهُ من أساليبَ أدبيَّة.فموضوعُ الحياةِ الجهنّميَّة في الآخرة لا يتعدّى كونهُ تعبيرٌ عن البعد أو عن القرب من ذات اللّهِ تعالى. وما يترتَّبُ على هذا البُعد وعلى ذاكَ القرب من آثارٍ نفسيَّةٍ وما بينَ سعيدٍ وشقيّ.

سورُ المُعوّذات وعذابُ الآخرة

ولا أكتفي ببيان ما ذكرتُهُ مّما لخّصتهُ سورةُ الفاتحة.بل وأنتقل لبيان ما وضَّحتهُ السور التي نُسمِّيها سورُ المعوّذات والّتي تُعتبرُ خلاصةً أخيرة لمواضيع هذا القرآن المجيد.فالّذي نُلاحظهُ في بدايَةِ الأمر هو أنَّ تلكَ السور الثلاثة وردت آياتُها خاليَةً من كلمةِ(نار)أيضاً وعلى شاكلةِ ما لاحَظناهُ في سورةِ الفاتحة.فإن نحنُ تفحَّصنا سورةَ الإخلاص نُلاحظُ أنَّها لخّصت موضوعَ وحدانيَّةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ وعلى حسبِ ما شرحتُهُ وبيَّنتُهُ من قبل.

أمّا سورةُ الفَلق فقد علَّمنا اللّهُ تعالى فيها أن نستعيذَ بهِ تعالى من جميعِ ما خلق.كيلا نتضرّر فتُبعدُنا تلك الأشياء عن معرفةِ ربِّنا وعن الفوزِ بمحبَّتِهِ وقُربِهِ ورضواته.وأمّا سورةُ النّاس فقد علَّمنا اللّهُ تعالى فيها أيضاً أن نستعيذَ بهِ تعالى من شرِّ كلِّ ما يُوسوس في صدورِ النّاس ممّا يُبعدنا عن ربِّنا عزَّ وجلَّ والذي يُضلّنا عن سبيله.

وعليهِ فإنَّ مضمونَ سورةِ الإخلاص علّمتنا التّوحيد الخالص من شوائبِ الشرك.وإنَّ مضمونَ كُلٍّ من سورتي الفلق والنّاس قد علّمتانا الابتعادَ عمّا يُبعدُنا عن توحيدِ اللّهِ تعالى كيلا نُحرمَ من محبَّتهِ تعالى وقُربهِ ورضاه.وعلى هذه الصورة فقد أوحت لنا هذه السور الثلاثة بأنَّ مسألة الحياة الآخرة إنّما هي مسألةُ قُربٍ أو بعدٍ عن ذاتِ اللّهِ جلَّ شأنهُ.وأنَّ عذابَ النّار ما هو إلاّ هذه الحسراتُ والآهاتُ الّتي تُصدرُها يومئذٍ أفئدةُ الذينَ أدَّت أعمالهم وصفاتهم إلى حِرمانهم من الاستظلالِ بأنوارِ اللّهِ ربِّهم عزَّ وجلّ.وبذلكَ تكونُ هذه المُعوّذات قد لخَّصت لنا هي بدورها أيضاً هذا الموضوع ذاته.

بماذا فُسَّروا قديماً كلمتي (شاعر وكاهن)؟

وأنتَ يا عزيزي القارئ وبعدَ الّذي عرفتَهُ وسلّمتَ بهِ ممّا سلفَ بيانُه.ترجو أن أنقُلَ لكَ ما فهمهُ ابنُ كثيرٍ والفخر الرّازي رحمهما اللّهُ تعالى من

مُعطيات آياتِ المجموعةِ الثالثة الأخيرة من سورةِ الحاقّة. لِتُقارنهُ بما بيَّنــاهُ مــن معانيها.

فأختصرُ لك أوّلاً ما وردَ في تفسيرِ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللّه وأقول:فسَّرَ ابــنُ كثيرٍ قولهُ تعالى (**وما هو بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون.ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرون**)وقال (أضافهُ —وعلى شاكلةِ ما فعلهُ تعالى في سورةِ التّكويرِ حينَ قال (**إنّهُ لقولُ رسولٍ كريم.ذي قوّة عندَ ذي العرشِ مكين.مطاعٍ ثَمَّ أمين**)–فأضافهُ تارةً إلى قولِ الرّسولِ الملكيّ.وتارةً إلى الرّسولِ البشريّ.لأنَّ كُلّاً منهما مُبلّغٌ عن اللّهِ ما استأمنهُ عليهِ من وحيه وكلامه.ولهذا قالَ تعالى (**تنزيلٌ من ربِّ العالمين**).

أمّا الفخر الرّازي رحمهُ اللّه فقد فسَّرَ قولهُ تعالى (**وما هو بقولِ شــاعرٍ قليلاً ما تؤمنون.**

ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكّرون)وقال(إنَّ اللّهَ تعالى ذكرَ في نفيِ الشــاعريَّة (**قليلاً ما تؤمنون**).وفي نفيِ الكاهنيَّة (**ما تذكّرون**).والسببُ فيه كأنَّهُ تعــالى قال:ليسَ هذا القرآن قولاً من رجلٍ شاعر. لأنَّ هذا الوصف مُباين لِصنــوفِ الشعر كلّها.إلاّ أنّكم لا تؤمنون.أي لا تقصدونَ الإيمان.فلذلكَ تُعرضونَ عــن التّدبُّر .ولو قصدتم الإيمان لَعلِمتُم كذِبَ قولكم إنَّهُ شاعر.لِمفارقةِ هذا التّركيب ضروبَ الشعرِ ولا أيضاً بقولِ كاهنٍ لأنَّهُ واردٌ بسبِّ الشياطين وشتمهم.فــلا يمكنُ أن يكونَ ذلكَ بإلهامِ الشياطين.إلاّ أنّكم لا تتذكّرونَ كيفيَّةَ نظمِ القــرآن واشتمالِهِ على شتمِ الشياطين.فلهذا السبب تقولون إنَّهُ من بابِ الكهانة.أمّا قولهُ تعالى (**تنزيلٌ من ربِّ العالمين**). اعلم أنَّ نظيرَ هذه الآية قولهُ في سورةِ الشــعراء (**إنَّهُ لَتنزيلُ ربِّ العالمين نزلَ به الرّوحُ الأمين علـــى قلبــكَ لِتكــونَ مــن المُنذرين**).فهو كلامُ ربِّ العالمينَ لأنَّهُ تنزيلُه.وهو قولُ جبريل لأنَّهُ نزلَ به.وهــو قولُ محمّد لأنَّهُ أنذرَ الخلقَ به.فهاهنا أيضاً لما قال فيما تقدّم (**إنَّهُ لَقولُ رســولٍ**

كريم) أتبعهُ بقولِهِ **(تنزيلٌ من ربِّ العالمين)** حتّى يزولَ الإشـكال.وقـرأ أبـو السمال: تنزيلاً أي نزلَ تنزيلاً.).

فهذا هو ما فسَّرَ بهِ هذان المفسّران رحمهما اللّه هذه المجموعة من الآيـات وقد تضمَّنت مفهومهما لِكلمتي (شاعرٍ وكاهن).وأترُكُ للقارئ أن يُقارنَ ما بينَ هذه المعاني وما بينَ ما ذكرتهُ من معانٍ مُرتكزة إلى منهجيَّةِ القـرآنِ وأصـولِ تفسيرِ آياتهِ الكريمة.ووفقَ ما فتحهُ اللّهُ تعالى عليَّ.

وأوجزُ للقارئ وأُلخِّصُ لهُ جميعَ ما بيَّنتُهُ وشرحتهُ حتّى الآن فـأقول:إنَّ هذا القرآن الكريم ليسَ هو بكتابٍ عاديٍّ على شاكلةِ كُتُبِ الأدباء المعروفـين. بل هو كتابٌ غيرُ عاديٍّ ومُعجزٌ في صياغتهِ البلاغيَّةِ وبحيثُ فلا تكونُ المعـاني المُتبادرة عنهُ على الأغلب هي المقصودةَ أصلاً.بل إنَّهُ لابُدَّ من أن يعرفَ هـذا المتدبِّرُ ويحيط علماً بمنهجيَّةِ هذا القرآن وأصولِ تفسيرِ آياتِهِ ليتمكّنَ من الوصول إلى معانيهِ الحقيقيَّة المقصودة من آياتهِ الكريمة.

فهذه الحقيقةُ تكمُنُ وراءَ هذه التّفاسيرِ القديمةِ الّتي ما كـانَ كاتبوهـا مُطّلعينَ على أصول تفسيرِ هذا القرآنَ العظيم ولذلكَ صوَّروا لِلقارئ بأنَّ اللّـهَ جلَّ شأنهُ قد أعدَّ في الآخرةِ من وسائلِ التّعذيبِ ما يقشعرُّ منها الأبدان.وبمـا يتنافى معَ عظمةِ ومكانةِ اللّهِ وقدرهِ والّذي وَسِعت رحمتهُ كلَّ شـيءٍ في هـذا الوجود.

هذا وإنَّ القارئَ قد أدركَ لا محالة من خلال تفسيري للآيات من سـورةِ الحاقَّة والمتعلّقة بعذابِ جهنَّم كيفَ أنّي حينَ أخذتُ بمنهجيَّةِ القـرآن الكـريمِ وبأصولِ تفسيره.غابت تلكَ الصورة البشعة الموروثة حولَ عذابِ جهنَّمَ.وطَفَتْ إلى السطحِ صورةٌ مُختلفةٌ جدّاً عن تلكَ الصورةِ القديمةِ وكلَّ الاختلاف.وتبيَّـنَ لهُ أيضاً بأنَّ عذابَ جهنَّم ينظُمهُ قانونٌ مُرتبطٌ بالآثارِ الجهنّميَّة الّتي تنجمُ عـن أعمالِ الإنسانِ نفسه والّتي حذّرت تعاليمُ الأديان منها ومن نتائجها الوخيمـةِ

والّتي تظهرُ بعدَ الموت ويومَ النّشورِ خاصّة.وهي الحقيقةُ الّتي أشارَ إليها حديثُ رسولُ اللّهِ(ص):(القبرُ إمّا روضةٌ من رياضِ الجنَّة أو حُفرةٌ من حُفَرِ النّـــار).أي أنَّ الآثارَ النّاريَّةِ التي تترُكها أعمالُ الكافرِ العاصي والّتي عملها في حياته الدّنيويَّةِ تبدو لهُ مُباشرةً بعدَ مَوتهِ وفي عالَمِ من البرزخِ.وإنَّ تلكَ الآثارُ النّاريَّةُ تؤجّجُـــها ملائكةُ اللّهِ تعالى يومَ البعثِ الأكبرِ يوم يُبعثُ النّاسُ بنوعِ جديدٍ من الأجســـادِ غيرُ معروفةٍ ما هيّتها وتأتي مُتشابهةً أيضاً معَ أجسادنا التّرابيَّةَ الحاليَّة.

وعليهِ فإنَّ العذابَ الأُخرويَّ مُرتبطٌ بهذا القانون الّذي ذكرناهُ والّــــذي ينظُمُ آثارَ أعمالِ هذا الإنسان. وعليهِ فإنَّ هذا الإنسانَ يظلِمُ نفسَهُ بنفسهِ مـــن جرّاءِ سوءِ أعماله.وإنَّ ربَّنا جلَّ شأنهُ أسمى وأرفعُ من أن يكونَ قد هيّأَ تلــــك الوسائلِ الجهنَّميَّة لِتعذيبِ عباده والّتي أوردها المفسّرونَ القدماء رحمهم اللّـــهُ في تفاسيرهم الموروثة والّتي ما يزالُ الوُعّاظ التّقليديّون يعظونَ بها ويخوّفونَ النّـــاسَ العوام ممّا فيها من معانٍ تتنافى وعظمةَ قدرِ ربِّنا جلَّ شأنهُ والّذي وصفتهُ البسملة بصفتي (**الرّحمان والرّحيم**).

فبهذه الكلمات أُنهي تلخيصَ ما سبقَ لي أن بيَّنتُهُ للقارئ ومن أجـــلِ أن أنتقلَ إلى تقديمِ أنموذجٍ آخرَ تدليلاً على مِصداقيَّةِ هذا الأصل الرّابعُ لِتفسيرِ آياتِ هذا القرآن المجيد.وأرى أن أقدّمَ هذا الدليلِ الأنموذج من آياتِ سورةِ الصّافّـــاتَ والّتي تكلّمت عن شجرةِ الزّقوم الّتي تخرُجُ في أصلِ الجحيم هذه الشجرة الّـــتي طلعُها كأنَّهُ رؤوسُ الشياطين.

سورةُ الصّافّات وعذابُ الجحيـــم:

لِنُلاحظ كيفَ أنَّ اللّهُ جلَّ شأنهُ راحَ يُوازنُ على لســـانِ أحدِ أهلِ الجنَّةِ ما بينَ نعيمِ الجنَّةِ وما بينَ عذابِ الجحيم فيقول (**إنَّ هـــذا لهـــو الفوزُ العظيمُ.لِمثلِ هذا فليعملِ العاملون.أذلكَ خيرٌ نُزُلاً أم شجرةُ الزّقّوم.إنّا جعلناها فِتنةً للظّالمين.إنّها شجرةٌ تخرُجُ في أصلِ الجحيم.طَلعُها كأنَّـــهُ رؤوسُ**

الشياطين.فإنَّهم لآكلونَ منها فمالئونَ منها البُطون.ثمَّ إنَّ لهم عليها لَشَوباً من حميم.ثمَّ إنَّ مَرجعَهُم لإلى الجحيم. إنَّهم ألفوا آباءهم ضالِّين.فهم على آثارهم يُهرعون.ولقد ضلَّ قبلَهم أكثرُ الأوَّلين.ولقد أرسلنا فيهم مُنذرين. فانظُر كيفَ كانَ عاقبةُ المُنذَرين- الصافّات ٦٠ وحتّى الآية ٧٣

والتزمُ وأنا أقدِّمُ هذا المثالَ الثاني بنفسِ النّهجِ السابق.فأنقلُ للقارئ ما فسَّرَ بهِ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللّهُ هذه الآيات الكريمة.وأنقلُ بعد ذلكَ ما فسَّرَ بها أيضاً الفخر الرّازي رحمهُ اللّه في تفسيره الكبير ومن ثمَّ أقدِّمُ للقارئ فهمي لهذه الآيات الكريمة ومُراعياً مُعطيات الأصل الرّابع الّذي دلَّتنا عليهِ صِفتا (**الرّحمان والرّحيم**) المُضافتان في البسملة.هاتان الصّفتان اللّتان شكّلتا هذا الأصلَ الرّابعَ للتّفسير.

الفخر الرّازي وابنُ كثيرٍ وتفسيرهما للآيات

كتبَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللّهُ يقول: (يقولُ اللّهُ تعالى إنّ هذا الّذي ذكرهُ من نعيمِ الجنَّة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلكَ من الملاذِّ خيرٌ ضيافةً وعطاءً (**أم شجرةُ الزّقوم**)؟ أي الّتي في جهنَّم.وقد يُحتملُ أن يكونَ المُراد بذلكَ شجرةً واحدةً مُعيَّنةً كما قالَ بعضُهم.إنَّها شجرةٌ تمتدُّ فُروعُها إلى جميعِ محالِّ جهنَّم. كما أنَّ شجرةَ (**طوبى**)ما مِن دارٍ في الجنَّةِ إلاّ وفيها منها غُصن.وقد يُحتملُ أن يكونَ المراد بذلكَ جنسُ شجرٍ يُقالُ لهُ (**الزّقوم**).كقولهِ تعالى (**ثمَّ إنّكم أيُّها الضّالونَ المكذّبون.لآكلونَ من شجرٍ من زقّوم**).وقولهُ عزَّ وجلَّ (**إنّا جعلناها فِتنةً للظّالمين**).قال قتادة:ذكرت شجرةُ الزّقوم فافتُتِنَ بها أهلُ الضّلالة وقالوا صاحبكم يُنبئكم أنَّ في النّار شجرةً، والنّارُ تأكلُ الشجر فأنزلَ اللّهُ تعالى (**إنّها شجرةٌ تخرُجُ في أصلِ الجحيم**) غُذّيت من النّار ومنها خُلقت.وقالَ مُجاهد: (إنّا جعلناها فِتنةً للظّالمين)قالَ أبو جهل لَعنهُ اللّه:إنّما الزّقوم التمرُ والزبد أ تزقُمه ؟ قلتُ : ومعنى الآية إنّما أخبرناكَ يا محمَّد بشجرةِ الزّقوم اختباراً

تختبرُ بهِ النّاس من يُصدِّقُ منهم ممّن يُكذِّب. كقولهِ تباركَ وتعالى (**وما جعلنا الرّؤيا الّتي أريناكَ إلاّ فتنةً للنّاس والشجرة الملعونة في القرآن ونُخوّفُهم فما يزيدُهم إلاّ طُغياناً كبيراً**). وقولهُ تعالى (**إنّها شجرةٌ تخرُجُ في أصلِ الجحيم**) أي أصلُ مَنبتها في قرارِ النّار. (**طلعُها كأنَّهُ رؤوسُ الشياطين**) تبشيعٌ لها وتكريهٌ لذكرها. قال وَهب بن مُنبِّه: شعورُ الشياطينِ قائمةٌ إلى السماء. وإنّما شبَّهها برؤوسِ الشياطين وإن لم تكن معروفة عندَ المُخاطبين. لأنَّهُ قد استقرَّ في النّفوس أنَّ الشياطين قبيحةُ المنظر. وقيلَ المرادُ بذلكَ ضربٌ من الحيّات رؤوسها بشعة. وقيلَ جنسٌ من النّبات طلعُهُ في غايةِ الفحاشة. وفي هذين الاحتمالين نظر. وقد ذكرهما ابنُ جرير. والأوّلُ أقوى واللّهُ أعلم. وقولهُ تعالى(**فإنّهم لآكلونَ منها فمالئونَ منها البطون**) ذكرَ تعالى أنّهم يأكلونَ من هذه الشجرة التي لا أبشعُ منها ولا أقبح من مَنظرِها معَ ما هي عليهِ من سوءِ الطّعم والرّيح والطّبع فإنَّهم ليضطرّونَ إلى الأكلِ منها لأنّهم لا يجدونَ إلاّ إيّاها وما هو في معناها كما قالَ تعالى(**ليسَ لهم طعامٌ إلاّ من ضريع. لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوع**) وقالَ ابنُ أبي حاتِم رحمهُ اللّه: حدّثنا أبي حدّثنا عمرو بن مرزوق حدّثنا شُعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عبّاس رضي اللّهُ عنهما أنَّ رسولَ اللّه(ص) تلا هذه الآية وقال (اتّقوا اللّهَ حقَّ تُقاته فلو أنَّ قطرةً من الزّقوم قُطِرَت في بحارِ الدّنيا لأفسدت على أهلِ الأرضِ معايشهم فكيفَ بمَن يكونُ طعامه؟) ورواهُ التّرمذيّ والنّسائيّ وابنُ ماجه من حديثِ شُعبة. وقالَ التّرمذي حسن صحيح. وقولهُ تعالى(**ثمّ إنَّ لهم عليها لَشوباً من حميم**) قالَ ابن عبّاس(رض) يعني شُربَ الحميم على الزّقوم. وقالَ في روايةٍ عنه شوباً من حميم مزجاً من حميم وقال غيرُه يعني يُمزجُ لهم الحميم بصديدٍ وغسّاقٍ ممّا يسيلُ من فروجهم وعيونهم. وقال ابنُ أبي حاتم حدّثنا أبي حدّثنا حيوة بن شريح الحضرميّ حدّثنا بقيَّةُ بن الوليد عن صفوان بن عمرو أخبرني عُبيد بن بشير عن أبي أمامة الباهليّ (رض) عن رسولِ

اللّهِ (ص)أنّهُ كانَ يقول(يقرّب يعني إلى أهلِ النّار ماءٌ فيتكرّهُه.فإذا أُدنيَ منهُ شوى وجهه ووقعت فروةُ رأسه فيه.فإذا شربهُ قطعَ إمعاءه حتّى تخرُج من دُبُره).وقالَ ابنُ أبي حاتم حدّثنا أبي حدّثنا عمرو بن رافع حدّثنا يعقوب بن عبد اللّه عن جعفر وهارون بن عنترة عن سعيد بن جبير قال: إذا جاعَ أهلُ النّار استغاثوا بشجرةِ الزّقوم فأكلوا منها فاختلست جلودَ وُجوههم فلو أنَّ ماراً مرَّ بهم يعرفُهم لَعرَفهم بِوجوههم فيها ثمّ يُصبُّ عليهم العطش فيستغيثونَ فيُغاثون بماءٍ كالمُهل وهو الّذي قد انتهى حرُّه.فإذا أدنوهُ من أفواههم اشتوى من حرِّه لُحومُ وُجوههم الّتي سقطت عنها الجلود ويصهرُ ما في بُطونهم.فيمشونَ تسيلُ أمعاؤهم وتتساقطُ جلودهم.ثمّ يُضربونَ بمقامعَ من حديدٍ.فيسقطُ كلُّ عُضوٍ على حيالهِ يدعونَ بالثّبور وقولهُ عزَّ وجلَّ(**ثمّ إنَّ مَرجِعهم لإلى الجحيم**) ثمّ إنَّ مردّهم بعدَ هذا الفصلِ لإلى نارٍ تتأجّجُ.وجحيم تتوقّد.وسعيرٍ تتوهّج.فتارةً في هذا وتارةً في هذا.كما قالَ تعالى (**يطوفونَ بينها وبينَ حميمٍ آن**) هكذا تلا قتادة هذه الآية عندَ هذه الآية.وهو تفسيرٌ حسنٌ قويّ.وقالَ السدي في قراءة عبد اللّه (رض) (**ثمّ إنَّ مقيلهُم لإلى الجحيم**) وكانَ عبدُ اللّه (رض) يقول: والّذي نفسي بيده لا ينتصفُ النّهار يومَ القيامة حتّى يقيلُ أهلُ الجنّةِ في الجنّةِ وأهلُ النّار في النّار. ثمّ قرأ (**أصحابُ الجنَّةِ يومئذٍ خيرٌ مُستقرّاً وأحسنُ مقيلاً**).وروى الثّوريّ عن ميسرةٍ عن المنهال بن عمرو عن أبي عُبيدة عن عبد اللّه (رض) قال: لا ينتصفُ النّهار يومَ القيامة حتى يقيلَ هؤلاء ويقيلَ هؤلاء قالَ سفيان:أراه ثمّ قرأ (**أصحابُ الجنَّةِ يومئذٍ خيرٌ مُستقرّاً وأحسنُ مقيلاً**)ثمّ إنَّ مقيلَهم لإلى الجحيم. قلتُ : على هذا التّفسير تكونُ ثمّ عاطفة لِخبرٍ على خبرٍ.وقولهُ تعالى (**إنّهم ألفوا آباءهم ضالّين**) أي إنّما جازيناهم بذلكَ لأنّهم وجدوا آباءهم على الضّلالة فاتّبعوهم فيها بمجرّد ذلكَ من غيرِ دليلٍ ولا بُرهان.ولهذا قال (**فهم على آثارهم يهرعون**).قال مُجاهد: شبيهةٌ بالهرولة. وقال سعيد بن جبير يُسفهون. (**ولقد**

ضلَّ قبلهم أكثرُ الأوّلين.ولقد أرسلنا فيهم مُنذرين.فانظُر كيفَ كانَ عاقبةُ المُنذَرين.إلاّ عبادَ اللّهِ المُخلَصين). يُخبرُ تعالى عن الأممِ الماضيةِ أنَّ أكثرهم كانوا ضالّين يجعلونَ مع اللّهِ آلهةً أُخرى.وذكرَ تعالى أنّهُ أرسلَ فيهم منذرين يُنذرونَ بأسَ اللّه ويحذّرونهم سطوتهُ ونقمتهُ ممّن كفرَ بهِ وعبد غيره وأنّهم تمادوا على مُخالفةِ رسلِهم وتكذيبهم فأهلكَ المكذبين ودمَّرهم ونجّى المؤمنين ونصرهم وظفرهم.ولهذا قال (فانظُر كيفَ كانَ عاقبةُ المُنذرين.إلاّ عبادَ اللّهِ المُخلَصين).

فأنتَ تُلاحظُ يا قارئي العزيز ممّا نقلتهُ لكَ آنفاً أنَّ ما فسَّرَ بهِ ابنُ كثير رحمهُ اللّه تلكَ الآيات الكريمة من سورة الصافّات لم يعتمد فيها على أصولِ تفسيرٍ معيَّنةٍ بل اعتمد على الرّواياتِ الّتي وصلتهُ فحكَّمَ مضامينَ الرّوايات الظّنّيّةَ وأسقطَها على الآيات ذات المضامينِ اليقينيَّةِ القائمةِ على منهجيَّةٍ وأصولِ تفسير.بدليلِ أنّهُ رحمه اللّه كانَ إذا تكلّمَ عن **شجرةِ الزّقوم** (يقولُ ربّما هي شجرةٌ أو جنسُ الشجر أو أنّها مجرّدُ فتنة.وأنَّ وصفها برؤوسِ الشياطينِ من باب التّبشيعِ والتّكريهِ بذكرها.أو أنّهُ يُقصدُ بها حيّاتٌ رؤوسها بشعة.وبما يتعلّقُ بطعامِ أهلِ الجحيم أنّهم مُضطرّونَ ليأكلوا من هذه الشجرة ويشربوا مزيجاً من من ماءِ الحميم بصديدِ وغسّاقِ ما يسيلُ من فروجهم وعيونهم.وأنَّ هذه الماء الّذي يشربونه يشوي الوجهَ ويقطعُ فروةَ الوجه كما يقطعُ الإمعاء حتى ويخرجُ من دُبره).فقولهُ (ربّما)يدلُّ على أنّهُ يُخمّنُ ويتحرَّز وأنّهُ لم يكن على يقينٍ ممّا فسَّرَ بهِ تلكَ الآيات الكريمة.وقد فسَّرَ تلكَ الآيات بما يتنافى ومُعطيات صفتي (**الرّحمن الرّحيم**)وإنَّ الّذي يُطالعُ تفسيرهُ لتلكَ الآيات يدُبُّ في قلبهِ رُعبٌ شديدٌ .فإن كانَ غيرَ مُسلمٍ يعترضُ على هذا الإله المُرعب الّذي صوَّرهُ لهُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللّه.

لذلكَ أنتقلُ إلى ما فسَّرَ بهِ الفخرُ الرّازي تلكَ الآياتُ من سورة الصّافّات.إنّهُ رحمهُ اللّه كتبَ يقول:اعلم أنّهُ تعالى لمّا قال بعد ذكرِ أهلِ الجنّة

ووصفها (**لِمثلِ هذا فليعمل العاملون**)أتبعهُ بقوله (**أذلكَ خيرٌ نزلاً أم شجرة الزّقوم**)فأمر رسولَ اللّهِ (ص)أن يوردَ ذلكَ على كُفّار قومه لِيصيرَ ذلكَ زاجراً لهم عن الكُفر وكما وصفَ من قبل مآكلَ أهلِ الجنّة ومشاربهم وصفَ أيضاً في هذه الآيةِ مآكلَ أهلِ النّار ومشاربهم.أمّا قولهُ(**أذلكَ خيرٌ نزلاً أم شجرة الزّقوم**)فالمعنى أنَّ الرّزقَ المعلوم المذكور لأهلِ الجنّة (**خيرٌ نزلاً**)أي خيرٌ حاصلاً (**أم شجرة الزّقوم**)وأصلُ النّزل الفضلُ الواسع في الطّعام.يُقال طعامٌ كثير النزل.فاستعير للحاصلِ من الشيء.ويقالُ أرسلَ الأميرُ إلى فلان نزلاً وهو الشيء الّذي يُصلِحُ حالَ من ينزل بسببِهِ.إذا عرفتَ هذا فنقول:حاصلُ الرّزق المعلوم لأهلِ الجنَّة اللّذة والسرور وحاصل شجرة الزّقوم الألم والغمّ.ومعلومٌ أنّهُ لا نسبةَ لأحدهما إلى الآخر في الخيريَّة.إلاّ أنّهُ جاءَ هذا الكلام إمّا على سبيلِ السّخرية بهم أو لأجلِ أنَّ المؤمنينَ لّما اختاروا ما أوصلهم إلى الرّزقِ الكريم. والكافرينَ اختاروا ما أوصلهم إلى العذابِ الأليم فقيلَ لهم ذلكَ توبيخاً لهم على سوءِ اختيارهم.وأمّا (**الزّقوم**)فقالَ الواحدي رحمه اللّه لم يذكر المفسّرونَ للزّقوم تفسيراً إلاّ الكلبيّ فإنَّهُ روى أنّهُ لّما نزلت هذه الآية قالَ ابن الزبعري:أكثرَ اللّهُ في بيوتكم الزّقوم.فإنَّ فإنَّ أهلَ اليمن يسمّونَ التمرَ والزّبد بالزّقوم فقالَ أبو جهلٍ لِجارتيه: زقّمينا.فأتتهُ بزبدٍ وتمر.وقال: تزقّموا.ثمّ قالَ الواحدي ومعلومٌ أنَّ اللّهَ تعالى لم يُرِد بالزّقومِ هنا الزبدَ والتّمر.قالَ ابنُ دُرَيد: لم يكن للزّقوم اشتقاقٌ من التّزقُّم وهو الإفراط من أكلِ الشيء حتّى يكرهَ ذلك.يُقال:باتَ فلانٌ يتزقّم.وظاهرُ لفظِ القرآن يدلُّ على أنّها شجرة كريهة الطّعم مُنتِنةُ الرّائحة شديدة الخشونة موصوفةٌ بصفاتِ كلٌّ مَن تناولها عظم من تناولها.ثمَّ إنَّهُ يُكْرَهُ أهلُ النّارِ على تناولِ بعضِ أجزائها.أمّا قولهُ تعالى (**إنّا جعلناها فتنةً للظّالمين**) ففيهِ أقوال: **الأوّل** أنّها إنّما صارت فتنةً للظّالمين.من حيثُ إنَّ الكفّارَ لّما سمعوا هذه الآية قالوا كيفَ يُعقلُ أن تنبُتَ الشجرةُ في جهنَّم مع أنَّ النّارَ تحرقُ

الشجرة ؟والجواب عنهُ أنَّ خالقَ النّار قادرٌ على أن يمنعَ النّار من إحراقِ الشجر ولأنَّهُ إذا جازَ أن يكونَ في النّارِ زبانية واللَّهُ تعالى يمنعُ النّارَ عن إحراقهم.فلِمَ لا يجوزُ مثلُهُ في هذه الشّجرة ؟إذا عرَفتَ هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزّقوم فتنةً للظّالمين.هو أنّهم لّما سمعوا هذه الآية وقعت تلكَ الشبهةُفي قلوبهم وصارت تلكَ الشبهة سبباً لِتماديهم في الكُفر.فهذا هو المراد من كونها فتنةً لهم.**والوجهُ الثاني** في التّفسير أن يكونَ المُرادُ صيرورةَ هذه الشجرة فتنةً لهم في النّار لأنّهم إذا كلّفوا تناولها وشقَّ ذلكَ عليهم .فحينئذٍ يصيرُ ذلك فتنةً في حقّهم.**الوجه الثالث**: أن يكونَ المرادُ من الفتنة الامتحانُ والاختبار.فإنَّ هذا شيءٌ بعيدٌ عن العُرفِ والعادةِ مُخالفٌ للمألوفِ والمعروف.فإذا وردَ على سمعِ المؤمن فوّضَ علمهُ إلى اللَّه وإذا وردَ على الزنديق توسّلَ بهِ إلى الطّعنِ في القرآن والنّبوّة.ثمَّ إنَّهُ تعالى لّما ذكرَ هذه الشجرة وصفها بصفات: **الصفةُ الأولى** قولهُ إنّها شجرة تخرُجُ في أصلِ الجحيم.قيلَ منبتُها في قعرِ جهنّم وأغصانها ترتفعُ إلى دركاتها.**الصفةُ الثانية** قوله (**طلعُها كأنّهُ رؤوسُ الشياطين**)قالَ صاحبُ الكشّاف:الطّلعُ للنّخلة فاستُعيرَ لِما طلعَ من شجرةِ الزّقوم من حملها إمّا استعارةً لفظيّةً أو معنويّة.وقال ابنُ قتيبة:سُمّيَ (طلعاً)لطلوعهِ كلَّ سنة.ولذلكَ قيل:صلعُ النّخلِ الأوّل ما يخرُجُ من ثمره.وأمّا تشبيهُ هذا الطّلع برؤوسِ الشياطين ففيهِ سؤال لأنَّهُ قيلَ إنّا ما رأينا رؤوسَ الشياطين فكيفَ يمكن تشبيه شيءٍ بها ؟وأجابوا عنهُ من وجوه: **الأوّل** وهو الصّحيح أنَّ الناسَ لّما اعتقدوا في الملائكة كمالَ الفضلِ في الصّورةِ والسيرة. واعتقدوا في الشياطينِ نهايةَ القُبحِ والتّشويه في الصورةِ والسيرة.فكما حسُنَ التّشبيهُ بالملكِ عندَ إرادة تقرير الكمال والفضيلة في قوله (**إنْ هذا إلاّ ملكٌ كريم**)فكذلكَ وجَبَ أن يُحسن التّشبيه برؤوسِ الشياطين في القبحِ وتشويهِ الخلقة.والحاصل أنَّ هذا من بابِ التّشبيه لا بالمحسوسِ بل بالمتخيَّل.كأنّهُ قيلَ إنَّ أقبحَ الأشياء في الوهمِ والخيال هو رؤوسُ

الشياطين.فهذه الشجرة تُشبهها في قبحِ المنظر وتشويه الصورة.والّذي يؤكّدُ هذا أنّ العقلاءَ إذا رأوا شيئاً شديداً الاضطراب مُنكرُ الصورة قبيحُ الخلقة قالوا إنّهُ شيطان.وإذا رأوا شيئاً حسن الصورة والسيرة قالوا إنّهُ مَلَك.وقالَ امرؤُ القيس:

أتقتلني والمشرفي مُضاجعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغوالِ

والقولُ الثاني أنّ الشياطين حيّاتٌ لها رؤوسٌ وأعراف.وهي من أقبحِ الحيّات.وبها يُضربُ المثل في القبح والعربُ إذا رأت منظراً قبيحاً قالت كأنّهُ شيطانُ الحماطة.والحماطة شجرةٌ مُعيَّنة.(**والقولُ الثالثُ**) أنّ رؤوسَ الشياطين نبتٌ معروفٌ قبيحُ الرّأس.**والوجهُ الأوّلُ هو الجوابُ الحقّ**.واعلم أنّهُ تعالى لمّا ذكرَ هذه الشجرة وذكرَ صفتها بيّنَ أنّ الكفّارَ (**لآكلونَ منها فمالئونَ منها البطون**).واعلم أنّ إقدامهم على ذلكَ الأكل يحتملُ وجهين: (الأوّل)أنّهم أكلوا منها لشدّةِ الجوعِ.فإن قيل وكيفَ يأكلونها مع نهايةِ خشونتها ونتنها ومرارةِ طعمها ؟ قلنا إنّ الواقعَ في الضررِ العظيم ربّما استروحَ منهُ إلى ما يُقاربهُ في الضرر.فإذا جوّعهُم اللّهُ الجوعَ الشديدَ فزعوا في إزالةِ ذلكَ الجوع إلى تناولِ هذا الشيء وإن كانَ بالصفةِ التي ذكرتموها.(الوجهُ الثاني)أن يُقالَ الزبانية يُكرِهونهم على الأكل من تلكَ الشجرة تكميلاً لِعذابهم.واعلم أنّهم إذا شبعوا فحينئذٍ يشتدُّ عطشُهم ويحتاجونَ إلى الشراب.فعندَ هذا وصفَ اللّهُ شرابهم فقال (**ثُمّ إنّ لهم عليها لَشوباً من حميم**).قالَ الزجّاج:الشوبُ اسمٌ عامٌ في كلّ ما خُلِطَ بغيرِه.والحميمُ الماءُ الحارّ المُتناهي في الحرارة.والمعنى أنّهُ إذا غلبهم ذلكَ العطشُ الشديدُ سُقوا من ذلكَ الحميم.فحينئذٍ يشوبُ الزّقّومُ بالحميم نعوذُ باللّهِ منهما.واعلم أنّ اللّهَ وصفَ شرابهم في القرآن بأشياءَ منها كونهُ غسّاقاً. ومنها قولهُ(**وسُقوا ماءً حميماً فقطعَ أمعاءهم**).ومنها ما ذكرهُ في هذهِ الآية. فإن قيلَ ما الفائدة في كلمةِ (**ثُمّ**) في قولِهِ (**ثُمّ إنّ لهم عليها لَشوباً من حميم**) ؟قُلنا فيهِ وجهان: (الأوّل) أنّهم يملؤونَ بُطونهم من شجرةِ الزّقّوم وهو حارٌ يحرق بُطونهم

فيعظُمُ عطشُهم.ثمَّ إنَّهم لا يُسقَونَ إلاّ بعدَ مُــدَّةٍ مديــدة والغــرضُ تكميــلُ العذاب.(والثاني) أنَّهُ تعالى ذكرَ الطّعام بتلكَ البشــاعةِ والكراهــةِ ثمَّ وصــفَ الشراب بما هو أبشعُ منه.فكانَ المقصودُ من كلمةِ(ثمَّ)بيان أنَّ حالَ المشــروب في البشاعةِ أعظمُ من حالِ المأكول.ثمَّ قالَ تعالى (**ثمَّ إنَّ مَرجعهُم لإلى الجحيم**).قال مُقاتل: أي بعدَ أكلِ الزّقوم وشُربِ الحميم وهذا يدلُّ على أنَّهم عنــدَ شُــربِ الحميم لم يكونوا في الجحيم.وذلكَ بأن يكونَ الحميمُ من مَوضعٍ خــارجٍ عــن الجحيم فهم يوردونَ الحميم لأجل الشرب.كما تورد الإبل إلى الماء.ثمَّ يــوردونَ إلى الجحيم.فهذا قولُ مُقاتل .واحتجَّ على صحَّتِهِ بقولِهِ تعالى (**هذه جهنَّم الَّــتي يُكذّبُ بها المُجرمون يطوفونَ بينها وبينَ حميمٍ آن**).وذلكَ يدلُّ على صحَّةِ مــا ذكرناه.ثمَّ إنَّهُ تعالى لمّا وصفَ عذابهم في أكلِهم وشُربهم قال(**إنَّهم ألفوا آبــاءهم ضالّين فهم على آثارهم يُهرعون**)قالَ الفرّاء الإهراعُ الإسراع يُقــال هــرعَ وأهرعَ إذا استحثَّ.والمعنى أنهم يتّبعونَ آباءهم اتّباعاً في سُرعةٍ كأنَّهم يزعجــون إلى اتّباعِ آبائهم.والمقصود من الآية أنهُ تعالى علّلَ استحقاقهم للوقوعِ في تلــكَ الشدائد كلّها بتقليدِ الآباءِ في الدّينِ وتركِ اتّباعِ الدليل.ولو لم يوجد في القــرآن آيةٌ غير هذه الآية في ذمِّ التّقليدِ لكفى...).

فأنتَ تُلاحظُ يا قارئي العزيز ممّا نقلناهُ لكَ من تفسيرِ الرّازي رحمه اللَّــه هو أنَّهُ لم يختلِف في تفسيرهِ عن تفســيرِ ابــن كثــيرٍ رحمــه اللَّــه بصــورةٍ جوهريَّة.والفرقُ بينهما أن ابن كثيرٍ كانَ يُكثِرُ من استدلالِهِ بالرّوايات ويعتمــدُ أكثرها.على حين أنَّ الفخرَ الرّازي ما كانَ يعتمدُ على الرّوايات بالدّرجةِ نفسها وكانَ يقومُ بدراسات لغويَّة وعلى مستوى بيئته.والمهمُّ هو أنَّ هذينِ المفسّــرينِ كانا يُفسّرانِ الآيات بما يتبادرُ لهما منها وكأنَّها آياتٌ تابعةٌ لكتــابٍ عــاديٍ وليسَت تابعةً إلى كتابٍ سماويٍّ مُعجزٍ قائمٍ على منهجيَّةٍ وأصولِ تفسيرٍ.كذلــكَ فسَّروها بما يتنافى ومُعطيات صفتيِ اللَّهِ (**الرَّحمن الرَّحيم**).

ما فهمتُهُ من آيات سورة الصّافات:

فماذا فهمتُ أنا من هذه الآياتِ المذكورةِ أعلاه والمستمدّة من سورة الصّافات واستناداً إلى ما توصّلنا إليهِ من أصولِ تفسيرٍ وخاصّةً منها الأصلُ الرّابعُ وهو ضرورةُ مراعاة صفتي الرّحمان الرّحيم المضافتين إلى **بسمِ اللّهِ الرّحمن الرّحيم** ؟

إنَّ الآياتُ الكريمة الّتي قالَ اللّهُ تعالى فيها ﴿**إنَّ هذا لهو الفوزُ العظيم.لِمثلِ هذا فليعمل العاملون. أذلكَ خيرٌ نُزلاً أم شجرةُ الزّقّوم.إنا جعلناها فتنةً للظّالمين.إنّها شجرةٌ تخرُجُ في أصلِ الجحيم.طلعُها كأنّهُ رؤوسُ الشياطين.فإنّهم لآكلونَ منها فمالئونَ البطون.ثمّ إنَّ لهم عليها لَشَوْباً من حميم.ثمّ إنَّ مَرجعَهم لإلى الجحيم.إنّهم ألفوا آباءهُم ضالّين.فهم على آثارهم يُهرَعون.ولقد ضلَّ قبلهم أكثرُ الأوّلين.ولقد أرسلنا فيهم مُنذِرين.فانظُر كيفَ كانَ عاقبةُ المُنذَرين**﴾.

أقول:إنَّ القارئَ الّذي اطّلعَ على التّفسيرين آنفي الّذكر.لابدَّ أن يتساءل في حديثِ نفسهِ: لِننظُر كيفَ سيقلِبُ هذا الإنسانَ تلكَ المفاهيمَ الموروثةَ عن هذينِ المفسّرين الجليلين إلى ما يتّفقُ معَ مُعطياتِ صفتي (الرّحمن الرّحيم)؟؟ وإنَّ هذا التّساؤلَ سيدفعُ بهِ لِيُدقّقَ نظرهُ في كلِّ كلمةٍ سأكتُبُها ونفسُهُ تتراوحُ ما بينَ حالةِ مدٍّ وجذرٍ وحالةِ أقدامٍ وإحجامٍ لأهميّةِ الادّعاء المذكور.

أقول: لا تدعْ يا عزيزي نفسكَ على تلكَ الحال.بل انطلِق معي في عمليّةِ تدبُّري لهذه الآيات من سورةِ الصّافات باتّزانٍ وهدوء. ولسببٍ وجيهٍ واحدٍ وهو أنّكَ الآن تقفُ على عتبةِ تطهيرِ سُمعةِ ربِّكَ ممّا ألصقوهُ بهِ من أمورٍ، وبدونِ قصدٍ من جانبهم رحمهم اللّهُ تعالى، من أمورٍ تتقزّزُ لها نفسُ العاقلِ المفكّرَ وليسَ نفسُ المقلّدِ العاميّ الّذي يستمعُ لِذاكَ التّفسيرِ من دونِ تدبُّرٍ وتمحيص.

فأنا لن آتي بشيءٍ عُجاب. بل إنَّ كلَّ ما سأفعلهُ هو القيامُ بعمليَّةِ تدبُّرٍ لكلامِ اللّهِ عزَّ وجلَّ وضمن شروطِ عمليَّةِ هذا التّدبّر المطلوب منّي ومن كلِّ من يتصدّى لِتفسيرِ هذه الآيات الكريمة وغيرها وامتثالاً لأمرِ ربٍّ جليل القدر اللّهُ الّذي أنزلَ هذا الكتابَ العزيزَ مُتحدّياً بِهِ الجنَّ والإنسَ ومن مُنطلق أنَّهُ كتابٌ غيرُ عاديّ ولهُ ميِّزاتهُ وخصائصهُ وأسلوبهُ الخاصُّ في بيانِ ما يريدُ اللّهُ أن يبيِّنَهُ فيه.

ولا ينبغي أن يغرُبَ عن ذهنِ هذا القارئ بأنّي أنطلقُ في شرحي لهذه الآياتِ من سورةِ الحاقةِ استناداً لِمُعطَيات البحثِ الّذي كُنتُ أجريتهُ سابقاً حولَ مفهومِ عذاب النّار الأخرويّ.والّذي راعيتُ فيهِ مُعطيات صفتيّ(**الرّحمان والرّحيم**)عندما كنتُ أرجعُ إلى معاني الألفاظ.وأراعي أنَّ القرآنَ الكريمَ يفسِّرُ بعضهُ بعضاً من باب أنَّ عناصرَ الموضوعِ الواحدِ مُوزَّعٌ هنا وهناكَ وعلى مُختلَفِ سورِ القرآنِ الكريمِ وبما لا يُخلُّ بتسلسُلِ مضامينها الموضوعي.وهل يُعقلُ أن أتغاضى عن ذلكَ كلِّهِ في هذا المقام؟؟

فحلُّ هذا الإشكال الّذي أوقعتنا بهِ التّفاسيرُ القديمةُ يفرضُ علينا أن نُوجِّهَ إلى أن أنفُسنا أسئلةً كثيرةً قبلَ مُحاولةِ حلّهِ وكشفِ الخطأ المُرتكب فيه.فينبغي أن نتساءلَ هل أنَّ الأجسادَ التي تكونُ لهذا الإنسانِ في الآخرةِ هي نفسُ هذه الأجساد التّرابيَّة الّتي لهُ في حياتهِ الدّنيا ؟؟ وهل تنبُتُ في الجحيمِ شجرةٌ اسمها شجرةُ الزّقوم وطلعُها كأنَّهُ رؤوسُ الشياطينِ بالمفهومِ العاديِّ المعروف؟؟ وكيفَ تُصبحُ شجرةُ الزّقومِ المُشار إليها فتنةً للظّالمين؟؟فهذه أسئلةٌ ثلاثةٌ ينبغي الإجابةَ عنها أوّلاً ومن مُعطيات آيات هذا الكتاب العزيز نفسه.

ألا إنَّ مضامينَ هذا القرآنَ العظيمَ تَشكّلُ كُلاً لا يجوزُ تجزئتُهُ ولا يجوزُ تفسيرُ آياتهِ على صورةٍ يُناقضُ بعضُها بعضَها الآخر.فإن نحنُ دقّقنا نظرنا فيما أفادتنا بهِ آياتُ هذا القرآن العظيم يتبيَّنُ لنا بأنَّ أجسادَ الدّنيا تختلفُ في حقيقتها

عن أجسادِ الآخرة وعلى حسبِ ما أثبتُّهُ من قبل وخلافاً لهذا المفهوم السائدَ لدى المسلمينَ المُعاصرين لالتزامهم بتفسيري هذين المفسّرينِ الجليلينِ رحمهما اللَّهُ تعالى وهو أنَّ الإنسانَ يُبعثُ بهذه الأجساد التّرابيَّة.

فلو أنّنا ناقشنا المسألةَ من الوجهةِ العقليَّة نصلُ إلى أنَّهُ يستحيلُ بعث الإنسان بجسده التّرابيِّ إلا بمعجزة هي فوقَ مستوى عقولنا.لأنَّهُ قد باتَ معلوماً أنَّ الذّرَةَ التّرابيةَ يجري عليها تحوّلاتٌ كثيرة. فذرّةُ التّفاحة اليوم ربّما كانت ذرّةَ إنسان البارحة أو كانت ذرّةَ فاكهةٍ أخرى.فالإنسانُ نشأ من تُراب هذه الأرضِ. ويفنى جسدُهُ بعدَ موتهِ وتعودُ ذرّاتُ جسده تُراباً.ثمَّ إنَّ حجمَ الكَرة الأرضيَّةِ لم يتغيّر على مرِّ الزّمن بالرّغمِ من توالُدِ الإنسان وتكاثُره.وما أعظمَ قول المتنبّي رحمهُ اللَّه:

ولا أرى أديم هذه الأرض إلاّ من هذه الأجساد

فلو أنَّ ربّنا شاءَ بعثنا بهذه الأجسادِ التُرابيَّة.فإنَّ أحجامَ النّاسِ على مرِّ الزّمان قد زادَ أضعافاً مُضاعفةً عن حجمِ الكرَةِ الأرضيَّةِ نفسها بسبَبِ هذا التّكاثُر في عدد سكان هذه الأرض.ولقد ثبتَ بصورةٍ علميَّةٍ أنَّ جسدَ هذا الإنسان يتجدَّدُ أيضاً كلَّ سَنتينِ أو كلَّ ثلاث سنوات.فالّذي يعيشُ سبعينَ عاماً وسطيّاً يكونُ جسدهُ قد تجدَّدَ خمسة وعشرين مرّة وعليهِ فالقولُ ببعثِ هذه الأجساد ثانيةً من تُربةِ هذه الكرةِ الأرضيَّةِ وهي بهذا الحجمِ هو ادّعاءٌ لا يقبلهُ العقلُ ولا العلمُ ولا المنطقُ السّليمُ إلاّ القولُ بمُعجزةٍ إلهيَّةٍ وأنَّ هذا الأمرُ سيكونُ من إحدى مُعجزاتهِ سبحانهُ وتعالى.

لكنَّ السؤالَ الّذي ينبغي أن يظلَّ عالقاً بأذهاننا هو أنَّهُ لا يجوزُ لنا ادّعاءَ ذلكَ إلاّ بعدَ تقديمِ نصٍّ شرعيٍّ يؤيّدُ ما ندّعيهِ.وإلاّ يكونُ تبريرنا لما ادّعيناهُ باطلاً.وعليهِ فمن واجبنا أن نُثبتَ أوّلاً بأنَّ اللّهَ تعالى سيبعثُ هذه الأجساد الترابيَّة نفسها ومن ثمَّ نبحثُ عن النّصِ المطلوب.

فأنا ذكرتُ ما ذكرتُهُ آنفاً من قبيلِ مُناقشةِ هذه المسألة من الوجهةِ العقليَّة.أمّا عندَ مُناقشتنا لها من الوجهةِ القرآنيَّة فإن نحنُ عُدنا إلى النّصوصِ القرآنيَّة نُلاحظُ بأنَّ اللّهَ تعالى يقولُ في الآية ٤٨ من سورةِ الحجر (لا يمسُّهم فيها نصبٌ وما هم منها بمُخرجين).فهذا كلامٌ يخبرنا عن حالِ أهلِ الجنَّة.وهو أنَّ أهلها لهُم أجسادٌ (**لا يمسُّهم فيها نصبٌ**).فكلمةُ (**نصبٌ**) أتتْ من قولكَ:نصبَ الرّجلُ معناهُ أنَّهُ تعبَ وأعيا فهذا ما وردَ في معجم (محيط المحيط).والنّصبُ سببُهُ الحركةُ وبذل الجهد.والآياتُ تقولُ بحقِّ أهلِ الجنّة(**فأقبلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءلون**)ولا يحدُث ذلكَ إلاّ بالحركة.فأهلُ الجنّةِ يتحركون والإنسانُ الّذي يتحرَّكُ بجسده التّرابيّ ينصب أي يتعبُ.وهذا الفرقُ يثبُتُ منهُ أنَّ أجسادَ أهلِ الجنَّةِ تختلفُ عن أجسادِ أهلِ الأرض.ويؤكّدُ ما فهمناهُ من هذه الآيةِ المذكورة ما وردَ في الآية ٣٥ من سورةِ فاطر وهو قولهُ تعالى هناك بحقِّ أهلِ الجنّةِ أيضاً (**وقالوا الحمدُ للّهِ الّذي أذهبَ عنّا الحزَنَ إنَّ ربّنا لَغفورٌ شكور.الّذي أحلّنا دارَ المُقامةِ من فضلِهِ لا يمسُّنا فيها نصبٌ ولا يمسُّنا فيها لُغوب**)وعليهِ فالأجسادُ مُختلفةٌ حسبَ مُعطيات هاتينِ الآيتينِ على أقلِّ تقدير.وما دامَ قد ثبتَ اختلافُ الأجساد فلا حاجةَ بنا للزّعمِ بأنَّ اللّهَ تعالى سيبعثُ أجسادنا التّرابيَّة بمُعجزةٍ ولو أنَّ أحجامها باتتْ أضعافَ أضعافَ حجمِ الكرةِ الأرضيَّة.وعلى هذه الصّورة نكونُ قد أجبنا على السؤالِ الأوّلِ المتعلّقِ بحقيقةِ أجساد أهلِ الجنَّةِ من الوجهتين العقليَّةِ والقرآنيَّة.وأثبتنا بالتّالي بأنَّ أهلَ الجنَّةِ يكونُ اللّهُ تعالى قد بعثهم بأجساد غير هذه الأجساد التّرابيَّة.وتختلفُ بالتّالي حقيقةُ ثمار الجنَّةِ أيضاً عن ثمارِ الأرض فهي تكونُ من أنواعٍ مُختلفةٍ في حقيقتها عن أنواعِ ثمار هذه الدّنيا إنّما يأتي اللّهُ تعالى بها مُتشابهةً مع أشكالِ ثمارِ هذا العالَم الدّنيوي.

هذا وإنَّ هذه الحقيقةَ الّتي توصّلنا إليها آنفاً تُلقي بظلالها على مفهوم كلمةِ (**الزّقوم**)على أقلِّ تقدير.فيكفي أن نعتقدَ بأنَّ (**شجرةَ الزّقوم**) لن تكونَ بُنيتُها من ماهيَّةِ أشجارِ هذا العالم المادّي الّذي نعيشُ في ظلاله.ثمَّ إنَّهُ معَ توصُّلِنا إلى هذه النّتيجةِ يبقى من واجبنا أن نوضّحَ كيفَ تنبُتُ هذه الشجرة (**شجرةُ الزّقوم**) في أصلِ الجحيم؟؟

والآنَ أسألُ هذا القارئَ بعدَ الّذي ذكرناه:هل لاحظتَ يا عزيزي ماذا فعلتُهُ أنا حينَ قلتُ في الجملةِ الأخيرةِ (أن نوضِّحَ كيفَ تَنبُتُ هذه الشجرة في أصلِ الجحيم).؟ فأنا أجيبُ من نفسي على هذا السؤالِ المطروحِ وأقول: أ فَلم تُلاحظ يا عزيزي كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى أعرضَ في هذه الآيةِ الكريمةِ الّتي قالَ تعالى فيها (**إنّها شجرةٌ تَخرُجُ في أصلِ الجحيم**) كيفَ أنّهُ لم يَقُل (**تَنبُتُ**) وهي الكلمة الّتي يستعملها أهلُ الأرضِ من المزارعين.بل إنَّهُ تعالى أوردَ بدلاً عنها كلمةَ (**تخرُجُ**) والتي تستعمل ضدَّ كلمةِ تدخل.ومعلومٌ أنَّهُ لا يُقالُ عن الشجرِ أنَّهُ يخرُجُ من الأرضِ بل يُقالُ ينبُتُ الشجرُ من الأرض ففعل (**ينبُتُ**) هو الأصحُّ استعمالاً لذلكَ كانَ علينا أن نتساءلَ عن حكمةِ هذا الاستبدالِ الحادث في هذه الآيةِ الكريمة.ويكفي أن نعتبرَ هذا الاستبدالَ قرينةً لُغويَّةً دالّةً على أنَّ كلمةَ (**شجرة**) لم يُقصد بها
الشجرَ المادّيَّ المعروف.فلو قُصدَ بها هذه الشجرة المعروفة لكانَ اللّهُ تعالى قد استعملَ لها فعل (**تنبت**) وليسَ فعل (**تخرُج**).

والآنَ نتناولُ كلمةَ (**الزّقوم**) نفسها فما هو معناها اللُّغويّ الواردُ في معاجم اللّغة العربيَّة؟ إنَّ كلمةَ زقّوم أتتْ من قولكَ: زقَمهُ بمعنى لقّمه.فإن قلتَ لقَّمتُ بندُقيَّتي فمعناهُ أنّني لقّمتُها الرّصاصةَ المطلوبة (محيط المحيط).وما دامَ اللّهُ تعالى قد استعملَ فعل (**تخرجُ**) عوضاً عن (**تنبتُ**)فهذه قرينةٌ لُغويَّةٌ يُستدلُّ منها أنَّهُ تعالى قد استعملَ هذه الكلمةَ على سبيلِ الاستعارةِ وليسَ على سبيلِ

الحقيقة.ثمَّ إنَّ الشجرةُ تكونُ عبارةً عن نبتةٍ صغيرةٍ في بدايةِ عمرها.ومن ثمَّ تنمو وتكبُرُ وتُصبحُ على مرِّ السنوات شجرةً ظليلةً.ويكُونُ اللَّهُ جلَّ شأنهُ قد استعارَ كلمةَ (**شجرة**) للتّعبيرِ بها عن الآثارِ النّاريَّةِ الّتي تنجُمُ عن أعمالِ الإنسانِ والّتي تتراكمُ على مرِّ الأيّام وطوالَ عُمره.ولتُصبحَ في نهايةِ المطافِ (**شجرةٌ تخرُجُ في أصلِ الجحيم**) ووفقَ هذا التّعبيرُ الأدبيُّ البليغُ الواردُ في كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ علماً بأنَّ هذه الكلمةَ **الجحيم** تعني النّارَ شديدةَ التّأجُّجِ والمكان شديد الحرّ (محيط المحيط).

وعلى هذه الصّورة وبهذا التّدرُّجِ الّذي أجريناهُ خلالَ عمليَّةِ تدبُّرنا قوله تعالى (**إنّا جعلناها فتنةً للظّالمين.إنّها شجرةٌ تخرُجُ في أصلِ الجحيم**).نكونُ قد توصَّلنا إلى ما أثبتُّهُ سابقاً في البحثِ الّذي قُمتُ بهِ بما يتعلَّقُ بنارِ جهنَّمَ وحقيقتها من مُعطيات مُختلَفِ آيات سورِ القرآن المجيد. وهو أنَّ لكلِّ عملٍ يعملهُ الإنسانُ ولكلِّ صفةٍ يتَّصفُ بها آثارٌ ناريَّةٌ أو نورانيَّةٌ تتراكمُ على مرِّ عُمُرِ هذا الإنسان وتبدو في يمينِ هذا الإنسان أو في شمالهِ على شكلِ كتابٍ منشورٍ يومَ البعثِ الأكبرِ وتؤمرُ ملائكةُ اللَّهِ تعالى أن يغلّوهُ ليعودَ غارقاً في جحيمِ ما تركتهُ أعمالُهُ أو في نورِها.فيُساقُ هذا إلى الجنَّةِ ويُساقُ ذاكَ إلى الجحيم. أي إلى المكانِ السحيقِ البعيدِ عن ذات اللَّهِ جلَّ شأنهُ وعن أنوارهِ عزَّ وجلّ حيثُ تبدأُ نيرانُ الحسرات والآهات تصدُرُ عن أصحابِ الجحيم.لحرمانهم ممّا راحَ الصّالحون يتمتَّعونَ بهِ من فضلِ ربِّهم وقُربهم منهُ جلَّ وعلا.ويجدونَ هناكَ ما وعدهم ربُّهم في حياتهم الدّنيا حقّاً ممّا لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلبِ بشر.

وبعدَ أن فرغنا من مُحاكمةِ ذلكَ كلّهِ نبحثُ في كتابِ اللَّهِ تعالى لِنَنْظُرَ هل استعارَ جلَّ شأنهُ كلمةَ (**شجرة**) في مقامٍ آخرَ من كتابهِ العزيز ؟والحقّ هو أنّنا نعثرُ على قولهِ تعالى في الآيات ٢٣-٢٥ من سورةِ إبراهيم الّتي يقولُ تعالى

فيها (**ألَم ترَ كيفَ ضربَ اللّهُ مثلاً كلمةً طيّبةً كشجرة طيِّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء.تؤتِي أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ويضرِبُ اللّهُ الأمثالَ للنّاسِ لعلّهُم يتذكَّرون.ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشَجرة خبيثةٍ اجتُثّت من فوقِ الأرضِ ما لها من قرار**). فلقد شبَّهَ اللّهُ تعالى (**الكلمَةَ الطّيبةَ**) و (**الكلمةَ الخبيثة**)بالشجرةِ في هذه الآيات الكريمة.وعليهِ فإنَّ كلمةَ (لا إلهَ إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه) وما يترتّبُ عليها من اعتقاد وعملٍ يكونُ تعالى قد شبّهها (**كشجرةٍ طيِّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء**). أمّا كلمةُ الكفرِ وما يترتّبُ عليها من اعتقاد وعمل يكونُ تعالى قد شبَّهها (**كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثّتْ من فوقِ الأرضِ ما لها من قرار**).

وعليهِ يكونُ القرآنُ الكريمُ قد شبَّهَ الاعتقادَ والأعمالَ وما ينجُمَ عنهما من آثارٍ جهنّميّةٍ ناريّة بالشجرة وإنّهُ أمرٌ واردٌ ولهُ مثيل.وإنَّ استعارةَ كلمة (**الشجرةِ**) لموضوعِ ما تراكمَ من آثارٍ ناريَّةٍ تظهرُ بعدَ الموتِ ويومَ البعثِ الأكبر .كذلكَ استعمال (**شجرة الزّقوم**) لِتلكَ الآثارِ النّاريَّةِ المُتراكمة الّتي إن غُلّت تبدو **كالجحيم المستَعِر** ليسَ هو بمُستغرب أيضاً بل إنَّهُ تشبيهٌ بليغ.

وأنا عندما فهمتُ من (**كلمةٍ خبيثةٍ**) ما ذكرتُهُ آنفاً.فقد فهمتُ هذا المعنى من مُعطيات قولِهِ تعالى في الآية ٧٤ من سورةِ التّوبة (**يحلفونَ باللّهِ ما قالوا ولقد قالوا كلمةَ الكفرِ وكفروا بعدَ إسلامهم..**).ومعلومٌ أنَّ (**الخُبثَ**) وعلى حسبِ ما وردَ في (الكلّيات) معناهُ :ما يُكرهُ رداءةً وخِسَّةً محسوساً كان أو معقولاً ويتناولُ ذلكَ الباطلَ في الاعتقادِ والكذب في المقالِ والقُبح في الفِعال..)وضدّ (**الطّيِّب**) في لُغةِ الضّاد (محيط المحيط).

وينبغي أن نُلاحظَ بأنَّ اللّهَ تعالى اكتفى في هذه الآية بقولِهِ (**أصلُها ثابتٌ**) ولم يقل **وأصلُها ثابتٌ في الأرض**.والحكمةُ من ذلكَ هو أنَّ كلمةَ (**ثابتٌ**) بدونِ ذكرِ كلمةِ الأرض معناهُ (**دائم**). على حينِ لو قالَ تعالى ثابتٌ في

الأرضِ لكانَت كلمة (**ثابتٌ**) تعني مُستقرٌ (محيط المحيط).ومعلومٌ أنَّ الإنسانَ لا يستقرُّ في الأرضِ بل يدخلُ عالَمَ البرزخِ بعدَ موته.ويحملُ بالتّالي معهُ آثارَ اعتقادهِ وآثارَ أعماله النّاريَّة. لذلكَ قالَ اللَّهُ تعالى بحقِّ (**الشجرة**) خبيثةً كانت أو كانَت طيِّبة (**أصلُها ثابتٌ**) ولم يقُل أصلها ثابتٌ في الأرض.

ومن واجبنا أن نُلاحظَ أيضاً قولَ اللَّهِ تعالى وهو يشبِّهُ الكلمةَ الطيّبةَ بالشجرة.فهو تعالى قال (**وفرعُها في السماء**).فأشارَ من خلالِ ذلكَ إلى أنَّ الاعتقادَ الحقَّ والعملَ الصّالحَ يُقرِّبُ صاحبهُ من السّماء أي يُقرِّبهُ من ربِّهِ عزَّ وجلّ. فقد كنّى تعالى بكلمةِ (**السماء**) هنا عن ذاتهِ جلَّ شأنه.لاشتقاقِ هذه الكلمةِ من السموّ. وهو تعالى قد شبَّهَ الكلمة الخبيثة وقال ((**اجتُثَّت من فوق الأرضِ ما لها من قرار**). أي أنَّ الاعتقادَ الباطلَ والعملَ الخبيث مآلُهُ إلى النّار.فالشجرةُ الّتي اجتُثّت من فوقِ الأرض تبقى جذورُها في المكانِ الّتي اقتُطعت فيهِ من فوق الأرض.أمّا الشجرة نفسها فتيبس وتعودُ حطباً ووقوداً للنّار.وعليهِ فقد أُريدَ بجذورِ تلكَ الشجرة الّتي(**اجتُثَّت من فوقِ الأرضِ**)أُريدَ منها أصحابُها من أصحابِ الاعتقادات الباطلة والعمل الخبيثِ.فهؤلاء لا يفنونَ ولكنهُم يُبعثونَ يوم القيامةِ وتبدو آثارُ ما اعتقدوهُ وعملوهُ عبارةً عن نيرانٍ مُشتعلةٍ جهنَّميَّة.

وينبغي أن نُلاحظَ كيفَ أنَّ اللَّهَ تعالى حينَ شبَّهَ الكلمةَ الطّيِّبةَ بالشجرةِ قالَ بحقِّها(**تؤتِي أُكلَها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها**).فلماذا لم يقل (**تُثمرُ**) ؟ الحكمةُ من ذلكَ يكمنُ في دلالةِ فعل (**تؤتِي**).فهو فعلٌ اشتُقَّ من قولكَ:أتَتْ الشجرةَ طلعَ ثمرها معناهُ أنَّهُ ظهرَ أثَرُ صلاحيَّتها وسلامتها من الأمراضِ (محيط المحيط)وفي ذلكَ إشارةٌ إلى ما يترُكُهُ الاعتقاد الحقّ والعملُ الصّالح من آثارٍ نورانيَّةٍ تظهرُ في هذه الحياةِ الدّنيا على شكلٍ بشاراتٍ يتلقّاها المؤمنُ في حياتهِ

وتدلُّ على قربهِ من ربِّهِ جلَّ شأنه.بينما لا تبدو مثلُ هذه الآثار الرّوحيَّة على أصحابِ الاعتقادِ الباطلِ والعمل غير الصّالح.

والآنَ وبعدَ جميعِ ما وضَّحتُهُ وبيَّنتُهُ فهل يعودُ قارئُ هذه الحقائق يرضى التّسليمَ بما ورثهُ من تفاسيرِ هؤلاء المفسّرين القدماء رحمهم اللّهُ تعالى من معاني تُشينُ الّذاتَ الإلهيَّةَ المقدّسة الّتي لها هذا (**الجمال والجلال**) والّذي عبَّرت عنهُ صفتا (**الرّحمان الرّحيم**) **واللّتان تُشكّلانِ الأصلَ الرّابعَ من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن المجيد ؟؟** فإن لم تُقنعهُ دلائلي هذه وما قدَّمتُهُ لهُ من بيّناتَ.فأنا على الأقلّ مُقتنعٌ بجميعِ ما ذكرتُهُ له قناعةً تامّةً لا تقبلُ المُراجعةَ ولا الشكَّ.

وبعدَ أن حُلَّ إشكالُ (**شجرة الزّقوم**) وحقيقتها.نأتِ إلى إشكالٍ أقلَّ أهمِّيَّة وقعَ فيهِ المفسّرونَ القدماء رحمهم اللّهُ تعالى ورضي عنهم.فقد أشكلَ عليهم معنى كلمة (**فتنة**) الواردة في قولهِ تعالى (**إنّا جعلناها فتنةً للظّالمين**).فقد وردَ في معجم (محيط المحيط) أنَّ للفتنةِ أكثرَ من معنى.فهي تعني **أوّلاً** الخبرةَ والابتلاء.**ثانياً** تعني الضّلالَ والإثمَ والكُفرَ **ثالثاً** تعني الفضيحة.**رابعاً** تعني العذاب.**خامساً** تعني المرضَ والجنون.**سادساً** تعني العِبرة.**سابعاً** تعني المالَ والأولاد لقولهِ تعالى (**إنّما أموالكُم وأولادُكم فِتنة**).**لذا نتساءلُ** : أيَّةُ المعاني تنطبقُ على كلمةِ (**فتنة**) في هذا المقام؟

والّذي أراهُ هو أنَّ اللّهَ تعالى استعملَ كلمةَ(**فتنة**)في الآيةِ المذكورة بمعنى العذاب.والّذي يؤكّدُ هذا المعنى هو قولهُ تعالى بعدَ هذه الآيةِ الكريمةِ مُباشرةً (**إنّها شجرةٌ تخرُجُ في أصلِ الجحيم**)**فالهاء في** قولهِ تعالى (**إنّها**) راجعٌ إلى كلمةِ (**فتنة**) الّتي أخذنا لها معنى العذاب. ويكونُ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد نبَّهَ من خلالِ قولهِ هذا ذهنَ القارئ إلى نوعيَّةِ العذاب المقصود بكلمةِ (**فتنة**).وهو أثارُ الأعمالِ الّتي شبَّهها بشجرةِ الزّقوم.والّتي تمثّلُ حقيقةَ عذابِ الظّالمين. فبهذا المعنى يستقيمُ هذا

التّسلسُلَ الموضوعيَّ للآياتِ الكريمة.هذه الآيات الّتي صيغت صياغةً بلاغيَّةً مُعجزةً يتبادرُ لذهنِ القارئ منها غيرَ المقصود بها.وقد صوَّرَ اللّهُ جلَّ شأنهُ من خلالِها ما شاءَ بيانهُ تصويراً فنّياً رائعاً أيضاً.

وقد أشكلَ على المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّه تعالى تفسيرَ قولهِ تعالى (**طَلعُها كأنَّهُ رؤوسُ الشياطين**).فكلمةُ (**الشياطين**)جمعٌ مُفردُهُ (**شيطان**) ومعناهُ الوجودُ المُحترق.وقد اشتقَّ من فعل شاطَ.

(محيط المحيط).ومعلومٌ أنَّ الشيءَ الّذي يحترقُ يتطايرُ منهُ شررٌ.وإنَّ اللّهَ تعالى قد صوَّرَ حالةَ هذا الإنسان الجهنَّميّ تصويراً فنّياً رائعاً صوَّرها وقال (**طلعُها كأنَّهُ رؤوسُ الشياطين**).

فلمّا فرغَ اللّهُ تعالى من بيانِ ذلكَ كُلّهِ أتى بثلاث آيات كريمةٍ لخّصت جميعَ ما ذكرهُ تعالى بشأنِ آثارِ أعمالِ الإنسان ابتداءً من الدنيا وانتهاءً في الآخرة وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزةٍ فقال: (**فإنَّهم لآكلون منها فمالئونَ منها البُطون.ثمَّ إنَّ لهم عليها لَشوباً من حَميم.ثمَّ إنَّ مَرجعَهُم لإلى الجحيم**). فهذه الآياتُ الثلاثة الأخيرة قد اشتملت على إشكالٍ واضحِ المعالم في نظرِ المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّه وهو كيفَ تصلحُ **شجرةُ الزّقّوم** كطعامٍ لأهلِ النّار ؟ والّذي أراهُ هو أنَّ الّذي لا يحاولُ البحثَ عن آياتٍ تُفسّرُ إشكالَ هذه الآيةِ الّتي أمامه يقعُ في مثلِ هذا الإشكال الّذي وقعوا فيه. ومن بابِ أنَّ القرآنَ الكريمَ يُفسّرُ بعضهُ بعضاً.

أو لم يتذكّرُ هذا القارئ الآيةَ العاشرةَ من سورةِ النّساء الّتي أوردتُها حينَ رُحتُ أعطيهِ فكرةً عن البحث الّذي قمتُ بهِ والّذي يوضّحُ حقيقةَ نارِ جهنَّم؟؟فاللّهُ عزّ وجلَّ قالَ فيها(**إنَّ الّذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظُلماً إنّما يأكلونَ في بطونِهم ناراً وسيصلَونَ سعيراً**).أي أنَّ اللّهُ جلَّ شأنهُ وصفَ هنا عمليَّةَ أكلِ أموال اليتامى مُنبِّهاً إلى أنّها عمليَّةٌ تترُكُ آثاراً ناريّةً في بطونهم.وإنَّ هذه الآثارَ الناريَّةَ سيصلاها آكلُ أموال اليتامى يومَ القيامة سعيراً أي ناراً مُلتهبةً

جحيميَّة.وقد عبَّرَ تعالى عن ذلكَ كلِّهِ باستعارةِ فعل (**يأكلون**). وعلى شاكلةِ ما استعارَ نفسَ الكلمةِ فيما نحنُ بصدَده وهو قولِهِ تعالى (**فإنَّهم لآكلـــونَ منـــها فمالئونَ منها البطون**). فهناكَ قالَ تعالى (**يأكلونَ في بطونهم ناراً**) وهنا قـــال (**فمالئونَ منها البطون**)بمعنى أنَّ تكرارَ أكلِ أموالِ اليتامى يملأُ بطـــونَ آكليـــها آثاراً ناريّةً يترُكها تكرارُ هذا الفعل الشنيع.وعليهِ فإنَّ فعل(**لآكلون**)الـــواردُ في هذه الآيةِ الكريمة استعملَ على سبيلِ الاستعارةِ والتّشبيه وليسَ علـــى ســبيلِ الحقيقة، وعلى شاكلةِ استعارتهِ جلَّ شأنهُ كلمة (**شجرة**) مـــن قبـــل للكلمـــة الطّيِّبة.فكلامُ اللّهِ تعالى وردَ في هذه الآيات جميعها مليئاً بالاستعارات والتّشـــبيهِ ومُعبِّراً فيهِ بأسلوبِ التّصوير الفنّي لما يُريدُ تعالى بيانه.وقد صيغَ ذلكَ كلِّهِ صياغةً بلاغيَّةً مُعجزةً يتبادرُ منها لِذهنِ القارئِ غيرَ ما قُصِدَ بها.خصوصاً وأنَّ اللَّهَ تعالى أتى بفاءي استئناف في الآية الّتي نحنُ بصددها.الأولى في قولهِ (**فإنَّهم**). وفـــاء الاستئناف الثانية في قولهِ (**فمالئون**).وكانَ القصدُ من إيرادِ كلِّ فاء اســـتئناف الإشارة إلى شيءٍ بعينهِ.وإلاّ فما كانَ من ضرورةٍ لإيراد الفاءين المذكورتين.

وها أنّهُ جلَّ شأنهُ يوردُ حرفَ (ثُمَّ) في بدايةِ الآيةِ الثالثةِ والّذي يُفيدُ هنـا معنى التّرتيب ويقول (**ثُمَّ إنَّ لهم عليها لَشَوباً من حميم**).وقد أشارَ تعالى بحـــرفِ التّرتيب المذكور إلى المرحلة الثالثة الّتي تأتي على هذا الظالم والّتي عبَّرَ عنـــها في سورةِ الحاقَّة بقولهِ تعالى(**خذوهُ فغلّوهُ.ثُمَّ الجحيمَ صَلّوه**)وهو القـــول الّـــذي شرحتُهُ على وقتهِ من قبل.

فلاحظ يا عزيزي القارئ كيفَ أنَّ اللَّه تعالى أوردَ من خلالِ قولهِ (**لَشوباً مـــن حميم**) أقولُ أوردَ كلمةَ(**لَشـــوباً**) وهـــذه الكلمـــةُ تعـــني الشـــائبةَ والخلـــطَ والأهوال(محيط المحيط).وهذه المعاني تؤكّدُ دلالةَ ما سيحدثُ في الدّارِ الآخـــرة والّذي دلَّ عليهِ قولهُ تعالى من قبلُ (**خذوهُ فغلّوهُ.ثُمَّ الجحيمَ صلّوه**)فهذه العمليَّةُ (**غُلّوهُ**) القصدُ منها إبرازَ هذه الشائبةَ النّاريَّةَ التي حملها الظّالمُ نفسهُ من آثـــارِ

أعمالِهِ الجهنَّميَّةِ والّتي خلطَ فيها ما هو صالحٌ وما هو فاسدٌ وليواجهَ في الآخرة ما يجري عليها من أهوالٍ تنتجُ عنها. أمّا قولهُ تعالى الّذي أضافهُ على تلكَ الكلمة(**من حميم**) فالحميمُ هو الماءُ الساخنُ.وقد أشارَ بذلكَ إلى أنَّ هذه الظّالم سيتصبَّبُ عرقاً شبيهاً بالماءِ الساخنِ بعدَ أن تُنفّذُ الملائكةُ أمرَ ربِّها(**غلّوه**).وإنَّ في هذا التّصويرِ الفنّيِّ المُرعبِ تقريبٌ لِذهنِ الإنسانِ ما سيجري للكافرِ الظّالمِ في الآخرةِ من عذابٍ نفسيٍّ ليسَ إلاّ وبذلكَ نكونُ قد فهمنا مضمونَ هذه الآياتِ من سورة الصّافات بما لا يُخالفُ مُعطياتِ صفتَي اللّه (**الرّحمان والرّحيم**) اللّتين تضمَّنتا الأصلَ الرابعَ لِتفسيرِ آياتِ هذا القرآن العظيم.أي أنَّ جميعَ ما سيُواجهُ الكافرَ الظّالمَ في الآخرةِ هو من نتاجِ يديهِ وهو الظّالمُ لِنفسهِ لِعدَمِ استجابتهِ لِداعي اللّهِ تعالى الّذي دعاهُ لِيؤمنَ بهذه الحقائقَ الّتي تنجُمُ عن أعماله إن هو كانَ مّمن يعصونَ ربَّهُ عزَّ وجلّ.وإلاّ فإنَّ اللّهَ (**الرّحمانُ والرّحيمُ**) لا يظلِمُ أحداً من عباده.

وألخّصُ الآنَ للقارئ ما فسَّرتُ بهِ الآيات من سورة الصّافات فأقول: إنَّ كلامَ اللّهِ البليغُ والمعجزُ يتضمَّنُ دوماً معاني ودلالات يتبادرُ منها لذهنِ الإنسان غيرُ ما قُصِدَ بها.ولِيدفعَ اللّهُ تعالى عبدهُ المؤمنِ لِيتدبَّرَ كلامَ ربِّهِ بمنهجيَّةٍ وأصولَ تفسيرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز.ذلكَ أنَّ المثلَ السائرَ يقولُ:أمامكَ سرٌّ مستورٌ بقشَّة.والحقيقة هي أنَّ اللّهَ تعالى أخفى كلامهُ بقشَّةٍ ولا يحتاجُ من طرفِنا إلاَ أن نتدبَّرهُ بمنهجيَّةٍ وأصولِ تفسيرٍ من أجلِ مساعدتنا على رفعِ هذه القشَّةَ عن معاني ودلالاتِ آياتِ كتابهِ العزيز.فالقرآنُ الكريمُ استُعمِلَت فيهِ الأحرُفَ العربيَّةَ على أنواعها وبمختلَفِ استعمالاتها لكن في الأمكنةِ المناسبة لها. كما استُعمِلَت الكلماتُ العربيَّة بمختلَفِ معانيها.ولا يصيغُ اللّهُ تعالى كلامهُ مزيجاً من خارجِ هذه الأحرُفِ والكلمات.لكنَّهُ بصيغُهُ صياغةً بلاغيَّةٍ تتداخلُ فيها الحقيقةُ والمجازُ والاستعارةُ والتّشبيه والتّصوير الفنّيّ وغيرها من فنونِ البلاغةِ والحذفِ بأنواعهِ

وعلى صورة يستحيلُ على الإنسان أن يُجاري ربَّهُ في كلِّ ما ذكرته.فإن قـــامَ هذا المفسِّرُ يُفسِّرُ كلامَ ربِّهِ ويتدبَّرهُ وهو يقومُ بعمليَّةِ التّدبُّر المطلوبـــةِ بتلـــكَ المنهجيَّةِ وتلكَ الأصول يكتشفُ حينئذٍ المعاني الحقيقيَّة لِتلكَ الآيات الكريمة.لكنَّهُ يعجزُ في الوقتِ نفسهِ عن مُنازلةِ ما تدبَّرهُ من كلامٍ مقدّسٍ أوحيَ من لدُن اللّـــهِ تعالى إلى هذا الرّسولِ الأمّيِّ الصّادق والأمين صلى اللَّهُ عليهِ وسلَّم.

ولقد أوردَ اللَّهُ تعالى في هذه الآيات من سورة الصّافـــات اســتعملَ أوّلاً كلمةَ(**فتنة**)وبمعنى العذاب وهو معنى لا يستعملُ إلاّ نادراً.ومن ثَمَّ أشارَ تعالى من خلالِ ضمير (**إنَّها**) إلى كلمةِ العذاب وشبَّههُ (**بشجرة الزّقوم**)ومن مُنطلَـــقِ أنَّ الآثارَ النّاريَّةَ التي تنجُمُ عن أعمالِ الظّالمِ لِنفسهُ هي بمثابةِ تلقيـــمٍ لِبطنـــه فـــإذا (**غلَّت**) تلكَ الآثارُ النّاريَّةُ المتراكمةُ طوالَ عمرهِ يومَ البعثِ الأكـــبر تـــتراءى وكأنَّها جحيمٌ يتطايرُ منهُ شررٌ شبَّههُ تعالى(**برؤوسِ الشياطين**)أي كأنَّـــهُ رؤوسُ أشياء تحترق. كما استعارَ تعالى كلمةَ **الأكلِ** لِيُلخِّصَ ما ذكرهُ من عمليَّةِ التّلقيمِ التي أحدثتها أعمالُ العاصي في حياتهِ الدّنيا لِبطونِ هؤلاء الظّالمين. وكيـــفَ أنَّ ملائكةَ اللَّهِ تعالى إذا غلَّت هذا الظّالمَ يومُ القيامة يتصبَّبُ عرقاً من شدَّةِ الآثـــار الجهنَّميَّة التي تركتها أعمالُه.وهو هذا المعنى الّذي حملتهُ كلمةُ (**شوباً**).فعمليَّـــة غلّهِ هي الّتي تتسبَّبُ بعرقٍ ساخنٍ ينتُجُ عن الحالة الّتي يصيرُ إليها الظـــالمُ يـــوم القيامة.وبالتّالي فإنَّ معنى ذلكَ كلّهِ أنَّ مآلَ ومصيرَ الظّالم هو إلى (**الجحيـــم**) أي إلى نارٍ تستَعِر. فهذه هي خلاصةُ ما عمدَ اللَّهُ تعالى إلى بيانهِ وبصياغةٍ بلاغيَّـــةٍ مُعجزةٍ في هذه الآيات الكريمة.فما أعظمهُ من إعجازٍ في التّعبيرِ والّذي أثبتَ جلَّ شأنهُ من خلالهِ مِصداقيَّةَ قولهِ تعالى (**وما ظلَمناهم ولكـــن كـــانوا أنفســـهم يظلمون**).فهذا هو ما توصَّلتُ إليهِ من معاني تلكَ الآيات من سورةِ الصّافّات.

سورةُ الدّخان وعذابُ الجحيم

وآتي الآنَ بأنموذجٍ ثالثٍ من آياتِ سورةِ الدّخان الّتي وردَ فيها قولُ ربِّنا عزَّ وجلّ (**إنَّ يومَ الفصلِ ميقاتُهم أجمعين.يومَ لا يُغني مولًى عن مولًى شيئاً ولا هُم يُنصرون.إلاّ مَن رَحِمَ اللّهُ إنَّهُ هو العزيزُ الرّحيم.إنَّ شجرةَ الزّقوم.طعامُ الأثيم.كالُمهلِ يغلي في البطون.كغَلي الحميم.خذوهُ فاعتِلوهُ إلى سَواء الجحيم.ثمَّ صُبّوا فوقَ رأسِهِ من عذابِ الحميم.ذُق إنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريم.إنَّ هذا ما كنتُم بهِ تَمترون**).

وقد تَبادرَ لأذهانِ المفسّرينَ القدماءِ رحمهم اللّهُ من هذهِ الآياتِ معاني تشيبُ لها الولدانُ وهي تَصوِّرُ للقارئِ عذابَ جهنَّم كأنَّهُ ساحةُ تعذيبٍ واسعةُ الأرجاء وقد امتلأت بوسائلِ تعذيبِ الآدميّين ممّا يفوقُ تصوُّرُه حدَّ الخيال.ويتنافى مع صفتيِ اللّهِ (**الرّحمان والرّحيم**) وأبدأُ بنقلِ ما أوردهُ ابنُ كثير.

ابنُ كثيرٍ وسورةُ الدّخان :

فلقد كتبَ ابن كثيرٍ رحمه اللّه يفسِّرُ هذه الآياتِ الّتي أوردتُها من سورةِ الدّخان وقال: (قال تعالى (**إنَّ يومَ الفصلِ ميقاتُهم أجمعين**) وهو يومُ القيامة يفصِلُ اللّهُ تعالى فيهِ بينَ الخلائقِ.فيُعذّبُ الكافرين ويُثيبُ المؤمنين.وقولُهُ عزَّ وجلّ (**ميقاتُهم أجمعين**) أي يجمعُهم كلّهم أوّلُهم وآخرهم.(**يومَ لا يُغني مولًى عن مولًى شيئاً**) أي لا ينفعُ قريبٌ قريباً.كقولِهِ سبحانهُ وتعالى (**فإذا نُفِخَ في الصّورِ فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون**) وكقولِهِ جلّت عظمتُهُ (**ولا يسألُ حميمٌ حميماً يُبصرونَهم**)أي لا يسألُ أخاً لهُ عن حالِهِ وهو يراهُ عَياناً. وقولهُ جلَّ وعلا (**ولا هم يُنصرون**)أي لا ينصُرُ القريبُ قريبهُ ولا يأتيهِ نصرهُ من خارجٍ.ثمَّ قال (**إلاّ مَن رَحِمَ اللّه**) أي لا ينفعُ يومئذٍ إلاّ رحمةُ اللّهِ عزّ وجلّ بخَلقِهِ (**إنَّهُ هو العزيزُ الرّحيم**) أي هو عزيزٌ ذو رَحمةٍ واسعة.ويقولُ اللّهُ مُخبراً عمّا يُعذّبُ بهِ الكافرين الجاحدين لِلقائه (**إنَّ شجرةَ الزّقوم طعامُ الأثيم**) والأثيمُ

أي قولهُ وفعلُهُ وهو الكافر.وذكرَ غيرُ واحد أنَّهُ أبو جهل لا شكَّ في دخولـهِ في هذه الآيةِ.ولكن ليست خاصّةً به.قالَ ابنُ جرير:حدَّثنا محمّد بن بشّار حدّثنـا عبدُ الرّحمان حدّثنا سُفيان عن الأعمش عن ابراهيم عن همّام بن الحارث أنَّ أبـا الدّرداء كانَ يُقرئُ رجلاً (**إنَّ شجرةَ الزّقوم طعـام الأثيـم**) فقـالَ طعـامُ اليتيم.فقالَ أبو الدّرداء (رض)قل إنَّ شجرةَ الزّقوم طعامُ الفاجر أي ليـس لـهُ طعامٌ من غيرها.قالَ مُجاهد ولو وقعت قطرةٌ منها في الأرض لأفسدت علـى أهلِ الأرضِ مَعايشهُم وقد تقدَّمَ نحوهُ مَرفوعاً.وقولهُ(**كالمهل**)قالوا كعكَرِ الزّيت. (**يغلي في البطون كغَلي الحميم**) أي من حرارتها ورداءتها.وقولهُ (**خـذوهُ**)أي الكافر.وقد وردَ أنَّهُ تعالى إذا قالَ للزّبانية خذوهُ ابتدرهُ سبعونَ ألفاً منهم.وقولـهُ (**فاعتلوه**)أي سوقوهُ سحباً ودفعاً في ظهرِه.قالَ مُجاهد (**خذوهُ فـاعتُلوه**)أي خذوهُ فادفعوه وقالَ الفرَزدق:

ليسَ الكرامَ بناحليكَ أباهم   حتّى تردَ إلى عطيَّةِ تعتُلُ

(**إلى سَواء الجحيم**)أي وسطها (**ثمّ صبّوا فوقَ رأسهِ من عذابِ الحميم**) كقولهِ عزَّ وجلّ (**يُصبُّ من فوقِ رؤوسهم الحميـم يُصـهرُ بـهِ مـا في بُطونهـم والجلود**)وقد تقدَّمَ أنَّ الملَك يضربهُ بمقمعةٍ من حديدٍ فتفتحُ دماغـه ثمَّ يُصبُّ الحميمُ على رأسهِ فيترلُ في بدَنِهِ فيسلُتُ ما في بطنهِ من أمعائه حتّى تَمرُقَ مـن كَعبَيه.أعاذنا اللّهُ تعالى من ذلك.وقولهُ تعالى(**ذُق إنَّكَ أنتَ العزيزُ الكـريم**)أي قولوا لهُ ذلكَ على وَجهِ التّهكُّم والتّوبيخ.وقالَ الضّحاك عن ابن عبّاس رضـي اللّهُ عنهما:أي لستَ بعزيزٍ ولا كريم.وقد قالَ الأمويّ في مَغازيهِ:حدّثنا أسـباطُ بن محمّد حدّثنا أبو بكرِ الهُذليّ عن عِكرِمة قال لَقيَ رسولُ اللّهِ (ص) أبا جـهلٍ لعنهُ اللّه فقال (إنَّ اللّهَ تعالَى أمرني أن أقولَ لكَ أولى لكَ فـأولى ثمَّ أولى لـكَ فأولى) قال: فترعَ ثوبهُ من يده وقال:ما تستطيعُ لي أنتَ ولا صاحبُكَ من شيء ولقد علِمتَ أنّي أمنعُ البطحاءَ وأنا العزيزُ الكريم.قالَ فقتلهُ اللّهُ تعالى يومَ بَـدرٍ

وأذلّهُ وعيَّرهُ بكلمتِهِ وأنزلَ (**ذُق إنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريم**). وقولهُ عزّ وجلّ (**إنَّ هذا ما كُنتُم بِهِ تمترون**) كقولِهِ تعالى (**يومَ يُدعَونَ إلى نار جهنَّم**) دعا هذه النّار الّتي كنتم بها تكذّبون. (**أفسحرٌ هذا أم أنتُم لا تُبصرون**) ولهذا قالَ تعالى هـهنا (**إنَّ هذا ما كُنتم بِهِ تمترون**).

فهذا هو التّفسيرُ الّذي فسَّرَ بِهِ ابنُ كثيرٍ رحمه اللّهُ تلكَ الآياتِ من سورة الدّخان الّتي أوردتُها سابقاً.ويتبيَّنُ منهُ أنَّهُ اعتبرَ شجرةَ الزّقوم شجرةً كسائر الأشجار لكنَّها يتغذّى بها الفاجر ولها زيتٌ إن سقطت منهُ قطرةٌ على الأرضِ أفسدت أهلَ الأرض.كما فسّرَ قولهُ تعالى (**خذوهُ فاعتلوهُ**)أنَّ سبعينَ ألفِ ملكٍ يُسارعونَ إلى سوقِ الجهنَّميّ سحباً ودفعاً على ظهره ويلقون بهِ في وسطِ الجحيم حيثُ يضربهُ ملكٌ بمقمعةٍ من حديدٍ فتفتحُ دماغهُ ثمَّ يصُبُّ الحميمُ على رأسه.

وإنَّ الّذي يُفسِّرُ تلكَ الآياتِ الكريمةِ بهذه المعاني يُصوِّرُ اللّهَ عزَّ وجلّ كجزّارٍ طاغيةٍ يُجازي العاصي بما لا يوازي أعمالهُ ومعاصيه.ولا يكونُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللّهُ أيضاً قد راعى مُعطياتُ صفتي اللّهِ (**الرّحمان الرّحيم**) **اللّتان** تضمّنتاهما البسملة.

الفخر الرّازي وسورةُ الدّخان:

وكتبَ الفخرُ الرّازي رحمه اللّهُ وهو يُفسِّرُ تلكَ الآياتِ من سورة الدّخان فقال: (اعلم أنَّهُ تعالى لمّا أقامَ الدّلالة على أنَّ القولَ بالقيامة حقّ.ثمَّ أردفهُ بوصفِ ذلكَ اليوم ذكرَ عقيبهُ وعيدَ الكُفّار ثمَّ بعدهُ وعدَ الأبرار.أمّا وعيدُ الكفّار فهو قوله (**إنَّ شجرةَ الزّقوم طعامُ الأثيم**).وفيهِ مسائل: **المسألة الأولى** قال صاحبُ الكشاف:قُرِئَ(إنَّ شجرةَ الزّقوم)بكسر الشين ثمَّ قال وفيها ثلاث لُغات شجرة بفتح الشين وكسرها وشيرة بالياء وشبرة بالباء.(**المسألة الثانية**)البحثُ عن اشتقاق لفظ (الزّقوم) قد تقدَّمَ في سورةِ الصّافات.فلا فائدة

في الإعادة. (**المسألة الثالثة**)قالت المعتزلة الآية تدلّ على حصول هـذا الوعيد الشديد للأثيم.والأثيمُ هو الّذي صدرَ عنهُ الإثم.فيكونُ هذا الوعيدُ حاصلاً للفُسّاق. (والجواب)أنّا بيّنا في أصولِ الفقهِ أنّ اللّفظَ المفرد الّذي دخلَ عليهِ حرفُ التّعريف ، الأصلُ فيهِ أن ينصرفَ إلى المذكور السابق ولا يفيدُ العموم.وههنا المذكور السابق هو الكافر فينصرفُ إليه. (**المسألة الرّابعة**)مذهب أبي حنيفة أنَّ قراءةَ القرآن بالمعنى جائز.واحتجَّ عليه بأن نقلَ أنَّ ابنَ مسعود كانَ يُقرئ رجلاً هذه الآية فكانَ يقول طعامُ اللّئيم.فقال قل طعام الفاجر.وهذا الدّليل في غايةِ الضّعفِ على ما بيّناهُ في أصولِ الفقه.ثمّ قال (**كالمهل**)قُرئَ بضمِّ الميم وفتحها.وسبقَ تفسيرُه في سورة الكهف.وقد شبَّهَ اللّهُ تعالى هذا الطّعامَ بالمُهل.وهو رديء الزيت وعكر القطران ومُذابُ النّحاس وسائر الفلزات.وتمَّ الكلامُ ههنا.ثمَّ أخبرَ عن غليانه في بطونِ الكُفّار فقال (**يغلي في البطون**) وقُرئَ بالتاء.فمن قرأ بالتّاء فلِتأنيثِ الشجرة.ومن قرأ بالياء حملَهُ على الطّعام في قولهِ(**طعامُ الأثيم**)لأنَّ الطعام هو ثمرُ الشجرة في المعنى.واختارَ أبو عُبيد الياءَ لأنَّ الاسمَ المذكور يعني المُهل هو الّذي يلي الفعل فصار التّذكيرُ بهِ أولى واعلم أنّهُ لا يجوزُ أن يُحملَ الغلي على المُهل .لأنَّ المهل مشبَّه به.وإنّما يغلي مايُشبّهُ بالمُهل كغلي الحميم.والماءُ إذا اشتدَّ غليانُه فهو حميم.ثمّ قال (**خذوهُ**)أي خذوا الأثيم (**فاعتلوه**)قُرئ بكسر التّاء.قال اللّيث:العَتلُ أن تأخُذَ بمنكبِ الرّجُل فتعتِلَهُ أي تجرُّهُ إليك وتذهب بهِ إلى حبسٍ أو مِحنة وأخذ فلانٌ بزمامِ النّاقة يعتِلُها وذلكَ إذا قبضَ على أصلِ الزمام عند الرّأس وقادها قوداً عنيفاً. وقالَ ابن السكّيت عتلهُ إلى السجن وأعتلهُ إذا دفَعتهُ دفعاً عنيفاً.هذا قول جميع أهل اللّغة في العتل وذكروا في اللُّغتين ضمُّ التاء وكسرُها وهما صحيحان مثل يعكفون ويعكُفون ويعرشون ويعرُشون. قولهُ تعالى (**إلى سواء الجحيم**)أي إلى وسطِ الجحيم(**ثمّ صبّوا فوقَ رأسهِ من عذابِ الحميم**)وكانَ الأصل أن يُقال ثمّ صبّوا من فوقِ

رأسهِ الحميم أو يُصبُّ من فوقِ رؤوسهم الحميم.إلاّ أنَّ هذه الاستعارة أكمل في المبالغة كأنَّهُ يقول:صبّوا عليهِ عذابَ ذلك الحميم.ونظيرهُ قولهُ تعالى(**ربَّنا أفرِغ علينا صبراً**)و(**ذق إنَّكَ أنت العزيزُ الكريم**)وذكروا فيهِ وُجوهاً (الأوّل) أنَّهُ يُخاطبُ بذلكَ على سبيلِ الاستهزاء.والمراد إنَّكَ أنت بالضّدِ منه.(والثاني)أنَّ أبا جهل قال لرسولِ اللّهِ(ص)ما بينَ جبليها أعزُّ ولا أكرمُ منّي.فواللّه ما تستطيعُ أنتَ ولا ربُّكَ أنْ تفعلا بي شيئاً (والثالث)أنَّكَ كنت تعتزُّ لا باللّه فانظُر ما وقعتَ فيه وقُرئَ أنَّكَ بمعنى لأنَّكَ ثمَّ قال (**إنّ هذا ما كُنتم بهِ تمترون**) أي أنَّ هذا العذاب ما كنتم بهِ تمترون أي تشُكّون والمراد منهُ ما ذكرهُ في أوّلِ السورة حيثُ قال(**بل هم في شكٍّ يلعبون**) .

فالّذي يبدو لنا ممّا نقلناهُ من تفسيرِ الرّازي رحمه اللّه لتلكَ الآيات من سورة الدّخان أنَّهُ لم يُخالف المعاني الّتي أخذها ابنُ كثيرٍ للآياتِ في شيء إلاّ في إقلالهِ من الاستنادِ إلى الرّوايات الكثيرة أثناء قيامهِ بعمليَّةِ التّفسير.وكانَ يرجعُ أحياناً إلى معاني بعضِ الألفاظ لُغويّاً وعلى قَدَرِ مُعطيات زمانه.

وعلى العموم فإن كانَ القارئُ قد أمعنَ نظرهُ فيما نقلناهُ يُدركُ بأنَّ العلاّمة الرّازي رحمهُ اللّه لم يُلاحظ تقيُدهُ بمنهجيَّةِ وأصولِ التّفسيرِ التي أشرحها وأبيّنها في هذا المؤلّف.ولا هو راعى مُعطيات صفتيّ (**الرّحمان الرّحيم**) المتضمّنتين الأصلَ الرّابعَ من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن العظيم.بل وتركَ قارئَ تفسيره يهتزُّ هلعاً من الخوفِ من المعاني التي تبنّاها رحمهُ اللّهُ تعالى لذلكَ فسأحاولُ تدبُّرَ تلك الآيات وأحاولُ شرحها حسبَ فهمي واجتهادي ومراعياً في ذلك مُعطيات أصولِ التّفسير وخاصَّةً منها هذا الأصلُ الرّابعُ النّابعُ ممّا أُضيفَ في البسملة من صفتيّ (**الرّحمان الرّحيم**).

ما فهمتُهُ من آيات سورة الدّخان:

قالَ اللّهُ تعالى في سورةِ الدّخان (**إنّ يومَ الفصلِ ميقاتُهم أجمعين.يومَ لا يُغني مولًى عن مولًى شيئاً ولا هم يُنصَرون.إلاّ مَن رَحِمَ اللّهُ إنّهُ هو العزيزُ الرّحيم.إنّ شجرةَ الزقّوم.طعامُ الأثيم.كالمُهلِ يغلي في البُطون.كغَلي الحميم.خذوهُ فاعتِلوهُ إلى سَواءِ الجحيم.ثمّ صبّوا فوقَ رأسهِ من عذابِ الجحيم.ذُق إنّكَ أنتَ العزيزُ الكريم.إنّ هذا ما كُنتُم بهِ تمترون**)

إنّ القارئَ الّذي كانَ طالعَ ما كُنتُ فسّرتُ بهِ الآياتِ من سورةِ الصّافات.لابدَّ أن يتذكّرَ كيفَ أنّنا اخترنا لكلمةِ (**فتنة**)معنى (**العذاب**) وأصبحَ معنى قولهُ تعالى (**إنّا جعلناها فتنةً للظّالمين**)أي أنّ اللّهَ جلَّ شأنُهُ قد جعلَ شجرةَ الزّقوم بمثابةِ النُّزُلِ الّذي سيُنزَلُ فيهِ الظّالمونَ ليَنالوا عذابهم الّذي يستحقّونهُ فيه.

فلماذا أوردتُ هنا كلمةَ (**النُّزُل**) ؟ أقول:إنّ الّذي دفعني إلى ذلكَ هو قولُ اللّهِ تعالى هناكَ وقبلَ هذه الآيةِ مُباشرةً (**أذلكَ خيرٌ نُزُلاً أم شجرةُ الزّقوم.إنّا جعلناها فتنةً للظّالمين**)فموضوعُ كلام اللّهِ تعالى كانَ يدورُ إذن حولَ نُزُلِ كلِّ فريقٍ تتكلّمُ عنهما سورةُ الصّافات.وقد سمّى اللّهُ تعالى نُزُلَ الظّالمينَ أنفُسهم باسم(**شجرة الزّقوم**) كما هو واضحٌ من هذه الآيةِ الكريمة.وإنّ تسميةَ نُزل الظالمين بهذا الاسم وعلى حسبِ ما بيّنتُ عند شرح آيات سورة الصّافات هو تشبيهٌ بليغٌ ولم يكن هذا التّشبيهُ غريباً عن أسلوبِ هذا القرآن المجيد خصوصاً وأنّ اللّهَ تعالى كانَ قد شبَّهَ في سورةِ الصّافات تراكُمَ الآثار النّاريَّة الّتي تترُكُها أعمالُ الظالمين بعمليَّةِ ملءِ البطون.حيثُ قال (**فإنّهم لآكلونَ منها فمالِئونَ منها البُطون**).

ثمّ إنّ اللّهَ تعالى عادَ فشبَّهَ من جديدٍ تلكَ الآثار النّارية الّتي تترُكُها أعمالُ الظّالمين الآثمين هنا في سورةِ الدّخان وقال(**إنّ شجرةَ الزّقّوم.طعامُ**

الأثيم). فالأثيمُ في اللُّغةِ العربيَّةِ هو الظَّالمُ الَّذي عملَ عملاً لا يحلُّ لهُ عمله.فـهو مُتجاوزٌ لِحدوده (محيط المحيط)

ولمّا كانت شجرةُ الزّقوم تُعبِّرُ عن الآثار النّاريَّةِ لأعمالِ الأثيم الظّالم.فهي بالتّالي وكما وصفها اللَّهُ تعالى هنا وقال (**كالمُهلِ يغلـــي في البُطـون**) أي أنَّ التّشبيهَ اللُّغويَّ جرَّ هذا التّشبيهَ بالمُهلِ لِتضخيمِ حقيقةِ تلكَ الآثار النّاريَّة النّاجمـة عن الأعمال.فكلمةُ(**المُهل**)لا يجوزُ أخذها بمعناها الحقيقيِّ وهو الاسـمُ الّـذي يجمعُ معدنيّاتِ الجواهر كالفضَّة والحديد ونحوهما والقطرانُ الرّقيقُ وما يتحـات عن الخبزةِ من الرّمادِ والجمرِ والسمّ والقيح وصديد الميِّت خاصَّة هذه المعـاني الواردة في معجم(محيط المحيط).بل علينا الأخذَ بمعانيها المجازيَّةِ بداعي التّشـابيه السابقة.خصوصاً وأنَّ أعمالَ الظالم الأثيم تشتملُ على مُتفرّقاتٍ تُوازي هـذه الأنواع الّتي دلَّت عليها كلمةُ (المُهل) أيضاً.

وإنَّ ما يُثبتُ صحَّةَ هذا الرّأي الّذي أبديتُهُ هو أنَّ اللَّهَ تعالى أتى بكـاف التّشبيه في قولِهِ تعالى (**كالمُهل يغلي في البطون**) وأتى بكاف التّشبيه للمرَّة الثانيةِ ضمنَ قولِهِ تعالى بعدَ ذلك(**كَغلي الحميم**) وهل هناكَ من ضرورةٍ للإيتاءِ بكافَي التّشبيه هاتَين لولا أن كانَ اللَّهُ تعالى قد أرادَ إفادةَ معنى التّشبيهِ في هذا الآيـات الكريمة ؟؟

وقد اشتَبهَ على المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّه قولُ اللَّهِ تعـالى (**خـذوهُ فاعتلوهُ إلى سَواءِ الجحيم**) فحملوا الكلمات على معانيها الحقيقيَّة وعلى مـا تبادرَ منها لأذهانهم بسببِ أنَّهم لم ينتبهوا إلى أنَّ الآيات صيغت دلالاتُها بصيغ التّشبيهِ الّذي دلَّت عليهِ الكاف المبدوءُ بها كلُّ آيةٍ على حسبِ ما أثبتُّهُ وبيَّنتـهُ آنفاً فلذلكَ أخذ الفخر الرّازي رحمهُ اللَّهُ لكلمةِ (**سَواء**) من قولـهِ تعـالى (**إلى سواءِ الجحيم**) معنى (**وسط الجحيم**).على حينِ أنَّ هذا المعنى لا يتَّفـقُ وهـذا المقام.فلماذا ؟

ألا إنَّ كلمةَ (**سواء**) تحملُ ستَّةَ معاني فهي:

أوّلاً تعني العدل.قيلَ ومنهُ في سورةِ الأنفال (**فانبذ إليهم على سواء**) أي على عدل.

ثانياً وتعني الوسطَ بينَ الحدّين حيثُ يُقال مكانٌ سَواء.

ثالثاً وتعني (**غير**) فتقولُ جاءوا سَواءَ فلان.

رابعاً وتعني الذّروة فتقول قعدَ في سَواءِ الجبل أي في ذروته.

خامساً وتعني مُنتصفَ الشيءِ فتقولُ لَقَيتُهُ في سَواءِ النّهار أي في مُنتصفه.

سادساً كما تعني المكانَ المستوي حيثُ يُقال مكانٌ سواءٌ أي مستوي (محيط المحيط).

وفي رأيي فإنَّ هذا المعنى الأخير هو المعنى المناسب للأخذِ بهِ في هذا المقام.فكلمةُ (**سواء**) استُعيرت هنا للتّعبيرِ بها عن نُزُل الظالمين أي أنَّ اللّهَ تعالى يأمرُ ملائكتهُ أن يعتلوا الظّالمين إلى المكانِ المستوي الّذي خصّصهُ نُزلاً لهم لإقامتهم فيه،وبعيداً عن ربِّهم جلَّ شأنه.وهو المَكانُ المُخصَّصُ لِيلقَونَ العذابَ فيه.

فهذا هو السّببُ في أنَّ اللّهُ تعالى أتى بعدَ ذلكَ بحرف (ثمَّ) وقال (**ثمَّ صُبّوا فوقَ رأسهِ من عذاب الحميم**).ولنلاحظ كيفَ أنَّهُ جلَّ شأنهُ لم يقُل (صبّوا فوقَ رأسهِ الحميم) بل قال (صبّوا فوقَ رأسهِ **من عذاب** الحميم) فحرف الجرّ(من) في هذا المقام تفسيريَّة.أي صبّوا من نوعِ العذاب المُشابه للعذاب الّذي ينشأُ عن صبِّ الماء الساخن فوقَ الرّأس.وليسَ أن تصبّوا على رأسهِ ماءً ساخناً.

أضف إلى ذلكَ أنَّ العذابَ في حدِّ ذاتهِ ليسَ هو بشيءٍ ماديّ بل هو شيءٌ نفسيّ.وهذه قرينةٌ لُغويَّةٌ تجعلُنا لا نأخذُ لكلمةِ (**صُبّوا**) معناها الحقيقيّ بل أن نأخذَ لها معناها المجازيّ. فأنتَ تقول: صُبَّت المصائبُ في هذه الأيّامِ على

رأسي.والمصائبُ ليست شيئاً مادّياً لِتُصبُّ فوقَ رأسكَ وتكون قد استعملتَ فعل الصبّ حينئذٍ بمعناهُ المجازيّ .

ويصيرُ معنى هذه الآيةِ الكريمة أنَّ اللّهَ تعالى يأمرُ يومَ القيامة ملائكتَهُ أن يعتُلوا الظّالمينَ إلى المكان الّذي يُحرمونَ فيهِ ممّا يتمتَّعُ بهِ أهلُ النّعيم من فضلِ ربِّهم.وهناكَ تنتابُهم مُختلفُ أنواعِ العذاب النّاتجِ عن سوءِ أعمالهم من جهةٍ. والناتجُ عن بُعدِهم عن ربِّهم عزَّ وجلَّ من جهةٍ ثانية.وقد صيغت هذه المعاني بصياغةٍ تصويريَّةٍ رائعةٍ وبلاغيَّةٍ أيضاً .

وقد أكّدَ اللّهُ تعالى هذا المعنى الّذي توصّلنا إليهِ حينَ قالَ بعد ذلك (**ذُق إنّكَ أنتَ العزيزُ الكريم**).فكلمةُ (**ذُق**) أكّدت لنا حقيقةَ ما توصّلنا إليهِ من معنى.ومن باب أنَّ لهذه الكلمة معنيان: **المعنى الأوّل** يتعلّقُ بحاسَّةِ الذائقة ويكونُ الذّوقُ حينئذٍ ذَوقاً مادّياً كأن يتناولُ الذّائقُ اليسيرَ من ملحِ الطّعامِ أو غيره.**والمعنى الثاني** يُفيدُ اختبارَ شيءٍ من الأشياءِ وتجربته (محيط المحيط).وإنَّ المعنى الثاني هو المقصودُ في هذا المقام.وهو المعنى الّذي يؤكّدُ صحَّةَ ما فهمناهُ من الآيةِ السابقة.من أنَّ الّذي تعتِلهُ ملائكةُ اللّهِ يومَ القيامة إلى سواءِ الجحيم تنتابهُ هناك آلامُ النّدامةِ على ما فعلهُ في دنياهُ كما يحزنُ من جرّاءِ إبعادهِ عن التّمتُّعِ بقُربِ اللّهِ خالقه.ويتلظّى بالآثارِ النّاريَّةِ الّتي نجمت عن أفعالهِ الآثمةِ في الحياةِ الدّنيا ولا تعودُ الدّموعُ والآهاتُ تُفارقهُ بشكلٍ من الأشكال. فاللّهُ جلَّ جلالُه يقولُ لهُ (**ذُق**) ليسَ لِيتناول شيئاً مادّيّاً وليتذوّقه.ولكن لِيختبر حقيقةَ ما أنذرهُ رُسلُ اللّهِ تعالى بهِ إيّاهُ في الدّنيا وما نبَّهتهُ إليهِ تعاليمُ كُتُبِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ في حياتهِ الدّنيا.وكأنَّ اللّهَ تعالى يُعيدُ إلى ذاكرةِ هذا الظالم الأثيم قولَ ربِّهِ في كتابهِ العزيز (**وما ظلَمناهم ولكن أنفُسهم كانوا يظلمون**)وقولهُ تعالى (**كلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة**).

ولنُلاحظ كيفَ أنَّ اللَّهَ تعالى وبعدَ أن خاطبَ هـذا الظـالم بقولـهِ (**ذُق**)**فقد** أتى تعالى بحرف التّأكيد (**إنَّ**) وقال يُذكِّرهُ بمواقفهِ في الحياة الدّنيا التي حالت ما بينهُ وما بينَ قبولِ هذه الحقائق الّتي كانَ رُسُلُ اللَّهِ تعالى يُنبِّهونهُ إليـها وقال (**إنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريم**).بمعنى أنَّ اهتمامكَ في دُنياكَ أن تكونَ زعيماً أو مِلكاً أو أن تكونَ ثريّاً كبيراً هو الّذي أوصلكَ إلى هذا الحال الّذي صِرتَ إليـه في الحياة الآخرة.

فالمعلومُ هو أنَّ هذين السببين يحولانِ دوماً ما بين الإنسان ومـا بـينَ الاهتداء إلى سَواء السّبيل. وهي الحقيقةُ الّتي دلّتنا عليها آياتٌ كثيرةٌ في كتـاب اللَّهِ العزيز.فكبراءُ القومِ لا يكونونَ من السابقينَ إلى قبولِ الهُدى على حينِ يتقبّلهُ في بدايةِ الطّريق (**أراذلُ**) النّاسِ أي ضعفاؤهم وفقراؤهم.ثمَّ إنَّ أثرياءَ النّاسِ قلّمـا يهتدي واحدٌ منهم في بدايةِ الطّريق.

وسأحاولُ الآن تلخيصَ جميع ما شرحتُهُ آنفاً بما يتعلّقُ بما فهمتُهُ أنا مـن تلكَ الآيات من سورةِ الدّخان فأقول:لقد تبادرَ لأذهان المفسّرينَ القدماء رحمهم اللَّه من قولهِ تعالى (**ذُق إنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريم**) أنَّ اللَّه تعالى يسخرُ ويستهزئُ بالظالمين.لكنّي أربأ أن أنسبَ هذا المعنى لهُ تعالى في هذا المقام.بل إنَّهُ تعالى يذكّرُ هذا الظالمَ بسببَينِ رئيسيّينِ حالا دونهُ ودونَ الإيمان والاستفادة ممّا نبّهتهُ إليـهِ تعاليمُ ربِّهِ في حياته الدّنيا.وإن تبادرَ في ظاهرِ الأمرِ لِذهنِ القارئ أنَّ اللَّهَ تعـالى يسخرُ ويستهزئُ بالظّالم في هذه الآيةِ الكريمة.فأنا نبّهتُ القارئَ أكثر من مـرَّة إلى أنَّ المعنى المُتبادرُ لذهنِ القارئ لا يكونُ في الأغلب هو المقصودُ من النّـصِّ القرآنيّ.ولذلكَ أمرنا اللَّهُ تعالى أن نتدبَّرَ كلامهُ المقدّس في هذا القرآن المجيد.

فلكلمةِ (**العزيز**) أكثر من معنى.وما دامَ اللَّهُ تعالى استعملَ هذه الكلمـة مُعرَّفةً بالألف واللّام العهديَّة. فاللَّهُ تعالى يُذكّرُ هذا الظّالمَ بما هو معهودٌ في ذهنهِ من أنَّهُ كانَ يعتزُّ بكونهِ شريفَ قومهِ وقد حرمهُ هذا الاعتزازُ من نعمةِ الهداية.

كذلكَ أوردَ تعالى كلمةَ (**الكريم**) مُعرَّفةً أيضاً لِيُذكِّرَ هذا الظّالمَ بما هو معهودٌ في ذهنهِ من أنَّهُ كانَ يعتزُّ في الدّنيا بكونهِ من أثرياءِ قومهِ فحرمهُ هذا الاعتزازُ من نعمةِ الهدايةِ أيضاً.

وإنَّ ما يؤكِّدُ بأنَّ اللَّهَ تعالى قد أشارَ من خلالِ قولهِ تعالى (**ذُق إنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريم**)إلى هذه المعاني الّتي أوردتُها آنفاً هو أنَّهُ تعالى أتى بحرف التّأكيد للمرّةِ الثانية وقال (**إنَّ هذا ما كُنتُم بهِ تَمتَرون**) فالملاحظُ هو أنَّ اللَّهَ تعالى لم يقُل (**فيهِ تَمترون**)بل قالَ(**بهِ تَمترون**)ثمّ إنَّ فعل تمترون اشتُقَّ من ماراهُ في الأمرِ بمعنى جادلهُ ونازعهُ وطعنَ في قوله تزييناً للقولِ وتصغيراً للقائل (**محيط المحيط**).

فاللّهُ جلَّ شأنهُ قالَ بأسىً ظاهرٍ إنَّكم أيُّها الظّالمونَ سواءَ أ كنتم من زعماءِ القومِ أو كنتم من أثريائهم فقد كنتُم تسمعونَ هذه الحقائقَ المتعلّقةَ بالآثارِ النّاريَّة للأعمال فكنتُم تُمارونَ بها أي تطعنونَ بها تزييناً لأقوالكم وتصغيراً لأقوالِ المُرسلينَ من جانبنا.بينما تذوقونَ اليومَ طعمَ ما كنتم بهِ تمترون.

وعلى هذه الصّورة فقد تبيَّنَ للقارئ من خلالِ ما وضّحتُهُ من معاني هذه الآياتِ الكريمة الّتي فسَّرتُها بأصول تفسيرها، أقولُ تبيَّنَ للقارئ خطأَ تفاسير المفسِّرينَ القدماء رحمهم اللَّهُ لها وخطأَ المعاني الّتي تبادرت منها لأذهانهم والّتي تتنافى ومُعطياتِ صفتيَ اللَّهِ (**الرّحمان الرّحيم**) اللّتين تضمَّنتاهما هذه البسملة الواجبُ علينا أن نبتدئَ بها تلاوة كلِّ سورةٍ من سُورِ هذا القرآن الكريم. فالبسملة(**بسمِ اللَّهِ الرّحمن الرّحيم**) قد تضمَّنت هذا الأصل الرّابع من أصولِ تفسيرِ آيات هذا القرآن المجيد.وبذلكَ أكونُ

قد قدّمتُ للقارئ حتّى اللّحظة أمثلةً ثلاثةً من سورٍ ثلاثةٍ هي(الحاقّة والصّافات)والدّخان وقدَّمتُ فيها الآيات المتعلّقة بعذابِ الآخرة.وبيَّنتُ نواحي الخطأ الّذي وقعَ فيهِ المفسّرونَ القدماء رحمهم اللَّه حينَ فسّروها بدونِ مُراعاةِ

الأصلِ الرّابع للتّفسير.ويبقى عليَّ أن أتناولَ الآيات من سورةِ الواقعة الّتي بحثت موضوعَ العذاب من جانبٍ آخر ووردَ فيها كلمة (**شَجَرٍ من زقّوم**).

سورةُ الواقعة وعذابُ الجحيم:

وأتناولُ بالتّدبُّر قولَ اللّهُ جلَّ شأنهُ في سورةِ الواقعة (**قــل إنَّ الأوّلــينَ والآخرين.لَمجموعونَ إلى ميقات يومٍ مّعلـــوم.ثُمَّ إنّكـــم أيُّــها الضّـــالون المُكذّبون.لآكلونَ من شجرٍ من زقّومٍ.فمالئونَ منها البُطون.فشاربونَ عليهِ من الحميم.فشاربونَ شُربَ الهيم.هذا نُزُلُهم يومَ الدّين**)الواقعة الآيات٤٩-٥٦

وقبلَ أن أبيّنَ ما فهمتُهُ أنا من هذه الآيات الكريمةِ أقتبسُ للقارئ ما فسَّرها بــهِ المفسّران المعروفان وهما ابنُ كثير والفخر الرّازي رحمهما اللّهُ تعالى:

ابنُ كثير وسورةُ الواقعة:

تتساءلُ أوّلاً عمّا فهمَهُ ابنُ كثير رحمهُ اللّهُ من هذه الآيات الكريمة مــن سورةِ الواقعة؟؟ كتبَ يقول :((**قُل إنَّ الأوّلينَ والآخريـــنَ لَمجموعــونَ إلى ميقات يومٍ معلوم**)أي أخبرهم يا محمَّد أنَّ الأوّلينَ والآخريـــن مـــن بـــني آدم سيُجمَعونَ إلى عَرصات القيامة لا يُغادرُ منهم أحد كما قالَ تعالى (**ذلكَ يـــومٌ مجموعٌ لهُ النّاس وذلكَ يومٌ مَشهود.وما نؤخِّرهُ إلاّ لأجلٍ معدود.يومَ يـأتِ لا تكلّمُ نفسٌ إلاّ بإذنهِ فمنهم شقيٌّ وسعيد**) ولهذا قالَ هـــهُنا (**لمجموعــونَ إلى ميقات يومٍ معلوم**) أي هو مؤقّت بوقتٍ محدود لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّر ولا يزيـــدُ ولا ينقُص.(**ثُمَّ إنّكم أيُّها الضّالّونَ المكذّبون.لآكلونَ من شجرٍ مـــن زقّــوم. فمالئونَ منها البُطون**) وذلكَ أنّهم يقبضون ويُسجرونَ حتّى يأكلوا من شـــجرِ الزّقوم حتّى يملؤوا منها بُطونهم (**فشاربونَ عليهِ من الحميم فشاربونَ شُـــربَ الهيم**) وهي الإبلُ العطاش واحدُها أهيم والأنثى هيماء.ويُقال هائم وهائمة.قـالَ ابنُ عبّاس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة:الهيمُ الإبل العطاش الظماء وعـــن عِكرمة أنّهُ قال:الهيمُ الإبل المراض تمصُّ الماءَ مصّاً ولا تروى.وقال السدي: الهيمُ

داءٌ يأخذُ الإبل فلا تروى أبداً حتّى تموت.فكذلكَ أهلُ جهنَّم لا يروونَ من الحميمِ أبداً.وعن خالد بن مَعدان أنَّهُ كانَ يكرَهُ أن يشربَ شُربَ الهيم غبَّةً واحدةً من غيرِ أن يتنفَّسَ ثلاثاً.ثمَّ قالَ تعالى (**هذا نُزُلُهم يوم الدّين**)أي هذا الّذي وصفنا هو ضيافتُهم عندَ ربِّهم يوم حسابهم.).

فأنتَ لابُدَّ وأنَّكَ لاحظتَ يا عزيزي القارئ كيفَ أنَّ ابنَ كثيرٍ رحمه اللّه اعتمدَ في تفسيرِ تلكَ الآيات من سورةِ الواقعة على ما وصلهُ من رواياتٍ ولم يُفسِّرها استناداً إلى منهجيَّةٍ وأصولِ تفسير.وندعهُ لِننظر بما فسَّرَ الفخر الرّازي بهِ الآيات المذكورة.

الفخر الرّازي وسورةُ الواقعة:

كتبَ رحمهُ اللّهُ يقول (**قُل إنَّ الأوّلين والآخرين لَمجموعونَ إلى ميقات يومٍ معلوم**) فقولهُ قُل إشارةٌ إلى أنَّ الأمرَ في غايةِ الظّهور.وذلكَ أنَّ في الرّسالةِ أسراراً لا تُقالُ إلاّ للأبرار.ومن جُملتها تعيينُ وقت القيامة.لأنَّ العوام لو علموا لاتّكلوا.والأنبياء ربّما اطّلعوا على علاماتها أكثر مّما بيّنوا وربّما بيّنوا للأكابر من الصّحابة علامات على ما نُبيّن.ففيهِ وجوه (**أوَّلها**)قوله (قل)يعني أنَّ هذا من جُملةِ الأمور التي بلغت في الظّهور إلى حدٍّ يشتركُ فيهِ العوام والخواص.فقال قُل قولاً عامّاً وهكذا في كلِّ مَوضع.قالَ قُل كانَ الأمرُ ظاهراً.قال اللّهُ تعالى (**قل هو اللّهُ أحد**)وقال(**قل إنّما أنا بشرٌ مثلُكم**) وقال(**قل الرّوحُ من أمرِ ربّي**)أي هذا هو الظّاهر من أمرِ الرّوح وغيرهُ خفيٌّ. (**ثانيها**)قولهُ تعالى (**إنَّ الأوّلينَ والآخرين**) بتقديم الأوّلين على الآخرين في جوابِ قولهم (**أوَ آباؤنا الأوّلون**) فإنَّهم أخّروا ذكرَ الآباء لكونِ الاستبعاد فيهم أكثر.فقال (**إنَّ الأوّلين**) الّذينَ تستبعدون بعثهم وتؤخّرونهم يبعثُهم اللّه في أمرٍ مُقدَّم على الآخرين.يتبيَّنُ منهُ إثباتُ حال من أخّرتموهُ مُستبعِدين. **إشارةً إلى كونِ الأمر هيّناً** (**ثالثها**)قولهُ تعالى(**لمجموعون**)فإنَّهم أنكروا قولهُ(**لمبعوثون**)فقال هو واقعٌ معَ

أمرٍ زائدٍ وهو أنّهم يُحشرونَ ويُجمعون في عرصةِ الحساب وهذا فوقَ البعث.فإنَّ مَن بقيَ تحتَ التّراب مدّةً طويلةً ثمَّ حُشِر ربّما لا يكونُ لهُ قدرةٌ على الحركة. وكيفَ لو كانَ حيّاً محبوساً في قبره مُدَّةً لَتعذّرت عليهِ الحركة.ثمَّ إنَّهُ تعالى بقُدرتهِ يحرِّكهُ بأسرع حركة ويجمعهُ بأقوى سَير .وقولهُ تعالى (لمجموعون) فوقَ قَول القائل مجموعون كما قُلنا.إنَّ قولَ القائل إنَّهُ يموت في إفادة التّوكيد دونَ قولهِ إنَّهُ ميّت. (رابعها)قولهُ تعالى(**إلى ميقات يومٍ معلوم**)فإنَّهُ يدلُّ على أنَّ اللَّهَ تعالى يجمعُهم في يومٍ واحد معلوم واجتماعُ عَدَدٍ من الأموات لا يعلمُ عددهم إلاّ اللَّهَ تعالى في وقتٍ واحدٍ أعجبُ من نفسِ البعث وهذا كقولهِ تعالى في سورةِ الصّافات (**فإنّما هي زجرةٌ واحدةٌ**) أي أنتم تستبعدونَ نفسَ البعث والأعجب من هذا أنَّه يبعثُهم بزجرةٍ واحدة أي صيحةٍ واحدة.(**فإذا هم ينظرون**)أي يُبعثونَ مع زيادة أمر وهو فتحُ أعيُنِهم ونظرهم.بخلافِ من نعِسَ فإنَّهُ إذا انتبهَ يبقى ساعةً ثمَّ ينظُرُ في الأشياء فأمرُ الإحياء عند اللَّهِ تعالى أهونُ من تنبيهِ نائم.(خامسُها)حرف (إلى) أدلّ على البعث من اللّام ولنذكُر هذا في جواب سؤال هو أنَّ اللَّهَ تعالى قال(**يوم يجمعُكم لِيومِ الجمع**) وقال هنا (**لمجموعون إلى ميقات يومٍ معلوم**) ولم يقُل لميقاتنا.وقال(**ولَمّا جاءَ موسى لِميقاتنا**)نقول:لّما كانَ ذكرُ الجمعِ جواباً للمنكرين المُستبعدين ذكرَ كلمة (إلى)الّدالّة على التحرُّك والانتقال لتكونَ أدلّ على فعل غير البعث ولا يجمع هناك. قالَ (**يوم يجمعكم ليوم**)ولا يُفهم النّشور من نفسِ الحرف وإن كانَ يُفهم من الكلام.ولهذا قالَ ههُنا (**لمجموعون**) بلفظِ التّأكيد.وقالَ هناك (**يجمعُكم**)وقالَ ههنا (**إلى ميقات**) وهو مصيرُ الوقتِ إليه وأمّا قولهُ تعالى (**فلمّا جاءَ موسى لِميقاتنا**) فنقول:الموضع هناكَ لم يكن مطلوبُ موسى عليهِ السلام وإنّما كانَ مطلوبهُ الحضور.لأنَّ مَن وقت لهُ وقت وعينٌ لهُ مَوضع كانت حركتُهُ في الحقيقة لأمرٍ بالتبعِ لأمر.وأمّا هناكَ فالأمرُ الأعظمُ الوقوفُ في مَوضعهِ

لا زمانه.فقالَ بكلمة دلالتُها على الموضع والمكان أظهر.ثمَّ قالَ تعالى(**ثمّ إنّكم أيّها الضالّونَ المُكذّبون.لآكلونَ من شجرٍ من زقّوم فمالئونَ منها البُطون.فشاربونَ عليهِ من الحميم.فشاربونَ شُربَ الهيم**)في تفسيرِ الآيات مسائل:

(**المسألة الأولى**)الخطاب مع مَن؟نقول:قال بعض المفسّرين مع أهلِ مكّة.والظاهر أنّهُ عام مع كلِّ ضال مكذّب وقد تقدّم مثلُ هذا في مواضع.وهو تمام كلام النّبيّ (ص)كأنّهُ تعالى قال لِنبيهِ (**قل إنَّ الأوّلينَ والآخرينَ لَمجموعون**) ثمّ إنّكم تُعذّبونَ بهذه الأنواع من العذاب.(**المسألة الثانية**)قال هـهُنا (**الضالّون المكذّبون**)بتقديمِ الضّال وقال في آخر السورة(**وأمّا إن كانَ من المكذّبينَ الضالين**)بتقديم المكذّبين فهل بينهما فرق؟ قلتُ نعم.وذلكَ أنَّ المراد من الضالين ههنا هم الذي صدرَ منهم الإصرار على الحنثِ العظيم.فضلّوا في سبيلِ اللّهِ ولم يصلوا إليه ولم يُوحّدوه.وذلكَ ضلالٌ عظيم.ثمَّ كذّبوا رُسله وقالوا(أإذا مِتنا)فكذّبوا بالحشر.فقولُ (أيّها الضّالون)الذين أشركتم (المكذّبون)الّذين أنكرتم الحشر لتأكلونَ ما تكرهون.وأمّا هناك فقال لهم (أيّها المكذّبون)الذين كذّبتم بالحشر (الضالّون) في طريقِ الخلاص الّذين لا يهتدونَ إلى النّعيم.وفيهِ وجهٌ آخر وهو أنَّ الخطاب هنا مع الكفّار.فقال:يا أيُّها الّذين ضلَلتُم أوّلاً وكذّبتم ثانياً.والخطاب في آخر السورة مع محمّد (ص) يبيّن لهُ حالَ الأزواج الثلاثة فقال:المقرّبونَ في روحٍ وريحان وجنّةٍ ونعيم.وأصحابُ اليمين في سلام.وأمّا المكذّبون الذين كذّبوا فقد ضلّوا .فقدّمَ تكذيبهم إشارةً إلى كرامةِ محمّد (ص)حيثُ بيّنَ أنَّ أقوى سبَب في عقابهم تكذيبُهم.والّذي يدلُّ على أنَّ الكلام هناك مع محمّد(ص)قولهُ (**فسلامٌ لكَ من أصحاب اليمين**).(**المسألة الثالثة**) ما الزقّوم؟نقول قد بيّناهُ في مَوضعٍ آخر.واختلفَ فيهِ أقوالُ النّاس.ومآلُ الأقوال إلى كونِ ذلكَ في الطّعمِ مُرّاً وفي اللّمسِ حارّاً.وفي الرّائحةِ مُنتِناً وفي المنظرِ أسود لا

يكاد آكله يسيغُه.فيُكرهُ على ابتلاعُه.والتّحقيق اللّغوي فيه أنَّ الزّقوم لغية عربيّة دلّنا تركيبه على قُبحه.وذلكَ لأنَّ زق لم يجتمع إلاّ في مُهل أو في مكروه منه مزق.ومنهُ زمقَ شعرهُ إذا نتفه.ومنه القزم للدناءة.وأقوى من هذا أنَّ القافَ مع كلِّ حرف من الحرفينِ الباقيين يدلُّ على المكروه في أكثر الأمر.فالقاف مع الميم قمامة وقُمقمة.وبالعكس مقامق الغليظُ الصّوت.والقمقمة هو السور وأمّا القاف مع الزاي فالزقّ رميُ الطائر بذرقِه.والزقزقة الخفّة وبالعكس القزنوب فيُنفّر الطّبع من تركيبِ الكلمة من حروف اجتماعها دليلُ الكراهة والقُبح ثمَّ قُرنَ بالأكل فدلَّ على أنَّهُ طعامٌ ذو غصّة وأمّا ما يُقال بأنَّ العربَ تقول زقمتني بمعنى أطعمتني الزبد والعسل واللّبن فذلكَ للمجانّة كقولهم أرشقني بثوب حسن.وارجُمني بكيسٍ من ذهب.وقوله **(من شجر)**لابتداء الغاية أي تناولكم منه.وقوله **(فمالئونَ منها)** زيادة في بيان العذاب أي لا يكتفي منكم بنفس كما الأكل يكتفي من يأكل الشيء لِتحلّةِ القسم.بل يُلزمون بأن يملؤوا منها البطون.والهاء

عائدة إلى الشجرة.والبطون يُحتمل أن يكونَ المُرادُ منهُ مُقابلة الجمع بالجمع.أي يملأ كلُّ واحدٍ منكم بطنه.ويُحتمل أن يكونَ المراد أنَّ كلَّ واحدٍ منكم يملأ البطون.والبطونُ حينئذٍ تكونُ بطونُ الأمعاء لِتخيُّل وَصف المعي في باطن الإنسان له.كيأكُل في سبعةِ أمعاء.فيمالئونَ بطونَ الأمعاء وغيرها.والأوّل أظهر.والثاني أدخل في التّعذيبِ والوعيد.قولهُ **(فشاربونَ عليه)**أي عقيب الأكل تجرُّ مرارتُهُ وحرارتُهُ إلى شُربِ الماء فيشربون على ذلكَ المأكول وعلى ذلك الزّقوم من الماء الحار.وقد تقدَّمَ بيانُ الحميم. وقولهُ **(فشاربونَ شُربَ الهيم)** بيان أيضاً لزيادة العذاب أي لايكونُ أمرُكم أمرَ من شربَ ماءً حاراً مُنتاً فيمسك عنه.بل يلزمُكم أن تشربوا منه مثل ما تشرب الهيم وهي الجمال الّتي أصابها العطش فتشرب ولا تَروى.وهذا البيان في الشرب لزيادةِ العذاب.وقوله

(**فمالئونَ منها**) في الأكل.فإن قيلَ : الأهيم إذا شربَ الماء الكثير يضُرّه.ولكن في الحال يتلذّذُ به.فهل لأهلِ الجحيم من شُربِ الحميم الحار في النّار لذّة؟قلنا:لا وإنّما ذلكَ لِبيانِ زيادةِ العذاب.ووجهُه أن يُقالَ يُلزمون بشُربِ الحميم.ولا يكتفي منهم بذلك الشّرب بل يُلزمون أن يشربوا كما يشربُ الجمَل الأهيم الّذي به الهيام.أو هم إذا شربوا تزدادُ حرارةُ الزّقوم في جوفهم فيظنّونَ أنّهُ من الزّقوم لا من الحميم.فيشربونَ منه شيئاً كثيراً بناءً على وَهمِ الري.والقولُ في الهيم كالقول في البيض أصلهُ هوم وهذا من هامَ يهيمُ كأنّهُ من العطش يهيم. والهيامُ ذلكَ الدّاء الّذي يجعلهُ كالهائم من العطش.).

فإن نحنُ ضربنا صفحاً عن الصّفحةِ الأولى الّتي لا تمتُّ لموضوعِ عذاب النّار.نلاحظُ بأنّ الفخر الرّازي رحمهُ اللّه كانَ يتكلّمُ عن شجرةِ الزّقوم ومُعتقداً كما من قبلُ أنّها شجرةٌ حقيقيّةٌ ولها طعمها ورائحتُها واستندَ في تفسيرِه إلى روايات قِيلَ وقال ليس إلاّ.وقد صوّرَ لنا أنّ أهلَ النّار يُكرَهونَ على أن يملؤوا بُطونَهم منها أيضاً.وأن يشربوا بعدَ ذلكَ ماءً ساخناً كشُربِ الجمال.ظنّاً منهم أنّ حميمَ جوفهم سببُهُ ما أكلوهُ من الزّقوم وليس من الماء السّاخن.وإنّ هذه الأمورُ الّتي أوردها الفخرُ الرازي رحمه اللّه تتنافى ومُعطَيات صفتي (الرّحمان والرّحيم) الواردتين في **بسم اللّهِ الرّحمن الرّحيم**.فلا يُعقلُ أن يأمُرَ اللّهُ الرّحمان والرّحيمُ بما ذكرهُ رحمه اللّه وفسّره.علماً بأنّي وضّحتُ في الأمثلةِ الماضيةِ الماضيةِ حقيقةَ دلالة شجرة الزّقوم.وعلى كلِّ حالٍ فإنّنا لابدَّ أن لاحظنا كيفَ أن الفخرَ الرّازي لم يلتزِم في تفسيرِه آنف الذّكرِ بأيّةٍ منهجيّةٍ قُرآنيّةٍ ولا بأصولِ تفسير.

ما فهمتهُ من آيات سورة الواقعة:

والآنَ أُبيّنُ ما فهمتُهُ أنا من هذه الآيات من سورةِ الواقعة الّتي قالَ اللّهِ تعالى فيها (**ثُمّ إنّكم أيّها الضالّون المُكذّبون لآكلونَ من شجرٍ من زقّوم.فمالئونَ منها البُطون.فشاربونَ عليهِ من الحميم.فشاربونَ شُربَ الهيم**

هذا نُزُلهم يومَ الدّين.). إنَّ اللَّهَ تعالى حينَ قال في الفقرة الأخيرة من هذه الآيات الكريمة(**هذا نُزُلهم يومَ الدّين**) **يكونُ قد** نبَّهَنا إلى أنَّهُ يُنبئُ عن الّذينَ سمّاهم (**الضّالّونَ المكذّبون**). فمن هم هؤلاء الضّالّونَ المكذّبون ؟؟ فلم يستطع الرّازي رحمهُ اللّه أن يجزمَ ولا أن يقرِّرَ تقريراً مؤكّداً مَن يكونُ هؤلاء الضّالّون المكذّبون. فلماذا وقعَ الرّازي رحمهُ اللّه في تلكَ الحيرة ؟؟ فإن شاءَ القارئُ معرفةَ جوابَ هذا السؤال فبإمكانهِ مُلاحظةَ ما كتبتُهُ بشأنِ سورةِ الحاقّة في مؤلّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم).

فالقارئُ الّذي يرجعُ إلى ذاكَ المؤلَّف يُلاحظُ بأنَّ مضمونَ سورةِ الواقعة بحثَ جانباً من دلالاتِ سورة (ق) هذا الحرفُ المقطّع الّذي يعني (اللّهُ القدير).وقد وضَّحتُ هناكَ أنَّ جميعَ السور الكائنة ما بينَ سورةِ (ق) وما بينَ سورةِ (ن) فهي تابعةٌ في مضامينها لمضمونِ سورةِ (ق) بل وتشكِّلُ فُصولاً تابعةً لها.هذا وإنَّ سورةَ الواقعة، وكما يبدو من اسمها فهي أنبأت عن حربٍ ضروسٍ ستقعُ في المستقبل ما بينَ أعداءِ الإسلام وتنتهي إلى ظهورِ ثلاثةِ أزواجٍ من أصحابِ المبادئ والمعتقدات وعلى حسَبِ ما ورد فيها في قولهِ تعالى (**وكنتم أزواجاً ثلاثة.فأصحابُ الميمنة ما أصحابُ الميمنة. وأصحابُ المشأمة ما أصحابُ المشأمة.والسابقونَ السابقون.أولئكَ المقرّبون.في جنّاتِ النّعيم.ثلّةٌ من الأوّلينَ.وقليلٌ من الآخرين**)

فهذه الآيات الكريمة تكشفُ عمَّن يكونُ هؤلاء (**الضّالّونَ المكذّبون**) الذينَ سمَّتهم الآياتُ باسم (**أصحاب المشأمة**).وهم الّذين يُحاولونَ اختراقَ أقطارِ السماوات لاكتشافِ القمر والمرّيخ وغيرها من الكواكب في زماننا الحاضر.فهم الّذين أشارت إليهم الآياتُ من سورةِ(الرّحمن) الّتي أنبأت عن أنّهم لن يُفلحوا في تحقيقِ أمنيتهم المشارُ إليها.فالسورةُ عُنونت باسم (الواقعة) علماً بأنَّ كلمةَ (الواقعة) تعني حرباً ضروساً ستقع.وإنَّ هؤلاءِ (الضّالّونَ المكذّبونَ)

هم الّذينَ ستقعُ بينَ أممِهم حربٌ ضروسٌ. وعن طريقِ هذه الحرب الضّــــروس المسمّاة (الواقعة) سيقضي اللّهُ تعالى على قوّتهم ويفشِّلُ أمانيهم.فلنَعُد إلى الآيات من سورةِ (الرّحمن)التي قال اللّهُ تعالى فيها بحقِّ هؤلاء الضّالّين (**سنفرُغُ لكم أيُّها الثّقلان**).وموردًا كلمة (**الثقلان**) بسببِ أنّهما يشكّلانِ مركزَي ثقلٍ في العــالم بأسرِه في زماننا الحاضر وهم الّذين سمّاهم اللّهُ تعالى في سورةِ الكــهف باســم يأجوج ومأجوج انطلاقاً من أنّهم اخترعوا أدوات النّار التّدميريَّة كــالصّواريخ والقنابلِ المدمِّرة والمُحرقة وغيرها.وهؤلاء هم **قوى الشرق** المتمثّلة في روســيا وأتباعها.**وقوى الغرب** المتمثّلة في أمريكة وأتباعها من الدّول الغربيَّة الأوروبيّة.

فاللَّهُ جلَّ شأنهُ أنبأ عن هذه الأقوامِ الضّالّةِ التي تكــذّبُ بهــذا الدّيــنَ الإسلاميَّ الحنيف كما أنبأ عن أنّهم سيستهينونَ بهذهِ النّبوءات المتعلّقة بمصيرهم المحتومُ والمشؤوم وهذا الأمرُ استلزمَ تسميتهم أيضاً(**أصحابُ المشــأمة**) وأخــبرَ عنهم أنّهم سيعصونَ ربَّهم الّذي خلقهم عصياناً كبيراً.وهو الأمرُ الّــذي عــبَّرَ تعالى عنهُ بقولهِ (**لآكلونَ من شجرٍ من زقّوم.فمالئون منها البطون**) وقد ســبقَ لي أن شرحتُ معنى كلمةِ (**زقّوم**) والمقصودُ من استعارةِ كلمة (**شجرة**) أيضــاً فيما يتعلَّقُ بعذابِ جهنَّم.ولا أرى من حاجةٍ لإعادته.وليلاحظ القارئ كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى لم يقل هنا (**من شجرةِ الزّقوم) بل قال (من شجرٍ من زقّوم**) أي مــن شجرِ عصيانٍ مختلف أنواعهُ ويتركُ في بطونهم آثاراً ناريَّــــةً مختلفــةَ الأنــواعِ أيضاً.ولذلكَ نلاحظُ بأنَّ اللّهَ تعالى قالَ بعدَ ذلــــكَ(**فشــاربونَ عليــهِ مــن الحميم.فشاربونَ شُربَ الهيم**) بمعنى أنّهم سيرتكبونَ أنواعَ المعاصي الّتي هي في منتهى الخطورة.ويكونُ حالُهم كالّذي يأكلُ في بطنهِ ناراً ومن ثمَّ يشرب بعــدَ ذلكَ ماءً ساخناً.فهذا الكلامُ الإلهيُّ كلُّهُ هو من قبيلِ الاستعارةِ والتّشبيه ليــسَ إلاّ.و لم تُستعملُ الكلماتُ فيهِ بمعانيها الحقيقيَّة.

وعليهِ فإنَّ المفسّرينَ القدماء رحمهم اللَّهُ معذورون إن كانوا لم يفهموا هذه الآياتِ الكريمة على حقيقتها.فلو أنّهم وُجدوا في وقتنا هذا الّذي نُعايشُه فما كانوا ليستغربوا ما نبَّهتُ إليهِ في هذا الكتاب بل ولكانوا اتفقوا معي فيما فهمتُهُ من هذه الآيات الكريمة.

والآنَ وبعدَ أَن قدّمتُ هذه النّماذجَ الأربعة المستمدَّة من آياتِ أربعِ سورٍ من سورِ القرآن الكريم وهي (الحاقَّة والصّافّات والدّخان والواقعة) إلى جانبِ أنّي نقلتُ تفاسيرَ مفسّرينِ جليلي القدر للآياتِ الواردةِ في تلكَ السور بما يتعلّقُ بعذابِ جهنّم.ووضَّحتُ ممّا نقلتُهُ من تفاسيرِهم بأنّهما لم يلتزما من جهةٍ بمنهجيَّةِ هذا القرآن الكريمِ ولا بأصولِ تفسيرهِ مّما كشفه اللَّهُ جلّ شأنهُ على شخصي الضّعيف.ومن جهةٍ أُخرى فقد وضَّحتُ أيضاً عدمَ مُراعاتهما لهذا لأصلِ الرّابعِ من أصولِ تفسيرِ آيِ الذّكرِ الحكيم الّذي نبَّهت إليهِ صفتا ربِّنا جلّ شأنهُ وهما(**الرّحمان والرّحيم**)المضافتانِ على اسم الجلالة (**اللّه**) في (**بسم اللّهِ الرّحمن الرّحيم**) هذه البسملة الواجب تلاوتها عندَ البدء بتلاوةِ كلّ سورةٍ من سورِ هذا القرآن الكريم.

فبعد أن فعلتُ ذلكَ كلّهِ وبيَّنتُ المعاني الّتي تتَّفقُ ومُعطيات الصّفتين المذكورتين.وأعطيتُ القارئ فكرةً عن البحثِ الّذي قمتُ بهِ بشأنِ حقيقةِ عذابِ النّار ومن ضمنِ مُعطياتِ آياتِ الكتاب العزيز نفسه.وعن حقيقةِ بعثِ الأجسادِ في الآخرة.

فبعدَ ذلكَ كلّهِ لم أعُد أرى من ضرورةٍ تدفعُني لأزيدَ القارئَ علماً في أيِّ شيءٍ آخرَ في هذا المجال.وأرجو من اللّهِ تعالى أن يوفّقني في المستقبل لِتأليفِ كتابٍ مُستقلٍّ يتناولُ عذابَ النّار خاصَّةً وتفسير جميع الآيات المرتبطة مَوضوعيّاً بهذا المَوضوعِ الحسّاس. اللّهم آمين.

وكلُّ ما أرجوهُ من القارئِ إن كانَ مؤمناً باللّهِ تعالى وما لهُ من الأسماءِ الحسنى الواردةِ في هذا القرآن الكريم ألاّ يتعجَّلَ في الفصلِ في موضوعِ عذاب النّار وألاّ يتَّخذَ منهُ مَوقفاً مُتسرِّعاً لحساسيَّتهِ من جهةٍ ولارتباطهِ بعقائدنا الأساسيَّة من جهةٍ أخرى. ومن باب أنَّ هذا الّذي توارثناهُ عن المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّهُ تعالى لا يتَّصفُ بالصّفةِ القطعيَّة.فهم دأبوا على إنهاءِ آرائهم التّفسيريَّة وما فهموهُ من كلامِ اللّهِ عزَّ وجلَّ بقولهم (**واللّهُ أعلمُ بمراده**).

لذلك وبعدَ أن فَرغتُ من الكلامِ عن الأصلِ الرّابعِ للتّفسير المذكورِ أرى أن أنتقلَ للكلامِ عن الأصلِ الخامسِ من أصولِ التّفسير.وهو الأصلُ الّذي نبّهتُ إليهِ من قبل والمتعلّق بالعلمِ ومكانتهِ في الإسلامِ والّذي نصَّت عليهِ الآيةُ (٥٩) من سورةِ الفُرقان.



الفصـــلُ الخامس

الأصلُ الخامسُ للتفسير

لقد باتَ من المعروفِ أنَّ اكثر المثقَّفينَ باتوا يقولونَ بأنَّ العلمَ والدّينَ لا يتَّفقان.سواءً أكانَ هؤلاء المثقفونَ ينتسبونَ إلى الإسلامِ أو إلى غيرِهِ من الأديـــانِ السماويَّة.والسببُ الجوهريّ الّذي دفعهم لِيزعموا زعمهمُ المذكور هو أنَّ هؤلاءِ المثقَّفينَ عندما يُطالعونَ ما توارثوهُ من كُتُبٍ دينيَّةٍ ومــــن تفاســـير المفسّـــرين ويُقارنونها معَ ما يتلقَّونهُ من علومٍ في المدارسِ الحكوميَّة.يتبيَّنُ لهم فروقٌ واضحــةُ المعالم ما بينَ مُعطياتِ العلومِ وما بين مُعطيات هذه التّفاسير

وإنَّ هذه المزاعمَ الّتي بتنا نسمعُ عنها كثيراً في أيّامنا هذه تدفعنا لِنتساءلَ في حديثٍ أنفُسنا هل يصحُّ أن يأتي الدّينُ بمعلومات تُغايرُ ما كشفَ عنهُ العلــمُ الحديث وفي وقتٍ يقولُ الدّينُ نفسُهُ بأنَّ اللّهَ تعالى هو خالقُ هذا الكون ؟

هذا وإنَّ هذا الأصلَ الخامسَ للتَّفسير يحسمُ هــــذه المشــكلة بصـــورة جذريَّةٍ.وما على القارئ إلاّ أن يتمهَّلَ فيما سأطلعهُ عليهِ كي يتمكَّنَ من تشكيلِ هذه القناعةِ الّتي أشرتُ إليها آنفاً.بل وسيعلمُ بأنَّ العلمَ يخـــدُمُ تعــاليمَ الدّيـــنِ الإسلاميِّ الحنيفِ بشكلٍ خاصٍّ.ولا يُخالِفُ مُعطيات آياتهِ أبداً.

لذلكَ نتساءلُ عن الحلولِ التي قدّمها هذا القرآنُ الكريمُ لحلِّ هــــذه المشكلة ؟

أقول:لقد أفادنا كتابُ اللَّهِ العزيز بهذا الحلِّ المطلوب في الفقرة الأخيرةِ من الآية ٥٩ من سورةِ الفرقان والّتي قالَ اللَّهُ تعالى فيها: (**الَّذي خلَقَ السماوات والأرضَ وما بينهما في ستَّةِ أيّامٍ ثمَّ استوى على العرشِ الرّحمانُ فاسأل بهِ خبيراً**).فالمُلاحظ أنَّ اللَّهَ تعالى أنهى هذه الآية الكريمة من خلالِ قولِهِ تعالى في الفقرة الأخيرة منها والمُستهلَّة بفاءِ الاستئناف ،قال (**فاسأل بهِ خبيراً**).وإنَّ المفكِّرَ الّذي يتدبَّرُ هذه الفقرةَ الأخيرةَ تُواجههُ أسئلةٌ ثلاثةٌ لا بُدَّ من الإجابةِ عليها وهي:

فالسؤالُ الأوّلُ هو ما دامَ أنَّ اللَّهَ تعالى تكلَّمَ في هذه الآيةِ الكريمةِ عن خَلقِ هذه السماواتِ والأرض فلِمَ قال تعالى في الفقرةِ الأخيرةِ (**فاسأل بهِ خبيراً**) وفي هذه الآيةِ بالذّات. بينما تعرَّضَ تعالى للكلامِ عن خلقِ السماوات والأرضِ في أكثرِ من آيةٍ أخرى غيرَ هذه الآيةِ الكريمة ولم نُلاحظ أنَّهُ فعلَ في أيَّةٍ منها بمثلِ ما فعلَ في هذه الآيةِ الّتي أنهاها بقولِهِ (**فاسأل بهِ خبيراً**) ؟؟

والسؤالُ الثاني الّذي ينبغي أن نسأله هو من هو هذا الخبيرُ المقصودُ في قولِهِ تعالى (**فاسأل به خبيراً**) ؟ أَقُصِدَ بكلمةِ (خبيراً) هنا محمَّداً رسولَ اللَّهِ تعالى لِنسألهُ عن حقيقةِ خلقِ اللَّهِ تعالى لهذه السماوات والأرضَ وما بينهما وفي ستَّةِ أيّامٍ وباستواءِ اللَّهِ تعالى بعدَ ذلكَ على عرشِهِ ؟ أم المقصودُ بالخبيرِ هنا طرفاً آخرَ غيرَ رسولِ اللَّه (ص) ؟ إذ أنَّ من المعلومِ أنَّ محمّداً بن عبد اللَّهِ (ص) لم يُحِط علماً قبلَ أن يؤتَ رسالةَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ بهذه المعلومات لكنَّهُ علمَ بها بعدَ أن أعلمهُ اللَّهُ تعالى خالقُهُ بها. وعليهِ فإنَّ محمَّداً (ص) في هذه الحالةِ فليسَ من المنطقِ أن يكونَ قد أصبحَ (**خبيراً**) يُرجعُ إليهِ للتّحقُّقِ من صحَّةِ ذاكَ الادّعاء المذكور.فمحمَّدٌ (ص) أصبحَ في هذه الحالةِ لا يتعدّى أن يكونَ (**راوياً**) عن ربِّهِ وليسَ (**خبيراً**). فهذا ما يحكُمُ بهِ عقلُ الإنسانِ ومنطقُه من حُكمٍ بشأنِ هذه القضيَّة.

والسؤالُ الثّالثُ **وهو الأهمُّ** وهو أن نعرفَ مَعرفةً جازمةً مَن هو المقصودُ في هذه الآيةِ الكريمةِ والّذي سمّاهُ اللّهُ تعالى (**خبيراً**) ويستحقُّ أن يُرجعَ إليهِ للإحاطةِ بعلمِ خلقِ السماوات والأرض وغيرها من حقائقِ هذا الكون المادّي.وعليهِ فمَن هو المقصودُ هنا من قولهِ تعالى (**فاسأل بهِ خبيراً**) ؟

فهذه أسئلةٌ ثلاثةٌ هامّةٌ جدّاً تُراودُ عقلَ الباحثِ المتدبّرِ عندما يقرأ هذه الفقرةَ الأخيرةَ من قولهُ تعالى في هذا المقامِ بالذّات : (**فاسأل بهِ خبيراً**).لكنَّ الملاحظ هو أنَّ المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّهُ تعالى لم يُناقشوا هذا الأمرَ بمثلِ ما ناقشناه.ولا هم افترضوا هذه الأسئلةَ الثلاثة عندَ تدبُّرهم لهذه الآيةِ الكريمة.فهذا ما تبيَّنَ لي بعدَ مُراجعتي لتفاسيرهم القديمةً.وعليهِ يبقى السؤالُ قائماً:فمَن هو المقصود هنا بكلمةِ (**خبيراً**)الواردة في هذه الفقرة الأخيرة من هذه الآيةِ الكريمة وهي (**فاسأل بهِ خبيراً**) ؟؟

معنى (خبيراً) برأي ابنُ كثير:

عندما راجعتُ تفسيرَ ابن كثير رحمه اللّه لهذه الآيةِ من سورة الفرقان وخاصّةً الفقرةَ الأخيرةَ منها وهي (**فاسأل بهِ خبيراً**) لاحظتُهُ كتبَ يُبدي رأيهُ ويقول (قال: (**ثمّ استوى على العرشِ الرّحمان فاسأل بهِ خبيراً**) أي استعلِم عنهُ مَن هو خبيرٌ بهِ عالمٌ بهِ فاتّبعهُ واقتدِ به.وقد علم أنّهُ لا أحدٌ أعلمُ باللّهِ ولا أخبرَ بهِ من عبدِهِ ورسولِهِ محمّد صلواتُ اللّهِ وسلامهُ عليهِ سيّد وُلد آدم على الإطلاق في الدّنيا والآخرة الّذي لا ينطقُ عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحى.فما قالهُ فهو الحقّ وما أخبرَ بهِ فهو الصّدق.وهو الإمامُ المحكم الّذي إذا تنازعَ النّاس في شيءٍ وجبَ ردُّ نزاعهم إليه فما وافقَ أقواله وأفعاله فهو الحقّ وما خالفها فهو مردودٌ على قائله وفاعله.كائناً مَن كان.قالَ اللّهُ تعالى (**فإن تنازعتُم في شيء**) الآية وقالَ تعالى(**وما اختلفتُم فيهِ من شيءٍ فحُكمهُ إلى اللّه**)وقالَ تعالى (**وتّمت كلمةُ ربّكَ صدقاً وعدلاً**) أي صدقاً في الإخبار وعدلاً في الأوامر والنّواهي ولهذا قالَ

تعالى(**فاسأل بهِ خبيراً**)هذا القرآنُ خبيرٌ به).فهذا ما كتبهُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ الفقرة المذكورة.

فإن نحنُ دقّقنا نظرنا فيما نقلتُهُ للقارئ مّما فسَّرَ بهِ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللّه قولهُ تعالى من هذه الآية الكريمة.(**فاسأل بهِ خبيراً**) نُلاحظُ أنَّ ابنَ كثيرٍ فسَّرَ هذه الفقرةَ بقوله (استعلِم عنهُ من هو خبيرٌ بهِ عالِمٌ بهِ).وبذلكَ أخطأ مِن أوّل خُطوةٍ خطاها على طريق تفسيرها.فأينَ أخطأ ؟ أخطأ عندما قال (خبيرٌ به علمٌ به). فالّذي ينبغي السؤالُ عنهُ ليسَ هو ذاتُ اللّهِ تعالى بل أن نسأل عن حقيقةِ هل أنَّ هذه السماوات والأرضَ وما بينهما مخلوقةٌ في ستَّةِ أيّام.وأخطأ رحمهُ اللّهُ ثانياً حينما جعلَ محمّداً (ص) مرجعاً لِتبيُّنِ صحَّةِ هذا الادّعاء الكبير.فمحمَّدٌ هو راوي لهذه الحقيقةِ والادّعاء وليسَ عالماً خبيراً.

معنى (خبيراً) برأي العلاّمة الفخر الرّازي:

كذلكَ عندما راجعتُ تفسيرَ العلاّمة الفخر الرّازي رحمه اللّه لهذه الفقرِ الأخيرة من الآية التي نحنُ بصددها تبيَّنَ لي أنَّهُ قال: ((**السؤال الرّابع**):(كيفَ إعراب قولهُ (**الرّحمان فاسأل بهِ خبيراً**) ؟ (الجواب) الّذي خلقَ مبتدأ والرّحمان خبره.أو هو صفةٌ للحيّ.أو الرحمان خبر مبتدأ محذوف.ولذا أجازَ الزجّاج وغيرُه أن يكونَ الوقفُ على قولهِ على العرش.ثمَّ يبتدئ بالرّحمن أي هو الرّحمن الّذي لا ينبغي السجودُ والتّعظيمُ إلاّ له.ويجوزُ أن يكونَ الرّحمن مبتدأ وخبرهُ قولهُ (**فاسأل بهِ خبيراً**). (**السؤال الخامس**): ما معنى قولهُ (**فاسأل بهِ خبيراً**) ؟ (الجواب)ذكروا فيهِ وُجوهاً (أحدها)قال الكلبيّ معناهُ فاسأل خبيراً بهِ.وقولهُ (بهِ) يعودُ إلى ما ذكرنا من خلقِ السّماء والأرض والاستواءِ على العرش.والباء من صلةِ الخبير وذلكَ الخبيرُ هو اللّهُ عزَّ وجلّ لأنَّهُ لا دليلَ في العقلِ على كيفيَّةِ خلقِ السماوات والأرض فلا يعلمُها إلاّ اللّهَ تعالى.وعن ابن عبّاس أنَّ ذلكَ الخبير هو جبريل عليهِ السلام.وإنّما قُدّمَ لرؤوسِ الآيِ وحُسنِ النّظم.(وثانيها)قالَ الزجّاج

:قولهُ (**بِهِ**)معناهُ عنهُ.والمعنى فاسأل عنهُ خبيراً.وهو قولُ الأخفش.ونظيرُهُ قولـــهُ (**سألَ سائلٌ بعذابٍ واقع**).وقالَ علقمة بن عبدة:

(فإن تسألوني بالنّساء فإنّني بصيرٌ بأدواءِ النّساءِ طبيبُ).

(وثالثها)قال ابنُ جرير:الباء في قولهِ (**بِهِ**)صلة.والمعنى فسلهُ خبيراً.وخبيراً نصــب على الحال.(ورابعُها) أنَّ قولهُ (**بِهِ**) يجري مَجرى القسَم.كقولهِ (**واتّقــوا اللّــهَ الّذي تساءلونَ به**).).

ونُلاحظُ من خلالِ تدقيقنا فيما كتبهُ العلاّمة الرّازي رحمهُ اللّــه أنّــهُ اعترفَ وقال (**لا دليلَ في العقلِ على كيفيَّةِ خلقِ اللّهِ للسّماواتِ والأرضِ وما بينهما فلا يعلمُها إلاّ اللّهَ تعالى**)والسببُ وراء اعترافهِ المذكور هو أنّ العلــومَ الّتي عرفها عصرنا الحاضر كعلم الجيولوجيا والفلك وغيرها من العلوم فهي علومٌ ما عرفها النّاسُ في عصرِ الرّازي رحمهُ اللّه.لذلكَ فلم يبقَ لهُ من واسطةٍ لمعرفــةِ خلقِ هذهِ السماوات والأرضِ وما بينهما إلاّ عقلهُ الّذي كانَ قاصراً علـــى أن يقدِرَ وحدهُ وبدون مُعطَيات علم بعينهِ أن يتمكّنَ من معرفةِ الخبـــير الحقيقـــيّ المُختصّ في هذا المجَال.وكانَ رحمهُ اللّهُ تعالى يعلمُ حدودَ عملِ العقلِ لذلكَ قــالَ (لا دليلَ في العقلِ على كيفيَّةِ خلقِ اللّه السماوات والأرض فلا يعلمُها أحــدٌ إلاّ اللّه تعالى) والملاحظُ أنَّ الرّازي لم يستثنِ أحداً حتّى محمّد رسول اللّه لكونـــهِ بشراً فلا يصلحُ كخبيرٍ في الموضوعِ المذكور.والّذي يؤكّدُ ذلكَ هو أنّـــهُ راحَ ينقُلُ لنا جُملةَ أقوال تفسيريَّةٍ لهذه الفقرةِ الأخيرة (**فاسأل بهِ خبيراً**). **بينما أكّـدَ ابنُ كثيرٍ رحمه اللّهُ أنَّ الخبيرَ هو محمّدٌ (ص).ولَم يُناقش المسألة نقاشاً عقلانيّــاً كما ناقشهُ العلاّمة الفخر الرّازي المذكور.**

والقارئ يتذكّرُ كيفَ أنّي كنتُ قد قدّمتُ في الفصلِ الثالثِ من البـــاب هذه الآية الكريمة من سورةِ الفرقان كمثال يؤيِّدُ مِصداقيَّةَ الأصلِ الثالث مـــن أصولِ تفسير آياتِ هذه القرآن الكريم.كماً كنتُ نبَّهتُ هنـــاكَ إلى أنَّ كلمــة

(يوم) لم يستعملها اللّهُ جلَّ شأنهُ بمعنى اليومِ المعروفِ الّذي يبدأ من طلوعِ الشمسِ وحتّى غروبها.بل أوردَ اللّهُ تعالى كلمةَ (يوم) في هذه الآيةِ الكريمةِ بمعنى الزّمن.وليصبحَ المعنى أنّهُ تعالى قد خلقَ السماواتِ والأرضَ وما بينهما في ستّةِ أزمنةٍ أي في ستّةِ أدوارٍ زمنيّة.

العالِمُ المُختصُّ هو المقصودُ من (خبيرا):

فإن نحنُ استعدنا في ذهننا الأسئلةَ الثلاثة الّتي أوردتُها آنفاً بما يتعلّقُ بكلمةِ (**خبيراً**) وناقشنا مُعطَياتِ هذه الآيةِ الكريمةِ على ضوءِ مُعطياتِ العلومِ المعاصرةِ الّتي لم يكُن لها من وُجود زمن الرّازي وغيرهِ من المفسّرينَ القدماء.فلا نجدُ خبيراً حقيقيّاً مُختصّاً بإمكاننا الرّجوعُ إليهِ لمعرفةِ الأدوارِ الّتي مرَّ بها خلقُ هذه السماوات والأرض فلا نعثرُ إلاّ على العلماءِ المختصّين بعلمِ طبقاتِ الأرضِ وغيرها من العلوم المتعلّقةِ بتكوينِ هذا العالم المادّيّ.فحصيلةُ علومهم تُساعدُنا على التّأكّدِ من مِصداقيّةِ ما ادّعاهُ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ من سورة الفرقان من حقائقَ تتعلّقُ بالأدوارِ الّتي استلزمت إكمالَ خلقِ هذا الكون من حولنا.وهو الخبيرُ المختصُّ المقصودُ في هذهِ الفقرةِ الأخيرة من هذه الآيةِ الكريمةِ وهي قولهُ تعالى (**فاسأل بهِ خبيراً**).

كذلكَ أنبِّهُ القارئَ إلى مسألةٍ هي في غايةِ الأهمّية.فالقارئُ الكريم الّذي اعتادَ تلاوةَ آيات هذا القرآن الكريم.فلا بُدَّ أن مرَّ من تحتِ عينيهِ عشرات الآيات الكريمة الّتي تتكلّمُ عن خلقِ اللّهِ تعالى لهذه السماواتِ والأرض وما عليها.لكنّهُ سيلاحظُ خلالَ ذلكَ أنّهُ جلَّ شأنهُ لم يُنهِ أيّةَ آيةٍ من تلك الآياتِ بهذه الفقرةِ الأخيرة (**فاسأل بهِ خبيراً**).فهل يُعقلُ ألاّ تكونَ لهذه الظاهرةِ القرآنيّة أيُّ مَدلول؟؟

وعليهِ فكما أنّهُ جلَّ شأنهُ ضمَّنَ البسملةَ صفتيهِ (**الرّحمان الرّحيم**) لِتتضمَّنَ أصلاً من أُصولِ تفسيرِ آياتِ كتابهِ العزيز.فقد تبيَّنَ لي أنَّ اللّهُ تعالى أتى

بهذه الفقرة (**فاسأل بهِ خبيراً**) في نهايةِ هذه الآيةِ الكريمةِ من سورةِ الفرقان لِتتضمَّنَ أيضاً أصلاً من أُصولِ تفسيرِ آياتِ كتابهِ العزيز.ولا ينتبهُ إلى هذه الحقيقة إلاّ كلُّ مؤمنٍ يتدبَّرُ آياتِ هذا القرآن الكريم المعجز والمبارك ووفقَ أصولِ تفسيره.

فهذا هو ما تبيَّنَ لي وهداني ربّي إليهِ وفي الوقتِ المُناسبِ مصداقَ قولهِ تعالى(**ثمّ إنّ علينا بيانه**) فزمانُنا الّذي نحنُ فيهِ هو زمانُ بيانِ معارفِ وحقائقِ هذا القرآن المجيد خصوصاً وأنّها توفَّرَت العلومُ المساعدةُ الّتي تُساعدُ هذه المؤمن المتدبِّرَ على فهمِ مضامينِ الآياتِ الكريمةِ العائدة مضامينها إلى مختَلفِ تلكَ العلوم.وعليهِ فإنَّ قولهُ تعالى في الآيةِ المذكورة(**فاسأل بهِ خبيراً**)تُعتبَرُ في نظري مُتضمِّنةً الأصلَ الخامسَ من أصولِ تفسيرِ هذا القرآن العظيم.

لذلكَ أحاولُ الآنَ إعرابَ قولهِ تعالى (**فاسأل بهِ خبيراً**) على ضوءِ هذا المُنطلق الّذي توصّلنا إليهِ لِنكشِفَ أخطاءَ أسلافنا القدماء رحمهم اللّهُ تعالى.فأقول: لم ينتبهوا رحمهم اللّه إلى أنَّ فعل **فاسأل** قد وردَ في هذا الموضع لِطلَبِ الاستخبار.نبّهتنا إلى هذه الحقيقة الباء من الجار والمجرور(**به**)فمن المعلوم أنَّ فعلَ (اسأل) إن كانَ للاستخبار يتعدّى إلى مفعولَين.فهو يتعدّى إلى المفعولِ الأوّلِ بنفسه.ويتعدّى إلى المفعولِ الثاني بالباء وبمعنى (عن) فهذا ما أورده مِعجم (محيط المحيط). فإن صحَّ رأيي هذا فتقديرُ قولهِ تعالى (**فاسأل بهِ خبيراً**) هو أنَّ اللّهَ تعالى الحيَّ الرّحمان يطلُبُ من القارئ أن يستفسرَ عن حقيقةِ مِصداقيَّةِ هذا الادّعاء الّذي تضمّنهُ قولهُ تعالى (**الّذي خلقَ السماواتِ والأرضَ وما بينهما في ستَّةِ أيّام..**)فيرجع إلى علماءِ الطّبيعةِ وطبقاتِ الأرضِ المختصّينَ في زمانهِ وليتحقّقَ ممّا توصّلت إليهِ علومهم واكتشافاتُهم العلميَّة بهذه الشأن فإن فعلَ ذلكَ يتبيَّنُ لهُ وجهَ التّطابُق ما بينَ مُعطيات هذه الآيةِ الكريمة وما بينَ المُعطياتِ العلميَّة المُعاصرة ويتبيَّنُ لهُ في الوقتِ نفسهِ أيضاً أنَّ الدّينَ الإسلاميَّ الحنيفَ

والعلم الحديث وجهان لِعُملةٍ واحدة.فلا يوجدُ بينهما اختلافٌ بشكلٍ من الأشكال.بسببِ أنَّ الخَالقَ الّذي أنزلَ هذا القرآن الكريمَ هو نفسهُ الّذي خلقَ هذه السماوات والأرض وما بينهما فالمصدرُ واحدٌ من حيثُ المنشأ.فاللّهُ الّذي خلقَ هو الّذي أنزل.

وعليهِ فإنَّ اللّه عزَّ وجلّ يكونُ قد أشارَ علينا من خلالِ كلمةِ(**خبيراً**) قد أشار علينا أن نعودَ إلى العلماءِ المختصّينَ عندَ محاولتنا فهمَ مضمونِ هذه الآيةِ الكريمة وليسَ الرّجوع إلى علماءِ الّدين . فالخبيرُ في لُغةِ الضّادّ هو الشخصُ ذو الخبرةِ التّامّةِ العارف بِكُنهِ الأشياء (محيط المحيط).لذلكَ فإنَّ الّذي لم ينتبه إلى أنَّ فعل (**فاسأل**) وردَ بمعنى طلبِ الاستخبار. و لم ينتبه إلى أنَّ الباء من (**بهِ**) وردت هنا بمعنى (عن) لِتعدّي فعل طلب الاستفسار بهذه الباء إلى مفعولين.وإنَّ الّذي لم يُعطِ كلمةَ (**خبيراً**) أبعادها وهذه الدّلالات التي ذكرتُها لها.إنَّ هذا الّذي وقعَ في هذه المطبّاتِ كلّها.وفي وقتٍ لم تكُن هذه العلومُ الحديثةُ كانت قد ظهرت في زمانهِ.فهو معذورٌ إن هو فسَّرَ هذه الفقرةَ الأخيرةَ(**فاسأل بهِ خبيراً**)بغير ما فسّرناها به.ويكونُ قد غابَ عنهُ وجهُ هذا الأصلِ التّفسيريّ الخامس الّذي نتكلّمُ عنه.

فإن سلّمَ القارئُ بما بيّنتُهُ لهُ آنفاً.وسلّمَ معي بصحّةِ ما توصّلتُ إليه أيضاً.فلن يرجعَ بعدَ ذلكَ إلى التّفاسيرِ القديمة الّتي فسَّرَ فيها القدماءُ الآياتِ المتعلّقة بمختلَفِ العلوم.من بابِ أنَّ مُعطَياتِ زمانهم لم تكن لِتُساعدهم رحمهم اللّه على الإحاطةِ بدلالاتِ تلكَ الآيات الكريمة. ويعودُ يستخبرُ عن حقيقةِ دلالات تلكَ الآياتِ الكريمة من الخبراءِ المختصّينَ في العلومِ الّتي تتعلّقُ مضامينُ تلكَ الآياتِ الكريمةِ بها ولِيفهمَ كلَّ شيءٍ قصَدَهُ ربُّنا عزّ وجلّ من تلكَ الآياتِ الكريمةِ على حقيقته.فإن لم يقم بهذه الخطوةِ الّتي ذكرتُها لهُ يزيغُ عقلُهُ حينئذٍ عن

المعنى الحقيقيّ المقصود من تلكَ الآياتِ القرآنيَّة وينسبُ بالتّالي إلى هذا القرآن المجيد من مزاعمَ باطلةٍ هو بريءٌ منها جميعها.

العلم والدّين وجهان لِعُملةٍ واحدة:

وقد يخطرُ ببالِ هذا القارئ أنَّهُ لربّما يكشفُ علمٌ من العلومِ من الحقائقِ ما يتنافى ويخالفُ مُعطياتِ آياتِ هذا القرآن المجيد فما ذا ينبغي أن يفعلَ الإنسانُ المؤمنُ في تلكَ الأحوال ؟

أقولُ:اعلم يا عزيزي أنّكَ تنطلِقُ من أنّ اللّهَ تعالى هو الّذي خلقَ هذا العالَمَ من حولكَ.وأنّ اللّهَ تعالى نفسُهُ هو الّذي أنزلَ هذا القرآنَ العظيم. فما دامَ هذا هو إيمانُكَ وهذا هو مُنطلقُكَ في بحثكَ فلا ينبغي أن يُراودَكَ هذا الخوفُ وهذا الاحتمال.ومن مُنطلقِ أنّ العلمَ والدّينَ مصدرهما واحدٌ في الأصلِ وهما وجهانِ لِعُملةٍ واحدةٍ أيضاً. وعلى العكسِ من ذلكَ تماماً فإنّ إيمانكَ إن كُنتَ قد أسَّستهُ على قناعةٍ وحُجَّةٍ وبُرهان قاطعٍ فالّذي ينبغي عليكَ أن تعتقدهُ هو أنّ مُعطيات العلم تخدِمُ هذا الدّينَ الحقَّ الّذي اعتنقتهُ عن قناعةٍ ويقين وليس أن تخشى أن يقومَ العلمُ بهدمِ أركانِ هذا الدّينِ الحقّ.

لكنَّ من واجبكَ أن تُفرِّقَ ما بينَ الحقيقةِ العلميَّةِ وما بينَ النّظريَّةِ العلميَّة.فما ثبتَ للعلماءِ كونهُ حقيقةً علميَّةً لا تقبلُ المراجعةَ ولا التّبديل.فهذه الحقيقةُ هي التي تخدُمُ الدّينَ الحقَّ وهي المقصودةُ من قولي أنّ العلمَ يخدُمُ الدّين.أمّا النظريَّةُ العلميَّةُ فهي التي تتعرّضُ مع الأيّامِ للتّطوُّرِ والتّبديل ولا تبلُغُ منزلةَ الحقيقةِ العلميَّة.فإن طرحَ عالمٌ من العلماءِ نظريَّةً لهُ في مجال من المجالات فلا ينبغي لكَ أن تأخذَ بتلكَ النّظريَّة بشكلٍ قاطعٍ ما لم تبلُغ نظريَّةُ ذاكَ العالِمُ مرتبةَ الحقيقةِ العلميَّة.

وعلى سبيلِ المثال فقد تبيَّنَ للعلماءِ المُعاصرين وُجودُ طبقةٍ من غازِ الأوزون تحيطُ بهذه الكرةِ الأرضيَّةِ وكأنَّها سقفٌ لها على شاكلةِ سقفِ البيتِ

الّذي يبنيهِ الإنسانُ لِحمايتهِ من الأمطارِ وغيرِهـا مـن العوامـلِ الّـتي قـد تؤذيه. كذلكَ تبيَّنَ لهم أنَّ هذه الطّبقة الأوزونيَّة تقومُ بامتصاصِ تلكَ الأشـعَّةِ فوق البنفسجيَّة القادمة من الشمس والمُتّجهة إلى الأرض. ولطالما بحثوا وفكّـروا حتّى الآن فل يعرفوا كيفَ تكوَّنت تلكَ الطبقة الأوزونيَّة. لكنَّهم اعترفوا بأهمّيتها وبدورها الّذي تلعبهُ لحمايةِ هذا الإنسان. والّتي لولاها لكانت أشـعّةُ الشـمس فوقَ البنفسجيَّة وصلت إلى الأرضِ وأصيبَ كلٌّ من يتعرَّضُ لها بمرضِ سـرطانِ الجلد على أقلِّ تقدير.

فهذه باتت حقيقةٌ علميَّةٌ وواحدةٌ من الحقائقِ العلميَّةِ الّتي تكشَّفت علـى أيدي علماءِ القرن العشرين. فإن أنت سمعتَ يا عزيزي القارئ بهـذه الحقيقـة العلميَّة وقرأتَ عنها الكثيرَ. فقد عادَ من واجبكَ إذا جلستَ تتلو آيـات هـذا القرآن الكريمِ ومرَّ من تحتِ بصركَ كلمةُ **(سقف)** أو **(سقفاً محفوظاً)** ويحمي هذه الكرةِ لأرضيَّة ويبدو للمفكّرِ آيةً من آياتِ اللّهِ عزّ وجلّ. أقولُ فقد عـادَ مـن واجبكَ ألاّ تكتفي بالرّجوعِ لفهمهِ إلى التّفاسيرِ القديمةِ لِتفهمَ مضمونَ تلكَ الآية الّتي تضمَّنت تلكَ الكلمات. بل ينبغي أن تُعيدَ نظركَ فيها وتتدبَّرها على ضـوءِ هذه المُعطيات العلميَّةِ الجديدة ومن باب أنَّ الأصلَ الرّابعِ للتّفسيرِ يفرضُ عليـكَ ما أشرتُ بهِ عليك. ومن بابِ اعتقادُكَ أنَّ هذا القرآن الكريم صالحٌ لكلِّ زمـانٍ ومكان.

فإن أنتَ عُدتَ يا عزيزي إلى (المعجم المُفهرَس لألفاظ القرآن الكـريم) هذا المعجم الّذي ألهمَ اللّهُ تعالى واضعهُ (محمّد فؤاد عبد البـاقي) أداءَ مُهمَّتـهِ وليوفِّرَ عليكَ تلاوةَ هذا القرآن الكريمِ كلّه بحثاً عن كلمةِ **(سقف)** أو **(سـقفاً محفوظاً)**. فإن أنتَ راجعتَ المعجمَ المذكور يتبيَّنُ لكَ **وجود أربع آيات كريمـةٍ فقط** وردَ فيها هذا اللّفظ. ففي الآية ٢٦ من سورةِ النّحل قالَ تعـالى **(فخـرَّ عليهم السقفُ من فوقهم..)**. وفي الآية الخامسة من سورةِ الطّور قالَ تعـالى

(والسقف المرفوع) وفي الآية ٣٣ من سورة الزّخرُف قالَ تعالى (لَجَعلنا لِمن يكفُر بالرّحمن لِبيوهم سقفاً من فضّة..).وفي الآيةَ ٣٢ من سورة الأنبياء قال اللّهُ تعالى (وجعلنا السماءَ سقفاً محفوظاً وهم عن آياها مُعرضون).فقد وردَ في هذه الآية الكريمة كلمتا (سقفاً محفوظاً).

والآنَ وقد مرَّت عليكَ هذه الآيةُ الكريمةُ فلا ينبغي أن تمُرَّ عليها مُرورَ الكرام.أمّا وقد سلّمتَ بهذا الأصلِ الخامسِ من أصولِ تفسيرِ آياتِ القرآن الكريم فمن واجبكَ أن تقومَ بتدبُّرِ هذه الآيةِ من سورةِ الأنبياء على ضوءِ هذا المكتشف العلميّ وليسَ أن تكتفي بمراجعةِ ما فسَّرَها بهِ مُفسّروا أمَّتِنا القدماء رحمهم اللّه الّذين لم يُعاصروا هذا الكشفَ العلميّ.ولا أقصُدُ من قولي هذا أن تُحجِمَ أنتَ عن قراءةِ ما وردَ في التّفاسيرِ القديمةِ من أقوال.كلاّ بل ينبغي عليكَ مُطالعتها لماذا ؟ لأنَّ المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّهُ تعالى جمعوا لكَ ما وصلهم من أقوالٍ منسوبةٍ إلى رسولِ اللّهِ (ص) وإلى بعضِ صحابته. وأبدوا من الآراءِ ما هو صحيحٌ في بعضِ الأحايين.ففي مُطالعةِ تفاسيرهم خيرٌ وبركة.لكنَّ هذا لا يعني أنَّهم فهموا تفاسيرَ الآياتِ الكريمةِ العائدة مضامينُها إلى العلمِ وحقائقه فهماً صحيحاً.خصوصاً وأنَّهُ لم يكن لهذا العلمِ الحديثِ في زمانهم من وُجود.

فإن عملتَ على مشورتي هذه تكونُ قد أثبتَّ تمسُّكَكَ بهذا الأصلِ الخامس للتّفسيرِ من جهة وأثبتَّ من جهةٍ أُخرى من خلالِ تصرُّفكَ هذا أنَّكَ مُعتقدٌ بأنَّ هذا القرآن الكريم لم يُترلهُ اللّهُ تعالى لِمعالجةِ زمانٍ بعينهِ.بل أنزلهُ تعالى لِيصلُحَ لكلِّ زمانٍ ومكان.

الفخرُ الرّازي و(سقفاً محفوظاً):

وتأكيداً لما ذكرتُهُ لك يا قارئي العزيز آنفاً فإنِّي أُطلِعُكَ أوّلاً ما فسَّرَ بهِ العلاّمة الفخر الرّازي رحمهُ اللّه هذه الآيةَ الكريمة وحسبَما تبادرَ لِذهنهِ منها ووفقَ مُعطياتِ زمانه.لعلَّكَ تُدرك صحَّةَ ما أطلعتُكَ عليهِ ونصحتُكَ به.ولِتستفيدَ

من النّقاط الجوهريَّةِ الواردةِ في تفسيرهِ لهذه الآيةِ الكريمة.قال الـرّازي رحمـهُ اللَّه:(**النّوعُ الخامس**)قولهُ تعالى(**وجعلنا السماءَ سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها مُعرضون**) وفيهِ مسائل(**المسألة الأولى**)سمّى السماءَ سقفاً لأنّها للأرض كالسقف للبيت(**المسألة الثانية**)في المحفوظِ قولان (أحدهما)أنّهُ محفوظٌ من الوقوع والسقوط الّذينَ يجري مثلهما على سائر السقوف.كقوله تعالى (**ويُمسكُ السماءَ أن تقعَ على الأرضِ بإذنه**) وقال (**ومن آياتهِ أن تقومَ السماءُ والأرضُ بأمرِه**) وقال تعالى (**إنَّ اللَّهَ يُمسكُ السماواتِ والأرضَ أن تزولا**) وقال (**ولا يؤودهُ حِفظُهما**). (**الثاني**) محفوظاً من الشياطين.قال تعالى(**وحفِظناها من كلِّ شيطان رّجيم**).ثمّ ههُنا قولان (أحدهما) أنّهُ محفوظٌ بالملائكة من الشياطين(والثاني)أنّهُ محفوظٌ بالنّجومِ من الشياطين.والقولُ الأوّلُ أقوى لأنّ حَملَ الآياتِ عليهِ مّما يزيدُ هذه النّعمةِ عظمة.لأنّهُ سبحانهُ كالمتكفِّل بحفظِهِ وسقوطهِ على المكلّفين بخلافِ القول الثاني لأنّهُ لا يخافُ على السماءِ من استراقِ سمعِ الجنّ.(**المسألة الثالثة**) قولهُ تعالى (**وهم عن آياتها مُعرضون**) معناهُ عمّا وضعَ اللَّهُ فيها من الأدلّةِ والعِبر في حركاتها وجهاتِ حركاتها ومطالِعها ومغاربها واتّصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحسابِ القويم والتّرتيب العجيب الدّال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة.(**المسألة الرّابعة**)قُرئَ عن آيتها على التّوحيد.والمراد الجنس. أي هم متفطّنونَ لما يَرد عليهم من السماء من المنافعِ الدّنيويَّة كالاستضاءة بقمرِها والاهتداءِ بكواكبها.وحياةُ الأرض بأمطارها.وهم عن كونها آيةً بيِّنةً على وُجودِ الخالق ووَحدانيَّتهِ مُعرِضون.).

إنَّ الرّازي رحمهُ اللَّه قال فيما نقلتُهُ لكَ من تفسيرِه(سمّى السماءَ سقفاً لأنّها للأرضِ كالسقفِ للبيت)كذلكَ أطلعنا على إحدى القراءات وهي(**وهم عن آيتهِ مُعرضون**) فنبَّهَ بذلكَ إلى وُجودِ قراءة قرآنيَّةٍ لم تورد كلمةَ (**آية**) بصيغةِ الجمع (آياتها).**بل بصيغةِ المفرد** (آياتهِ). وهذه معلومةٌ أُخرى أفادنا بها

العلاّمة الرّازي رحمهُ اللّه.وهي معلومةٌ تؤكّدُ مِصداقيَّةَ دلالةِ (**السقف المحفوظ**)على طبقةِ الأوزون.

ابن كثير و(سقفاً محفوظاً):

فإن عُدنا إلى تفسيرِ ابنِ كثيرٍ رحمهُ اللّه نعثرُ في تفسيرهِ على معلومةٍ ثالثةٍ.فهو روى لنا حديثاً
شريفاً مرفوعاً إلى رسولِ اللّهِ (ص) وردَ فيهِ قوله: (عن ابن عبّاس قالَ رجلٌ يا رسولَ اللّه ما هذه السماء ؟) ويقصُدُ من سؤالهِ ما هذه السماءُ الّتي جعلها اللّهُ تعالى(**سقفاً محفوظاً**)؟ ويضيفُ بأنَّ رسولَ اللّهِ (ص) أجابهُ وقال (**مَوجٌ مَكفوفٌ عنكُم**). فالمعلومةُ الثالثةُ الّتي أضافها تفسيرُ ابن كثيرٍ رحمهُ اللّهُ هو أنَّ هذه السّقفَ المحفوظ مهمّتُهُ أن **يحمينا من موجٍ قادمٍ** من السماءِ من فوقه.

فإن أنتَ استفدتَ قارئي العزيز من هذه المعلومات الثلاث الّتي تضمّنتها تفاسيرُ هذينِ المفسّرين المذكورين.وقُمتَ بتدبُّرِ الآية ٣٢ من سورةِ الأنبياء الّتي أوردناها سابقاً وبأصولِ تدبُّرها.تجدُ أنَّهُ لا مفرَّ لكَ إلاّ أن تفهمَ من هذه الآيةِ الكريمة على أنّها أنبأت عن وُجودِ طبقةِ الأوزون المُكتَشفة.فهذه الطّبَقة الأوزونيّة (**تحمينا من موجٍ قادمٍ من السماء من فوقها**) وهي أشعَّةُ الشمس فوق البنفسجيَّة الصادرة
عن الشمس.وقد أنبأت هذه الآية الكريمةُ عن تلكَ المعلومةِ العلميَّة قبلَ أربعةَ عشرَ قرناً من الزّمان أي قبلَ أن يكتشفَ علماء القرنِ العشرين هذه الحقيقةَ العلميَّة المذكورة بقرونٍ طويلة.

وعلى هذه الصورة تتبيَّنُ للقارئِ أهمّيةُ هذا الأصل الخامس من أُصول تفسيرِ آياتِ القرآنِ الكريم.ويتَّضحُ لهُ أيضاً كيفَ أنَّ الحقائقَ العلميَّةَ تخدِمُ هذا الدّينَ الإسلاميَّ الحَنيفَ وليسَ العكسُ من ذلكَ بتاتاً.فالمُسلِمُ الّذي تقبَّلَ هذا الدّينَ الحنيفَ عن قناعةٍ تامّةٍ لا يخشى ما تأتي بهِ الأيّام من حقائقَ علميَّة بل إنّهُ

يسعى للإطّلاعِ على تلكَ الحقائقِ بقدمٍ ثابتةٍ لِيعودَ إلى هذا القـــرآن المقـــدّس يبحثُ فيهِ عمّا أوردَ اللّهُ تعالى فيهِ من آياتٍ دالّةٍ على تلكَ الحقائقِ العلميَّة وقبلَ أربعةَ عشر قرناً من الزّمانِ أيضاً وليُثبتَ لأعداءِ هذا الدّين صلاحيَّةَ هذا القــرآن لكلِّ زمانٍ ومكانٍ وأنَّهُ تنزيلٌ من ربِّ العالمين.

(السقفُ المحفوظ) هو (طبقةُ الأوزون):

وسأُثبتُ للقارئِ الآن صحَّةَ هذا المعنى الّذي فسَّرتُ بهِ (**سقفاً محفوظـاً**) الواردُ ذكرهُ في الآية ٣٢ من سورةِ الأنبياء (**وجعلنا السماءَ سقفاً محفوظاً وهـم عن آياهَا مُعرضون**) وبالنّظرِ في مُعطياتِ سباقها وسياقها وباختصارٍ شديد.أمّـا إذا شاءَ القارئُ أن يطّلعَ على ما سأختصرهُ لهُ.فما عليهِ إلاّ إن يُطالعَ ذلــكَ في مؤلّفي (إعجازُ القرآن في خصائصه).

ألا إنَّ اللّهَ تعالى قالَ في سورةِ الأنبياء وعلى سبيلِ التّمهيدِ (**وما أرسـلنا من قبلِكَ من رسولٍ إلاّ نوحي إليهِ أنَّهُ لا إلهَ إلاّ أنا فاعبُدون**)وقد مهَّدَ بذلـكَ ردّاً على الّذينَ ابتدعوا عقيدةَ التّثليث لذلكَ أضافَ تعالى يقول (**وقالوا اتَّخــذَ الرّحمانُ ولداً سبحانهُ بل عبادٌ مُكرمون**)وبمعنى أنَّ المسيحَ النّـــاصريَّ الّـــذي اعتقدتُموهُ أنَّهُ ابنُ اللّه هو اعتقادٌ باطلٌ.فهو رسولٌ من جملةِ رُسُلِ اللّهِ تعالى.وهو حلقةٌ من تلكَ الحلقات الّتي كانَ صاحبُ كلِّ حلقةٍ منها يدعـــو إلى التّوحيــدِ الكاملِ ومن مُنطلَقِ أنَّ اللّهَ خلقَ كلَّ شيءٍ لكونهِ (**الرّحمان**) الّذي لا يحتــاجُ إلى ولدٍ يُساعدهُ ولا إلى وريثٍ يرثُه.

ومن ثمَّ فقد راحَ تعالى يُعدِّدُ صفات المرسلينَ وانتهى من ذلكَ ليقــــول بحقّهم (**ومن يقُل منهم إنّي إلهٌ من دونهِ فذلكَ نجزيهِ جهنَّمَ كذلــكَ نجـزي الظّالمين**)وقد مهَّدَ اللّهُ تعالى من خلالِ هذه الفقرةِ الأخـيرةِ (**كذلـكَ نجـزي الظّالمين**) والّتي تعني وعلى هذه الصورةِ نجزي هؤلاءِ الظّالمينَ الّذينَ اتَّخذوا للّـــهِ ولداً.أقولُ مهَّدَ لِيُبكّتَهم ولِيُدلِّلَ على مِصداقيَّةِ كونهِ (**الرّحمان**) الإلهُ الّذي خلــقَ

السماوات والأرضَ بدون اتّخاذ ولدٍ يساعدهُ أو يرثهُ.وانطلقَ في ذلكَ الدّليلِ من هذه النّظريَّةِ الّتي سمّوها (**نظريَّةُ الانفجار العظيم**).فخاطبهم بأسلوبِ الاستفهام الاستنكاريّ وقال تعالى (**أولم ير الّذينَ كفروا أنَّ السماوات والأرضَ كانتا رَتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حيّ**) ؟ والمعنى أو لم يعتقد هؤلاءِ الّذينَ كفروا باللّهِ (**الرّحمان**) أنَّ هذه السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وهي مُعطيات نظريَّة الانفجار العظيم.القائل أصحابُها بأنَّهُ كانت هناكَ ذرّةٌ ماديّةٌ مضغوطةٌ جدّاً ومن الصغرِ بمكان وكانت قابلةً للانفجار ففجّرها خالقُها قبلَ الآن بما يتراوحُ ما بينَ ١٢- ٢٠ مليار عام.وأخذت تتمدّدُ إلى أن تشكّلَ منها هذه السماواتِ والأرض.فكأنَّهُ جلَّ شأنهُ قد سأل هؤلاء الذينَ كفروا:أينَ كانَ المسيحُ النّاصريُ في تلكَ الفترة من الزّمان ؟

وأضافَ تعالى على ذلكَ أنّكُم تقولون أيضاً بأنَّ الّذي قام بهذه العمليّةِ هو العقلُ المطلقُ الكائنُ وراءَ هذا الكون.وأنّهُ لم يستعِن بأحدٍ سواه.كذلكَ تبيَّنَ لكم مصداقيَّةَ قولنا (**وجعلنا من الماءِ كلَّ شيءٍ حيّ**) وثبتَ لكم أنَّ النسبةَ العظمى في تركيبِ كلِّ شيءٍ هو الماءُ المركّبُ من الأوكسجين والهيدروجين.وهذه الحقيقةُ أطلعناكُم عليها قبلَ اليوم بأربعة عشر قرناً من الزّمان.فإن كنتم تُقرّونَ بذلكَ كلّهِ (**أفلا يؤمنون**)؟ أي ألا يكفيكم ما ثبتَ لكم حدوثهُ ممّا ذكرناهُ من حقائقَ قبلَ أيّامكُم هذه بألف وأربعمائة عام لِيدفعكم لِتؤمنوا بأنَّ هذا المبدع لهذا الكونِ هو اللّهُ (**الرّحمان**)والّذي لم يتّخذ ولداً يُعينُهُ على إبداعِ ذلكَ كلّه؟؟

كذلكَ لاحظوا كيفَ أنّا(**وجعلنا في الأرضِ رواسيَ أن تميدَ بهم وجعلنا فيها فِجاجاً سُبُلاً لعلّهم يهتدون**)فلو أنَّ هذه الأرضَ كانت محرومةً من هذه الجبالِ الرّواسي ومن هذه الفجاجِ السبُل فهل كانَ سيظهرُ على سطحها

أثرٌ للحياة؟؟ فالجبالُ الرّواسي هي بمثابةِ خزّانات للمياهِ تتفجّرُ منـــــها الينـــابيعُ والأنهار.

وإلى جانبِ هذه الإبداعات كلّها لفتَ اللّهُ تعالى نظرَ الّذينَ كفـــروا إلى أنّهُ **(وجعلنا السماءَ سقفاً محفوظاً وَهم عن آياها مُعرضون)**.وهو بهذا يكـــونُ تعالى قد نبَّهَ أذهانَ علماءِ الّذينَ كفروا من خلالِ مُعطيات هذه الآيةِ الكريمةِ إلى حقيقةٍ علميَّةٍ زائدة عمّا عدَّدهُ من قبلُ من حقائقَ أبدعها هذا الخالقُ الّذي لا إلهَ إلاّ هو والّذي لا شريكَ لهُ في مُلكهِ والذّي ما احتاجَ في ذلكَ كلّهِ إلى معونـــةِ أحدٍ سواهُ وبذلكَ يكونُ تعالى قد نقضَ لهؤلاءِ عقيدةَ التّثليـــــثِ وأنَّ المسـيحَ النّاصريَّ جزءٌ من هذا التّثليث.

فأنتَ لا بُدَّ وأن لاحظتَ يا عزيزي كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى كانَ يُخاطبُ في سباقِ هذه الآيةِ الكريمة **(وجعلنا السماءَ سقفاً محفوظـــاً وهـــم عـــن آياهـــا مُعرضون)** أقول كانَ يُخاطبُ في سباقها هذه الأمم الغربيَّة المعاصرة الّتي قـــالَ علماؤها بنظريَّةِ الانفجار العظيم.والّذينَ تبيَّنَ لهم مصداقيَّة كلِّ ما أورده القـرآن الكريمُ قبلَ الآن بأربعة عشر قرنٍ من الزّمان.وقد أضافَ اللّهُ تعـــالى إلى تلـــكَ العناصرِ المذكورة عُنصُراً خامساً عبَّرَ عنهُ اللّهُ جلَّ شأنهُ بقوله **(وجعلنا الســـماءَ سقفاً محفوظاً وهم عن آياها مُعرضون)**. هذا الكلامُ المقدّسُ الذي أشارَ تعـــالى بهِ إلى طبقةِ الأوزون المحيطة بالأرضِ والّتي اكتشفَ وجودها هؤلاء هم أنفســـهم الّذينَ اتّخذوا للرحمنِ ولداً. وبذلكَ يكونُ سباقُ هذه الآيـــةِ الكريمـــة يؤكّـــدُ مِصداقيَّةَ المعنى الّذي فهمناهُ من الآيةِ المذكورة.وهو المعنى الّذي التزمنـــا فيـــهِ بالأصلِ الخامسِ للتّفسيرِ الّذي ألزمنا بتفسيرِ تلكَ الآيةِ على ضـــوءِ مُعطَيـــات الحقائقِ العلميَّةِ وليسَ بما تبادرَ منها لأذهانِ أولئكَ المفسّرين القدماء رحمهم اللّه.

أجل لقد راجعنا التّفاسيرَ القديمةَ أوّلاً واستفدنا من الرّوايات الـــواردة فيها.كما استفدنا أيضاً من القراءة الّتي نقلها لنا الفخر الرّازي رحمهُ اللّهُ وهو أنَّ

كلمةَ (آياتها) كانت تُقرأُ (آيتها) بصيغةِ المفرد الّتي تُشيرُ إلى آيةٍ سماويَّةٍ بعينـــها وهي آيةُ وُجود الطّبقة الأوزونيَّة المحيطة بالكرة الأرضيَّة.تلكَ الـــتي اكتشـفَ وُجودَها علماءُ القرن العشرين.والّتي كانَ القرآنُ المجيدُ قد أعلنَ عن وُجودهـــا قبلَ اليوم بأربعةَ عشر قرناً من الزّمان.وفي سياقِ إلقاءِ الحجَّةِ على الّذينَ اتخـذوا منهم للرّحمن ولداً .

وعليهِ فإنَّ المؤمنَ الصادقَ في إيمانهِ لا يخشى التّقدُّمَ العلميّ وما ينجمُ عنهُ من حقائقَ بشكلٍ من الأشكال.بل على العكسِ من ذلكَ فهو يتقصّى ظـــهور تلكَ الحقائقِ العلميَّة بشغفٍ إيمانيٍّ لاعتقاده بأنَّ ظهور الحقائقَ العلميَّةَ تخدُمُ هـذا القرآنَ العظيمَ المُشتملَ على كثيرٍ من تلكَ الحقائقِ العلميَّة وفي ســياقِ التّدليــلِ على وُجودِ اللّهِ تعالى الّذي خلقَ هذه السماواتِ والأرضَ وما فيهما في يومٍ مـن الأيّام

ولمقصدٍ مُحدَّدٍ وليسَ عابثاً ولا لاعِباً.وهو الأمرُ الّذي كرَّرَ تعالى ذكرَهُ في أكـثرَ من موضعٍ من كتابهِ العزيز.خصوصاً وأنَّ اللّهَ تعالى قال في سورةِ الأنبياء نفسها **(وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما لاعبين.لو أردنـــا أن نتَّخِـذَ لَـــهواً لاتّخذناهُ من لَدُنّا إن كُنّا فاعلين)—الآيتان ١٦/١٧ —**

لذلكَ نقولُ وبيقينٍ جازمٍ بأنَّ التّطوُّر العلميَّ يخدُمُ الفكرَ القــــرآنيّ ولا يتناقضُ معهُ على مرِّ الأيّام. فإن نحنُ اعتقدنا خلافَ ذلكَ فكأنّنا قلنا بألفــــاظ أخرى إنَّ هذه القرآنَ المُنزل لا يصلحُ لكلِّ زمانٍ ومكان.وأنَّ النّاسَ سيحتاجونَ في يومٍ من الأيّامِ لِيُنزلَ ربُّهم من أجلِهم كتاباً سماويّاً آخرَ مناسباً للفترةِ الزمنيَّــة الّتي وُجدوا فيها. كلاّ لن يحدُثَ ذلكَ إطلاقاً فاللّهُ جلَّ شأنهُ الّذي أنـــزلَ هــذا القرآنَ المجيدَ ذِكْراً وشَرفاً للإنسانيَّةِ كُلِّها هو نفسهُ اللّهُ الّذي قال مُتحدّياً هـؤلاءِ البشر وذلكَ في الآية التّاسعةِ من سورةِ الحجر قال:**(إنّا نحنُ نزَّلنا الذّكرَ وإنّا لـهُ لحافظون).**

سورةُ فُصِّلت وحقائقها العلميَّة:

وسأقدِّمُ للقارئ مثالاً آخرَ غيرِ مثال (**السقفِ المحفوظ**) سالفِ الذّكر الذي أوردتهُ آياتُ سورةِ الأنبياء.وستُلاحَظُ أنَّ اللَّهُ تعالى قد تحدّى في هذا المثال الثاني فئةَ العلماءِ المختصّين في مُختلَفِ العلومِ وخاصّةً منها علم طبقات الأرض أولئكَ العلماء الغربيّين الّذينَ يتباهونَ بالحقائقِ العلميَّةِ الّتي اكتشفوها بما يتعلّقُ بالأدوارِ الّتي مرَّ بها نُشوءُ هذه الأرض وغيرِها في هذا الكون وهذا المثالُ أستقيهِ للقارئِ من سورةِ(**فُصِّلت**)تلكَ السورة الّتي وردَ فيها هذا التّحدّي العلميّ المذكور والّذي يثْبُتُ منهُ أنَّ الحقائقَ العلميَّةَ المكتشفةَ في جميعِ المجالات تخدُمُ مُعطَيات هذا القرآنَ المجيد.

فلاحظ يا عزيزي القارئ كيفَ أنَّ اللَّهَ جلَّ شأنهُ قد استهلَّ سورةَ فُصِّلَت بالأحرف المقطّعة (**حم**) وقد أثبتُّ في مؤلّفي (فنّ الاختزال في القرآن الكريم) أنَّ هذين الحرفين الحاء والميم قد اختزلهما ربُّنا عزّ وجلَّ من اسميهِ (**الحميدُ المجيد**).

ومن ثمَّ أضافَ تعالى بعدَهما وقال (**تنزيلٌ من الرّحمنِ الرّحيم**) وفي هذه الألفاظِ الواضحةِ يُعلِنُ اللَّهُ الّذي استحقَّ الحمدَ كلِّهِ والمجدَ كلِّهِ أنَّ هذا القرآن الكريمَ لم ينتحلهُ محمَّدٌ رسولُ اللَّهِ (ص) من عندِ نفسهِ بل تلقّاهُ من اللَّهِ (**الرّحمن الرحيم**). أي من اللَّهِ خالقِ كلِّ شيءٍ وعلى صورةٍ تجلَّت في معالمِهِ رحمةُ اللَّهِ الواسعةِ التي تجلَّت في كلِّ شيءٍ مخلوق.

ومن ثمَّ فقد راحَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ يُعطيكَ فِكرةً عن القومِ الموجَّهِ إليهم هذا الإعلان والّذي هو بمثابةِ ادّعاءٍ عريضٍ من جانبهِ سبحانه فهو تعالى أضافَ يقول (**كتابٌ فُصِّلَت آياتهُ قُرآناً عربيّاً لِقومٍ يَعلمون**) فنبَّهَ تعالى أذهاننا من خلال هذه الألفاظ إلى أنَّهُ تعالى يتحدّى بهذا الإعلان قوماً بعينهِ أشارَ إليهم من خلال قولهِ تعالى (**لِقومٍ يعلمون**). فهذه اللاّم من قولهِ تعالى (**لقومٍ يعلمون**)هي لامُ

التّبليغ أي أنّهُ تعالى قصَدَ تبليغَ هذا القوم الّذي سيشتهر بالرّقيّ العلمــيّ.ومــن باب أنَّ هذه **الّلام** أدخلها على فعل المضارع (**يعلمون**)يعني أنَّ هذا التّحــدّي أورَدَهُ اللّهُ تعالى مُوجَّهاً (**لقوم يعلمون**) .

والسؤالُ الّذي يطرحُ نفسهُ في هذا المقام هو:المعلــومُ هــو أنَّ ســورةَ فُصِّلت قد أنزلها ربُّنا في مكّة المكرَّمة.حيثُ كانت الأمّيّةُ مُنتشرةً ليــسَ في أرجاء مكَّة وحدها بل وفي شبهِ الجزيرة العربيَّةِ كُلّها وكمــا هــو معــروفٌ تاريخيّاً.الأمرُ الّذي يُشكّلُ قرينةً واضحةً الدّلالة على أنَّ هذا القومَ المقصــودَ في هذه الآيةِ الكريمةِ من قولهِ تعالى (**لِقومٍ يعلمون**))لم يكن المُشارُ بهِ إلى قومِ محمَّــدٍ الأمّيينَ بالذّاتِ بل إلى قومٍ آخرَ سواهم.لذلكَ وجبَ السؤال عمّن يكونُ هــذا القومُ المقصودُ هنا في قولهِ (**لِقومٍ يعلمون**)؟؟

ماذا فَهِمَ الرّازي وابنُ كثيرٍ من (لقوم يعلمــون):

ومن خلالِ مُراجعتنا لِتفسيرِ ابن كثير لهذه الآيةِ التي أنهاها تعــالى بقولهِ(**لِقومٍ يعلمون**)لاحظنا أنَّ ابنَ كثيرٍ رحمهُ اللّهُ كتبَ يُفسّرُها ويقــول (أي إنّما يعرِفُ هذا البيان والوضوحَ العلماءُ الرّاسخون). أمّا العلاّمة الفخر الــرّازي فقد أجابَ على السؤال المشار إليهِ في تفسيرهِ الكبير وقال (قولهُ (**لقومٍ يعلمون**) يعني إنّما جعلناهُ عربيّاً لأجلِ أن يعلموا المُرادَ منه).

فلاحظ يا عزيزي القارئ كيفَ أنَّ هاتين الإجــابتين تجاهلتــا دلالــةَ كلمةِ(قوم)الّتي تعني الجماعة من الرّجالِ والنّساءِ معاً وسمّوا كذلــكَ لِقيامــهم بعظائم الأمور وعظائم المهمّات(محيط المحيط)فلو أنّها صحّت إجابتهما لكــان ينبغي أن يقول (لعلّهم يعلمون) وليسَ (**لِقومٍ يعلمون**).

أدلّةٌ أخرى وضّحت من هو القومُ المقصود:

ولا ينبغي لنا أن نذهبَ بعيداً في عمليّةِ تعيينِ هذا القوم المقصود.بسـبَبِ أنَّ اللّهَ تعالى نفسهُ راحَ يُعيّنُ للقارئِ القومَ المقصودَ من الإعلانِ السالف الذّكــر

والموجَّه بتحدٍّ كبيرٍ نحوهم.أفلا نلاحظُ كيفَ أنَّهُ تعالى أمر وقال في الآيةِ التّاسعة (**قل أئنّكُم لَتكفرونَ بالّذي خلقَ الأرضَ في يومينِ وتجعلونَ لهُ أنداداً، ذلكَ ربُّ العالمين**). فهو تعالى أتى بالهمزة الّتي تُفيدُ طلبَ الإيمانِ والتّصديق بكونِ اللّهِ تعالى هو(**الرّحمن الرّحيم**) الّذي أنزلَ هذا القرآنَ المجيد.ومن ثمَّ أتى تعالى باللام التّي تُفيدُ التّعجُّب المجرَّد عن القسَم وهي الدّاخلة على قولهِ (**لَتكفُرون**).وأمّا كلمةُ أنداداً فمفردُها (ندّ) وقد استُعملت هنا بمعنى النّظريّةِ والرّأي (محيط المحيط).

واستناداً إلى هذه المعاني فقد كشفَ اللّهُ تعالى اللّثامَ عن وجهِ القومِ المقصود بتحدّيهِ سالفِ الذّكر فوضَّحَ أنَّ القومَ المذكورَ قد اختصّوا بالعلومِ المتعلِّقةِ بحقائقِ هذا الكونِ وبالأدوارِ الّتي مرَّ بها خلقُ الكرةِ الأرضيَّة خاصَّةً فهو تعالى أمر وقال (**قل**) بمعنى بلِّغ أنَّ ربَّكَ الرّحمنُ الرّحيمُ يعجبُ من حالِ هذا القومِ الّذي كشفت لهم علومهم صدقَ ما أنبأهم بهِ هذا القرآنُ الكريمُ وذلكَ قبلَ عصرِهم بأربعةَ عشرَ قرنٍ من الزّمان وهو أنَّ هذه الأرض الّتي يعيشونَ على أديمها قد تمّ خَلقُها خلالَ دورينِ جيولوجيَّينِ متمايزين.

ثمَّ إنَّ قولهُ تعالى (**ذلكَ ربُّ العالمين**) معناهُ أنَّ هذا الخلقَ والإبداع هو من فعلِ(**ربِّ العالمين**) علماً بأنَّ كلمةَ (ربّ) تعني الذي يُطوِّرُ الشيءَ طوراً بعدَ طورٍ إلى أن يصلَ بهذا الشيءِ إلى حدِّ التّمام (أقرب الموارد). أي أنَّ خلقَ هذه الأرضِ تحقّقَ وفقَ قانون النّشوء والتّطوُّر.وما دامَ اللّهُ تعالى قد أنبأ عن ذلكَ قبلَ هذه المدَّة الطويلةِ.فقد لزمَ أن تؤمنوا بهذا الكتابِ المقدَّسِ وأن تُصدِّقوهُ، لا أن تندفعوا وراءَ نظريّاتٍ وآراءٍ غيرَ هذا الرّأيِ القرآنيِّ النّابعِ من مُنطلَقِ أنَّ خالقَ هذه الأرض هو **الرّحمن الرّحيم**.

ولم يكتفِ اللّهُ تعالى بالكشفِ عن هذه الحقيقةِ العلميَّةِ المتعلِّقةِ بخلقِ الأرض.بل وأتى بواو العطفِ وأضافَ يكشفُ لهذا القومِ عن حقائقَ أُخرى

تتعلّقُ بالأدوار الّتي مرّت بها الأرضُ قبلَ أن تصلَ إلى ما وصلت إليـــهِ فقـــال (**وجعلَ فيها رواسيَ من فوقها وباركَ فيها وقدَّرَ فيها أقواتَها في أربعـــةِ أيّـــامٍ سواءً للسائلين**).بمعنى أنّ هذه الأرض قد خضعت للتطوُّرِ خلالَ أربعـــةِ أدوارٍ زمنيَّةٍ أيضاً تشكّلت خلالها الجبالُ من فوقها ولتصبـــحَ كخزّانـــات طبيعيَّـــةٍ للمياه.ومن ثمّ تطوَّر باطنَ هذه الكرةِ الأرضيَّةِ على صـــورةٍ أمســـتْ تُعطـــي ساكنيها ما يحتاجونهُ من الغذاء ممّا تُنبتهُ هذه الأرضُ وممّا يُصنِّعونهُ من نباتاتهـــا وممّا يستمدّونهُ من أشعّةِ شمسها.وقد حقّقَ اللّهُ **الرّحمنُ الرّحيمُ** ذلكَ كلّهِ (**سـواءً للسائلين**) فلم يحصر تلكَ النّعماءً بفئةٍ من النّاسِ دونَ غيرها.

وعلى هذه الصّورة فقد وضّحَ اللّهُ جلَّ شأنهُ في الآيتينِ اللّتينِ بعدهمـــا حقائقَ كونيَّةٍ أخرى واجهَ اللّهُ تعالى بها هؤلاءِ الّذين باتوا يعلمونَ أسرارَ تكـــوُّنِ هذه الأرضِ وغيرها من الكواكب. علماً بأنّهُ تعالى قد تحدّاهـــم في موضـــوعِ العلومِ التي برّزوا فيها قبلَ أربعةَ عشرَ قرنٍ من الزّمان.الأمرُ الّذي يُستشفُّ منـــهُ أنَّ المؤمنَ بهذا القرآن الكريمِ لا ينبغي أن يخشى تقدُّمَ العلمِ ولا أن يخافَ مـــن الكشفِ عن حقائقِ هذا الوجود.بل إنَّ من واجبهِ أن يدفـــعَ هـــؤلاءِ العلمـــاء الباحثينَ لِيبذلوا جهدَ طاقتهم للبحثِ والاستقراء ومُستبشِـــراً بالحقـــائقِ الّـــتي سيكشفُ عنها العلمُ الحديث.لأنّها ســـتكونُ يقينـــاً خادمـــةً لهـــذا الدّيـــنِ الحنيف.وأدعوكَ يا عزيزي القارئ لِتُطالعَ مؤلّفي (النظريَّة القرآنيَّـــة الكونيَّـــة) لِتُلاحظ كيفَ أنَّ هذا القرآن المجيدُ قد اشتملَ على نظريَّةٍ كونيَّةٍ شاملةٍ وقبـــلَ اليوم بأربعةَ عشرَ قرنٍ من الزّمان.

ولا تحسب أنّني قرنتُ قولهُ تعالى (**لِقوم يعلمـــونَ**) بعلمـــاءِ الغـــربِ المُعاصرينَ خاصّةً بدونِ حقّ بل وسأدلي لكَ بأكثرَ من دليلٍ على صحَّـــةِ مـــا ذهبتُ إليه.فمن حيثُ المنطلق فإنَّ اللّهَ تعالى أنذرَ هذه الأقوام المسيحيَّة في سورةِ الكهف حيثُ وضّحَ اللّهُ تعالى أنَّ محمّدا (ص) مكلّفٌ بإنذارِ قومهِ والنّاسَ الذينَ

عاصروهُ وبإنذارِ الّذينَ اتّخذوا للّهِ ولداً.وهي حقيقةٌ وضّحتُها في مؤلّفي (في ظلالِ تفسيرِ سورةِ الكهف) فليُرجع إليه.وأمّا من حيثُ الأدلّةِ الضمنيّةِ من داخلِ هذه السورةِ (سورةُ فُصِّلت)فهي التالية:

أوّلاً–سبقَ لي أن قلتُ بأنَّ الّلام من قولهِ تعالى (**لقوم**) هي لام التّبليغ.فكأنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ أرادَ أن يقولَ لأفرادِ هذا القوم إنّنا قد أنزلنا هذا الكتابَ مُفصّلةً آياتُهُ وقرآناً عربيّاً لِتبليغِ هذا القومِ الّذي سيترقّى رجالٌ ونساءٌ من رجالهِ ونسائهِ في العلومِ وخاصّةً منها علومُ الكونيّات وليكونَ لهم (**بشيراً ونذيرا**)ومن مُنطلَقِ أنّهم مِمَّن اتَّخذوا للّهِ ولداً.فاللّهُ تعالى يُبشِّرُهم بالإسلامِ من جهةٍ ويُنذرَهم بالويلِ والدّمار إن هم أصرّوا على ما يُشركون من جهةٍ أخرى. لذلكَ نُلاحظهُ جلَّ شأنهُ قد أمرَ في الآية السادسة رسولهُ الكريم محمّداً (ص) وقال: (**قل إنّما أنا بشرٌ مِثلُكم يوحى إليَّ أنّما إلهُكم إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليهِ واستغفروهُ وويلٌ للمشركين**).

ثانياً–وممّا يؤكّدُ أنَّ قولهُ تعالى (**بشيراً ونذيراً**)مُوجّهٌ إلى القومِ المشار إليهِ.هو أنَّ اللّهَ تعالى راحَ يقولُ في الآية الثالثة عشرة (**فإن أعرضوا فقُل أنذرتُكم صاعقةً مّثلَ صاعقةِ عاد وثمود.إذ جاءتهُمُ الرّسُلُ من بينِ أيديهم ومن خلفِهم ألاّ تعبُدوا إلاّ اللّهَ قالوا لَو شاءَ ربُّنا لأنزلَ ملائكةً فإنّا بما أُرسِلتُم بهِ كافرون**).

ثالثاً–وقد أوردَ اللّهُ تعالى علامةً بارزةً من علاماتِ هذه القوم المُشارُ إليهِ وذلكَ من خلالِ قولهِ تعالى في الآية السادسة والعشرين وهو يُخبرُ عن خِطَطِهم الّتي سيعمدونَ إليها لِمحاربةِ هذا القرآن الكريم وبصيغةِ الماضي الّتي تُستعملُ لإفادةِ الجزم قال (**وقالَ الّذينَ كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيهِ لعلّكُم تَغلِبون**).وهذه الصفةُ المذكورةُ أمست واضحةَ المعالمِ في وقتنا الحاضر. إذ أنَّ هؤلاءِ الغربيّينَ نظّموا مؤسّساتٍ كمؤسّسةِ حقوقِ الإنسان ومؤسّسة حقوق

المرأة وغيرها من المؤسّسات وكانَ القصدُ منها أن يُثبتوا (**للمسلمينَ المتخلّفين**) أنَّ تعاليمَ كتابهم القرآنُ الكريمُ لم يعُد صالحاً لهذا الزّمان.مُعتبرينَ أنَّ أوضاعَ المجتمعات المسلمةِ السائدة تمثّلُ تعاليمَ الإسلامِ الحقيقيَّة.

رابعاً—والملاحظُ هو أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ راحَ يُشيرُ إلى هذه المخطّطات الظالمةِ الّتي يُخطّطُ لها هؤلاءِ الغربييّن ويُنبئُ عن النّتائجِ الّتي قدَّرَ اللّهُ تعالى أنَ يُحقّقها بعدَ إفشالِ تلك المخطّطات فقالَ في الآيةِ الأربعين ومشيراً إليهم (**إنَّ الّذينَ يُلحدونَ في آياتنا لا يخفونَ علينا أفمن يُلقى في النّارِ خيرٌ أم مَّن يأتي آمناً يومَ القيامةِ اعملوا ما شئتُم إنَّهُ بما تعملونَ بصيرٌ.إنَّ الّذينَ كفروا بالذّكرِ لّما جاءهم وإنَّهُ لَكتابٌ عزيزٌ. لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خَلفهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميد**).فهو تعالى حذفَ خبر إنَّ والتّقدير إنَّ الّذين كفروا سيُجازونَ بكُفرهم ويُلقَونَ في النّار.وأنبأ في الوقتِ نفسهِ أنَّ هؤلاءِ سيفشلونَ فيما خطّطوا لهُ وأنَّ هذا الكتابَ(**عزيزٌ**) أي منيعٌ لن يثْبُتَ بُطلانُ شيءٍ من تعاليمه في أيِّ زمانٍ من الأزمنة بسبَبِ أنَّ اللّهَ الّذي أنزلهُ(**حكيمٌ**)**أي** مُتقِنٌ للأمورِ.**وهو** (**حميدٌ**) **أي** محمودٌ في كلِّ شيءٍ فعلهُ ويفعلُه.

خامساً—وليلاحظ القارئ الآية ٥٢ من هذه السورة كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى قال (**قُل أ رأيتُم إن كانَ من عندِ اللّهِ ثُمَّ كفرتُم بهِ مَن أضلُّ مِمَّن هو في شِقاقٍ بعيد؟**) فالهمزة لِطلَبِ الإيمانِ والتّصديقِ وكأنَّ اللّهَ تعالى ينصحُ هؤلاءِ أن يكفّوا عمّا يفعلونهُ ضدَّ هذا الكتابِ وأن يؤمنوا بهِ أيضاً.فهو يقولُ افرضوا أنَّ هذا الكتابَ كانَ مُنزلاً من عندِ اللّهِ تعالى وكفرتُم بهِ وحاربتموهُ فهل سيوجدُ من سيكونُ أضلُّ منكم إن قمتُم بمعاداتِهِ بعدَ اتّخاذكم هذا الموقفِ السلبيِّ منه؟؟

سادساً—ومن ثُمَّ نُلاحظُ كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى راحَ يقولُ بعدَ ذلكَ في الآيتينِ الأخيرتينِ من هذه السورةِ وبحقِّ عاقبةِ مَن قالَ عنهم في أوّلِ السورة

(لقومٍ يعلمون) قال (سنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم حتّى يتبيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الحقُّ أوَلَم يكفِ بربِّكَ أنَّهُ على كلِّ شيءٍ شهيد.ألا إنَّهم في مِريةٍ مِن لِقاءِ ربِّهم ألا إنَّهُ بكلِّ شيءٍ مُحيط). فليلاحظ القارئ كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى توعَّدَ في هاتين الآيتين القومَ الواردُ ذكرُهُ في الآيةِ الثالثةِ من هذه السورة.وأتى بحرف التّنبيه(ألا)مرَّتين فنبَّهَ في المرَّةِ الأولى إلى أنَّ أفراد هذا القوم سيظلّونَ يشكّونَ في مِصداقيَّةِ هذا الكتابِ العزيزِ بسببِ ترسُّخِ عقيدةِ التّثليثِ في قلوبهم لِطولِ مُدَّةِ إمهالِ اللّه تعالى إيّاهم.ونبَّهَ أذهاننا في المرَّة الثانية إلى أنَّ اللّهَ تعالى سيقضي عليهم في نهايةِ المطاف .فكلمةُ (محيط) اسم فاعل أتتْ من الإحاطة.وإنَّ الإحاطة بالشيءِ معناهُ الإحداقَ بهِ وإهلاكه (محيط المحيط).

ماذا فَهِمَ ابنُ كثيرٍ من سورة فُصِّلَت ؟

ولا بأسَ أن أنقلَ للقارئ ما فهمهُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللّهُ من قولِ اللّه تعالى في سورة فُصِّلَت (قل أ إنَّكم لَتكفرونَ بالّذي خلقَ الأرضَ في يومينِ وتجعلونَ لهُ أنداداً ذلكَ ربُّ العالمين.وجعلَ فيها رواسيَ من فوقها وبارَ فيها وقدَّرَ فيها أقواتَها في أربعةِ أيّامٍ سواءً للسائلين).فابنُ كثيرٍ كتبَ يقول (هذا إنكارٌ من اللّهِ تعالى على المشركينَ الّذينَ عبدوا معهُ غيرهُ وهو الخالقُ لكلِّ شيءٍ القاهر لكلِّ شيءٍ المقتدرُ على كلِّ شيءٍ فقال (قل أ إنَّكم لَتكفرونَ بالذي خلقَ الأرضَ في يومينِ وتجعلونَ لهُ أنداداً) أي نُظراءَ وأمثالاً تعبدونَها معه(ذلكَ ربُّ العالمين)أي الخالقُ للأشياءِ هو ربُّ العالمينَ كلّهم وهذا المكانُ فيهِ تفصيلٌ لقولهِ تعالى (خلقَ السماواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيّام) ففصلَ ههُنا ما يختصُّ بالأرضِ مّما اختصَّ بالسماء.فذكرَ أنَّهُ خلقَ الأرضَ أوّلاً لأنّها كالأساس .والأصل أن يبدأَ بالأساس ثمَّ بعدهُ بالسقف.كما قالَ عزَّ وجلَّ (هو الّذي خلقَ لكم ما في الأرضِ جميعاً ثمَّ استوى إلى السماءِ فسوّاهُنَّ سبعَ سماوات)الآية.فأمّا قولهُ تعالى (أ أنتم أشدُّ خلقاً أم السماءُ بناها.رفعَ سَمكها

فسوّاها. وأغطشَ ليلَها وأخرجَ ضُحاها. والأرضَ بعدَ ذلكَ دحاهـا. أخـرجَ منها ماءها ومرعاها والجبالَ أرساها. **متاعاً لكم ولأنعامكم)** ففي هذه الآيةِ أنَّ دَحوَ الأرض كانَ بعدَ خَلقِ السماء بالنّص. وبهذا أجابَ ابنُ عبّاس (رض) فيمـا ذكرهُ البخاري عند تفسيرِ هذه الآية من صحيحه فإنَّهُ قال: وقالَ المنـهال عـن سعيد بن جبير قال: قالَ رجلٌ لابنِ عبّاس (رض) إنّي لأجدُ في القـرآن أشـياء تختلفُ عليَّ. قال **(فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون)**. وأقبلَ بعضهم علـى بعضٍ يتساءلون **(ولا يكتمونَ اللّهَ حديثاً)**. **(واللّهِ ربِّنا ما كُنّا مُشركين)** فقـد كتموا في هذه الآية. وقالَ تعالى **(أ أنتم أشدُّ خَلقاً أم السماءَ بناها** – إلى قولهِ– **والأرضَ بعدَ ذلكَ دحاها)** فذكرَ خلقَ السماءِ قبلَ الأرض. ثمَّ قالَ تعالى **(قـل أَ إنَّكم لَتكفرونَ بالّذي خلقَ الأرضَ في يومين**–إلى قولهِ–**طائعين)**. فذكرَ في هـذه خلقَ الأرض قبلَ خلقِ السماء. قال **(وكانَ اللّهُ غفوراً رحيماً)** **(عزيزاً حكيمـاً)** **(سميعاً بصيراً)** فكأنَّهُ كانَ ثمَّ مضى. فقالَ ابنُ عبّاس (رض) **(فلا أنسابَ بينـهم يومئذٍ ولا يتساءلون)** في النّفخةِ الأولى. **(ثمَّ يُنفخُ في الصّورِ فصعـقَ مَـن في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاءَ اللّه)** فلا أنسابَ بينهم عند ذلـكَ ولا يتساءلونَ بينهم في النّفخةِ الأخرى. **(وأقبلَ بعضهم على بعضٍ يتساءلون)**. وأمّا قولهُ **(واللّهِ ربّنا ما كُنّا مُشركين)** **(ولا يكتمونَ اللّهَ حديثاً)** فإنَّ اللّهَ تعالى يغفرُ لأهلِ الإخلاص ذنوبهم. فيقولُ المشركونَ تعالوا نقولُ لم نكن مُشركين. فيختُـم على أفواههم فتنطقُ أيديهم. فعندَ ذلكَ يُعرفُ أنَّ اللّهَ تعالى لا يُكتـمُ حديثـاً. وعندهُ **(يودُّ الّذينَ كفروا)** الآية. وخلقَ الأرضَ في يومين ثمَّ خلـقَ السـماء ثمَّ استوى إلى السماء فسوّاهُنَّ في يومينِ آخرينِ. ثمَّ دحى الأرضَ ودحاها أن أخرجَ منها الماءَ والمَرعى وخلقَ الجبالَ والرّمالَ والجمادَ والآكام وما بينهما في يومـينِ آخرينِ. فذلكَ قولهُ تعالى دحاها. وقولهُ **(خلقَ الأرضَ في يومين)** فخلـقَ الأرضَ وما فيها من شيءٍ في أربعةِ أيّام. وخلقَ السماواتِ في يومين **(وكانَ اللّهُ غفـوراً**

رحيماً) سمّى نفسهُ بذلكَ.وذلكَ قوله.أي لم يزل كذلك فإنّ اللّهَ تعالى لم يُـــرد شيئاً إلاّ أصابَ به الّذي أراد.فلا يختلِفنَّ عليكَ القرآن.فإنّ كلاًّ من عندِ اللّهِ عــزّ وجلّ.قالَ البخاري:حدّثنيهِ يوسف بن عدي حدَّثنا عبيد اللّه بن عمرو عن زيـد بن أبي أنيسة عن المنهال:هو ابنُ عمرو الحديـــث.وقولـــهُ **(خلــقَ الأرضَ في يومينِ)**يعني يوم الأحد ويوم الاثنين.**(وجعلَ فيها رواسيَ من فوقها وباركَ فيها)** أي جعلها مباركةً قابلةً للخيرِ والبذرِ والغراس.وقدَّرَ فيها أقواهَا وهو ما يحتـــاجُ أهلُها إليهِ من الأرزاق والأماكن التي تُـــزرع وتُغـــرس يعـــني يـــوم الثلاثـــاء والأربعاء.فهما معَ اليومينِ السابقين أربعة.ولهذا قال **(في أربعـــةِ أيّـــامٍ ســـواءً للسائلين)** أي لمن أرادَ السؤال عن ذلكَ لِيعلَمه.وقالَ عِكرمة ومجاهد في قولهِ عزّ وجلّ **(وقدَّرَ فيها أقواهَا)** جعلَ في كلّ أرض مالا يصلُح في غيرِها.ومنهُ العصب باليمن.والسابوري بسابور والطيالسة بالرى.وقالَ ابن عبّاس وقتادة والسدي في قولهِ تعالى **(سواءً للسائلين)** أي لِمن أرادَ السؤال عن ذلك.وقال ابنُ زيد:معنـاهُ وقدَّرَ فيها أقواهَا في أربعةِ أيّام سواءً للسائلين.أي على وفق مراده من لهُ حاجـة إلى رزق أو حاجة لا إنَّ اللّهَ تعالى قدَّرَ لهما هو محتاجٌ إليه.وهذا القول يُشبهُ مـا ذكروه في قولهِ تعالى **(وآتاكم من كلّ ما سألتموه)**.واللّهُ أعلم.).

فهل استسَغتَ يا قارئي العزيز ما فهمهُ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللّه من الآيـــات من سورةِ فُصِّلَت وعلى ضوءِ ما كشفَ عنهُ العلمُ الحديث ؟؟

ماذا فَهِمَ الفخر الرّازي من سورة فُصِّلَت ؟

وقد راحَ الفخر الرّازي رحمهُ اللّه يُفسِّرُ قولهُ تعالى **(قل أ إنّكم لَتكفرونَ بالّذي خلقَ الأرضَ في يومينِ وتجعلونَ لهُ أنداداً ذلكَ ربُّ العالمين.وجعلَ فيها رواسيَ من فوقها وباركَ فيها وقدَّرَ فيها أقواهَا في أربعةِ أيّامٍ سواءً للســائلين)** فكتبَ يقول (اعلم أنّهُ تعالى لمّا أمرَ محمّداً (ص) في الآية الأولى أن يقول **(إنّمــا أنا بشرٌ مثلكم يوحى إليَّ أنّما إلهُكم إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليهِ واســـتغفروه)**

أردفهُ بما يدلُّ على أنَّهُ لا يجوزُ إثباتُ الشركة بينهُ تعالى وبينَ هذه الأصنام في الإلهيَّة والمعبوديَّة.وذلكَ بأن بيَّنَ كمالَ قُدرتهِ وحكمتهِ في خَلقِ السماوات والأرضِ في مدَّة قليلة.فمَن هذا صفتُهُ كيفَ يجوزُ جعلُ الأصنام الخسيسة شُركاءً له في الإلهيَّةِ والمعبوديَّة؟فهذا تقريرُ النَّظم.وفي الآيةِ مسائل.(المسألة الأولى) قرأ ابنُ كثير:(أ **إنَّكم لَتكفرونَ**)همزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مدّ.وأمّا نافع في رواية قالون وأبوا عمرو فعلى هذه الصورة.إلاّ أنَّهما يمدّان.والباقونَ همزتين بلا مدّ. (المسألة الثانية) قولهُ تعالى (أ **إنَّكم**) استفهام بمعنى الإنكار.وقد ذكر عنهم شيئين مُنكرين (أحدهما) الكفرُ باللّه وهو قولهُ(**لَتكفرونَ باَلّذي خلقَ الأرضَ في يومين**). (وثانيهما) إثباتُ الشركاء والأنداد له.ويجبُ أن يكونَ الكُفرُ المذكور أوّلاً مُغايراً لإثبات الأنداد له ضرورةُ أن عطفَ أحدهما على الآخر يوجبُ التّغايُر.والأظهر أنَّ المرادَ من كفرهم وجوه (الأوّل) قولهم إنَّ اللّهَ تعالى لا يقدرُ على حشرِ الموتى.فلمّا نازعوا في ثبوتِ هذه القدرة فقد كفروا باللّه.(الثاني) أنّهم كانوا ينازعونَ في صحّةِ التّكليف.وفي بعثةِ الأنبياء وكلُّ ذلكَ قدحٌ في الصفات المُعتبرة في الإلهيّة وهو كفرٌ باللّه.(الثالث) أنهم كانوا يضيفونَ إليهِ الأولاد.وذلكَ أيضاً قدحٌ في الإلهيَّة.وهو يوجبُ الكفرَ باللّه.فالحاصلُ أنّهم كفروا باللّه لأجلِ قولهم بهذه الأشياء وأثبتوا الأندادَ أيضاً للّه لأجلِ قولهم بإلهيَّةِ تلكَ الأصنام.واحتجَّ تعالى على فَسادِ قولهم بالتأثير.فقالَ كيفَ يجوزُ الكفرُ باللّه وكيفَ يجوزُ جعلُ هذه الأصنام الخسيسة أنداداً للّهِ تعالى معَ أنّهُ تعالى هو الّذي خلقَ الأرضَ في يومينِ وتّممَ بقيَّةَ مصالحها في يومينِ آخرين.وخلقَ السماوات بأسرها في يومينِ آخرين؟ فمن قدرَ على خلقِ هذه الأشياءَ العظيمةَ كيفَ يُعقلُ الكفرُ به وإنكارُ قُدرته على الحشر والنّشر.وكيفَ يُعقلُ إنكارُ قُدرته على التّكليف وعلى بعثةِ الأنبياء وكيفَ يُعقلُ جعلَ هذه الأصنام الخسيسة أنداداً له في المعبوديَّة والإلهيَّة؟فإن قيلَ:من استدلَّ بشيءٍ على إثباتِ شيءٍ فذلكَ الشيءُ

المُستدلُّ به يجبُ أن يكونَ مُسلّماً عندَ الخصم حتى يصحَّ الاستدلالُ به.وكونـهُ تعالى خالقاً للأرض في يومين أمرٌ لا يمكنُ إثباتُه بالعقلِ المحض.وإنّما يمكنُ إثباتُـه بالسمع ووحي الأنبياء.والكفّارُ كانوا مُنازعينَ في الوحي والنبوّة.فلا يُعقلُ تقرير هذه المقدِّمة عليهم.وإذا امتنع تقريرُ هذه المقدّمة عليهم امتنع الاستدلالُ بها على فساد مذاهبهم قُلنا: إثباتُ كونِ السماوات والأرض مخلوقـة بطريـقِ العمـل مُمكِن.فإذا ثبتَ ذلكَ أمكن الاستدلالُ به على وجودِ الإلـه القـادر القـاهر العظيم.وحينئذٍ يُقالُ للكافرين.فكيفَ يُعقلُ التّسوية بين الإله الموصوف بهـذه القدرة القاهرة وبينَ الصّنم الّذي هو جماد لا يضرُّ ولا ينفع في المعبوديَّة والإلهيَّة؟ بقيَ أن يُقال: فحينئذٍ لا يبقى في الاستدلال بكونهِ تعالى خالقـاً لـلأرض في يومين أثَر.فنقولُ هذا أيضاً لهُ أثرٌ في هذا الباب.وذلكَ لأنَّ أوّل التوراة مُشـتملٌ على هذا المعنى فكانَ ذلكَ في غايةِ الشُهرة بينَ أهلِ الكتاب. فكفّار مكّة كـانوا يعتقدونَ في أهلِ الكتاب أنّهم أصحابُ العلوم والحقائق.والظاهرُ أنّهم كانوا قـد سمعوا من أهلِ الكتاب هذه المعاني واعتقدوا في كونها حقّة.وإذا كـانَ الأمـرُ كذلكَ فحينئذٍ يحسُن أن يُقالَ لهم إنَّ الإله الموصوفَ بالقدرة على خلقِ هـذه الأشياء العظيمة في هذه المدّة الصغيرة كيفَ يليقُ بالعقل جعلُ الخشب المنجـور والحجر المنحوت شريكاً له في المعبوديَّة والإلهيَّة؟ فظهرَ بمـا قرّرنـا أنَّ هـذا الاستدلال قوي حسن.وأمّا قولهُ تعالى (**ذلكَ ربُّ العالمين**) أي ذلكَ الموجـودُ الّذي علمتَ من صفتهِ وقدرتـه أنّـهُ خلـقَ الأرضَ في يومـين هـو (**ربّ العالمين**)وخالقهم ومُبدعهم.فكيفَ أثبتّم لهُ أنداداً من الخشب والحجر؟ ثمّ إنّـهُ تعالى لمّا أخبر عن كونهِ خالقاً للأرضِ في يومين أخبر أنّهُ أتى بثلاثةِ أنواعٍ مـن الصنعِ العجيب والفعلِ البديع بعد ذلك قولهُ فالأوّل قولهُ (**وجعلَ فيها رواسـي من فوقها**)والمراد منها الجبال.وقد تقدّمَ تفسيرُ كونهـا (رواسـي)في سـورةِ النّحل.فإن قيل:ما الفائدة في قوله (**من فوقها**) ولِمَ لَمْ يقتصر على قوله (**وجعـل**

فيها رواسي) كقولهِ تعالى **(وجعلنا فيها رواسي شامخات)** **(وجعلنا في الأرضِ رواسي)**؟ قلنا لأنَّهُ تعالى لو جعلَ فيها رواسي من تحتها لأوهم ذلكَ أنَّ تلكَ الأساطين التحتانيَّة هي التي أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النّزول.ولكنَّهُ تعالى قال خلقتُ هذه الجبال الثقال فوق الأرض ليرى الإنسانُ بعينيه أنَّ الأرض والجبال أثقالٌ على أثقال.وكلّها مفتقرة إلى مُمسكٍ وحافظ. وما ذاكَ الحافظ المدبّر إلاّ اللّهَ سبحانهُ وتعالى. (والنّوع الثاني) ممّا أخبر اللّهُ تعالى في هذه الآية قوله **(وباركَ فيها)** والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر ممّا يحيطُ بهِ الشرحَ والبيان.وقد ذكرناها بالاستقصاء في سورةِ البقرة. قال ابن عبّاس(رض):يريدُ شقَّ الأنهار وخلقَ الجبال وخلقَ الأشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكلُّ ما يحتاجُ إليهِ من الخيرات.(والنوع الثالث) قولهُ تعالى **(وقدَّرَ فيها أقواتها)**وفيه أقوال (الأوّل) أنَّ المعنى وقدَّرَ فيها أقواتَ أهلها ومعايشهم وما يُصلحُهم.قال محمّد بن كعب:قدّرَ أقواتَ الأبدان قبلَ أن يخلقَ الأبدان(والقول الثاني)قال مجاهد:وقدّرَ فيها أقواتها من المطر.وعلى هذا القول فالأقواتُ للأرض لا للسكّان.والمعنى أنَّ اللّهَ تعالى قدّرَ لكلِّ أرضٍ حظّها من المطر.(والقول الثالث)أنَّ المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولّدة من تلكَ الأرض وحادثة فيها.لأنَّ النحويّين قالوا يكفي في حُسنِ الإضافة أدنى سبب.فالشيء قد يضافُ إلى فاعله تارةً وإلى محلّهِ أخرى.فقوله **(وقدّرَ فيها أقواتها)** أي قدّرَ الأقوات التي يختصُّ حدوثها بها.وذلك لأنَّهُ تعالى جعلَ كلَّ بلدة معدناً لِنوعٍ آخر من الأشياء المطلوبة.حتى أنَّ أهلَ هذه البلدة يحتاجونَ إلى الأشياء المتولّدة في تلكَ البلدة وبالعكس.فصارَ هذا المعنى سبباً لرغبة النّاس في التجارات من اكتساب الأموال.ورأيتَ من كان يقول صنعة الزراعة والحراثة أكثر من الحرف والصنائع بركة.لأنَّ اللّهَ تعالى وضعَ الأرزاقَ والأقوات في الأرض قال **(وقدّرَ فيها أقواتها)**وإذا كانت الأقوات موضوعة في الأرض كان

طلبها من الأرض مُتعيّناً.ولّما ذكرَ اللّهُ سبحانهُ هذه الأنواع الثلاثة من التّدبير قال بعده**(في أربعةِ أيّامٍ سواءً للسائلين)**.وههنا سؤالات السؤال الأوّل:أنّهُ تعالى ذكرَ أنّهُ خلقَ الأرضَ في يومين.وذكر أنّهُ أصلحَ هذه الأنواع الثلاثة في أربعة أيّامٍ أخر وذكر أنّه خلق السماوات في يومين فيكون المجموع ثمانية أيّام.لكنّـــه ذكـــر في سائر الآيات أنّهُ خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام فلزم التناقض.واعلـــم أنّ العلماء أجابوا عنه بأن قالوا المراد من قوله **(وقدّرَ فيها أقواهًا في أربعةِ أيّام)** مع اليومين الأوّلين.وهذا كقول القائل سرتُ من البصـــرة إلى بغـــداد في عشـــرة أيّام.وسرتُ إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً يريدُ كلا المسافتين.ويقول الرّجـــل للرّجُل :أعطيتُكَ ألفاً في شهر.وألوفاً في شهرين.فيدخل الألـــف في الألـــوف والشهر في الشهرين.(السؤال الثاني أنّهُ لّما ذكر أنّه خلق الأرض في يومين.فلـــو ذكر أنّهُ خلقَ هذه الأنواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشـــبهة وأبعد عن الغلط.فلِمَ تركَ هذا التّصريح وذكرَ ذلكَ الكلام المُجمل؟(والجـــواب) أنّ قولهُ **(في أربعةِ أيّامٍ سواءً للسائلين)**فيه فائدة على ما إذا قال:خلقتُ هـــذه الثلاثة في يومين.وذلكَ لأنّهُ لو قال:خلقتُ هذه الأشياء في يومين لم يُفد هـــذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الأعمال.لأنّهُ قد يُقال:عملتُ هـــذا العمل في يومين.مع أنّ اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل.أمّا لّما ذكر خلـــقَ الأرض وخلقَ هذه الأشياء ثمّ قالَ بعده **(في أربعةِ أيّامٍ سواءً للسائلين)** دلّ ذلكَ على أنّ هذه الأيّام الأربعة صارت مستغرقةً في تلك الأعمال من غيرِ زيـــادةٍ ولا نُقصان.(والسؤال الثالث كيفَ القراءات في قولهِ (ســـواء)؟ والجـــواب)قـــال صاحب الكشاف :قُرئَ (سواء) بالحركات الثلاثة:الجرّ على الوصف.والنّصـــب على المصدر استوت سواء.أي استواء والرّفع على:هي سواء.السؤال الرّابع مـــا المراد من كون تلك الأيّام الأربعة سواء ؟فنقول إنّ الأيّام قد تكـــونُ متســـاوية المقادير.كالأيّام الموجودة في أماكن خطّ الاستواء.وقد تكونُ مختلفـــة كالأيّـــام

الموجودة في سائر الأماكن.فبيّنَ تعالى أنَّ تلكَ الأيّام الأربعة كانت متساوية غير مختلفة.(السؤال الخامس)بم يتعلّق قولهُ (للسائلين)؟ الجواب فيه وجهان: (الأوّل) أنَّ الزجّاج قال:قولهُ (**في أربعة أيّام**)أي في تتمّةِ أربعةِ أيّام.إذا عرفتَ هذا فالتّقدير وقدّرَ فيها أقواهّا)في تتمّةِ أربعة أيّام لأجلِ السائلين.أي الطالبين للأقوات المحتاجين إليها.(والثاني)أنّهُ متعلّق بمحذوف.والتّقدير كأنّهُ قيلَ هذا الحصرُ والبيان لأجلِ مَن سأل :كم خلقت الأرض وما فيها.ولّما شرحَ اللّهُ تعالى كيفيَّة تخليقِ الأرض وما فيها أتبعهُ بكيفيَّةِ تخليقِ السماوات فقال (**ثمّ استوى إلى السماء وهي دُخان**) وفيه مباحث.).

وهكذا يكونُ الرّازي رحمهُ اللّه مُتأثّراً في تفسيره لأرقام أيّام الخلق بمعطيات سفر التّكوين من التوراة المعاصرة المحرّفة.وغيرُ مُطّلعٍ على موضوعِ وجود أصولٍ لتّفسيرِ آيات هذا القرآن المجيد.وأنَّ من هذه الأصولِ ولِتفسيرِ الأمورِ من هذه النّوع من الآيات ينبغي الرّجوعُ فيها إلى العلماءِ المختصّين الخبراء في علم تكوين طبقات هذه الأرض.

وخلاصةُ القول هو أنَّ اللّهَ تعالى قد تحدّى علماءَ الغربِ المعاصرينَ تحدّياً علميّاً قبلَ اليوم بأربعة عشر قرنٍ من الزّمان. ودارت الأيّام وثبتت مِصداقيَّةُ هذا التحدّي العلميِّ في أيّامنا هذه. حيثُ ثبتت لِعلماءِ الجيولوجيا صحّةُ ما كانَ هذا القرآنُ الكريمُ قد أنبأ عنهُ في جميعِ المجالات الكونية.وعليهِ فلا ينبغي أن نخشى التّقدُّمَ العلميَّ بأيِّ شكلٍ من الأشكال.فإنَّ كلَّ حقيقةٍ من الحقائقِ الّتي ستكشفُ عنها مُختلفُ العلوم ستخدِمُ مُعطيات هذا القرآن المجيدِ وتزيدُنا إيماناً على إيماننا به.ومن باب أنَّ هذه الكونَ من صُنعِ وإبداعِ خالقنا عزَّ وجلَّ وأنَّ هذا القرآنَ الكريمَ مُنزلٌ من عنده أيضاً فالصنعُ والقرآنُ هما وَجهانِ لِعُملةٍ واحدة كما سبقَ لي أن ذكرت.هذا وإنَّ من واجبِ المؤمن الّذي يتصدّى لِتفسيرِ آيات هذا القرآن العظيم ألاّ يُفسِّرَ أيَّةَ آيةٍ تَعرضُ لهُ وتتعلّقُ باختصاصٍ معيَّنٍ إلاَّ بعد

الرّجوعِ إلى مُعطياتِ العلمِ العائدة إليه هذه الآية الكريمة ومن بابِ أنّ اللّهَ تعالى قد سنَّ هذا الأصلَ التّفسيريَّ وذلك في الآية ٥٩ من سورةِ الفرقان ومن خلالِ قولهِ تعالى (**فاسأل بهِ خبيراً**).

القرآن أعطى كلَّ اختصاصَ حقَّه:

فمن خلالِ هذه الأمثلة القرآنيَّة الّتي قدّمتُها للقارئ تبيَّنَ لنا بأنَّ القرآنَ الكريمَ قد أعطى الاختصاصَ حقَّهُ وبنصٍّ صريحٍ اشتملَ عليهِ هذا الأصل الخامس من أصولِ تفسيرِ آيات القرآن الكريم وإنَّ المفسّرينَ القدماء رحمهم اللّه الّذين كانوا يجهلونَ هذا الأصلَ في التّفسيرِ.لاحظناهم كيفَ تخبّطوا في تفسيرِ الآياتِ الّتي تكلّمت عن خلقِ السماوات والأرض والجبال وطبقة الأوزون وغيرها من أشياءِ هذا الكون.أمّا حينَ راجعنا الحقائقَ الّتي كشفَ عنها العلمُ الحديثُ فقد تبيَّنت لنا دلالاتُ مضامينِ الآيات على حقيقتها وثبتَ لنا في الوقتِ نفسه أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ والحقائق العلميَّة وجهان لِعملةٍ واحدة.

ثمَّ إنَّ الاختصاصات متعدّدة.ولا تعملُ على صعيدِ الكونيّات فقط.بل هناكَ اختصاصُ على صعيدِ علمِ تشريحِ جسمِ الإنسان وعلى صعيدِ الطّبِّ وعلى صعيدِ الأحوال الجوّية وغيرها من هذه الاختصاصات الّتي ذكرناها.

واستناداً إلى هذا الأصلِ الخامس للتّفسير عادَ من واجبِ فقهاء الدّين أيضاً ألاّ يتعجّلوا في فتاواهم الشرعيَّة.بل إن تعلّقت الفتوى باختصاصٍ مُعيَّنٍ أن يستشيروا فيما يريدون الإفتاءَ بهِ المختصّين أوّلاً.كيلا يقعوا في أغلاطٍ سبقَ لغيرهم من الفقهاء القدماء أن وقعوا فيها.

مثال مسألة صوم الفتاة الحائض

ولنبحث مسألة صوم الحائض في رمضان الّتي أفتى الفقهاء القدماء بعدمِ جوازِ صيامِ مثلِ هذه الفتاة في شهرِ رمضانَ المباركَ إن كانت حائضاً. فهل يُعدُّ

الفقهاء مرجعاً وخبيراً في هذا الموضوعِ إذا لم يتوفّر نصٌّ قُــرآنيٌّ ينُــصُّ على ذلك كما هو الحالُ في مسألةِ صومِ الفتاة الحائض؟

فالّذي لاحظتُهُ من خلالِ استعراضي لكلامِ اللّهِ عزّ وجلّ وبمـــا يتعلّـــقُ بصومِ أيّامِ شهرِ رمضانَ المبارك هو أنّ اللّهَ تعالى أجازَ للمرضى وللمســــافرين الإفطار في شهرِ رمضان المبارك و لم تَشتمل تلكَ الآيات على ذكرِ الحــائض ولا على استثنائها من الصّومِ إن كانت حائضاً.فالآياتُ أجازَت للمريضِ وللمُسافرِ الإفطار فيهِ والصّوم بدلاً عن الأيّامِ الّتي أفطروا فيها عدّةَ أيّامٍ أُخر وذلكَ في الآية ١٨٤ من سورةَ البقرة (**أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَــفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَــيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**) فالملاحظ هو أنّهُ تعالى لم يتعرّض في هذه الآية الكريمة لِموضوعِ صّوم الفتاة الحائض.الأمرُ الدّالُّ علــى أنّ الفقهاءَ القدماء رحمهم اللّه تعجّلوا حينَ أفتوا بعدمِ جوازِ صومِ الفتاةِ الحائض في شهرِ رمضان أي فتواهُم تلكَ وردت غير مُستندةٍ إلى نصٍّ شرعيٍّ مُستمدٍّ مـــن آياتِ هذا القرآن المجيد.

وعليهِ فالسؤالُ الّذي يطرحُ نفسه هنا هو هل تُعتبرُ الفتاةُ الحائضُ مريضةً ويحقُّ لها الإفطار في في أيّامِ الحيضِ في رمضان ولِتصومَ أيّامَ بـــدل عنـــها أم أنّ القرآنَ الكريمَ سمحَ لها بالصّومِ في شهرِ رمضانَ معَ من يؤدّي هذه الفريضةَ ولـــو كانت حائضاً؟وبالإضافةِ إلى ذلكَ فمَن هو المختصُّ الخبيرُ الّذي يملكُ صلاحيّـــةَ اعتبارِها مريضةً أو غير مريضة ؟

وإجابةً على هذينِ السؤالينِ أقول:أمّا ما يتعلّقُ بنصِّ الآيةِ الكريمة الّـــتي نصّت على وضعِ الفتاة الحائض.فإنّ اللّهَ تعالى قالَ فيـــها بحـــقِّ تلـــكَ الفتـــاة

(**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى**..)وإنَّ هذا النّصّ القرآنيّ يقتضي من جانبنا أن نفهمَ أوّلاً معنى المحيض؟ومن ثمَّ أن نتساءلَ لِمَ سُمّيَ المحيضُ أذىً؟

فلمعرفةِ معنى كلمة(**المحيض**)نراجعُ معاجم اللّغة العربيَّة.فقد أوردوا قولهم إن قُلتَ حاضت المرأة وتريدُ أنّهُ سالَ دمٌ من رحمها فهي حائضةٌ وحائضٌ وتُجمع الكلمة على حُيَّض وحوائض وهذه بصيغةِ المصدر. وأمّا كلمةُ (**المحيض**)نفسها فهي اسمٌ ومصدرٌ وتعني مكانَ خروج الحيض (**محيط المحيط**)

وعليه فاستناداً إلى معنى كلمةِ(**المحيض**)والّذي هو مكانُ الحيض نُدركُ حكمةَ قولِ اللّهِ تعالى: (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ**)وعدم قولِهِ تعالى **يسئلونكَ عن الحيض**.فلو أنَّ اللّهَ تعالى كانَ قد استعملَ بدلاً عن كلمةِ(**المحيض**) كلمةَ(**الحيض**)في هذه الآيةِ الكريمةِ لكانَ فُهِمَ منها أنَّ الفتاةَ الحائضَ تكونُ في حالةِ مَرضٍ حينَ تكونُ حائضاً.ولا يجوزُ لها حينذاكَ وهي حائضٌ صوم الأيّام الّتي تكونُ فيها حائضاً خلالَ أيّامِ شهرِ رمضان المبارك.

لذا نتساءلُ ثانيةً:لماذا قالَ اللّهُ تعالى بشأن مكان الحيض(**قُلْ هُوَ أَذًى**)فمن أيّةِ جهةٍ يشكّلُ هذا المكانُ (**أذىً**) للإنسانِ الّذي يقرُبُ منهُ؟ الأمرُ الدّالُّ على وجودِ حذف بلاغيٌ يقيناً في هذا المقطعِ من الآية ويتعلّقُ بهذا الّذي يقتربُ منه. وهل يقتربُ من مكانِ(**المحيض**) إلاّ الزّوجُ الّذي يريدُ مُجامعةَ زوجته؟ وعليهِ فإنَّ في قولِ اللّهِ تعالى (**قل هو أذىً**) تحذيرٌ موجّهٌ لهذا الزّوج المشار إليهِ ألاّ يُلامسَ مكانَ الحيضِ بأيِّ شكلٍ من الأشكال بسبَبِ أنَّ المكانَ المذكورَ يكونُ مؤذياً أيّامَ تكونُ الزّوجةُ فيهِ حائضاً.

فإن صحَّ ما ذكرناهُ حتّى الآن.نُدركُ أيضاً السببَ وحكمةَ لماذا أتى جلَّ شأنهُ بعد ذلكَ بفاءِ الاستئنافِ وأضافَ يقول: (**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**).فاعتزالُ الزّوج زوجتهُ في أيّامِ المحيضِ يعني بألفاظ أخرى امتناعهُ عن مُجامعتها في أيّامِ المحيض.وعليهِ فإنَّ اللّهَ تعالى يأمرُ هذا الزّوجَ بالامتناعِ عن

مُجامعةِ زوجتهِ في أيّامَ المحيضِ والسببُ في ذلكَ أنَّ مكانَ عمليَّةِ الجماعِ يكــونُ في تلكَ الأيّامِ (**مؤذياً**) ولذلكَ نُلاحظُ أنَّ اللَّهَ تعالى أتى بفاءِ الاستئناف مـن جديدٍ وللمرَّةَ الثانية وأضافَ يقول (**فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْـثُ أَمَرَكُـمُ اللَّهُ**)والمعنى هو أنَّهُ يحقُّ للزّوجِ بعدَ ذلكَ مُلامسةَ زوجتهِ إنَّما لا ينبغي أن يتـمَّ ذلكَ قبلَ انقضاءِ مّدَّة الحيض .

فهذه هي دلالةُ قول اللَّهِ تعالى في الآيـة ٢٢٢ مـن سـورة البقـرة (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيـضِ وَلَـا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**).فهذه الآية الكريمة وكما فهمتُهُ منها قد نبَّـهتنا إلى حقيقةٍ علميَّةٍ عظيمةٍ وعلى صورةٍ لا تقبلُ المراجعةَ ولا الجدال.وهـي حقيقـةُ وجود أذىً في (**المحيض**)أي في مكان خروجِ دمِ الفتاة الحائض.وعليـهِ يظـلُّ السؤالُ قائماً:وهو هل يمنعُ ذلكَ المرأَةَ الحائضَ من أنَ تصوم ؟

ولنَعُد الآن إلى رأيِ المختصّينَ الأطبّاءِ لِمعرفةِ طبيعة (**الأذى**) المُشارُ إليـهِ في هذه الآيةِ الكريمة الّتي أوردناها من سورةِ البقرة.فالّذي يُستفادُ مـن كتـبِ الطّبِّ هو (أنَّ لونَ دمِ الحيض يكونُ أسوداً.. فلا يتجلَّط ولا يتجمَّد..ويمكـن إبقاؤهُ سنينَ طويلة على تلك الحالة لا يتجلَّط).

ونسأل: كيفَ يتشكَّل دمُ الحيضِ ؟ وما هو الأذى الّذي يوجدُ فيه ؟

أمّا كيفَ يتشكَّلُ دمُ الحيض فقد تبيَّنَ من خلالِ فحصِ دم الحيض تحـتَ المجهر تبيَّنَ(وجودُ كرات الدّم الحمراء والبيضاء إلى جانبِ وجود قِطـعِ مـن الغشاءِ المبطِّنِ للرّحم)نسأل:فمن أينَ أتت هذه القِطعُ المُشارُ إليها؟ قالوا:تبيَّـنَ وُجودَ حُويصلَة يُسمّونَها(**حُويصلة جراف**)وتُفرز هذه الحويصلة هرموناً سمّـوهُ (**هرمون البروجسترون**) أي هرمون الحمل.لأنَّهُ يُهيِّءُ الرّحمَ كما يُعدُّ الجسـمَ بأكمله لِتقبُّلِ (**النّطفة الأمشاج**)الّتي تقذفها عمليَّةُ الجماع.فتنمو نتيجـةَ هـذا

الهرمون أثداءُ المرأة وعلى الخصوص الغُدد اللّبنيَّة فيها استعداداً لِتغذيةِ الجنينِ عندَ خروجهِ من الرّحم.وتخفّ كثافةُ ولزوجةُ إفرازِ عنُق الرّحـــم حتّـى يسمح للحيوانات المنويَّة بالولوج سريعاً إلى الرّحم.وتختزن كمّيةً من الأملاح والمـاء في الجسم تحسُّباً لِمُتطلّبات الجنين. هذا وتتبدَّلُ حركة الرّحم الفرحةُ الجذلةُ بحركـةٍ هادئةٍ وقورةٍ وعميقةٍ تُناسبُ وُجود البويضة المُلَقّحـة الّـتي علِقـت بجـدار الرّحم.وعلى هذه الصّورة يجري في جسمِ المرأةِ تبدّلاً عضويّاً بارزَ المعالم نتيجـةً لإفرازِ الحويصلةِ المذكورةُ الهرمونَ المُشار إليه.فإن لم يحدُث الحمل بعد عمليَّـةِ التّلقيح يبكي الرّحمُ على هذا التّقدير الّذي قدَّرهُ اللَّهُ تعالى عليهِ ويـترِفُ دمـاً يُسمّونهُ (**دم الطّمس**) . فكيفَ تحدُثُ هذه العمليَّة؟

فالّذي يحدُثُ في حالِ فشلِ البويضة في عمليَّةِ التّلقيحِ الّتي حاولت القيامَ بها أنَّ (**هرمون البروجسترون**) يبدأ بالتراجع ويقلُّ إفرازه.وينتُجُ عن ذلـكَ أنَّ الأوعيةَ الدّمويَّةَ المغذّية لِغشاءِ الرّحم تنقبضُ انقباضاً شديداً وتمتنعُ عن إيصـالِ الغذاءِ إلى غشاءِ رحمِ المرأة بالمرَّة.ويذوي غشاءُ الرّحمِ نتيجةً لذلكَ ويتفتَّتُ هـو والأوعية الدّمويَّة الّتي وراءهُ والّتي انقطعت عن نقلِ الغذاء إلى الرّحم.ويتسـبَّبُ ذلكَ في خروجِ الدّم المُحتقن أسودَ اللّون أكمداً ومشتملاً على قِطـعِ الغشـاء الّذي كانَ قد انقبضَ وتفتَّت. وقبلَ أن يُغادر هذا الدّمُ الخليطُ المتجلّط رحِـمَ الفتاة فإنَّ خميرةَ (مُذيب اللّيفين) تُذيبُهُ ولذلكَ فبعدَ أن يُغادرَ دمُ الحيضِ الّرحـمَ لا يعودُ يتجلّط ولو بقي سنيناً طوالاً.).فهذا ما وردَ في كتبِ الطّبّ.

والآنَ وبعدَ جميعِ الّذي ذكرناهُ نعودُ لنبحثَ كيف يُشَكّلُ حيضُ الفتـاةِ الحائض (**أذىً**) وعلى حسبِ ما أوردَهُ اللَّهُ تعالى في الآيةِ ٢٢٢ مــن سـورةِ البقرة؟

فللإجابةِ على ذلكَ أنقلُ للقارئ الكريم ما كتبهُ الدّكتور محمّد علي البار في مؤلّفهِ (**خلقُ الإنسان بين الطّبّ والقرآن**).علماً بأنّهُ يـوردُ مـن جانبـهِ

مُقتطفات من كتاب طِبّي لطبيب أجنبيّ.فهو كتبَ تحتَ عنوان (**أذى المحيض**) يقول: (يُقذفُ الغشاءُ المبطّن للرّحم بأكملهِ أثناءَ الحيض..وبفحص دم الحيض تحت المجهر نجد بالإضافة إلى كرات الدّم الحمراء والبيضاء قِطعاً من الغشاء المُبطّن للرّحم.. ويكونُ الرّحمُ مُتقرّحاً نتيجةً لذلك..تماماً كما يكونُ الجلدُ مسلوخاً..فهو مُعرّضٌ بسهولةٍ لِعُدوان البكتيريا الكاسح..ومن المعلومِ طبّياً هو أنَّ الدّمَ يُعتبرُ خيرُ بيئةٍ لِتكاثُر الميكروبات ونُموّها..وتقلُّ مقاومةُ الرّحم للميكروبات الغازيّة نتيجةً لذلك.ويُصبحُ دخولُ الميكروبات الموجودة على سطحِ القضيبِ يُشكّلُ خطراً داهماً على الرّحم..وممّا يزيدُ الطّينَ بلّة أنَّ مُقاومة المهبل لِغزو البكتيريا تكونُ في أدنى مستواها أثناءَ الحيض.إذ يقلُّ إفرازُ المهبل الحامضَ الّذي يقتُلُ الميكروبات..ويصبحُ الإفراز أقلّ حموضة إن لم يكن قلويّ التّفاعُل..كما تقلُّ المواد المطهّرة الموجودة بالمهبل أثناءَ الحيض إلى أدنى مستوى لها.. ليسَ ذلكَ فحسب ولكنَّ جدار المهبل المكوّن من عدَّة طبقات من الخلايا يرقُّ أثناءَ الحيض..ويُصبحُ جدارُه رقيقاً ومكوّناً من طبقةٍ رقيقةٍ من الخلايا بدلاً من الطّبقات العديدة الّتي نراها في أوقاتِ الطّهر. وخاصّةً في وسطِ الدّورة الشهريَّة حيثُ يستعدُّ الجسم بأكملِهِ للقاءِ الزّوج..لهذا فإنَّ إدخالَ القضيب إلى الفرج والمهبلُ في أثناء الحيض ليس إلاّ إدخال للميكروبات لفي وقتٍ لا تستطيعُ فيهِ أجهزةُ الدّفاع أن تُقاوِم..كما أنَّ وُجودَ الدّم في المهبل والرّحم لِمّا يُساعِد في نموّ تلكَ المكروبات وتكاثُرها. ومن المعلوم أنّهُ توجدُ على جلد القضيب ميكروبات عديدة..ولكنَّ المواد المطهّرة وإفراز المهبل الحامض تقتُلُها أثناءَ الطّهر..أمّا أثناء الحيض تكونُ أجهزةُ الدّفاع مشلولة والبيئة صالحة لِتكاثُر الميكروبات ومتوفّرة.).

(ولا يقتصرُ الأذى على نموّ الميكروبات في الرّحم والمهبل ممّا يُسبّبُ التهاب الرّحم والمهبل الّذي كثيراً ما يُزمِنُ ويصعبُ بعدَ ذلكَ علاجُه..ولكن يتعدّاهُ إلى أشياءَ أُخرى نوردها للقارئ فيما يلي من بنود:

أوّلاً-تمتدُّ الالتهابات إلى قَناتَي الرّحم فتسدُّها أو تؤثّرُ على شعيراتها الدّاخليّة الّتي لها دورٌ كبيرٌ في دفعِ البُوَيضة من المبيض إلى الرّحم..وذلكَ يؤدّي إلى العقم أو إلى الحمل خارج الرّحم..وهو أخطرُ أنواع الحمل على الإطلاق..ويكونُ الحملُ عندئذٍ في قناةِ الرّحم الضّيّقة ذاتها..وسُرعانَ ما ينمو الجنينُ وينهشُ في جدارِ القناة الرّقيق حتّى تنفجر القناة الرّحميّة فتتفجّرُ الدّماء أنهاراً إلى أقتابِ البطن..وإن لم يتدارك الأطبّاءُ تلكَ الأمّ في الحال بإجراءِ عمليّةٍ جراحيّةٍ سريعةٍ لاستئصالهِ فإنّها لا شكَّ تُلاقي حَتفها

ثانياً-يمتدُّ الالتهاب إلى قناة مجرى البَول فالمَثانة فالحالبَين فالكُلى..علماً بأنّ أمراضَ الجهاز البوليّ خطيرةٌ ومُزمنة..

ثالثاً-يُصاحبُ الحيض آلام تختلف في شدّتها من امرأةٍ إلى أُخرى..فأكثرُ النّساء يُصَبنَ بآلامٍ وأوجاعٍ في أسفلِ الظّهر وأسفلِ البطن..وبعضُ النّساء تكونُ آلامهنَّ فوقَ الاحتمال ممّا يستدعي استعمالَ الأدوية والمسكّنات.ومنهُنَّ مَن يحتَجنَ إلى زيارةِ الطّبيب من أجلِ ذلك..

رابعاً-تُصابُ كثيرٌ من النّساء بحالةٍ من الكآبة والضيق أثناء الحيض وخاصّةً عندَ بدايته.وتكونُ المرأة عادةً مُتقلِّبة المِزاج سريعة الاهتياج قليلة الاحتمال..كما أنّ حالتها العقليّة والفكريّة تكونُ في أدنى مُستوى لها أثناء الحيض.ولهذا نهى الرّسولُ (ص) عن تطليقِ المرأة أثناءَ الحيض.

خامساً-تُصابُ بعضُ النّساء بالصّداع النّصفيّ (الشّقيقة)قُربَ بدايةِ الحيض..وتكونُ الآلام مبرّحةً وتصحبُها زغللةٌ أي زيغانٌ في الرّؤيةِ وقَيء.

سادساً-تقلُّ رغبة المرأة الجنسيَّة وخاصّةً عندَ بدايةِ الطّمث بل إنَّ كثيراً من النّساء يكُنَّ عازفات تماماً عن الاتّصال الجنسيِّ أثناءَ الحيض ويملنَ إلى العُزلةِ والسكّينة.وهو أمرٌ فسيولوجيٌّ وطبيعيّ..إذ أنَّ فترةَ الحيضِ هي فترةُ نزيفٍ دمويٍّ من قعرِ الرّحم (الغشاء المُبطّن للرّحم من الدّاخل). وتكونُ الأجهزة التّناسُليَّة بأكملها في حالةٍ شبه مرضيّةٍ.فالجماعُ في هذه الآونة ليسَ طبيعيّاً ولا يؤدّي أيَّ وظيفة بل على العكس يؤدّي إلى كثيرٍ من الأذى.

سابعاً-رغمَ أنَّ الحيض هو عمليَّةٌ فسيولوجيَّة (عضويَّةٌ طبيعيَّةٌ) بحتةٌ فإنَّ استمرارَ فقدان الدّم كلّ شهرٍ يُسبِّب نوعاً من فقرِ الدّم لدى المرأة..وخاصَّةً إذا كانَ الحيضُ شديداً غزيراً في كمّيته..

ثامناً-تنخفِضُ درجةُ حرارةِ المرأة أثناء الحيض بدرجةٍ مئويَّةٍ كاملة..وذلكَ لأنَّ العمليّات الحيويَّة الّتي لا تتوقّفُ في الكائنِ الحيِّ تكونُ في أدنى مستوى لها أثناءَ الحيض..وتُسمّى هذه العمليّات بالأيض أو الاستقلاب..ونتيجةً لذلكَ يقلُّ إنتاج الطّاقة من الجسم كما تقلُّ عمليّات التّمثيل الغذائيّ..

تاسعاً-تزدادُ شراسةُ الميكروبات في دمِ الحيض وخاصّةً ميكروب السّيلان..

عاشراً-تُصابُ الغُدَدُ الصّماء بالتغيُّر أثناء الحيض فتقلُّ إفرازاتُها الحيويَّة الهامّة للجسم إلى أدنى مستوى لها أثناء الحيض.

إحدى عشر-نتيجةً للعوامل السابقة تنخفضُ درجةُ حرارة الجسم ويُبطِئ النّبض وينخفض ضغطُ الدّم فيسبِّب الشعور بالدّوخة والفتور والكسل..

اثنا عشر-الوطءُ في الحيض لا يمكنُ مطلقاً أن ينتُجَ عنهُ حملٌ..ذلكَ لأنَّ خروجَ البُويضة (التّبويض) لا يُمكن أن يتمَّ أثناء الحيض..بل يكونُ خروجُ البويضة قبلَ الحيض بأسبوعين كاملين تقريباً (بفارق يوم أو يومان فقط)..ففترةُ التّلقيح والإخصاب بعيدة كلّ البعد عن الحيض..ولذلك فلا يُمكِن أن يؤدّي الجماعُ في الحيضِ إلى الوظيفة المطلوبة منه..ولا يمكن انتظار الولَد من وُطء الحيض مُطلقاً.

ثلاث عشر-لا يقتصِرُ الأذى على الحائض في وطئها وإنّما ينتقلُ الأذى إلى الرّجُل الّذي وطأها أيضاً.
فإدخالُ القضيب إلى المِهبَل المليء بالدّماء يؤدّي إلى تكاثُر الميكروبات والتهاب قناة مجرى البول لدى الرّجُل..وتنمو الميكروبات السبحيَّة والعنقوديَّة على وجهِ الخُصوص في مِثلِ هذه البيئة الدّمويَّة.
أربعة عشر-وقد ظهرَ بحثٌ حديثٌ قدّمه البروفسور عبد اللّه باسلامة إلى المؤتمر الطّبي السعودي السادس جاءَ فيهِ أنَّ الجماع أثناء الحيض قد يكونُ أحد أسباب سَرطانِ عُنُقِ الرّحم ويحتاجُ الأمرُ إلى مزيدٍ من الدّراسةِ للتّأكّد من ذلك..وتنتقِل الميكروبات من قناةِ مجرى البول إلى البروستاتا والمثانة.. وإنَّ التهاب البروستاتا سُرعانَ ما يُزمِنُ لكثرةِ قنواتها الضّيّقة المُلتفَّة.والّتي نادراً ما يصِلُها الدّواء بكمّية كافية لِقتلِ الميكروبات المُختفية في تلافيفها..فإذا أصبحَ التهاب البروستاتا مُزمناً فإنَّ الميكروبات سرعانَ ما تغزو بقيَّةَ الجهاز البولي التناسليّ فتنتقِلُ إلى الحالِبَين ومنهُ إلى الكُلى..وما أدراكَ ما التهابُ الكُلى المزمن.إنَّهُ العذابُ المستمرُّ حتّى يحين الأجل.. ولا عِلاج.وقد ينتقلُ الميكروب من البروستاتا إلى الحويصلات المنويَّة فالحبل المنويّ فالبربخ فالخصيتين..وقد يُسبِّبُ ذلكَ عُقماً نتيجةَ انسداد قناة المني أو التهاب الخصيتين..كما أنَّ الآلام المبرّحة التي يُعانيها المريضُ تفوقُ ما قد ينتُجُ عن ذلك الالتهابِ من عُقم..).
والّذي تبيَّنَ من خلالِ ما اقتبسناهُ من كتابِ الطبيب المُشارُ إليهِ هو أنَّ (**المحيضَ**) والحالُ هذه يُشكّلُ أذىً للمرأةِ والرّجُلِ معاً.ومن بابِ أنَّ وطء المرأة يزيدُ في أذاها ويجعلهُ يستشري وينتقِلُ إلى الرّجُلِ أيضاً.فهذا هو ما يقولهُ الطّبُّ والّذي يتّفِقُ معَ مُعطَياتِ الآية ٢٢٢ من سورةِ البقرة.وليس هذا وحسب بل ويتّفقُ معُ مُعطياتِ أقوالِ رسولِ اللّهِ (ص) الواردة بهذا الخصوص والّتي أوردها كُتُبُ الحديثِ الشريف.

فهذه المعلومات الطّبية حديثةُ الظّهور.وبما أنّنا نعتقدُ بأنَّ القرآن المجيد يصلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ.لذلك فإنَّ من واجبِ الفقهاء وعلماء الدِّين الإسلاميّ أن يُعيدوا نظرهُم في كلِّ موروثٍ وبما يتناسبُ معَ العصر الحديث ومُعطَياتِهِ وعلى الدّوام.وليصحّحوا بذلكَ ما توارثوهُ من مفاهيمٍ تتناقضُ ومُعطياتِ الحقائقِ العلميَّة ومن بابِ أنَّ العلمَ والدّينَ وجهانِ لِعملةٍ واحدةٍ كما سبقَ لي أن ذكرتُ وأثبتّ.

فالفقهاءُ القدماء رحمهم اللّه استندوا كما يبدو من فتواهم إلى أنَّ كلمةَ (**الأذى**) الواردة في نصِّ الآيةِ الكريمةِ قرينةَ المرض.فأفتوا بناءً على ذلكَ بعدمِ جواز صومِ الفتاة الحائض.على حين أنَّ الأذى لا يدخلُ في مفهومِ المرَض.فالإنسانُ المريضُ في نظرِ الأطبّاء هو من أُصيبَ بداءٍ معيَّنٍ خطرٍ أو قليلُ الخطورة. ويؤدّي إلى خللٍ في أجهزةِ الجسم الدّاخليَّة ويتسبَّبُ بفسادِ مزاجِ المريضِ وإظلامِ طبيعته (محيط المحيط) أمّا مفهومُ (**الأذى**)فيعني أنَّ مكروهاً خارجيّاً قد أصابَ هذا الّذي حلَّ به الأذى فالأذى هو ما يؤذيكَ ويتضمَّنُ في الوقتِ نفسهِ تعدّياً وحيفاً وخسارةً تحلُّ بك من خارجك وكما هو ظاهرٌ من مُجامعةِ الأنثى وهي حائض (محيط المحيط ومقاييسُ اللُّغة).

هذا وإنّي قمتُ بمراجعةِ جميعِ الآيات الوارد فيها كلمةُ (**أذى**) فتبيَّنَ لي أنَّ جميعَ تلكَ الآيات الكريمة قد استُعملَت فيها كلمةُ (**أذى**) بنفسِ ما ذكرتهُ آنفاً من المعاني الّتي أفادتنا بها معاجم اللُّغة.أي أنَّ الأذى لا يدخلُ في مفهومِ المرض.وأنقلُ للقارئ تلكَ الدّراسة المشارُ إليها.

الأذى غيرُ المرض

فاستناداً إلى أنَّ مفهومَ المرض هو اختلالٌ عُضويٌّ داخليٌّ داخلَ جسم الإنسان.على حين أنَّ مفهومَ الأذى هو حيفٌ وخسارةٌ وضررٌ ومكروهٌ لحق بالإنسانِ من خارجِ جسده.فسأوضِّحُ بأنَّ هذه الآياتِ القرآنيَّة الّتي سأوردُها قد استعملت كلمتي **(مرض وأذى)** بدلالاتها اللُّغويَّة.

فمن الآيات ما جمعت كلمَتي **(مرض وأذى)** في آيةٍ واحدة.حيثُ قال اللَّهُ تعالى في الآية ١٠٢ من سورةِ النّساء في سياق توجيهِ المحاربينَ إلى ما ينبغي أن يحتاطوا لهُ في ساحات الوغى،قال (..**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا**.) فاللَّهُ جلَّ شأنهُ قد فرَّقَ في هذه الآيةِ الكريمةِ ما بينَ المرضِ وما بينَ الأذى.وبذلكَ فالمرضُ هو غيرُ الأذى.

وفي الآية ٤٣ من سورةِ النّساء نفسها نلاحظُ اجتماع كلمتا **(مرض وسُكر)** حين قال اللَّهُ تعالى وهو يُخاطبُ المؤمنينَ فيها (**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا**.).

وفي الآية ١٩٦ من سورةِ البقرة افتدى اللَّهُ تعالى الحجَّ بالصيام وجمعَ بذلكَ ما بينَ الأذى والصيام فقال (**وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**.).ويتبيَّنُ من هذا النّصِّ القُرآنيِّ أنَّ الأذى غيرُ المرض وأنَّ الأذى لا يمنعُ من أداءِ فريضةِ الصّوم وإلاّ لكانَ اللَّهُ تعالى قد اشترطَ في هذه الآيةِ الكريمةِ تأجيلَ صّوم الكفّارة إلى ما بعد الشفاءِ من الأذى الكائن في الرّأس.

وأوردُ الآنَ للقارئ الآيات الواردُ فيها كلمةُ (**أذى**) ولأُثبتَ من خلالِها بأنَّ اللَّهَ تعالى قد استعمل فيها كلمة (**أذى**) بمعناها اللُّغويِّ وغيرُ المرض.

ففي سورةِ البقرة وردت كلمةُ (**أذى**) في ثلاثةِ آيات من آياتها.فلقد قالَ اللّهُ تعالى في الآية ٢٦٢ (**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.**).فاللّهُ جلَّ شأنهُ قد نهى في هذه الآيةِ الكريمةِ المؤمنَ ألاّ يُتبعَ ما أنفقهُ في سبيلِ اللّهِ مناً بمعنى ألاّ يمنّ على المُستحقّ الّذي أوصلَ إليهِ إحسانهُ وألاّ يؤذيهِ بتوجيهِ إهانةٍ أو الاستخفاف بهِ في حالِ صدورِ أيّ ذنب من قبلهِ تجاهه.ومن ثمَّ راحَ تعالى ينصحُ هذا المؤمنَ بعدَ ذلكَ ويقول له (**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ.**).فالأذى المقصودُ إذن هو هذا الضّرر الخارجيّ الحادثُ عن الّذي يُتبعُ إنفاقهُ منّاً وأذىً ويُخالفُ وَعظَ ربِّهِ ونُصحه في مجالِ الإنفاق في سبيلِ اللّهِ تعالى.وهذا المفهومُ لا يدخلُ في مفهومِ المرضِ لُغويّاً.

وقد أتى اللّهُ جلَّ شأنُهُ بعدَ ذلكَ بآيةٍ ثالثةٍ قال فيها(**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.**) فلم يقُل جلَّ شأنهُ في هذه الآيةِ الكريمةِ ألاّ تُبطِلوا صدقاتكُم بالمنِّ والتّسبُّب بالمرضِ بل قالَ بالأذى. الأمرُ الّذي يُوضِّحُ الفرقَ في المعنى الّذي أوردهُ اللُّغويّون.

ونجدُ الآيةَ ١١١ من سورةِ آلِ عِمرانَ الّتي راحَ تعالى يذُمُّ فيها أهلَ الكتاب ويقولُ فيها بحقّهم (**..وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ. لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ.**) فالملاحظ هو أنَّ اللّهَ تعالى قد فرّقَ في هذه الآيةِ الكريمةِ ما بينَ الأذى بالقتال وما بينَ الأذى باللّسان.والنّوعانِ ينطبقُ عليهما معنى

الضرر الخارجيّ الّذي أورده مَن ذكرناهم من اللُّغويّين.ويثبتُ من ذلكَ أيضاً بأنَّ الأذى هو غيرُ المرض.

وبنفسِ المعنى وردت كلمةُ الأذى في الآية ١٨٦ من نفس سورة آل عمران حيثُ قالَ تعالى: (**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.**) وقد استُعمِلَت كلمةُ أذى في هذه الآيةِ الكريمةِ بنفسِ المعنى الّذي وردَ في الّتي سبقتها.

كذلكَ قالَ اللّهُ تعالى في الآية ١٩٥ أيضاً (**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ.**)وقد استُعملت كلمةُ أذىً في هذه الآيةِ الكريمةِ أيضاً بنفسِ المعاني الّتي وردت في سابقاتها.

كذلكَ استُعمِلت كلمةُ أذى بمعنى الإهانةِ الخارجيَّةِ باللّسان وذلكَ في الآية ١٦ من سورةِ النّساء والّتي تكلّمت عن المرأة الّتي تأتي بفاحشةٍ بيّنةٍ.حيثُ قالَ اللّهُ تعالى هناكَ (**وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا.**) فالإيذاءُ المذكورُ في هذه الآيةِ الكريمةِ هو إيذاءٌ باللّسان فقط.

وفي الآيةِ ٣٤ من سورةِ الأنعامِ قالَ اللّهُ تعالى (**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ.**)ومعلومٌ من القرآن الكريم نفسهِ بأنَّ الّذينَ كذّبوا رُسُلَ اللّهِ تعالى حينَ كان يُرسلهُمُ اللّهُ تعالى إلى أقوامهم كانوا

يضطهدونهم ويُسيئونَ إليهم بألسنتهم وهو الأذى المقصــودُ في هــذه الآيــةِ الكريمة.ولا يُقصدُ بهِ المرض.

وفي الآية ١٢٩ من سورةِ الأعراف قالَ اللّهُ تعالى موضّحاً ما كــانت تتسبَّبُ بهِ أقوالُ قومِ موسى لهُ من أذى قال (**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّــهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. قَــالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُــمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.**)ومن المعلومِ تاريخيّاً بــأنَّ قــومَ موسى أوذوا في شبهِ جزيرةِ سيناء بِشظَفِ العيشِ.وهذا المفــهومُ لا يدخُــلُ في مفهومِ المَرض.

ثمَّ إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ قد أخبرنا في الآية ٦٠ من سورةِ التّوبةِ عن تصرُّفات المُنافقينَ في صدرِ الإسلام فقال (**ومنهُمُ الّذينَ يؤذونَ النّبيَّ ويقولونَ هــو أُذُنٌ قل أُذُنُ خيرٍ لكُم يؤمنُ باللّهِ ويؤمنُ للمؤمنينَ ورحمةٌ للّذيــنَ آمنــوا منكُــم والّذينَ يؤذونَ رسولَ اللّهِ لهُم عذابٌ أليم.**) فهل كانَ رســولُ اللّــهِ (ص) يمرضُ من جرّاءِ إيذاءِ المنافقينَ إيّاه؟ أم أنَّ الأذى المقصودُ هنا في هــذه الآيــةِ الكريمة معناهُ أنَّ المنافقينَ كانوا يعصونَ أوامرَ رسولهم ويعملونَ في الخفاءِ مــع أعدائه؟

وفي الآية ١٢ من سورةِ إبراهيمَ فقد علّمنا اللّهُ تعال أن نقول (**وما لَنــا ألاّ نتوكّلَ على اللّهِ وقد هدانا سُبُلَنا ولَنصبِرنَّ على ما آذيتُمونا وعلى اللّــهِ فليتوكّلِ المُتوكّلون.**).وقد قُصِدَ بالإيذاءِ في هذه الآيةِ الكريمةِ ما كانَ يتحمَّلــهُ المؤمنونَ من إهاناتٍ وتكفيرٍ من جانبِ الكافرينَ ولا يدخلُ هــذا المفــهومِ في مفهومِ المرض.

وقالَ اللّهُ جلَّ شأنهُ في الآيةِ العاشرةِ من سورةِ العنكبوت (**ومن النّــاسِ مَن يقولُ آمنّا باللّهِ فإذا أوذيَ في اللّهِ جعلَ فِتنةَ النّاسِ كعذابِ اللّهِ ولئِــن**

جاءَ نصرٌ من ربِّكَ لَيقولُنَّ إنّا كُنّا معكُم أ ولَيسَ اللَّهُ بأعلمَ بمـــا في صُـــدورِ العالَمين.)والملاحظُ هو أنَّ الأذى استُعمِلَ في هذا الآيةِ الكريمةِ لِفتنةِ الكُفّارِ الّـتي يتسبَّبونَ بها للمؤمنين. وليسَ بمعنى المرض.

وبنفسِ المعنى وردَت كلمةُ أذى في الآية ٤٧ من سورةِ الأحزاب حيـثُ قالَ اللَّهُ تعالى هناكَ (**ولا تُطعِ الكافرينَ والُمنافقينَ ودَع أذاهُم وتوكَّل علـــى اللَّهِ وكفى باللَّهِ وكيلاً.**) فقولُ اللَّهِ تعالى وهو(ودع أذاهم) معناهُ ألاّ ترُدَّ علـى أذاهمُ اللِّسانيِّ بإيذاء من مِثلِه.وهو معنى لا يمتُّ للمرضِ بصلة.

ولقد قالَ اللَّهُ تعالى في الآية ٥٣ من سورةِ الأحزاب وهو يعظُ المؤمنـين (**يا أيُّها الّذينَ آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النّبيِّ إلاّ أنَ يؤذنَ لكُم إلى طعامٍ غـــيرَ ناظرينَ إناهُ ولكن إذا دُعيتُم فادخلوا فإذا طَعِمتُم فانتشروا ولا مُستأنسـين لحديثٍ إنَّ ذلكُم كانَ يؤذي النّبيَّ فيستحي منكُم واللَّهُ لا يستحي من الحـقِّ وإذا سألتموهنَّ مَتاعاً فاسألوهُنَّ من وراءِ حجاب ذلكُـم أطـهرُ لِقلوبكُـم وقلوبِهِنَّ وما كانَ لكُم أن تؤذوا رسولَ اللَّهِ ولا أن تنكِحوا أزواجهُ من بعـدِهِ أبداً إنَّ ذلكُم كانَ عندَ اللَّهِ عظيماً.**) فالملاحظُ هو أنَّ كلمةَ أذىً استُعمِلَت في هذه الآيةِ مرَّتينِ ليسَ بمعنى المرض ولكن بمعنى الإضرار والُمضايقة وتضييع أوقات رسول اللَّهِ (ص).

وفي الآيتينِ ٥٨/٥٧ من نفسِ سورةِ الأحزاب قالَ اللَّهُ تعالى (**إنَّ الّذيـنَ يُؤذونَ اللّهَ ورسولَهُ لَعنَهُم اللَّهُ في الدّنيـــا والآخـــرة وأعـــدَّ لهُـــم عذابـــاً مُهيناً.والّذينَ يؤذونَ المؤمنينَ والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بُـــهتاناً وإثماً مُبيناً.**) وهذا الإيذاءُ خارجيٌّ ويُغايرُ مفهومَ المرض.

وفي الآية ٥٩ من سورةِ الأحزاب خاطبَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ رسولهُ الكـريمُ وقال (**يا أيُّها النّبيُّ قُل لأزواجكَ وبناتكَ ونساءَ المؤمنينَ يُدنينَ عليـــهنَّ مـــن جلابيبِهِنَّ ذلكَ أدنى أن يُعرَفنَ فلا يؤذَينَ وكانَ اللَّهُ غفوراً رحيماً.**) والملاحظُ

هو أنَّ كلمةَ أذىً استُعمِلَت في هذه الآيةِ الكريمةِ أيضاً بمعنى الضّرر الخــــارجيِّ الّذي يتنافى ومفهومَ كلمة مرَض.فالمرأةُ غيرُ المحجَّبةُ الجميلةُ تُثــــيرُ في الشــاب شهوته.

وقد وعظَ اللَّهُ تعالى المؤمنينَ في نفسِ هذه السورةِ وفي الآية ٦٩ بالذات وقال (**يا أيُّها الّذينَ آمنوا لا تكونوا كالّذينَ آذوا موسى فبرّأهُ اللَّهُ مّما قــــالوا وكانَ عندَ اللَّهِ وجيهاً.**) والإيذاءُ المُشارُ إليهِ في هذه الآيةِ الكريمــــةِ خــارجيٌّ وباللّسانِ ولا يدخلُ في مفهومِ المرض.

وقد أخبرنا اللَّهُ تعالى في الآية الخامسة من سورةِ الصّفّ وعن لسان نبيِّــهِ موسى عليه السلام قال (**وإذ قالَ موسى لِقومِهِ يا قومِ لِمَ تؤذونني وقد تَعلمونَ أنّي رسولُ اللَّهِ إليكُم فلمّا زاغوا أزاغَ اللَّهُ قلوبهُم واللَّهُ لا يــــهدي القــومَ الفاسقين.**) وقد استُعملت كلمةُ الإيذاءِ هنا بنفسِ المعنى وخلافاً لمفهومِ المرض.

ونخلُصُ من جميعِ ما تدبّرناهُ من آياتٍ وردت فيها كلمةَ (**أذى**) إلى أنّها جميعُها قد استعملَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ فيها هذه الكَلمة بنفسِ الدّلالات الّتي أوردهـــا اللُّغويّونَ وعبارةً عن ضررٍ خارجيٍّ يُصيبُ جسمَ الإنسانِ من خارجه.

وما دام ما بحثناهُ حتّى الآن قد أوصلنا إلى النتائجِ التالية:

أوّلاً-إنَّ كلمةَ (المحيض) الواردة في الآية ٢٢٢ من سورةِ البقرة تعــــني مكـــانَ خروجِ دمِ الحيض .

ثانياً-وأنَّ مُعطياتِ الطّبّ الحديث أثبتت بشكلٍ علميٍّ كونَ دمِ الحائض مؤذيـــاً للرّجُلِ والمرأة معاً .

ثالثاً-وأنَّ مفهومَ الأذى يختلفُ عن مفهومِ المرض لُغويّاً وطُبّياً.

رابعاً- وأنَّ القرآن المجيدَ نهى الزّوج عن مجامعةِ زوجتهِ أيّامَ الحيضِ حتّى تتطـــهَّرَ منه.

خامساً-وقد ثبتَ طبّياً وواقعيّاً بأنَّ كمّيةَ دم الحيض تختلفُ من امرأة إلى أُخرى.فما هو طبيعيٌّ بالنّسبةِ لامرأة يُعتبرُ غير طبيعيٍّ بالنّسبةِ لامرأة أخرى.وقد قاسَ الأطبّاءُ كمّيةَ الدّم النّازل في فترةِ الحيض وزناً وحجماً فتبيَّنَ لهم أنّهُ يتراوحُ ما بينَ أوقيّتينِ إلى ثماني أوقيات.ولا يدخلُ في هذا الحساب الدّم الأحمر اللّون الّذي يتجلّط والّذي لا يُعتبرُ حيضاً أصلاً.فدمُ الحيض لا يتجلّط.

ونتيجةً لأبحاثنا الّتي خلصنا منها إلى هذه المعلومات الخمسة نظلُّ نُواجهُ سؤالاً هامّاً وهو: هل أنَّ فتوى الفقهاء القدماء بتحريمِ الصّوم على الفتاة الحائض كانت فتوى قامت على نصٍّ شرعيّ ؟ فإن كان الفقهاءُ القدماءُ رحمهمَ اللّهُ قد استندوا إلى الآية ٢٢٢ من سورة البقرة فهي قد نصَّت على كلمةِ (أذىً)وليسَ على كلمةِ(مرض).والأذى غيرُ المرض.لذلكَ كانَ علينا أن نسألَ عن الطّرف الّذي يملكُ حقَّ تقريرِ أنَّ الفتاةَ الحائضَ هي في حالةِ مرضٍ وأنّهُ لا يجوزُ لها صيام الأيّامِ الّتي تكونُ فيها حائضاً وذلكَ خلالَ أيّامِ شهرِ رمضان المبارك فهل أنَّ الطرفَ المشارُ إليهِ هم الفقهاء أم هم الأطبّاء المختصّونَ بإصدارِ فتوىً في تلكَ المسألة والعائدة لِتلكَ الفتاة؟؟

فإن عادَ الأمرُ إليَّ أقول:إنَّ الأصلَ الخامسَ للتّفسيرِ يفرضُ على الفتاة استشارةَ طبيبِ عائلتها في أمرِ جوازِ صيامِها في رمضان أو عدم جوازه.فالطبيبُ المختصُّ هو القادرُ على تقديرِ مدى احتمالِ أيّةِ فتاة حائضٍ للصّوم.والطبيبُ هو الّذي كانَ بإمكانهِ أن يقدّرَ: هل أنَّ حالةَ الحائضِ بلغت حدَّ المرض أو أنّها لم تبلُغه.فإن كانت قد بلغت حدَّ المرض يفتي طبيبُ عائلتها بعدمِ صومها ومن بابِ أنَّ اللّهَ تعالى أجازَ للمريضِ أن يفطرَ في رمضان.فهذا ما يفرضهُ هذا الأصلُ الخامسُ للتّفسيرِ والمستندُ إلى قولِ ربّنا عزَّ وجلَّ في سورةِ الفرقان (**فاسأل بهِ خبيراً**).

منزلةُ العلمِ في الإسلام :

لقد سبقَ لي أن وضّحت بأنَّ العلمَ يخدُمُ الدّين.وأضيفُ هنا وأقـول: إنَّ من أسماءِ اللَّهِ الحُسنى صفة اللَّهِ (**العليم**).وإنَّ رسولَ اللَّهِ(ص)أمر وقال (**تخلّقوا بأخلاق اللَّه**) أي اتّصفوا بصفاته.ومن جُملةِ تلكَ الصّفات(**العليم**)وقد حثّنا كتابُ اللَّهِ العزيز أن ندعوهُ (**وقل ربّي زدني عِلماً) سورة طه ١١٤**. وقد سبقَ لي أن أثبتُّ بأنَّ منهجيَّةَ هذا القرآن الكريم هي منهجيَّةٌ علميَّةٌ. فلا يدّعي اللَّهُ تعالى ادّعاءً إلاّ ويُتبعهُ بدليلٍ علميٍّ يُثبتُ مِصداقيَّته. من هذا كلِّهِ كانَ بإمكانِ القارئ تقدير منزلةِ العلم في الدّينِ الإسلاميِّ الحنيف.

أضِف إلى ذلكَ أنَّ الجهلَ كلمةٌ تُضادُّ كلمة العلم.والعلمُ يعني لُغةً الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقع إشارةً إلى زوالِ الخفاءِ من المعلوم (محيط المحيط). فإن تناولنا صفةَ اللَّهِ (**العليم**) لمعرفةِ دلالتها على ضوءِ مُعطيات كلمة (**علم**). نلاحظُ تعريفها بالألف واللّام اللّذينِ يفيدان أنَّها تتضمّنُ معنى الشموليَّةِ والاستغراق.وعليهِ فإنَّ اللَّهَ العليم لا يخفى عليهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء.ولقد كرّرَ اللَّهُ تعالى وقالَ في أكثر من عشرين آيةٍ من آياتِ كتابهِ العزيز (**إنَّ اللَّهَ بكلِّ شيءٍ عليم**).وعندما يحُثُّنا محمّدٌ رسولُ اللَّهِ (ص) على الاتّصاف بصفات ربِّنا عزَّ وجلَّ.فكأنَّهُ يقولُ لنا بألفاظ أُخرى إنَّ من واجب المؤمنينَ استجلاء خفايا هذا الكون الّذي أبدعهُ خالقكُم لِتُدركوا دلالةَ قولهِ تعالى (**إنَّ اللَّهَ بكلِّ شيءٍ عليم**).من أجلِ أن يُساعدُكم علمكم على كيفيَّةِ التّعامُلِ مع كلِّ شيءٍ موجودٍ من أشياءِ عالمِكم الدّنيويّ.

أضِف إلى ذلكَ أنّنا إذا تدبَّرنا الدّعاء (**وقل ربّي زدني علماً**) نُلاحظُ وُجود حذفٍ بلاغيٍّ فيه فاللَّهُ تعالى لم يُحدِّد لنا من خلال ألفاظ هذا الدّعاء العلمَ الّذي ينبغي علينا أن ندعو ربَّنا ليزيدنا علماً فيه. ويدُلُّنا علم البلاغة أنَّ المقصودَ من هذا الحذف البلاغيّ هو لِتصريفهِ كلمةِ (**علم**) إلى جميعِ أنواعِ العلم. سواءً منهُ العلم الدّينيُّ وسواءً منهُ العلم الدّنيويّ بمختلفِ اختصاصاته.فهذا

هو السببُ في أنَّ اللَّهَ تعالى لم يحدّد لنا طلبَ علمٍ مُعيَّنٍ.وليدفعنا ربُّنا لِنطلُبَ علومَ الدّينِ وعلومَ الدّنيا أيضاً.تنبيهاً لأذهاننا إلى منزلةِ العلمِ في الإسلام.

وعلى هذه الصّورة أكونُ قد أعطيتُ القارئَ فكرةً واضحةً حولَ الأصل الخامس لِتفسيرِ آياتِ هذا القرآن المجيد.والمتعلّقِ بضرورةِ الرّجوع في أمورِ الاختصاصات العلميَّةِ إلى أهلِ العلمِ المختصّينَ في الموضوعِ العلميِّ الّذي تطرّقت إليهِ آيُ الذّكرَ الحكيم.لذلكَ أنتقلُ للكلامِ عن أصلٍ آخر يُعينُ على تفسيرِ آياتِ هذا القرآن العظيم.



الفصلُ السادس

الأصلُ السادسُ للتّفسير

وبنفسِ أسلوب الملاحظة العلميّ الّذي اتّبعناهُ في موضوعِ الكشفِ عن الأصولِ السابقةِ لِتفسيرِ آياتِ القرآن المجيد فإنّنا نُحاولُ بنفسِ الأسلوبِ للكشفِ عن وجهِ الأصلِ التّفسيريِّ السادس المتعلّق بتفسيرِ آياتِ هذا القرآن العظيم.

وإنَّ هذا الأصلَ السادسَ المذكور عثرتُ عليهِ وارداً ضمنَ تلكَ الفقرات الّتي يُنهي بها اللّهُ جلَّ شأنهُ آياتِ كتابهِ العزيز.وقد أوردهُ ربُّنا عزّ وجلّ بصياغةٍ بليغةٍ وفي موضعٍ لا ينتبهُ إليهِ إلاّ كلُّ مؤمنٍ يتدبَّرُ آياتِ هذا القرآن المجيدَ بمنهجيَّتهِ وأصولِه.

وعلى سبيلِ المثال يُلفِتُ اللّهُ تعالى نظرنا حينَ يُنهي الآياتِ تارةً بقولهِ(**أفلا تعقِلون**)وتارةً أُخرى بقولهِ (**لعلَّكُم تعقِلون**) وتارةً ثالثةً (**إن كُنتُم تعقلون**)وتارةً رابعةً (**ويجعلُ الرّجسَ على الّذينَ لا يعقلون**) وتارةً خامسةً يقول (**ذلكَ بأنّهم قومٌ لا يعقلون**).

والمُلفِتُ لِنظرِ الباحثِ المدقّق أيضاً هو أنَّ هذه النّهايات الّتي أوردناها آنفاً تردُ جميعُها محذوفاً منها إمّا مفعولها وإمّا الجارّ والمجرورَ التّابعَ لها.وتُفيدُنا مُعطياتِ علم البلاغة أنَّ القصدَ من هذا الحذفِ الّذي يقومُ بهِ الأديبُ العربيُّ يقومُ بهِ بغرضِ توسيعِ دلالات الفعل المحذوف منه ولِتصريفِ هذا الفعل لِعدَّة اتّجاهات فهاتان الملاحظتانِ تجرُّنا إلى محاولةِ فهم كلمةِ(**يعقلون**)الواردة في نهايات الآيات .

لذلكَ كانَ من واجبِ الباحثِ أن يتساءلَ في حديثِ نفسهِ سؤالاً هامّاً جدّاً هو ما العقلُ وما هي آليّته ؟وما هي علاقتُهُ بالأبحاث المطروقةِ في الآياتِ الوارد ذكرُها في الفقرات الأخيرةِ من تلكَ الآيات والّتي شكّلت تلكَ النّهايات الّتي أوردناها؟وسؤالٌ ثالثٌ هو هل يُعطينا العقلُ المجرَّدُ أحكاماً صحيحةً.أم أنّهُ بحاجةٍ لعواملَ مُساعدةً لابدَّ من الأخذِ بها حينَ استعمالنا لِعقولنا ؟؟

فهذه أسئلةٌ جوهريَّةٌ جديرةٌ بالاهتمامِ منّا كباحثين وكانَ لابُدَّ من معرفةِ أجوبتها الحقيقيَّة. لذلكَ كانَ من واجبي أن أبحثَ في موضوعِ العقلِ وآليّةِ عملِهِ وفي منزلتهِ في نظرِ خالقِ هذا الإنسان.

وأبدأُ أوّلاً بالكلامِ عن العقلِ وآليّةِ عمله:

فنبدأ من الرّجوعِ إلى مُعطياتِ كتبِ اللّغويّين لِنحيطَ علماً بمفهومِ الأقدمينَ لكلمةِ (عقل) فقد وردَ في التّعريفات (**العقلُ جوهرٌ مجرَّدٌ عن المادّة في ذاتهِ مُقارنٌ لها في فِعلِه وهي النّفسُ النّاطقة الّتي يُشيرُ إليها كلُّ أحَدٍ بقولهِ (أنا). .فصريحٌ بأنَّ القوّةَ العاقلةَ أمرٌ مُغايرٌ للنّفسِ النّاطقة وإنَّ الفاعلَ هو النّفس.وإنَّ العقلَ آلةٌ بمنزِلَةِ السكّين بالنّسبةِ إلى الّذي يقطعُ شيئاً ما**).

وقد أوردَ (محيط المحيط)أنّكَ إذا قُلتَ عقلَ الغُلامُ فمعناهُ أنّهُ أدركَ وأصبحَ عاقلاً وبلغَ رُشدَه أمّا إذا قُلتَ عقلتُ الشيءَ فمعناهُ أنّكَ تدبَّرتَهُ وفهمته.والعاقل اسمُ الفاعلِ من عقلَ ويُجمع على عُقّال وعُقلاء.والعاقلةُ هي قوّةُ العقل.كالذاكرة هي قوّةُ الذّكر.

فإن نحنُ دقّقنا فيما وردَ في (التّعريفات) يتبيَّنُ لنا :

١-أنَّ تعريفهُ للعقلِ بأنّهُ(**جوهرٌ مجرَّدٌ عن المادّة في ذاته**)هو قولٌ أثبتهُ العلمُ الحديث.فقد ثبتَ لِعلماءِ الغرب أنَّ مهمّةَ الدّماغ لا تتعدّى إيصال المعلومات إلى عتبةِ العقلِ الكائنِ خارج دماغ الإنسان.وأنّ العقلَ جوهرُ وليسَ هو بمادّة لذلكَ هو خالدٌ خلودُ النّفسِ البشريَّة.فالعالم (بنفليد)كتبَ يقول(**يالهُ من أمر**

مثير إذاً أن نكتشف بأنَّ هذا الرّجُل العالِم يستطيعُ بدورهِ أن يؤمن عن حقٍّ بوجودِ الرّوح. وقال العالم (إكلِس) (إنَّ العقلَ والإرادة غير ماديّين.فقد ثبتَ أنَّهُما مَلكتان لا تخضعانِ بالموتِ للتحلُّل الّذي يطرأُ على جسمِ هذا الإنسان ودماغهِ كليهما).

٢-وفي التّعريفاتِ قال (**إنَّ العقلَ ما يُعقلُ بهِ حقائقُ الأشياء**).وقد نبَّهَ العالم (بنفليد) هو بدورهِ إلى هذه الحقيقة وقال (**إنَّ ما تعلّمنا أن نُسمّيهِ العقل هو الّذي يُركّزُ الانتباه.والعقلُ هو الّذي يعي ما يدورُ حَوله.وهو الّذي يستنبطُ ويتّخذ قرارات جديدة.وهو الّذي يفهمُ ويتصرَّفُ كما لَو كانت** لهُ طاقةٌ خاصّةٌ به.وهو يستطيع أن يتّخذَ القرارات وينفّذها مُستعيناً بمختَلَفِ آليّات الدّماغ)-**راجع** العلمُ في منظورهِ الجديد-وعليهِ فإنَّ العلمَ الحديثَ قد أثبتَ صحَّةَ رأيِ ما وردَ في (التّعريفات) بشأنِ مهمَّةِ عقل الإنسان.

٣-ثمَّ إنَّ قول (محيط المحيط) (**عقلتُ الشّيءَ معناهُ تدبَّرتُهُ وفهمتُه**).يُفيدنا بمعلومةٍ وهي أنَّ حقائقَ الأشياء لا يستطيعُ المرء إدراكها وفهمَ خفاياها إلاّ بعد تدبُّره إيّاها ومحاولتهِ فهمَ حقيقتها.ومن المعلومِ أنَّ عمليَّةَ التّدبُّر المطلوبة هي بحاجةٍ إلى الأخذِ بمنهجيَّةٍ وأُصولٍ محدَّدة لذلكَ فإنَّ اللّهِ تعالى حينَ نلحظُ أنّهُ تعالى يقول(**لِقومٍ يعقلون**) فاللَّهَ تعالى يكُونُ قد دفعَ القومَ الّذي خاطبهُ في تلكَ الآية (**ليتدبَّرَ**) **ما خاطبهُ بهِ ربُّهُ ولكن بمنهجيَّةٍ وأصول** لِيساعدهُ ذلك على إدراكِ حقيقةِ قولِ اللّهِ عزَّ وجلّ.وعليهِ فإنَّ هذه الحقائقَ الثلاثَ الّتي توصّلنا إليها وضَّحت لنا حقيقةَ العقلِ كما وضَّحَت لنا عملَ آليَّتِهِ ونكونُ بذلكَ قد أجبنا على السّؤال الأوّل الّذي طرحناه.

أمّا بشأنِ احتياجِ العقل إلى عواملَ تُساعدهُ على إدراكِ الحقيقةِ كاملةً فالّذي أراهُ هو أن أُطلِعَ القارئَ على معلومةٍ تُضافُ إلى ما ذكرناهُ وتوصّلنا إليه.وقد أوردتُ تلكَ المعلومةَ في مؤلّفي(نظريَّةُ جذورِ الأخلاق)فأنا كتبتُ هناكَ

وقلت(دونكُم حاسّةَ الرّؤية فعينُ الإنسان آلةُ تصويرٍ فوقَ ألكترونيَّة وتمثِّلُ **حاسّةَ الرؤية** عند الإنسان.إنّ هذه العين الّتي هي على هذا المستوى من النّفاسة والقيمة تُصبحُ عديمةَ الجدوى مُعطَّلةَ الأداء إذا فقدت عاملاً مساعداً لها يُساعدها على تأديةِ وظيفتها وهو(**الضّوء**). كذلكَ **حاسّةَ السّمع** تمثّلها هذه الأُذن الّتي تلتقطُ الأصواتَ المسموعة بسرعةٍ هي في منتهى السُرعة. لكنَّ هذه الأذنَ وحاسَّة السمعِ تفقدُ قيمتها كلّيةً وتُصبحُ عديمةَ الجدوى إن نحنُ حذفنا من مُعادلتِها هذا العامل المساعد الوسيط الّذي يُساعدها على تأديةِ عملِها وهو(**الهواء)والّذي يحملُ إليها ذبذبات الأصوات**.وبإمكان المرء قياس بقيَّةِ الحواس على هاتينِ الحاسّتين:الرّؤية والسمع.**فحاسّةُ اللّمس** تحتاجُ إلى عاملٍ يُساعدُها على أداءِ وظيفتها وهو وُجودُ أشياءَ ماديّةٍ لِتتلمَّسها.**وحاسّةُ الشمّ** هي بحاجةٍ إلى الرّوائحِ لِتقومَ بتأديةِ وظيفتها.

ويثبتُ من هذه الحقائق خُضوع هذا الإنسان وعقلهُ إلى قانون الاحتياجِ العام.ولا تُستثنى منهُ حواسُّهُ أيضاً.فهذا العقلُ الّذي إذا حاولَ المرءُ الحُكمَ على شيءٍ من الأشياء ومجرّداً إيّاهُ عن عواملِهِ المساعدة التي أتينا على ذكرها وبيّناها يعودُ يقتصرُ حُكمهُ على **لُزومِ وجود هذا الشيء** ليسَ إلاّ. لكنّهُ يعجزُ حينذاكَ أن يحكمَ بوجودِ هذا الشيءِ بصورةٍ فعليَّةٍ وهو الحكمُ الّذي لا يكونُ حقيقيّاً إلاّ بمساعدةِ عاملٍ مُساعدٍ ووسيطٍ يُساعدهُ على الجزمِ بوجودِ هذا الشيءَ المطلوب.وشتّانَ ما بينَ لزوم الشيء وما بينَ وجوده كحقيقة واقعة.

وفي عصرنا فلقد ثبتَ لعلماء العلومِ الحديثةِ بأنَّ هذا العاملَ المُساعدَ للعقلِ الّذي يُساعدهُ على إعطاءِ أحكامٍ صحيحة على صعيدِ الواقع هو هذه الملاحظةُ والتّجربةُ والاستنتاج.وهي الأسسُ الّتي قامت على أساسٍ منها جميعُ العلومِ المعاصرة.

وواقعُ الأمرِ هو أنَّ اللَّهَ تعالى قد جعلَ لِعقلِ هذا الإنسان ثلاثة عوامـــلَ مُساعدة.وليسَ عاملاً مُساعداً واحداً هو الملاحظةُ والتّجربةُ والاستنتاج.بســبَبِ أنَّ هذا العقلَ يعمل على صُعُــدٍ ثلاثــة ولا يعمــلُ علــى صعيــدٍ واحــدٍ وحسب.وهذه الصُّعُدُ هي الأزمنةُ الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل).

فعلى صعيدِ الماضي فإنَّ العقلَ تُساعدهُ الآثــارُ القديمــةُ والمســتحاثّاتُ والمخطوطاتُ والنّقوشُ المنقوشةُ على الآثارِ القديمة لإصدارِ حُكمٍ صحيــحٍ في موضوعِ أحوالِ الأممِ الماضية.

وأمّا على صعيدِ الحاضرِ فإنَّ الملاحظةَ والتّجرُبةَ والاستنتاج تُساعدُ عقــلَ الإنسان على إدراكِ حقائقِ الأشياء المادّية لِيستعينَ بها في معيشته وهو العــاملُ الّذي قالَ بهِ علماءُ العلومِ الحديثة.

وأمّا على صعيدِ المستقبل فإنَّ ما يُساعدُ هذا العقلَ علــى التّنبّــؤ بمــا سيحدُثُ في المستقبل هو الوحيِ السماويّ الّذي يوحى إلى هذا الإنسانِ من اللَّهِ علاّمِ الغيوب.

ونخلُصُ من ذلكَ كلِّهِ إلى القولِ من خلالِ مُعطيــاتِ الحقــائقِ الــتي وضَّحناها من قبلُ أنَّ الّذي يستحقُّ أن يُسمّى (عاقلاً) هو هذا الإنسانُ الّــذي يتدبَّرُ الأمورَ بمنهجيَّةٍ وأصولٍ وهو يستعينُ بالعواملِ المساعدة لعقلِهِ ولحواسّــهِ سواءً أكانَ ذلكَ على صعيدِ الماضي وسواءً كانَ على صعيدِ الحاضر وسواءً كانَ على صعيدِ المستقبل.وبذلكَ نكونُ قد أحطنا علماً صحيحــاً بمفــهومِ العقــلِ وبموضوعِ عملِ آليَّتِهِ وبالعواملِ المساعدةِ لهُ الّتي تُساعدهُ ليقومَ بإصدارِ أحكــامٍ صحيحة.وننتقلُ بعدَ ذلكَ لِنبحثَ في علاقةِ العقلِ بالأبحاثِ التي تطرَّقت إليــها آياتُ هذا القرآن الكريم.

منزلةُ العقلِ ومضامينُ الآياتِ القرآنيَّة:

فالملاحظ هو أنّ اللّهَ تعالى يُنهي كثيراً من آيات كتابهِ العزيز بقولهِ تعالى (**يبيّنُ اللّهُ لكم آياتهِ لعلّكم تعقلون**)البقرة ٢٤٢ وبقولهِ (**قد بيّنّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون**)آل عمران ١١٨ وقولهِ في آيات أخرى (**أفلا تعقلون**)؟ فاللّهُ تعالى عندما يُنهي آيةً من آيات كتابهِ العزيز بفقرةٍ من مثلِ هذه الفقراتِ الّتي ذكرناها.يكونُ قد طالبنا أن نتدبَّرَ ما ذكرهُ قبل تلكَ الفقرة وفقَ منهجيَّةِ القرآن المجيدِ وأصولِ تفسيره وبالاستعانةِ بالعواملِ المساعدةِ لحواسنا وعقولنا ولِنتمكَّنَ من فهمِ ما أرادَ اللّهُ تعالى تلقيننا إيّاهُ في تلكَ المقامات.

واستناداً إلى هذا الفهمِ الّذي توصّلنا إليهِ آنفاً نكونُ قد عثرنا على هذا الأصلِ السادسِ من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن المجيد الّذي نبحثُ عنه. ذلكَ أنَّ استعانةَ المفسّر بعقلِهِ وبالمفهومِ الّذي توصّلنا إليهِ آنفاً هو حقيقةٌ لا ينبغي أن تغرُبَ عن ذهنه.ومن مُنطلقِ أنَّ تفسيرَ الآيات الكريمةِ بالعقلِ المجرّدِ عن الشوائبِ وبالمفهومِ سالفِ الذّكر هو أصلٌ من أصولِ التّفسيرِ وإنَّ من واجبِ هذا المفسِّرِ أن يأخُذَ بهِ وإلاّ فلا يكون قد تقيَّدَ لا بمنهجيَّةِ القرآنِ ولا بأصولِ تفسيره.

وعلى سبيلِ المثال فإنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ حينَ قالَ في الآية ١٦٣ من سورة البقرة(**وإلهُكُم إلهٌ واحدٌ لا إلهَ إلاّ هو الرّحمنُ الرّحيم**)يكونُ قد لخَّصَ للإنسانِ من خلالِ ما تضمّنتهُ هذه الآيةُ الكريمةُ مفهومَ وَحدانيَّةَ اللّهِ تعالى .وبما أنَّ اللّهَ تعالى لا يدّعي ادعاءً إلا ويُتبعُهُ بدليلِ مِصداقيّتهِ ووفقَ الأصلِ الثالث للتّفسير.فيكونُ اللّهُ تعالى راحَ يُدلي بعدَ هذا التّوضيحِ المذكورِ بدليلٍ علميٍّ مُتعدّد العناصر لإثباتِ وحدانيّتِهِ في الذّاتِ وفي الصّفات.وقد عبَّرَ تعالى عن دليلِ مِصداقيَّةِ ما ادّعاه فقالَ وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ(**إنَّ في خَلقِ السماواتِ والأرضِ واختلافِ اللّيلِ والنّهارِ والفُلكِ الّتي تجري في البحرِ بما ينفعُ النّاس وما أنزلَ اللّهُ من السماءِ من ماءٍ فأحيا بهِ الأرضَ بعدَ موتها وبثَّ فيها من كلِّ دابّةٍ**

وتصريفِ الرّياحِ والسحابِ المُسخَّرِ بينَ السماءِ والأرض لآياتٍ لِقومٍ يعقلون.).

والآنَ إن نحنُ عُدنا إلى علماءِ القرن التّاسع عشر في أوروبّةَ فكانوا يعزونَ وجودَ كلِّ شيءٍ إلى عُنصرينِ اثنينِ هما الصّدفةُ والضرورة.بسبَبِ أنَّهُم نظروا إلى هذا العالم على أنَّهُ مادّةٌ بمادّة.لكنَّ علماءِ القرنِ العشرين الغربيّين خالفوهم الرّأي.لاكتشافهم عُنصُراً ثالثاً مُضافًا وهو هذه الزّخارفُ الفنّية والألوان المختلفة الّتي لا تُفسِّرُها الصّدفةُ ولا الضّرورة.والّتي تدلُّ على وجودِ خالقِ هذه الأشياء وهو الفنّان الأعظم الّذي خلقَ كلَّ شيءٍ وزخرفهُ تدليلاً من جانبهِ تعالى على وجوده وعظمةِ إبداعه الفنّيِّ أيضاً.

فاللّهُ جلَّ اسمهُ عندما قدَّمَ لنا دليلَ مِصداقيَّةَ وحدانيَّتِهِ الّذي أسلفنا ذكرهُ فقد قدَّمهُ من نوعِ الأدلَّة مُتعدّدة العناصر الّذي أشرنا إليه والّذي راحَ يتباهى بالكشفِ عنهُ علماءُ الغربِ الأوربّيين وعلى حسبِ ما بيَّناهُ آنفاً لذلكَ فاللّهَ تعالى يقولُ في دليلهِ المذكورِ وهو يُخاطبُ عقلَ الإنسان أن لاحظ أيُّها الإنسان الأمورَ التّالية:

أوّلاً-أفلا يُلفِتُ نظركَ هذا الكون المؤلّف من سماواتٍ وأرضٍ والّذي يبدو لِعينيكَ وحدةً مُتماسكة ؟ هذا الكونُ الّذي تبيَّنَ لِعلماءِ العلمِ الحديثِ أنَّهُ تنظُمُهُ قوانينَ واحدةٌ في الأرضِ وفي السماء .ودلالةٌ على أنَّ مُبدِعَ السماء والأرضِ هو إلهٌ واحدٌ لا شريكَ لهُ في مُلكهِ ورحمانٌ ورحيمٌ أيضاً ؟

ثانياً-ثمَّ أفلا يُلفِتُ نظرَكَ اقترانُ ذلكَ الكون بإبداعِ هذا النّظام الشمسيِّ فيه والّذي أسفرَ عن وُجوده اختلافُ اللّيلِ والنّهار والّذي لولاهُ لَكانت اختلَّت حياةُ الإنسان والنّبات والحيوان ولاختلَّت آليّاتُ حواسِ الإنسانِ أيضاً ؟

ثالثاً-ثمَّ أفلا تُلاحظُ كيفَ أنَّ مُلوحةَ البحارِ ساعدت على حملِ السّفُنِ بمختَلفِ أشكالها وأوزانها لِنقلِ النّاس وما هم يحملونَهُ من متاعٍ فتجري هذه

السفنُ في البحرِ بما ينفعُ النّاس.فلو لم تُسخَّرُ هذه السُفنُ لِخدمةِ هذا الإنسان فما هو الحالُ الَّذي سيكونُ عليه ؟

رابعاً-ثمّ أفلا تُلاحظُ نظامَ التّبخُّرِ وكيفَ تتصاعد من جرّائهِ الأبخرةُ لِتنعقدَ سُحُباً ينزلُ منها الماءُ لِيُحي الأرضَ بعدَ موتها.فلولا وجودُ هذا النّظام المائيّ لكانت قد عُدمت الحياةُ من على سطحِ الأرض.ومن أينَ كانت تستطيعُ هذهِ الكائناتُ الحيَّةُ الحصولَ على الماءِ المُحتاجة إليه؟

خامساً-ثمّ ألا تُلاحظ التّنوُّعَ والتعدّدَ في نوعِ الحيوانات الّتي تسرحُ وتمرحُ على سطحِ الكرةِ الأرضيّة. هذا التّنوُّعُ والتّعدُّدُ الّذي يبدو على أشكالٍ وأحجامٍ مختلفةٍ ويؤدّي مهامَّ مختلفة.ويوجدُ توازُناً في هذه الحياة.فافرض انعدامَ جميعِ هذه الحيوانات فما هي النّتائجُ الّتي كانت ستُسفِرُ عنها تلكَ الكارثة؟

سادساً-ثمّ أفلا تُلاحظ وُجودَ الهواء الّذي يحملُ ذبذبات الأصوات الذي لولاهُ لَتعطَّلت حواسُ السّمعِ ولتوقّفَ طَلْعُ الأزهارِ عن الانتشارِ من شجرةٍ إلى شجرةٍ لِتلقيحِ أزهارها بفعلِ تصريفِ هذه الرّياحِ الّتي تهبُّ من هنا وهناك.

سابعاً- ثمّ أفلا تُلاحظُ هذا السحابَ المُسخَّرَ بينَ السماءِ والأرض.فتبخُّرُ المياهِ يخضعُ لقوانين ومن تلكَ القوانين ما يُحافظُ على تراكُمِ هذا السحابَ على ارتفاعات مُعيَّنةٍ.ومن تلكَ القوانين ما يُساعدُ على هطولِ الأمطارِ من تلكَ السُّحُبِ لِريِّ الزّرعِ في الأرضِ الميّتة.

ألا إنَّ هذه العناصرَ السبعة الّتي أتيتُ على ذكرها والّتي أفادتها تلكَ الآياتُ الكريمة سالفة الذّكر قد شكّلت هذا الدّليلَ الموجَّهَ إلى قارئ آيات كتابهِ العزيزِ لِيُحرِّك اللّهُ تعالى عن طريقهِ عقولَ النّاسِ ولِيُدركوا من خلالهِ وُجودَ اللّه مُبدِعِ هذه السماء والأرضَ وما بينهما من أشياء وليعرفوا هذا المحبوبَ الحقيقيّ الّذي منَّ على الإنسانِ بجميعِ هذه المِنن والنّعَم وليُدركوا كونَ هذا الخالق هو **إلهٌ واحدٌ لا إلهَ إلاّ هو الرّحمن الرّحيم**.فهذا الدّليلُ المتعدِّدُ العناصر هو الّذي

وراءَ إنهاءِ اللّه تعالى هذه الآيةِ الطّويلةِ المشتملةِ على هذه العناصرِ السبعةِ والّتي شكّلت هذا الدّليلَ العقليَّ. أقولُ لذلكَ لا حظنا أنّهُ تعالى أنهاها بقولهِ (**لِقومٍ يعقلون**).

فلماذا لم يُنهِ اللّهُ تعالى هذه الآية الكريمة بقولهِ(لأصحاب العقول)بدلاً عن (**لقومٍ يعقلون**) وعلى سبيلِ المثال ؟ فالمعلومُ هو أنّ سباقَ هذا الكلامِ الإلهيِّ قد اقتضى استعمالَ كلمة(**قوم**)لِيُشيرَ من خلالِ هذه الكلمة إلى أهلِ الكتابِ من يهودٍ ومسيحيّين. فهؤلاء النّاس هم الّذينَ راحوا يتفاخرونَ بهذا النّوعِ الجديدِ من الأدلّةِ في هذا العصرِ الحاضر.وهم الّذين لاحظوا اجتماعَ العناصر الثلاثة في آنٍ واحدٍ ومعَ ذلكَ يُلاحظُ بقاؤهم على عقائدهم ويكفرونَ باللّهِ تعالى الّذي أرسلَ محمّداً بهذا الحقّ البيّن الصّريح. خصوصاً وأنّ اللام الدّاخلة على كلمةِ(لِقومٍ) تُفيدُ في هذا الموضع معنى التّبليغ. فهي جارّةٌ لِسمعِ السامعينَ من أهلِ الكتاب من يهود ومسيحيّين.

فهذا مثالٌ قدّمتُهُ للقارئ لأوضّحَ لهُ علاقةَ هذا الأصلِ السادسِ للتّفسيرِ بالعقلِ الوارد ذكرُه في أواخرِ الآيات الكريمةِ والمُرتبط ذكرُهُ بمضامينِ الآياتِ الكريمةِ ارتباطاً موضوعيّاً.وبذلكَ أكونُ قد أجبتُ على الأسئلةِ المطروحةِ في مُستهلِّ كلامي عن هذا الأصلِ السادسِ من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن العظيم.

بالعقلِ يَتميّزُ الإنسانُ عن الحيوان:

ثُمّ إنّ العلمَ الحديثَ قد أثبتَ من الوجهةِ التّشريحيّةِ عدم وُجود فوارقَ ما بينَ جسمِ الإنسانِ وتكوينهِ وما بينَ جسمِ الحيوانِ وتكوينه.لذلكَ نُلاحظُ بأنّ العلماء إذا شاءوا أن يُركّبوا دواءٍ وغيره لمعالجةِ مرضٍ مُعيّنٍ فإنّهُم يُجرونَ تجاربَ على بعضِ الحيوانات لِينتقلوا منها لِتجربةِ ما توصّلوا إليهِ على الإنسان نفسه.

والسؤالُ الهامُّ هنا والّذي يطرحُ نفسهُ وبعدَ اطّلاعنا على هذه الحقيقةِ آنفةِ الّذكر هو:ما هو الفارقُ الجوهريّ الّذي يُفرّقُ الإنسانَ عن الحيوان؟فهل يكفي أن نقولَ بأنَّ هذا الإنسانَ هو حيوانٌ ناطقٌ وحسب؟ وبماذا أجابَ القرآنُ المجيدُ على هذا السؤال؟

أقول:لقد أجابَ اللّهُ تعالى على هذا السؤال بمناسبةِ كلامهِ عن الأمم الّتي تعيشُ حياةً تقليديَّةً ولا يستعملُ أهلُها عقولهم التي ميَّزهم بهِ خالقهُم عن غيرهم من الكائنات الحيَّة.أجابَ تعالى في الآية ١١٨ من سورة هود على هذا السؤال والّتي قالَ تعالى فيها هُناك (**ولو شاءَ ربُّكَ لَجعلَ النّاسَ أمَّةً واحدةً ولا يزالونَ مُختلفين**).فهذه آيةٌ ما أحاطَ بمضمونها الحقيقيّ المُصاغ صياغةً بلاغيَّةً مُعجزةً لا المعتزلة ولا المفسّرونَ القدماء رحمهم اللَّه.

فالمعتزلة استنبطوا من هذه الآيةِ الكريمةِ معنى الإلجاءِ والإكراه.فهذا ما نقلهُ لنا العلاّمة الرّازي رحمهُ اللّه عن فهمهم المذكور وهو قولهُ في تفسيره الكبير: (والمُعتزلة يحملونَ هذه الآيةِ على مشيئةِ الإلجاء والإجبار).هذا وإنَّ الرّازي نفسهُ الّذي لم يتّفق مع المُعتزلةِ في الرّأي.فسَّرَ هذه الفقرةَ الأخيرةَ من هذه الآيةِ الكريمة (**ولا يزالونَ مُختلِفين**) دلالتها على اختلاف النّاسِ في الأديان.وأضافَ يقول (فإن قيلَ إنّكم حَملتُم قولهُ تعالى (**ولا يزالونَ مُختلفين**) على الاختلاف في الأديان فما الدّليلُ عليه ؟ ولِمَ لا يجوزُ أن يُحملَ على الاختلاف في الألوانِ والألسنةِ والأرزاق والأعمال ؟ فأجابَ رحمهُ اللّهُ على هذا السؤال بنفسهِ وقال (قُلنا:الدّليلُ عليهِ أنَّ ما قبلَ هذه الآيةِ هو قولهُ (**ولو شاءَ ربُّكَ لَجعلَ النّاسَ أمّةً واحدةً**) فيجبُ حملُ هذا الاختلاف على ما يُخرجُهُم من أن يكونوا أمَّةً واحدةً).

فهذا هو ما فهمهُ المُعتزلة والعلاّمة الرّازي رحمه اللّه تعالى من هذه الآيةِ الكريمة فهل أصابَ أحدٌ منهم كبدَ الحقيقة؟؟أقول:لِنتدبّر هذه الآية الكريمة

بمنهجيَّةِ القرآن وأصولِ تفسيره.فالواو للإضافة وتُفيدُ الحال وإنَّ الحرف (لو)هـو حرفُ امتناعٍ لكونِ الشرط (شاءَ) ماضياً.ثمَّ إنَّ كلمةَ (شاء) تعني هنا قدَّرَ.وأمّـا الّلام من قولهِ تعالى (لَجَعلَ)فهي لام جواب حرف(لو)وعلى شاكلةِ قولِ اللّـهِ تعالى (**لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاّ اللّه لَفسدتا**).وأمّا كلمةُ (**أمَّة**)معناها جماعـة أو طريقة أو دين.قال الأخفش:أمّة اللّفظُ واحدٌ والمعنى جمع.وتُطلقُ كلمةُ **أُمَّة** علـى جميعِ أجناسِ الحيوانِ أيضاً (محيط المحيط).

واستناداً إلى هذه المعاني الّتي ذكرناها يُصبحُ معنى (**ولو شاءَ ربُّكَ لَجعلَ النّاسَ أُمَّةً واحدةً**) أنّهُ لولا أن اقتضت مشيئةُ اللّهِ تعالى وتقديرُهُ أن يُميِّزَ هـذا المخلوقَ الإنسان بما وهبهُ من عقلٍ وإرادةٍ وحرّيةِ اختيارٍ لكانَ قد جعلَ هـذا المخلوقَ الإنسانَ أُمَّةً واحدةً وجماعةً واحدةً وعلى شاكلةِ حالِ بقيّـةِ أنـواع الحيوان يعيشُ كلُّ نوعٍ منهم أُمّةً أو جماعةً واحدةً غريزيّين.فهذا هـو المعـنى الحقيقي لهذا الشطرِ من هذه الآيةِ الكريم ولا تعني ما تبادرَ منها لأذهانِ المُعتزلـة والرّازي وغيرهم من المفسّرين القدماء.

وننتقلُ لِنتدبَّر الفقرة الأخيرة من هذه الآيةِ الكريمةِ وهي قولهُ تعـالى (**ولا يزالونَ مُختلفين**). فقولهُ تعالى(**ولا يزالـون**) معنـاهُ ولا يـبرحون.وقولـهُ تعالى(**مختلفين**) معناهُ عكس معنى مُتّفقين.والملاحظُ هنا هو أنَّ اللّهَ تعالى حـذفَ مُضاف(**مُختلفين**) فلم يُوضّح في أيِّ شيءٍ مُختلفين.والحذفُ يُقصدُ منهُ توسيعَ دلالةِ (**مختلفين**).

واستناداً إلى دلالاتِ الألفاظِ هذه يصبحُ معنى قولهُ تعالى (**ولا يزالـونَ مُختلفين**) أنَّ المقصودَ منهُ هو أنَّ عدمَ استعمالِ هذا المخلوق الإنسـان لِعقلـهِ وإرادتهِ وحرّيةِ اختياره الممنوحينَ لهُ والمميّزينَ إيّاهُ عن أنواعِ المخلوقات الأخرى تجعلُ هؤلاء النّاس مُختلفينَ فيما بينهم وغيرُ مُتَّفقين.فإن نحنُ أعطينـا الحـذفَ البلاغيَّ حقَّهُ في هذا المقام فيصبحُ معنى(**مُختلفين**) أنَّ النّاس ما يبرحونَ مُختلفينَ

في آرائهم وفي اختيارِ مناهج حياتهم وفي أسلوبِ تعاملهم فيما بينهم ومختلفين أيضاً في أديانهم وفيما سيصيرُ إليهِ حالهُم بعد موتهم أيضاً.

وعلى هذه الصّورة يكونُ اللّهُ جلَّ شأنهُ ومن خلالِ قولهِ تعالى في سورة هود **(ولو شاءَ ربُّكَ لجعلَ النّاسَ أمَّةً واحدةً ولا يزالونَ مُختلفين)** يكونُ قد وضَّحَ لنا الفارقَ الحقيقيَّ ما بين الإنسان وما بين الحيوان وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزة لم يفهمها الأوّلون رحمهم اللّه. فلو أنَّ اللّهَ الخالقَ لم يُزوِّد هذا الإنسانَ بهذا العقل.لكانَ قد جازَ تسميةَ هذا الإنسان أنّهُ حيوانٌ ناطقٌ وحسب.وما دُمنا قد عرفنا هذه الحقيقة الّتي نبَّهتنا إليها الآيةُ من سورة هودٍ الّتي كُنّا أوردناها.فلا ينبغي أن نمرَّ على معرفةِ هذا الفارقِ مرَّ الكرام.بل إنَّ من واجبنا أن نُدركَ أيضاً بأنَّ هذا الإنسانَ إن اكتفى بتحصيلِ أكلِهِ وشُربهِ وأمضى حياتهُ في اللّهوِ واللَّعِبِ ولم يبحث عن المقصدِ الأسمى من حياتهِ والّذي من أجلهِ ميَّزهُ خالقهُ على بقيَّةِ المخلوقات.فإنَّ هذا الإنسانَ لا يعودُ يفترِقُ في شيءٍ عن الأنعام.فهذهِ حقيقةٌ نبَّهَنا اللّهُ تعالى إليها في سورةِ الأنعام .

فممّا تقدَّمَ من مثالٍ وشرحٍ وتوضيحٍ يعودُ بإمكانِ القارئ تبيُّن منزلةَ عقلِ الإنسان في نظرِ هذا القرآن المجيد.فالخالقُ الّذي ميَّزَ هذا الإنسانَ بتاجِ العقلِ عن هذا الحيوانِ الغريزيّ هو الّذي يُطالبُ هذا الإنسان أن يستعملَ عقلَهُ في كلِّ شيءٍ حتّى وخلالَ عمليَّةِ تدبُّره لآياتِ كتابِ اللّهِ العزيز. وإنَّهُ تعالى قد اشترطَ على المفسِّرِ الّذي يقومُ بتفسيرِ آياتِ هذا الكتاب العزيز إعطاءَ هذا الأصل التّفسيريّ مكانتهُ خلالَ عمليَّةِ تفسيره.وإنَّ المفسّرَ الّذي يُطالعُ مضمونَ آيةٍ يُخالفُ مضمونها عقلَ الإنسان.فإن حملَ المعنى على ظاهره ومُعتبراً ما تكلَّمت عنهُ تلكَ الآيةُ مُعجزةً من المُعجزات من غيرِ وجودِ نصٍّ صريحٍ يبيِّنُ أنَّها مُعجزة ومن دونِ قرينةٍ دالَّةٍ على ذلكَ فإنَّهُ ينسبُ بعملهِ المذكورِ إلى كتابِ اللّهِ تعالى ما يُشينُه وينتقصُ من مقامه.

ثمَّ بفرضِ أنْ يكونَ ما تكلّمت عنهُ الآيةُ هو مُعجزةٌ من المُعجزات.فــلا يحقٌّ لهُ أن يفهمها بما يُخالفُ القوانينَ الطّبيعيَّةَ المسنونة.بل إنَّ مُخالفــةَ ظــاهر مضمون الآية وعلى صورة تُخالفُ القوانينَ الطبيعيَّةِ يشكّلُ في حقيقةِ أمره قرينةً لُغويَّةً تصرفُ المعنى الظاهريّ إلى معنى مجازيّ.ومن واجب هذا المفسّر أن يبحثَ عن المعنى المقصود منه.لقولهِ تعالى في الآيتين ٤٢/٤٣ من سورة فاطر(**وأقسموا باللَّهِ جَهدَ أيمانِهم لَئِن جاءهم نذيرٌ لَيكونُنَّ أهدى من إحدى الأمَــم فلمّا جاءهُم نذيرٌ ما زادهُم إلاّ نُفوراً.استكباراً في الأرض ومكرَ السَّيِّءِ ولا يحيقُ المكرُ السيِّءُ إلاّ بأهلِه فهل ينظرونَ إلاّ سُنَّتَ الأوّلين فلن تجدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تبديلاً ولن تجدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تحويلاً**) بمعنى أنَّ كلَّ شيءٍ في هذا العــالمِ يخضعُ لِقوانينَ مسنونة وأنَّكَ أيُّها الإنسانُ لن تعثرَ على خرقٍ في تلكَ القوانينِ ولن تجدَ ما يُحوِّلُ تلكَ القوانينَ عمّا تقومُ به من تنظيمٍ للأشياءِ التّابعةِ لها.وبما أنّي لستُ بصدَدِ الكلامِ عن المُعجزات لذلكَ أؤجِّلُ بحثَ المُعجزاتِ إلى الوقتِ المناسبِ للكلامِ عنها إن شاءَ اللَّهُ تعالى .

فالقرآنُ الكريمُ ميَّزَ الإنسانَ عن الحيوانِ بهذا العقــلِ والإرادة وحرّية الاختيار.وإنَّ الّذينَ يُهملونَ استعمالَ عُقولهم وما آتاهم خالقهُم مــن حــواسٍّ ويقلّدونَ كلَّ شيءٍ تقليداً أعمى فإنَّ اللَّهَ قد أنذرهم بأنَّ مصيرَهم إلى جــهنَّمَ يقيناً.فهذا هو ما صرَّحَ بِهِ كتابُ اللَّهِ العزيز حينَ قال في الآية ١٧٩ من ســورة الأعراف.فقد قال (**ولقد ذَرأنا لِجهنَّمَ كثيراً من الجنِّ والإنسِ لَهُم قُلــوبٌ لا يفقهونَ بِها ولَهُم أعيُنٌ لا يُبصرونَ بِها ولَهُم آذانٌ لا يســمعونَ بِهــا أولئــكَ كالأنعامِ بل هم أضلُّ أولئك همُ الغافلون**).

إنَّ اللَّهُ تعالى سبقَ أن قالَ في سباقِ هذه الآيةِ الكريمة (**ساءَ مَثلاً القــومُ الّذينَ كذَبوا بآياتنا وأنفُسَهُم كانوا يظلِمون.من يهدِ اللَّهُ فهُوَ المُهتدي ومــن**

يُضلِلْ فأُلئكَ همُ الخاسرون).وإنَّهُ تعالى يكونُ قد وضَّحَ من خلالِ مضمـــونِ هاتينِ الآيتينِ الأمورَ التّالية:

أوّلاً–أنَّ الّذينَ يُكذّبونَ بآياتِ اللّهِ الّتي يأتي بها رُسُلُ اللّهِ تعالى يظلمونَ أنفُسهُم.

ثانياً–وأنَّ الهدايةَ بيدِ اللّهِ الخالقِ الّذي بيده أمرُ تحريكِ الأفئدة الّتي هي في صدورِ النّاس.فإن أهملَ هذا الإنسانُ استعمالَ عقلهُ وإرادتـــهُ وحرّيتـــهُ لِيتبيَّـــنَ مصداقيَّةَ ما آتاهُ اللّهُ تعالى من آياتٍ بواسطةِ رُسُلهِ فإنَّ اللّهَ تعالى لا يُحرّكُ فـؤادَ هذا الإنسان لِيهديهُ سواءَ السّبيل.

ثالثاً–وأنَّ جميعَ النّاس الّذين لا يهديهِم ربُّهُم يكونونَ في نهايةِ المطـــافِ من الخاسرين.

وقد راحَ اللّهُ جلَّ شأنهُ يوضِّحُ حقيقةَ هذا الخُسران الّذي تضمّنتهُ كلمـةُ (**الخاسرون**) فأتى بهذه الآيةِ ١٧٩ الّتي ذكرتُها منبِّهاً إلى أنَّ مصيرَ هذا القـــوم الّذي تكلّمَ عنهُ سيصيرُ إلى جهنَّم وساءت
مصيراً.فهذا ما أشارت إليهِ الّلام من قولهِ تعالى (**لِجهنَّم**) فهذه اللاّم هـــي لامُ العاقبةِ والصيرورة.ولا تُفيد في هذا المقام معنى التّعليل بسبَب أنّها لو أفادت معنى التّعليل لنتجَ عنها معنى الإجبار والإكراه وهو معنىً يتنافى وتعاليمِ القرآن المجيد.

ويصبحُ المعنى بأنَّ الّذينَ لا يستحقّونَ الهدايةَ ويُضلُّـــهمُ اللّـــهُ تعـــالى ويكونون من الخاسرين فإنَّ هؤلاءِ المخلوقينَ سيؤولُ مصيرهم إلى جهنَّم الّـــتي تتشكّلُ من تلكَ الآثارِ النّاريَّةِ التي تتركها أعمالُهم الشريرة.وهؤلاء الخاســرونَ يُشكّلونَ الغالبية من الجنِّ والإنس.فما هو المقصودُ من كلمتي (الجنّ والإنس)؟؟

وما دامَت كلمةُ (الجنِّ) قد استُعملت هنا في مقابلِ كلمةِ (الإنس) فـإنَّ سورةَ النّاس وهي آخرُ سورةٍ من سورِ القرآنِ الكريمِ قد حلّت هذه المُعضِلـــة. فقد نبَّهنا اللّهُ تعالى فيها وقالَ (**الّذي يوسوسُ في صدورِ النّاسِ.مـــن الجنَّـــةِ**

والنّاس) فالحرف (من) هنا تفسيريَّة وقد فسَّرت لنا بأنَّ النّاسَ مؤلَّفـــينَ مـــن فريقَين هما الجِنَّةِ والنّاس.أي أنَّ القرآن الكريمَ حينَ استعملَ كلمة (الجنّ) فقـــد استعملَها بمعنى الحكّام الّذينَ يُهيمنونَ على عوامِ النّاس.ومن بابِ أنَّ لفظَ الجـنّ مُشتقٌ من جنَّ الليلُ إذا هيمنَ وسيطرَ وخيَّم على الأرض.

وقد راحَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ يوضِّحُ العاملَ الحقيقيّ الّذي يعملُ وراء هـــذا المصير الجهنَّميّ الّذي سيؤولُ إليهِ هؤلاء الخاسرونَ فقال (**لَهُم قلوبٌ لا يفقهونَ بِها ولَهُم أعيُنٌ لا يُبصرونَ بِها ولَهُم آذانٌ لا يسمعونَ بِها**)فاللَّهُ تعالى يقولُ بـــأنَّ هؤلاءِ الّذي تؤدّي بهم مواقفهم وأعمالهم إلى هذا المصـــير الّـــذي لم يكونـــوا ينتظرونه وفي وقتٍ هم بشرٌ لهم قلوبٌ وأعيُنٌ وآذانٌ كبقيَّةِ البشـــر لكنَّـــهُم لا يستعملونَ هذه الحواس الّتي ميَّزهُم ربُّهُم بها عن الأنعـــام.فيتلـــهَّونَ بـــالأكلِ والشربِ واللَّهوِ وبعقلٍ تقليديٍّ وكأنَّهم قد خلقهم ربُّهُم مخلوقاً غريزيّاً.فنُلاحـظُ أنَّ اللَّهَ تعالى أضافَ يقول موضِّحاً حالَ هذا الفريقِ من النّاس في الفقرة الأخيرة وقال (**أولئكَ كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً**).فالكاف في قولهِ تعـــالى (**أولئـــكَ كالأنعام**) هي كافُ التّشبيهِ بمعنى أنَّهُ تعالى شبَّهَ حالَ هذا الفريقِ من النّاس بحالِ الأنعام.لكنَّ الأنعامَ خُلِقوا في الأصل غريزيّينَ لا حرّيةَ لهم على اســـتعمال مـــا سُلّحوا بهِ من حواس.لكنَّ هذا البشر الّذي أوتي ملكةَ العقلِ لِيُساعدَهُ عقلُهُ على استعمالِ حواسِّهِ استعمالاً يُمكّنهُ من التّفريقِ ما بينَ ما هو حقٌّ وما بينَ ما هـــو باطلٌ.فإنَّهُم إن لم يستعملوا حواسهم تلكَ الموهوبةِ لهم فقد عادت مرتبتُهم أحطّ من مرتبةِ الحيوان وقد أتى اللَّهُ جلَّ شأنهُ بعدَ ذلكَ بحرفِ الإضرابِ (بل) وقـــال (**بل هم أضلُّ سبيلاً**) أي أنَّ مرتبتهم عادت أحطّ من مرتبـــةِ غـــيرهم مـــن الكائنات الحيَّة.والملاحظُ هو أنَّ هذا الّذي تكلَّمت عنهُ هذه الآية الكريمةُ قـــد وردَ بصدَدِ استعمالِ الإنسان لعقلِهِ في الأمورِ الدّينيَّةِ خاصَّةً.

وهكذا فإنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ يُخاطِبُ في كتابهِ العزيزِ أصحابَ العقولِ من النّاسِ ولا يُخاطبُ الّذينَ شابهوا الأنعام.

وعليهِ فمن هم الّذينَ شابهوا الأنعام؟ أجابَ اللّهُ تعالى على هذا السؤال في الآية ١٧٠ من سورةِ البقرةِ وقال(**وإذا قيلَ لَم اتّبعوا ما أنزلَ اللّهُ قالوا بل نَتّبعُ ما ألفينا عليهِ آباءنا أولو كانَ آباؤهُم لا يعقِلونَ شيئاً ولا يهتدون**). وقد راحَ اللّهُ جلَّ شأنهُ يُصوِّرُ حالَ هؤلاء الكافرينَ الّذين لا يستعملونَ عُقولهم فصوَّرَهُم تصويراً فنّياً وشبَّههُم وقال في الآيةِ الّتي بعدها أي الآية ١٧١: (**ومثلُ الّذينَ كفروا كَمَثَلِ الّذي ينْعِقُ بما لا يسمعُ إلاّ دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقِلون**)

ومن الضروريِّ أن نتساءلَ حينَ قرأنا الفقرةَ الأخيرةَ من هذه الآيةِ الكريمة وهي قولهُ تعالى (**فهُم لا يعقلون**). أن نتساءلَ عن المقصودِ من إجراءِ هذا الحذفَ البلاغيِّ الحادث فيها.ذلكَ هو أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ قد حذفَ مفعول فعل (**يعقلون**)في هذه الفقرة الأخيرة.وفي رأيي هو أنَّ القصدَ من هذا الحذف هو لتوسيعِ دلالةِ فعل (**يعقلون**) وليشملَ ضرورةَ الأخذِ بالأصلِ السادسِ الّذي نتكلّم عنه. فمن هذا كلِّهِ نُدركُ تلكَ الأهمّيةَ الّتي أعطاها كتابُ اللّهِ العزيز لجوهرةِ العقلِ الّذي ميَّزَ اللّهُ تعالى بهِ هذا المخلوقَ الإنسانَ عن باقي الكائنات الحيَّة.ومُقرِّراً في الوقتِ نفسهِ أنَّ الإنسانَ الجاهلَ التّقليديَّ محرومٌ من حيثُ النّتيجة من بركات وعطاءات ما بشَّرَ اللّهُ تعالى به الإنسانَ العاقلَ في هذا القرآن المجيدِ فهو محرومٌ لكَونهِ أقربَ إلى الحيوانِ منهُ إلى الإنسان.

وإنَّ هذه الحقائقَ الّتي اطّلعنا عليها تُلقي درساً عظيماً على أتباعِ هذا القرآن الكريمِ وهو أنْ يبتعدوا عن العقليَّةِ التّقليديَّةِ وعن التّقليدِ الأعمى في كلِّ شيءٍ يُقدِمونَ عليهِ مهما تَطاولَ الزّمان.وأن يجعلَ المسلمُ همَّهُ أن يُناقِشَ كلَّ ما تَوارثَهُ عن آبائهِ وأجدادهِ فلا يقبلهُ إلاّ عن قناعةٍ وبحجَّةٍ وبرهانٍ قاطِعَين وإن

كانَ آباؤهُ من المُسلمين.والسببُ في ذلكَ أنَّ هناكَ مُتغيِّراتٌ دائمةُ الحـــــدوث ويطلُعُ على هذا الإنسان كلَّ يومٍ شيءٌ جديد. والمعلوم هو أنَّ هذا القرآن هـــو في حقيقتهِ من حيثُ المضمون بحرٌ زاخرٌ بالمعارفِ والعلومِ ويصلُحُ لكلِّ زمـــان ومكان.فإن لم يستعمِل المسلمُ عقلهُ عندَ مُواجهتهِ لأيِّ شيءٍ جديدٍ بمنهجيَّـــةٍ وبأسلوب علميٍّ وبأصول تفسيرٍ فإنَّ هذا المسلِمُ لا يعودُ يُحسبُ في نظرِ ربِّـــهِ إنساناً عاقِلاً بل يُعدُّهُ أقربُ إلى الحيوان منهُ إلى الإنسان.وتُسدُّ في وجههِ علـــومُ ومعارفُ هذا الكتابِ العزيز.ويصبحُ عالةً على الإسلامِ والمسلمين.

وبإمكاننا الآنَ تلخيصَ جميعَ ما أوردناهُ سابقاً فنقول: لقد تبيَّنَ لنا بـــأنَّ العقلَ هو الّذي يميِّزُ الإنسانَ عن الحيوان.وإلاّ فإنَّ الإنسانَ من الوجهةِ التّشـريحيَّةِ يُعتَبرُ حيوانٌ ناطقٌ.فهذا ما أفادَ بهِ القرآنُ المجيدُ ومن خلالِ قولِ اللَّهِ تعـــالى في سورةِ هود (**ولَو شاءَ ربُّكَ لَجعلَ النّاسَ أُمّةً واحدةً ولا يزالونَ مُختَلفـــين**). والمعنى أنَّهُ لولا أن منحَ اللَّهُ تعالى هذا الإنسانَ هذا العقلَ لَعادَ النّاسُ أمّةً واحـــدةً ويكونُ

مثلُهم حينئذٍ مثلُ الحيواناتِ الغريزيَّة كلُّ جنسِ حيوانٍ يشكِّلُ أمّـــــةً مســـتقلّةً واحدة.

كذلكَ تبيَّنَ لنا أنَّ ميِّزةَ العقلِ تفرِضُ على هذا الإنسان أن يبحثَ عـــن المقصدِ الحقيقيّ من وجوده في هذا العالمِ الدّنيويّ وأن يسعى لِتحقيقهِ فلا يكتفي بالأكلِ والشُربِ واللّهوِ واللّعِب.

كما تبيَّنَ لنا بأنَّ استعمالَنا لعقولنا عندَ تدبُّرِ آياتِ هذا القـــرآن المجيـــدِ بمنهجيَّةٍ وأصولٍ يشكِّلُ الأصلَ السادسَ من أصولِ تفسيرِ الآياتِ القرآنيَّـــة.وأنَّ من واجبِ المفسِّرِ إذا صافهُ مضمونُ آيةٍ كريمةٍ تُخالفُ عقلهُ أن يعتبرَ مُخالفـــةَ مضمونِها لِعقلهِ قرينةً تدفعهُ لِيأخُذ بالمعنى المجازيِّ أو أن يتفحَّصها جيِّداً وينظُـــر

لربّما غابَ عن ذهنهِ معنىً لم ينتبه إليه.فمن الضروري ألاّ نفهمَ مضامينَ الآيـاتِ بما يُخالفُ القوانينَ والنّواميسَ الطّبيعيَّة.

كذلكَ تبيَّنَ أنَّ المسلِمَ الّذي لا يستعملُ عقلهُ وحواسّهُ عندما يواجهـهُ شيءٌ جديدٌ عليهِ فإنَّ مصيرهُ إلى جهنّمَ ويُعدُّ في نظرِ ربِّـهِ حينئـذٍ أقـربَ إلى الحيوانِ منهُ إلى الإنسان.وإنَّ هذه الحقيقة توضِّحُ لنا أهمّيةَ العقلِ ومنزلتهُ في نظـرِ القرآن المجيد.

عقلانيَّةُ رواية قصَّةُ يوسف عليهِ السلام:

ولنُلاحظ كيفَ أنَّ اللّهَ تعالى أتى بسورة كاملةٍ يُخاطبُ بها عُقولَ أهـلِ الكتابِ من بعدِ تذكيره إيّاهم بقصَّةِ يونسَ وقصَّةِ هود عليهما السّلام.وذلـكَ ليلقي اللّهُ تعالى عليهم حجّتهُ ومن مُعطيات مُعتقداتهم على صِدقِ نبوَّة محمَّدٍ بـن عبد اللّهِ (ص).فإلى بيانِ هذه الحقيقةِ استهلَّ اللّهُ تعالى سورةَ يوسف بقولهِ **(الـر تلكَ آياتُ الكتابِ المبين.إنّا أنزلناهُ قُرآناً عربيّاً لعلَّكُم تَعقلون)**.

فالملاحظُ هو أنَّ اللّهَ تعالى حذفَ اسمَ القومِ المُخاطب بصورةٍ خاصَّةٍ في هذه السورة كما حذفَ مفعول فعل**(تعقلون)**والقصدُ من هذا الحذفِ البلاغـيِّ كانَ لِتصريفِ كلامِ اللّهِ تعالى إلى عدَّة جهات فليُخاطبَ أهلَ الكتابِ الّذيـنَ عاصروا نزولَ هذه السورة وليخاطبَ أهلَ الكتاب المعاصرين وليُخاطبَ بقيَّـةَ شعوبِ العالم فليكونوا شهداءَ على ما أنزلَ اللّهُ تعالى مـن حقـائقَ يُدرِكُـها أصحابُ العقولِ النّيِّرَة.

وإنَّ اللّهَ تعالى حينما استهلَّ هذه السورة بالأحرُف المقطّعة (الر) ووضعَ بعدها إشارةَ وقف. فللتّنبيهِ إلى أنّهُ يقدّمُ قصَّةَ يوسف من زاويةِ رؤيـةٍ مُعيَّنـة وليُوازنَ ما بينَ ما تعرَضَ إليهِ يوسفُ عليهِ السلام في حياتهِ من أحـداث ومـا تلقّى من إلهامات.وما شوَّههُ كاتبُ سفر التّكوينِ مـن هـذه الحقـائقِ مـن تشويهات. فإن كذّبَ أهلُ الكتاب بنبوَّة محمَّدٍ (ص) يكونون قد كذّبوا بنبـوَّةَ

يوسفَ عليه السلام أيضاً.فكلُّ ما عرضَ ليوسُفَ في حياتـــهِ أنَّـــهُ رآى رؤيـــا وتحقّقت وعلّمهُ ربُّهُ تأويلَ الأحاديث.فخضعَ لهُ أهلُهُ أخيراً ونالَ منصباً دنيويّـــاً. وإنَّ محمّدا (ص) رآى رؤياهُ المشهورة في صغرهِ وآمن بهِ قومهُ وأصبحَ حاكمـــاً على رأسِ دولةٍ إسلاميَّةٍ وأنزلَ اللّهُ تعالى عليهِ هذا الكتابَ العظيم.فإن صـــدَّقَ أهلُ الكتابِ بنبوَّةِ يوسفَ عليه السلام فإنَّ من واجبهم تصديقَ نبوَّةِ محمَّدٍ (ص) الذي تحقّقَ على يديهِ أكثرَ بكثيرٍ ممّا تحقّقَ على أيدي يوسف عليه السلام.

فالخطابُ في سورةِ يوسفَ موجَّهٌ إذن بصورةٍ خاصَّةٍ إلى أهلِ الكتـــاب لِيُحرِّكَ فيهم عُقولهم الّتي ميَّزهم بها خالقهم عن الدّوابّ.فهذا ما أشارَ تعالى بـــهِ حينَ قال (**لِقومٍ يعقلون**).فهل عقلَ هؤلاءِ هذه البيِّنـــة أم أنَّـــهم لم يســـتعملوا عقولهم وظلّوا يُقلّدونَ ما وجدوا عليهِ آباءهم ؟

ثمَّ إنَّ اللّهَ تعالى حينَ أضافَ وقال (**نحنُ نقُصُّ عليكَ أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآن وإن كُنتَ من قبلهِ لَمِنَ الغافلين**) فقد أشارَ بذلكَ إلى أنَّ أهلَ الكتاب لم يقصّوا قصَّةَ يوسفَ على حقيقتها وإنَّنا نقُصُّها عليكَ أيُّـــها الكتابيّ بأفضلَ ممّا قصّها عليكَ كاتبُ سفر التّكوين الّي دوّنَ ما وصلهُ بطريـــقِ الرّوايةِ من هذه القصَّة وبعدَ مُضيِّ ألف ومائتي عامٍ وعن رجال أُمّيّيـــن.فنحـــنُ نُصحّحُ لهم أخطاءهم بأدلَّةٍ عقليَّةٍ أيضاً. وسأحاولُ فيما يلي تقديمَ بعض تلـــكَ الملاحظات العقليَّة الّتي لفتَ القرآن الكريمُ نظرَ أهلِ الكتابِ أليها وقد أوردهـــا اللّهُ جلَّ شأنهُ مُصاغةً صياغةً بلاغيَّةً مُدهِشة:

أوّلا–فكاتبُ التّوراةِ المعاصرة ابتدأ قصَّةَ العداء المستفحِل ما بينَ يوســفَ عليهِ السلام وما بينَ إخوانهِ بقولهِ (أخْبَرَ يوسفُ أباهُم عنهُم خَبراً شنيعاً وكـــانَ إسرائيلُ يحبُّ يوسفَ على جميعِ بنيهِ لأنّهُ ابنُ شيخوختهِ فصنعَ لهُ قميصاً مُوشّـــى ورأى إخوتُهُ أنَّ أباهُ يحبُّهُ على جميعِ اخوتهِ فأبغضوهُ و لم يستطيعوا أن يكلّمـــوهُ بِمودَّةٍ.ورأى يوسفُ حلماً فأخبرَ بهِ اخوتهُ فازدادوا بُغضاً له.قالَ لهم اسمعوا هذا

الحُلم الّذي رأيتُه رأيتُ كأنّنا نحزمُ حُزَماً في الحقلِ فإذا حُزمتي وقفت ثمّ انتصبت فأحاطت حُزَمُكُم بحُزمتي وسجَدت لها.فقال لهُ اخوتُه أتُراكَ تملِكُ علينا أو تتسلَّطُ علينا؟وازدادوا أيضاً بُغضاً لهُ بسبَب أحلامهِ وأقوالِه.ورأى أيضاً حُلْماً آخر فقصَّهُ على اخوته وقال رأيتُ حُلماً أيضاً كأنَّ الشمسَ والقمرَ وأحدَ عشرَ كوكباً ساجدةٌ لي.ولّما قصَّهُ على أبيهِ واخوته وبَّخَهُ أبوهُ وقالَ لهُ:ما هذا الحلمُ الّذي رأيتَه؟أتُرانا نأتي أنا وأمُّكَ واخوتُكَ فنسجدُ لكَ إلى الأرض؟فحسدهُ اخوتُه.وأمّا أبوهُ فكانَ يحفظُ هذا الأمر)—سفر التّكوين ٣٧ —

وقد قصَّ القرآنُ المجيدُ علينا هذا الجزءَ من قصَّةِ يوسفَ عليه السلام بقولهِ تعالى(**إذ قالَ يوسفُ لأبيهِ يا أبتِ إنّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهُم لي ساجدين.قالَ يا بُنيَّ لا تقصُص رؤياكَ على إخوتِكَ فيكيدوا لكَ كيداً إنَّ الشيطانَ للإنسانِ عدُوٌّ مُبين**).

فالاختلافُ واضحُ المعالمِ بينَ هذينِ النّصين للمُدقّق المُتبصِّر.ويحتاجُ هذا إلى مناقشةِ ما وردَ فيهما محاكمةً عقليَّةً من دونِ تحيُّزٍ إلى الإسلامِ ولا إلى أهلِ الكتاب.فوالدُ يوسفَ كانَ نبيّاً وكانَ في الوقتِ نفسهِ هوالمرجعُ لأولاده فيما يرونهُ من أمورٍ روحيَّة.فالمعقولُ هو أن يقُصَّ يوسُفُ ما رآه في منامهِ على أبيهِ وليسَ على اخوتهِ كما رواهُ كاتب سفرِ التّكوين هذا من جهة.ومن جهةٍ أخرى فإنَّ من المعقول إذا ما اطّلعَ والدُ يوسفَ على ما قصَّهُ عليهِ يوسفَ من رؤيا أن يحدُثَ ما ذكرهُ القرآنُ المجيدُ وهو (**قالَ يا بُنيَّ لا تقصُص رؤياكَ على اخوتِكَ فيكيدوا لكَ كَيداً إنَّ الشيطانَ للإنسانِ عدُوٌّ مبين**).وليسَ من المعقولِ في شيءٍ أن يوبِّخَ نبيٌّ كمثلِ يعقوبَ ابنهُ يوسفَ الّذي رأى تلك الرّؤيا المباركة.ومن جهةٍ ثالثةٍ فلا يُعقلُ أن يميِّزَ نبيٌّ كمثلِ يعقوبَ ابنهُ يوسفَ على بقيَّةِ اخوتهِ ويُلبسهُ وكما أوردهُ الكاتبُ قميصاً مُوشّى وهو في السابعةِ عشرَةَ من عُمُرهِ وهو يقومُ

برعايةِ الأغنامِ أيضاً.ففي السنِّ المذكورِ والعملِ المُشار إليهِ لا يلبسُ أحدٌ قميصاً مُوشّى.

فهذه ملاحظاتٌ ثلاثةٌ تُرجّحُ وجهةَ نظرِ اللّهِ تعالى الّذي لا يغيبُ عن نظرهِ شيءٌ ويقصُّ علينا هذا الجانبَ من قصَّةِ يوسفَ.فأيُّهما أحسنُ قَصصاً:أهو ما أخبرَ بهِ كاتبُ سفرِ التّكوينِ من أمورٍ غيرِ معقولةٍ أم هذا القصصُ الّذي قصَّهُ علينا ربُّ العالمين؟؟

وما دامَ القصصُ القرآنيُّ هو المعقولُ والمرجَّحُ عقليّاً.أفلا يُستنتجُ من ذلكَ أنَّ أهلَ الكتابِ(**لا يعقلون**)ما طلعَ بهِ عليهم هذا القرآنُ الكريمُ من أحسنِ القَصَص؟وبالتّالي فإنَّ مصيرهُم سيكونُ إلى جهنَّمَ وعلى حسبِ ما قرَّرهُ هذا الكلامُ الرّبانيّ ؟

وعلى نفسِ نمطِ ما أجريتُهُ من محاكمةٍ عقليَّةٍ آنفةِ الذّكر اقتضاها هذا الأصلُ السادسُ من أصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن الكريم فإنَّ بإمكانِ القارئ أن يُقارنَ ما بينَ كلِّ جانبٍ من جوانبِ هذه القصَّةِ التي قصَّها علينا القرآن المجيدُ وما بينَ ما قصَّهُ علينا كاتبُ سفر التّكوين وبإمكاننا مُحاكمتهُ مُحاكمةً عقليَّةً وبنفسِ أسلوبِ هذه المحاكمةِ العقليَّةِ التي أجريناها ولِيَثبُتَ لنا مِصداقيَّة ما أعلنهُ القرآنُ الكريمُ من إعلانٍ وقال (**نحنُ نقُصُّ عليكَ أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآن وإنْ كنتَ من قبلهِ لَمنَ الغافلين**) فالخطابُ مُوجَّهٌ إلى كلِّ كِتابيٍّ ممّن هم في غفلةٍ عن حقائقِ قصَّةِ يوسفُ عليهِ السلام.

وإنَّ هذا الّذي حاكمتهُ من خلالِ ما أوردتهُ من دلالاتِ آيةِ الاستهلال وذكرتُهُ فقد قَصدتُ منهُ أن أوضِّحَ للقارئ أهمّيةَ المحاكماتِ العقليَّة لكلِّ ما يقصُّهُ القرآنُ المجيدُ علينا من قَصَصٍ ويوردهُ من أخبارٍ في كتابهِ العزيز.وليبيلن أنَّ الّذي يكتفي أن يأخُذَ من آياتِ تلكَ القصَصِ والأخبارِ بما يتبادرُ لِذهنهِ من دونِ أن يُحاكمهُ محاكمةً عقليَّةً وبالرّجوعِ إلى التّاريخِ فلا يكونُ ممّن يرضى اللّهُ تعالى

عنهم في السماء.ولا يستفيدونَ بالتّالي ممّا أنزلهُ اللَّهُ تعالى على رسولهِ الأمين (ص).

مثال النبيّ سليمان وبناءُ الهيكل:

وأقدّمُ للقارئ مثالاً من قصَّةِ بناءِ هيكل سليمان الّذي هدمهُ بختنصّر ملك بابل بعدما زحفَ بجيشهِ على فلسطين وقامَ بِسبي اليهود منها من كثرةِ ما أحدثوا فيها من فساد.

فلقد اختصرَ اللَّهُ جلَّ شأنهُ قصَّةَ بناء الهيكل المذكور في آيتين من آيات سورةِ سبأ ١١/١٢ وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزة حيثُ قالَ فيهما **(ولِسليمانَ الرّيحَ غُدوُّها شهرٌ ورَواحُها شهرٌ وأسلنا لهُ عينَ القِطرِ ومن الجنِّ مَن يعملُ بينَ يديهِ بإذنِ ربِّهِ ومن يَزِغ منهُم عن أمرِنا نُذِقهُ من عذابِ السّعير.يعملونَ لهُ ما يشاءُ من مَحاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجوابِ وقدورٍ راسياتٍ اعملوا آلَ داوودَ شُكراً وقليلٌ من عِبادي الشّكور)**.

فقصَّةُ بناء الهيكل هذه وردت مُصاغةً بما يوحي للإنسان بحدوثِ أمورٍ في زمنِ سليمان عليه السلام تُخالفُ المعقول.فمن وُجودِ **(جنّ)** إلى تسخيرِ ريحٍ وإلى إسالةِ **(عَينَ القِطر)**.وهذه الأمورُ لا تحدُثُ في زماننا هذا في أيَّةِ بُقعةٍ من عالمنا.فكيفَ بإمكاننا عقلنتها وإخضاعها لِما لنا من مُعطيات؟أمّا إذا لم نتمكّن من تحقيقِ ذلكَ فإنَّ من واجبنا حينذاكَ أن ننظُرَ إليها على أنّها لرُبّما تكونُ من بابِ المُعجزات الّتي لم تتمكّن عُقولنا من فهمها والإحاطةِ بمُعطَياتها.

ولنُحاولُ الاستناد إلى الأصلِ السادس للتّفسيرِ الّذي فرضَ علينا أن نتدبَّرَ مثلَ هذه الآيات الكريمة ونُحاولُ مُناقشتها بمحاكمات عقليَّةٍ وبمنهجيَّةٍ وأُصول وفهمها بما لا يُخالفُ القوانينَ المسنونةَ لِتسيير دقَّةِ هذا الكونِ الفسيح وهذه المنهجيَّة تقتضي منّي الرّجوعَ بادئَ الأمرِ إلى المخطوطات القديمةِ المتعلّقةِ ببناء هيكل سليمان خصوصاً وأنّنا سبقَ لنا أن قُلنا بأنَّ المخطوطات والآثار تشكّلُ

عاملاً يساعدُ العقلَ على تأديةِ وظيفتهِ بحقٍّ. تلكَ المخطوطات الّتي يقتنيها بنـــوا إسرائيلَ أنفُسُهم وهم الّذينَ اشتُهِروا بالمغالاةِ بكلِّ شيءٍ يُمتُّ إليهم فبالأحرى أن يُغالوا بما حدثَ زمنَ بناء هيكلِ سليمان.فهذا هو ما يقتضيهِ ما سلّموا بهِ مـــن مخطوطات تعودُ إليهم.لذلكَ نتساءل:بماذا تُفيدُنا تلكَ المخطوطات القديمة الّـــتي يقتنيها اليهودُ وتُعدُّ من التّراث اليهوديّ الّذي يُقدّسونهُ وأقصُدُ من ذلـــكَ مـــا يُسمّونهُ العهدَ القديم الّذي تلقّاهُ موسى عليهِ السلام؟؟

ولا نجدُ بينَ أيدينا في هذه الأيّامِ إلاّ هذا العهد القديم الّذي يُقدّسهُ أهـــلُ الكتاب جميعُهم.وهو المكتوبُ بعدَ وفاةِ موسى عليه السلام بعدّةِ قرون.فقد وردَ في سفر (أخبار الأيّام الثاني) الإصحاح الثاني منه تصريحٌ يتعلّقُ بموضوعِ بنـــاء هيكل سليمان الحكيم.

فقد أوردَ كاتبهُ (وأمرَ سليمان ببناءِ بيتٍ لاسمِ الرّبِّ وبيتٍ لِمُلكِـهِ) أي أنَّ سليمانَ كانَ قد أمرَ بالبدء بمشـــروعين في آنٍ واحـــدٍ وليـــسَ بمشـــروعٍ واحدٍ.مشروعُ بناء الهيكل ومشروعُ بنا قصرٍ لِمُلكهِ ويُتابعُ الكـــاتبُ فيقـــول (وأحصى سليمان سبعينَ ألفَ رجُلٍ يحملونَ الأثقالَ وثمانينَ ألفَ رجُلٍ يقلعـــونَ الحجارة في الجبل وثلاثة آلاف وستمائة رجلٍ يُشرفونَ عليهم) وهـــذا الأمـــرُ معقولٌ ويُشابهُ ما يحدُثُ في أيّامنا هذه عندَ محاولةِ تنفيذِ مشاريعَ عُمرانيَّة.

والّذي يهمُّنا الآن أن نبحثَ عنه هو عمّا يفسِّرُ كلمة (**الجنّ**) الواردة في هذه الآيةِ الكريمةِ (**ومن الجنِّ مَن يَعملُ بينَ يَدَيهِ بإذنِ ربِّهِ ومن يَزِغْ منهُم عـــن أمرنا نُذقهُ من عذابِ السعير**) فأينَ مَوقِعُ هؤلاءِ (**الجنّ**) من بناءِ هيكل سـليمان المذكور في أخبار الأيّام الثاني من العهدِ القديم؟

ونتابع ما وردَ فيه قال (وأرسلَ سليمان إلى حورام ملِكِ صور قائلاً:كما فَعلتَ معَ داودَ أبي وأرسلتَ لهُ أرزاً لِيبني لهُ بيتاً لِيسكُنَ فيه، تَفعلُ معي، فـــإنّي أبني بيتاً لاسمِ الرّبِّ إلهي لأقدِّسَهُ لهُ وأحرقُ أمامهُ بَخوراً عَطِراً ولتنضيدِ الخُـــبزِ

على الدّوام وللمحرقات صباحَ مساء في السّبوت وفي رؤوسِ الشهور وفي أعياد الرّب إلهنا ممّا على إسرائيلَ للأبد. والبيتُ الّذي أنا أبنيهِ بيتٌ عظيمٌ لأنَّ إلهنـــا عظيمٌ فوقَ جميعِ الآلهة فمنِ الّذي يستطيعُ أن يبنيَ لهُ بيتاً والسّماواتُ وسمــاواتُ السّماوات لا تَسعُه؟ومن أنا لأبنيَ لهُ بيتاً إلاّ لأحرقَ أمامهُ البخّور؟)

فمن خلالِ هذا النّصّ نستنتجُ بأنَّ مدينةَ(صور)هي مدينةٌ قديمةٌ وعريقــةٌ وكان يحكمُها ملكٌ يُدعى (حورام).وأنَّ تلكَ المملكة كانت مُزدهرةً جدّاً ومــا كان لمملكةُ داودَ وسليمان في مُقابلها شأنٌ يُذكرُ من الوجهةِ الصناعيَّةِ والفنّيــة خاصَّة وباعترافِ كاتب هذا النّصّ.

ونتابعُ ما طلبهُ سليمان من ملك صور قال(فالآنَ أرسِل إليَّ رَجُلاً مــاهراً في عَمَلِ الذّهبِ والفضَّة والنُّحاس والحديــد والأرجــوان والقِرمِــز والبرفــير البنفسجي،عالماً في النَّقشِ ،مع الصُّنّاع الّذينَ عندي في يـــهوذا وفي أورشــليم والّذينَ أعدَّهُم داودُ أبي.وأرسِل إليَّ أخشابَ أرزٍ وسَروٍ وصندلٍ من لُبنان ،لأنّي أعلمُ أنَّ خُدّامكَ عالمونَ في قَطعِ الخشبِ من لُبنــان.وهــؤلاءِ خُدّامــي مــعَ خُدّامِك.فليُعدّوا لي أخشاباً بكثرة لأنَّ البيتَ الّذي أبنيهِ عظيمٌ عجيب.)

ويُستنتجُ من هذا النّصِّ أنَّ مملكةَ سليمان كانت تخلو مـــن الصّنــاعيّين المؤهّلينَ لِصُنعِ الأشياء من الذّهب والفضَّة والنّحاس والحديد والأرجوان وغــيره من الأصبغة وفي الوقتِ نفسهِ كانت مملكةُ صور تعُجُّ بالصّنـــاعيّينَ المُدرَّبــين والفنّيّين.وأنَّ عهدَ الملك داود كانَ بلدهُ يخلو من هؤلاءِ أيضــاً ولم يُفِــد إلاّ في تقديمِ الأيدي العاملة الفنّيَّة وحسب.وهذه الاستنتاجات يثبُتُ منها أنَّ اليـــهود يُبالغون ويُغالونَ كثيراً فيما يصفونَ بهِ عهدي داودَ وسليمان.فمملكتُهما كانت جدُّ بدائيَّة نسبةً إلى ما كانَ يُجاورُها من ممالكَ عربيَّة تُحيطُ بها من كلِّ جانب.

فماذا كانَ سليمان سيقدِّم ثمناً لكلِّ ما طلبهُ من ملك صـــور؟ نُتــابع فالكاتبُ كتبَ يقولُ على لِسانِ سليمان الحكيم(وأنا أُعطي الحطّــابينَ الّذيــنَ

يقطعونَ الخشبَ عِشرينَ ألف كُرٍّ من الحِنطة طعاماً لِخُدّامِك وعشرينَ ألف كـرٍّ من الشعير وعشرين ألف بثٍّ من الخمرِ وعشرينَ ألفَ بثٍّ من الزّيت) ويُستنتجُ من هذا النّص أنَّ سليمان تكفَّلَ بإطعامِ كلِّ عُمّال ملك صور الّذينَ سيسخِّرهم لِقطعِ أخشاب من أخشاب جبال لُبنان المشهورة وباديءَ ذي بدء.

فبماذا أجابَ ملك صور على الرّسالةِ التي بعثَ بها سليمان عليه السـلام إليه؟ نُتابع فهو قال (فأجابَ حورام ملك صور برسالةٍ إلى سليمان يقـــول:إنَّ الرّبَّ من حُبِّهِ لِشعبِهِ أقامكَ عليهِ مَلِكاً. وأضافَ حوراميقول :تباركَ الرّبُّ إلـــهُ إسرائيل صانعُ السّماوات والأرض الّذي أعطى داود الملك ابناً حكيماً صـاحبَ فَهمٍ وبصيرةٍ لِيبني بيتاً لِمُلكِهِ) وهذه الكلماتُ كلماتُ مُجاملات دبلوماسيَّةٍ .

ولنتابع ما ردَّ بهِ ملك صور على كتابِ سليمان قال(والآنَ فقد أرسلتُ رَجُلاً ماهراً صاحبَ فَهمٍ اسمهُ (حورام أبي)وهو ابنُ امرأةٍ من بناتِ دان وأبـــوهُ رجلٌ من صور عالمٌ في عملِ الذّهبِ والفضّةِ والنُّحـــاس والحديـــد والحجـــرِ والخشب والأرجوان والبرفير البنفسجيّ والكتّان النّاعم والقرمز وصناعةِ كـــلِّ نقش ،ومُخترِعٌ كلَّ مشروعٍ يُعرضُ عليهِ ،مع صُنّاعِكَ وصُنّاعِ ســـيّدي داود أبيك.والآنَ فليُرسِل سيّدي إلى خُدّامِهِ الحِنطةَ والشعيرَ والزّيتَ والخمرَ ممّا تكلّـمَ به.ونحنُ نقطعُ الخشبَ من لُبنان بحسَبِ كلِّ حاجتِكَ ونُرســـلهُ إليـــكَ علـــى أطوافٍ في بحرِ يافا.وأنتَ تُصعِدهُ إلى أورشليم)

ونستنتِجُ من هذا النّص أنَّ ملك صور كانَ قـــد أرســـلَ إلى ســـليمان مُهندساً فنّياً مُختصّاً بصُنعِ جميعِ الصّناعات الواردُ ذكرها في رِسالتِهِ ومُشـــترِطاً إرسال ما تعهَّدَ بهِ سليمان إرسالهُ من موادَّ استهلاكيَّة لإطعامِ عمّـــال قطـــع الأخشاب.وأنّهُ أي ملك صور يتعهَّدُ بإرسال الأخشاب على طوّافات في البحـرِ إلى الشاطئ القريبِ من القُدس الّتي يُسمّيها الكـــاتب (أورشـــليم).وأنَّ علـــى سليمان أن يبعثَ بمَن يستلِمُ الأخشابَ ويُصعدُها إلى أورشليم.

تتابع (فبدأ في البناء في الشهر الثاني في السنة الرّابعة لِمُلكــــه.وكـــانت الأسس الّتي وضعها سليمان لبناء بيت اللّه ستّينَ ذراعاً طولاً بــــالذّراع علــى القياس القديم وعشرينَ ذراعاً عَرضاً.والرّواقُ من أمام عشرينَ ذراعاً طولاً علــى مُحاذاة عرض البيت.ومائة وعشرين عُلُوّاً.ولبّسهُ من داخلٍ بذهــــب خــالص والبيتُ العظيمُ لبّسهُ خشبَ سَرو ثمّ لبّسهُ ذهباً حسناً وجعلَ عليهِ نخيلاً وسلاسلَ ورصّعَ البيتَ بحجارة كريمةٍ للزّينة.وكان الذّهب من ذهبِ فروائيم ولبّسَ البيـتَ ذهباً عوارضهُ وأعتابُهُ وجُدرانُهُ ومصاريعُه.ونقشَ كروبينَ على الجُدران.وصنــعَ بيتَ قُدسِ الأقداس على مُحاذاةِ عرضِ البيت فكانَ عشــــرينَ ذراعـــاً طـــولاً وعشرينَ ذراعاً عرضاً).

ففي رأيي أنّ في ذكرِ هذه الأشياء مُغالاةٌ.ذلكَ أنّ الّذي أمرَ بهذه الأشياء كانَ نبيّاً.والأنبياء يهتمّونَ بحياةِ البساطةِ وليسَ بهذه الزّخرفات الّتي هي من قبيلِ التّبذير.

وسأكتفي الآن بنقلِ ما يهمُّنا من نصوصٍ تتعلّقُ بما تضمّنتهُ آياتُ القرآن العظيم. قال (وصنعَ ..أشباهَ ثيرانٍ تُحيطُ بهِ ...**ثمّ صنعَ عشرةَ أحواض** فجعــلَ خمسةً منها عنِ اليمين وخمسةً عنِ اليسار.. **وصنعَ (حورام) القُدور والمجــارفَ والكؤوس** ...وصنعَ القواعِدَ والأحواضَ التي على القواعد والبحـــرَ الوحيــد والثّيران الإثني عشر التي تحته والقُدور والمجارف والمناشل وصنعَ (حـــــورام أبي) جميعَ أدواتها للملك سليمان لأجلِ بيتِ الرّبّ من نُحاسٍ مصقول.**سبكها الملِكُ في بُقعةِ الأردُنّ في أرضٍ خزفيّةٍ بينَ سُكّوت وصريدة..**.ولمّا أُكمِلَ كُلُّ العمَــلِ الّذي صنعهُ سليمان لأجلِ بيتِ الرّب أدخلَ سليمان أقداس داود أبيهِ من الفضّة والذّهب والأدوات وجعلها في خزائنِ بيتِ اللّه).

فإن دقّقَ الباحثُ في الآيتينِ اللّتينِ وصفَ اللّهُ تعالى من خلالهما حقيقـــةَ بناءِ هيكل سليمان وأمعنَ نظرهُ فيما قامَ بهِ **(الجنُّ)وهم الّذين ذكرهم القـــرآنُ**

الكريمُ من إنجازات في الهيكلِ المذكور. يتبيَّنُ لهُ أنَّهم وحسبَ الفقرةِ الأولى من الآيةِ الثانية (**يعملونَ لهُ ما يشاءُ من مَحاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجواب وقدورٍ راسيات**).أنَّ (**الجنَّ**) الذينَ ذكرهم هذه الآياتُ القرآنيَّة هم عُمّالٌ فنّيونَ مُختصّونَ طلبهم سليمانُ عليه السلام من مدينةِ صور وعلى حسبِ ما وردَ في النّصّ المذكور

ثمَّ إنَّهُ إذا دقَّقَ الباحثُ فيما نقلتُهُ لهُ من سفر أخبار الأيّام الثاني يتبيَّنُ لهُ أنَّ المهندس الفنّي الّذي بعثهُ ملك (صور) إلى سليمان والمسمّى (**حورام أبي**) هو الّذي أشرفَ على إنجاز **المحاريب والتماثيل والجفان الّتي هي كالجوابّ وقد سُمِّيت في النّصّ القدور الضخمة والقدور الرّاسيات أي الثابتات في أمكنتها والّتي كانوا يملؤونها بالمياه لِيغتسلوا بمياهها حينَ يشاؤون**.فلو كانَ الّذي قامَ بتلكَ الإنجازات مخلوقٌ كانَ في خدمةِ سليمان والّذي سُمّيَ في الآيةِ القرآنيَّةِ (**الجنّ**) لكانَ اليهودُ قد تفاخروا بذلكَ على مرِّ الأيّام ومن بابِ كونهم يُغالونَ في كلِّ شيءٍ يعودُ إلى تاريخهم الغابر.

ويبقى السؤالُ قائماً: فلمَ سمّى القرآن الكريمُ أولئكَ الفنّيينَ الغرباء عن فلسطين (**الجنّ**)فهل أنَّ هذه الكلمة تصلُحُ لإطلاقها على الفنّيينَ المذكورينَ في النّص الذي أوردناه من العهدِ القديم؟؟

أقول: إنَّ البحثَ اللُّغويّ الّذي أجريتُهُ في مؤلَّفي (**الجنّ حقيقةٌ أم خيال**) قد أثبتُّ من خلالِهِ أنَّ كلمةَ (**الجنّ**) مُشتقّةٌ من جنَّ ومن جُنَّ. ففي حالةِ اشتقاقها من (**جَنَّ**) تعني الهيمنةَ والسيطرةَ والتَّغطية (محيط المحيط).لذلكَ فإنَّ الملوكَ والأمراء والرّؤساء والكُهّان يصلُحُ أن نُطلِقَ عليهم كلمةَ (**الجنّ**). وفي حالةِ اشتقاقِ الكلمةِ من (**جُنَّ**) بمعنى اختفى واستَتَرَ يصلُحُ أن تُطلقَ كلمة (**الجنّ**) على الأجانبِ من النّاس القاطنينَ وراءَ حدود الدّولة وعلى سُكّان الكهوف وعلى الجراثيم الّتي لا تُرى بهذه الأعيُن المجرَّدة وعلى الأشخاص الجُنلة

الهاربينَ من وجهِ العدالة. فإن نحنُ تذكَّرنا هنا بأنَّ المهندِس الفنّي (**حــورام أبي**) هو من الأجانب عن مملكة سليمان الحكيم لكونهِ من مملكةِ (**صور**) فقد جازَ أن يستعمِلَ لهُ القرآنُ المجيدُ كلمةَ (**الجنّ**) وحسبما توصّلنا إليهِ مـــن خـــلالِ ذاكَ البحثِ اللُّغويّ.

وعلى هذه الصورةِ ومن خلالِ هذا التّحقيق وتلكَ المحاكمات اللُّغويَّـــة نكونُ قد أجبنا على السؤالِ المطروحِ الآنف الذّكر.وتبيّنّا كذلكَ أنَّ هذا الكلام القرآنيَّ وإن تبادرَ للذّهنِ منهُ شيئاً غيرَ معقول. ففي حقيقةِ الأمرِ فإنَّهُ لم يتضمَّـن شيئاً غيرَ معقول.ولقد توصّلنا إلى هذه النّتيجةِ المذكورةِ من جرّاءِ تدبُّرنا الآيـات بمنهجيَّةِ القرآن وأصولِ تفسيره ومن أبرزِ هذه الأصول هذا الأصـــلُ الســـادسُ الّذي يُطالبُ المفسِّرَ حينَ يتدبَّرُ الآيات أن يُراعي ما يفرضُهُ عقلُهُ عليهِ كـــي لا يُفسِّرَ مضموناً بما يُخالفُ العقلَ والسُّنَنَ والقوانين الإلهيَّةَ الّتي سنَّها البارئُ لِتنظيمِ أُمورِ هذا الكونَ الفسيحِ وعلى هذا النَّحو ينبغي إكمالَ تفسيرِ الآياتِ القرآنيَّة.

القرآنُ أكّدَ على استعمالِ العقل:

ثمَّ إنَّ اللّهَ تعالى أعطى العقلَ في كتابهِ العزيزِ وعلى الصّعيدِ السّـــلوكيِّ أهميَّةً بالغةً.وقد شدَّدَ على المسلمينَ ضرورةَ استعمالهم لِعقولهم علـــى الصَّعيـــدِ المذكورِ.وهذه الحقيقةُ نُلاحظُها من خلالِ الأوامرِ الإلهيَّةِ الموجَّهةِ إليهم في سورةِ الأنفال على سبيلِ المثال.

فاللّهُ جلَّ شأنهُ قد خاطبَ المؤمنينَ وذلكَ في الآيةِ العشرين من ســـورةِ الأنفالِ وقال (**يا أيُّها الّذينَ آمنوا أطيعوا اللّهَ ورسولهُ ولا تولَّوا عنهُ وأنتُـــم تسمعون.ولا تكونوا كالّذينَ قالوا سَمِعنا وهم لا يسمعون.إنَّ شرَّ الـــدّواب عندَ اللّهِ الصُّمُّ البُكمُ الّذينَ لا يعقلون.ولو علِمَ اللّهُ فيهم خيراً لأسمَعهُم ولـــو أسمَعهُم لَتولَّوا وهم مُعرضون.**).

ففي الآيةِ الأولى أمر تعالى المؤمنَ أن يعتادَ الإصغاءَ إلى الّذي يُخاطِبهُ وأن يُحاولَ استيعابَ كلِّ ما سمعهُ بشكلٍ جيِّدٍ فإن لم يتمكّن من ذلكَ أن يستفسرَ عمّا لم يفهمهُ ولم يُحِط بهِ علماً.فإن هو التزمَ بهذه العادة فإنَّ من واجبهِ أن يُنفِّذَ ما طَلبهُ منهُ الّذي أمرهُ بذاكَ الأمر.وعلى هذا النَّحوِ ينبغي على المؤمنِ أن يفهمَ معنى (**أطيعوا اللّهَ ورسوله**).

وفي الآيةِ الثانيةِ فقد نبَّهَ اللّهُ أذهانَ هؤلاءِ المؤمنينَ إلى أنَّ عدمَ التزام أفراد الأممِ السابقةِ بهذه الموعظةِ تسبَّبَ في انحطاطهم وتخلّفهم وهلاكهم في نهايةِ المطاف.فقد كانوا يتبرَّكونَ بأقوالِ أنبيائهم، أمَّا على الصَّعيدِ العمليِّ فكانوا يفعلونَ غيرَ ما كانوا يؤمرونَ به.

وفي الآيةِ الثالثةِ شبَّهَ اللّهُ الّذينَ لا يتقيَّدونَ بهذه الموعظةِ شبَّههُم بالدّوابِ الّذينَ يدُبّونَ على الأرضِ وعلى أنّهُم كائناتٌ حيَّةٌ تتحرَّك غريزيّاً لِتبحثَ عن طعامها وعن شرابها ولِتلهو ليسَ إلاّ وإن كانت تحرُكاتها لا تنطلقُ من مُحاكمات عقليَّةٍ.فالمؤمنون الّذينَ يتصرَّفونَ بمثلِ هذا التّصرّف هم شرُّ الدّواب.لماذا ؟ لأنَّ الّذي يكونُ هذا مسلكُهُ هو كالدّواب الصّمّ البكم الّذينَ لا يعقلونَ ما يفعلونهُ وهم في حقيقةِ أمرهم شرُّ الدّوابِ الّذينَ يدُبُّون على الأرض.

وأمّا في الآيةِ الرّابعة فقد نبَّهَ اللّهُ تعالى أذهانَ المؤمنينَ إلى أنَّ الهدايةَ بيدِ اللّهِ يهدي مَن يشاءُ ويُضلُّ مَن يشاءُ وأنَّ الّذينَ كانَ حالُهم حسبما أتى تعالى على ذكرهِ فلم يهدِهم ربُّهُم لأنَّهُم ما كانوا أهلاً للهداية.وأنَّ اللّهَ تعالى لو أقدمَ على هدايتهم لكانوا (**لَتولّوا وهم مُعرضون**).

فمن خلالِ هذه الآياتِ الأربع سالفة الذّكر يكونُ اللّهُ عزَّ وجلَّ قد حثَّ المؤمنينَ على استعمالِ عقولهم وعلى مُحاكمةِ كلِّ شيءٍ بمحاكماة عقليَّةٍ قبلَ الإقدامِ على أيِّ شيءٍ يريدونَ الإقدامَ عليه. وخاصَّةً منهم أولئكَ الّذينَ يريدونَ التّصدّي لِتفسيرِ آياتِ كتابِ اللّهِ العزيز.فإن صادفهم مضمونُ آيةٍ مُخالفٍ

لِلمعقولِ فلا ينبغي أن يأخذوا بالمعنى المُتبادرِ منهُ لأذهانِهم بل إنَّ من واجبهم أن يتدبَّروا الآيةَ بمنهجيَّةِ القرآن وأصولِ تفسيره لِيتمكّنوا من فهمِ هذا النّصِّ على حقيقته.

هذا والملاحظُ أيضاً هو أنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ راحَ يذُمُّ الّذينَ كفروا في الآيتين ١٧١/١٧٠ من سورة البقرة ولقد راحَ يوضِّحُ سببَ هذه المذمَّةِ وقال(**وإذا قيلَ لَهُم اتّبعوا ما أنزلَ اللّهُ قالوا بل نتّبع ما ألفَينا عليهِ آباءنا أوَلَو كانَ آباؤهُم لا يعقِلونَ شيئاً ولا يَهتدون.ومثَلُ الّذينَ كفروا كمَثَلِ الّذي يَنعِقُ بما لا يَسمعُ إلاّ دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهُم لا يعقلون.**).

فسببُ مذمَّةِ اللّهِ تعالى لهؤلاءِ الّذينَ كفروا هو إعراضُهم عن استعمالِ عقولهم الّتي ميَّزهم اللّهُ تعالى بها عن الأنعام ورَفْضهم ما عُرِضَ عليهم من أفكارٍ جديدة كشفت الغطاءَ عن فَساد ما توارثوهُ من عقائد عن آبائهم وأجدادهم.أي أنَّ هؤلاءِ الكفّار صمّوا آذانَهُم عن سماعِ ذلكَ وأطبقوا عن مجادلةِ الّذينَ آمنوا وبحيثُ ما عادوا يُناقشونَ ما يسمعونهُ من رأيٍ أو فكرٍ جديد.وبحيثُ عادوا لا يُلاحظونَ كلَّ ما يجري حَولهُم من أحداث.وعادوا نتيجةً لذلكَ (**صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ**).والملاحظُ هو أنَّ اللّهَ تعالى أتى بعد ذلكَ بفاءِ الاستئناف وقال (**فهُم لا يعقلون**). أي عادوا نتيجةً لذلكَ لا يعقلونَ ما يسمعونهُ من الجانبِ المقابل.وقد صوَّرَ اللّهُ جلَّ شأنهُ حالهُم المأساويَّةَ الّتي صاروا إليها بتصويرٍ فنّيٍّ يتناسبُ معَ موضوعِ مَذمّتِهِ إيّاهم وقال (**كمثلِ الّذي ينعِقُ بما لا يسمعُ إلاّ دُعاءً**). فشبَّهَ حالهُم كالغُرابِ الّذي ينعِقُ بما لا يسمعُ إلاّ نداء.

فبهذا الأسلوبِ الّذي استعرضَ اللّه تعالى من خلالهِ أحوالَ جماعاتِ الكُفّار وعرضِهِ لِمواقفِهم يكونُ قد وضَّحَ للمسلِمِ ضرورةَ التزام جانبِ الحوارِ بشأنِ كلِّ جديدٍ يُعرضُ عليهِ وأن يُحاكمُ ما يسمعهُ مُحاكمةً عقليَّةً جادّةً ووفقَ

منهجيَّةٍ وأصولٍ مُسلَّمٍ بها فلا يرفضُ أيَّ جديدٍ لِمُجرَّدِ تقليدِ من قبلـــهُ تقليـــداً أعمى.

وعلى هذه الصورةِ يكونُ القرآنُ الكريمُ قد أعطى عقلَ الإنسان مترلتَـــهُ على صعيدِ سماعِهِ واستيعابِهِ الأمور المعروضةِ عليه. وعلى صعيدِ تقبُّلِ كلِّ جديـــدٍ يُعرضُ عليه. وعلى صعيدِ الحوارِ أيضاً. فمن واجبِ هذا الإنســـان أن يُحـــاكم الأمورَ بفكرٍ مُستنيرٍ وخالصٍ من كلِّ شائبةٍ. لِيستحقَّ أن يُسمّى إنساناً عاقلاً. فإن هو لم يلتزم بهذه القيود يتدنّى عن مترلةِ الإنسان العاقلِ إلى مترلةٍ أدنى منها وقـــد تصلُ أحياناً إلى مترلةِ الأنعامِ بل وإلى مترلةٍ أحطَّ منها وحسبما قرَّرهُ كتابُ اللّـــهِ العزيز.

وهنا كانَ لابُدَّ من إلقاءِ الضّوء على ما سمَّيناهُ بالعمليَّةِ العقليَّـــة. فـــهي عمليّاتُ إعمالٍ لِفكرِ هذا الإنسان. فما هي دلالةُ كلمتَي **الفكرِ والتَّفكُّر**؟؟

وردَ في معجم (محيط المحيط) إذا قُلتَ فكَّرَ فُلانٌ في شيءٍ وتفكَّـــرَ فيـــه معناهُ أنَّهُ أعملَ نظرهُ في هذا الشيءِ وتأمَّلهُ ومحاولاً أن يَعقِلَ حقيقتَه. فالفكرُ هـــو تردُّدُ القلب يطلَب المعاني عن طريقِ القيام بتدقيق هذا الشـــيء والنّظـــر فيـــهِ وتدبُّره. كما أنَّ الفكرَ يعني تَرتيبَ أمورٍ مُعيَّنةٍ تُؤدّي إلى مَعرفةِ مَجهولٍ يدخُـــلُ في بابِ العلمِ بهذا الشيء.

وورد في الكُلّيات: الفكرُ حركةُ النّفسِ نحو المبادئِ والرّجوعِ عنـــها إلى المطالب. أمّا عمليَّةُ التّدقيق والنّظر فهي مُلاحظَةُ المعلومات الحادثة ضمنَ تلـــكَ الحركة. ويُجمعُ الفكرُ على أفكار فإن قُلتَ
فُلانٌ فِكّير فتعني أنَّهُ كثيرُ التَّفكُّر (محيط المحيط).

وعليهِ فلا يُسمّى إنسانٌ إنساناً عاقلاً إلاّ إذا أعملَ فِكرهُ في كلِّ شـــيءٍ يُصادفهُ أو يُعرضُ عليهِ ويخرجُ منهُ بمعلومةٍ مُحدَّدة بمنهجيَّةٍ وأصول. وهـــذا مـــا طالبَ القرآنُ بهِ هذا المفسِّر الّذي يتصدّى لِتفسيرِ آياتِ هذا القرآن المجيد.

وعلى سبيلِ المِثال فإنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ حينَ قالَ في الآية ٢١ من سورة الرّوم (**ومن آياتهِ أن خلقَ لكُم من أنفُسكم أزواجاً لِتسكنوا إليها وجعلَ بينكُم مودّةً ورحمةً إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكّرون.**) فاللَّهُ تعالى يُحرِّكُ عُقولنا من خلالِ مضمونِ هذه الآيةِ الكريمةِ وذلكَ من خلال قيامنا بعمليَّةِ تأمُّلٍ لهذه الظاهرة الاجتماعيَّةِ الّتي تتألَّفُ من رجلٍ وامرأةٍ تزوَّجا فتولَّدت من بعدِ زواجهما أُلفَةٌ بينهما تمثَّلتْ في (**مودّة** ورحمة) متبادلة بينهما حالَ أنَّ الرَّجُلَ والمرأة قد خُلِقا من نفسٍ واحدةٍ والفرقُ بينهُما ينحصِرُ فقط في هذا التّركيبِ الفيزيولوجيّ العضوي المعروف.فالمقصودُ من قولهِ تعالى (**خلقَ لكُم من أنفُسكم**) هو أنَّ التّكوينِ النّفسيّ للرّجلِ والمرأةِ واحدٌ من حيثُ قواهما ومن حيثَ عقلِهما ومن حيثُ الحواس الّتي سُلِّحَ بها جسديهما. وإنَّ اللَّهَ جلَّ شأنهُ عندما قال (**لِتسكنوا إليها**) فقد أتى بلامِ التَّعليلِ لِيُعلِّلَ عمليَّةَ الخلقِ هذه الّتي لولاها لاستحالَ حدوثُ وتولُّدُ هذه المودَّةِ والرّحمة بين الرّجُلِ والمرأة.ولنستطيعَ إدراكَ ثمار هذه الفروقُ العضويَّة الجسديَّة الّتي تقومُ بتلكَ الإفرازاتِ الّتي تؤدّي إلى هذه النّتائج المذكورة.

أي أنَّ اللَّهَ تعالى يُحرِّكُ فينا قوّتنا المفكّرة الّتي تُساعدُ صاحبها على أن يعقِلَ حقيقةَ الظاهرةَ المذكورة.فهذا هو السبَبُ في أنَّهُ تعالى أنهى هذه الآية الكريمة وقال(**إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكّرون**

وحاذفاً مفعولَ فعلِ **يتفكَّرون** لِيُصرِّفَ هذا الفعل إلى عدَّة جهات:فليتفكَّروا في العمليَّة ذاتها ليتفكّروا في عمليَّةِ صُنعِ هذا الجسدِ التّرابيِّ الواحد من حيثُ مادَّة صُنعِهِ وليتفكّروا في هذا الاختلاف البسيط في نواحي مُعيَّنةٍ عضويَّة ما بين هذين الجسدين وليتفكّروا في هذه النّتائجِ النّاجمةِ عن جميع ما ذُكِر. فهذا هو ما أفادهُ الحذفُ البلاغيُّ الواقع في هذه الفقرة الأخيرة من الآيةِ الكريمةِ التي أوردناها.

واستناداً إلى هذه المُعطَيات الّتي أفادتنا بها هذه الآيةُ الكريمةُ نُدركَ الأهميّة الّتي أعطاها القرآنُ المجيدُ لعقلِ هذا الإنسان وفكره وفي نظرِ ربِّهِ عزَّ وجلّ.فعمليّاتُ الفكر العقليَّة هي وسيلةُ استخلاصِ حقائقِ الأشياء.وإنَّ الإنسانَ الّذي لا يعتاد على عمليَّةِ التّفكُّرِ العقليَّة هذه تنسلخُ عنهُ صفةُ الإنسانيَّة ويتنزَّلُ إلى المَرتبةِ الحيوانيَّة الّتي تبدو مُختلفُ أنواعِها غريزيَّةً لا فِكرَ لها ولا عقلَ يُوجِّهُها.

فلماذا يدفعُنا اللّهُ تعالى هذا الدّفعَ الموضوعيّ ؟ يدفعُنا لِنعتادَ إجراءَ عمليّات التّفكُّر العقليّة المُشارُ إليها لِنتدبَّرَ آياتِ كتابهِ العزيز فلا نتناولها بما يتبادرُ منها لأذهاننا وكيلا نضِلَّ نتيجةً لِذلكَ عن المعنى المقصود.الأمرُ الّذي يؤكّدُ مِصداقيَّةَ هذا الأصل السادس من أُصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القرآن الّذي أنزله ربُّنا لِهدايتنا والّذي لم يُنزلهُ لِمجرَّد تلاوتهِ والتّبرُّك بهِ وحسب.

وليُلاحظ القارئ بأنَّ اللّهَ تعالى كانَ قد قال قبلَ هذه الآيةِ سالفةِ الذّكر(**يُخرِجُ الحيَّ من الميِّتِ ويُخرجُ الميِّتَ منَ الحيّ ويُحيي الأرضَ بعدَ موتِها وكذلكَ تُخرجون**).وإنَّ قولهُ تعالى هذا قد تضمَّن ادّعاءاتٍ ثلاثة:

أوّلا– أنَّهُ تعالى يُخرجُ الحيَّ من الميِّتِ.

ثانياً– أنَّهُ تعالى يُخرجُ الميِّتَ من الحيّ.

ثالثاً– ويُحيي الأرضَ بعدَ مَوتِها.

أضف إلى ذلكَ أنَّهُ تعالى قال في الفقرةِ الأخيرةِ (**وكذلكَ تُخرجون**).وبمعنى أنَّ اللّهَ الّذي يملكُ هذه القُدُرات وتلكَ الإمكانيّات يسهُلُ عليهِ أن يُخرِجكُم ممّا ستصيرونَ إليهِ بعدَ موتكم.

وبما أنَّ الأصلَ التّفسيري الثالث يقتضي أن نبحثَ عن دلائلِ هذه الادّعاءات بعدَ هذه الآيةِ الكريمةِ مُباشرةً.فإنَّ من المُلاحظ أنَّ اللّهَ تعالى راحَ يعرضُ دلائلَ مِصداقيّتها من خلالِ ستّةِ آياتٍ أوردها بأساليبَ إنشائيَّةً مُختلفةً

وضمَّنها تلكَ الأدلَّةَ المطلوبةَ. وكانَ من تلكَ الآيات السِّتَّة هـذه الآيـة الَّـتي أوردتُها والَّتي صيغت على نحوٍ يدفعُ قارئها ليستعملَ قوَّتهُ المفكّرة وليعقِلَ مـا تضمنتهُ هذه الآيةُ الكريمةُ من مضمون.

فعلى حينَ أنهى اللَّهُ تعالى هذه الآيةِ بقولهِ(**لِقومٍ يتفكَّرون**).فقـد أنهـى تعالى الآيةَ الرّابعةَ بقولِ الله تعالى (**لِقومٍ يعقلون**). وعلى حين أنَّهُ تعالى عندمـا طرحَ آيةَ الادّعاء أنهاها بقولهِ تعالى (**وكذلكَ تُخرجون**). فإنَّهُ جلَّ شأنهُ وبعـدَ أن فرغَ من تقديمِ دلائلَ مِصداقيَّةِ ما ادّعاه فقد أنهى الآيةَ السادسةَ بقولهِ تعـالى (**إذا أنتُم تخرُجون**). فكم هو عظيمٌ هذا السبكُ وتلكَ الأساليبُ الإنشائيَّةُ وقوَّةُ التّدليلِ وتلكَ البدايةُ وذاكَ الإنهاء. واللّطيفُ في الأمرِ هو أنَّ اللَّهَ تعـالى كـانَ يستهلُّ كلَّ آيةٍ كريمةٍ من تلكَ الآياتِ السِّتَّةِ بقولهِ هناك (**ومن آياتهِ** ..)وأحدثَ بذلكَ ربطاً موضوعيّاً بين مُعطياتِ تلكَ الآياتِ ولّدَ في أُذُنِ سـامعٍ تلاوتها موسيقيَّةً محبَّبةً أيضاً.

وإنَّ اللَّهَ تعالى قد اختارَ نفسَ الأسلوب حينَ طرحَ مضمون الآيـة ٤٢ من سورةِ الزمُر والتي قالَ تعالى فيها وهو يُحرِّكُ في القارئ قوَّتهُ المفكّرة العاقلـة قال (**اللَّهُ يتوفَّى الأنفُسَ حينَ موتِها والّتي لم تمُت في مَنامها فيُمسكُ الّتي قضى عليها الموتُ ويُرسِلُ الأُخرى إلى أجلٍ مُسمّى إنَّ في ذلـكَ لآيـاتٍ لِقـومٍ يتفكّرون.**).

فالملاحظُ هو أنَّهُ تعالى قد أجرى حذفَ مفعول فعل(**يتفكّـرون**) هنـا أيضاً حيثُ أنَّهُ لم يوضّح جلَّ شأنهُ للقارئ ما هو المطلوبُ منهُ أن يُفكِّرَ في أمرهِ وذلك الحذف قامَ بهِ ليوسِّعَ دلالةَ هذا الفعلِ (يتفكّرون) أي ليتفكّر هؤلاء النّاس في موضوعِ حالةِ يقظتهم وفي حالةِ نومِهم اللّتين يمُرُّون منهما كلَّ يومٍ طيلـةَ حياتهم.وليتفكّروا في تلكَ المُعادلةِ الّتي تنظُمُ حالةَ أنفُسِهم أثناءَ كلِّ حالةٍ مـن

حالتي اليقظةِ والنّوم وليستطيعوا استنباط النّتائج المرجوَّة والمقصودةَ من جميع عمليّات الفكرِ هذه وليعقلوا ما وراءَ هاتين الحالتين من حقائقَ يعيشونها.

وكان القصدُ من ذلكَ كلِّهِ أن يُحرِّكَ اللّهُ تعالى عقلَ هذا الإنسان ودفعاً إيّاهُ لِيعقِلَ .وهذا الكلامُ موجّهٌ بصورةٍ غير مُباشرةٍ إلى المؤمنينَ الّذينَ يتصدّونَ لِتفسيرِ آيات هذا القرآن العظيم بأسلوب تدبُّرِ ما فيها من مضامين فلا يُفسِّرُون هذه الآيةَ الكَريمةَ بدونِ إعمالِ عقولِهم وليفكِّروا في معاني كلِّ كلمةٍ وكلِّ فقرةٍ وفي دلالةِ كلِّ حذفٍ بلاغيٍّ أحدثهُ اللّهُ تعالى في هذه الآياتِ القرآنيَّة وأن يضعَ هذا الأصلَ السادسَ من أصولِ تفسيرِ آياتِ كتابِ ربِّهِ العزيزِ نصبَ عينيه.

من هذا تتبيَّنُ لنا منزلةُ إعمالِ الإنسانِ لفكرِهِ في كلِّ شيءٍ حولَهُ وفي أحوالِ نفسهِ أيضاً فهذا الإنسانُ يعيشُ نهارهُ ويموتُ كلَّ ليلةٍ موتاً غيرَ كاملٍ تتوقّفُ فيهِ حواسهُ عن العملِ لكنَّ قلبهُ وعقلُه لا ينامان.وقد ثبتَ علميّاً بأنَّ نفسَ الإنسان وعقلَهُ خالدان.فالعقلُ والنّفسُ يُشاهِدان في حالةِ النّومِ عالماً جديداً هو ما سمّاهُ القرآنُ المجيدُ عالَمَ البرزخ العالَمُ الّذي لا محلَّ فيهِ للزّمانِ والمكانِ المادّيين ولهُ قوانينهُ الخاصّةُ بِهِ الّتي تختلفُ عن قوانينِ هذا العالم المادّي.

ومن هو الّذي لا تتوقُ نفسهُ لِمعرفةِ عالم ما بعد الموت؟؟ وإنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ يسخرُ من هذا الإنسان الّذي لا يفكّرُ في موضوعِ هاتينِ الحالتين الّتينِ يمرُّ منهما يوميّاً فيموتُ ويرى بعضاً من عالمِ ما بعدَ موتهِ ويرجعُ صباحَ كلِّ يومٍ إلى حياتهِ الدّنيا ويتمنّى بعدَ ذلكَ لو أنّهُ يطّلِعُ على عالمِ ما بعدَ الموتِ.فلو أنَّهُ أعملَ فِكرهُ لكانَ تبيَّنَ لهُ أنّهُ يدخلُ عالَمَ ما بعدَ الموتِ كلَّ ليلةٍ من حياتهِ ويعودُ من ذاكَ العالم صباحَ كلِّ ليلةٍ أيضاً.

فهذه الآيةُ الكريمةُ قد صيغت صياغةً بلاغيَّةً مُذهلةً واستندَ مضمونها إلى تلكَ المعادلةِ الّتي سبق لي أن ذكرتُها واستنتجتُ منها هذه الحقائقَ الآنفة

الذّكر.وتُبرزُ أهمّية استعمالِ الإنسان لفكرهِ فيما حولهُ وفي كلامِ اللّهِ تعالى أيضاً ولِيمكّنهُ ذلكَ من عقلِ ما يُفكّرُ في موضوعه.

ثمّ إنّنا إذا عُدنا إلى سباقِ هذه الآيةِ الكريمة نُلاحظُ بأنّ اللّهَ تعالى طرحَ مضمونَ هذه الآيةِ كدليلٍ لإثباتِ ما طرحهُ من حقيقةٍ في الآيةِ الّتي سبقتها والّتي قالَ تعالى فيها (**إنّا أنزلنا عليكَ الكتابَ بالحقّ فمنِ اهتدى فلِنفسهِ ومن ضلَّ فإنّما يضلُّ عليها وما أنتَ عليهم بوكيل**) فاللّهُ جلَّ شأنهُ أعلنَ في هذه الآيةِ الكريمةِ أنّهُ أنزلَ الكتابَ بالحقّ.فإن عُدنا إلى معاجمِ اللُّغةِ يتبيَّنُ لنا أنَّ لكلمةِ (**الحقّ**) عدَّة معاني هي (الأمرُ المقضيّ والصّدق والعدل والموجود الثابت (محيط المحيط).وعليهِ فكأنَّ اللّهَ تعالى أعلنَ أنَّ هذا الكتابَ يُطلِعُنا على الأمرِ المقضيّ الّذي هو الحياةُ والموتُ من جهةٍ وأنّهُ صادقٌ في كلِّ ما أنزلهُ في هذا الكتاب من حقائقَ ومواضيع.ولذلكَ فقد راحَ جلَّ شأنهُ يُبرهنُ على مِصداقيَّةِ ما أعلنهُ في هذه الآيةِ الكريمةِ ويُدلّلُ على ما ادّعاهُ فأتى بالآيةِ الّتي تكلّمنا عنها والّتي ثبتَ من مُعطياتها مِصداقيّةَ ما ادّعاهُ اللّهُ جلَّ شأنهُ في آيةِ السباق.خصوصاً وأنّني كنتُ أثبتُّ بأنَّ اللّهَ تعالى لا يدّعي شيئاً إلاّ ويُدلي بعد ادّعائهِ مباشرةً بدليلِ مِصداقيَّةِ ما ادّعاه.

معَ الملاحظةِ بأنَّ اللّهَ تعالى حينَ قالَ في آيةِ السباق (**فمن اهتدى فلِنفسهِ ومن ضلَّ فإنّما يضلُّ عليها وما أنت عليهم بوكيل**). فقد قصدَ هنا من قولهِ تعالى (**فمن اهتدى**) أي من اهتدى إلى حقيقةِ ما تتضمَّنهُ آيةُ (**هو الّذي يتوفّى الأنفُسَ ..**)وقد قصدَ من قولهِ تعالى (**ومن ضلّ**) أي من ضلَّ عن الحقيقةِ الّتي نبّهَ إليها تعالى في الآية التّي حملت دليلَ مِصداقيّةِ هذا الإعلان الإلهيّ.فهذه المعاني الّتي
أسلفتُ ذكرها اقتضاها تسلسُلُ الكلام الإلهي المعجز صياغةً ودلالةً علميَّةً وقوَّةَ بيان.

هذا وإنَّ قولهُ تعالى في الفقرةِ الأخيرةِ **(وما أنتَ عليهم بوكيل)** يكـــونُ تعالى قد صرَّحَ بأنَّ رسولَ اللّهِ ما كانَ مسؤولاً عن بيان دلالات مضمونِ هاتينِ الآيتينِ الكريمتين بل تركَ تعالى مهمَّةَ تدبُّرها مُلقاةً على كاهلِ الّذينَ يُطيعـــونَ ربَّهُم ويقومونَ بتدبُّرِ كلامِ اللّهِ تعالى وِفقَ منهجيَّةِ هذا القرآن وأصولِ تفســـيرِ آياتهِ الكريمة. وإلى هذا أشارَ تعالى من خلالِ قولهِ في الفقرةِ الأخيرةِ من الآيـــةِ الثانية **(إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكَّرون)** فاللّهُ جلَّ شأنهُ حينَ حذفَ مفعـــول فعل **(يتفكَّرون)** كانَ القصدُ منهُ أن يشملَ هذه الدّلالة أيضـــاً. وعلـــى هـــذه الصورة يتبيَّنُ للقارئ كيفَ أنَّ الآيةَ الأولى وهي آيةُ سباق الكلام قد أتى تعـــالى فيها بادِّعاءٍ أتى بدليلِ مِصداقيَّتهِ في الآية الثانية التي كُنَّا بصددِ الكلامِ عنها. وتبيَّنَ بذلكَ ترابطٌ موضوعيٌّ بين الآيتين المذكورتين.

وهذا ما دفعَ اللّهُ جلَّ شأنهُ لِيقولَ في الآيةِ التي بعـــدَ هـــاتينِ الآيتـــين الكريمتين وهو يعودُ للكلامِ في أصلِ الموضوع **(أمِ اتَّخذوا من دونِ اللّهِ شُـــفعاءَ قل أوَلَوا كانوا لا يملكونَ شيئاً ولا يعقلون)**.

ففي الأصلِ كانَ اللّهُ تعالى يُثبِّتُ فؤادَ رسولهِ الكريم حينَ سبقَ أن قالَ له **(أليسَ اللّهُ بكافٍ عبدهُ ويخوِّفونكَ بالّذينَ من دونهِ ومَن يُضلِلِ اللّهُ فما لـــهُ من هاد. ومَن يهدِ اللّهُ فما لهُ من مُضلٍّ أليسَ اللّهُ بعزيزٍ ذي انتقـــام. ولئـــن سألتهم من خلقَ السماوات والأرض ليقولُنَّ اللّه قل أ فرأيتُم ما تَدعونَ مـــن دونِ اللّهِ إن أراديَ اللّهُ بضُرٍّ هل هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّهِ أو أراديَ برحمةٍ هل هُـنَّ مُمسكاتُ رحمتِهِ قُل حسبيَ اللّهُ عليهِ يتوكّلُ المُتوكِّلون. قل يا قومِ اعملوا علي مكانتكم إنّي عاملٌ فسوفَ تعلمون. مَن يأتيهِ عذابٌ يُخزيهِ ويحلُّ عليهِ عذابٌ مُقيم.)** فاللّهُ تعالى أعلنَ بعدَ هذه الآيات الكريمة بأنَّ بيـــدهِ مقـــاليدُ المـــوت والحياة. وقد عرضَ هذه الحقيقة بأسلوبِ الملاحظة العلميّ الّذي يعرضُ للإنســـان

في حياته اليوميَّة.هذا المؤشِّرُ الدّالُّ على أنَّ مقاليدَ كلِّ شيءٍ فبيدِ الخالقِ عزّ وجلّ.

هذا وإنَّ اللَّهَ تعالى راحَ يحثُّ الإنسانَ على استعمالِ عقلِهِ والتَّفكيرِ فيما يجري من حولِهِ من أجلِ أن يتيقَّنَ بأنَّ الأمورَ بخواتيمها وليسَ بالمراحلِ الَّتي تمرُّ بها.فلقد قالَ تعالى في الآية ٢٤ من سورةِ يونس (**إنّما مَثلُ الحياة الدّنيا كماء أنزلناهُ من السماءِ فاختلطَ بِهِ نباتُ الأرضِ ممّا يأكلُ النّاسُ والأنعام حتّى إذاً أخذتِ الأرضُ زُخرُفها وازّيّنت وظنَّ أهلُها أنَّهُم قادرونَ عليها أتاها أمرُنا ليلاً أوَ نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغنَ بالأمسِ كذلكَ نُفصِّلُ الآيات لِقومٍ يتفكَّرون.**).

وإنَّ أوّلَ ما ينبغي ملاحظتهُ حينَ نحاولُ تدبُّرها وفهم دلالاتها هو كافُ التّشبيه التّي أدخلها اللَّهُ تعالى على كلمةِ ماء وأصبحت (**كماء أنزلهُ من السماء**) فهذه الآيةُ تُشبِّهُ الأمرَ الّذي تطرحهُ تشبيهاً بليغاً.فالمُشبَّهُ هو (الوحيُ السماويّ) والمشبَّهُ بِهِ هو ماءُ السماء وناحيةُ التّشبيه هي قوَّةُ الإحياء الّتي تبدو من خلالِ هذينِ الأمرينِ المذكورين. فاللَّهُ جلَّ شأنهُ قد لفتَ نظرنا بادئ الأمر إلى أنَّ هذا التّشبيه يمثّلُ مُجرياتِ الأمور في هذه الحياةِ الدّنيا. فالملاحظ هو أنَّ ماءَ المطر يهطُلُ صافياً على وجهِ
العموم.إشارةً إلى أنَّ بعثةَ كلِّ نبيٍّ من أنبياء اللّهِ عزَّ وجلَّ يُرافقها نزولُ وحيٍ إلهيٍّ شفهيٍّ أو لفظيّ.ثمَّ إنَّ ماءَ المطر حينَ يصلُ الأرضَ يسقيها ولا يظلُّ على صفائهِ وطهارتهِ بل يختلطُ بما تُنبتهُ الأرضُ من نبات تغذّى وشربَ من ماءِ السماء. لذلكَ لا يعودُ كلُّ ما نبتَ من جرّائهِ صالحًا للنّاسِ وحدهم بل ويعودُ ما ينبتُ صالحاً لِتغذيةِ الأنعامِ أيضاً.وفي هذا البيان إشارةً إلى ما يصيرُ إليهِ حالُ الوحي الإلهيّ الّذي ينزلُ معَ بعثةِ كلِّ نبيٍّ من أنبياء اللّهِ الكرام فلا تبقى حقيقةُ ذاكَ الوحي على جلائها معَ استمرارِ الأيّام.وتدورُ عجلةُ التّطوّر فتتطوّرُ الأمورُ

الحياتيَّة إلى الأفضل من حيثُ الظاهر.فتأخذُ الأرضُ مداها من حيثُ التّقدُّم الحضاريّ الّذي نشأ من جرّاءِ الخيرِ النّازلِ ماءً حقيقيّاً ووحياً سماويّاً.ويفلِتُ زمامُ هذا التّطوُّر من جرّاء ما يحدثُ من انحرافات عن الوجهِ الحقيقيِّ لِماءِ السّماء وفي مقابلهِ ماءُ الوحيِ السماويّ.وينسي أهلُ المرحلةِ الأخيرة لكلِّ دينٍ من الأديان حقيقةَ الأساسِ الّذي استندَ إليهِ كلُّ شيءٍ يعاصرونه.وتبدأ تُساورهم الظنونُ بأنَّ الّذي حدثَ من قبلُ إنّما حدثَ بسواعدِ الّذين سبقوهم من غيرِ دخلٍ لأيِّ شيءٍ آخر.ويختلِطُ نتيجةَ لذلكَ التّوحيدُ الخالصُ بشوائبِ الشركِ الخفيِّ.ويعودُ هؤلاءِ ممَّن يمثّلونَ المرحلةَ الأخيرةَ لا يستحقّونَ الحياةَ بسببِ نُسيانهم العاملَ الحقيقيّ الّذي كانَ وراءَ كلِّ ما حدثَ وهو اللّهُ مُسبِّبُ الأسباب.

وكما يحدثُ أنَّ زُخرفَ الحياةِ الدّنيا الّذي ظهرَ للعيان نتيجةَ نزولِ خيرِ السّماء تأتي عليهِ أيّامُ مَحلٍ تؤدّي بهِ إلى اليبوسةِ والإمحال.فإنَّ اللّهَ تعالى يُرسِلُ من جديدٍ مُرسلاً يُلقي اللّهُ تعالى بواسطتِهِ حُجّتَهُ على عبادهِ وينتهي بإنزالِ العذابِ عليهم ويبيدُهم وكأنَّ الأرضَ بعدَ هلاكهم عادت حصيداً كأن لم تَغنَ بالأمس.

وإنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ وبعدَ أن أتى بهذا التّشبيه البليغِ أنهى هذه الآية الكريمةِ بقولهِ تعالى (**كذلكَ نُفصِّلُ الآياتِ لِقومٍ يتفكّرون**). وبمعنى أنّهُ بهذا الأسلوبِ من البيانِ البليغِ نقومُ بتجزئةِ أحداثِ الحياةِ الدّنيا وتشبيهها بهذا التّشبيهِ البليغِ (**لِقومٍ يتفكّرون**) بمعنى أنَّ الّذينَ لا يُفكّرونَ بما بيّنّاهُ من حقائقَ هي من صلبِ الواقعِ ولا يعقلونَ هذه الحقائقَ الّتي تضمّنها هذا التّشبيهُ البليغُ لا يستفيدونَ ممّا بيّناهُ من خلالِ هذا التّشبيهِ ولا ينتفعونَ به.أي أنَّ اللّهَ تعالى أعطى عقلَ الإنسانِ منزلتهُ ودورهُ لِفهمِ وتدبُّرِ هذا التّشبيه الّذي اشتملت عليهِ هذهِ الآيةُ من سورةِ يونس عليه السلام.

إنَّ القارئ الباحث يسألُ بعدَ أن اطَّلعَ على دلالةِ هذه الآيةِ الكريمةِ عن الدّاعي الّذي دعا إلى تقديمِ ما وردَ فيها من بيان؟ وإنَّ الباحثَ لا يستطيعُ الإحاطةَ بالإجابةِ الصّحيحةِ إلاّ إذا راجعَ الآيةَ الكريمةَ الّتي قبلها والّتي اقتضت بيانَ ذلك.

والحقيقة هي أنَّ اللّهَ تعالى قالَ قبلَ هذه الآيةِ الكريمة(**يا أيُّها النّاسُ إنّما بَغيُكم على أنفُسكُم مّتاعَ الحياة الدّنيا ثمَّ إلينا مَرجعكُم فنُنبّئكُم بما كُنتُم تعملون**).فاللّهُ تعالى قد خاطبَ النّاسَ جميعاً في هذه الآيةِ الكريمةِ ومستعملاً كلمات (**بغيُكم على أنفُسكم**) فالباغي هو الرّاغبُ في شيءٍ والمتعدّي فيهِ والظالمُ والعاصي ربَّهُ والنّاس ويُجمعُ على بُغاة (محيط المحيط) فخاطبهم يعظُهم ويقول إنّما تجعلونَ جُلَّ همِّكم أن تحصلوا على مَتاعِ الدّنيا ومُفضّلينَ ذلكَ على ما أعدَّ اللّهُ تعالى لكم في الحياةِ الآخرة. فإنّكم بعملكُم هذا تبغونَ وتظلمونَ أنفُسَكم وفي وقتٍ تعلمونَ فيهِ أنَّ الموت حقٌّ على كلِّ واحدٍ منكم وأنّكم بعد موتكم ستصيرونَ إلى خالقكم (**فنُنبِّئُكم بما كنتم تعملون**).

فإثباتاً لهذه الموعظة وهذا الإعلان فقد أتى تعالى بالآية الّتي شرحناها توضيحاً من جانبهِ تعالى لحقيقةِ هذه الحياة الدّنيا وبياناً للمراحلِ الّتي تمرُّ منها تعاليمُ الرّسالات السماويَّة الّتي تبدأُ بعقيدة توحيدِ اللّهِ جلَّ شأنهُ وطاهرةً من شوائبِ الشّركِ طهارةَ ماء السماء. ومن ثمَّ تمتدُّ إلى تلكَ التّعاليم الأيدي تحرِّفُ فيها وتبدّلُ ما يحلو لها إلى أن يصيرَ النّاسُ بحاجةٍ إلى تعاليمَ سماويَّةً جديدةً وبعثٍ جديد.وداعياً بذلكَ النّاسَ إلى استعمالِ عقولهم والتّفكيرِ فيما وعظَهم تعالى به وقال.

وهذا هو السببُ في أنَّ اللّهَ جلَّ شأنهُ راحَ يقولُ بعدَ هاتينِ الآيتينِ اللّتين حملتا هذه الفلسفةَ الحياتيَّةَ وبيانَ حقيقتها قال (**واللّهُ يدعو إلى دارِ السلامِ ويهدي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيم.**).أي أنَّ اللّهَ تعالى ومن خلالِ موعظتهِ

الآنفةِ الذّكرِ وتشبيههِ البليغ إنما قصدَ أن يدعوا النّاسَ إلى دارِ السلام تلكَ الدّارُ الّتي لا يفوزُ بها إلاّ من التزمَ بأوامرِ ربِّهِ وهي هذا (**الصراط المستقيم**) الّذي يهدي إليهِ اللّهُ تعالى من يشاءُ فسارعوا إلى الإحسانِ إلى أنفُسكم من أجلِ أن يهديكم اللّهُ ربُّكم إلى هذا الصراط المستقيم الّذي قامت على أساسٍ منهُ تعاليمُ السماء في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

ولذلكَ تابعَ اللّهُ جلَّ شأنهُ يقول (**للّذينَ أحسنوا الحُسنى وزيادة ولا يرهقُ وُجوههُم قَترٌ ولا ذلّةٌ أولئكَ أصحابُ الجنَّةِ هم فيها خالدون. والّذينَ كسَبوا السيِّئات جزاءُ سيِّئةٍ بمثلِها وتَرهقُهُم ذلَّة مالَهم من اللّهِ من عاصمٍ كأنّما أُغشِيت وُجوههُم قِطَعاً من اللّيلِ مُظلِماً أولئكَ أصحابُ النّارِ هم فيها خالدون**). وقد كشفَ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ الأخيرة عن وَجهِ رحمتهِ حينَ نبَّهَ وقال (**جزاءُ سيِّئةٍ بمثلِها**) ومُوضِّحاً حقيقةَ العذاب الّذي ينتظرُ هؤلاء الباغين وقال (**ترهقُهم ذلّة**) أي تغشاهُم وتلحقُ بهم ذلّة فيعودونَ مُستحقّينَ للرّحمةِ والشفقةِ عليهم من سوءِ حالهم الّذي يصيرونَ إليه في تلكَ الأيّام.

فإن أمعنَ القارئ نظرهُ ودقّقَ في جميعِ ما أسلفناهُ يتبيَّنُ لهُ بأنَّ اللّهَ عزّ وجلَّ كانَ يدعُو هذا الإنسانَ إلى استعمالِ عقلِهِ وتفكيرهِ في كلِّ ما قالهُ ربُّهُ وخاطبهُ به. فهذه الحقائقُ الّتي تضمَّنتها هذه **الآياتُ** الكريمةُ لا يستفيدُ منها من يسيرُ في حياتهِ بعقلٍ تقليديٍّ يُقلِّدُ فيهِ الّذينَ سبقوهُ من غيرِ مُراجعةٍ ومن غيرِ تمحيص.

فما بالكَ بهذا المفسّرُ الّذي يتصدّى لِتدبُّرِ هذه الآيات الكريمة ويهملُ الاستفادةَ من مُعطيات هذا الأصلِ السادس من أصولِ تفسيرِ آيات ربِّهِ عزَّ وجلَّ فيُفسِّرُ الآيةَ الّتي تُخالفُ من حيثُ ظاهرها عقلهُ والنّواميسَ الكونيَّةَ المسنونةَ لِنظمِ أحوالِ هذا الكون ومُعتبراً ما وردَ فيها من قبيلِ المُعجزات ؟

بل إنَّ من واجبهِ دراسةَ باب القرائن اللّغويَّة جيّداً وتفسيرَ الآياتِ بما يُوافقُ مُعطيات القوانين
الطبيعيَّة المسنونَةِ وآخذاً بعينِ اعتبارهِ أنَّهُ قد يكونُ الكلامُ الإلهيُّ مُصاغاً بالمجازِ وليسَ بمعانيه الحقيقيَّة.

فجميعُ هذه النّماذج من الآيات القرآنيَّة الّتي أوردها نلاحظُ كيفَ يُحرِّكُ اللَّهُ الخالقُ فيها ما ميَّزَ تعالى بهِ هذا الإنسانَ عن بقيَّةِ مخلوقاتهِ بميِّزة التّفكيرِ ومحاكمةِ الأمور وليبتعِدَ هذا الإنسانُ بذلكَ عن أسلوب الحياةَ الغريزيِّ.وليسَ هذا وحسب بل إنَّ الّذي يتصفَّحُ هذا القرآنَ المجيدَ تمرُّ عيناهُ على آياتٍ وآياتٍ من هذا القبيل.

ففي الآيةِ الثالثة عشرة من سورةِ الجاثية قال اللَّهُ تعالى (**وسخَّرَ لكُم ما في السماوات والأرضِ جميعاً منهُ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكّرون**) أي وهل يُعقلُ أن يأتي حالُ كلِّ شيءٍ موجودٍ في السماوات والأرضِ على صورةٍ خادمةٍ لهذا الإنسان ومُسخَّرةً لِصالحِهِ وفائدتهِ وبدونِ أيِّ استثناء هكذا من دونِ أيِّ دخلٍ لِعاملٍ خارجيٍّ ؟

وفي الآية الثالثة من سورةِ الرّعدِ نُلاحظ أنَّ اللَّهَ تعالى حثَّ على التّفكير فيما نبَّهَ إليهِ وقال (**وهو الّذي مدَّ الأرضَ وجعلَ فيها رواسيَ وأنهاراً ومن كلِّ الثّمرات جعلَ فيها زوجينِ اثنينِ يُغْشي اللَّيل النّهار إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكّرونَ**)بمعنى هل يُعقلُ أن يأتي سطحُ الكرةِ الأرضيَّةِ على تقسيماتهِ المعروفةِ وتأتي هذه الجبالُ الرّواسي على أوضاعها الحاليَّةِ أيضاً وتجري هذه الأنهارُ في كلِّ مكان من هذه الأرضِ هكذا من دونِ تخطيطٍ وبلا مقاصدَ تدعمها ؟وهل يُعقلُ أن تنبُتَ جميع هذه الأشجار على سطحِ هذه الكرةِ الأرضيَّةِ وتكونُ مُثمرةً وتحملُ مؤهّلاتُ التّكاثُرِ أيضاً ولا يكونُ للّذي أنبتها يدٌ في كلِّ شيءٍ تابعٍ لها ؟وهل يُعقلُ أن يُرافقَ ذلكَ كلِّهِ هذا النّظام الشمسيّ الّذي ينتُجُ عنهُ تتابعُ ليلٍ

ونهار وليفيدَ جميعَ من على الأرضِ من غيرِ أن يكونَ وراءَ ذلكَ من حُسبان ؟ وكأنَّهُ تعالى حينَ أنهى هذه الآية الكريمة بقولهِ في الفقرة الأخيرة منها (**إنَّ في ذلكَ لآيات لِقومٍ يتفكّرون**) قد قالَ بألفاظ أخرى إنَّ الإنسانَ الّذي يُفكّرُ في أمرِ جميعِ الظّواهر الّتي عدّدناها لابدَّ وأن يستنتجَ عقلُهُ وبأسلوبِ المحاكمة الفكريَّة بأنَّ جميع هذه الأشياء تشكّلُ آيات وعلامات دالّة على وجود اللّه الخالق المبدع الّذي لهُ من العلمِ والقدرات ما ليسَ لهُ من حدود. وأنَّهُ أبدعَ ذلكَ كلّهِ لِتحقيق مقصدٍ مُحدَّد معلوم.

كذلكَ فإنَّ اللّهَ جلَّ شأنُهُ راحَ يهزُّ فِكرَ الإنسانِ هزّاً وذلكَ في الآيةِ الحادية عشرة من سورة النّحلِ الّتي قالَ فيها (**هو الّذي أنزلَ من السماء ماءً لكُم منهُ شرابٌ ومنهُ شجرٌ فيهِ تَسيمون يُنبتُ لكُم بهِ الزّرعَ والزّيتونَ والنّخيلَ والأعنابَ ومن كلِّ الثمرات إنَّ في ذلكَ لآيةٍ لِقومٍ يتفكّرون**).

فكلمةُ(**تسيمون**)تعني تَرعون.أي أنّهُ كما أنَّ ماءَ السماءِ ينتُجُ عن هطولهِ جميعُ هذه الأشياءِ المتنوّعةِ الّتي أوردت هذه الآيةُ الكريمةُ ذكرها.فهذا ما ينتُجُ عن بعثاتِ الأنبياءِ وما يرافقُها من وحيٍ سماويٍّ تنتُجُ أشياءَ كثيرةً تنمّي نواحي عديدةً في حياةِ الإنسان.فوحيُ ربِّهِ يُنمّي عقلهُ وفهمهُ وإدراكهُ ويُصلِحُ جميعَ نواحي حياتهِ الاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ وغيرها من نواحي حياته.إلى جانب تمكينهُ من معرفةِ ربِّهِ أكثر فأكثرَ ويفتحُ لهُ بذلكَ طريقَ التّعرُّف على ربِّهِ ويدفعهُ للتّزوُّد لحياتهِ الأخرويَّةِ القادمةِ بعد موته.ولذلكَ أنهى اللّهُ تعالى هذه الآيةَ بقوله (**إنَّ في ذلكَ لآيةً لِقومٍ يتفكّرون**) بمعنى أنَّ هذه الظّاهرةُ الّتي يُنتجها الوحيُ السماويُّ مُلفتةٌ للنّظر وتشكّلُ آيةً أي دليلاً على وجودِ اللّهِ صاحبِ هذا الوحي المقدّس.

ويُلفتُ اللّهُ جلَّ شأنهُ فكرَ هذا الإنسان إلى ظاهرةٍ أخرى لا تقلُّ أهمّيةً عن سابقتها.ودلّت الآيةُ ٦٩ من سورةِ النّحلِ على مضمونها.وهي الآية الّتي قالَ تعالى فيها (**وأوحى ربُّكَ إلى النّحلِ أنِ اتّخذي من الجبالِ بيوتاً ومن الشجرِ**

ومّما يَعرشونَ ثمّ كُلي من كلِّ الثمرات فاسلُكي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً يَخرُجُ من بُطونِها شرابٌ مُختلِفٌ ألوانه فيهِ شفاءٌ للنّاس إنَّ في ذلكَ لآيةً لِقومٍ يتفكّرون).

فظاهرةُ النّحلِ وما تُنتجُهُ من أنواعِ العسلِ باتت أهمّيتها معروفةً لجميع شعوب الأرضِ في زماننا الحاضر فلا حاجة والحالُ هذه للاسترسال في شرحِ ما تضمّنتهُ هذه الآية الكريمة.وكلُّ ما ينبغي لفتَ نظر القارئ إليه هو أنَّ اللّهَ تعالى أنهى هذه الآية أيضاً بقولهِ (إنَّ في ذلكَ لآيةً لِقومٍ يتفكّرون).

وقد يقولُ قائلٌ إنَّ هذه الظّواهرَ الّتي لفتَت الآياتُ السابقةُ فكرَ الإنسان إليها قامت على المشاهدةِ الّتي تعتمدُ حاسّةَ البصرِ أساساً لها. فكيفَ يتمكّنُ الإنسانُ البصيرُ المحرومُ من نعمةِ البصر أن يُحيطَ علماً بما ألمحت إليهِ هذه الآيات الكريمة ؟

وقد أجابَ اللّهُ تعالى على هذا السؤال من خلالِ آيات عديدة منبِّهاً إلى أنّ بإمكان هذا البصير أن يعتمدَ في ذلكَ حاسّةَ السمعِ عنده.وليجعلَ مّما سمعهُ مادّةً لِيقومَ بعمليَّةِ التّفكير فيما سمعهُ وليستنتجَ تلكَ الاستنتاجات المطلوبةِ منه.

وعلى سبيلِ المثال فقد أوردَ اللّهُ تعالى في الآية ٦٧ من سورةِ يونس يقول (هو الّذي جعلَ لكُمُ اللّيلَ لِتسكنوا فيهِ والنّهارَ مُبصِراً إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يسمعون).والّذي نلاحظهُ هو أنَّ اللّهَ تعالى حذفَ مفعول فعل يسمعون فلم يوضِّح ماذا يسمعون.والحذفُ البلاغيُّ مقصودٌ بهِ توسيع المعنى وتصريفهِ إلى عدّة جهات.حثّاً من جانبهِ تعالى هؤلاء المحرومينَ من حاسّةِ بصرهم لِتعلُّمِ القراءةَ والكتابةَ ومُتابعةَ ما يُكتبُ في هذه المواضيعِ الّتي تشكّلُ هذه الظواهر الطّبيعيَّةَ وليطلبوا من غيرهم أن يقصّوا عليهم مُشاهداتهم الطّبيعيَّة أيضاً وليتحسّسوا بأنفسهم ظاهرتي اللّيلِ والنّهار.

ولا يُقصدُ في هذه الفقرةِ الأخيرةِ من فعل (يسمعون)السماعَ بحاسّةِ الأذن وحسب.بل ويرادُ من هذه الكلمةِ أن يعقلوا ما يسمعونهُ أيضاً.ففي الكلّيات وردَ التّنبيهُ إلى أنّ السمعَ لا يُرادُ بهِ حاسّةَ السمع بالأذن وحدها بل ويرادُ بالسمعِ محاولةَ الفهمِ وعقلِ مضمون ما يسمعهُ هذا الإنسان لِيقبلهُ وينقادُ إليه (محيط المحيط).وهو المعنى المقصودُ من قولهِ تعالى في هذه الفقرةِ الأخيرة(**إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقومٍ يسمعون**). يؤكّدُ هذا المعنى سياقُ هذه الآيةِ الّذي قالَ تعالى فيه (**ألا إنَّ للّهِ مَن في السماوات ومن في الأرضِ وما يتّبعُ الّذينَ يدعونَ من دونِ اللّهِ شُركاءَ إن يتّبعونَ إلاّ الظّنّ وإن هم إلاّ يخرُصون**). إشارةً إلى أنَّ المشركينَ لا يُحاكمونَ كلَّ شيءٍ بمحاكمات عقليّةٍ.بل يُقلّدونَ ما وجدوا عليهِ آباءهم تقليداً أعمى.ولهذا يُلاحظُ أنَّ جميعَ عقائدهم لم تتأسَّس على عقلانيّةٍ وعلمٍ بل تأسّست على تخرُّصاتٍ وظنونٍ لا يستسيغُها عقلٌ ولا تسنُدُها مُعطَياتُ علوم.

فهو تعالى تناولَ عقيدةَ التّثليث الغارقة في الشركِ باللّهِ والّتي استندت إلى أنَّ اللّهَ تعالى اتّخذَ لهُ ولداً فقالَ لدحضها ولإثبات كونها أنّها قامت على التّخرُّصاتِ والظنون قال (**قالوا اتّخذَ اللّهُ ولَداً سُبحانه هو الغنيُّ لهُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ إنْ عندكُم من سُلطان بهذا أتقولونَ على اللّهِ ما لا تعلمون؟**). وقد اشتملت هذه الآيةُ الكريمةُ على أربعةِ أدلّةٍ عقليّةٍ تُثبتُ بُطلانَ عقيدة التّثليث:

الدّليلُ الأوّلُ- اشتملَت عليهِ كلمةُ (**سبحانه**).بمعنى أنَّ عقلَ الإنسان يُنزِّهُ اللّهَ تعالى عن أن يحتاجَ إلى معونةِ ولدٍ خصوصاً وأنَّ الموتَ لا يطرأ على ذاتِ اللّهِ تعالى ولا يحتاجُ بالتّالي إلى مَن يَرِثُه.ومن باب أنَّ نظامَ التّوالُد ينطبقُ على كلِّ شيءٍ يأتي عليهِ الفناء.فالشمسُ والقمرُ لا يتوالدان لكونهما دائمانِ الوجود.بعكسِ الإنسان والحيوان والنّبات.

الدّليلُ الثاني_اشتملَ عليهِ قولهُ تعالى (**هو الغنيّ**) فمن المعلوم أنَّ (**الغنيَّ**) ومعرّفاً بالألف واللّام اللّتين تُفيدانِ هنا معنى الاستغراق فإنَّ هذه الذّات الإلهيَّة لا تكونُ والحالُ هذه مُحتاجةً إلى سواها.وعليهِ فإنَّ اللَّهَ تعالى ليسَ هو بحاجةٍ إلى ولد.

الدّليلُ الثالثُ-قد تضمَّنهُ قولُ اللّهِ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ (**لهُ ما في السماوات وما في الأرض**). وإنَّ الّذي يملكُ السماوات والأرضَ وما بينهما من أشياء تخدُمُ مقاصدهُ وأغراضهُ لا يكونُ بحاجةٍ إلى ولدٍ يُعينُهُ بحالٍ من الأحوال على تسييرِ عجلةِ هذا الكون.

والدّليلُ الرّابعُ-انتقلَ اللّهُ تعالى فيهِ من موقفِ الدّفاعِ إلى موقفِ الهجوم وطالبَ أصحابَ عقيدةِ التّثليثِ بدليلٍ معقولٍ من جانبهم في مُقابلِ ما قدَّمهُ تعالى من أدلَّةٍ عقليَّةٍ تدحضُ عقيدتهم وقال: (**إنْ عندكُم من سُلطان بهذا**) ؟؟ أي هل تملكونَ دليلاً عقليّاً يدحضُ ما قدّمناهُ من أدلَّةٍ عقليَّةٍ ويَثبتُ منهُ صِدقَ ما تدّعونه؟وما دُمتُم لا تملكونَ أيَّ دليلٍ عقليٍّ مقبولٍ فقد ثبتَ بُطلان عقيدة التّثليثِ الّتي أنتُم اعتقدتموها وأنّها من قبيلِ الظّنونِ ولا تقومُ على أساسٍ معقول.

وبعدَ أن أدلى اللّهُ تعالى بهذه الأدلَّةِ الأربعةِ سَخِرَ من أصحابِ عقيدة الشّرك هذه وهو يقول (**أتقولونَ على اللّهِ ما لا تعلمون**) ؟؟أي بأيِّ حقٍّ تملكونهَ وتستندونَ إليهِ فيما تنسبونهُ إلى اللّهِ تعالى وعلى حينِ أنّكم لا تُقيمونَ ما اعتقدتموهُ على علمٍ يقينيّ ؟

وعلى هذه الصورة أكونَ قد أثبتُّ مِصداقيَّةَ هذا الأصلِ السادس من أصول تفسيرِ الآيات القرآنيَّةِ وهو الأصلُ الّذي إذا تجاهلهُ المؤمنُ الّذي يتصدّى لِتدبُّرِ آياتِ هذا القرنِ المجيد لِيُفسّرها يكونُ قد ابتعدَ عن منهجيَّةِ هذا القرآن وعن أصولِ تفسيرهِ ويزيغُ عقلُهُ فلا يعودُ يفهمُ بالتّالي المقصودَ من مضامينِ هذه الآياتِ القرآنيَّة وينسبُ بالتّالي إلى كتابِ اللّهِ تعالى ما ليسَ منه.فلابدَّ من مُراعاة

العقل وعوامله المساعدة وبالأسلوب العلمي القائم على الملاحظة والتجربة والاستنتاج.

وإن القارئ الذي تابع جميع ما استشهدت به من آيات قرآنية لابد أن لاحظ أهمية الفقرات الأخيرة التي كان الله تعالى ينهي بها تلك الآيات الكريمة.فتلك الخواتيم تحمل خصوصية امتاز بها هذا القرآن العظيم.وهي توجه هذا المفسر الوجهة الصحيحة باتجاه المعنى المقصود.وإن كل من طالع مؤلف (الله جل جلاله)يلاحظ كيف أني بينت في الباب الثاني من الكتاب المذكور عناصر موضوع المحبة الإلهية ومستلهما إياها من تلك الخواتيم التي كان تعالى يختم بها آيات كتابه العزيز ولقد كانت تلك الخواتيم تأتي مصاغة صياغة بلاغية معجزة أدهشت كل مفكر وأديب.فالله جل شأنه كان يقول هناك (**والله يحب المحسنين**) ليشير بذلك إلى موضوع المحبة الإلهية.وعندما كان يقول (**والله لا يحب المفسدين**) كان يشير بذلك إلى موضوع ما يبعد العبد عن ربه عز وجل.

وبعد هذا البيان جميعه الذي أتيت عليه شرحا وتفصيلا أقول:إن على كل مؤمن يحاول أن يتصدى لتفسير آيات هذا القرآن العظيم أن يكون هو نفسه عارفا بماهية العقل وبآلية عمله وبالعوامل الثلاثة المساعدة له والتي تمكنه من إصدار أحكام متزنة وصحيحة وأن يكون ملما بالنواميس الطبيعية وبموضوع القرائن اللغوية وبفعاليتها عند مواجهة هذا المؤمن آيات تحمل دلالات تخالف النواميس الطبيعية من حيث ظاهر دلالاتها.والغرض من ذلك كله ليساعده ذلك كله على مراعاة هذا الأصل التفسيري السادس المتعلق بالعقل وأهميته.خصوصا وأن الله تعالى ميز هذا الإنسان عن بقية مخلوقاته بهذا التاج الذي سماه الله تعالى نفسه عقلا.

وأنتقلُ الآنَ للكلامِ عن بقيَّةِ أُصولِ التَّفسيرِ الَّتي تكشَّفت ملامحُها أمـــامَ عينيَّ بنفسِ أسلوبِ الملاحظةِ العلميِّ وبفضلٍ خاصٍّ من بارئنا الَّــــذي طمرنـــا بفضلهِ وبنعمائه.

ثلاثةُ أُصولٍ ضمنَ آيةٍ واحدة

ولقد دُهشتُ أيَّما دهشة عندما أمعنتُ نظري في الآيةِ الأولى من ســورة هود.فتبيَّنَ لي أنّها تضمَّنت ثلاثةَ أصولٍ لِتفسيرِ آيات هذا القرآن المجيد.فلقد قالَ اللَّهُ تعالى في الآيةِ الأولى من سورةِ هود(**آلر كِتابٌ أُحكِمت آياتُه ثمَّ فُصِّلَـــت من لدُن حكيمٍ خبير**)علماً بأنَّ رسولِ اللَّهِ(ص)قالَ بحقِّ هذه السورة (شـــيَّبتني هودٌ وأخواتُها).

فالأصلُ الأوَّلُ تضمَّنهُ كلمةُ(**كتاب**). **والأصلُ الثاني** تضمَّنـــــهُ قولـــهُ تعالى(**أُحكمت آياتُه**). **والأصلُ الثالثُ** تضمَّنهُ قولهُ تعالى (**ثمَّ فُصِّلـــــت**).وإلى القارئ تفصيلَ ما أجملتُهُ لهُ آنفاً.

فمن المناسبِ أن أضعَ القارئَ أوّلاً في إطارِ ما تضمَّنتهُ الآيةُ الأولى مـــن سورةِ (هود)من معانٍ ودلالات.ومن ثمَّ أُبرزُ من خلالِ ذلكَ تلـــكَ الأصـــول الثلاثة الّتي حدّثتُهُ عنها.فقد قالَ اللَّهُ تعالى فيها وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُدهشةٍ (**الـــر كتابٌ أُحكِمت آياتهُ ثمَّ فُصِّلَت من لَدُن حكيمٍ خبير**).

فالملاحظُ هو أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد استهلَّ هذه الآيةَ الكريمةَ بـــالأحرف المقطَّعةِ (**الر**) ومن ثمَّ أتى بإشارةِ وقفٍ بعدها مُباشرةً.فما هي دلالةُ الأحـــرفَ المذكورةِ وما هو المقصودُ من إشارةِ الوقفِ هذه ؟ فلا يوجدُ شـــيءٌ في هـــذا القرآن المجيدِ من دونِ ضرورةٍ ومن غيرِ حكمةٍ جليلة.

إنَّ الأحرُف (**الر**) هيَ في حقيقتها أحرفٌ مُختزلةٌ من كلمات وعلـــى نسقِ ما كانَ شعراءُ الجاهليَّةِ يفعلونه في أشعارهم.وقد عمدَ اللَّهُ جلَّ شـــأنهُ إلى تحدّي العربِ في فنِّ الاختزالِ المُشار إليهِ من بابِ أنَّ تحدّياتـــهِ الخمســـة الّـــتي

تضمنها كتابه العزيز تقتضي أن تشمل تحدياته جميع فنون اللغة العربية التي من جملتها فن الاختزال الذي فصلت الكلام فيه في مؤلفي (**فن الاختزال في القرآن الكريم**).

فهذه الأحرف المقطعة تعني (**أنا الله أرى**) وقد وردت إشارة الوقف بعدها مباشرة لتدعو القارئ ليتوقف ثواني معدودات ليمعن نظره في دلالة وأبعاد وأنواع الرؤية الإلهية المقصودة.فهو تعالى لم يقصد أنه يرى بمعنى يشاهد بأم عينيه ولكنه قصد بأنه لا يغيب شيء عن ناظريه وفي أي زمان من الأزمنة وجد هذا الشيء وكان.هذا وإن علم الله المتعلق بالمستقبل يعينه على التنبؤ بما سيحدث في المستقبل.وإنه جل شأنه عندما صاغ هذا الكتاب العزيز فقد صاغه برؤية مستمدة من كونه (**حكيم خبير**) أيضا.

ومن ثم تابع الله تعالى كلامه المقدس ومستندا لمعطيات الأحرف المقطعات المذكورة التي أجملنا دلالاتها آنفا فقال تعالى(**كتاب أحكمت آياته**).فيلاحظ أول ما يلاحظ هو أنه تعالى أتى بكلمة (**كتاب**) منونا على آخرها.والتنوين كما هو معلوم لدى أصحاب اللغة يؤتى به لإظهار عظمة المنون وإشعارا من جانبه تعالى للقارئ بأن هذا الكتاب لا يبلغ شأن منزلته ومعطياته هذه جميع ما دونه من مؤلفات أرضية معروفة وغير معروفة.ومن خلال هذا التنوين المشار إليه يكون الله تعالى قد نبه أذهاننا إلى أن كلمة (**كتاب**) تحمل أصلا من أصول التفسير وهو الأصل الذي سآتي على شرحه مستقبلا.

وإضافة إلى ذلك قال تعالى وهو يطلعنا عما اتصف به كتابه العزيز قال(**أحكمت** آياته)فلماذا أتى جل شأنه بفعل (**أحكمت**) بصيغة المبني للمجهول؟ فعل ذلك لنربط عملية إحكام الآيات بصفتي الله اللتين أنهى تعالى بذكرهما هذه الآية الكريمة وهما (**حكيم خبير**).

فما معنى قوله تعالى(**أحكمت آياته**)؟ففي معجم (محيط المحيط) إذا قلت أحكم الله تعالى هذه الآية معناه أنه أتقن صياغتها ودلالاتها.أما ما هو إطار هذا الإتقان ونواحيه؟ فالجواب هو أن الله تعالى أتقن هذه الآية إتقانا متميزا وعلى جميع الأصعدة التي تناولتها الآية المذكورة ومن دون أي استثناء.لذا يصبح معنى قوله تعالى (**أحكمت آياته**) أنه تعالى قد صاغ آيات كتابه العزيز على صورة متقنة المعاني والدلالات وعلى صورة متميزة هي في غاية الإتقان في جميع المواضيع التي تناولتها هذه الآيات شرحا وأسلوبا وتبيانا.والقصد من ذلك أن الله تعالى عندما تناول الكلام عن الأحكام الشرعية على سبيل المثال.فلم يصغ جميع الآيات التي تضمنتها هذه الأحكام بصيغ عادية.بل صاغ تلك الأحكام صياغة دستورية من جهة. ومن جهة أخرى فقد صاغها بصياغة قانونية نابعة من معطيات الآيات الدستورية وعلى نحو ما هو متعارف عليه لدى حكومات الأرض التي تضع دساتير تكون مرجعا لجميع ما تسنه من قوانين.وقس على ذلك صياغة بقية المواضيع التي بحثها الله تعالى في هذا الكتاب العزيز.وعلى هذا الأساس يكون الله تعالى قد نبه أذهاننا إلى أصل ثان من أصول تفسير آيات كتابه العزيز سآتي على شرحه وضرب الأمثلة عليه في الوقت المناسب.

والملاحظ هو أن الله تعالى أتى بحرف (ثم) الذي يفيد الترتيب وقلل (**ثم فصلت**).ففي معجم (**محيط المحيط**) إذا قلت فصلت الشيء فمعناه أنك جعلته فصولا متمايزة.أما إذا قلت فصلت الكلام فمعناه بينته وضد أجملته.ويعود معنى قوله تعالى (ثم فصلت).بمعنى أنه بعد إحكام آيات هذا الكتاب العزيز قسمت الآيات إلى فصول متمايزة وشرح ما كان مجمل المعاني منها. وبذلك يكون الله جل شأنه قد نبه أذهاننا إلى أصل ثالث من أصول تفسير آيات هذا القرآن المجيد سآتي على شرحه وبيانه في الوقت المناسب له أيضا.

وبعد أن أتى الله جل شأنه على تنبيه أذهاننا إلى هذه الأصول الثلاثة من أصول التفسير أنهى هذه الآية الكريمة بقوله **(من لدن حكيم خبير)**.فما هو المقصود منه ؟

فالملاحظ هو أنه تعالى لم يقل **(من لدى)**بل استعاض عن الظرف **(لدى)** بالظرف **(لدن)** فما هي حكمة هذا الاستبدال؟الحكمة من ذلك أن الظرف **(لدن)** يفيد محل ابتداء الغاية.ولذلك جره الله تعالى بحرف **(من)** فأصبح **(من لدن)**.وليعني أن صدور هذا الكتاب العظيم المحكمة والمفصلة آياته قد حدث ابتداؤه من جانب ذات الله نفسه.

وإنه تعالى عندما أضاف صفتيه وهما **(حكيم خبير)**فالمعلوم من معاجم اللغة أن صفة **(حكيم)** هو الذات المتصف بالحكمة والمتقن للأمور والذي يجمع ما بين العلم والعمل وصاحب الحجة القطعية المسماة بالبرهان (محيط المحيط).وأما صفة **(خبير)** ففي معجم (محيط المحيط) الخبير هو العليم ذو الخبرة التامة والعارف بحقيقة الأشياء.فكلمة خبير اشتقت هذه من خبرت فلانا بمعنى امتحنته وبلوته وعلمت حقيقته.ويصبح معنى قوله تعالى **(من لدن حكيم خبير)** أن صدور هذا الكتاب المتميز المحكم الآيات والمقسمة إلى فصول متمايزة والمشروحة قد حدث بحكمة الله تعالى وبخبرته عز وجل.

فهذه هي معاني ودلالات قول الله تعالى في الآية الأولى من سورة هود **(الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)**.فالله جل شأنه وهو يريد أن يبحث في هذه السورة موضوعين هامين مصاغين بصياغة بلاغية معجزة هما بعثة **(شاهد منه)** والإنباء عن هلاك المسيح الدجال الذي يعاصر زمانه فقد اقتضى ذلك أن يلفت تعالى ذهن القارئ إلى تسلسل آيات هذه السورة الموضوعي والمذهل بصورة خاصة وهذا الأمر دعاني إلى القيام بتفسير آيات هذه السورة لإثبات وجود التسلسل الموضوعي المشار إليه والذي لم

تستطع التفاسير القديمة إبرازه لقارئيها.وبما أنه وجدت في هذه السورة لبعض الآيات علاقة بأصول تفسيرية أخرى فقد كانت هناك مناسبة إفصاح في هذه الآية الأولى عن أصلين آخرين يعينان على حل المعضلات العائدة إليهما وعلى هذه الصورة فقد اتضح لي أن الآية

المذكورة قد تضمنت ثلاثة أصول من أصول تفسير آيات القرآن المجيد.وسأعمد إلى الكلام عنها تباعا مع تقديم الأمثلة التي تثبت مصداقيتها إن شاء الله العزيز.



الفصل السابع

الأصل السابع: تسلسل الآيات الموضوعي

فماذا أقصد من (**التسلسل الموضوعي**) المشار إليه؟؟ إن كلمة التسلسل مصدر من سلسل الشيء بمعنى أوصل بعضه ببعض. وإن كلمة الموضوعي نسبة إلى الموضوع العلمي المبحوث. فمن المعلوم أن الله تعالى يبحث موضوعا أو أكثر في كل سورة من سور القرآن المجيد. وتخصص آيات قل عددها أو كثر لبحث الموضوع الواحد. فلا يأتي الله جل شأنه بهذه الآيات بلا روابط معنوية موضوعية بل يأتي بها بتسلسل موضوعي واضح المعالم. وهذا الأمر اقتضاه كون القرآن المجيد(**كتاب**) له مقدمة ومتن وخاتمة. وعلى نفس النحو الذي ينتهجه الكتاب والأدباء. حيث تأتي أفكارهم متسلسلة لا يتخللها أي انقطاع في أفكار الموضوع الواحد ولا تشتت عن الموضوع الأصلي وإن ورد الموضوع الذي يبحثونه مقسما إلى أبواب وإلى فصول ووفق مقتضيات الحال.

فإن تذكر القارئ ما أورده الله تعالى في كتابه العزيز من تحديات خمسة لزم أن يكون هذا القرآن العظيم من حيث تسلسل آياته الموضوعي في غاية الإتقان في مواجهة كل من وجهت إليهم هذه التحديات المشار إليها. وإلا يكون هذا الكتاب معرضا للطعن فيه.

وقد انتبه العلامة الفخر الرازي رحمه الله إلى هذه الناحية التي ذكرناها وهذا ما دفعه على وجه العموم إلى البحث عما يربط الآيات بعضها ببعض موضوعيا ومستعملا كلمة (**نظم**) تعبيرا من جانبه عن تلك العلاقة الموضوعية وقد اصطلحت أنا لهذه العلاقة المذكورة مصطلح (**تسلسل الآيات الموضوعي**)فحيث استعملت هذا المصطلح أكون قد قصدت بيان العلاقة الموضوعية التي تربط ما بين آية وأخرى أو ما بين سورة وسورة أخرى وردت بعدها مباشرة.ومن باب أن من ظواهر عظمة هذا القرآن الكريم أنه لا يربط ما بين الآيات موضوعيا وحسب.بل ويلاحظ وجود رابطة موضوعية دوما ما بين الآيات الأخيرة من كل سورة وما بين الآيات الأوائل من السورة التي تأتي بعدها. وإنها لحقيقة مدهشة أبرزت معالمها في مؤلف (فن الاختزال في القرآن الكريم).

وإن هذا التسلسل الموضوعي لا يعني أنه لا يحدث أي انقطاع معنوي بين آيات سورة بعينها بل بالإمكان أن يحدث مثل ذلك إنما يكون سبب الانقطاع عندئذ أن الله تعالى ي قد أراد هناك الإجابة على سؤال جوهري قد طرح نفسه في ذلك المقام.ومن باب أن الخصوصية الرابعة لهذا القرآن الكريم تقضي بذلك وعلى حسب ما بينته في مؤلف (خصوصيات القرآن المعجزة) وبإمكان القارئ العودة إلى ذاك الكتاب المشار إليه لفهم موضوع هذه الخصوصية فهما موضوعيا مع الاطلاع على الأمثلة المضروبة هناك والتي تزيد من إدراك أبعاد هذه الخصوصية الرابعة المعجزة التي نوهت بها في هذا المقام.فالإحاطة بموضوع الخصوصية المشار إليها ضروري لكل مؤمن يتصدى لتدبر وتفسير آيات هذا القرآن المجيد.

سورة هود وتسلسل آياتها الموضوعي:

ولما كان من الصعب على كل امرئ أن يراجع (خصوصيات القرآن المعجزة) فأرى من المناسب أن أقدم له مثالا عمليا أستقيه له من الآيات الأوائل من سورة هود والتي تضمنت الآية الأولى منها هذا الأصل السابع للتفسير وهو ضرورة مراعاة التسلسل الموضوعي الذي نتكلم عنه.علما أن بإمكان القارئ مراجعة التفسير الكامل لسورة هود المطبوع والمتداول في الأسواق.

فالقارئ لابد أن لاحظ أن الله تعالى قال في الآيات الثانية والثالثة والرابعة من سورة هود(**ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير.وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير.إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير.**)

لكنه تعالى وبعد هذه الآيات راح يقول (**ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور.**)

أفلا تلاحظ يا عزيزي كيف لاح ما بين مضمون هذه الآية الكريمة وما بين الآيات التي قبلها انقطاع معنوي ظاهري؟فعلى حين كان الله تعالى ويعظ الناس أنتقل في هذه الآية مباشرة ليتكلم عن شريحة من الناس يثنون صدورهم ليستخفوا منه فهو تعالى لم يذكر أسماء بعينها ليعود إليهم ضمير (**إنهم**) **ومن باب** أن الضمائر وجدت لتحل محل الأسماء فأين الاسم الذي يعود إليه ضمير (**إنهم**) ؟ أضف إلى ذلك أن الله تعالى استهل هذه الآية الخامسة بحرف (ألا) وهو حرف يستعمل للتنبيه من جهة كما يستعمل للابتداء من جهة ثانية (محيط المحيط).

وقد يسأل القارئ عما كتبه المفسرون القدماء بهذا الخصوص وإجابة على ذلك أقول: إن العلامة الفخر الرازي مؤلف التفسير الكبير أعاد ضمير (إنهم) إلى قريش قوم محمد (ص).وقد فعل هذا من دون أن يأتي بدليل يثبت مصداقية ما فعله.ونقل رواية تقول إن الواحد من كفار قريش كان إذا مر بجانب رسول الله كان يثني صدره ويستغشي ثيابه كيلا يقع في أذنيه شيء من ألفاظ الآيات التي كان رسول الله يتلوها على مسامعهم.

فالسؤال والحال هذه هل يصح إعادة ضمر (إنهم) إلى كفار قريش؟وهل أن هذه الرواية صحيحة وتحمل حقيقة واقعية؟وما هو السبب المنطقي المعقول الذي يبرر إحداث هذا الانقطاع المعنوي في هذا المقام؟وكيف نفسر هذه الآية الكريمة؟؟ فهذه أسئلة لابد من الإجابة عليها بإجابات مقنعة.

والمهم في الأمر هو أنه قد حدث هنا ما بين الآيات السابقة وما بين هذه الآية ظاهرة انقطاع في تسلسل المعاني للآيات.وهو المطلوب الكلام عنه والذي يعود إلى الخصوصية الرابعة للقرآن المجيد والتي أشرت إليها من قبل وطلبت هناك العودة لمطالعة مضمونها في مؤلفي الذي أشرت إليه.

إن هذه الخصوصية تعني أنه قد طرح سؤال جوهري نفسه في هذا المقام وقد راح الله تعالى يجيب عليه.وليستمر جل شأنه بعد ذلك بالعودة إلى الكلام في الموضوع الأصلي.لذا كان من واجبنا البحث عن هذا السؤال وتقديره بأسلوب صحيح. فما هو هذا السؤال الذي طرح نفسه هنا وكيف بالإمكان تقديره؟

قلنا إن حرف(ألا)دل على الابتداء للإجابة عن السؤال المطروح.وبإمكاننا تقدير هذا السؤال المطروح بأسلوبين: فالأسلوب الأول هو أن نقدره من معطيات الآيات السابقة التي نشأ عنها هذا السؤال تلك الآيات

التي حددت ما بعث محمد رسول الله للدعوة إليه.والأسلوب الثاني أن نقدر هذا السؤال من مضمون الآية نفسها التي نحن بصددها.

فبالنسبة للآيات السابقة نلاحظ بأن مضمونها يشابه مضمون ما دعا إليه جميع رسل الله الكرام منذ آدم ومرورا بعشرات الرسل وانتهاء بمحمد (ص).فجميع رسل الله تعالى كانوا يدعون الناس إلى عبادة الله الأحد ويصفون لهم وصفة الاستغفار ويعدونهم بأجر كبير أخروي ويحذرونهم من العذاب. وإن الإنسان المفكر يتساءل والحال هذه عن سبب بقاء الكفر والشرك بالله تعالى هو الغالب على عقائد الناس في مختلف بقاع الأرض.أي أنه بالرغم من هذه الدعوة المستمرة والتي تمثل رأفة الله تعالى بعباده فإن أكثرية الناس تظل إما من الكافرين أو من المشركين.فهذا هو السؤال الجوهري الناشئ في هذا المقام والذي راح الله تعالى يجيب عليه إجابة نابعة من واقع هؤلاء الناس وقد صاغ تعالى إجابته تلك بصياغة بلاغية معجزة.

والأسلوب الثاني لتقدير هذا السؤال ينبع من معطيات هذه الآية نفسها والتي استهلها جل شأنه بقوله(**ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه..**) لذلك وجب تدبر هذا الكلام الإلهي بمنهجيته وبأصوله التي ينبغي علينا أن نتدبره وفقا لها.

فالذي نلاحظه هو أن الله تعالى أتى بفعل(**يثنون**)وفي وقت نعلم فيه أن صدر الإنسان يتألف من قفصه العظمي الذي يحمي أحشاءه الداخلية الحساسة.وعليه فإن الصدر بهذا المفهوم لا يثني.ويعود هذا الواقع يشكل لدينا قرينة لغوية تنقل معنى الفعل الحقيقي إلى معناه المجازي.فلا يقال فلان قام بثني صدره بل يقال حنى فلان ظهره لكنه إذا اجتمع اثنان للبحث وتحاورا فيقال في حالة الاتفاق شرحت يا هذا صدري.وفي حالة الرفض تقول انقبض صدري مما سمعته منك.هذا ولقد أورد الله تعالى فعل ثني الصدر في هذه الآية الكريمة

كاستعارة وليكني بها عن حال شرائح من الناس الذين يقلدون آباءهم تقليـــدا أعمى ولا يسعون لسماع أي صوت يدعوهم ليعيدوا نظرهم فيما توارثوه عـــن آبائهم وبصورة تقليدية من عقائد في حياهم الفكرية.فالله جل شأنه من خـــلال استعارته للفعل المذكور (**يثنون**) أراد أن يصور لنا أحوال الناس المشار إليـــهم إجابة من طرفه جل شأنه على السؤال الجوهري الذي فرض نفسه والمتعلق ببقاء ظواهر الكفر بالله تعالى ذائعا بين الناس.وكأنه جل شأنه قد قال لنـــا بألفـــاظ أخرى إن أصحاب العقول التقليدية وهؤلاء يشكلون غالبيـــة النـــاس فـــهم يسمعون في كل زمان ما يدعوهم إليه رسول أمتهم فلا يستجيبون للحوار معـه لكن شكوكا تتولد في صدورهم حول ما ورثوه من عقائد آبائهم ولا يســعون للحوار ولا إلى تنظيف صدورهم من تلك الشكوك.وتراكم تلـــك الشـــكوك وتبعدهم بالتالي عن التفكير فيما كان رسل الله يدعوهم إليه.فهذا هو الســـبب الحقيقي لبقاء الكفر منتشرا بين أغلبية الناس على سطح هذه الكرة الأرضية.

فعلى هذه الصورة وبهذين الأسلوبين من التدقيق نكون قد توصلنـــا إلى السؤال الجوهري الذي طرح نفسه في هذا المقام والذي راح الله جـــل شـــأنه يجيب عليه بشكل معترض وليعود الله تعالى بعد ذلك ليتكلـــم في الموضـــوع الأصلي الذي خصصت له سورة هود.

فهذا هو السبب في حدوث هذا الانقطاع في تسلسل الآيات الموضوعـي والذي أشار تعالى إليه بحرف التنبيه والابتداء (**ألا**) ويكون ضمير(**إنهم**)والحـــال هذه عائد إلى هذه الأغلبية من الناس الكافرين والذين تسبب بقـــاؤهم علـــى كفرهم بهذا السؤال الجوهري الذي ذكرناه.

فهذه الحقيقة التي توصلنا إليها يثبت منها خطأ ما تبادر من هذه الآيـــة الكريمة لذهن العلامة الرازي رحمه الله من معنى كما يثبت منه عـــدم صحـــة الرواية التي أوردها في تفسيره.فالرازي لم يتساءل حين جلس يفسر هذه الآيـــة

الكريمة عن سبب استهلال الله تعالى لهذه الآية الكريمة بحرف التنبيه (**ألا**) ولا هو أدلى بالحجة التي دفعته لإعادة ضمير (**إنهم**)إلى قبيلة قريش.خصوصا وأن ما تضمنته هذه الآية الكريمة من معنى يتصف بالشمولية وليس فيه تخصيص بقوم معين كقريش أو غيرهم من الأقوام.

وإن ما يؤكد صحة المعنى الذي توصلنا إليه هو أن الله تعالى أتى للمرة الثانية بحرف التنبيه (**ألا**) وأضاف يقول (**ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور**).فنبه أذهاننا من خلال ذلك إلى أن الأمر الذي نبحث فيه متعلق بما يدور في الصدور.بما يدور في صدر كل إنسان هذا الذي يستحيل أن نحيط بما في صدره علما إلا إذا كنا نعلم ما يسره المرء وما يعلنه.وإن من المعلوم أن هذه القدرات لا يملكها الإنسان المخلوق ولكن يملكها الله تعالى الذي خلقه.والذي هو (**عليم بذات الصدور**).

وليلاحظ القارئ كيف أن الله جل شأنه لم يكتف بادعائه أنه تعالى (**عليم بذات الصدور**) بل راح جل شأنه يدلي بدليل علمي قائم على الملاحظة والتجربة والاستنتاج ليثبت من خلاله ادعاءه المذكور ومن باب أن الله تعالى لا يدعي ادعاء إلا ويتبعه بدليل مصداقيته.وقد صاغ الله تعالى دليله المشار إليه صياغة بلاغية معجزة وقال (**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين**). فما هو مضمون هذا الدليل العلمي ؟

تضمن هذا الدليل العلمي مقدمة مستقاة من واقع هذه الحياة الدنيا.ونتيجة مستخلصة من هذه المقدمة.وأختصر ذلك فأقول:إن الله تعالى لفت أنظارنا إلى حقيقة ظاهرة للعيان وهي أن سطح هذه الكرة الأرضية يعج بالكائنات التي تدب على الأرض وتجد قوت يومها الذي تحتاجه بسهولة وقد صنعت أحشاؤها ملائمة لكل ما تأكله علما بأن كل دابة تعرف ما ينفعها

بصورة غريزية. وقد عبر الله جل شأنه عن ذلك بصياغة بلاغية وقال (**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها**) وإنه جل شأنه قد أتى في قوله هذا بحرف (**إلا**) ليس بمعنى الاستثناء ولكن بمعنى (غير أن) بدليل ورود جمع منكر قبلها غير معرف ولاستحالة إمكانية حذف موصوف الاستثناء وبخلاف معنى (غير)الذي يسمح بحذف الموصوف (محيط المحيط).وقد قصد الله جل اسمه من إيراد حرف (**إلا**) بهذا المعنى ليقلب مفهوم هذه الفقرة لصالح مضمون الدليل العلمي المطلوب.وليصبح المعنى أنه لا توجد دابة على الأرض مهما كان حجمها أو شكلها إلا وأن يكون الله الذي خلقها قد هيأ لها رزقها المناسب لها حفظا لها من أن تمرض أو أن تنقرض.

فلنلاحظ كيف أن هذا المعنى الجديد منحها بعدا علميا أفاد في مجال إكمال أبعاد مقدمة هذا الدليل.أي أنه أفاد معنى الاستغراق وليشمل كل دابة تدب على الأرض وتركنا وقد سارعنا للتحقق من مصداقية ذلك عمليا حتى إذا تأكدنا من صحة ذلك أدركنا مدى ما لله تعالى من واسع علم ومن عظيم قدرات.

ولنلاحظ كيف أن الله تعالى قال بعد ذلك (**ويعلم مستقرها ومستودعها**) أي أنه أتى بعد ذلك بالواو كحرف عطف يفيد معنى الحال بسبب أنه تعالى أدخله على فعل (ويعلم) وليصبح المعنى بأنه لولا أن كان الله الخالق يعلم علما يقينيا (**مستقرها ومستودعها**) لاستحال عليه تحقيق ما لفت أنظارنا إليه.

فما هو معنى قوله تعالى (**مستقرها ومستودعها**) ؟

ففي (محيط المحيط) تقول استقرَّ فلانٌ بالمكان استقراراً بمعنى ثبتَ وتمكّنَ وسكن.والمُستقرُّ هو موضعُ ومكانُ الاستقرار.أمّا القرارَ فمعناهُ المُطْمئنُّ من الأرض والمُستقرُّ الثابت منها.وقد وُصِفت النّارُ في الآيةِ من سورةِ (ص)بقولهِ

تعالى (**فبئسَ القرار**).ووصِفتِ الأرضُ في سورةِ (المؤمن) بصفةِ القـــرارِ أيضـــاً فقالَ تعالى (**جعلَ لكمُ الأرضَ قراراً**) .

وأمّا قولُ اللّهِ تعالى (**ومُستودعها**) فالمستودع اسم مفعول وهو مكـــانُ الحفظِ والوديعة.وعليهِ يكونُ اللّهُ جلَّ شأنهُ قد نبَّهَ أذهاننا إلى أنَّ هـــذه الأرضَ هي مُستقرٌّ للجنينِ الّذي هو في بطنِ أمِّهِ وهي مُستقرٌّ للإنسانِ بعـــد أن يبلُـــغَ رُشده.وأنَّ الغلالَ توضعُ في المستودعات ومن ثمَّ تستقرُّ في البطون.وهذا الأمـــرُ ينطبقُ على جميعِ ما في هذه الأرضِ من دواب.

ولنُلاحظ كيفَ نبَّهَ تعالى أذهاننا من خلالِ فعل(**ويعلمُ**)إلى أنَّهُ تعالى لولا أن كانَ يعلمُ علماً يقينيّاً حقائقَ جميعِ هذه الأمور لكانَت قد ظـــهرَت بـــوادرُ نقصٍ هنا وهناك بشأنِ ما كلِّ ما يدُبُّ على وجهِ الأرض ولكانَ قـــد اختـــلَّ التّوازُنُ الحياتيّ فيها.

ولم يكتفِ اللّهُ جلَّ شأنهُ بكلِّ ما بينَهُ من قبل.بل وأنهى هـــذه الآيـــةَ الكريمةَ بقولهِ تعالى(**كُلٌّ في كتاب مبين**) وقد حذفَ مفعول(**مبين**) لِيُصرِّفُ معناهُ إلى عدَّةِ أمورٍ منها كونُ اللّهِ تعالى (**عليمٌ بذاتِ الصّدور**).وبهذا الأسلوبِ مـــن الصياغةَ البلاغيَّة يكونُ تعالى قد أتى على اختصارِ هذا الدليل العلميّ .

والآنَ وبعدَ أن فرغَ اللّهُ تعالى من الإجابةِ علـــى الســـؤال الجوهـــريّ المفترض ومن التّدليل على أنَّهُ تعالى عليمٌ بذاتِ الصّدور فإنَّ التّسلسُلَ الموضوعيّ يقتضي منَ اللّهِ جلَّ شأنهُ أن يعودَ إلى الموضوعِ الأصليّ الّـــذي كـــانَ يبحثـــهُ ويتكلّمُ فيه.ولنُلاحظ دقّةَ التّعبيرِ الإلهيِّ وعظمةَ صياغتهِ البلاغيَّة حين حـــاولَ أن يفعلَ ذلك.

فمن المعلومِ أنَّ اللّهَ تعالى كانَ قد قالَ قبلَ ذلك (**إلى اللّهِ مَرجعكم وهو على كلِّ شيءٍ قدير**) وإنَّ قولهُ هذا يعني بألفاظٍ أُخرى أنَّ اللّهَ تعالى لم يخلـــق هذا الإنسان عبثاً بل جعلَ لحياتهِ مقصداً أسمى ومن واجبهِ أن يسعى لِتحقيقـــهِ

ومن باب أنه تعالى يبعثه بعد موته وتعود أموره إلى الله الذي خلقه ليحاسبه على كل تقصير في هذا المجال.وهذه الحقيقة كانت تقتضي منه جل شأنه أن يوضح لهذا الإنسان هذا المقصد من خلقه.ولنلاحظ كيف عاد تعالى إلى التسلسل الموضوعي للآيات وإلى الأسلوب البلاغي الذي انتهجه في هذا المجال.

فكما أن الله تعالى أتى بحرف الابتداء (**ألا**)وضمير (**إنهم**)حين شاء قطع تسلسل كلامه الموضوعي من أجل أن يجيب على سؤال جوهري عارض.فإنه جل شأنه أتى هنا بضمير (**هو الذي**) ليربط ما بين ما انقطع ولنعيد هذا الضمير إلى الاسم الوارد في آخر آية سابقة وهو قوله تعالى هناك (**إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير**) وراح تعالى يقول (**وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**) وقد أفاد حذف مفعول كلمة(**مبين**) من آخر الآية السابقة لتصريف الكلام إلى أنه ما دام قد ثبت من خلال هذه الحقيقة التي أظهرها هذا الدليل العلمي الآنف الذكر بأن الله تعالى كان قد قدر لكل دابة مسار حياتها فلا يعقل أن يكون تعالى قد خلق هذا الكون اللانهائي مسخرا لصالح هذا الإنسان من غير أن يكون قد رسم له مقصدا أسمى من حياته وأوجب عليه السعي لتحقيقه.

فإن نحن قمنا بتدبر الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى فيها(**وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام**) نلاحظ بأنه جل شأنه قد لفت أنظارنا إلى أنه قد مضى على خلق هذا العالم مليارات السنوات حددها في ستة أدوار زمنية إلى أن جاء اليوم الذي خلق فيه هذا الإنسان ليستفيد من جميع ما خلق له في هذا الكون اللانهائي.وما دام الله تعالى قد حدد مسار كل دابة تدب على الأرض وجعل لحياتها مقصدا.فهذا الإنسان الذي امتاز عن تلك الدواب من حيث قواه الفطرية وعقله وإرادته وحرية اختياره إذا كان الله قد

خلقه كباقي المخلوقات من دون أن يجعل لحياته مقصدا فيستحيل على العقل أن يصدق ذلك.

ومن ثم أتى تعالى بالفقرة الثانية من هذه الآية الكريمة ليوضح للقارئ فيها كيف كانت تجري أمور العالم قبل خلق الله تعالى لهذا الإنسان وقال (**وكان عرشه على الماء**) فالملك يصدر أوامره من فوق عرشه.والماء استعمل في هذه الآية كناية عن الوحي السماوي.فالماء المادي هو أصل الحياة. كذلك فإن الوحي السماوي هو أصل ما يجري في هذا الكون.فهو نمير هذه الحياة.أي أن الله تعالى نبه عقولنا من خلال قوله تعالى (**وكان عرشه على الماء**) إلى أن كل شيء في هذا الكون قد تحقق بأوامر صادرة عنه جل شأنه إلى ملائكته فكانوا يفعلون ما يؤمرون به.ومن ثم فقد راح الله جل شأنه يعلل فعله هذا الذي تمثل في خلقه لهذا العالم وما فيه وقال(**ليبلوكم أيكم أحسن عملا**) فقد أتى بفعل (**يبلوكم**) من بلاه بمعنى أنه جربه واختبره(محيط المحيط).وبذلك يكون جل شأنه قد وضح لنا فلسفة هذه الحياة الدنيا بمعنى أن هذا الإنسان هو محور خلق هذا الكون كله وأن كل شيء قد جعله الخالق مسخرا من أجله.والمقصد من ذلك أن يختبر الله الخالق مدى استعمال هذا المخلوق لعقله وإرادته وحرية اختياره التي ميزه بها عن غيره من الكائنات الحية دفعا إياه للتعرف على خالقه ولطلب محبته وقربه ورضوانه.

ومن المعلوم أن الذي يتعرض للاختبار والامتحان لا يترك سدى بل يكرم هذا الممتحن أو يهان وبهذا الأسلوب من صياغة الله تعالى لهذه الفقرة من الآية الكريمة يكون قد نبه عقولنا أيضا إلى وجود عالم آخر ليحاسب فيه الإنسان هناك على ما عمل وليكافأ أو يهان.كما نبه عقولنا من خلال ذلك أيضا إلى أن اختبار الله تعالى المشار إليه لا يتعدى نطاق أعمالنا ويأتي على قدر استجابتنا لتعاليم ربنا والعمل عليها أو الكفر بها نظريا وعمليا.ولنلاحظ كيف أنه تعالى

استعمل في هذه الفقرة صيغة (**أحسن**) وهي صيغة تفضيل وذلك ليدفعنا إلى التسابق في ميادين العمل أيضا.

فبهذا الأسلوب المتميز وبهذا النظم البلاغي المعجز يكون الله جل شأنه قد أعادنا إلى أصل الموضوع الذي تبحثه هذه السورة من بعد أن أجاب على تساؤلاتنا الافتراضية بإجابات علمية مقنعة وموضحا في الوقت نفسه فلسفة هذه الحياة الدنيا من خلال فقرة لا تتعدى ألفاظها أربعة كلمات وقد نبه في هذه الفقرة أيضا إلى وجود الحياة الآخرة والبعث بعد الموت.ودليلنا على ذلك أنه جل شأنه قد شاء أن يلفت نظرنا إلى سبب آخر من أسباب انتشار الكفر بالله وليحدث ربطا موضوعيا أيضا ما بين هذه الفقرة الأخيرة وما بين أصل الموضوع فقال تعالى (**ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**.).فما هي معالم هذا السبب الجديد؟

إن الله تعالى عندما استعمل كلمة(**سحر**)في هذه الآية الكريمة لم يرد بها مفهومها العام الشائع بين الناس بل أراد منها معناها اللغوي.فقد ورد في (محيط المحيط) سحر فلان فلانا معناه خدعه. فالسحر هو عملية إخراج الشيء في أحسن معارضه وإلى حد الافتتان لذلك يقال عن الجمال الفائق: سحر حلال. والمهم من هذا كله هو أن الله تعالى قد وضح بأن من أسباب انتشار الكفر وعدم تبين الحقيقة للناس هو غلبة ظن السوء على شريحة كبيرة منهم. فهؤلاء عندما يسمعون مواعظ ونصائح رسل الله تعالى تقع في أذهانهم فبدلا من أن يرجعوا إلى الرسول الواعظ بها لمحاورته يتركون سوء الظن يغلب على عقولهم فيتصورون أنه جاء يسعى إلى خداعهم بهذا الأسلوب ليفتنهم وليشدهم إليه لتحقيق أغراضه الشخصية. فهذا هو معنى قوله تعالى في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة (**ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**) .وإن حرف (إلا) زائدة لا عمل لها.

ولما كان الامتحان ما إن ينتهي ينتظر الذين امتحنوا نتـــائج الامتحـــان الذي فرغوا من تأديته. لذلك فإن الله تعالى راح يقول بخصوص ذلك (**ولئـــن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيـــهم ليـــس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.**).

فلنلاحظ كيف أن الله تعالى قسم هذه الآية الكريمة إلى فقرتين واســتهل الفقرة الثانية بحرف التنبيه والابتداء (**ألا**)تنبيها لأذهاننا إلى أن إعـــلان نتـــائج الامتحان لا تعلن إلا بعد أن يؤدي الرسول رسالة ربه وبعـــد أن يلقـــي هـــذا الرسول حجة ربه على الذين أرسل إليهم وليبدي المؤمنون ثباتهم على إيمانهم في وجه الذين يكفرونهم.فيومئذ يترل العذاب بساحة الكافرين وتكـــون العاقبـــة للمؤمنين.ولتأدية هذا المعنى فقد لاحظنا كيف أن الله تعالى أتى بكلمة (**أمـــة**) بمعنى طائفة من الناس وغير مخصصة بقوم معين.كما أتى بكلمة (**معـــدودات**) تنبيها إلى أن هذا العذاب أو تلك النتائج تأتي بعـــد اســـتكمال ذلـــك بأيـــام معدودات (محيط المحيط).

ولنلاحظ أيضا كيف أن الله عز وجل نبه في هذه الآية الكريمـــة ومـــن خلال كلمتين فقط إلى نتائج سوء الظن التي تتسبب بالبعد عن الإيمان وقـــال على لسان الطائفة من الناس الذين يظنون ظن السوء برسولهم الأمـــر الـــذي يبعدهم عن محاورته والإيمان برسالته فقال(**ليقولن ما يحبسه ؟**) .

وأما في الشطر الآخر من هذه الآية الكريمة فقد بدل تعـــالى أســـلوب الإخبار إلى أسلوب جزم وتقرير ومستهلا إياه بحرف التنبيه(**ألا**) وقال (**ألا يـــوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**).أي فلا تمضـــي تلك الأيام المعدودات بعد اكتمال الامتحان إلا وتظهر نتائجه المنتظرة ويـــترل العذاب بالكفار الذين أساءوا الظن برسولهم وعادوا يطالبون بإنزال عاب اللـــه تعالى عليهم إن كان صادقا.وبذلك يكون الله تعالى قد وضح لنا ما يترتب على

سوء الظن بالرسل من امتحان للظان كما وضح النتائج المترتبة عليه وبصورة نظرية.

وسعيا لإظهار ذلك من قبله تعالى من الوجهة العملية وتوضيح آلية ما يمر منه الكافر الظان بالسوء من مراحل فقد خصص الله تعالى لذلك ثلاث آيات أوردها بعد ذلك حيث قال تعالى في الآية الأولى منها (**ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور**) فنسب جل شأنه جميع أسباب مجريات الأمور إلى نفسه موضحا بأنه تعالى يمرر هذا الكافر من حالة رخاء وعبر عن ذلك بقوله (**منا رحمة**) ولتشكل هذه الر حمة ظاهرة تعطف وترفق وغفران من قبله تعالى.ومن ثم يمرر هذا الكافر بمرحلة أخرى مضادة للأولى أشار إليها من خلال قوله تعالى (**ثم نزعناها منه**) فالحرف (**ثم**)للترتيب.وبمعنى أننا نقلب موازين الحالة الأولى فنفسدها ونعطلها.وما إن فرغ جل شأنه من بيان هاتين الحالتين حتى راح يصف حال الكافر الجاهل فلسفة هذه الحياة الدنيا العائدة إلى أعماله وقال (**إنه ليؤوس كفور**) أي أن تناوب هاتين الحالتين تدفعه إلى الكفر بالرحمة التي رحمه بها ربه من قبل وتتملك نفسه حالة يأس وقنوط قد تودي به إلى الانتحار.

وفي الآية الثانية من هذه الآيات الثلاثة وصف الله تعالى هذا الكافر الذي عاد ربه ينعم عليه فقال (**ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور**) أي أن هذه الحالة الثالثة التي يمر بها هذا الكافر يتصور فيها أن ربه قد رضي عنه وعفا عن سيئاته لذلك يقول (**ذهب السيئات عني**) فالسيئة تعني الخطيئة (محيط المحيط) أي أن هذا الكافر لا يفطن إلى أن ربه يمرره من هذه الحالات الثلاثة ليختبره ويبلوه على صعيد عمله.والسبب في ذلك أنه يجهل فلسفة هذه الحياة التي وجد فيها بعد

ولادته.وإن جهله هذا يدفعه لينقلب من حالة يأس إلى حالة فخر وسرور. وهذه الحالة الأخيرة عبر الله تعالى عنها بقوله (**إنه لفرح فخور**).

وبعد أن صور الله جل شأنه للقارئ هذه الحالات الثلاث التي تنتاب الكافر الجاهل بفلسفة هذه الحياة الدنيا.فقد شاء تعالى أن يعطي القارئ صورة حقيقية في مقابل ذلك بما يتعلق بالإنسان المؤمن بهذه الفلسفة الحياتية الإيمانية فقال في الآية الثالثة(**إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير**).بمعنى أن المؤمنين العارفين بفلسفة الحياة الدنيا يصبرون على ما يبتليهم به ربهم ويمتحنهم فيه من خلال تمريره تعالى إياهم من هذه الحالات الثلاثة.ولا يكتفون بالصبر على ذلك كله بل ويعملون الصالحات أيضا ليثبتوا بذلك لربهم أنهم من الشاكرين لنعمائه التي ينعمها عليهم خلاف ما هو عليه حال الكافرين.

وهنا راح الله جل شأنه في الفقرة الأخيرة من هذه لآية الثالثة يوضح للقارئ بأن هؤلاء الذين آمنوا بهذه الفلسفة الحياتية وصبروا على ما يبتليهم به ربهم ويعملون الصالحات قد نجحوا في الامتحان لذلك يؤجرون بقسمين من الأجر.وعبر تعالى عن ذلك بقوله في الفقرة الأخيرة (**أولئك لهم مغفرة وأجر كبير**). فما هي معالم كل أجر منهما والمشار إليهما في هذه الفقرة الأخيرة؟

إن التقسيم المذكور بشأن أجر المؤمن الذي يعمل الصالحات اقتضاه الامتحان نفسه فإن لهذا الامتحان وقت إعلان لنتائجه.وله أيضا ثمره الذي يأتي ما بعد الامتحان.وقد استعمل الله تعالى للقسم الأول كلمة (**مغفرة**) وللقسم الثاني (**وأجر كبير**).فكلمة مغفرة اشتقت من قولك غفرت الشيء وتعني أنك قمت بسترته.كما تقول غفر الله لي ذنوبي بمعنى غطى علي وعفا عني (محيط المحيط). فالله تعالى إذا راح يعلن نتائج الامتحان وعلى حسب معطيات هذه الآية الكريمة يغفر للمؤمن أخطاءه غير المتعمدة ويبدي له تأييده إياه ونصرته إياه

على عدوه.فهذا أجر بما يتعلق بالمغفرة.وأما ما يتعلق بالأجر الكبير فإن هذا المؤمن يجني منه بعد موته.وهو ما سماه هذا القرآن بدخول المؤمن جنات تجري من تحتها الأنهار.مع الملاحظة بأن الله تعالى وصف هذا القسم الثاني من الأجر بصفة (**كبير**)من كبره أي زاد عليه (محيط المحيط).وليشير تعالى به إلى أن ما أعده جل شأنه لهذا المؤمن الصالح هو من قبيل العطاء الأكثر استحقاقا.

وهكذا فإن هذه الآيات الثلاث التي أوردناها شرحت أحوال الناس الظانين بربهم ورسله ظن السوء وذلك في الآيتين الأولى والثانية.كما شرحت أحوال طائفة المؤمنين الذين استجابوا لربهم وعملوا الصالحات وفازوا في الابتلاء ا الذي ترتب على فلسفة هذه الحياة الدنيا وكما وضحتها آيات هذا القرآن الكريم.

وليلاحظ القارئ كيف أن الله تعالى وبعد أن تجلت عظمة تسلسل آياته الموضوعي وعلى حسب ما بيناه سابقا رح يقول(**فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل**).

وقد صاغ الله جل شأنه هذه الآية الكريمة على صورة يتبادر منها لذهن الإنسان غير ما قصده تعالى من مضمونها.وقد أخذ المفسرون القدماء رحمهم الله بالمعنى المتبادر لأذهانهم وهو معنى لا يتفق مع التسلسل الموضوعي للآيات ولا حاجة بي لإيراد ما كتبوه بهذا الشأن.

أقول:إذا أمعن القارئ فكره فيما تضمنته الفقرة الأخيرة (**لهم مغفرة وأجر كبير**)والصادرة على لسان محمد(ص)النبي الأمي اليتيم والذي عاش في كنف رعاية عمه فلا يستسيغ السامع ما وعد به محمد المؤمن ومن خلال هذه الآية الكريمة بهذا (**الأجر الكبير**) فيتساءل في حديث نفسه ومن أين لهذا الفقير اليتيم أن يفي بهذا الوعد المتعلق بالأجر الكبير؟ وإن هذه الخاطرة هي التي

خطرت في قلوب الكافرين بعد سماعهم بأن محمدا اليتيم يعـــد بهـــذا الوعـــد الكبير.وبدلا من أن يتهموا رسول الله (ص) بالكذب. استغلوا ذلـــك لتوعيـــة هؤلاء الذين آمنوا به إلى أنه يعدهم بما لا يستطيع الوفاء به بشكل من الأشكال.

فالله جل شأنه قد خصص هذه الآية الكريمة لإظهار ما دار في أفئـــــدة الكفار من اعتراض على (**الأجر الكبير**)الموعود به في الفقرة الأخيرة من الآيـــة السابقة ورد عليه بصياغة بلاغية معجزة لا تدرك إلا بعد تدبر هذه الآية الكريمة بأصول تدبرها.

ألا إن الله تعالى استعمل الحرف المشبه بالفعل (**لعـــل**)في هـــذه الآيـــة مختصا بالممكن الذي لا وثوق بالحصول عليه.كما أنه تعالى قد استعمل الحرف (**لولا**) بمعنى الاستفهام الذي دل عليه حرف (**لولا**) وعلى شاكلة قول الله تعالى في مقام آخر(**لولا أخرتني إلى أجل قريب**).وعليه فكأن الله تعالى راح ينقل لنـــا قول الكفار الموجه لتوعية الذين آمنوا والذي يقولون فيه أفلا تلاحظون كيـــف أن هذا الذي يدعي أنه رسول الله كيف يعدكم بأجر كبير وفي وقت لا يملـــك فيه ما يساعده على الوفاء بما يعدكم به؟ ولذلك أضافوا يقولون بداعي الإشفاق عليهم (**لولا أنزل عليه كنز**) أي تمنوا على ربكم أن ينزل عليه كنزا من السمـــاء ليتمكن من الإيفاء بما يعدكم به.

فانطلاقا من فهمنا هذا الآنف الذكر يعود معنى قوله تعالى الذي اســتهل به هذه الآية الكريمة وهو (**فلعلك تارك بعض ما يوحى إليـــك وضـــائق بـــه صدرك**) أن الله جل شأنه قد عبر بهذا الشطر الأول عن القصد الـــذي ســـعى الكافرون المعترضون لتحقيقه من وراء محاولتهم تشويش أذهان المؤمنين بـــالذي سبق أن توصلنا إليه من معنى.واستنادا إلى ما بيناه من أن الله تعـــالى اســـتعمل (لعل)بترجي الممكن الذي لا وثوق بالحصول عليـــه وكمـــا ورد في (محيـــط

المحيط).وبقرينة أن صدر رسول الله (ص) لا يضيق من جراء مضايقات هؤلاء الكفار المعترضين.

ويبقى علينا أن نتدبر الفقرة الأخيرة التي أنهى الله تعالى بها هذه الآية الكريمة وهي (**إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل**).فهو تعالى أتى بحرف(**إن**)للتأكيد لكنه ما دام قد أدخلها على حرف (**ما**) فقد أبطل عملها.ثم إن قوله تعالى (**إنما أنت نذير**) تضمن ثلاث معلومات:**الأولى** هو أن محمدا هو مجرد نذير و لم يدعي يوما أنه كلف بتوزيع هذا (**الأجر الكبير**).والمعلومة **الثانية** تضمنتها كلمة (**نذير**) فهي تحمل رسالة تحذير إلى هؤلاء الكافرين بشأن عواقب كفرهم برسالة محمد (ص).والمعلومة **الثالثة** تمثلت في أن هذا الوعد صدر عن الله الذي أرسل محمدا وليس عن محمد (ص) نفسه.وهذا ما دعاه جل شأنه ليقول أخيرا (**والله على كل شيء وكيل**).وبمعنى أن الله تعالى الذي وعد بالأجر الكبير هو صاحب القدرات اللانهائية والمحافظ على كل شيء في هذا الوجود.

وليلاحظ القارئ كيف أن الله جل شأنه ما إن فرغ من بيان جميع ما أفضنا في شرحه والكلام عنه إلا وأتى بما يثبت مصداقية ما توصلنا إليه من معاني.فقد كان قصد الكفار المعترضين إثبات أن محمدا (ص) إنما يتقول ما يعد المؤمنين به من عند نفسه افتراء على ربه عز وجل.لذلك نلاحظ بأن الله تعالى راح يقول (**أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**). أي أن الله جل شأنه قد أتى بهذا التحدي الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ردا عليهم ولإثبات أن ما أعلنه الوحي الإلهي وهو يعد(**بالأجر الكبير**)إنما هو وعد صادق و لم يفتر هذا الرسول الأمين إياه على ربه عز وجل.

فما هو مقدار وحقيقة هذا التحدي الذي تضمنته هذه الآية الكريمة؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال ينبغي أن نتذكر بأن سورة هذا التحدي قد أنزلها الله تعالى في مكة المكرمة يوم لم يكن قد اكتمل إنزال هذا الكتاب السماوي المقدس. كما ينبغي لنا أن نتذكر أيضا بأن كلمة (**قرآن**) لم ترد في سياق هذا التحدي المذكور. والملاحظ في هذه الآية الكريمة أن الله تعالى قال (**قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات**) فالضمير من قوله تعالى (**من مثله**) ينبغي علينا أن نرده إلى الاسم الذي جاء هذا الضمير هنا ليحل محله. لذا فمن المنطقي جدا أن يكون القصد من كلمة (**مثل**) هو هذه الآيات القرآنية مجتمعة والواردة في سياق هذا التحدي والتي تضمنت هذا الوعد بهذا (**الأجر الكبير**) وليس الكتاب بأجمعه. إذ لا يعقل أن يتحدى الله تعالى في تلك الفترة الزمنية التي لم يكتمل فيها نزول جميع آيات هذا الكتاب العزيز والذي لم تصبح آياته وسوره متوفرة جميعها بعد بين أيدي هؤلاء الموجه لهم هذا التحدي المذكور. وبذلك يصبح المعنى أن الله تعالى يطالب هؤلاء المعترضين على الوعد بالأجر الكبير أن يأتوا بعشر سور من مثل سور هذا (**الكتاب**) على شرط أن تشابه مضامينها مضامين هذه الآيات السابقة من آيات سورة هود والتي أشار إليها ضمير قوله تعالى (**مثله مفتريات**) .

أما لماذا قال الله جل شأنه في الفقرة الثانية من هذه الآية الكريمة (**وادعوا من استطعتم من دون الله**) فقد قصد تعالى من ذلك نفي أن يكون هنالك في جميع أرجاء هذا العالم من قام بمساعدة هذا الرسول الكريم على افتراء وصياغة هذا الكلام الإلهي.

وليلاحظ القارئ كيف أن الله تعالى ما إن فرغ من إعلان هذا التحدي المذكور والذي ساعد على صيانة أفئدة وأدمغة فئة المؤمنين مما حاوله المعترضون تشويشه إلا وتوجه جل شأنه إلى المؤمنين أنفسهم قائلا (**فإلم يستجيبوا لكم**

فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) ؟ وليشير بذلك إلى أن اعتراض الكفار على (**الأجر الكبير**) إنما كان القصد منه تضليل المؤمنين.وقد سلح الله تعالى المؤمنين بالتحدي الذي سلف ذكره وهذه قرينة تدل على أن خطاب (**فإن لم يستجيبوا لكم**) كان موجها إلى المؤمنين.

والملاحظ هو أن الله تعالى توقف عند هذه الفقرة سالفة الذكر وأتى بفاء الاستئناف.وهذه الخطوة تعني وجود حذف بلاغي في هذا المقام.فما هو تقدير هذا الحذف البلاغي؟ ففي رأيي أن الله تعالى شاء أن يقول لجماعة المؤمنين:ها قد سلحتكم بهذا التحدي في وجوه هؤلاء المعترضين الكفار من أجل أن تتحدوهم به جيلا بعد جيل إن هم تولوا و لم يستجيبوا لكم ليردوا على هذا التحدي المشار إليه.

أما قوله تعالى في الفقرة الثانية التي استهلها بفاء الاستئناف وهي (**فاعلموا أنما أنزل بعلم الله**) فلم يوضح جل شأنه مفعول فعل (**أنزل**)ليعني أن الوعد بالأجر الكبير ليس وعدا اختلقه محمد (ص) ولكنه وعد أنزله الله تعالى الذي بعث محمدا به. كما تعني هذه الفقرة أن الله تعالى يقول لهؤلاء المؤمنين أن عليكم أن تنسبوا هذا التحدي سالف الذكر إلى الله جل شأنه.

ولقد أضاف الله تعالى على ما ذكره وقال (**وأن لا إله إلا هو**).أي يا من عجزتم عن التصدي للتحدي الذي تحديناكم به فقد ثبت من خلال عجزكم هذا وجود الله صاحب هذا التحدي كما ثبتت وحدانيته أيضا.

وأما في الفقرة الأخيرة التي استهلها سبحانه وتعالى بفاء الاستئناف مجددا وقال (**فهل أنتم مسلمون**).فلا أتفق مع رأي المفسرين القدماء رحمهم الله الذين فهموا من هذه الفقرة أن الله تعالى يدعوا المعترضين ليكونوا مسلمين.بل الذي يفرضه منطق هذا الحوار هو أن الله تعالى ما يزال يخاطب جماعة المؤمنين ويقول لهم:إن من واجبكم وبعد أن تلقى حجتي على هؤلاء وعلى كل من يسير

على منهجهم وأفكارهم ومعتقداتهم أن تطالبوهم بالاعتراف بالهزيمة وبالإقرار بذلك ليستحقوا العذاب الذي أنذرهم به هذا الرسول النذير الذي أنذرهم بهذا الإنذار لذا قال تعالى في الآية الثانية (**ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير**) ولنلاحظ كيف أنه تعالى ما إن فرغ من هذا الحوار المنطقي والعقلاني إلا وعاد إلى أصل الموضوع الذي كان يبحثه والذي انتهى عند قوله تعالى (**أولئك لهم مغفرة وأجر كبير**)والذي جر هذا الحوار آنف الذكر وقال متابعا كلامه (**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون**).

فالكلام السابق تعلق بالمقارنة ما بين أحوال فئتي المؤمنين والكافرين نسبة لمواقفهم مما يتعرضون له من امتحانات وابتلاء في حياتهم اليومية انطلاقا من مفهوم فلسفة هذه الحياة الدنيا وكما وضح ذلك تعالى في هذا القرآن المجيد.وقد أكمل الله تعالى بيان تلك الحقيقة الكونية وأضاف يقول هنا(**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها**)بمعنى أن الفلسفة الحياتية المشار إليها تتعلق أصلا بامتحان الإنسان في أعماله وليس بشيئ آخر.وما دام هؤلاء يكذبون رسول الله ويتآمرون عليه فإن الله يتركهم يفعلون ما يريدون أن يفعلوه إنما عليهم أن يتذكروا بأن ما سيقطفونه من ثمار أعمالهم الشريرة تلك فهو الحرمان من النتائج الروحية المقدرة من وراء الأعمال الصالحات واستحقاق إنزال العقاب بهم من جراء مقاومتهم وتكذيبهم لهذا المبعوث السماوي.ولا ينبغي أن يظنوا أننا سنظلمهم بل (**نوف إليهم أعمالهم فيها**) ففعل (**نوف**) اشتق من قولك وفيت فلانا حقه بمعنى أعطيته إياه كاملا (محيط المحيط)

ولقد زاد الله تعالى توضيح ما ذكره وأضاف يقول في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة (**وهم فيها لا يبخسون**) وإن فعل بخسه حقه معناه ظلمه ونقصه إياه (محيط المحيط).وبمعنى أن الأيام ستثبت لهم بأننا لن نظلمهم في شيء.وكأن

الله تعالى قد ذكرهم من خلال هذه الفقرة الأخيرة بأن هؤلاء لن ينالوا في نهاية المطاف(**مغفرة وأجر كبير**)وهو الوعد الذي وعد الله تعالى به كل إنسان يؤمن ويعمل الصالحات.ويكونون بذلك قد ظلموا أنفسهم بأنفسهم وحرموها من تلك النعماء. وقد شاء الله تعالى أن يؤكد لهؤلاء المعترضين بأن وعده تعالى بهذا الأجر الكبير لا يتعلق بهذه الحياة الدنيا بل بالحياة القادمة بعد الموت.لذلك لاحظناه يقول بعد ذلك(**أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون**) ومشيرا بكلمة (**أولئك**) إلى فريق المكذبين الكافرين. فالله تعالى ذكر هنا وبأسلوب خفي إلى أن أعمال الإنسان نفسها تترك آثارا تظهر مجسمة يوم القيامة.وأن أعمال هؤلاء المكذبين الذين كذبوا رسول الله وقاوموه لابد أن تترك آثارا نارية تبدوا لهم يوم القيامة على شكل نيران تأكل صدورهم ألما وحسرة من جراء تكذيبهم رسولا صادقا بعثه ربه لصالح البشر أجمعين.فهذا هو ما قصده جل شأنه من قوله في الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة وهو(**أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار**). ولنلاحظ كذلك كيف أن الله تعالى أتى بعدها بواو العطف التي تفيد معنى الحال لدخولها على الفعل الماضي (حبط) وقال (**وحبط ما صنعوا فيها**).فهو جل شأنه لم يقل وحبط ما عملوا في بسبب أن الأعمال نفسها لا تحبط.وأما الذي يحبط فهو نوعية ما تصنعه هذه الأعمال.وإن هؤلاء قد صنعت أعمالهم العنف والتخريب ومقاومة الصلاح وإن هذا كله لا يدخل في مفهوم العمل الصالح.

وقد أفصح الله جل شأنه عن هذه الحقيقة في الفقرة الأخيرة التي أنهى بها هذه الآية الكريمة حين قال (**وباطل ما كانوا يعملون**).فكلمة (باطل) من بطل الشيء إذا عطله وأذهبه ضياعا.أما إذا قلت : أبطل الرجل فتعني أنه كذب(محيط المحيط)فإن أضفنا إلى ذلك ملاحظة أن الله تعالى أتى بكلمة(باطل) منونة وأن

التنوين يقصد به التفخيم فيكون الله تعالى بذلك قد أكد بأن أعمال هؤلاء الكفار المكذبين كانت من قبيل الباطل وليس من قبيل الحق.

فإن نحن أخذنا بهذا المعنى الذي ذكرناه والعائد لقوله تعالى (**وباطل ما كانوا يصنعون**)ودققنا نظرنا فيه يتبين لنا أنه اشتمل على ادعاء ونطالب بالتالي بتقديم دليل مصداقية ذلك؟ ولنلاحظ كيف أن الله عز وجل ووفق منهجية القرآن وأصول تفسيره وهو الذي لا يدعي ادعاء إلا ويتبعه بدليل مصداقيته لذلك كان من واجبنا أن ننظر إلى الآية التي أتت بعد قوله تعالى(**وباطل ما كانوا يصنعون**) على أنها تحمل الدليل المطلوب وهي الآية التي قال الله تعالى فيها وبصيغة الاستفهام الاستنكاري: **أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تكن في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**).

لذلك أنطلق في فهم هذه الآية الكريمة من منطلق هذا التسلسل الموضوعي لمعطيات الآيات السابقة وعلى حسب ما بيناه.ولا أنخرط فيما وقع فيه المفسرون القدماء رحمهم الله في معانيها ممن لم يكن لهم معرفة بمنهجية القرآن وأصول تفسيره.أي أنني أنطلق من أن الله جل شأنه راح يقدم في هذه الآية الكريمة دليلا على ما ادعاه في الفقرة الأخيرة من الآية السابقة وقال (**وباطل ما كانوا يصنعون**).

فإن القارئ الذي انتبه إلى اعتراض المكذبين على الوعد بالأجر الكبير واطلع على ذاك التحدي القرآني الذي سلح الله تعالى به المؤمنين ليثبتوا من خلاله أن صاحب هذا التحدي هو الله الذي وعد بهذا الأجر الكبير، فقد كان له أن يكتفي هذا القارئ بدليل التحدي بعشر آيات مثله والتي سلف أن قدم التحدي بها سابقا تدليلا على صدق هذا الادعاء الثاني.لكنه ما دام هذا القرآن

الكريم أنزله الله تعالى ليصلح لكل زمان ومكان وكان يعلم يقينا بأنه سيأتي على المسلمين زمان يتخلفون فيه وتتكالب عليهم أمم الأرض وهو الزمان الذي اشتهر بزمن ظهور المسيح الدجال الذي سيعيث في هذه الأرض فسادا ويهيمن على المسلمين المتخلفين.فيفهم من ذلك بأن الله تعالى قد قصد أن يقدم لأمم تلك الحقبة القادمة من الزمان دليلا يختص بهم لإلقاء حجة الله تعالى عليهم.فما هو مضمون هذا الدليل المشار إليه ؟

أقول:إن الله عز وجل راح يقدم لهؤلاء الكفار الذين يظهرون أيام تخلف المسلمين دليلا مؤلفا من ثلاثة أمور ما إن اجتمعت في شخص مدعي النبوة إلا وتشكل هذه الأمور دليلا قاطع الدلالة على صدق نبوته فما هي هذه الأمور الثلاثة؟

أولا هي ادعاء الرجل نفسه النبوة. **ثانيا** وأن يكون من سبقه من الأنبياء قد تركوا نبوءات تتعلق ببعثته.**ثالثا** وأن يأتي بعد مدعي هذه النبوة مبعوث يشهد على صدق نبوته.ولقد أتى الله تعالى بآية مشتملة على هذا الدليل المشار إليه ومصاغة صياغة بلاغية راح تعالى يقول فيها (**أ فمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة**).ولنتابع الآن كيف نبهنا الله تعالى إلى اجتماع هذه العناصر في شخص نبيه محمد الأمين (ص).

قد أشار تعالى إلى الأمر الأول وقال (**أ فمن كان على بينة من ربه**)وحاذفا جواب الاستفهام وليصبح التقدير (كمن هو كاذب).بمعنى أن محمدا رسول الله (ص) هو على بينة من ربه وتبدو معالم هذه البينة على من حوله من أصحابه الذين يتلمسون هذه الحقيقة ولذلك تراهم قد التفوا من حوله يفتدونه بأموالهم وبأرواحهم وهل يفعل هؤلاء الصحابة هذا إلا بعد أن كانوا قد تبينت لهم معالم تلك البينة التي هي من ربه عز وجل؟

وقد أشار الله تعالى إلى الأمر الثاني وقال (**ويتلوه شاهد منه**) فكلمة (يتلوه)معناها يأتي بعده والمعنى أن أمة هذا الرسول الكريم يوم تتخلف وتنحط وتتكالب الأمم عليها يبعث الله تعالى يومئذ من يقوم بتجديد إنهاض الإسلام من كبوته ويكون بذلك شاهدا على صدق نبوة هذا الرسول الكريم

وقد أشار الله تعالى إلى الأمر الثالث وقال (**ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة**).فقد أورد تعالى هنا كلمة(**إماما**) والإمام لغة هو المرشد (محيط المحيط).وبمعنى أن الذي يراجع كتاب النبي موسى عليه السلام يرشده إلى صدق نبوة هذا الرسول الكريم.وقد أشار الله تعالى بذلك إلى نبوءة سفر التثنية الإصحاح الثامن عشر الفقرة ١٨ الوارد فيه (**سأقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيخاطبهم بكل ما آمره به.وأي رجل لم يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه.ولكن أي نبي اعتد بنفسه فقال باسمي قولا لم آمره أن يقوله أو تكلم باسم آلهة أخرى فليقتل ذلك النبي.فإن قلت في قلبك:كيف نعرف القول الذي لم يقله الرب؟ فإن تكلم النبي باسم الرب ولم يتم كلامه ولم يحدث فذلك الكلام لم يتكلم به الرب بل للاعتداد بنفسه تكلم به النبي فلا تهبه**).

وعليه فإن الله تعالى قد أشار من خلال قوله تعالى (**ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة**) إلى هذه النبوءة الموسوية بالذات والشاهدة على صدق نبوة محمد بن عبد الله (ص) والذي يعلم القاصي والداني أنه ادعى النبوة وتكلم باسم ربه فلم يقتل ومات موتا طبيعيا وتحققت في شخصه جميع الأمور التي تضمنتها هذه النبوءة (الرحمة) التي حافظ الله تعالى عليها في كتاب موسى المحرف على أيدي أهله.

أقول:لابد أن لاحظ القارئ كيف أني استرسلت في شرح هذه الآيات كلها.فلا ينبغي له أن يعجب من ذلك فالسبب هو لأني أردت لأثبت للقارئ

العزيز من خلال ذلك مصداقية هذا التسلسل الموضوعي الذي تتصف به آيـــات هذا الكتاب العزيز.والتي يثبت من خلالها مصداقية هذا الأصل الذي أبحث فيه وأتكلم عنه وهو الأصل السابع من أصول تفسير هذا القرآن المجيد.فإن شاء القارئ التوسع ومطالعة ظاهرة هذا التسلسل في جميع ما تضمنته ســـــورة هود من آيات.فليراجع مؤلفي **(في ظلال تفسير سورة هود)** ليتحقق من وجود هذا التسلسل الموضوعي بين آياتها والمصاغ صياغة بلاغية معجــــزة اضطـــرت رسول الله (ص) نفسه ليقول بشأنها (شيبتني هود وأخواتها).

وعليه ومن خلال هذا المثال الآنف الذكر الذي شرحت فيه للقـــارئ الآيـــات الآنفة الذكر من آيات سورة هود يكون قد اتضح لذهــــن القـــارئ حقيقـــة الانقطاع الظاهري الذي يتراءى للقارئ حين يتلو آيات هذا القـــرآن العظيـــم والحادث في تسلسل معانيها وكيف أنه في حقيقة الأمر لا يكـــون هنـــالك أي انقطاع في معانيها. وكل ما يكون قد حدث هو أن سؤالا عارضا قد طـــرح نفسه وقد راح الله تعالى يجيب على ذاك السؤال وليتابع الله تعالى بعد ذلـــك كلامه حول موضوع السورة الأصلي. وبإمكان القارئ المتدبر أن يقدر السؤال المشار إليه بأسلوبين الأول من خلال معطيات آيات السباق. والثاني من خـــلال مضمون الآية الكريمة التي تأتي بعد هذا الانقطاع المعنوي مباشرة.فإن هو لاحظ اتفاق معطيات الأسلوبين على أمر واحد فيكون مضمون هذا الاتفـــاق هـــو السؤال الذي فرض نفسه في ذاك المقام والـــذي تســـبب بالانقطـــاع المشـــار إليه.وعلى كل حال ينبغي على القارئ محاولة مطالعـــة مؤلفـــي (الخصـــائص القرآنية)فهو يوضح له هذه الخصوصية الرابعة وأمثالها من الخصوصيـــات الـــتي يتمتع بها هذا الكتاب المقدس العزيز.

القرآن خلو من التكرار

وقد يخطر ببال القارئ أحيانا كثيرة أن في هذا القرآن الكـــريم تكـــرار لألفاظ معينة.ويتسبب بهذا الخاطر عدم انتباه هذا القارئ إلى أن الله تعـــالى لا يستعمل الكلمة الواحدة بمعنى واحد في جميع آيات كتابه العزيز.بل يحاول جـل شأنه استعمالها بمختلف معانيها وبمختلف دلالاتها اللغوية.لأن الله تعالى كان قد تحدى العرب في لغتهم خمس تحديات ومن المفترض أن يشمل هذا التحدي جميع الفنون اللغوية صرفا ونحوا حقيقة ومجازا اختزالا وتورية وغيرها من الفنون.ومـن جملة ذلك استعمال ألفاظ العربية بمختلف معانيها واستعمالاتها.وهذا هو السبب في أنه تبدو للقارئ أحيانا ظاهرة تكرار لفظ من الألفاظ على حين أنه تعـــالى يكون قد استعمل هذا اللفظ في كل آية بمعنى يختلف عما استعمله لها في آيـــة غيرها.

وعلى سبيل المثال فكلمة (كافر)شائع استعمالها لغير المؤمنين ومشتقة من كفر ضد آمن فقد ورد في معجم (محيط المحيط)كفر بالصانع نفاه وعطله.وكفـر نعمة الله وبنعمة الله جحدها وسترها وضد الشكر.وفي الدعـــاء ولا نكفـــرك وبمعنى ولا نكفر نعمتك.وكفر بكذا تبرأ منه.وورد في الكليات الكفـــر تعـــني تغطية نعم المنعم بالجحود وهو في الدين أكثر.والكفـــران أكـــثر اســـتعمالا في جحود النعمة والكفور فيهما جميعا.وكفر الشيء ستره.وأصل الكفـــر الســـتر وباقي المعاني متفرع منه.وكفر الله له الذنب محاه ومنه في سورة المائدة (**لكفرنـا عنهم سيئاتهم**)**أي** سترناها حتى تصير كأن لم تكن.وكفر له خضع. وكفر عـــن يمينه أعطى عنها الكفارة.والكـــافر اســـم فـــاعل جمعـــه كفـــار وكـــافرون وكفرة.والكفارة هي ما يغطى بها الإثم وغيره.وإن من واجب القارئ المتدبـر أن ينتبه دوما إلى المعنى المقصود من كلمة

(كافر) حيث وردت فقد تكون قد استعملت بمعنى مستقى من المعاني التي أوردها والتي تعنيها هذه الكلمة. ذلك أن الله تعالى استعمل كلمة (كافر) بجميع المعاني التي أوردها المعجم.وإن الإنسان الذي لم يطلع على استعمالات هذه الكلمة وقرأ القرآن الكريم وأخذت تمر من تحت عينيه كلمة (كافر) يأخذ لها في كل مرة معنى واحدا أشرنا إليه وعليه يظن حدوث تكرار في هذه الكلمة على حين أن الحقيقة تكون على خلاف ذلك.وقيسوا على ذلك بقية الألفاظ.

وبألفاظ أخرى أقول: يستحيل على إي إنسان باحث أن يثبت وجود انقطاع في التسلسل الموضوعي لمعاني أية سورة من سور هذا القرآن المجيد.فإن هو تخيل أحيانا وجود مثل هذا الانقطاع في التسلسل الموضوعي فإن ظنه هذا يرجع في حقيقة الأمر لعدم ضلوعه في موضوع منهجية هذا القرآن وأصول تفسيره ليس إلا وتكون الحقيقة غير ذلك.خصوصا وأن تفسير ثلاثة سور هي(الكهف وهود والإسراء) أصبحت مطبوعة ومتداولة بين يديه فليراجعها جميعها وليتأكد من صحة ما ذكرناه وعسى أن يوفقني الله تعالى في المستقبل لتفسير سور أخرى غيرها.

سورة (ق) والسور التابعة لها:

وأضيف وأقول: إن ظاهرة تسلسل الآيات الموضوعي الذي دل عليه هذا الأصل السابع من أصول تفسير آيات هذا القرآن المجيد لم يقتصر على التسلسل الموضوعي بين آيات السورة الواحدة فقط. بل إنه يستحيل أن يعثر القارئ على سورة قرآنية لا ترتبط الآيات الأواخر من آياتها بالآيات الأوائل من آيات السورة التي بعدها ارتباط موضوعيا.وهذه حقيقة أثبت وجودها في مؤلفي (فن الاختزال في القرآن الكريم) وإن بإمكان القارئ الرجوع إلى المؤلف المذكور للتأكد من صحة ما وضحته.ومع ذلك فإني أغتنم مناسبة الكلام عن هذا الأصل السابع لأقدم لهذا القارئ نماذج منها وباختصار غير مخل وكما

فعلت الآن في المثال الذي قدمته من آيات سورة هود.ذلك أن من عظمة هـــذا الكتاب العزيز أن الله جل شأنه قد أورد أبحاثه التي تضمنتها سوره بتسلســـل موضوعي مدهش ومعجز أيضا.ويعسر ملاحظة ذلك إلا بعد الإلمام بمنهجية هذا القرآن وبأصول تفسيره.

فلقد سبق لي أن أثبت في(فن الاختزال)بأن السور القرآنية التي لا تكـــون مستهلة بأحرف مقطعة تشكل في حقيقة أمرها فصولا للسورة الـــتي ســـبقتها والمســـتهلة بـــأحرف مقطعـــة.واســـتنادا إلى ذلـــك أحـــاول الاســـتدلال بسورة(**ق**)وبالسور التابعة لها موضوعيا وهي سور(الذاريات، الطـــور النجـــم القمر الرحمان الواقعة الحديد المجادلة الحشر الممتحنة الصف الجمعـــة المنـــافقون التغابن الطلاق التحريم والملك) وبارتباط كل سورة من هذه السور السبع عشرة بالسورة التي بعدها ارتباطا موضوعيا يثبت من خلاله وجود هـــذا التسلســـل الموضوعي بين جميع آيات هذا الكتاب العزيز.

فباختصار أقول:إن الحرف المقطع (**ق**) اختزل اسم الله (**القديـــر**).وإن الله جل شأنه عندما قال (**ق والقرآن المجيد**) فقد أقسم بأن هذا القرآن سيصبح كتابا مقروء في جميع بقاع الكرة الأرضية لسموه ولعظمته لغة ومضمونا.وقـــدم تعالى بعد ذلك دليلا قاطع الدلالة على واسع قدراته عز وجل من خلال قولـــه (**أ فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها مـــن فـــروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج.تبصـــرة وذكرى لكل عبد منيب.ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد.والنخل باسقات لها طلع نضيد.رزقا للعباد وأحيينا به بلـــدة ميتـــا كذلك الخروج.**). كما قدم بعد ذلك دليلا تاريخيا استقاه من مصـــائر الأمـــم السابقة تضمنه قوله تعالى (**كذبت قبلهم قـــوم نـــوح وأصحـــاب الـــرس وثمود.وعاد وفرعون وإخوان لوط.وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كـــذب**

الرسل فحق وعيد.أفعيينا بالخلق الأول بـــل هـــم في لبـــس مـــن خلـــق جديد.).وكان القصد من هذا الدليل الثاني إثبات وجود يوم البعث بعد الموت. كما قدم تعالى دليلا ثالثا ليثبت من خلاله واسع قدراته عز وجل من واقع هـــذا الإنسان نفسه وقال (**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحـــن أقرب إليه من حبل الوريد.إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد.ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد.وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت عنه تحيد.**).ومن ثم فقد أنذر الله تعالى الذين يكذبون بيوم البعث وقال (**وكـــم أهلكنا قبله من قرن هم أشد منهم بطشـــا فنقبـــوا في البـــلاد هـــل مـــن محيص.**).ومن ثم ندد تعالى باليهود الذين حرفوا التوراة ونصح رسوله الكـــريم أن يصبر على ما يقولون.وبشره بفتح مكة المكرمة ليشكل فتحها بعثا دنيويـــا مصغرا لهؤلاء المكذبين المنكرين.وأنهى الله تعالى سورة (ق) هذه بقوله (**نحـــن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد.**).ويجـــد القارئ تفصيل كل ذلك في (فن الاختزال) وأما ما ذكرتـــه لـــه فاختصـــارا لمضامينها .

فكيف سيتم فتح مكة المكرمة وعلى حسب ما وعد الله تعالى بـــه في سورة (ق) وليثبت الله تعالى واسع قدراته عز وجل؟ فلقد خصص تعالى ســـورة الذاريات لتشكل أول فصل تابع لها وللإنباء فيها عن أسلوب ذلك وبصياغـــة بلاغية معجزة.لذلك استهل تعالى سورة الذاريات بواو القسم الذي يعني تقـــديم شهادة فأقسم تعالى بصحابة رسوله الكريم الذين شبههم بالريـــاح الذاريـــات الحاملات حملا ثقيلا والتي هي مسؤولية نشر دين الإسلام وهم الذين سيؤمرون بالسفر لفتح مكة المكرمة.ولذلك قال تعالى فيما بعد (**فورب الســـماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون.**).ومن ثم أتى تعالى بقصص إبراهيم وموسى ومـــا حل بأقوام عاد وثمود وقوم نوح ليشير بذلك إلى كيفية الأسلوب الذي سيتم به

إنقاذ الله تعالى هؤلاء الصحابة من أذى المشركين وتمكينهم من فتح مكة.بمعنى أنه تعالى سيدافع عنهم ويخذل مكذبيهم كما فعل مع جماعات المؤمنين برسل الله السابقين.ولذلك أتبع ذلك بقوله تعالى (**ففروا إلى الله إني لكم نذير مبين.ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين.**)ومنبها بعد ذلك أذهان هؤلاء المشركين إلى المقصد السامي من حياتهم حيث قال (**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**)ومن ثم أتى تعالى بفاء الاستئناف ليستأنف كلامه عن مشركين سيظهرون في المستقبل إلى مسرح الحياة فأنذرهم بنفس الإنذار إشارة إلى المسيحيين من أهل الكتاب المعاصرين فقال(**فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون. فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون.**) وعلى هذه الصورة أنهى الله تعالى هذا الفصل الأول التابع لسورة(**ق**)بعد أن ربط أوله بآخر سورة (**ق**)

ومن ثم أتى تعالى بالفصل الثاني لسورة (ق)والتي هي سورة (الطور).وليشرح فيها مضمون الإنذار الموجه إلى المشركين من أهل الكتاب الذين سيظهرون في المستقبل إلى مسرح الأحداث والمعاصرين لزماننا الإنذار الذي عبر تعالى عنه بقوله(**فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون**).

ونلاحظ بأن الله تعالى استهل سورة (الطور) هذه بواو القسم من جهة وبذكر الطور الذي كان قد كلم الله تعالى عليه نبيه موسى وأنبأه عن بعثة محمد (ص) تلك النبوءة الوارد ذكرها في سفر (التثنية ١٨/١٨) من التوراة المعاصرة.وبذلك يكون الله جل شأنه قد حقق الوشيجة التي ربطت آخر سورة (الذاريات) بأول سورة الطور.ربطتهما من خلال ذكر الجبل الذي تعلق اسمه باسم النبي الذي يشكل هؤلاء المنذرين من أهل الكتاب أمما تابعة له.

فأنبأ الله تعالى عن أن هذا الوحي النازل على قلب محمد بن عبد الله (ص) والذي بعثه الله تعالى مصداق نبوءة جبل الطور، أنبأ عن أنه سيتخذ

شكل كتاب مسطور في رق منشور وليشكل بذلك شهادة حية على واسع علم الله وواسع قدراته حتى إذا انتهى تعالى من إيراد عناصر مضمون تلك النبوءة راح تعالى يؤكد مضمون إنذار سورة (الذاريات) ويقول (**إن عذاب ربك لواقع.ماله من دافع.يوم تمور السماء مورا.وتسير الجبال سيرا.فويل يومئذ للمكذبين.الذين هم في خوض يلعبون.يوم يدعون إلى نار جهنم دعا.هذه النار التي كنتم بها تكذبون.**).وبعد أن أنبأ تعالى عما أعده لعباده المؤمنين المتقين من نعماء راح تعالى يبكت الكافرين وأنهى سورة الطور بقوله وهو يبشر رسوله الكريم بدوام رعايته إياه وقال(**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم. ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم.**).

ومن ثم أتى الله جل شأنه بالفصل الثالث التابع لمضمون سورة (ق) وهو سورة (النجم) التي استهلها تعالى بقسم جديد وقال (**والنجم إذا هوى.ما ضل صاحبكم وما غوى.**)فأبدع في صياغة هذا القسم.فهو تعالى استعمل للنجم فعل (هوى) على سبيل المجاز بقرينة أن النجم يقال عنه يسقط ولا يقال يهوي.وقد استعار كلمة (نجم) المستعملة كثيرا في عصرنا لكل من تألق ذكره.استعاره للتعبير به عن نجم الأمم الغربية المتألق والمتعلق بهم إنذار سورة الطور.

وإن الله تعالى إذ قال (**والنجم إذا هوى**)فقد أنبأ بذلك عن زوال هذه الأمم الغربية التي كذبت بهذا الدين وأنبأ عن زوال سلطانها وطغيانها في نهاية المطاف.وليثبت من خلال ذلك أنه(**ما ضل صاحبكم وما غوى**)بمعنى أن محمدا كان نبيا صادقا أمينا. وبذلك ربط تعالى مضمون هاتين الآيتين الكريمتين بمضمون آخر آية من سورة الطور التي قال تعالى مخاطبا فيها رسوله الكريم بقوله (**فإنك بأعيننا**) وبذلك يكون تعالى قد حقق التسلسل الموضوعي ما بين آخر سورة الطور وأول سورة النجم.

ومن ثم فقد أعطى الله جل شأنه المؤمنين فكرة واضحة عن مقام رسوله المصطفى وأضاف يقول (**أم للإنسان ما تمنى.فلله الآخرة والأولى**) بمعنى أن الأحداث تسير دوما وفق مشيئة الله وليس وفق مشيئة الإنسان وأن الأمور بخواتيمها.ونبه الله عز وجل هؤلاء الذين أنذرهم وقال(**هذا نذير من النذر الأولى.أزفت الآزفة.ليس لها من دون الله كاشفة.أ فمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون.فاسجدوا لله واعبدوا.**).بمعنى ألا تعجبوا إذا أنذركم هذا الرسول بدنو ساعة العذاب فهو يفعل على شاكلة جميع الرسل الذين سبقوه من قبل وإن إنذاره إياكم أدعى للبكاء منه للضحك والسخرية منه.فعودوا إلى رشدكم قبل فوات الأوان.أي (**فاسجدوا لله واعبدوا**).

وبعد أن أنهى الله تعالى سورة(**النجم**) كفصل من فصول سورة(ق)والتي أنبأ تعالى فيها عن أفول نجم المكذبين المعاصرين من أهل الكتاب .أفرد تعالى بعدها فصلا جديدا خصصه لتبشير فئة المؤمنين بالنصر المبين.لذلك نلاحظ كيف تحقق التسلسل الموضوعي فيما بينهما.فهو جل شأنه على حين كان قد أنهى سورة النجم بقوله (**فاسجدوا لله واعبدوا**) نلاحظه قد استهل سورة القمر هذه بقوله تعالى (**اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**).ومبشرا فئة المؤمنين بخلاصهم من الظلم الواقع بهم في مكة المكرمة وليثبت من بعد تحقق هذه النبوءة صدق النبوءة المتعلقة بحق هلاك هؤلاء المكذبين المعاصرين.علما بأنه تعالى استعمل كلمة القمر هنا ليكني به عن الكيان العربي يومئذ وقد أنهى الله تعالى سورة القمر هذه بقوله (**إن المتقين في جنات ونهر.في مقعد صدق عند مليك مقتدر.**).

وبما أنه كان المرء سيسأل عمن يكون هذا المليك المقتدر.فقد خصص الله تعالى لبيان ذلك سورة (الرحمان) كفصل خامس من فصول مضمون سورة (ق)ولإظهار قدرات الله وعظيم رحمانيته.
وكأنه تعالى قد ربط ما بين سورة القمر وما بين سورة الرحمان وقال **(عند مليك مقتدر.هو الرحمان)** لذلك قدم تعالى أول ما قدم بعثة آدم وإنطاقه بلغة البيان التي إذا ما اكتمل تطور تلك اللغة التي كان قد علمها الله سبحانه آدم يترل بها هذا القرآن العظيم.وهو أمر يجد القارئ تفصيله في**(فن الاختزال في القرآن الكريم)**.

وقد قدم الله تعالى الدليل العلمي على مصداقية ما ذكره ومن ثم راح تعالى يعدد عطاءات أخرى صادرة عن صفته (الرحمان) وينهي كل واحدة منها بقوله تعالى **(فبأي آلاء ربكما تكذبان)** وكان تعالى يقصد بقوله هذا الإشارة إلى معسكري المكذبين المعاصرين. لذلك قال **(سنفرغ لكم أيها الثقلان)** وأكده وهو ينبئ عن نهايتهم فقال **(يرسل علكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأي آلاء ربكما تكذبان)**.فلما قارب تعالى من إنهاء سورة **(الرحمان)**وضح تعالى ما أعده للمؤمنين **(عند مليك مقتدر)** وقال **(ولمن خاف مقام ربه جنتان)**.وأنهى هذه السورة بقوله تعالى**(تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام)** بمعنى أن هذه هي عطاءات الرحمان المليك المقتدر ذي المهابة والعطاء منه مباشرة.

ولما كان الله جل شأنه قد أنبأ في سورة الرحمان عن عذاب ودمار سيحل بمعسكري الأمم الغربية المعاصرة يخل بموازين القوى في العالم فتزول بسببه هيمنة أمم وتبرز أمم جديدة إلى مسرح الأحداث فقد اقتضى ذلك من جانب الله تعالى تخصيص سورة تشرح ذلك ولتشكل الفصل السادس من فصول سورة (ق).فأتى تعالى بسورة (الواقعة) التي تعني لغويا:المصادمة والحرب

والنازلة الشديدة. وربط من خلال مدلولها ما بين السورتين:ما بين سورة (الرحمان) وما بين هذه السورة (الواقعة).وبما أن هاتين السورتين كانتا قد أنزلهما الله تعالى في الدور المكي فقد دل ذلك على واسع علم الله الغيبي وعلى عظيم قدراته.

وقد استهل الله تعالى سورة الواقعة بقوله (**إذا وقعت الواقعة.ليس لوقعتها كاذبة.خافضة رافعة**) وانطلق الله تعالى بعد ذلك يعطي القارئ فكرة مجملة عما سيحدث بعد حدوث الواقعة وقال (**إذا رجت الأرض رجا.وبست الجبال بسا.فكانت هباء منبثا**).كما أنبأ تعالى عما ستسفر عنه تلك الواقعة وقال(**وكنتم أزواجا ثلاثة.فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة.وأصحاب المشأمة ماأصحاب المشأمة.والسابقون السابقون.أولئك المقربون.في جنات النعيم.ثلة من الأولين.وقليل من الآخرين**) وناقش تعالى بعدها معتقدات أصحاب الشمال وأنبأ عما سيواجهونه في الآخرة ومن ثم أنهى سورة الواقعة بقوله تعالى (**فسبح باسم ربك العظيم.**)

وبذلك تكون سورة الواقعة ومن خلال النبوءات التي اشتملت عليها قد بحثت جانبا من جوانب مضمون سورة (ق)المخصصة لبحث قدرات الله عز وجل.

ولما كانت أحداث(الواقعة)ستلازم وجود عصر تخلف المسلمين فقد خصص الله تعالى سورة الحديد لبحث مشكلتهم كفصل تابع لمضمون سورة (ق).وبما أن سورة الواقعة كانت قد أنهيت من خلال قوله تعالى (**فسبح باسم ربك العظيم**).فقد راح تعالى يربط مضمونها بمضمون سورة (الحديد)
هذه ويقول(**سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم**)بمعنى أنه بعد أن تقع الواقعة التي أنبأنا عنها فسيتره الله تعالى ويثبت أنه الإله القدر الذي يستحيل مغالبته وأن مشيئته هي الغالبة في هذا الكون لكنه لا يتعجل بالفصل في

الأمور بل يتصرف من منطلق اتصافه بصفتي (**العزيز الحكيم**) لذلك نلاحظه جل شأنه وقد راح يخاطب مسلمي عصر الانحطاط الذين يستكبرون عن الإيمان بهذا المبعوث(الشاهد)الذي يشهد على صدق نبوة رسوله الكريم والذين يكونون يومها قد فقدوا اليقين بقدرات ربهم عز وجل عمليا.فقد راح تعالى يوجه خطابه إليهم ويقول (**آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه.فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير.وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم.وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين.**).وقد راح تعالى يقول لهم في الآية ١٦ (**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون.**).وقد خاطبهم في الآيات ٢٠-٢٤ وقال (**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير.لئلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور.الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد.**)ويجد القارئ تفصيل ذلك في (فن الاختزال).

وقد أنهى الله تعالى سورة الحديد هذه من خلال قوله تعالى موضحا سبب إنذار هؤلاء المتخلفين وقال(**لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.**).

وبما أن لتخلف المسلمين أسبابه الكثيرة.فقد أفرد الله تعالى لتعدادها فصلا خاصا هو سورة (المجادلة) وهي السورة التي عالجت أيضا مشاكل

المسلمين وحسب ترتيب إنزالها.وقد أنهى الله تعالى هذه السورة بتعداد الصفات الإيمانية التي عن طريقها يتميز المؤمن من المنافق وقال (**لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**

وعلى هذه الصورة يكون الله تعالى قد كشف الغطاء عن واسع علمه الغيبي بالمصير الذي ستصير إليه الأمة المسلمة في آخر الزمان أيضا وليثبت عظيم قدراته التي كان قد خصص لبيانها سورة (ق)والتي شكلت سورة المجادلة الفصل الثامن من فصولها.

وما دام المسلمون زمن عصر انحطاطهم سيواجهون المشكلة اليهودية التي تتولد عن تجمع يهود العالم (**لفيفا**) في فلسطين ومصداقا لنبوءة الآية ١٠٤ من سورة الإسراء.فقد خصص الله تعالى سورة (الحشر) كفصل تاسع من فصول سورة (ق) خصوصا وأنه تعالى كان قد أنهى سورة المجادلة
بقوله تعالى (**ألا إن حزب الله هم المفلحون.**)ولينبه تعالى أذهان هؤلاء إلى ضرورة الاعتبار مما حدث في صدر الإسلام.وأن الفوز مكتوب أصلا للمؤمنين.ولذلك نلاحظه جل شأنه استهل سورة الحشر هذه بما كان استهل به سورة الحديد من قبل وقال (**سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم.**).بمعنى أن الفوز مكتوب للمؤمنين آخر الزمان وأن الهزيمة والفناء مكتوب على يهود آخر الزمان فالله عزيز وحكيم ولا يقدر على مغالبته أحد ويصرف أمور مملكته بحكمة ظاهرة للعيان.

وهذه الحقيقة دفعت الله عز وجل لينبه إلى هذه الحقيقة في الآية الثانية حيث قال (**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول**

الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوقمم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار.).أي اتعظوا بما حدث وأيقنوا بأن إلهكم هو القادر على معالجة قضية هؤلاء اليهود لذلك سارعوا إلى ربكم واستجيبوا لصوت هذا المبعوث الشاهد الذي هو صوت الله في الأرض وقد بعثه ربكم لإحيائكم من موتكم الروحاني.علما بأن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة(**لأول الحشر**)ما قصد به يوم القيامة بل قصد به اليوم الذي يجمع الله تعالى اليهود لفيفا وليحشرهم في فلسطين لإهلاكهم.وإلا لكان من السهل عليه تعالى أن يقول (ليوم الحشر).

وقد أنهى الله تعالى سورة الحشر بتعداد ما له من أسماء حسنى يتصف بها والتي تشرح قدراته الواسعة.ومما ذكره منها قوله تعالى (**هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم.هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون.هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.**). ويكون الله تعالى قد ذكر أيضا بكون سورة الحشر هذه قد شكلت الفصل التاسع من فصول سورة (ق).

ولما كان من أبرز مساوئ مسلمي عصر الانحطاط اتخاذهم أعداء الله وأعداء الإسلام أولياء فقد أفرد الله جل شأنه لبيان هذه السيئة فصلا خاصا تحت اسم سورة (الممتحنة).والتي استهلها جل شأنه بقوله (**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم**

وما أعلنتم **ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل.)**.بمعنى أنه لا يتخذ عدو الله وليا إلا من تغافل عما لربه من أسماء حسنى.

ومن ثم فقد راح الله جل شأنه وأنهى هذه السورة محذرا الذين خاطبهم وقال **(يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور.)**.وقد أتى هذا التحذير الإلهي يحمل في باطنه رحمة ظاهرة بالمنذرين.

ولما لم ينفع هذا التحذير الأخير لتغيير واقع هؤلاء المسلمين المتخلفين.فقد أفرد الله علام الغيوب والقادر على كشف ما سيحدث في مستقبل هذه الأمة أفرد فصلا خاصا بهذه المسألة وتابعا لمضمون سورة(ق)وباسم سورة (الصف)استهلها بقوله تعالى وللمرة الثالثة**(سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم.)** والمعنى هو أن ما أنبأ الله تعالى عنه قد تحقق ومع ذلك لم تتعظوا و لم تراجعوا أنفسكم يا مسلمي عصر الانحطاط وظل سلوككم متناقضا مع ما تعتقدونه لذلك راح تعالى يخاطبهم ويقول **(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون.كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.)**.

ومن ثم ذكر الله تعالى مسلمي عصر الانحطاط بقوم موسى خاصة وبالمراحل التي مر بها بنوا إسرائيل من قبلهم وكيف أنهم عندما زاغوا عن العمل على تعاليم دينهم أزاغ الله قلوبهم وعدهم من الفاسقين.وقد عبر تعالى عن ذلك من خلال قوله **(وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين.)**.ومن ثم نبههم إلى أنهم ماداموا قد تمادوا في ضلالهم فسيبعث فيهم مثيل المسيح الناصري وعلى شاكلة ما حدث لبني إسرائيل.

وكما كان قد حدث صراع ما بين أتباع عيسى واليهود فقد أنبأ الله تعالى عن أنه سينشأ صراع ما بين أتباع مثيل المسيح وما بين المسلمين

المتخلفين،وأن النصر سيكتب للمؤيدين بنصر الله العزيز. فبهذه الحقيقة أنهى الله تعالى سورة الصف هذه ومن خلال قوله أخيرا (**يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن نصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.**).وبعد أن كشف الله تعالى عن هذه الحقيقة من خلال فصل سورة (الصف) هذه يكون الله تعالى قد كشف أيضا عن عظيم علمه الغيبي وعن عظيم قدراته عز وجل وتبعا لمضمون سورة (ق).

ولما كان سينشأ هنا سؤال يطرح نفسه بعد الذي أطلعنا الله تعالى عليه من حقائق تتعلق بهذا الزمان المعاصر. وهذا السؤال هو أين النص القرآني الصريح الدال على ما ذكر وأنه سيأتي هذا الزمان الذي تحدثنا عنه؟ وإجابة على السؤال المشار إليه فقد خصص الله جل شأنه سورة الجمعة كفصل تابع لسورة (ق) وأجاب من خلالها على هذا السؤال المحتمل في هذا المقام.فما هي معالم ذلك ؟

معالم ذلك أن الله تعالى كان قد استهل ثلاثة سور بقوله (سبح لله..)وكان تعالى يورد فعل (سبح) بصيغة الماضي.على حين استهل سورة الجمعة بصيغة مغايرة هي صيغة المستقبل وقال تعالى فيها (**يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم**)ومن ثم أضاف تعالى يقول(**هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.**)فنبه من خلال هذه الآية الكريمة إلى البعثة الأولى للإسلام التي تحققت على أيدي محمد بن عبد الله (ص).

ومن ثم أضاف يشير إلى بعثة إسلامية ثانية ستتحقق في المستقبل وصرح تعالى بها وقال في الآية الثالثة (**وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم.**).وتأكيدا من جانبه تعالى إلى أن ما سيحدث إنما يشكل فضلا خاصا اختص به الأمة الإسلامية فقد أضاف تعالى وقال(**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.**).

إن قول الله جل شأنه (**وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم.**) هو النص القرآني الذي نص على هذه البعثة الإسلامية الثانية المقدر ظهورها زمن انحطاط المسلمين وتخلفهم.بدليل أن (ابن كثير)رحمه الله تعالى أورد في تفسيره يقول (قال الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:كنا جلوسا عند النبي (ص)فأنزلت عليه سورة الجمعة (**وآخرين منهم لما يلحقوا بهم..**)قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا،وفينا سلمان الفارسي،فوضع رسول الله (ص) يده على سلمان الفارسي ثم قال:لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء.رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق عن ثور بن يزيد الديلمي عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة.).

وبعد أن أتى الله تعالى بهذا النص القرآني فقد راح يغمز جانب مسلمي عصر الانحطاط وقال (**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين.**)وكأن الله تعالى قد غمز جانب هؤلاء وقال مالكم قد تشابه حالكم مع حال أصحاب التوراة؟؟وقد أنهى الله تعالى سورة الجمعة بوصف وصف به حال هؤلاء وقال (**وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين.**)وإن هذا الوصف

الغيبي الدال على واسع علم الله الغيبي نتلمس حقيقته في أيامنا هـــذه بشـــكل صريح وبذلك يكون الله تعالى قد فرغ من الفصل الثاني عشر التابع لمضمـــون سورة (ق).

ولما كان القارئ الذي عقل وفهم جميع ما أسلفنا ذكره فسيقرر بصورة لا شعورية أن الذين يقولون ولا يفعلون هم أشبه بالمنافقين. فقد أفرد الله تعـالى فصلا جديدا تابعا لسورة(ق)وسماه سورة (المنافقون) وعـــرض فيـــه صفـــات المنافقين فعالج أحوال فئة المنافقين في صدر الإسلام وكشف وجههم الحقيقي.

ومن ثم توجه تعالى إلى مسلمي عصر الانحطاط يخاطبهم وقال(**يا أيـــها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلـــك فألئك هم الخاسرون.وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكـــم المـــوت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين. ولـــن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون.**).

وبعد أن يلاحظ القارئ هذا التسلسل الموضوعي الذي تجلى فيما بـــين جميع هذه السور التابعة لمضمون سورة ق يتيقن من دلالة النص الذي أوردتـــه سورة الجمعة والذي يثبت منه أن القرآن الكريم

قد أنبأ في سورة الجمعة عن بعثة ثانية للإسلام تعاصر زمن تخلف المســلمين وأن الله تعالى قد أمر من كان من هؤلاء المتخلفين يرجون الله واليوم الآخر أمرهـــم بتجديد بيعتهم.

وهنا يتساءل المرء بصورة طبيعية عن مصير الذين يتخلفون عـــن فعـــل ذلك.وقد خصص الله جل شأنه سورة (التغابن) لتوضيح تلك الحقيقة ولتشـكل الفصل الرابع عشر التابع لمضمون سورة (ق).فما معنى كلمة التغابن ؟

إن كلمة (التغابن)مصدر من تغابن القوم أي غبن بعضهم بعضا.والغـــابن اسم فاعل ويعني الفاتر عن العمل (محيط المحيط).وبمعنى أن الله تعالى انطلـــق في

بيانه للمصير الذي سيصير إليه المتخلفون من هؤلاء المسلمين انطلق من كونهم منقسمين على أنفسهم ويغبن بعضهم بعضا ولذلك مهد تعالى لذكر مصيرهم المنتظر بتذكيرهم ومن خلال قوله تعالى (**يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير.يعلم ما في السماوات وما في الأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور.**)فهو تعالى قام بتذكيرهم من خلال ذلك بأن كل شيء في هذا الكون يثبت منه تتريه الله سبحانه وتعالى عن كل ضعف وشرك وأنه هو المالك الحقيقي لهذا الكون وأنه لا يستحق كامل الحمد سواه وأنه القادر على كل شيء فهو الذي بعث من كانت الغاية من بعثته إنقاذ البشر من ظلمتهم فاستجاب من آمن وكفر من كفر والله على علم بكل شيء فلا يخفى عليه شيء في السماوات ولا ما في الأرض.

وبعد أن ذكر الله تعالى هؤلاء بما ذكرهم به والذي هو من جملة معتقداتهم التي يعتقدونها ولا يتصرفون وفقا لمعطياتها.فقد راح تعالى يشعرهم بالمصير الذي ينتظرهم بأسلوب فريد قائلا (**ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم.ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد.**).

فإن الله عز وجل قد أشعر المسلمين الذين يقولون مالا يفعلون والذين أحجموا عن أن يكونوا من أنصار الله تعالى وتبعا لمعطيات هذه الآيات الأخيرة أقول أشعرهم:

أولا-بأنهم قد شابه حالهم حال الأمم الماضية وصاروا إلى ما صاروا إليه ولذلك فسيكون مصيرهم نفس مصير تلك الأقوام فهذا ما أشار تعالى إليه ضمن قوله (**فذاقوا وبال أمرهم**).

ثانيا-وأن الأمم الماضية الذين شابهوهم كان الله تعالى قد أنزل بهم العذاب ولذلك فلا بد أن يواجه هؤلاء العذاب في نهاية المطاف.فهذا ما أشار تعالى إليه من خلال قوله (**ولهم عذاب أليم**).

ثالثا-وأن الله تعالى كان قد استغنى عن تلك الأمم واستبدلهم بأمم أخرى غيرهم لكونه الغني الحميد لذلك فلا بد أن يلاقي هؤلاء نفس المصير فيستبدلهم ربهم بأمة جديدة تعمل على أوامر ربها.فهذا ما نبه تعالى إليه حين قال في الآية الأخيرة(**واستغنى الله والله غني حميد.**).وليثبت الله تعالى قدرته على كل شيء يريد فعله.وبذلك يكون الله تعالى قد أكمل الفصل الرابع عشر التابع لسورة (ق).

ولما كان من أهم الآثار السيئة التي ستبرز في عصر انحطاط المسلمين هو تخلخل نظام الأسرة الذي هو عماد المجتمع الإسلامي حيث تكثر حالات الطلاق فيه.فقد أفرد الله تعالى للكلام عن ذلك فصلا جديدا وتابعا لسورة (ق) سماه سورة (الطلاق).عالج من خلاله حالات الطلاق التي واجهت المسلمين في صدر الإسلام قديما ولتعالج مفاسد مجتمع المسلمين المتخلفين.وقد انتهج جل شأنه نهجا خاصا في هذه السورة حيث قسم آيات السورة إلى قسم أول ضمنه أحكام الطلاق ليستفيد منه المسلمون الأولون والمسلمون الذين يأتون في عصر الانحطاط.

وقد راح تعالى يحذر المتخلفين من المسلمين في هذا القسم الثاني من هذه السورة يحذرهم ويقول (**وكأي من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان**

عاقبة أمرها خسرا)وهذا تحذير واضح بأن تملــص الأمــة مــن مســؤولياتها واستكبارها عن قبول صوت هذا المبعوث السماوي المنقذ وتجبرهـــا في ذلــك يترتب عليه محاسبة من جانب الله تعالى لذلك لاحظناه جل شأنه راح يوجـــه خطابه إلى الذين آمنوا بمحمد رسول الله (ص) بعد ذلك ويقول (**أعد الله لهـم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل إليكم ذكــرا.**) أي أنزل تعالى إليكم وسيلة عزتكم ورفعتكم فكونوا من أنصاره.ومن ثم أضاف الله تعالى يقول موضحا المراد من كلمة(**ذكرا**)قال (**ذكرا رسولا يتلو عليكـم آيات الله مبينا ليخرج اللذين آمنوا وعملوا الصالحات مــن الظلمــات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتــها الأنهــار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا.**) ومن الواضح أنه تعالى قد أتى ضمن قوله (**ليخرج**)بلام العاقبة التي تعداها فعل(**الذكر**)الوارد إضافة إلى معناه الســابق بمعنى الحفظ وعدم النسيان وقد صرح الله تعالى أخيرا في الآيتــين الأخــيرتين بعظيم قدراته وبواسع علمه الغيبي زيادة في التوضيح ولينبه إلى أن هذه الســورة شكلت الفصل الخامس عشر من الفصول التابعة لسورة(ق)وقال(**الله الــذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير.وأن الله قد أحاط بكل شيء علما.**)والقصد من سبع سمـاوات وسبع أراضي هنا ووفق هذا السباق إشارة إلى مراتب الدرجــات الروحانيــة ودركات العذاب في جهنم. (راجع فن الاختزال في القرآن الكريم)

ولما كان مسلموا عصر الانحطاط محسوبين على محمد رسول اللــه (ص) على كل حال. فقد اقتضت رأفة الله ورحمته برسوله الكريم ألا يعاقب هــؤلاء إلا بعد أن يعظهم وعظا شديدا ويضرب لهم الأمثال ومن حال الذين ســبقوهم من الأمم.لذلك خصص الله تعالى سورة(التحريم)ولتشكل فصلا من الفصــول التابعة لسورة(ق) فمهد تعالى في الآيات الأولى منها بما يشعر القارئ بأن اللــه

تعالى لا يستثني رسوله الكريم من العتاب إن هو جل شأنه قد لاحظ أي شيء يصدر عنه ويستدعي معاتبته.فمن أنتم حتى لا يترل بكم العذاب إن انقلبتم على أعقابكم؟

ومن ثم خاطبهم الله تعالى وقال (**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**.).ونبه الله تعالى بعد ذلك إلى أنه إذا نزل بكم عذاب ربكم فلا يعود لكم حينذاك من فرصة للاعتذار بعد أن كفرتم بنعمة الإسلام .وقد عبر تعالى عن ذلك وقال(**يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون**.).ومن ثم أضاف تعالى ينصحهم ويقول(**يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير**.).

ومن ثم راح تعالى يضرب لهؤلاء الأمثال والتي يستفاد من كل مثل منها أن كل نفس بما كسبت رهينة وأنه لا ينفع هذا الإنسان انتسابه إلى الرسول ولا غير ذلك ما دام يقول ولا يفعل.وإن المثال الأخير الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء قال فيه(**ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين**.).وبهذا المثال وبهذه الألفاظ أنهى الله جل شأنه الفصل السادس عشر والتابع لمضمون سورة (ق).

وقد خصص الله تعالى سورة (الملك)كفصل أخير للعودة عن طريقه إلى الموضوع الأصلي لمضمون سورة (ق).فعلى حين كان تعالى قد أنهى سورة(ق)بقوله تعالى (**نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**.) فقد استهل جل شأنه سورة (الملك) بقوله(**تبارك**

الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور.).وقد نبه تعالى هذا الإنسان الغافل والكافر بنعم ربه من خلال قوله هذا إلى أنه تعالى هو مالك هذا الكون والقادر على تحقيق كل شيء ومؤكدا له أنه تعالى قد اختزل الحرف المقطع (ق) من اسمه (**القادر**)وبذلك يكون الله تعالى قد ربط وبصورة موضوعية ما بين هذه السور والتي شكلت فصولا تابعة لسورة (ق).

و لم يكتف الله تعالى بهذا الربط الموضوعي ما بين هذه السور جميعها.بل وعمد إلى تقديم دليل كوني علمي ليثبت من خلاله ادعاءه المذكور.وهذا الدليل العلمي أثبتت صحته العلوم الكونية المعاصرة التي كشفت لنا عن أن السماء التي تشاهدها أعيننا المجردة وتبدو لا تضم إلا الشمس والقمر وأعدادا من النجوم.أنها ليست هي كذلك.بل هناك طبقات من هذا السقف المنظور لا حصر لها وعلى اعتبار أن رقم(سبعة) يستعمل في العربية للدلالة به على الكثرة أيضا إضافة إلى التعبير به عن العدد.كما كشفت العلوم الحديثة عن أن هذا الكون كله تنظمه قوانين طبيعية واحدة.الأمر الذي يثبت من خلاله وحدة هذا الكون ووحدانية خالقه عز وجل.كذلك فإن العلوم الحديثة أثبتت ما أشار إليه هذا الدليل القرآني الكوني من أنه يوجد في هذا الفضاء تناسقا وتناسبا وترتيبا مذهلا وهو الأمر الذي صرح تعالى به من خلال قوله (**فارجع البصر هل ترى من فطور.**).

و لم يكتف الله تعالى بهذا الدليل سالف الذكر بل وأتى تعالى بدليل آخر في هذا المجال عبر عنه بقوله (**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير.وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير.**)(ويجد القارئ تفصيل ذلك كله في (فن الاختزال في القرآن الكريم).

والمهم من هذين المثالين اللذين قدمتهما الأول من سورة هود والثاني من هذه العلاقة الموضوعية التي ربطت ثمانية عشرة سورة أسلفت ذكرها. أقول القصد من تقديم هذين المثالين كان لإثبات أنه يوجد تسلسل موضوعي ما بين جميع آيات هذا القرآن العظيم من الباء في(**بسم الله الرحمان الرحيم**) وإلى الناس في(**من الجنة والناس**).ولا يكتشف الإنسان هذه الحقيقة إلا إذا أحاط علما بمنهجية القرآن وأصول تفسيره.وإن كل مؤمن يحاول التصدي لتفسير آيات هذا القرآن الكريم ولا يراعي التسلسل الموضوعي المذكور والذي يعتبر أصل من أصول تفسير آيات هذا القرآن المجيد يسيء إلى مضامين السور القرآنية وإلى معطيات آياتها الكريمة.

محاذير مخالفة التقيد بالتسلسل الموضوعي

أقول، والأسى يعمر فؤادي، إن المفسرين القدماء رحمهم الله تعالى والذين لم يكشف الله تعالى عليهم منهجية كتابه العزيز وأصول تفسيره بداعي أنه جل شأنه كان قد أنبأ عن هذا التأجيل وقال في سورة القيامة الآية ١٧ (**إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه**).وهم الذين لم ينتبهوا إلى دلالة الفقرة الأخيرة(**ثم إن علينا بيانه**)فقد وقعوا رحمهم الله في أغلاط فاحشة ما زالت الأمة الإسلامية تحصد من سلبياتها وأساءوا بذلك إلى سمعة هذا القرآن العظيم.

ولا ينبغي أن ألقي عليهم باتهامي المذكور هكذا جزافا.بل إن الواجب العلمي يتطلب مني أن أقدم ولو مثالا واحدا لإثبات مصداقيته.علما بأني كنت قد طرحت هذا المثال باختصار شديد من قبل.وسأعمد هنا إلى التفصيل فيه وبهذه المناسبة ليتمكن القارئ من الإحاطة به شرحا وتبيانا.

وهذا المثال أستقيه من الآيات ٩٩-١٠٩ من سورة البقرة.وأدرج هذه الآيات الكريمة بادئ

ذي بدء لتصبح مرجعا لهذا المثال الذي لم يراع المفسرون القدماء رحمهم الله فيه سباق الكلام ولا سياقه ولا تسلسله الموضوعي.

قال تعالى وهو يكشف مثالب أهل الكتاب(**ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون.أ وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون.ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت،وما يعلمان من أحد حتى يقولا له إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه،وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله،ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم،ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق،ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون.ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون.يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم.ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير.ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير.أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل،ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل.**).

ألا إن هذا الأصل السابع من أصول تفسير القرآن الكريم يقتضي منا أن نفسر هذه الآيات التي أوردناها آنفا بتفسير متسلسل المعاني بشكل موضوعي وبنظم لا خلل فيه.بمعنى أن نبرز وجود علاقة موضوعية مقبولة ومعقولة

ومنطقية ما بين كل آية وآية من هذه الآيات الكريمة.فإن عجزنا عن تحقيق ذلك لا نكون على مستوى لائق لتفسير آيات هذا الكتاب العزيز.أما إذا كانت هـذه الآيات قد وردت ولا رابطة ما بين كل آية وآية أخرى منها تربطها فهذا الأمـر يشين هذا الكتاب ولا يعود يستحق أن يسمى هذا القـرآن(كتابـا)بالمفـهوم والمصطلح المتعارف عليه بين الأدباء والكتاب.فهذه حقيقة يجدر بنا أخذها بعين الاعتبار وبجدية تامة.

فالآية الأولى من الآيات التي أسلفت ذكرها استهلها تعالى بواو العطـف ليعطف هذه المثلبة على سابقتها.وبلام الابتداء من (لقد) إشعارا باستقلالية مثلبة جديدة.فالله جل شأنه قال وبصيغة الماضي(**أنزلنا إليك آيات بينات**) قال تعالى هذا في السنوات الأخيرة من الدور المدني في المدينة المنورة وبذلك يكـون قـد أشار تعالى من قوله (**آيات بينات**)إلى أكثر ما أنزله من سور قرآنيـة مفعمـة بالبينات كما يكون قد أشار في الوقت نفيه من خلال ذلك إلى جميع ما أظـهره الله تعالى من معجزات دالة على مصداقية نبوة رسوله الكريم كمعجزة غـار ثور وغيرها من المعجزات.فهذا ما قصده تعالى من قوله (**آيات بينات**).

وقد أتى تعالى بعد ذلك بواو العطف التي تفيد هنا معنى الحال.كما أتـى تعالى ب(ما)الحرفية التي تفيد معنى الزمن الذي أنزلت فيه هذه الآيـة الكريمـة وطرح حقيقة معروفة وهي أن الإنسان الذي انغمس في الفسـق وفي معصيـة تعاليم ربه يحول ذلك دونه ودون إمكانية توجهه إلى سماع الكلام الحق وبـأذن صاغية لتقبله.فهذا هو المقصود من قوله تعالى (**وما يكفر بها إلا الفاسقون**).

واستنادا إلى هذه الحقيقة التي وضحها الله جل شأنه في الآية الأولى راح يقرر حقيقة ثانية ويقول في الآية الثانية(**أو كلما عاهدوا عهدا نبـذه فريـق منهم**)وبأسلوب الاستفهام الاستنكاري أشار تعالى إلى الفاسقين من بني إسرائيل مستنكرا تاريخهم الحافل بنبذ العهود المقطوعة بينهم وبين أنبيائهم ابتـداء مـن

عهودهم التي قطعوها مع موسى ليظلوا موحدين وملتزمين بجميع ما آتاهم به موسى عليه السلام من تعاليم وما أنبأهم به من نبوءات. وانتهاء بآخر نبي بعثه الله تعالى إليهم وهو المسيح عيسى ابن مريم فقد نقضوا جميع ما عاهدوا عليه أنبياءهم من عهود تشهد عليها توراهم المحرفة المعاصرة.

وبعد أن قرر الله تعالى هذه الحقيقة التاريخية الثانية أتى بحرف الإضراب(بل)وقال(**بل أكثرهم لا يؤمنون.**) بمعنى أنه ما دام قد ثبت أن أكثر اليهود(فاسقون)فبالتالي فإن من الطبيعي جدا أن يكون أكثرهم(**لا يؤمنون**) بما أنزلنا إليك يا محمد من آيات بينات.فالفاسق يحرمه فسقه من الإيمان.

وبعد أن فرغ الله تعالى من بيان هاتين الحقيقتين اللتين مهد بهما أتى بالآية الثالثة التي يصف فيها حال اليهود الذين عاصروا بعثة محمد(ص) فوضح تعالى بأنهم أثبتوا بصورة عملية اتصافهم بصفة الفسق والكفر وبنبذ العهود.فهنا أنه لما جاءهم رسول مصدق لما معهم من تعاليم ونبوءات أنبأت عن بعثة محمد(ص)نبذ فريق من اليهود والنصارى معا(**كتاب الله**)الذي أنزل على موسى والذي يسمونه كلهم العهد القديم.نبذوه وراء ظهورهم(**كأنهم لا يعلمون**)أي **كأنهم** لا يعلمون ما تضمنه العهد القديم من نبوءات تشير إلى بعثة هذا الرسول الأمين.(وإشارة إلى نبوءة سفر التثنية ١٨/١٨ بصورة خاصة).

ومن ثم أتى تعالى بالآية الرابعة التي استهلها بواو العطف التي تفيد الحلل بسبب الفعل الوارد بعدها بصيغة الماضي.وليصف الله جل شأنه حال اليهود الذي كانوا عليه زمن إنزال هذا القرآن الكريم.فنبه تعالى إلى انقطاع الوحي عنهم وتلهيهم بأمور حذرهم منها تعاليم موسى وسليمان وغيره من أنبياء الله تعالى مما لا حاجة للخوض في الكلام عنه. فالآية الكريمة واضحة فيما دلتنا عليه.

والمهم هو أن ننتبه إلى إشارة الوقف التي وردت آخر هذا الكلام الإلهي والتي قصد بها تنبيهنا إلى أن ربنا عز وجل قد فرغ من بيانه المشار إليه.لذلك نلاحظه سبحانه وتعالى وقد راح ينهي هذه الآية الرابعة بقوله(**ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون.**).

ومن ثم راح الله تعالى ينبه هؤلاء اليهود ويأسى عليهم ويقول في الآية الخامسة (**ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون.**)أي أن اليهود كانوا زمن إنزال هذا الكتاب المجيد كانوا على درجة كبيرة من التخلف والانحطاط والبعد عن التفكير العلمي إلى درجة ما أهلتهم للإيمان بتعاليم هذا الدين الحنيف الذي ارتبط بتقبله تلقي الخير والمثوبة من عند الله عز وجل.

وقد اغتنم الله تعالى مناسبة ما نبه إليه في الآية الخامسة وهو التشجيع على الإيمان بمحمد وبتعاليم دينه (ص)اغتنمه ليعظ المسلمين الذين آمنوا بمحمد (ص)ألا يتصفوا بتلك الصفة السيئة اتصف بها هؤلاء اليهود زمن بعثة نبيهم موسى عليه السلام وقال (**يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم.**).فذكر الله جل شأنه القارئ بمثلبة أخرى ارتكبها بنوا إسرائيل بحق نبيهم في زمنه.وهو أنهم كانوا يبدون التضجر أمام نبيهم موسى في تيه سيناء ويطالبون بالخضراوات وغيرها وكان لما دعاهم إلى دخول أرض فلسطين قالوا له(اذهب أنت وربك فقاتلا إننا هنا قاعدون)وغيرها من المواقف المشينة التي تتنافى وروح التأدب مع رسول بعثه الله تعالى لهدايتهم.

وقد قصد الله جل شأنه من هذه الفقرة الأخيرة التي قال فيها(**وللكافرين عذاب أليم**) والمحذوف منها مضاف كلمة (**للكافرين**)**فقد** كان القصد من هذا الحذف أن الله تعالى خص هؤلاء بالعذاب لاتصافهم بهذه الصفة السيئة فحاذروا أن يصدر عنكم أيها المسلمون ما كان يصدر عن أولئك

اليهود من سوء أدب مع رسولكم هذا فإن فعلتم ذلك يختصكم الله بـــالعذاب أنتم أيضا.ثم إن هذا الحذف البلاغي يدفع إلى الأخذ بمعنى آخر لهذه الفقرة وهو أن الله تعالى سيترل عذابه بهؤلاء اليهود بسبب مواقفهم غير المتأدبة مع الرسـول الذي بعثه ربه مصدقا لما معهم زمن إنزال هذه البينات.

وبعد أن فرغ الله تعالى من التنويه إلى سوء أدب هـــؤلاء اليـــهود مـــع محمد(ص)وعلى نفس المنوال الذي اشتهروا به زمن نبيهم موسى عليه الســـلام وفرغ من وعظه المؤمنين ألا يصدر عنهم ما كان قد صدر عن اليهود من قبـــل فقد راح الله جل شأنه يفضح هذه المواقف المشينة التي يقفـــها اليـــهود مـــن محمد(ص) وأصحابه وموضحا السبب الرئيسي الكائن وراء ذلك كلـــه فـــأتى تعالى ب(ما) الحرفية التي تفيد الزمن الذي أنزل الله تعالى فيه هذه الآيات وقـال **(ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يترل عليكم من خير من ربكم)** والمعنى هو أن ما يقدم عليه أهل الكتاب والمشركون من حركـــات مريبة وأفعال وإن تبدو في ظاهرها مجرد سوء أدب وتحرشات،لكنـــها تخفـــي وراءها نوايا أخطر مما يتظاهرون به.فهم يهدفون ليوقعوا بينكم وبين رســـولكم الشقاق والفتنة وليفسدوا علاقتكم به.وليحرموكم من خير بركات ما يتــــترل على رسول الله(ص)من**(آيات بينات)**ولتصبحوا بالتالي على شاكلتهم **فاســقين** بعيدين عن الإيمان عمليا.فالسبب فيما يفعله هؤلاء جميعهم هـــو كرهـــهم أن يتر ل الله تعالى عليكم دينا جديدا وكتابا جديدا وتعاليم جديدة غـــير دينـــهم وغير كتابهم وغير ما عندهم من تعاليم.كيف يرضون وهم يزعمون أنهم شعب الله المختار وأن كتابهم آخر الكتب السماوية؟

فلا بد أن لاحظ القارئ كيف أن هذه الآيات كلها قد تكلمت عـــن أهل الكتاب واليهود منهم خاصة.وكيف أن الله تعالى قد وضـــح الأسـباب والصفات الحقيقية التي تحول بين هؤلاء اليهود وما بين تقبلهم لهـــذا الكتـــاب

السماوي الجديد.لذلك أنهى الله تعالى تلك الآيات الخمسة بقوله تعالى: (**ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون.**).

ومن ثم أضاف الله تعالى يقول(**والله يختص برحمته من يشاء**)وبذلك يكون تعالى قد كشف الغطاء عن أكبر سيئة اتصف بها هؤلاء جميعهم والتي هي من باب الشرك الخفي بالله عز وجل.وهي سعيهم لحرمان المسلمين من رحمة ربهم ومتجاهلين كون الله جل شأنه (**يختص برحمته من يشاء**).

و لم يكتف الله تعالى بالكشف عن هذا العامل الأساسي الذي يدفع أهل الكتاب والمشركين إلى ما يفعلونه ويقدمون عليه بل أضاف تعالى يقول (**والله ذو الفضل العظيم**) بمعنى أن الله هو رب العالمين لذلك فلا يختص فضله بأمة معينة بل يعم فضل الله تعالى أمم الأرض جميعها.فلا ينبغي لكم يا معشر اليهود أن تزعموا بأنكم شعب الله المختار وأن كتابكم الذي تقدسونه لن يترل بعده كتاب سماوي.

والذي أراه هو أن الله جل شأنه ومن خلال هذه الفقرة الأخيرة يكون قد مهد للإعلان عن غضبه على أهل الكتاب وعن قراره المتعلق بنسخه تعالى كتب أهل الكتاب وغيرهم من أهل الأديان السابقة للإسلام والذين لم يعد فيها ولا في تعاليمها أية صلاحية للمتغيرات الحاصلة بعدها وبسبب ما طرأ على العالم من متغيرات بعد إنزالها. فهذا هو ما اقتضاه هذا التسلسل الموضوعي لهذه الآيات من سورة البقرة.

لذلك يلاحظ القارئ كيف أن الله تعالى قرر أن ينسخ تلك الكتب السماوية القديمة التي كان يقدسها أهل الكتاب وغيرهم وقال(**ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير.ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من ولي ولا نصير.**).

فالنسخ يفيد معنى الإبطال بإجماع معاجم اللغة العربية.وإن حرف الجر (من) استعمل هنا لبيان الجنس.أما كلمة (**آية**) فهي التي تتطلب منا النظر والإمعان.بسبب أن لكلمة (**آية**) أكثر من معنى. فقد أورد معجم (محيط المحيط) أن الآية تعني العلامة الظاهرة.وفي معجم القاموس الآية على وزن فعلة أو فعلة أو فاعلة وموضع العين في هذا الوزن الياء وتجمع كلمة آية على آيات وآي وآياء قال وتستعمل الآية في المحسوسات والمعقولات.فتطلق على كل ما تتفاوت به المعرفة بحسب التفكر والتأمل.كما تطلق على ما دل على حكم من أحكام الله تعالى سواء أكان ذلك آية أو سورة أو جملة من آية.كما تطلق الآية على طائفة من حروف المقطعات القرآنية علم معناها بالتوقيف.وتعني الآية العبرة والأمارة والعلامة.

وعليه فإن لكلمة (**آية**) أكثر من معنى.أضف إلى ذلك أن كلمة (**آية**) التي وردت في قوله تعالى (**ما ننسخ من آية أو..**) لم ترد مخصصة بمعنى من هذه المعاني التي أوردها أصحاب المعاجم بل وردت نكرة ومنونة على آخرها إظهارا لعظمتها.فليس المقصود بها أية آية قرآنية معينة وإلا لكان الله تعالى قد خصصها بها.فما هو المعنى المقصود إذا بكلمة (**آية**)الواردة في هذه الآية سالفة الذكر؟

وهنا يلعب هذا الأصل السابع دوره في تعيين المعنى المقصود من كلمة (**آية**).فمن واجب المفسر أن يأخذ بعين اعتباره سباق الآية وتسلسلها الموضوعي.وإن الآيات الخمسة التي سبقت هذه الآية الكريمة بحثت جميعها فيما يختص بأهل الكتاب من مفاسد وسيئات دفعت ربهم ليغرب بوجهه عنهم وليستبدلهم بهذا الرسول الأمين الذي قال تعالى بحقه في مطلع الآية الأولى (**ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون.**).فالآيات البينات المنزلة على محمد رسول الله (ص)توجب الإيمان بها لا أن تنسخ بعضها.ولذلك فإن

النسخ يقع هنا على الكتب السماوية السابقة التي يعتبر كل كتاب منها (**آيــة**)في حد ذاته دالة على وجود الله تعالى الذي كان قد أنزلها في الوقت المناسب.

ومن الأدلة الدالة على ذلك هو أن الله تعالى أتى قبل كلمة(آية)بحــرف الجر(من)لبيان الجنس فهو تعالى لم يقل (**ما ننسخ آية..**)بل قال (**ما ننسخ مــن آية..**)فلو أن الله تعالى كان قد قال (**ما ننسخ آية.**) لكان قد اختلط الأمر علينا وكان ذهننا قد ذهب إلى أن المراد بالنسخ هو(**آية**) من آيـــات هـــذا القــرآن الكريم.لكن الله جل شأنه قال (**ما ننسخ من آية..**) أي أنه أتى بحرف (مــــن) لبيان الجنس.ومن المعلوم أن هذا لا ينطبق على آيات القرآن الكريم الذي اشتمل على تقسيم متميز وخاص به مما لم يتعارف عليه العرب من قبل.فـــأطلق علـــى الحرف الواحد أحيانا اسم **آية**. وعلى الحرفين المقطعين تارة ثانية اسم **آية**.وعلى الحروف الثلاثة المقطعة تارة ثالثة اسم **آية**.وعلى الكلمة الواحدة تارة رابعة اسم **آية**.وعلى الكلمتين تارة خامسة اسم **آية**.وهكذا دواليك.فهذا التقسيم لآيـــات القرآنية هو تقسيم موضوعي مستقل في ذاته ومتميز عن غيره من التقسيم الــذي تعارف عليه الأدباء والكتاب العرب.لذا فلا يدخل في باب (الجنس) المعنى الذي أشارت إليه الآية.فجنس الآيات المتعارف عليه بين الناس هو الكتب الســماوية المعروفة.وإن هذه الحقيقة تشكل دليلا قاطعا ينفي أن يكون المراد من قوله تعالى (**ما ننسخ من آية..**) الإشارة إلى أية آية من آيات هذا القرآن العزيز.

وإن مما نقدمه من أدلة على صحة وجهة نظرنا هو أن الله تعالى أضاف يقول (**أو ننسها**) وهذه قرينة تنفي أن يكون المراد من النســخ،نســخ آيـــات قرآنية.ذلك لأن الله تعالى خاطب رسوله الكريم في مقـــام آخـــر وفي الآيـــة السادسة من سورة الأعلى بالذات وقال(**ســـنقرئك فـــلا تنســـى**) فـــالحرف (لا)الوارد في هذا النص القرآني ليس جازما بل هو نافيا.بدليل أنه لم يجزم فعـــل المضارع (**تنسى**). وليصبح معنى(**سنقرئك فلا تنسى**)أي أننا ســـنقرئك علـــى

صورة لا تعود معها تنسى.وهذا المعنى يخالف معـــنى (**أو ننســـها**) إذا كـــان المقصود من النسخ المذكور نسخ أية (**آية**) قرآنية يريد تعالى أن ينس رســـوله الكريم إياها.الأمر الذي يؤكد بأن المقصود من (**أو ننسها**)هو الإشارة إلى نسـخ الكتب السماوية التي أنسى الله تعالى أهلها تعاليمها بسبب فسقهم وبعدهم عن تقوى الله تعالى واستمرارهم في ارتكاب السيئات.فهذه حقيقة أخرى تشـــكل دليلا آخر قاطعا ينفي أن يكون المراد من قوله تعالى (**ما ننسخ من آية..**)أية آية من آيات هذا القرآن الكريم فالنسخ واقع في الكتب السابقة.

كذلك إن من الأدلة على صحة وجهة نظرنا هو أن الله تعالى أضـــاف يقول (..**أو مثلها**) وهذه قرينة تنفي أن يكون المراد من النسخ،نســـخ آيـــات قرآنية.ذلك لأن الله تعالى لا يعقل أن يعبث فينسخ (**آية**) أنزلها علـــى رســـوله الكريم.ومن ثم ينسخها ويأتي بشبهها أو يأتي بذاتها أو يأتي بها زائدة فقد ورد في معجم (محيط المحيط) قوله المثل يستعمل على ثلاثة أوجه:**أولا**-بمعنى الشبه.**ثانيا**-بمعنى نفس الشيء وذاته.**ثالثا**-وتستعمل زائدة.فإن أقدم الله تعالى على فعل ذلك لا يكون لفعله من معنى فهذه حقيقة أخرى تشكل دليلا ثالثا قاطعا ينفـــي أن يكون المراد من قوله تعالى (**ما ننسخ من آية..**) نسخ أية آية من آيـــات هـــذا القرآن الكريم.

وبالإضافة إلى هذه الأدلة الثلاثة فمن المعلوم أن الله جل شأنه أمرنـــا في الآية ٢٨ من سورة (ص) وقال (**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبـــروا آياتـــه وليتذكر أولوا الألباب.**) وهل يعقل أن نؤمر بتدبر آيات وتكون في الوقـــت نفسه منسوخة؟؟

فهذه الأدلة الضمنية الثلاثة التي اشتملت عليها هذه الآية نفســـها (**مـــا ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها..**) تؤكد بأن عملية النســـخ والإبطال المشار إليها في هذه الآية الكريمة لا تمت إلى نسخ وإبطال أية آية قرآنية

كانت كان قد أنزلها الله جل شأنه على قلب رسوله الأمين(ص) وإنما يراد بهذه العملية نسخ وإبطال الكتب السماوية السابقة التي يقدسها أهل الكتاب والمشركون من قبل إنزال هذا الكتاب العزيز.خصوصا وأن تسلسل الآيات الموضوعي للآيات السابقة لهذه الآية الكريمة كان متكلما عن هؤلاء المذكورين.وأن كل كتاب من الكتب السماوية السابقة يعتبر في حد ذاته (**آية**) وعلامة دالة على وجود الله تعالى الذي أنزلها مشتملة على ما فيها من تعاليم هي لترقية هذا الإنسان ولصالحه أيضا.

أما إذا أخذنا لكلمة (**آية**) الواردة في هذه الآية المذكورة إشارتها إلى أية آية قرآنية وبدون تخصيصها بآيات معينة نكون قد ضربنا بهذه الأدلة الضمنية عرض الحائط بدون أي مبرر إلا لمجرد اتباع آراء من سبقنا من العلماء الذين فهموا من عملية النسخ المذكورة إشارتها إلى نسخ آيات قرآنية ومن دون مراعاتهم للتسلسل الموضوعي لهذه الآية الكريمة ومن دون الانتباه إلى هذه الأدلة الضمنية التي أوردناها آنفا.

وإن الأمر الذي يرجح رأينا أيضا هو أنه جل شأنه أنهى آية النسخ هذه بفقرة أخيرة قال فيها (**ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير.**).فالخطاب هنا موجه إلى الإنسان الكتابي لعودة ضمير الخطاب إلى أقرب الأسماء وهم (**أهل الكتاب والمشركون**) الذين ما يودون أن (**ينزل**) على المسلمين من خير من ربهم.فالله جل شأنه خاطب الإنسان الكتابي وقال له في هذه الفقرة أنه ما دام الله ربك قد أنزل هذه الكتب التي تقدسونها فإن القدرة على نسخها تعود إلى الله القادر على كل شيء ولا تعود مشيئة الإبقاء عليها أو نسخها إليكم بحال من الأحوال.فأنتم ملزمون بإطاعة الله تعالى الذي أنزلها والذي يعمل على إصلاحكم من خلال ما تضمنته هذه الكتب السماوية من تعاليم.

وإن ما يؤكد أن المخاطب في قوله تعالى(**ألم تعلم..**)هو كل (**كتابي**)من أهل الكتاب يهوديا كان أو نصرانيا هو تلك الآية التي أتت بعد هذه الآية والتي قال تعالى فيها (**ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**).فقوله تعالى (**وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**)**قد أشار إلى أهل الكتاب وليس إلى جهة أخرى غيرهم** ويوضح ذلك.

والسؤال الآن:ما دمنا قد سلمنا بأن هذه الآية من سورة البقرة قد نسخت الكتب السماوية القديمة فما هو معنى قول الله تعالى الوارد فيها (**نأت بخير منها أو مثلها.**) ؟

أقول:ما دام الله جل شأنه قد ذكر نوعين من الكتب المنسوخة: **الأول** موجود ونسخه تعالى لأن تعاليمه لم تعد صالحة للعمل عليها.**والثاني** من تلك الكتب ما كان تعالى قد أنسى أهلها العمل على تعاليمها لذلك لم يعد لها من وجود.

فقد عمد الله جل شأنه إلى صياغة ذلك بأسلوب التقابل الكلامي وقال في مقابل تعاليم النوع الأول (**نأت بخير منها**)أي نأت بتعاليم أصلح للبشرية من التعاليم المنسوخة.وقال في مقابل النوع الثاني (**أو مثلها**).أي نأت بتعاليم مثيلة للتعاليم المنسية المنسوخة إن كانت ما تزال صالحة للعمل عليها.فهذا هو تفسير قوله تعالى (**نأت بخير منها أو مثلها.**).

فلما أصل إلى هذا الحد من البيان يتساءل القارئ:وهل فهم المفسرون القدماء رحمهم الله خلاف ما اقتضاه التسلسل الموضوعي لهذه الآيات من سورة البقرة والتي بينت لنا معانيها آنفا ؟

أقول:لقد اختلف المفسرون القدماء رحمهم الله في موضوع النسخ الوارد ذكره في هذه الآية الكريمة،فتساءلوا: أقصد الله تعالى به نسخ تعاليم الكتب السماوية القديمة أم أراد به نسخ آيات من هذا القرآن العظيم؟ وقد راح كل

فريق يحاول إثبات صحة رأيه.فإن شاء القارئ الاطلاع على وجهات نظر كل فريق منهم فما عليه إلا أن يتقصى ذلك في التفاسير القديمة.فأنا مع وجهة نظر الذين قالوا بنسخ الكتب القديمة.وأخالف رأي من قال بوقوع النسخ في القرآن العظيم.وقد قدمت الأدلة التي تؤيد وجهة نظري والتي راعيت فيها هذا الأصل التفسيري السابع المتعلق بضرورة التقيد بتسلسل الآيات الموضوعي.علما بأني قدمت من الأدلة ما لم يقدموه.

وأضيف إلى ما قدمته من أدلة سبق بيانها فأقول: إن مبدأ النسخ يقوم على وجود التعارض في الأحكام الشرعية المنصوص عليها في هذا القرآن الكريم. وإن تعارض الأحكام معناه وجود اختلاف بين آياته.والله تعالى يقول في الآية ٨٢ من سورة النساء (**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.**) ولا شك أن التعارض بين الأحكام الشرعية يدخل في باب وجود اختلاف في هذا القرآن العظيم.

ثم إن النسخ معناه الإبطال. وإن الله تعالى يقول في الآية ٤٢ من سورة السجدة (**..وإنه لكتاب عزيز.لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.**) فمن قال بوجود النسخ في هذا الكتاب العزيز فكأنما قال بألفاظ أخرى إن في هذا الكتاب العزيز(**باطل**)معاذ الله.

وعلى هذه الصورة أكون قد قدمت مثالا واضحا تتبين للقارئ من خلاله محاذير مخالفة معطيات هذا الأصل السابع من أصول تفسير آيات هذا القرآن الكريم.

هذا وإن القارئ الذي يقارن بين تفسيري للسور (الإسراء، الكهف وهود) وما بين مختلف التفاسير القديمة فسيلاحظ وجود أمثلة كثيرة من نوع هذا المثال الذي قدمته آنفا.لذلك أحجم عن تقديم أمثلة أخرى غيرها.خصوصا وأن اللبيب من الإشارة يفهم.

وألخص للقارئ الآن جميع ما ذكرته حول هذا الأصل التفسيري السابع فأقول:إنني وضعت عنوانا لهذا الأصل السابع هو (التسلسل الموضوعي للآيات الكريمة).ولم أبتدع هذا الأصل التفسيري بل انتبه إليه العلامة الفخر الرازي رحمه الله.لكنني اصطلحت له هذا المصطلح انطلاقا من اشتقاق كلمة التسلسل من سلسل الشيء بمعنى أوصله بعضه ببعض.ولبيان أنه يوجد ما بين كل آية قرآنية وأخرى تسلسل في المعاني والدلالات.وليس في سورة لوحدها.بل وما بين كل سورة وأخرى تأتي بعدها من أول القرآن الكريم وإلى آخر سورة منه.وإن هذه الحقيقة تدخل في باب إعجاز هذا الكتاب السماوي المقدس.فلذلك وردت فيه تحديات خمسة لا داعي لذكرها في هذا المقام.

ونوهت في نهاية ما ذكرته إلى أنه قد يبدو للقارئ أحيانا في الظاهر انقطاعا في التسلسل الموضوعي للآيات.فوضحت أنه يستحيل حدوث ذلك. وكل ما في الأمر هو أنها تعرض خلال كل بحث أسئلة واعتراضات.وإن للقرآن الكريم خاصيته المتميزة في الإجابة هناك على تلك الأسئلة وتلك الاعتراضات وعلى صورة لا تخل معها بموسيقية تلك الآيات.وقد ضربت على ذلك مثالا من عدد من آيات سورة هود تجاوز عددها خمسة عشرة آية متسلسلة فوضحت هناك القاعدة التي تساعد القارئ على الكشف عن ذلك السؤال.وقد تركت للقارئ مراجعة تفسيري لسورة هود المتداول في الأسواق ليزداد يقينا مما بينته له فيه وكيف أنه يوجد ما بين جميع آيات السورة المذكورة تسلسل موضوعي مدهش.

ولم أكتف بهذا المثال بل وقدمت للقارئ مثالا من سورة (ق)ومن السور التي بعدها وقد بلغت سبع عشرة سورة تابعة لها موضوعيا فوضحت هناك الروابط الموضوعية التي ربطت بين كل سورة منها والسورة التي

بعدها.و لم أنس أن أضرب للقارئ أيضا أمثلة تثبت عدم وجود تكرار في كتاب الله العزيز.

وأخيرا فقد نبهت إلى المحاذير التي نجمت في الماضي عن مخالفة المفسرين القدماء رحمهم الله لهذا الأصل التفسيري واقتبست له مثالا من تفسير الآيات ٩٩-١٠٩ من سورة البقرة والتي لم يراع فيها المفسرون القدماء رحمهم الله هذا الأصل السابع التفسيري وما خرجوا به من دلالات باطلة.

فهذه هي خلاصة بحث الأصل السابع من أصول تفسير آيات هذا القرآن العظيم.وأنتقل منه للكلام عن الأصل الثامن.وهو الأصل الذي سأستهل به (**الجزء الثاني**) من هذا الكتاب إن شاء الله العزيز.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢ /ذي الحجة عام ١٤٢١ هجري

٢٥ / شباط عام٢٠٠١ /ميلادي

طالب الدعاء

سليم الجابي

الفصل الثامن

الأصل التفسيريّ الثامن:

مراعاة الصيغ الدستوريّة والصيغ القانونيّة

لقد أورد المفسّرون القدماء حين فسّروا سورة هود أنّ محمدا رسول اللّه ﷺ قال بحقّ هذه السورة (شيّبتني سورة هود وأخواتها). وهذا القول إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أهمّية مضمون هذه السورة وعظمة صياغة آياتها.

وقد كنت استنبطت الأصل السابع من أصول تفسير آيات هذا القرآن الكريم من مُعطيات كلمة واحدة من كلمات الآية الأولى من آيات سورة هود وهي كلمة (كتاب) هذه الكلمة التي تكرّر ورودها منذ الآية الأولى من سورة البقرة التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وقد أثبتَ في الجزء الأوّل من هذا المؤلّف بأنّ القرآن الكريم قد استوفى مقوّمات اسم (كتاب) ولذلك فقد انطلقت من هذه التسمية في الأصل السابع للتّفسير من معطيات هذه الكلمة وبيّنت ضرورة الالتزام بالتسلسل الموضوعي للآيات القرآنيّة وهي الحقيقة التي يقتضيها كون القرآن المجيد قد استحقّ اسم (كتاب) لكنّ هذا لا يعني أنّ هذه الآية الأولى من سورة هود لم تتضمّن إلا أصلا تفسيريّا واحدا وهو أصل (التسلسل موضوعي) ما بين جميع آيات كلّ سورة من سور هذا القرآن الكريم وتسلسل موضوعيّ ما بين كلّ سورة وسورة أيضا. بل إنّ هذه الآية الأولى التي استهلّ اللّه عز وجلّ بها سورة هود قد تضمّنت أكثر من أصلٍ تفسيريّ الأمر الذي يوضّح أهمّية قول رسول اللّه ﷺ الذي أوردناه أعلاه. فما هو هذا الأصل الثاني الذي تستنبطه من معطيات هذه الآية الأولى من سورة هود التي قال اللّه تعالى فيها:

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

فعلى حين أنّ كلمة (كتاب) أشارت إلى الأصل المتعلّق بوجـود التسلـسل الموضوعي بين جميع آيات هذا القرآن المجيد.فإنّ كلمة (أُحكمت) قـد أشـارت إلى أصلٍ آخر من أصول التفسير. فقد أورد معجم (محيط المحيط): إذا قلت: أحكمَ اللّه تعالى هذه الآية فمعناه أتقن صياغتها ودلالاتها.

فإن نحن حاولنا التوسّع في معنى (الإتقان) المشار إليه في هذا القـول الـذي نقلناه عن هذا المعجم يعود بإمكاننا تعميم معناه والتوصّل إلى ثلاثة حقائق ثابتة تحلّت بها صياغة آيات هذا القرآن المجيد وتمثّل وجود ثلاثة أنواع من أنواع صياغة الآيات الكريمة. فما هي هذه الأنواع الثلاثة من الصياغة والمشار إليها مـن خـلال معـنى (الإحكام) أو (الإتقان)؟

ألا إنّ من المعلوم أنّ آيات هذا القرآن المجيد قد اشتملت على:

١-آيات أحكامٍ شرعيّة.

٢-وعلى آيات مواعظ وتعاليم وأمثال.

٣- وعلى حوارات مع عقائد الأديان الأخرى وقصصا من تواريخهم.

هذا وإنّ كلمة (أُحكمت) الواردة في هذه الآية الكريمة قد دلّت على الصياغة المتقنة للآيات العائدة لكلّ نوع من آيات هذه الأنواع الثلاثة التي أشرنا إليها آنفا.

وبألفاظ أخرى نقول: عندما صاغ اللّه تعالى (الأحكام الشرعيّة) فقد أتقـن صياغتها بمعنى أنّه تعالى قد صاغ (الأحكام الشرعيّة الأساسيّة) صـياغة دسـتوريّة لتصبح مرجعاً لما يتفرّع عنها من أحكام.وقد صاغ (الأحكام الـشرعيّة الفرعيّـة) صياغة قانونيّة نابعةً من الأحكام المصاغة صياغة دستوريّة.فهذا ما يتعلّق بالنوع الأوّل من الصياغة المتقنة.وقد شابه ما فعله ربّنا عز وجلّ هنا ما يفعله المشرّعون المعاصرون يضعون دساتير كما يسنّون قوانين نابعة من تلك الدساتير.

وأما ما يتعلّق بالنوع الثاني من الصياغة المتقنة المتعلّق بآيات (التعاليم والمواعظ والأمثال) فقد أتقن اللّه عز وجلّ صياغتها هي أيضا. بمعنى أنّه قد صاغ ما كان يتضمّن منها معاني (عامّة وشاملة) صياغة أشبه ما تكون بالدستوريّة. ومنها ما كان يتضمّن معاني (مخصّصة) تشرح المضامين العامّة الدلالات فقد صاغها صياغة هي أشبه ما يكون بالصياغة القانونيّة أيضا. ولتصبح عائدة مضامينها إلى مضامين الآيات ذات الدلالات العامة الشاملة.

وأمّا ما يتعلّق بالنوع الثالث من الصياغة المتقنة المتعلّق (بمواضيع الحوار مع عقائد الأديان الأخرى وقصص تواريخهم) فقد صيغت هي أيضا على نوعين من الصياغة المتقنة. فالنوع الأوّل منها هو آيات الأحكام الشرعيّة التي حلّت محلّ الأحكام الشرعية المنسوخة التي كانت واردة في الكتب السماوية التي نزلت قبل الإسلام والتي كان معمولا عليها في شرائع ما قبل الإسلام فإنّ اللّه عز وجلّ أتقن صياغة هذه (الأحكام الجديدة) التي حلّت محلّ الأحكام القديمة المنسوخة وسمّاها (الآيات المحكمات) والمصاغة أقرب ما يكون للصياغة الدستوريّة. وأمّا النوع الثاني منها والتي أحيت التعاليم والأحكام العائدة للشرائع القديمة المنسيّة فقد صاغها اللّه تعالى هي أيضا صياغة متقنة وعلى صورة هي أشبه ما يكون بالتعاليم والأحكام القديمة المنسيّة. وسمّاها (الآيات المتشابهات) أي التي تشبه أحكامها الأحكام المنسوخة. وإنّ هذه التسمية التي ذكرناها قد وردت في الآيات الأوائل من سورة آل عمران والتي قال تعالى فيها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾.

هذه التسمية التي عسُر على الفقهاء القدماء فهم حقيقة مضمونها ولذلك قسّموا الآيات إلى آيات محكمات وآيات متشابهات واختلفوا في تعيين ما كان من الآيات المحكمات وما كان من الآيات المتشابهات. وفتحوا بذلك باب الطعن في القرآن الحكيم.

والمهمّ في الأمر هو أنّ اللّه عز وجلّ حين قال في الآية الأولى من سورة هود ﴿ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ فقد أشار بذلك القول إلى وجود هذه الأنواع

الثلاثة من الآيات وبقسميها (الدستوريّ والقانونيّ) والتي شكّلت أصلا من أصول تفسير آيات هذا القرآن المجيد.

هذا ومن باب أنّ اللّه تعالى قد أضاف وقال في الآية المـــذكورة ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ فالحرف (ثمّ) يفيد الترتيب في الإخبار. بمعنى أنَ اللّه جلّ شأنه قد أجرى بعــدَ عمليّــة (الإحكام) التي دلّت على الآيات المصاغة صياغة دســتورية، أجــرى بعــدها عمليّــةُ (تفصيلٍ) لمضامين الآيات ذات الصيغ الدستوريّة وأورد ذلك من خلال آيات قرآنيّــة مصاغة صياغة قانونيّة.علماً بأنّ الله عز وجلّ لم يبيّن لعباده كيف مرّت مراحل الصياغة تلك وكتم بذلك عنّا أسرارَ تلك العمليات. لكنّه جلّ شأنه قد أشعرنا من خــلال مــا بيّناه بانّ هذا الكتاب ما هو بكتاب قديم بل هو كتاب مُحدث وخلافاً لما ذهــب إليــه بعض أصحاب المذاهب الإسلاميّة.

وإنّ اللّه عز وجلّ حين أنهى هذه الآية الأولى من سورة هود بقولــه تعــالى: ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فقد أشار بذلك إلى أنّ مجريات أمور تأليف هذا القرآن الكريم وجميع ما حدث إنّما حدث من خلال تجلّي صفتي اللّه (الحكيم الخبير).وعليه كان من واجبنا الإحاطة بمضمون قوله تعالى ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾:

أقول: إذا تدبّرنا قول اللّه تعالى ﴿ مِن لَّدُنْ ﴾ فكلمة (لدن) تدلّ على محلّ ابتداء الغاية. وما دام تعالى قد جرّ هذه الكلمة بحرف الجرّ (من) فقد كان المقصود من ذلك بيان ابتداء زمان ومكان صدور هذا الكتاب القرآن المحكمة والمفصّلة آياته.وإشارة إلى أنّ صدوره ابتدأ من جانب الذات الإلهيّة وفي ظلّ تجلّي صفتيه (الحكيم الخبير).هذا وإنّ صفة (الحكيم) تعني الذات المتّصف بالحكمة والمتقن للأمور والجامع ما بين العلم والعمل وصاحب الحجّة القطعيّة المسمّاة بالبرهان (معجم محيط المحيط) فاللّه الحكيم هو الذات الذي اتّصف بجميع هذه الصفات.

وأمّا صفة اللّه (الخبير) فهو الذات العليم ذو الخبرة التامّــة والعــارف بحقيقــة الأشياء. فأنت تقول: خبرت فلانا ومعناه امتحنته وبلوته.وخبره معناه علم بحقيقته لــذا تسأل: من أين خبُرت هذا الأمر وتعني من أين وصلك خبره وحقيقته (محيط المحيط).

فمن منطلق هذا الفهم الذي توصّلنا إليه، فقد تحدد مسار اتّجاهنا في هذا التفسير. وهو ضرورة الالتزام بهذين الأصلين التفسيريين: الأوّل ضرورة التقيّد بوجود تسلسل موضوعيٍّ بين جميع آيات هذا القرآن المجيد. والثاني وهو أنّه عندما نتتبّع كلّ موضوعٍ من مواضيع هذا الكتاب المقدّس أن نفرّق ما بين وجود آيات إحْكامٍ دستورية وما بين آيات تفصيلٍ قانونيّة . أي ما بين (مُجمل ومفسّرٍ) لذاك الإجمال، وهي الحقيقة التي درج المفسرون القدماء على التّعبير عنها بقولهم : (القرآن يفسّر بعضه بعضاً) ومن دون معرفتهم بالإطار والمرجعيّة لهذا القول.

وقبل أن نخوض في بحث هذا الأصل التفسيريّ الثامن، نجد لزاماً علينا، بادئ ذي بدء، توضيح العوامل التي أعجزت المفسرين القدماء رحمهم الله عن وصولهم إلى ما توصلنا إليه. فإن أنت تناولت يا عزيزي القارئ تفسير ابن كثير وطالعت ما فسّر به الآية الأولى من سورة هود تلاحظه يقول ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أي هي محكمةٌ في لفظها، مُفصّلةٌ في معناها. فهو – أي الكتاب – كاملٌ صورةً ومعنى. هذا ما رُوي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير، وقوله ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، خبيرٌ بعواقب الأمور.).

فمن خلال ما نقلته للقارئ من تفسير ابن كثير رحمه الله للآية الأولى من سورة هود. قد تبيّن عدم إحاطته بدلالاتها الحقيقيّة التي توصّلنا إليها في تفسيرنا بصورةٍ أصولية. كما تبيّن استنادُه فيما فسّره إلى رواياتٍ منسوبة إلى مجاهد وقتادة واختيار ابن جرير لأقوالهم المذكورة. علماً بأنّ ابن كثير رحمه الله لم يروِ لنا نصوص الروايات التي استند إليها تفسيره.

هذا وقد راجعنا تفسير العلاّمة الرازي رحمه الله أيضاً. فتبيّن لنا ذكره لوجهين قال في (الوجه الأول ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ معناه نُظّمت نظماً رصيفاً محكماً، لا يقع فيه نقصٌ ولا خللٌ. كالبناء المُحكم المُرصف). وقال في (الوجه الثاني : (أنّ الإحكام عبارةٌ عن منع الفساد من الشيء. فقوله ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ أي لم تُنسخ بكتابٍ كما نُسخت الكتب والشرائع بها).

فمن خلال ما نقلته للقارئ من تفسير العلاّمة الفخر الرازي رحمه الله لهـذه الآية الأولى من سورة هود. قد تبيّن نفيه وجود نسخٍ في القرآن الكريم. لكنّه نفسه يعتقد بمبدأ وجود آيات تنسخ مضامين آيات. وبمعنى أنّ الرازي قد شعر بضرورة رفعِ هذا التناقض الذي وقع فيه. فماذا فعل ؟ فبدلاً من أن يراجع نفسه ويعيد النظرِ فيما توارثه من آراء على هذا الصعيد، فهو راح يقول: (واعلم أنّ على هذا الوجه لا يكون كلّ الكتاب مُحكماً، لأنه حصل فيه آياتٌ منسوخة. إلاّ أنه لمّا كان الغالب كذلك، صحّ إطلاق هذا الوصف عليه إجراءً للحكم الثابت في الغالب مجرى الحكم الثابت في الكُلّ). أي أن الفخر الرازي رحمه الله اعتبر وجود النّاسخ والمنسوخ في القرآن بحكم الشّواذ الذي لا اعتبار له ومن خلال هذا التعليل الركيك فتح الرازي لأعداء الإسلام باب التّهجُّم على كتاب الله، هذا الكتاب الذي أُحكمت آياته ثمّ فُصّلت من لُدن حكيمٍ خبير.

ثمّ إنّ الرازي رحمه الله راح يفسّر قوله تعالى ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ فبيّن فيها وجوهاً: (أحدهما : أنّ هذا الكتاب فُصّل، كما تفصّل الدلائل بالفوائد الروحانية... والوجه الثاني أنها جُعلت فصولاً سورةً وآيةً آية). والوجه الثالث (أنها فُرّقت في التتريل وما نزلت جُملةً واحدة...). والوجه الرابع (فصّلّ – الكتاب – ما يحتاج إليه العباد أي جُعلت مُبيّنةً مُلخصة.). والوجه الخامس أنها (جُعلت فصولاً حلالاً وحراماً وأمثالاً وترغيباً وترهيباً ومواعظ وأمراً ونهياً، لكلّ معنى فيها فصل قد أُفرد به مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كلّ واحدةٍ منها، ويحصل الوقوف على كلّ بابٍ واحدٍ منها على الوجه الأكمل).

وعلى هذه الصورة لا يكون الرازي رحمه الله قد فهم من هذه الآية الأولى من سورة هود ما فهمناه منها وهو دلالتها على الأصلين التفسيريّن (السابع والثامن) من أصول تفسير هذا القرآن العظيم، إلى جانب ضرورة الإلتزام بمعطيات أصلي التفسير المذكورين حين نتصدّى لتفسير آيات هذا الكتاب السماويّ العظيم.

وبعد أن فرغت من نقل أقوال هذين المفسرين المشهورين، أعـــود إلى أصـــل بحثنا المتعلّق بالأصل التفسيري الثامن، أقول : لقد اتّضح لنا من معطيات الآية الأولى من سورة هود وجود آيات إحكام محوريّة،وقد صيغت صياغة دســـتوريّة. ووجـــود آيات تفصيل للآيات المحكمة المحورية الدستوريّة الصياغة. وهي ظاهرةٌ لا تعدّ غريبةً عمّا يقوم به الكُتّاب المعاصرون القديرون، تعبيراً عمّا يريدون بحثه من مواضيع. وهو أسلوبٌ يعمد الكاتب إليه على مختلف الصّعد والمستويات.

والذي فهمته من هذه الظاهرة القرآنية المشار إليها، هو أنّ الله تعـــالى قـــد صاغ آيات الإحكام المحورية بصياغة دستورية بمعنى أنها تتسم بالعمومية والشمولية. ولا تدخل في التفاصيل.فهذا حدث على شاكلة ما يفعله المشرّعون في مختلف أقطـــار الأرض يصيغون لشعوبهم دساتير وقوانين. وتتصف النصوص الدستورية بالعموميـــة والشمولية. على حين تدخل النصوص القانونية بالتفاصيل النابعة من معطيات تلـــك النصوص الدستورية. وأنّه لا يجوز سنّ قوانين مُخالفة للدستور المعمول به في القطـــر الذي وُضع فيه ذاك الدستور.

وإنّ القارئ الذي طالع مؤلفاتي وخاصّةً منها (الصوم في الإسلام)، يعثر من خلاله على مثالٍ حيٍّ يُثبت صحّة ما ذهبت إليه آنفاً. وذلك مما أوردته على صفحة (١٢) من الكتاب المذكور. فلقد شرحت هناك ما أفادته الآية الأولى من سورة هود على صعيد التّشريع وقلت (إنّ ما كان من الآيات ذات معنى عام دستوريّ، فقد فصّلناه في آيات ذات معانٍ خاصّة قانونية وبنفس الإتقان). ومن ثمّ أثبتّ أنّ نصّ الآية الأولى من آيات فريضة الصوم، وهي قوله تعالى فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ قد ورد هذا الكلام بصيغة نصٍّ دستوري لاتّصاف مضمونه بعموميّة وشموليّة ظاهرة للعيان. فلم تحدد هذه الآية الكريمة شهراً بعينه قد اختصّ بفريضة الصوم. ولم تحدد أوقاتاً معيّنةً لفريضة الصوم. بل تضمّنت نقاطاً ثلاثة : الأولى منها قد حددت شخصيّة المكلّفين بهذه الفريضة. والنقطة الثانية نبّهت أذهانهم إلى أنّ هذه الفريضة لم يبتدعها الدين

الإسلامي الحنيف، بل نصّت عليها جميع تعاليم الأديان السابقة. والنقطة الثالثة تضمّنت المقصد والحكمة من فريضة الصوم الإسلامي والذي اختصرته الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهو قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

كذلك فإنّ هذا القارئ لكتابي المذكور، يُلاحظ يقيناً كيف أني وضّحت على الصفحة (١٨) من كتاب الصوم أنّ الآية الثانية من آيات فريضة الصوم قد صيغت بصياغة قانونية بلاغية، فُصّل فيها ما نصّت عليه الآية الأولى ذات النصّ الدستوريّ. وهذه الآية الثانية هي التي قال الله تعالى فيها ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

فوضّحت هناك في كتاب الصوم أنّ (هذه الآية الكريمة قد تضمّنت ثلاثة قواعد قانونية. كما وضّحتْ الأساس العلميّ الذي تأسست عليه هذه القواعد القانونيّة أيضا. وقد ورد كلّ ذلك بصياغة بلاغية معجزة، إن دلّت على شيء فهي تدلّ على أنّ الله تعالى الذي صاغها هو الله (الحكيم الخبير) كما وضّحت هناك بأنّ معالمَ القاعدة القانونية الأولى بَدَت من خلال عدم تحديد أيام الصوم. وأنّ معالم القاعدة القانونيّة الثانية بَدَتْ من خلال تحديدها شخصيّة المستثنون من أداء فريضة الصوم على وقتها وهم كل من كان من المكلّفين مريضاً أو على سفر. وأنّ معالم القاعدة القانونية الثالثة بَدَت من خلال معطيات قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ... ﴾ إشارةً إلى العُجّز وهزيلي الأجساد، والذين لا يكونون مرضى ولا على سفر. على حين وضّحت الفقرة الأخيرة وهي : ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الأساس العلميّ والحكمة من القواعد القانونية المنصوص عليها في هذه الآية الثانية من فريضة الصوم.

وعليه فليُمعن القارئ نظره فيما أوردته له من هذا المثال آنف الذّكر، ليعود بإمكانه إسقاط ما تضمّنه من فهمٍ على جميع الآيات العائدة إلى فرائض أخرى غير فريضة الصوم. وليعود بإمكانه التمييز بين ما هو مصاغ من بينها بصياغة بلاغيّة

دستوريّة.وبين ما هو مصاغ من بينها بصياغة بلاغيّة قانونيّة.وليتبيّن ويميّز بالتالي الآيات الداخلة في باب آيات الإحكام الدستوريّة.والآيات الداخلة في باب آيات التّفصيل المشار إليها قانونيّة الصياغة.ووفق دلالة الآية الأولى من آيات سورة هود.

وعلى أساسٍ من هذا الأصل التفسيريّ الثامن ومُنطلقه يكون قد فتح الله جلّ شأنه باباً عريضاً وواضح المعالم لمفسّري هذه الأمة ولفقهائها ليساعدهم ذلك على معرفة الآيات المحكمة والمُصاغة صياغةً بلاغية دستورية.ومعرفة الآيات المُفَصّلَة للآيات المحكمة،والتي أوردها اللّه تعالى مصاغة صياغةً بلاغيةً قانونية.

ولا أكتفي بالمثال الذي ذكرته والذي استقيته من آيات الصوم الواردة في مؤلّفي (الصوم في الإسلام).بل وأورد للقارئ مثالاً آخر لإثبات مصداقية هذا الأصل التفسيريّ الثامن، وذلك من خلال معطيات الآيات التي نصّت على فريضة الجهاد في الإسلام. وهو مثالٌ لم يحط بعلمه أحدٌ من المفسرين والفقهاء القدماء.

فأقول : إنه كانَ من المعلوم لدى المفسّرين والفقهاء القدماء رحمهم الله تعالى أنّ الله تعالى فرض الجهاد في الآية (٣٩) من سورة الحجّ تلك التي أنزلها تعالى في أوائل سنيّ الدّور المدني من بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة.وهي الآية التي قال اللّه تعالى فيها ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾. فالمفسرون والفقهاء القدماء اتّفقوا على ما فهموه من معطيات مضمون هذه الآية الكريمة.

ونقول إنّ نصّ هذه الآية قد صيغ في حقيقة أمره بصياغة بلاغيّةً قانونيّةً، فلم يأت مضمونها عاماً وغير مخصّص، والتي هي صفة الآيات المحكمة الدستورية الصياغة. لذلك وجب علينا ومن منطلق مُعطيات الأصل التفسيريّ الثامن أن نبحث عن الآية محكمة الصياغة الدستورية التي استندت إليها هذه الآية (٣٩) من سورة الحجّ. والحقيقة هي أنّ هذا النصّ القانونيّ استند إلى المعطيات الدستورية للآية

(١٢٦) من سورة النحل التي أنزلها الله تعالى في الدّور المكيّ وفي السنوات الأخيرة منه والتي فهمها رسول الله ﷺ حسبما ذكرت. على حين أنّ ابن كثير رحمه الله قد قال بنسخها بالآية (٣٩) المذكورة من سورة الحجّ.

ففي الآية ١٢٦ من سورة النحل ورد قوله تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾.

والمعلوم من السيرة النبوية أنّ محمداً رسول الله ﷺ وأصحابه قد التزموا بمعطيات هذه الفقرة الأخيرة التي ورد فيها :﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾. فلم يحدث أن عاقب أحدهم مشركاً بمثل ما أنزله هذا المشرك به من عقابٍ من جرّاء هجره عبادة الأصنام وشهادته أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له.

فنتساءل : ما السبب في أنّ جميع صحابة رسول الله التزموا بقول اللّه تعالى ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾. ولمَ لم يعمل أحدٌ منهم على قول اللّه تعالى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾؟ أفلا تستحقّ هذه الظاهرة تفسيرها بتفسير منطقي ومعقول؟ فلئن أجاب امرؤٌ على الاستفهام المذكور بأنّ أحداً من صحابة رسول الله ﷺ الذين آمنوا به في مكّة لم يكن قادراً على معاقبة الذين أوقعوا به الأذى بمثل ما عاقبوه به. فيردّ عليه تفسير ابن كثير رحمه الله نفسه بنفي ما زعمه. فابن كثير راح يفسّر هذه الآية الكريمة بالذات ويقول:(وقال ابن زيد كانوا – أي صحابة رسول الله ﷺ – قد أُمروا بالصّفح عن المشركين. فاسلم رجالٌ ذوو منعة، فقالوا : يا رسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب.فنزلت هذه الآية ثم نُسخ ذلك بالجهاد.). وعليه يكون ابن كثير رحمه الله قد اعترف من خلال قوله الآنف الذكر بالأمور التالية:

أولاً : اعترف بأنّ رسول الله ﷺ كان يأمر أصحابه بالصّفح عن المشركين في مكة المكرّمة بالرّغم من وجود نصّ ا لآية ١٢٦ من سورة النحل آنفة الذكر والنازلة في مكة المكرّمة.

ثانياً : واعترف أيضاً بدخول رجالٍ ذوو منعة في الإسلام في مكة وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يُعاقبوا الذين يضطهدونهم ويؤذونهم من المشركين بمثل ما يعاقبونه. وبالرّغم من ذلك فلم يسمح لهم رسول الله ﷺ بالرّد عليهم بل أوصاهم بالصّبر وتحمّل أذى المشركين.

ثالثاً : هذا وإنّ ابن كثير رحمه الله قال بنسخ هذه الآية المذكورة بالآية من سورة الحجّ التي فرضت الجّهاد على المؤمنين.ومن مُنطلق اعتقاده بوجود الناسخ والمنسوخ في القرآن المجيد.

فإذاً علمنا أنّه كان ما بين إنزال الآية (١٢٦) من سورة النّحل، وما بين إنزال الآية (٣٩) من سورة الحجّ فترةٌ قد تتراوح ما بين سنة أو سنتين. وقد كان في علم الله الغيبيّ أنه سيحاول أهل مكة قتل رسوله الكريم، وأنه تعالى سيأمر رسوله الكريم بالهجرة إلى المدينة المنورة وسيفرض على المؤمنين الجهاد ومقاتلة هؤلاء الأعداء الذين ظلموا نبيّه وصحابته الذين أُخرجوا من ديارهم ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾. فكيف يأمر اللّه تعالى بفريضة الجهاد وقد جعل الله تعالى الآيات الأواخر من سورة النحل تلك المناسبة المباركة لإنزال الآية المقصودة التي قال تعالى فيها ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾؟ وفي الجواب أقول لقد كان رسول اللّه ﷺ قد استوعب الدلالة الدستورية لمضمون الآية من سورة النحل، لأنه كان قد أوتيَ جوامع الكَلِم، واستبشر بدلالتها على قرب الأمر بفريضة الجهاد. لذلك لاحظناه راح يوصي جميع صحابته وخاصةً منهم المتقدمين في الإيمان أن يصبروا على إيذاء قريشٍ لهم، فلا يقدموا على فعل يجرّ وراءه شرّ. فالشّر في اللغة عكس الخير (محيط المحيط). والصّبر خيرٌ.

فمن خلال هذا نُدرك بأن هذه الآية الكريمة (١٢٦) من سورة النحل غير منسوخة، وكيف تكون منسوخةً، وقد استند إليها المضمون القانونيّ للآية (٣٩) من سورة الحجّ التي فرضت على المؤمنين الجهاد ؟ وقنّنت شروطه أيضاً ؟

والآن، وبعد هذا الربط الموضوعيّ الذي قمت به أحاول تدبّر ألفاظ الآية ذات الصبغة الدستورية والتي نزلت في مكة المكرّمة وبمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

فلاحظ يا عزيزي كيف أنّ الله عز وجلّ قد أتى بحرف (إنْ) الشرطي الذي يوقع الثاني من أجل وقوع الأول ويجزم فعلين : شرطاً وجوابه وكما هو حاصلٌ في هذه الآية الكريمة. كذلك أتى اللّه جلّ شأنه بفعل (عاقب) بأحواله الثلاث المنصوص عليها في هذه الآية، وقد اشتقّه من قولك : فلانٌ عاقبَ فلاناً بذنبه والمعنى أنه أخذه بذنبه الذي اقترفه. والاسم من هذا الفعل هو كلمة العقوبة (محيط المحيط) كذلك لاحظ يا عزيزي كيف أنّ اللّه تعالى قد أتى بكلمة (خير) والمستعملة عكس كلمة شر (محيط المحيط) وليفيد من خلال الكلمة المذكورة أنّ في الردّ على ما يقوم به المشركون من معاقبة المؤمنين الذين يشهدون أن لا إله إلاّ الله هو شرّ وأنّ الصّبر على ما يقدمون عليه هو خيرٌ للمؤمنين.فهذا هو معنى هذه الآية الكريمة المتّسم بسمة العمومية والشمولية من غير تخصيص. وإشعاراً من جانب الله عز وجلّ لنبيّه الكريم بمضمون الإحكام ذو الصياغة البلاغية الدستورية الذي اشتملت عليه هذه الآية المذكورة. وليأخذ منها رسول اللّه ﷺ مفهوم الأخذ بمبدأ الصّبر هو وأصحابه، وليتجنّبوا جانب الشرّ الذي يمثله الردّ على الاعتداء بمثله. فهذه الحقيقة هي التي دعت الله عز وجلّ ليوضّح لرسوله الكريم ضرورة أن يضع في معادلته عنصراً روحيّاً، وقال له مخاطباً بعد الآية سالفة الذّكر :﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ وبمعنى أنّ الأخذ بمبدأ الصّبر فيه انصياعٌ لأوامر الله تعالى الذي لا يأمر بشرّ. فإن صبرت فسيعظم ذنبُ هؤلاء المشركين ويزدادون ظلماً، وتؤول عاقبتهم إلى الهلاك والنار فلا تحزن عليهم. ولا تتضايق مما يحيكونه ضدك وضدّ صحابتك من مؤامرات. وأنت متيقّنٌ بأنّ الله تعالى

يحبّ المتقين ويُدافع عنهم، وأنّكم إذا صبرتم تكونون من العاملين على أوامر ربّكم ومحسنون التصرف وتستحقون الثواب من جانبه عز وجلّ.

وعلى هذه الصورة ومن خلال معطيات هذه الآية سالفة الذكر والواردة في سورة النحل محكمة التعليم والمصاغة صياغةً دستوريةً وليس بصياغةٍ قانونيةٍ لاتّصاف مضمونها بصفة العمومية والشمولية. فتكون الآية (٣٩) من سورة الحجّ التي فرضت الجهاد على المؤمنين قد أُسّست قواعدها القانونية على معطيات هذه الآية (١٢٦) من سورة النحل الدستوريّة النصّ، تلك التي فرضت الصبر على المؤمنين في مكة المكرمة مع أنّ هذه الآية من سورة الحجّ قد أذنت لهم بالمعاقبة على قدر ما عوقبوا به.

ألا إنّ الله عز وجلّ حين قال مخاطباً المؤمنين :﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ فهو تعالى لم يقل لهم كتب عليكم الجهاد، بل قال في مقامٍ آخر ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ذلك أنّ كلمة الجهاد تشمل القتال كما تشمل مجاهدة النفس. ألم نُطالع قول رسول الله ﷺ :[رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر] ؟

والآن تعال معي أيّها القارئ لنتفحّص معاً الشروط التي نصّت عليها الآية(٣٩) من سورة الحجّ والتي سمحت بمقاتلة المعتدين في الدين، فنلاحظ أنها اشترطت توفّر عدّة أمور :

فالأمر الأول : هو أنّ المشركين اضطّهدوا صحابة رسول الله ﷺ وعاقبوهم لمجرّد أنهم بدّلوا عقيدة الشرك وقالوا " ربنا الله " فارتكب المشركون بهذه الخطوة حماقةً وظلماً على المؤمنين.

والأمر الثاني: هو أنّ الرسول وصحابته صبروا على ما لاقوه من ظلم المشركين وعلى محاولاتهم الضغط على عقائدهم بأسلوب العنف والعقاب. ومع ذلك فإنّ المشركين لم يخجلوا مما فعلته أيديهم بل ازدادوا عُنفاً ومعاقبة إلى درجة اضطّر معها هؤلاء المؤمنون لترك بلدهم الذي كان مسقط رأسهم، والهجرة من ديارهم من

شدّة العنف والعقاب الذي كانوا يواجَهون به والذي تجاوز حدّ الاحتمال ومع ذلك ظلّ هؤلاء المضطَهَدون صابرين.

والأمر الثالث: وبعد أن ترك هؤلاء الصحابة ديارهم، فلم يهدأ بال المشركين بل طاردوا هؤلاء الصحابة في الحبشة، وفي المدينة المنورة، وحرّضوا أهل البلدين على طرد المؤمنين منهما، ظُلماً وعدواناً وكما هو معلوم تاريخيًا.

والأمر الرابع: هو أنّ هذه الآية من سورة الحجّ قد وضّحت لنا أنّ الاضطَهاد في الدّين إذا بلغ إلى حدّ توفّر الشروط الثلاثة الماضية، يتهدّد الخطرُ أمكنة العبادة وينتهي ذلك إلى القضاء على التراث الدينيّ. وتُمحى بالتالي ظواهر وجود الخالق وظواهر تدخُله تعالى في شؤون عباده ومحاولته هدايتهم، وهو أمرٌ يستحيل السّكوت عليه من جانب خالق السماوات والأرض.

والأمر الخامس: هو أنّ هذه الآية قد نصّت على أنّ توفُّر شروط القتال ضدّ المعتدين والتي أقدموا عليها باسم الدين لابدّ وأن يقترنَ أيضاً بعد ذلك بنُصرة الله وتأييده، وإلاّ فلا نصر ولا تأييد بدون توفُّر تلك الشروط الموضوعيّة لقتال المُعتدين. لذلك قال اللّه تعالى في الشّطر الأخير من هذه الآية الكريمة ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ بمعنى أنّ تدخُل العناية الإلهيّة تحسم نتائج القتال لصالح الذين يطيعونه ويعملون على تعاليمه. وهكذا تكون هذه الآية من سورة الحجّ قد وردت مصاغةً صياغةً قانونية وبليغةً إلى حدّ الإعجاز، وتنبع قواعدها القانونيّة من معطيات الآية (١٢٦) من سورة النّحل، تلك الآية المصاغة بصياغةٍ دستوريةٍ وتمثّل آيات الإحكام في كتاب الله العزيز.

وأزيد القارئ علماً لإثبات مصداقيّة هذا الأصل الثامن من أصول التفسير من خلال تقديم مثالٍ آخر غير هذين المثالين اللذين ذكرهما، ويدور هذا المثال الثالث حول موضوع حقوق الإنسان. وهو موضوعٌ أمست له في أيامنا هذه مؤسسات نبعت فكرتُها من جانب الدول الغربية التي تبنّت القوانين الرومانية، وفلسفة حقوق الإنسان التي كان قد طرحها فلاسفة الرومان.

فكلّ إنسانٍ يسمع أصوات مؤسسات حقوق الإنسان المذكورة، يذهب ظنّه إلى أنّ تعاليم الإسلام لم تبحث موضوع حقوق الإنسان بشكلٍ واضح وموضوعيّ. لأسباب عديدة والدليل على ذلك هو أنّ مكتبات العالم الإسلامي تخلو من كتبٍ بحثت هذا الموضوع بشكلٍ جديّ.

وإنّ هذا الواقع يدعونا لنتساءل : هل بحث القرآن الكريم هذا الموضوع موضوع حقوق الإنسان وبجميع عناصره. وما هي الآيات العائدة له والمصاغة بصياغة دستورية، وما هي الآيات العائدة له والمصاغة بصياغة قانونية وتنبع من تلك الآيات ذات الصياغة الدستوريّة، ووفق معطيات هذا الأصل الثامن للتفسير ؟

وأجيب على هذا السؤال المذكور وأقول : أجل لقد تطرّقتْ تعاليم هذا القرآن العظيم إلى موضوع حقوق الإنسان فبحثته بحثاً واضحاً وموضوعياً. إنّما جاءت به على عادها مفرّقة عناصره هنا وهناك بين مختلف آيات سورهِ ووفقاً لمقتضيات مواضيعها وتسلسلها الموضوعيّ. فقد وضع القرآن المجيد منطلقات نظرية ينطلق منها موضوع حقوق الإنسان. كذلك فإنّها أتت بالأصول الدستورية مصاغةً صياغةً دستوريةً بلاغية عامة وشاملة حدّدت من خلالها الشخصية التي يحقّ لها تشريعَ حقوق الإنسان، وبيّنت ضرورةَ ربط الكلام عن موضوع حقوق الإنسان بالدين، ورفضت ربطه باجتهادات أشخاصٍ عاديين. وفوق ذلك كلّه فقد أطلعنا هذا الكتاب المقدّس على تاريخ نشوء موضوع حقوق الإنسان. وعلى الحقوق الأساسية التي جاء بها أول إنسانٍ طرح هذه الحقوق الإنسانية ووفقَ تلك الظروف البدائيّة وضروراها.

هذا وقد حصر القرآن الكريم تلك الحقوق التي طرحها أوّل نبي وهو آدم عليه السلام بأربعة حقوق شخصيّة. كما نبّه إلى أنّ المتغيّرات الزمنية اقتضت أن تزيد تعاليم الإسلام على حقوق الإنسان الأساسية الأربعة ثلاثةَ حقوق أساسية جديدة. إلى جانب حقوق تُصنَف على درجةٍ أقلّ أهميّة من سابقاها. وسأعطي القارئَ فكرةً موجزةً غير مفصّلةً عن كلّ عنصرٍ من هذه العناصر التابعة لموضوع حقوق الإنسان،ووفق مُعطيات آيات هذا القرآن العظيم،خشية الإطناب.ووفقا لمقتضيات المقام.

وأتناول بالذّكر أولاً الآية الكريمة التي أتت بالأصول الدستوريّة التي حـددت معالم الشخصية المُشرّعة لحقوق الإنسان والتي أمرت بضرورة ربط حقوق الإنـسان بالدين. وهي الآية التي وردَت مُصاغةً صياغةً بلاغيّةً معجزةً ودستوريّة، ولا يتبـادر منها ما قَصَدَته.علما بأنّ الآية المشار إليها قد صاغت حقوق الإنسان بدلالات عامة وشاملة أيضاً وغير مفصّلة.

فإن أنت راجعت يا عزيزي القارئ نصّ الآية (٢١) من آيات سورة البقرة تلك الآية التي قال اللّه تعالى فيها وهو يخاطب جميع شرائح الجنس البشري تلاحظ أنّه تعالى قال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

فهذا الخطاب الإلهي يبدو من حيث ظاهره وبما يتبادر منه لـذهن الإنـسان وكأنه لا علاقة له بموضوع حقوق الإنسان ولا بأصوله الدستورية المطلوبة. أمـا إن قمنا بتدبّر هذه الآية الكريمة بأصول تدبُّرها، تتكشّف علينا الحقائق الـتي ذكرناهـا آنفاً، وتتجلّى عظمة الصياغة البلاغيّة التي صاغ اللّه تعالى بها هذه الآية المذكورة.

فنتساءل أوّل ما نتساءل: ما معنى أن يُستهلّ هذا الخطاب الإلهيّ الوارد في هذه الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ؟ وما معنى أن يُنهي اللّه جلّ شأنه خطابه المذكور بقوله المستأنف بفاء الاستئناف وهو:﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾؟ أقول: إنّ ما يتبادر لأذهاننا بادئ ذي بدء من قوله تعالى﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ أنه تعالى قد أمرنا بالركوع والسجود بين يديه وعلى أعتابه. وعلى حين أنّ فعل الأمر ﴿ ٱعۡبُدُواْ ﴾ لا يفيد هذا المعنى بل يعني أطيعوا أوامر ربكم واخضعوا له وتواضعوا بين يديه واخدموا دينه والتزموا ما شرّعه تعالى من أجلكم ولمصلحتكم ووحّدوه، فلا تتخذوا له أنداداً (محيط المحيط) فهذه هي دلالات كلمة الاستهلال ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ وكلمة الاستهلال هذه تكون بذلك قد نبّهت أذهاننا إلى مرجعيّة حقوق الإنسان، وإلى

الذات التي يحقّ لها تشريع حقوق الإنسان، وإلى ضرورة ربط هذا الموضوع،موضوع حقوق الإنسان بالدين.

أما كلمة الختام التي اختتم بها اللّه تعالى هذا الأمر وهي قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾. فكلمة الختام هذه قد نصّت على النهي والادّعاء بوجود شخصيات نظائر للّه ربكم ويحقّ لها القيام بتشريع حقوق الإنسان. هذا الادّعاء الذي يوقع صاحبه في مستنقع الشّرك الخفيّ، وبعلمٍ منه باستحالة وجود نظائر وأنداداً لله جلّ شأنه. فإن أمعن المؤمن نظره فيما ورد بين هذين الخطابين أي بين مقدّمة الخطاب الإلهي وآخر فقرة منه، يتبيّن له اشتمال هذه الآية الكريمة على دليلٍ علميٍّ متعددةٌ عناصره، يُثبت كون هذا الإنسان مخلوقاً، وأنّ هذا الكون مخلوق من أجل هذا الإنسان ومسخّر لصالحه أيضا.

وعليه يكون الله جلّ شأنه قد وجّهنا من خلال نصّ هذه الآية الكريمة للالتزام بما شرّعه اللّه تعالى في كتابه العزيز من تشريعات تدور حول حقوق الإنسان. كما يكون قد صدّنا في الوقت نفسه عن أن نُصغي إلى ما يطرحه هؤلاء الغربيّون العلمانيّون من حقوق إنسانية لا تنبع من هذا الدين الإسلاميّ الحنيف، والتي تضعهم في منزلة صاحب حقّ التشريع على هذا الصعيد ظلماً وزورا وبهتانا.

وبعد أن أوصلتك يا عزيزي القارئ إلى هذا الحدّ من المعرفة أتناول بالذّكر الآية الكريمة التي أتت بالمنطلقات النظرية التي ينبغي أن تؤسس عليها ما للإنسان من حقوق. تلك الآية التي طرحت خمسة منطلقات نظرية في هذا المجال. وهي الآية (٢٩) من نفس سورة البقرة والتي أجمل اللّه تعالى فيها هذه المنطلقات الخمس وبصياغة بلاغيّة معجزة، وكأنها لا تبحث تلك المنطلقات النظرية المذكورة. فهو جلّ شأنه قال هناك :﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وهذه المنطلقات النظريّة هي:

فالمنطلق النظري الأول : الذي نصّت عليه هذه الآية الكريمة من سورة البقرة، هو أنّ جميع أشياء هذا العالم الماديّ مسخّرةٌ لفائدة هذا الإنسان ولصالح

تطوره. وبألفاظ أخرى فإنّ هذه الآية تكون قد حددت الشخصية التي يدور موضوع حقوق الإنسان حولها وهي هذا الكائن الحيّ المسمى (إنسان).

والمنطلق النظريّ الثاني : دلّتنا عليه كلمة (جميعاً) بمعنى أنّ جميع أشياء هذا العالم مُسخّرةٌ من أجل صالح هذا الإنسان لا فرق بين أبيض وأسود ولا فرق بين عربي وأعجمي ولا فرق بين حاكم ومحكوم. فجميع الناس متساوون في حقّ الانتفاع بأشياء هذا العالم وعلى قدم المساواة أيضاً.

والمنطلق النظريّ الثالث : دلّتنا عليه (لام التعليل) من قوله تعالى﴿ لَكُم ﴾ فهو عز وجلّ علل ما خلق ونبّه أذهاننا إلى أنّ جميع هذه الأشياء مخلوقة لصالحكم ولتتساوون في استغلالها. وكأنه جلّ شأنه قد أعلن بأنه لا يوجد في عالمنا شرٌّ محضٌ كما لا يوجد خيرٌ محضٌ في أشياء هذا العالم. ففي كلّ شيء من أشياء عالمنا عنصر سلبيٌّ وعنصرٌ إيجابي. لذلك فلا ينبغي للإنسان أن ينظر إلى شيءٍ ما من هذه الأشياء الموجودة في هذا العالم بعين الاحتقار.أي أنّ جميع أشياء عالمنا هذا مفيدة للإنسان سواء منها المحرّم تناوله وسواء منها المحلّل تناوله شرعا.كالسمّ على سبيل المثال قد أمرتنا تعاليم الإسلام أن نتجنّب تناوله كغذاء.ولكنّها لم تحرّم إدخاله في الدواء إن كان ذلك ضروريا.

وقد نتج عن ذلك كلّه منطلقٌ نظريٌّ رابعٌ يحرّم استعمال مفردات أو مركبات الأشياء المادّية التي هي في غير صالح هذا الإنسان. إشارةً إلى تحريم استعمال المكتشفات الذريّة لصنع أسلحة الدمار الشامل، وهذا المنطلق النظريّ حثّ هذا الإنسان على استعمال مكتشفاته لصالح هذا الإنسان ولخيره ولفائدته،وبعيدا عن استعمال تلك المكتشفات للإضرار بهذا الإنسان نفسه.فإلقاء القنابل الذرّية على اليابان كانت داخلة في باب الجريمة وفق هذا المنطلق النظريّ.

ثم إنّ هذه الآية الكريمة بمجموعها قد دلّتنا على المنطلق النظريّ الخامس لموضوع حقوق الإنسان وهو أنّ المالك الحقيقيّ لأشياء هذا العالم هو خالقها وهو ذات الله عز وجلّ. فإن تملّكنا من هذه الأشياء شيئاً. فلا نكون مالكين أصليّين لهذه

الأشياء، بل نكون مالكين أوصياء، وبموافقة المالك الحقيقي،ووفق تعاليمه المنزلة في كتابه العزيز. وهكذا تكون هذه الآية المذكورة قد نصّت على المنطلق النظريّ الخامس الأخير وعلى بقيّة المنطلقات النظريّة الأربعة التي أوردناها والمتعلّقة ببحث حقوق هذا المخلوق المسمّى إنسان.

وإنّ الخطوة الثالثة التي أنتقل إليها في هذا المجال هو أن أتناول الكلام كخطوة ثالثة عن الحقوق الأساسية للإنسان تلك التي طرحتها تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف.تلك الحقوق التي شرّعتها أوّل شريعة أنزلها الخالق،وهي شريعة آدم عليه السلام. فالذي يُراجع قصّة آدم الواردة في سورة (طه)، يتبيّن له بأنّ الله تعالى أرجع فيها تاريخ نشوء حقوق الإنسان إلى زمن بعثة آدم عليه السلام. ووضّح في الوقت نفسه أنّ شريعة آدم كانت قد تضمّنت حقوقاً أربعةً أساسيةً من حقوق الإنسان وبما يتناسب وذاك الزمان، وإنّ هذه الآية الكريمة هي الآية ١١٨ من سورة (طه) والتي تضمّنها قول الله تعالى وهو يأمر نبيّه آدم عليه السلام،قال: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ وخلاصة ما تضمّنه هذا الأمر الإلهيّ أن الله عز وجلّ أمر نبيّه آدم عليه السلام أن يسعى لتأمين (الغذاء و الكساء والماء والمسكن) لكلّ فردٍ آمن بآدم وبرسالته وانضمّ إلى جماعته. وأنّ يُحقق تلك الإنجازات والحقوق بتخطيطٍ ونظامٍ تعاونيّ. ومن باب أنّ الإنسان المحتاج والفاقد لواحدةٍ من هذه الحقوق الأربعة الأساسية، يعود من العسير عليه التفكير في معالم هذا الكون وفي إمكانيّة تقليب نظره للبحث عمّن خلق هذا العالم وليسعى للتعرّف على ربّه ليفوز بمحبته وبقربه وبرضوانه في إذا ما ظلّ محتاجاً.وبألفاظ أخرى فإنّ من واجب حكّام أيّ قطر من أقطار هذا العالم أن يقوموا بادئ ذي بدء بتأمين هذه الحقوق الأربعة التي ذكرناها،وهي تأمين الغذاء والكساء والماء والمسكن لكلّ فرد من الأفراد.وإعطاء تحقيق هذا الإنجاز أولويّة ستراتيجيّة على الصعيد العمليّ.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ من بيان حقوق الإنسان الأربعة التي أتينا على ذكرها بل وقد راح الله تعالى فأخبرنا عن ثلاثة حقوقٍ أساسية أضافتها شريعة الإسلام

على تلك الحقوق الأربعة المذكورة. وهو الأمر الذي اقتضته المتغيرات الحاصلة زمن إنزال هذا القرآن العظيم. وأنّ تلك الحقوق الشخصيّة الأساسية المضافة من حقوق الإنسان قد تضمّنتها الآيات الثلاث الأخيرة من سورة الضّحى وهي :﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾. وقد قصد اللّه تعالى من كلمة (اليتيم) الواردة في هذه الآيات الكريمة معناها المجازي الدّال على كون محمّد بن عبد اللّه ﷺ أنّه كان فريد عصره.ولم يُقصد منها معناها الحقيقيّ.وقد قصد اللّه تعالى بكلمة (السائل) الواردة في هذه الآيات معناها المجازي أيضا إشارةً إلى أنّ محمّدا بن عبد اللّه ﷺ كان طالب علم حقيقة.ولم يكن طالب مال مادّيّ،بدليل أنّه عندما تزوّج امرأة ثريّة هي خديجة رضي اللّه عنها لم يتصرّف بأموالها لبناء أبنية فخمة.ولا للتباهي أمام الناس.بل أعتق عبيدها وهي حقيقة معروفة تاريخيًا. وقد قصد اللّه تعالى بكلمة (فحدّث) معناها المجازي أيضاً وليس معناها الحقيقيّ.وهو ضرورة حثّ الحكّام على نشر التعليم بين الناس وعلى أساس أنّه حقّ طبيعيّ من حقوقهم الشخصيّة المشروعة. وعلى هذه الصورة يكون الله عز وجلّ قد دلّنا على تاريخ نشوء حقوق الإنسان الأساسية وعلى تاريخ تطورها. ويكون قد حددها أيضا في سبعة حقوق أساسية، وعلى حسبما ذكرناه فيما سبق. وهي تأمين غذاء الإنسان وكسائه والمسكن الذي يأوي غليه والماء الذي يهبه الحياة. ومساعدة النابغين من الأفراد والباحثين عن الحقيقة وعلى نشر التعليم بين الناس مجاناً.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ من البيان. بل وراح اللّه جلّ شأنه ينبّه أذهاننا إلى وجود حقوق إنسانية أخرى تأتي في الدرجة الثانية من حقوق الإنسان.ومنها حقّ التعبير وحق الاعتقاد وحقّ التّصويت والانتخاب. وقد وزّع اللّه تعالى تلك الحقوق على مختلف سُور كتابه العزيز، فأتى بكلّ واحدة منها فيما يتلاءم والتسلسل الموضوعيّ للسورة نفسها. ولست هنا بصدد الكلام عن تلك الحقوق العائدة إلى الدرجة الثانية من حقوق الإنسان. لذلك أكتفي بذكر أبرزها.

فاعلم يا عزيزي القارئ أنّ من أبرز تلك الحقوق التي هي من الدرجة الثانية من حقوق الإنسان،هو حقّ التعبير عن الرأي وحقّ التعبير عن الاعتقاد لقوله تعالى في الآية ٢٩ من سورة الكهف:﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾. كذلك فقد حرّم اللّه عز وجلّ الإكراه في مجال العقيدة وقال في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة:﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. كذلك منح اللّه تعالى كلّ فردٍ عاقلٍ بالغٍ حقّ التصويت والانتخاب، وقد سمّى هذا الحقّ أمانة في عُنقِ الناخب لينتخب الإنسان الصالح. ففي الآية (٥٨) من سورة النساء قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ أي أنّ من حقوق هذا الإنسان حقّ التصويت والانتخاب كأمانة في أعناقكم.فإذا صوّت هذا الإنسان وانتخب، فلتصوّتوا لصالح المرشّح المؤهّل لحمل مسؤوليّة الحكم. فإذا نجح هذا المرشّح وأصبح من زعماء الأمّة التي انتخبته فحكم بين الناس فاللّه عز وجل يعظه أن يحكم بالعدل. أي إن فزتم يا من انتخبكم شعبكم بمقاعد الحكم أن تعدلوا بين الرعيّة. فهذا ما دلّ عليه قوله تعالى ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾. وهناك حقوق ثانوية لهذا الإنسان نصّت عليها آيات هذا القرآن المجيد مما لا مجال لذكرها جميعها في هذا المقام.

والذي يهمّنا هنا هو أن نقول بأنّ هذا القرآن المقدّس بحث موضوع حقوق الإنسان من جميع جوانبه، وليس الآن، بل قبل أربعة عشر قرن من الزمان. وفي زمان ما كان فيه لهذا الموضوع من قيمةٍ هي على مستوى القيمة التي يحتلّها في زماننا المعاصر. وقد أورد اللّه عز وجل تلك المضامين بصيغ دستورية وبصيغٍ قانونية وعلى أساس من منطلقاتٍ نظرية، ودلنا في الوقت نفسه على تاريخ نشوء موضوع حقوق

الإنسان. ولقد قسّم القرآن الكريم حقوق الإنسان أيضا إلى فئتين من الحقوق. ووضّح الشخصيّة المفوّض إليها تشريع حقوق الإنسان، واعتبر أنّ كلّ إصغاء لحقوق وضعيّة لحقوق الإنسان من خارج تعاليم هذا القرآن الكريم هو مخالفٌ لعقيدة التوحيد ويدخل في باب الشّرك الخفيّ بالله عز وجلّ. فأعظم يا قارئي بهذا المثال الذي ثبت من خلاله مصداقيّة هذا الأصل التفسيريّ الثامن الذي نحن بصدد بحثه والكلام عنه.

وبعد أن فرغت من تقديم هذه الأمثلة الثلاثة التي أثبتّ من خلالها مصداقية الأصل التفسيريّ الثامن المذكور. أرى أن أوضّح للقارئ أنّ بحث الآيات المُحكمات الدستورية الصياغة والآيات المُفصّلات القانونية الصياغة، يختلف بصورة جذرية عن بحث الآيات المحكمات والآيات المتشابهات تلك التي ذهب ذهن المفسرين القدماء إليه خطأ، والذي استندوا فيه إلى قوله تعالى من سورة آل عمران :﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ...﴾. وإليكم ما فهمه من هذه الآية الكريمة مفسران عظيمان :

فابن كثير رحمه الله راح يفسّر هذه الآية الكريمة ويقول : (يُخبر تعالى أنّ في القرآن آياتٌ محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب أي بيّناتٌ واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد. ومنه آياتٌ أُخر فيها اشتباهٌ في الدلالة على كثيرٍ من الناس أو بعضهم. فمن ردّ ما اشتبه إلى الواضح منه، وحكّم مُحكمهُ على متشابه عنده فقد اهتدى. ومن عكس انعكس. ولهذا قال تعالى :﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي أصلُه الذي يُرجع إليه عند الاشتباه. ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقةَ الحُكْمَ. وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا مِن حيث المراد. وقد اختلفوا في الحكم والمتشابه، فرُوي عن السّلف عبارات كثيرة.. كقولهم ـــ المحكمات ناسخة... وقيل في المتشابهات منسوخة والمقدّم والمؤخّر والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمن به ولا يُعمل به...) وغيرها من الأقوال.

وأمّا العلاّمة الفخر الرازي رحمه الله فقد كتب على الصفحة (١٧٢) من المجلّد الرابع وقال (أما قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ فالمراد من الكتاب فهو

القرآن.﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ وهي التي تكون مدلولاتها متأكّدة : إمّا بالدلائل العقلية القاطعة، وذلك في المسائل القطعيّة، أو تكون مدلولاتها خالية عن معارضات أقوى منها) ثم قال ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ وقد عرفت حقيقة المتشابهات...).

وقد جاءت إشارة الرازي في الجملة الأخيرة إلى ما ذكره من قبل بحقّ الآيات المتشابهات. فهو كان قد قال على الصفحة (١٦٨) منه (فأُطلق لفظ المتشابه على ما لا يعلم إطلاقا لاسم السبب على المُسبَّب. فهو هذا الكلام المحصّل في المحكم والمتشابه..).

وقد راح العلاّمة الفخر الرازي رحمه الله يُقدّم أمثلةً من الآيات القرآنيّة توضّح الآيات المتشابهات وتكشفها. وكان من جملة ما قدّمه أن استدلّ بقوله تعالى على المتشابه وهو : { وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحقّ عليها القول..}. قال : فظاهر من هذه اللام أنهم يؤمرون بأن يفسقوا.. فهذا متشابه. ومحكمه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾. هذا وقد وافق الرازي في تفسيره هذا ابن كثير فيما قاله { من أنّ الناس أكثروا من الوجوه في تفسير المحكم والمتشابه) وافقه بهذا وعلى نفس الصفحة (١٦٨) أيضاً.

فمن خلال ما اقتبسناه من أقوال هذين المفسرين المشهورين نُدرك الفارق الكبير ما بين مفهومنا الذي بيّناه بشأن المحكم والمتشابه من الآيات و ما بين مفهومهما للمحكمات والمتشابهات.

والحقيقة هي أنّ الآيات المحكمات والمتشابهات التي تكلّمت عنها الآية من سورة آل عمران هي نفسها التي تكلّمت عنها الآية الأولى من سورة هود والتي استقينا منها الأصل السابع والثامن من أصول تفسير القرآن الكريم. وإنّ الآيات المحكمات والمتشابهات تختصُّ بتعاليم الكتب السماوية المنسوخة أو المنسيّة التي نسختها تعاليم هذا القرآن الكريم وفق مضمون الآية (١٠٦) من سورة البقرة التي قال تعالى فيها :﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ...﴾.

وأنا وإن تطرّقت لبحث المحكم والمتشابه في أوائل صفحات الجزء الأول من ردّي على القراءة المعاصرة المعروف. فلا أرى مانعاً من اختصار ما أجبتُ به هناك كمثال رابعٍ يُثبت مصداقيّة الأصل التفسيريّ الثامن الذي نحن بصدده، والذي قدّمت حتى الآن نماذج ثلاثة أثبتّ من خلالها مصداقيّته.

فأقول باختصار أيضاً : إنّ الله عز وجلّ استهلّ سورة آل عمران بقوله تعالى ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ وبذلك يكون قد طرح ادّعاءين : فالادعاء الأول أنه تعالى (الله.. الحي). والادّعاء الثاني أنه تعالى (الله.. القيّوم). ومعلوم أنّه لا يستحقّ صفة (الحيّ) مُعرّفةً بالألف واللام إلاّ الإله الذي لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ لأنّ الغفلة والنوم جزءٌ من الموت المعروف الذي تعدمُ فيه فعاليّات ونشاطات الحياة. ولا يستحقّ صفة (القيّوم) مُعرّفةً أيضاً إلاّ اللّه الذي لا يقوم شيءٌ بدونه فباللّه يقوم كلّ شيء في هذا الوجود.

وقد بات معلوم لدينا أنّ الله عز وجلّ لا يطرح ادّعاءً إلاّ ويتبعه بدليلٍ لِيُثبت من خلاله مصداقية ما ادّعاه وهي الحقيقة التي دلّ عليها أحد أصول التفسير. وما دام اللّه عز وجلّ قد طرح ادّعاءين في مُستهلّ هذه السورة وهما كون اللّه جلّ شأنه: ﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ فقد بات من واجب الإنسان الذي يتدبّر كلام الله تعالى أن يبحث عن دليلين وليس عن دليلٍ واحد، لإثبات كون الله تعالى ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾.

والحقيقة هي أنه تعالى قدّم دليلاً تاريخياً لإثبات كونه (الإله الحيّ) من خلال تنبيهه أذهاننا إلى أنه سبق أن أنزل التوراة والإنجيل هُدىً للناس. وأنه أنزل بعد ذلك هذا القرآن الكريم لتقوم تعاليم هذا القرآن العظيم بمهمّة كونها (فرقان) يفرّق ما بين الحقّ والباطل بعد نسخ القرآن للكتابين السماويين المذكورين التوراة والأنجيل.

وبما أنّ القارئ ربّما يتساءل ويقول وكيف يكون هذا الكتاب الجديد المُنزّل فرقاناً ؟ فقد وضّح الله تعالى ذلك وأجاب بقوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾. فهو تعالى عرّف كلمة (الكتاب) إشارة إلى المعهود في ذهن أهل التوراة والإنجيل من نبوءات اشتملت عليها وتتعلّق

بنزول هذا الكتاب الناسخ لهما. ومن ثم قال تعالى (منه) فأتى بحرف الجرّ من وليفيد هنا معنى التّبعيض. أي أنّ من جملة آيات هذا الكتاب المحكم آياته، المُتقنة صياغةً ومضموناً، ﴿ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي آياتٌ مصاغةٌ بصياغة دستورية، ولا من أساسٍ لها في الكتب المذكورة المنسوخة، وتشكّل أساس وأصل وعماد ومرجعيّة التعاليم الجديدة التي تضمّنها هذا الكتاب الفرقان، ولتمتاز بها تعاليمه عمّا أتت به التوراة والإنجيل من تعاليم. وأنّ من جُملة آيات هذا الكتاب المحكمة آياته المتقنة صياغة ومضمونا آياتٌ (أُخر متشابهات) إلى جانب ما نسخه هذا الكتاب من تعاليم اشتملت عليها التوراة والإنجيل. والتي هي متشابهات إلى حدّ الالتباس (محسيط المحيط).أي أنّ الآيات المحكمات الجديدة التعاليم قد صيغت بدلالات عامة وشاملة كمنطلقات دستورية. وأنّ الآيات التي تشبه أحكامها القانونية مضامين تلك الأحكام القانونية المنسوخة قد صيغت بصياغة قانونية فيها تخصيص، وتنطلق أحكامها من معطيات الآيات المحكمات التي هي عماد وأصل وأساس جميع ما ورد من تقنين.

فأين روح الالتباس التي أفادت به كلمة (متشابهات) ؟ هذا التساؤل استدعى أن يجيب الله عز وجلّ عليه. فهو جلّ شأنه أتى بفاء الاستئناف وراح يوضّح ذلك وقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ .

فلو أنه تعالى كان قد قال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ لكان القصد من ذلك فئة المنافقين. لكنه استعمل كلمة (زيغ) إشارة إلى الذين كفروا من أهل الكتاب. ثم إنه تعالى أتى بفاء الاستئناف ثانيةً وقال: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ﴾ وأورد هنا فعل (يتبعون) ليشير بذلك إلى أنّهم يتبعون ويسيرون خلف ما تشابه من أحكام القرآن الكريم مع أحكام كتبهم ولا يرجعون إلى ما جاء به القرآن من آيات (محكمات) تلك التي تحمل تعاليم جديدة ومصاغة صياغة دستورية. وكأن اللّه تعالى قد وصف بذلك حال قساوسة ومبشري أهل الكتاب من مسيحيين ويهود الذين

يتّهمون هذا القرآن بسرقة تعاليمه من التوراة والإنجيل في كلّ زمانٍ ومكان. مع أنّ القرآن الكريم نفسه لم يقل أنّ جميع ما جاء به من تعاليم وأحكام تتصف بالجدّة ومخالفة للتعاليم السابقة.

ثم وضّح اللّه جلّ شأنه قصد هذه الفئة المنحرفة من قساوسة ومبشّري أهل الكتاب وقال :﴿ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾. فقوله (ابتغاء) أي بطلب وبقصد. وقوله (الفتنة) وتعني الضلال والكفر والفضيحة والابتلاء والصّد عن سبيل الله. وليصبح معنى ﴿ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ ﴾ أي أنّ هؤلاء الزائغين عن الحقّ يعمدون إلى هذه اللعبة بطلب وقصد إيقاع الفضيحة بمحمد رسول الله ﷺ عن غير حقّ وإضلال المؤمنين به وابتلائهم وتكفيرهم إيّاهم. ليس هذا وحسب بل ﴿ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾ أي بقصد بيان أحد محتملات ألفاظ الآيات، وهو معنى التأويل (محيط المحيط). وقد صيغت هذه الحقيقة بما يتعلّق بمبشّري المسيحية بصياغة بلاغية معجزةٍ أيضاً تبادر منها لأذهان المفسرين غير ما تضمّنته من معنى وحقيقة.

ومن ثم قال اللّه تعالى ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وبمعنى لا يحيط بعلم القرآن إلاّ الذي أنزله، على حين يضع هؤلاء المنحرفون أنفسهم في موضع الله عزّ وجلّ ويزعمون مصداقيّة ما سعوا به إلى الفتنة وإلى تأويله.

ومن ثم وصف اللّه تعالى ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ أي الثابتين على تطبيق أحكام وتعاليم القرآن من غير (زيغ) والمتلقّين علوم القرآن الكريم وفق أصوله ومن منبعه بأهم (يقولون) أي يعتقدون أنه لا توجد في القرآن الكريم تعاليم مسروقة من الكتب السماويّة السابقة، وأنّ كلّ تعليم من تعاليم هذا القرآن المجيد قد نزل من عند ربّنا ويحمل طابع الجدّة أيضاً. ولذلك علّمنا اللّه جلّ شأنه بعد ذلك أن ندعو مباشرةً: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا... ﴾ أي ربّنا نجّنا مما يُحيكه هؤلاء الذين زاغت أعينهم عن الحقيقة من مؤامرات ضدّ دينك الحنيف.

وبذلك أكون قد فرغت من شرح هذه الآية الكريمة التي تكلّمتْ عن الآيات (المحكمات) والآيات (المتشابهات)، كما أكون قد فرغت من بيان علاقتها الموضوعية

بما سبقها من آيات في سورة آل عمران، وأثبتُّ دلالة تلك الآيات على وجود النوعين المذكورين من الأحكام الشرعية التي أتى بها الإسلام. ولم يتبقَّ عليَّ إلاَّ أن أقدّم مثالاً حيّاً من الآيات القرآنية التي يثبت منها مصداقية ما ذهبتُ إليه.

وإلى القارئ الكريم آيةً كريمةً هي من النوع الأول من الآيات، وقد صاغها ربنا عز وجلّ صياغةً دستوريةً ذات دلالات عامة وشاملة ، وذات صيغة جديدة، مما لا نجد له أساساً فيما تضمّنته تعاليم التوراة و الإنجيل من تعاليم. وهذه الآية الكريمة المذكورة هي الآية (٤٠) من سورة الشورى والتي يقول تعالى فيها :﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . فهذه الآية الكريمة استدعى ورودها بهذه الصياغة الدستوريّة ما أورده الله جلّ شأنه قبلها من تعاليم. وأورد للقارئ الكريم تلك الآيات الثلاث التي وردت قبلها والتي تضمّنت تلك التعاليم، والتي أشكل على المفسرين القدماء حلّ ما يُظنّ بين معطياتها من اختلافٍ ظاهري مزعوم.

فلقد قال اللّه تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾.

فلقد تساءل المفسرون القدماء : أنّه كيف باستطاعتهم التوفيق ما بين الأمر بالأخذ بالمغفرة ﴿ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ وما بين الأمر بالانتصار لحقوقهم ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾؟ فاعترضوا على ذلك التباينِ الظاهريَ المزعوم الواقع ما بين الآية ﴿ ...وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ وما بين الآية ﴿ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ . وقد احتجّوا على مصداقيّة هذا الأمر بالمغفرة والمأخوذ من معطيات قوله تعالى وَأَن ﴿ تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ وقوله تعالى أيضاً ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

هذا وإنّ العلاّمة الفخر الرازي رحمه اللّه وعلى عادته، فقد ذكرنا بتلك الاعتراضات التي أوردناها على الصفحة (١٧٧) من المجلّد الرابع عشر من تفسيره، وقد حاول هو الردّ عليها بنفسه والتوفيق بين معطيات الآيتين المذكورتين. ومما أورده قوله :

(والجواب أنّ العفو على قسمين : أحدهما أن يكونَ العفو سبباً لتسكين الفتنة وجناية الجاني ورجوعه عن جنايته. والثاني أن يصير العفو سبباً لمزيد من جراءة الجاني ولقوّة غيظه وغضبه. والآيات في العفو محمولةٌ على القسم الأول.

وهذه الآية﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ محمولةٌ على القسم الثاني. وحينئذٍ يزولُ التناقضُ، والله أعلم.).

أقول : لو كان الفخر الرازي رحمه الله ملتزما بالأصل الثامن التفسيريّ وهو ضرورة مراعاة تسلسل الآيات الموضوعيّ، لكان قد اعتبر الآية التي وردت بعد هذه الآيات المذكورة تحمل حلاً جذرياً للذي لاحظه هؤلاء من تباين ظاهريّ بين الآيات، ولكن فهمه المذكور قد كفاه كتابةَ هذا الدفاع الذي لا يقبله إلاّ من سار على خطّه الفكريّ.

فليلاحظ القارئ معي كيف أنّ قول اللّه تعالى ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قد ورد مضمونه عامّاً وشامل الدلالات ومُصاغاً صياغةً دستوريةً وليشكّل الأساس للأخذ إمّا بمبدأ الغفران، وإمّا بمبدأ الانتصار للحقوق المهضومة. وهو أمرٌ لا نجد لمعطيات مضمونه من أساسٍ في تعاليم التوراة ولا في تعاليم الأناجيل.

ودقّق معي أيّها المؤمن القارئ أولاً في معاني كلمة (سيّئة). فهي تستعمل نقيض كلمة (حسنة)،وإنّ السيّئة تعني الخطيئة لكنّه لا يفيد معناها ما نعرفه من الفواحش والآثام. ذلك أنّ فاحشة الزّنا على سبيل المثال توجب إقامة الحدّ الشرعيّ على الزاني. أما السيّئة فتشمل معاني الفجور والمنكر والشدة والذنب والضرّ والقتل أيضاً أحيانا. وهي أمورٌ تدخلُ في باب مقدّمات الفواحش وليست هي الفواحش نفسها معجم (محيط المحيط).

فإن نحن أخذنا بهذه المعاني التي أفادتها كلمة (سيّئة)، ومن ثم تدبّرنا الموعظة التي اشتملت عليها الآية الآنفة الذّكر. يتبينّ لنا أنها قد قدّمت لنا لحلّ ما نشأ عن سابقاتها من الآيات قد قدّمت لنا منطلقاً دستورياً. ملخّصُه أنه إذا فجر إنسانٌ على إنسانٍ آخر، وعامله معاملة منكرةً وأذنب بحقّه وضرّه أو قتل له عزيزاً من أعزائه.

فالآية تمنح هذا المظلوم حقّ الوقوف عند أحد موقفين : إمّا ان يعمد إلى الردّ بسيّئة مثل السيئة الواقعة عليه فيما إذا تبيّن له أنّ مُرتكبَ تلك السيّئة لا ينفع معه العفو والمغفرة. وإما أن يعفو عن الذي أساء إليه لإصلاح ذات البين بينهما، هذا فيما إذا تبيّن له صحة هذه الخطوة الثانية وفائدتها. فهذه الفتوى وردت على مستوى الأفراد أما هذه الآية فقد وردت بمعاني أوسع وكأساسٍ دستوري.

وقد راح اللّه تعالى يبرر ما انطوى عليه هذا التعليم الجديد. فأتى بفاء الاستئناف وقال : ﴿ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. فوضّحٌ بأنّ هذا التعليم الجديد الذي أتى به الدين الإسلاميّ الحنيف مؤسسٌ على معطيات المدرسة الروحية التي جاءت بها تعاليم هذا الدين الحنيف والتي تساعد المؤمن على جذب محبّة ربهم عز وجلّ، ولنيل قربه ورضوانه. هذه المدرسة الروحية التي اشترطت على السالك درب عرفان ومحبّة ربه عز وجلّ وألاّ يكون ظالماً، وليستجيب ربّه له ولتحصيل حقّه طلباً للأجر والثواب على ما فعله استجابة لأمر ربّه جلّ شأنه.

وعلى ضوء هذه المعاني والمفاهيم التي أفادتنا بها هذه الآية السالفة الذّكر، نعود نحاول تدبّر قول اللّه تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ هو يشكّل موعظةً تأمر تجنُّب كبائر الإثم والفواحش. وقد أضاف تعالى إلى هذه الموعظة قوله: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾. فهو تعالى قد زاد على ذلك يعظ هؤلاء أنه لو تملّكتهم حالة غضب نفسيّة بسبب أمرٍ صدر عن إنسان ما هو من قبيل فعل المُنكر والفجور والذّنب والإضرار بهم أو من جرّاء قتل أحد الناس لعزيزٍ من أعزائهم. فإنّ الله تعالى يعظ هذا الغضبان أن يكظم غيظَهُ فلا يرُدّ على الإساءة بالإساءة، بل يردّ عليها بالميل إلى الأخذ بمبدأ العفو.

ونتدبّر الآن الآية الكريمة التي قال اللّه تعالى فيها :﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ . فكلمة (البغي) تفيد مفهوم التعدّي على الله وعلى الناس، وبذلك يشمل معناها الظلم والجرم والجناية والعصيان والتعدّي (محيط المحيط) وعليه فإنّ الله تعالى يعظ في هذه الآية الكريمة المؤمن الذي يُعتدى عليه اعتداءً يدخل في باب الظلم

والجرم والجناية والاعتداء على حقوقه فيعطي هذا المؤمن حقّ الانتصار لنفسه ورفع ما أصابه من هذه الأمور من أذىً،وذلك بالمطالبة من المراجع المُختصّة دفع ذلك الظلم عنه وتحصيل حقوقه من الشخص الذي اعتدى عليه. وأن يتجنّب هذا المؤمن أسلوبَ الثّأر المتعارف عليه في الجاهليّة.

فإن دقّق المدقق نظره فيما أفادته هاتان الآيتان المذكورتان آنفا، فلا يبدو من خلال معطياتهما أيّ تضادٌ ظاهريٌ أو غيره. بل تدلّ هذه المعاني على وجود أساسين اشتُقّت وأُسّست عليهما مواعظ هاتين الآيتين الكريمتين. ويتساءل الباحث حينئذ عن الأصل الدستوريّ الذي نبعت منه تلك التعاليم والمواعظ المذكورة. ويعثر على الإجابة فيما تضمّنته الآي التي وردت بعد هذه المواعظ وهي قول الله تعالى فيها ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وعلى هذه الصورة يكون قد اتّضح للقارئ الكريم أنّ جميع هذه الآيات يربط بينها سبكٌ مدهشٌ وتسلسلٌ موضوعيٌّ ظاهر الدلالة، ومرتبط ايضاً بموضوع شروط تحصيل محبّة الله وطلب الفوز بقربه ورضوانه. أي أنّ الله تعالى قد صاغ هذه الآيات السابقة بصياغة قانونية بلاغية مخصصة الدلالات. على حين أنه قد صاغ الآية (٤٠) صياغة دستوريةً بلاغيةً غير مخصصة وبمعانٍ عامة وشاملة. ومن خلال هذين النوعين من الصياغة ومن خلال معطيات المعاني الآنفة الذّكر، يكون القرآن العظيم قد أتى بتعليمٍ جديدٍ كلّ الجدة، وبعيدٍ عن ظواهر الإفراط والتّفريط التي اتّصفت بها تعاليم التوراة والإنجيل المتداولين بين أيدي أصحابها من يهودٍ ومسيحيين.

فما هي الأدلة التي تُثبت اتّصاف التعاليم التوراتية والإنجيليّة بما ذكرته من أوصاف ؟ إننا نعثر على الدليل من ضمن مُعطيات تعاليم الكتابين المذكورين اللذين نسختهما تعاليم القرآن الكريم. فالتوراة المعاصرة، لا يعثر الباحث ضمن تعاليمها على تعليمٍ واحدٍ يُخيّرُ اليهوديّ بين أن ينتقم أو أن يأخذ بمبدأ العفو و الغفران. بل إنّ هذا الباحث سيعثر على ما يؤيّد ما قلته آنفاً من وجود أحكامٍ جامدةٍ وصارمة الدلالات. فقد أورد كاتب سفر التثنية الإصحاح ١٩/٢٢، ونقلاً عن موسى عليه

السلام أنه علّم قومه وقال (النفس بالنفس، والعين بالعين، والسنّ بالسنّ واليد باليد، والرّجل بالرّجل.) بينما أوردت الآية (٤٥) من سورة المائدة زيادةً على ما ورد في الإصحاح المذكور زيادةً لم يتطرّق إليها هذا النصّ التوراتيّ. فلقد قال الله تعالى في الآية ٤٥ المشار إليها :﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

فالمهمّ في الأمر هو أنّ الأحكام التي تضمنتها التوراة المعاصرة جامدةٌ وقاسيةٌ ومتطرّفةٌ لا تعرف المرونة. هذا وإننا إذا تناولنا تعاليم الأناجيل المعاصرة أيضاً، فليُلاحظ الباحث اتّصافها بصفة التفريط إلى درجة الخنوع، منها أنه قد أورد كتاب إنجيل متّى في الإصحاح ٣٨/٥ قولاً نسبه إلى المسيح الناصريّ عليه السلام وهو قوله هناك { سمعتُم أنه قيل عينٌ بعينٍ وسنٌّ بسنّ. وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشرّ. بل من لطمك عل خدّك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً. ومَن أراد أن يُخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرّداء أيضاً. ومن سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. ومن سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترضَ منك فلا تردّه. سمعتُم أنه قيل تُحبُّ قريبك وتبغضُ عدوّك. وأما أنا فأقول لكم أحبّوا أعدائكم، باركوا لاعنيكُم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يُسيئون إليكم ويطردونكم، لكي يكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات).

فهذا هو التعليم الذي يفخر به كلّ مسيحي في عالم اليوم. لكنه للأسف الشديد فإنّ الباحث لا يعثر على مسيحيّ واحد من بين المسيحيّين جميعاً وبما فيهم رؤساء كنائسهم،أنّه يعمل على هذا التعليم الذي نقلناه عن انجيل متّى أعلاه.

بل وعلى العكس من ذلك تماماً, فقد عادت جميع شعوب الأرض تئنُّ و تتوجّع ممّا يلاقونه من جانب هذه الأمم الغربية المسيحية التي سمّاها رسول الله ﷺ في أحاديثه (المسيح الدجّال). و هو أمر إن دلّ على شيء فإنما يدلّ ويؤكّد بأنّ التعليم

الإنجيلي المذكور لا يصلحُ ليعملَ الإنسان على أحكامه في هذا الزمان وإلاّ فلماذا لا يعملُ أصحاب هذا التعليم على توجيهاته ؟

فمن خلال هذا كلّه الذي أوردناه لا بدّ أن يكون القارئ قد أدرك أنّ تعاليم التوراة والإنجيل التي هي بين أيدي أصحابها في هذه الأيّام تراوحَت ما بين إفراطٍ وتفريط. فهي إمّا أن تأمر بانتقامٍ صارم، وإما أن تأمر بتسامحٍ لا حدود له.

والخلاصة هي أنّ المبدأ الدستوريّ الذي نصّت عليه الآية (٤٠) من سورة الشورى وهو قول اللّه تعالى :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أقول: إنّ هذا المبدأ الدستوري هو تعليمٌ قرآنيٌ ولا نجد له من أساسٍ في التوراة ولا في الأناجيل المعاصرة. وقد ورد بحُلّة جديدة كلُ الجدّة ومقارنةً مع ما تضمّنته تعاليم التوراة والإنجيل المتداولين. وقد جاء هذا المبدأ الدستوريّ عامّاً وشاملاً ومُصاغاً صياغةً محكمة بلاغيّة، وفي الزمن المناسب لنزوله زمن ظهور الدين الإسلامي الحنيف ويناسب عصرنا الذي نحيا فيه أيضا، وعلى حسب ما لاحظناه آنفاً. وبذلك أكون قد زوّدتُ القارئ بمثالٍ واضح المعالم يثبتُ من خلاله ما فهمناه من معطيات الآية التي أوردناها من سورة آل عمران التي تكلّمت عن الآيات (المحكمات) والآيات (المتشابهات).

وبهذه المناسبة فلا تنس يا عزيزي القارئ بأنّ هذه الآية المذكورة، تشمل في دلالاتها الدستورية جميع أحكام القصاصِ الواردة في كتاب الله العزيز. ذلك أنّ كلمة (القصاص) المذكورة لها معانٍ ثلاث : معنى (القطع) ومعنى (التسوية) ومعنى دلالتها على (اقتصاص الأثر) (محيط المحيط). فهي بذلك تشمل الحدود الشرعيّة، كما تشمل التعاليم التي تساعد على تسوية حقوق الأفراد، وحقوق الجماعات في المجتمعات الإسلامية.

هذا وإنّ الله عز وجلّ لم يضع لأحكام القصاص مستندها الدستوريّ المـــذكور فقط، بل وإنّ اللّه تعالى قد بحثَ هذا الموضوع من جوانبه الغائيّة أيضاً، وعلى عادته في كلّ بحثٍ وموضوع، فلا يترك جانباً من جوانبه إلاّ ويتناوله بالكلام عنه.

فإن راجع القارئ الآية (١٧٨) من سورة البقرة، فإنه يعثر على هذا الجانب المهمّ من بحث الأحكام الشرعيّة. فلقد وضّح جلّ شأنه (الحكمة والمقصد) من أحكام القصاص هناك فقال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. فهذه أحكامُ قصاصٍ قانونيّة. وقد اغتنم الله عز وجلّ الكلام عنها ليوضّح المقصد الأسمى من مبدأ القصاص الإسلامي وحكمته. ولذلك فقد راح يقول: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

إنّ اللّه تعالى استهلّ قوله هذا بواو العطف ليعطف بيان هذه الحكمة والمقصد من موضوع القصاص. وأدخلها على لام التعليل تنبيهاً لأذهاننا إلى حقيقة هذه الحكمة المقصودة منه وإلى المقصد المرجوّ تحقيقه من هذا المبدأ الشرعيّ. كما أتى بحرف الجرّ (في) زائدةً ولتفيدَ معنى التوكيد كقوله تعالى في سورة هود : ﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا ﴾ أي عليها. وليصبح معنى قوله تعالى :﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ.. ﴾ أي أنّ المقصد من فرض العمل على أحكام القصاص أن تمنحَ مجتمعكم الإسلامي (حياةً) بمعنى أنّ الأخذ بمبدأ القصاص يمنحُ مُجتمعاتكم حيويّة التقدّم والرّقي والاستمرار. ومن منطلق أنّ التقدّم والرّقي والاستمرارية لا يتحققون إلاّ في ظلّ توفّر أمنٍ واستقرارٍ وهدوء بال وانّ الأمن والاستقرار وهدوء البال مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بعمليّة القصاص أي بعمليّة تسوية حقوق المواطنين، وبعملية إنزال العقوبات بالمجرمين. فإن أقدمت السّلطات المختصّةُ على تحقيق هذه الأمور، يتحقق للأمّة أمنها واستقرارها، ويعود مجتمعها ينبض بالحياة، وتبدو الحيويّة ظاهرةً على مختلف صُعُد الحياة في ذاك المجتمع. فهذا هو معنى ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ.. ﴾ .

أما لماذا قال اللّه تعالى بعد ذلك أنه يخاطب (أولي الألباب) ولا يخاطب أصحاب التشريع وغيرهم من المراجع ؟ فالجواب على التساؤل المذكور يكمن في مقولة (أولي الألباب) نفسها.

فالذي يراجع ما كتبه أصحاب معاجم اللغة يتبيّن له أنّ كلمة (لبّ) تعني العقل الخالص مما يعتريه من شوائب.لذلك فيجوز لنا أن نقول : إنّ كلّ لُبٍّ يراد به العقل. وأما كلّ عقل فليس هم بلبّ. هذا وإنّ كلمة (لُبّ) تُجمع على ألباب وتعني ما زكى من العقل والمتخلّص مما يعتريه من شوائب (محيط المحيط).كذلك فإنّ اللّه تعالى حين قال: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فقد ربط من خلال قوله هذا أحكام القصاص بالدين.

وعليه فإنّ الله تعالى حين خاطب وقال :﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فإنه جلّ شأنه يكون قد غمز هنا جانب الأمم الغربية المعاصرة التي تدعو مؤسساها إلى إلغاء عقوبة الإعدام، ومن منطلق ما شاب عقول الأمم المذكورة من شوائب تسببت بها أمورٌ كثيرةٌ إحداها تبنّيهم حقوق الإنسان التي شرّعها الرومان قبل ألوف السنين تلك الحقوق التي لم تنبع من دينٍ سماويّ. خصوصاً وانّ هذه الأمم الغربيّةُ نأت بنفسها عن التفكير بأسلوبٍ روحانيٍ. فهي عادت تفكّر بتفكيرٍ ماديّ محض.ولذلك أرتأت عقول أصحابها إلغاء عقوبة الأعدام.

ألا إنّ فلسفة القصاص وحكمته التي وضّحتها تعاليم الإسلام، جـــاء بهـــا هـــذا القرآن العظيم الذي أثبتت القرون الأربعة عشر الماضية عظمته ومصداقيّته. وهي تجربـــةٌ عملية لا يجوز للباحث هجرها بأيّ معيار ولا بأي ميزان معروف. ولا يدري هؤلاء أنهم من خلال إلغائهم لعقوبة الإعدام وغيرها من العقوبات التي نصّت عليها تعـــاليم هـــذا الكتاب المقدّس يكونون كمن بذر بذور ما ستؤول إليه مجتمعاتهم بعد فترةٍ من الزمان من اختلال في الأمن والأمان، وإلى توقّف تقدّمها وازدهارها، وإلى فقدان ما هو كـــائنٌ الآن هناك في تلك المجتمعات من ظواهر الحيويّة والحياة والنشاط والأمان.

ولْيُلاحظ القارئ الكريم كيف أنّ الله تعالى قد نبّه عقولنا إلى حكمة اختلاف أحكام القصاص الإسلامية عن أحكام القصاص القديمة الواردة في هذه التوراة

المعاصرة. فاللّه تعالى قال في الآية (١٧٨) من سورة البقرة التي أوردها من قبل، قال ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .أي أنّ اللّه تعالى قد أتى باسم الإشارة للبعيد (ذلك) ولم يقل (هذا تخفيف). وقد كان في هذا الاستبدال حكمة، وهو الإشارة إلى أنّ تعاليم الأحكام الإسلامية في القصاص وردت مخففةً وأقلّ شدّةً من تعاليم التوراة المنسوخة بسبب أنّ الله عز وجلّ راعى هناك المتغيرات الحاصلة والتي انتهت إليها المجتمعات البشرية بعد بعثة موسى عليه السلام بألفي عامٍ تقريباً. فاليهود كانوا عبارةً عن قبائل صغيرةً متنقلةً لا تعرف التحضّر ولا المدنيّة. وقد بعثَ الله تعالى المسيح الناصريّ لتليين طبائع أفراد اليهود الجلفة والقاسية لذلك أمر بواسطة تعاليم المسيح الناصري بالعمل على روح التسامح وعلى صورة ممزوجة بشيء من التفريط الظاهر من أقوال المسيح الناصريّ المروية في هذه الأناجيل.

أما وقد بعث اللّه عز وجلّ محمدًا بن عبد اللّه ﷺ بعد بعثة المسيح الناصريّ بقرون عديدة فقد كان قد آن الأوان زمن إنزال هذا الكتاب المقدّس لتعليم البشر تعاليمَ تُعدُّ تعاليمَ وسط ما بين تعاليم النبيين المذكورين. فلا تتصف بالشدّة من جهةٍ ولا تتصف بالتسامح المُفرط من جهة أخرى. ولقد وضّح لنا اللّه عز وجل حكمة هذا التخفيف في الأحكام الشرعيّة حين قال أنّ هذه الأحكام قد نزلت ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي من جانب اللّه الذي يشرف على تربيتكم الله الذي طوّر البشر ومرّره من خلال أطوار كثيرة من أطوار التربية والتهذيب.

وقد أضاف اللّه تعالى وقال ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي لطفاً ورأفة بهذا البشر المخلوق والذي اصطفى من بينه محمداً خاتم النبيين ﷺ لإحداث هذا التبديل في حياته أيضاً. وهكذا يكون الله تعالى قد بحث هذا الجانب من موضوع أحكام القصاص في موضوعٍ يناسبهُ وبصياغة بلاغيّة معجزة، لا يُدرك مراميها إلاّ الذين اطّلعوا على خصائص هذا الكتاب السّماويّ المقدّس والمبارك والمتّصف بالنّماء والدوام.

ولا ينبغي أخيراً أن يظنَّ أصحاب العقول التقليديّة أنّ أحكام القصاص قد نزلت كأحكام ثوابتَ بعد إنزال هذا القرآن العظيم، بل أن يعتقد المؤمن بأنّ هذه الأحكام بمثابة نهايات عظمى وعليه ألاّ يتجاوز أحكامها. لكنه توجد من الأسباب والمبررات أحياناً، وتتوفر من دواعي تخفيف هذه لأحكام مناسبات يجب على القضاة الأخذ بها، وفق هذا الأساس والمنطلق الدستوريّ الذي أفادتنا ووجهتنا به الآية (٤٠) من سورة الشورى تلك الآية التي فتحت بابَ الصّفح والعفوِ بشكلٍ واضحٍ وشرعيٍّ وعلى أساسٍ روحانيّ.

وفكّر معي يا عزيزي القارئ كيف أنّ أحكام القصاص قد تطوّرت منذ بعثة آدم عليه السلام وحتى بعثة سيّد المرسلين ﷺ الأمر الذي يدلّ على أنّ الأحكام الشرعيّة ينبغي أن تتطوّر مع المتغيّرات الحاصلة وعليه فإنّ الذين قالوا بأنّ الأحكام الشرعيّة (ثوابت) فإنّهم يكونون كمن خالف روح هذا التطوّر الذي طرأ على الأحكام الشرعيّة منذ بعثة آدم عليه السلام وحتّى بعثة محمّد خاتم النبيّين ﷺ فروح تطوّر الأحكام بتطوّر الأزمان هو حقيقة ثابتة. ومن واجب المشرّعين أن يشرّعوا من ثياب هذه (النهايات العظمى) قوانين تكون دون تلك النهايات العظمى وبما يتلاءم مع مجتمعاتهم الموجودين فيها. وكيف تثبت هذه الأحكام الشرعيّة وعالمنا المادّيّ خاضع لقانون الصيرورة والمتغيّرات ؟

فالذين قالوا بثوابت الأحكام تناسوا أنّ تعاليم الإسلام تصلح لكلّ زمان ومكان، ومهما حدثت في العالم من متغيرات. ولا تتحقق تلك الصلاحيّة إلاّ إذا كانت أحكام القصاص الإسلامية تتّصف بالمرونة التي وضّحتها الآية التي أوردناها من سورة الشورى، والتي توجب على الفقيه اعتبار هذه الأحكام بمثابة (نهايات عظمى وذروات أشدّ) ولا يُعمل على أحكام تلك (النهايات العظمى) إلا في حالات ثبوت شذوذ الذين يرتكبون الجرائم والسرقات ليس إلاّ. وإلاّ فدون تلك الأحكام درجاتٌ أقلّ شدة يؤخذ بها وفق ما يتوفّر للمشرّع من الأسباب والمبررات وعلى أوقات قد تتطلّب أحيانا العمل على درجة العفو أيضاً.

أفلا يتذكّر أصحاب العقول التقليدية من هؤلاء القائلين بثوابتِ الأحكام فيما فعله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكيف أنه قد اخذ بمبدأ العفو عن الذي سرق أيام القحط ؟ أولم يتّهم أصحاب العقول التقليديّة عمراً بن الخطّاب إثر عفوه عن السارق أيّام القحط بمخالفته من خلال خطوته تلك مخالفته لنصٍّ حكمٍ شرعيّ قرآنيّ صريحٍ قال اللّه تعالى فيه ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ ؟ فعُمر الفاروق لم يخالف في واقع الأمر في فعله المذكور روحَ تعاليم الإسلام، بل عمل عليها وطبّقها بالمفهوم الذي ذكرناه والذي أسسته لنا الاية (٤٠) من سورة الشورى والتي قال تعالى فيها: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ثمّ إنّ اللّه تعالى عندما أنهى هذه الآية الكريمة وقال ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد أورد كلمة ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ هنا عامة الدلالة غير مقيّدة. لماذا ؟ لتشمل هؤلاء (الحَرْفيّينَ) المُعتقدين بثبات الأحكام. فلو عوقب الذي سرقَ بداعي الحاجة من قِبَل الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب وذلك بقطع يده، لكان رضي الله عنه قد اصبح في ميزان ربه (ظالماً) وجاهلاً بتعاليم ربّه جلّ شأنه. وهكذا نكون من خلال مثالنا الرابع الأخير قد أثبتنا مصداقية الأصل التفسيريّ الثامن ونكون قد مهّدنا بذلك للمجتهدين أن يُعيدوا نظرهم في كلّ ما توارثناه من فهمٍ فقهيٍّ في هذا المجال.

وكلمة أخيرة تتعلّق بمفهوم (الآيات المحكمات والآيات المتشابهات) التقليديّ المتوارث.فاعلم يا عزيزي القارئ أنّ هذا الفهم المتوارث الذي أثبتّ خطأه ضمن بحثي هذا حين كلامي عن مفهوم الآيات المحكمات والمتشابهات،أقول ليكُن في علمكَ بأنّ هذا المفهوم المتوارث التقليديّ قد أساء إساءة كبيرة إلى مكانة هذا القرآن في أعيُن أعدائه وهو الكتاب الذي تحدّى اللّه عز وجلّ به الجنّ والإنس من الناس. فكيف أساء ؟ نُدرك هذه الحقيقة من خلال مراجعتنا ما يأخذه أعداء القرآن الكريم من مآخذ عليه ومطاعن.ويكفي أن أنقُل لك ما أورده الأب حدّاد الذي ظهر أوائل سنيّ القرن العشرين وترك عدّة مؤلّفات كبيرة عادت مراجع للكنائس المسيحيّة.

فقد راح الأب حدّاد يقول في مؤلّفه (القرآن والكتاب) القسم الثاني.وتحت عنوان (البحث الخامس في المُحكم والمتشابه من القرآن).كتب وقال: (وَصف القرآن نفسه،من حيث بيانه وإعجاز نظمه،بثلاث صفات متعارضة... أحدها أنّ القرآن كلّه مُحكم –هود ١– والثاني كلّه متشابه – الزمر ٢٣–.والثالث انقسامه إلى مُحكم ومتشابه– آل عمران ٧–. وبعد أن نقل الأب حدّاد أقوال القدماء بشأن دلالات المحكم والمتشابه من الآيات القرآنيّة.فقد نقل أقوالهم المتناقضة بكيفيّة تعيين المحكم والمتشابه من الآيات القرآنيّة. وانتهى من ذلك كلّه ليقول أخيرا وبصيغة الاستهزاء بهذا القرآن الكريم وبناء على ما أورده من فهم وأقوال لعلماء هذه الأمّة القدماء. أضاف وقال: (تلك هي حال أكثر القرآن،بإجماع الأئمّة، فكيف ينسجم المتشابه مع إعجاز نظمه ؟). وهل هناك أفظع من هذا الأسلوب في الاستهانة بآيات القرآن الكريم ؟ وإنّ كلّ باحث عاقلٍ يطّلع على ما نقله الأب حدّاد من أقوال أئمة هذه الأمة من أصحاب المفهوم المتوارث بشأن الآيات المحكمات والمتشابهات،لابدّ وأن يميل يقينا إلى صحّة رأي الأب حدّاد فيما قاله ونقد به هذا القرآن العظيم.أما إذا أحاط هذا الباحث العاقل علما بشأن هذا المفهوم الذي طرحته في بحثي هذا سالف الذكر،فإنّه يرجع يقينا عمّا مال إلى الاعتقاد به بناء على رأي الأب حداد. فتفكّر.

الفصل التاسع

الأصل التاسع للتفسير

ضرورة انطلاق فهم مضامين الآيات القرآنيّة

من مُنطلق المساواة ما بين الرجل والمرأة

ومن تدبّرنا لآيات سورة النساء تبيّن لنا أصلٌ تاسع من أصول تفسير آيات القرآن المجيد.وقد تضمّنت الآية الأولى من سورة النساء هذا الأصل التاسع للتفسير.فلماذا أتى اللّه عز وجلّ بهذا الأصل التاسع المشار إليه ؟ أقول قد أتى اللّه عز وجلّ بهذا الأصل التاسع ليساعدنا على فهم الآيات القرآنية التي تبحث أمور النساء خاصّة. فمن المعروف هو أنّ الرجال العرب في الجاهليّة ما كانوا يُعطون النساء حقّ المساواة معهم.بل وكانوا بجميع فئاتهم ينظرون إلى النساء على أنهنّ أقلّ شأنا من الرجال.وأقلّ منهم عقلا وحقوقا أيضا.ونزلت تعاليم الإسلام لتصحّح هذه المفاهيم،وتصحّح هذه النظرة الذكوريّة نحو النساء التي تتناف والفطرة البشريّة التي فطر اللّه تعالى الناس عليها.فشكّل هذا الموضوع السبب الأوّل الأهمّ لبيان هذا الأصل القرآني المساعد على تدبّر الآيات التي بحثت أمور النساء.وكان السبب الثاني المباشر الذي دعا لوضع هذا الأصل في التفسير من جانب اللّه عالم الغيب.أنّ بعض آيات سورة النساء عالجت مشكلتين واجهتا المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام. المشكلتان اللّتان نتجتا عن استشهاد عشرات ألوف صحابة محمد رسول اللّه ﷺ في ساحات الوغى ودفاعا عن الدين الإسلاميّ الحنيف.الأمر الذي نتج عنه ترك أولاد يتامى بأعداد هائلة.إلى جانب تركهم نساء أرامل بعدد الذين استشهدوا في القتال.وإلى جانب أنّ نظام الرقّ لم يكن قد قُضي عليه بصورة نهائيّة.وكانوا يتّخذون الأسيرات إماء بسبب أنّ العدو الذي يقاتلونه كان يتّخذ النساء الأسيرات إماء أيضا. فكان المسلمون يُعاملون الأسيرات من أعدائهم بالمثل.فكثرة الأسيرات الإماء ولّد مُشكلة اجتماعيّة أيضا في المجتمع الإسلاميّ. وإنّ هاتين المشكلتين الاجتماعيتين

اقتضتا فتح باب تعدّد الزوجات لحلّ هاتين المشكلتين الاجتماعيّتين المذكورتين.ولما كان نظام تعدّد الزوجات يتنافى ومساواة النساء مع الرجال والذي هو حقيقة فطريّة.ولما كانت تعاليم الإسلام تابعة مما اقتضته الفطرة البشريّة نفسها.فقد شكلت هذه الأمور سببا وجيها لوضع أصلٍ في التفسير يساعد المتدبّر للآيات القرآنيّة على تفسير الآيات بما لا يتنافى وهذا الأصل في التفسير.وقد ضمّن الله العزيز الآية الأولى من سورة النساء هذا الأصل في التفسير المشار إليه للأسباب التي ذكرها.وخاصّة منها موضوع تعدّد الزوجات.وليُشعر تعالى هذا المتدبّر بأنّ فتح باب تعدّد الزوجات كان حكما مؤقّتا لحلّ المشاكل التي طرأت على المجتمع الإسلاميّ بسبب فريضة مقاتلة المسلمين أعداءهم الذين يقاتلونهم التي كتبها الله تعالى على المؤمنين وهي كُرهٌ لهم،وفقا لمعطيات تعاليم الإسلام التي تدعو لإقامة الأمن والسلام في العالم. علما بأنّ الحقائق التي وضّحتها في سياق الكلام عن هذا الأصل التاسع من أصول تفسير آيات القرآن الكريم لم تكن واضحة أمام عيون القدماء،بهذا الوضوح الذي أتيت على بيانه.وبدليل أنّ المفسّرين القدماء ما فهموا من مضمون الآية الأولى من آيات سورة النساء ما فهمناه منها.فالذي فهموه منها أنّها تتكلّم عن آدم وحوّاء.وإنّ القارئ الذي يريد أن يتأكّد مما اتّهمت به المفسّرين القدماء فإنّ من واجبه مراجعة تفسير (الفخر الرازي الذي يعدّ اثنين وثلاثين مجلّدا.و تفسير ابن كثير الذي يعدّ أربعة أجزاء) وهما متداولان في الأسواق.وبعد الذي ذكرته يسألني القارئ: وكيف تبيّن لك هذا الأصل التاسع المذكور ومن مضمون الآية الأولى من آيات سورة النساء ؟

فأجيب وأقول: إنّ ما سبق لي أن ذكرته من أسباب أعلاه،دفعني لإعادة تدبّر مضمون الآية الأولى من آيات سورة النساء.لعلّي أكتشف فيها مفهوما وحقائق لم يحط بها المفسّرون القدماء.وقمت في الحقيقة بهذه المهمّة فتبيّنت لي معالم هذا الأصل القرآنيّ التاسع الذي رحت ألقي الضوء عليه في هذا المقام.وهذه الحقيقة تدفعني إلى سرد نصّ الآية الأولى المذكورة، ومن ثمّ أتدبّرها تدبّرا نابعا من منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.ولأترك للقارئ بالتالي أن يحكم على صحّة ما توصّلت إليه.

فاعلم يا عزيزي أنّ اللّه عز وجلّ استهلّ آيات سورة النساء بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.وأوّل ما يُلفت نظر المتدبّر لهذه الآية الكريمة هو أنّ خطابها لم يكن موجّها إلى المؤمنين خاصة.بل ورد موجّها إلى الناس كافّة وذلك من خلال قوله تعالى في مُستهلّ هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ فلم يخاطب اللّه تعالى المؤمنين خاصّة ويقول يا بني آدم وليذهب ظنّ القارئ إلى أن الله تعالى يخاطب سلسلة المؤمنين التي ابتدأت من زمن بعثة آدم عليه السلام. وما دام اللّه تعالى قد خاطب الناس كافّة في مستهلّ هذه الآية الكريمة.كان من واجبنا أن ننظر إلى مضمون هذه الآية على أنّه قد تضمّن حقيقة تتعلّق بالناس كافّة.وليس بالمؤمنين خاصّة.خصوصا وأنّ كلمة (الناس) وردت هنا معرّفة بأداة التّعريف التي تفيد الاستغراق.ولتشمل الأبيض والأسود والأصفر والأحمر من الناس.وعلى اختلاف مذاهبهم ولغاتهم أيضا.وهذه الحقيقة تعني بألفاظ أخرى أنّ المفسّرين القدماء الذين ظنّوا بأنّ هذه الآية تكلّمت عن آدم وحوّاء كانوا مُخطئين في فهم مضمون هذه الآية يقينا.فهذا هو ما اقتضاه تدبّر هذا الخطاب الذي استهلّ اللّه عز وجلّ به هذه الآية القرآنية الأولى من آيات سورة النساء.

ونلاحظ بأنّ اللّه عز وجلّ بعد أن خاطب الناس كافّة قال: ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ فطرح تعالى من خلال قوله هذا مسألتين: فالمسألة الأولى تضمّنها فعل الأمر (اتّقوا).ويمثّل صيغة تحذير من الانحراف عن مفهوم ما سيعلنه اللّه عز وجلّ بعد هذا التحذير.والمسألة الثانية تضمّنتها كلمة (ربّكم).علما بأنّ كلمة الربّ تعني التطوير من حال إلى أحسن منه،وصولا إلى مرتبة الكمال. (معجم أقرب الموارد).ويصبح معنى ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ أنّ اللّه تعالى يحذّر الناس كافة ومن منطلق كونه تعالى هو الذي يقوم بتطوير هؤلاء الناس من حال إلى حال أحسن منه وليصل بهم مرتبة الكمال.

ولم يقف اللّه تعالى عند هذا الحدّ الذي ذكرناه.بـــل ونبّـــه وقـــال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم ﴾. فطرح ادّعاء بأنّ جنس هذا الإنسان هو (مخلوق).وأنّ الذي خلقه هو ربّه الذي أبدعه وصـــوّره

ويقوم بتطويره نحو التمام.ومن ثمّ وبعد هذا الادّعاء كلّه.أضاف وقال: (من نفس واحدة).أي أنّه تعالى أتى بحرف الجر (من) لبيان الحقيقة التي أراد بيانها والتي حذّر الناس كافة من الانحراف عنها ومن منطلق كونه تعالى هو خالق الناس ومطوّرهم من حال إلى حال باتّجاه التمام.فما هي هذه الحقيقة التي راح اللّه الخالق بيانها للناس كلّهم ؟ أجاب تعالى مبيّنا تلك الحقيقة موضحا أنّ الناس المؤلّفين من ذكور ونساء هم جميعهم مُبدعين ومصوّرين من (نفسٍ واحدة).ومن خلال هذين اللفظين يكون اللّه عز وجلّ قد أعلن بأنّ تكوين نفس الرجال،وتكوين نفس النساء، هو تكوين واحد.وإن يتبادر لذهن الذي يشاهد الرجال والنساء أنّ نفس الرجال تختلف عن نفس النساء.وبألفاظ أخرى كأنّ اللّه تعالى حين قال هنا بأنّ جميع الناس قد خُلقوا وأُبدعوا من نفس واحدة.قد نبّه وقال بأنّ الجميع قد أُعطوا عقلا واحدا.وحواسّ خمسة واحدة.وحرّية تفكير واحدة.وحرّية اختيار واحدة.وحرّية اعتقاد واحدة.وبالتالي يحذّر تعالى الرجال من أن ينظروا إلى النساء على أنّها مخلوق مختلف عنهم.وأنّها أقلّ عقلا وشأنا وحقوقا ممّا لهم من عقول وشأن وحقوق.وراح اللّه تعالى يوضّح لهؤلاء الناس في الوقت نفسه سبب اختلاف الرجال عن النساء في شكلهم الخارجيّ الذي تسبّب به ما تبادر لأذهانهم من معلومة غير صحيحة،فأتى تعالى بواو العطف التي تفيد معنى الحال في هذا المقام لدخولها على الفعل الماضي (خلق) فقال تعالى: (وخلقَ منها زوجها).وبمعنى أنّ هذه النفس البشريّة الواحدة التي تكوّن منها الرجال والنساء.والتي تعود جذور تكوينها إلى هذه الذرّة المادّية المعروفة.وهي حقيقة يتمكّن القارئ التوسّع في فهم حقيقتها من خلال مطالعته لمؤلّفي وعنوانه (نظريّة جذور الأخلاق).أي روعي في تكوين نفس كلّ طرف وجودُ جهاز جنسيّ وظيفته المساعدة على الإبقاء على استمرار وجود هذا الجنس البشريّ.فأبدع اللّه تعالى شكل الفتاة الخارجيّ فيه جاذبيّة تجذب الرجال نحوها.وأصبح الرجل بسبب ذلك كيانا فاعلا.على حين أصبحت النساء كيانا مُنفعلا.من هنا عُدنا نُدرك بأنّ الرجل جُهِّز بجهاز جنسيٍّ.كما جُهِّزت النساء بجهاز جنسيٍّ.ولا فرق بين الرجال والنساء إلا فرق السلب والإيجاب في هذا العامل الجنسيّ.وهذا الشيء لم يغيّر شيئا من تلك الحقيقة التي بيّنها اللّه عز وجلّ من أنّ الرجال والنساء قد خُلقوا من نفس واحدة.

والذي توصّلنا إليه حتى اللحظة من خلال تدبّرنا قول اللّه تعالى في الآية الأولى من سورة النساء،هو أنّه تعالى نبّه عقول الناس الذين كانوا ينظرون إلى النساء على أنّهنّ أقلّ عقلا وشأنا وحقوقا من الرجال،إلى أنّهم يُخطئون في نظرهم هذه،ويظلمون بالتالي النساء وذلك قبل بعثة محمّد رسول اللّه ﷺ.وأعلن مساواة النساء بالرجال في عقولهم وحواسهم الخمس.وأنّهنّ مُنحن حرّية التفكير وحرّية الاختيار وحرّية الاعتقاد أيضا. فلا فرق في ذلك ما بين شابٍّ وشابّة.

وهنا بعد أن توصّلنا إلى ما توصّلنا إليه.يلاحظ الباحث المتدبّر أنّ اللّه تعالى انتقل ممّا أورده من الكلام عن موضوع مساواة النساء بالرجال في الآية الأولى من سورة النساء،أقول انتقل فورا للكلام عن اليتامى وأموالهم وقال:﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾.والذي يلاحظه الباحث هو ضعف الرابطة الموضوعيّة بين مضموني هاتين الآيتين المذكورتين.ويتساءل بالتالي عن السبب الذي شكّل العامل الحقيقي وراء الطرح الذي طرحته الآية الأولى خاصّة ؟ وهنا أتدخّل وأبيّن وجهة نظري في هذا الموضوع وهو أنّ اللّه عز وجلّ وقد خصّص سورة النساء لبيان عددٍ من الأحكام التي تتعلّق بالنساء.والتي قد يُفهم منها في بعض الأحيان عدم وجود مساواة ما بين الرجال والنساء.فقد أتى سبحانه وتعالى بأصلٍ دستوريٍّ تضمّنته الآية الأولى من سورة النساء.وذلك ليساعد كلّ مُتدبّرٍ لتلك الأحكام المتعلّقة بالنساء أن ينطلق في فهمها من مُنطلق هذا الأصل في التفسير،وهو مساواة النساء بالرجال.وهي خطوة والحال هذه قد جاءت على وقتها وفي محلّها الذي دعت إليه هذه الضرورة يقينا.وقد شكّل هذا الأصل في تفسير الآيات القرآنيّة حسبما أوردناه حتّى الآن الأصل التاسع من أصول تفسير آيات هذا القرآن العظيم.وهي حقيقة يثبت من خلالها بأنّ اللّه تعالى قد أنزل آيات هذا القرآن على أساس علميٍّ نابعٍ ممّا تعارف عليه العلماء في تاريخ البشرية. من أنّ العالم عندما يؤلّف كتابا فإنّه يضع لمؤلّفه منهجا وأصولاً يتقيّد بها خلال بيان كلّ موضوع يتطرّق إليه في مؤلّفه الذي يؤلّفه.ولا يوجد من فرق بين

ما أنزله اللّه تعالى في كتابه العزيز وما بين ما يؤلّفه العلماء إلا فرق الصياغة وأسلوب الطرح ليس إلا.فعلى حين أنّ الكاتب يكتب بأسلوب تعارف عليه الأدباء عبر تاريخ البشر.فإنّ اللّه عز وجلّ قد صاغ آيات كتابه العزيز صياغة بلاغيّة مُعجزة من جهة.وتفرّد في أسلوب مغاير للأسلوب المتّبع لدى الأدباء.فاللّه جلّ شأنه لم يضع هنا عنوانا للأصل التفسيري الذي أتى به في الآية الأولى.وترك للمؤمن المتدبّر لكلام اللّه المقدّس مجال السعي لمعرفة حقيقة هذا الطرح المتميّز.وهذا ما فعلته أنا في هذا المقام.فقد تدبّرت كلام اللّه تعالى الوارد في آيات سورة النساء من هذا المنطلق وبذاك المعيار الذي امتاز به آي الذكر الحكيم.

وبعد أن أوصلت هذا القارئ إلى معرفة هذا الأصل التاسع من أصول تفسير الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالأحكام العائدة إلى النساء.أرى أنّ من واجبي تقديم نماذج من تفسير الآيات الواردة فيها أحكام متعلّقة بالنساء في سورة النساء.ولأثبت للقارئ من خلالها الأخطاء التي أخطأ المفسّرون القدماء في تفسيرهم لها.ولتصبح هذه النماذج بعد أن أبيّن معانيها الحقيقيّة أدلّة تؤكّد مصداقيّة مضمون الأصل التسع من أصول التفسير الذي أتيت على ذكره.وذلك لأدخل الطُمأنينة إلى نفس القارئ في هذا المقام.

الأنموذج الأول: وأتناول أوّل ما أتناوله ما قدّمه المفسّرون القدماء من دليل يُثبت في نظرهم فوقيّة الرجال على النساء.وهو أنّهم استدلّوا بفقرة وردت في الآية ٢٨٢ من سورة البقرة على أن شهادة امرأة تساوي نصف شهادة رجل.وهذه الفقرة قوله تعالى في الآية المذكورة:

﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾.وبناء على فهمهم المذكور فقد عاد القاضي يطالب حين تقديم الشهود بتقديم شاهدتين في مقابل شاهد من الرجال. وعليه فإن صحّ ما فهمه المفسّرون القدماء من معنى من هذه الفقرة التي ذكرناها.فإنّ هذا يتناقض مع مُعطيات الآية الأولى من سورة النساء التي ساوت ما بين الرجال والنساء وبيّنت بأنّ الرجال والنساء خُلقن من نفسٍ واحدة.وبذلك فقد ضرب المفسرون القدماء من خلال

فهمهم المذكور مضامين الآيات القرآنية بعضها ببعضها الآخر،وخلافا لما أعلنه تعالى نفسه في كتابه العزيز من أنّ هذا القرآن ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ من جهة وأنّه ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾.وهذه نتيجة يؤدّي إليها من راح يفسّر آيات القرآن الكريم خارج منهجيّته وأصول تفسيره التي اختطّها لنا اللّه جلّ نفسه في كتابه العزيز.وهنا يسألني القارئ بلا توقّف: أين الخطأ فيما تبادر لأذهان هؤلاء المفسّرين القدماء ؟

فأقول في الإجابة على هذا السؤال: إنّ المفسّرين القدماء حين فسّروا قوله تعالى: ﴿ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾.قد فسّروه بما تبادر لأذهانهم منه.ولم يأخذوا هنا بعين اعتبارهم الأصل التاسع للتفسير الذي أورده اللّه تعالى في الآية الأولى من آيات سورة النساء.وبالإضافة إلى أنّهم لم يتدبّروا مضمون الآية الواردة فيها هذه الفقرة المذكورة تدبّرا منهجيا.فقطعوها بذلك عن سباقها وسياقها الموضوعيّ.وإليك الدليل: فاللّه عز وجلّ قال في هذه الآية ٢٨٢ من سورة البقرة وهو يخاطب المؤمنين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾
ويتبيّن من هذه الآية الكريمة أنّها بحثت موضوع الدّين وضرورة تدوين كلّ مبلغٍ ماليّ اقترضه الإنسان المحتاج إلى الاستدانة من أخيه المسلم.لضيق ذات يده.ومن باب أنّ

باب الاستدانة يحلّ المعضلات الاقتصادية الفردية في المجتمع الإسلامي.علما بأنّ تعليم هذه الآية القرآنيّة قد أنزله ربّنا عز وجلّ في أمّة كانت أمّيةً لا تكتب ولا تحسب إلا القليل من أفرادها زمن إنزال هذا القرآن الكريم.وقد راعت هذه الآية الكريمة وجودَ حالاتٍ خاصّة أيضا فوجّهت إلى كيفيّة معالجتها.وإنّ الفقرة التي اقتطعها المفسّرون القدماء هي حالة خاصّة مذكورة في هذه الآية ولا يجوز تعميمها على جميع قضايا موضوع الدّين.ومع أنّ اللّه تعالى قد استهلّ هذه الآية بخطاب عام.إلا أنّه استدرك بفاء الاستئناف فيما شرّعه وانتقل من حالة التعميم إلى حالة التخصيص حين قال: ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾.فاستهلّ تعالى هذا التّخصيص بحرف الجزاء (إن) الذي يوقع الثاني من أجل وقوع الأوّل،وتجزم فعلين شرطا وجوابُه.ثمّ قال تعالى بخصّص ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ . فافترض تعالى في هذا التّخصيص ثلاثة أحوال استثنائيّة استثناها من مبدأ الاستدانة العام.واختصرها تعالى من خلال قوله تعالى ﴿ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾.فإن عُدنا إلى معاجم اللّغة لفهم كلمة (سَفِيهًا) فتعني جاهلا غير مثقّف،وهي الحالة الأولى.وتناولنا كلمة (ضَعِيفًا) فتعني ضريرا في لُغة حمير، أو تعني إنسانا تُسيّره أهواؤه وغير متزن في تصرّفاته.وهي الحالة الثانية.وأما الحالة الثالثة فقد دلّ عليها قوله تعالى ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ .وهي الحالة التي يكون المؤمن فيها أمّيا لا يقدر على الإملاء بلغة سليمة على كاتب دينه.وقيّد إملاء وليّ هذا الأمّي بالعدل.وعلى هذه الصورة يكون قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ نصٌّ تخصيصي وليس بعام الدلالة من جهة.ويتعلّق ببيئة عامّية غير مثقّفة من جهة أخرى.أما المبدأ العام الوارد أوّل هذه الآية فيقتضي أن يؤتى بشاهدة واحدة على أن ألا تكون سفيهة أو ضعيفة أو أمّية لا تستطيع أن تُملي ما ينبغي أن تُمليه.وبألفاظ

أخرى أن تكون مثقفة. وبناء عليه فإنّ على الحقوقيّين والمشرّعين أن يأخذوا بما بيّنته لهم إن اقتنعوا به.ولا يعودون يفرّقون ما بين شهادة رجل وما بين شهادة امرأة في الأحوال العامّة وليس الخاصّة.خصوصا وأنّ اللّه تعالى قد ساوى في الآيات ٩/٨/٧/٦ من سورة النور التي قال اللّه تعالى فيها: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.أقول قد ساوى ما بين شهادة التي يرميها زوجها بخيانته،وما بين شهادتها في ذاك الموضوع.فلو كانت شهادة الزوجة تساوي نصف شهادة الزوج،لكان ينبغي أن تنصّ هذه الآيات من سورة النور على طلب ثمانية شهادات من قبل هذا الزوج الذي اتّهمها بخيانته. فمن خلال هذا المثال الذي قدّمته أكون قد أتيت بالدليل الأوّل على مصداقيّة هذا الأصل التاسع من أصول تفسير آيات هذا القرآن المجيد.

الأنموذج الثاني: ويقدّم المفسّرون القدماء الفقرة الواردة في الآية ٢٢٨ من سورة البقرة لإثبات فوقيّة الرجال على النساء.فهل يصحّ استدلالهم هذا الذي أشرنا إليه.والذي يأخذ به المسلمون في مجتمعاتهم على سبيل التّقليد ؟

أقول: لنفعل ما فعلناه من قبل.ونورد بادئ ذي بدء نصّ الآية المشار إليها،والتي اجتزأ منها المفسّرون القدماء دليهم لإثبات فوقيّة الرجال على النساء.فلقد قال اللّه عز وجلّ في الآية ٢٢٨ من سورة البقرة:﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.فالفخر الرازي كتب في تفسيره لهذه الآية الكريمة: (وإذا ثبت فضلُ الرجل على المرأة في هذه الأمور ظهر أنّ المرأة كالأسير العاجز في يد الرجل...وكان معنى الآية أنّه لأجل ما

جعل الله للرجال من الدرجة عليهنّ في الاقتدار كانوا مندوبين إلى أن يوفوا من حقوقهنّ أكثر.فكان ذلك كالتهديد للرجال في الإقدام على مضارّهنّ وإيذائهن.وذلك لأنّ من كانت عليه نعَمُ الله أكثر، كان صدور الذنب عنه أقبح واستحقاقه للزجر أشدّ.).فهل أصاب الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية هنا في هذا المقام ؟

فأجيب على هذا السؤال وأقول: إنّ الفخر الرازي رحمه الله تعالى لم يربط هذه الفقرة ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ بسباقها وسياقها الموضوعي من جهة.ولا راعى مضمون الأصل التاسع من أصول التفسير الذي تضمّنته الآية الأولى من آيات سورة النساء من جهة أخرى.وهذه الحقيقة تدعوني إلى ضرورة بيان التسلسل الموضوعي لهذه الآية الكريمة.وبيان أثره على قوله تعالى ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾.والخروج بمعنى لا يتناقض مع مُعطيات الآية الأولى من سورة النساء.

فالآية يدور مضمونها حول المطلّقات،وفي هذا إشارة من أوّل الطريق إلى أنّ الحكم ليس بعام شاملٍ بل هو حكمٌ مخصّص بالرجل الذي يقسم على زوجته بالطلاق ومن ثمّ يرجع عن قسمه ويتربّص أربعة أشهر تكفيرا عن قسمه،قبل أن يرفع قضيّة طلاق ضدّ زوجته في المحكمة الشرعيّة.وهو الأمر الذي دلّ عليه سباق هذه الآية الكريمة.والملاحظ بأنّ الله عز وجلّ طالب هذه المرفوع ضدّها قضيّة طلاق من جانب زوجها،أن تبقى في بيت الزوجيّة ليتبيّن خلالها أهي حامل من زوجها أو أنّها غير حامل.والملاحظ هو أنّ الله عز وجلّ قد منح الزوج خلال مدّة الثلاثة أشهر المذكورة حقّ الرجوع عن قضية الطلاق التي أقامها ضدّ زوجته،بسبب أنّه وزوجته أرادا إصلاحا.وهذا كلّه تضمّنه قوله تعالى ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.وساوى تعالى ما بين ما أعطى الزوج من حقّ وما بين ما أعطى زوجته من حقّ في الرجوع عن دعوى الطلاق.لكنّه أضاف وقال ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾.وبهذا القول يكون الله عز وجلّ قد منح الزوج أفضليّة حقّ رجوعه عن دعوى الطلاق التي أقامها ضدّ زوجته. وهنا يتساءل المرء عن حيثيّة هذا التفضيل الممنوح في هذا المقام ؟ ونرى بأنّ الله عز وجلّ أجاب

على هذا التساؤل من خلال قوله تعالى ﴿ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا ﴾ .والمعنى هو أنّ هذه الأفضليّة في قبول القاضي رجوع الزوج عن قضيّة الطلاق المقامة ضدّ زوجته،يقبلها القاضي إن تعهّد هذا الزوج أن يُصلح معاملته مع زوجته.وهي حقيقة دلّ عليها قوله تعالى (في ذلك) وتجنّب قوله (في هذا).لتوضيح أهمّية تعهّد الزوج بإصلاح سيرته.وهذا من باب أنّ الجرجاني وضّح في مؤلّفه (في دلائل الإعجاز) أنّ في استبدال اسم الإشارة (هذا) باسم الإشارة (ذلك) يعمد الكاتب إليه حين يريد تعظيم شيء من الأشياء.وعلى هذه الصورة ومن خلال هذا المعنى الذي توصّلنا إليه بما يتعلّق بقوله تعالى (وللرجال عليهنّ درجة) أكون قد أثبتّ خطأ المعنى الذي تبادر لأذهان المفسّرين القدماء منه،بعد أن راعيت سباق الكلام الإلهي وسياقه وتسلسله الموضوعي وراعيت مضمون الآية الأولى من سورة النساء التي تضمّنت الأصل التاسع من أصول تفسير آيات القرآن المجيد.وبهذا أكون قد قدّمت إلى الآن دليلين على مصداقيّة هذا الأصل التاسع من أصول التفسير الذي تضمّنته الآية الأولى من آيات سورة النساء.

الأنموذج الثالث: وممّا استدلّ به المفسّرون القدماء على أفضليّة الرجال على النساء.أنّهم استدلّوا بفقرة وردت في الآية ١١ من سورة النساء التي قال اللّه تعالى فيها﴿ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾.ومتجاهلين سباق وسياق هذه الفقرة من الآية وغير مراعين الأصل التاسع من أصول التفسير.ولإثبات ما اتّهمت به المفسّرين القدماء،أورد أوّلا الآية ١١ نفسها والواردة في سورة النساء.ألا حين راح اللّه عز وجلّ يشرّع للمؤمنين كيفيّة تقسيم الميراث قال:﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾. فأقول: إنّ من المعلوم أنّ موضوع تقسيم التركة شأن

اقتصادي بحت،ولا علاقة له بمساواة أو عدم مساواة الرجال مع النساء.وإنّ الذي لا يحيط علما بالقوانين الاقتصاديّة التي شرّعتها تعاليم الإسلام،لا يستطيع فهم هذه النسب التي حدّدها الإسلام عند توزيع التركات.ولذلك أختصر للقارئ هنا الكلام عن مقاصد الإسلام الاقتصاديّة في موضوع التركات فأقول: إنّ تعاليم الإسلام بهذا الشأن ينبع من محاربة تكدّس الثروات بين أيدي الأفراد وللإبقاء على المال متداولا بين أيدي الناس.بعكس المجتمعات ذات الأنظمة الرأسماليّة تورّث الابن الأكبر من بين أولاد المتوفّى وينتج عن ذلك رأسماليات كبيرة في أيدي هؤلاء يتحكّمون بواسطتها بمصائر الناس.والدليل على مصداقيّة المعنى الذي ذهبت إليه في موضوع قوله تعالى ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾.هو أنّ الله عز وجلّ قال في نفس هذه الآية الكريمة ﴿ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴾.فلو كان الرجل يساوي امرأتين فقد كان ينبغي أن يرث الأب النصف،وليس أن يرث السدس.وذلك بناء على أنّ الابنة وأمّها يساويان في تلك الحالة امرأتين في مقابل الأب.الأمر الذي يثبُت من خلاله بأنّ نسبَ تقسيم التركات في الإسلام شُرّعت على أساس عاملٍ اقتصادي بحت.وهذه الحقيقة يُستنتج منها خطأ النظرة إلى دلالة قوله تعالى ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ على أنّ تعاليم الإسلام تنظر إلى الفتاة على أنّها تساوي نصف الفتى.فإذا أضفنا إلى هذا الدليل أنّ حيثيّات هذا التقسيم للتركة نصّت عليها الفقرة الأخيرة من الآية وهي التي قال تعالى فيها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.فإنّ ورود حرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ وورود فعل ﴿ كَانَ ﴾ بصيغة الماضي يفيدان الجزم بأنّ الله عز وجلّ هو العليم بأحوال عباده من جهة.وهو العليم بالنتائج الاقتصاديّة المترتّبة على تقسيم التركات.فهذا ما أفادته صفة ﴿ عَلِيمًا ﴾ التي تفيد المبالغة والاستغراق.وأما صفة ﴿ حَكِيمًا ﴾ فالحكيم هو صاحب الحكمة والمُتقن للأمور والذي يجمع ما بين القول والعمل– معجم محيط المحيط–.وعلى هذه الصورة فإنّ الفخر الرازي رحمه الله تعالى قد أخطأ حين كتب في تفسيره الكبير يفسّر الفقرة المذكورة ويقول: (بقي في الآية سؤالان.السؤال الأول: لاشكّ أنّ المرأة أعجز من

الرجل لوجوه.إما أولا لعجزها عن الخروج والبروز.فإنّ زوجها وأقاربها يمنعونها من ذلك.وإما ثانيا: فلنُقصان عقلها وكثرة اختداعها واغترارها.وإما ثالثا: فلأنّها متى خالطت الرجال صارت متّهمة.وإذا ثبت أنّ عجزها أكمل،وجب أن يكون نصيبها من الميراث أكثر.فإن لم يكن أكثر فلا أقلّ من المساواة.فما الحكمة في أنّه تعالى جعل نصيبها نصف نصيب الرجل ؟ والجواب عنه من وجوه: الأول: أنّ خرج المرأة أقلّ،لأنّ زوجها يُنفق عليها.وخرجَ الرجل أكثر لأنّه هو المُنفق على زوجته.ومَن كان خرجه أكثر فهو إلى المال أحوج. الثاني: أنّ الرجل أكمل حالا من المرأة في الخلقة،وفي العقل،وفي المناصب الدينيّة مثل صلاحيّة القضاء والإمامة.وأيضا شهادة المرأة نصف شهادة الرجل.ومن كانت كذلك وَجب أن يكون الإنعام عليه أزيد. الثالث: أنّ المرأة قليلة العقل كثيرة الشهوة.فإذا انضاف إليها المال الكثير عظُم الفساد.وحال الرجل بخلاف ذلك. والرابع: أنّ الرجل لكمال عقله يصرف المال إلى ما يفيده الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة نحو بناء الرّباطات وإعانة الملهوفين والنفقة على الأيتام والأرامل.وإنّما يقدر الرجل على ذلك لأنّه يُخالط الناس كثيرا. والمرأة تقلّ مخالطتها مع الناس فلا تقدر على ذلك. الخامس: رُوي أنّ جعفر الصادق سُئل عن هذه المسألة فقال: إنّ حواء أخذت حفنة من الحنطة وأكلتها.وأخذت حفنة أخرى ودفعتها إلى آدم.فلما جعلت نصيب نفسها ضعف نصيب الرجل قلب اللّه الأمر عليها فجعل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل.).فإن أنت أمعنت نظرك يا قارئي العزيز فيما نقلته لك من أقوال الفخر الرازي الذي كتب ٣٢ مجلّدا في تفسير آيات القرآن الكريم تدرك لا محالة خطأ ما طرحه من آراء مخالفة لمعطيات هذه الآية الكريمة التي تكلّمنا عنها أعلاه.ومخالفة لبقيّة الآيات المتعلّقة بالنساء.ومخالفة للأصل التاسع من أصول التفسير الذي أوردته الآية الأولى من سورة النساء.ولا زالت المجتمعات الإسلاميّة غافلة عمّا أوقعهم فيه من أخطاء فاحشة في موضوع حقيقة الرجال والنساء.فأقوال الفخر الرازي رحمه اللّه هو الدافع الذي دفع الأجيال من بعده إلى سجن الزوجة في دارها.وأقواله المذكورة هي التي تسبّبت في دفع الأجيال المسلمة من بعده إلى احتقار النساء والزوجة خاصّة.فمعاناة النساء

المسلمات في عصرنا الحاضر من هذه النظرة الذكوريّة إلى النساء،كانت نتيجة حتميّة لتلك المعاني التي طلع بها الفخر الرازي على قرّائه في تفسيره الكبير المشهور.وفي وقت كان مضمون قول اللّه تعالى في الآية التي أوردناها ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ بريء من المعاني التي ذهب إليها المفسّر المذكور براءة الذئب من الدم الذي كان ملوّثا به قميص يوسف عليه السلام.وأقوال الفخر الرازي المشار إليها خالفت مضمون الآية الأولى من آيات سورة النساء الذي تضمّنت الأصل التاسع من أصول تفسير آيات هذا القرآن العظيم.وبذلك يكون المفسّر المذكور قد أحدث تناقضا ما بين معطيات آيات كتاب اللّه العزيز. وعلى هذه الصورة فلم يعُد في أيدي المسلمين المعاصرين الذين يأخذون بدلالات تفسير الفخر الرازي إمكانيّة الدفاع عن الإسلام في مواجهة أعدائه من أهل الكتاب وغيرهم في موضوع مساواة الرجال بالنساء الذي يطرحونه في كلّ مكان على أنّه من إيجادهم.مع أنّ الحقيقة هي أنّ كُتب هؤلاء الأعداء المقدّسة تخلو من تعاليم مساواة الرجال بالنساء.وإنّ الذي أتى بهذه المساواة بين الرجال والنساء هي تعاليم هذا القرآن المجيد الذي قلب مفاهيم الجاهليّة المتعارف عليها قبل إنزال هذا القرآن العظيم.من هذا لابدّ أن تكون يا قارئي العزيز قد أدركت مصداقيّة هذا الأصل التاسع من الأصول القرآنيّة التي ينبغي على الباحث المتدبّر مراعاتها حين يفسّر الآيات المتعلّقة بجنس النساء وما لهم من حقوق.

الأنموذج الرابع: وممّا استدلّ به المفسّرون القدماء على أفضليّة الرجال على النساء قول اللّه تعالى في الآية ٣٤ من سورة النساء: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾.

وقد أخطأ الفخر الرازي رحمه اللّه حين فسّر هذه الفقرة من الآية المذكورة وكتب يقول: (الرجال قوّامون على النساء أي مسلّطون على أدبهنّ والأخذ فوق أيديهنّ.فكأنّه تعالى جعله أميرا عليها ونافذ الحكم في حقّها.فلما نزلت هذه الآية قال النبيّ ﷺ أردنا أمرا وأراد اللّه أمرا والذي أراد اللّه خيرا ورُفع القصاص.ثمّ إنه تعالى لّما أثبت للرجال سلطةً على النساء ونفاذ أمرٍ عليهنّ بيّن أنّ ذلك مُعلّلٌ بأمرين:

أحدهما قوله تعالى ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ .واعلم أنّ فضل الرجال على النساء حاصلٌ من وجوهٍ كثيرة: بعضها صفاتٌ حقيقيّةٌ وبعضها أحكامٌ شرعيّة.أما الصفات الحقيقيّة فاعلم أنَّ الفضائل الحقيقيّة يرجع حاصلها إلى أمرين: إلى العلم وإلى القُدرة.ولا شكّ أنّ عقول الرجال وعلومهم أكثر.ولا شكّ أنَّ قُدرهم على الأعمال الشاقّة أكمل.فلهذين السببين حصلت الفضيلة للرجال على النساء في العقل والحزم والقوّة والكتابة في الغالب والفروسيّة والرمي.وإنّ منهم الأنبياء والعلماء..).فبهذا فسّر الفخر الرازي رحمه اللّه قوله تعالى ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾.هذا وقد أخطأ رحمه اللّه في فهم كلمة (قوّام).كما أخطأ رحمه اللّه في فهمه لدلالة كلمة (فضّل) في هذا المقام.ولم يراع دلالة إشارة الوقف الواردة آخر هذه الفقرة من الآية.بسبب تجاهله سباق الآية وسياقها وتسلسلها الموضوعي.وناقض بتفسيره المذكور مضمون الآية الأولى من آيات سورة النساء.وقد رسّخ الفخر الرازي بفهمه المذكور سيادة الرجال على النساء،وحقّهم في تأديبهنّ.ومن مُنطلق أنّ الرجال يملكون فضائل حقيقيّة،لا تملكها النساء.وتوارثت الأجيال المسلمة هذه المفاهيم الخطأ جيلا بعد جيل. إلى أن أصبحنا عاجزين عن صدّ هجّمات أعداء الإسلام في زماننا الحاضر،وقوّى بذلك جانب الأعداء ضدّه.

وأحاول التدّليل على وجود الأخطاء المذكورة في تفسير الفخر الرازي للفقرة المذكورة،فأقول: إنّ كلمة (قوّام) الواردة في هذه الفقرة هي صيغة مبالغة من فعل (قام) المجرّد الذي يعني لغةً انتصب واقفا.فإن دخل حرف باء كصلة لفعل (قام) يتحوّل معناه إلى معنى جديد.كقولك قام فلان بأمر أولاده،معناه أنّ فلانا راح يرعى شؤون أولاده.أما إذا دخل حرف الجرّ على كلمة (قوّام) وكما هو وارد في هذه الآية.فيتحوّل إلى معنى جديد أيضا.كقولك قام فلان على أولاده فمعناه أنّ فلانا راح يُنفق على أولاده ويراقبهم (معجم محيط المحيط).وعليه فما دام اللّه عزّ وجلّ قد قال في هذه الآية: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ فلإشعار الزوج بأنّ مسؤوليّته لا

تقتصر على الإنفاق وحده.بل وعلى مراقبة أحوالها.وبصورة متميّزة الأمر الذي دلّت عليه صيغة المبالغة (قوّام).وهذه الدلالات بألفاظ أخرى تعني بأنّ واجب الزوج يفرض عليه عدم التقتير والبخل في إنفاقه على زوجته.كما يفرض عليه أن يلبي لها جميع حاجيّاتها.وإنّ هذا الخطأ الذي وقع فيه الفخر الرازي في فهمه لدلالة كلمة (قوّام).أدّى به إلى ليقول خطأ: (أي مسلّطون على أدبهنّ والأخذ فوق أيديهنّ.فكأنّه تعالى جعله أميرا عليها ونافذ الحكم في حقّها).وشتّان ما بين دلالة ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ وما بين الدلالة التي أوردها الفخر الرازي في تفسيره الكبير لهذه الفقرة المذكورة.وبهذا أكون قد أثبتّ خطأ الرازي في فهمه لكلمة (قوّام).

وأنتقل لبيان خطأ الفخر الرازي في فهمه دلالة كلمة (فضّل) في هذا المقام.فدليل خطئه هو أنّ آيات السباق ابتداء من الآية ٢٩ من سورة النساء التي بحثت موضوع الزواج وقوانينه.وشرّع الله تعالى للزوجين كيفيّة التعامل فيما بينهم على الصعيد الماليّ.موضّحا أنّ أموال الزوجة ينبغي أن تكون مستقلّة عن أموال زوجها، إلا أن يوحّدا تلك الأموال للمتاجرة معا بشرط ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾.وعليه فلا يجوز للزوج اغتصاب أموال زوجته.وأن يضعوا نصب أعينهم إطاعة ربّهم في كلّ ما يفعلونه ويُقدمون عليه.وليلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى قد أورد في آيات السباق هذه كلمة (فضّل) وقال ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾.فكلمة (فضّل) إذن قد استُعملت في هذه الآيات لبيان الفرق ما بين رأسمال الزوجة وما بين رأسمال الزوج حين عقد زواج الفتى على فتاة.وقد راح الله عز وجلّ بعد آيات السباق هذه يوضّح لكلّ واحد من الزوجين مسؤولياته بعد الزواج.وابتدأ ببيان مسؤوليّات الزوج تجاه زوجته وقال:﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾.وعلمنا سابقا دلالة كلمة (قوّام) وهو أن يُنفق الزوج على زوجته ويلبي لها جميع حاجيّاتها بلا تقتير ولا بُخل.وهذا هو معنى ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ

عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ .ولما كان ينتج عن معنى (قوّام) هنا سؤال،وهو من: أين يأتي هذا الزوج بالمال للإنفاق على زوجته وتلبية حاجياتها ؟ فقد أجاب اللّه تعالى على هذا السؤال وقال ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ ﴾ أي أن يراعي الزوج في ذلك الفارق ما بين ماله وما بين مالها.فلا يمُن عليها بهذا الفارق ولا تمُن عليه به هي أيضا.وأضاف بيان ناحية أخرى توضّح مسؤوليات الزوج تجاه زوجته وقال:

﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ أي تتضح حقيقة أداء الزوج لمسؤولياته تجاه زوجته من خلال إنفاقه عليها إنفاقا يلبي جميع حاجيّاتها وبلا بُخل ولا تقتير.وعلى هذه الصورة يكون قد تبيّن خطأ المعنى الذي ذهب إليه الفخر الرازي رحمه اللّه والذي استنبطه من كلمة (فضّل) الواردة في هذه الآية ٣٤ من سورة النساء،والذي دفعه ليقول بأفضليّة الرجال على النساء.وهو المعنى الذي خالف من خلاله مضمون الآية الأولى من آيات سورة النساء التي ساوت ما بين الرجل وما بين المرأة وكما أسلفنا بيانه في حينه.

وعلى هذه الصورة تكون قد تبيّنت مصداقيّة هذا الأصل التاسع من أصول تفسير آيات القرآن الكريم،وهو الأصل الذي تضمّنته الآية الأولى من آيات سورة النساء.

وقد سبق لي أن وضّحت الأسباب التي كانت قد تسبّبت في وقوع المفسّرين القدماء فيما ذكرته من أخطائهم.وحصرتُها في ثلاثة أسباب هي: فالسبب الأول أنّهم ما فسّروا آيات القرآن الكريم وفق منهجيّته وأصول تفسيره.بل اتّبعوا في ذلك ما لقّنهم إياه المرحوم العالم ابن تيميّة من طرائق خمسة لا تمتّ إلى منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره بصلة من الصلات.والسبب الثاني تفسيرهم مضامين بعض الآيات القرآنيّة بما يتنافى ومُعطيات الفطرة البشريّة،والقوانين الطبيعيّة التي سنّها خالق هذا الكون من أجل أن تسير هذه السماوات والأرض وفق مُعطياتها.والسبب الثالث هو عدم انتباههم إلى ما أحدثه اللّه تعالى في المفهوم الجاهليّ المتعلّق بالنساء.أولئك الذين وضعوا كلمة (أسرة) تعبيرا من جانبهم عن الحياة الزوجيّة.هذه الكلمة التي اشتقّوها

من فعل أسرَ.بسبب أنّ زوجة الرجل وأولاده كانوا يعيشون في خيمة الرجل،لا يخالفون الرجل في أمر من الأمور.وكان الزوج يستند في قوته بهم أيضا.

على حين أنّ تعاليم الإسلام قد أحدثت تغييرا جذريا على نظام الزواج الجاهليّ.ولهذا السبب فقد أعرض اللّه العزيز عن إيراد كلمة (أُسرة) في كتابه العزيز.فلو طالع القارئ جميع آيات هذا القرآن العظيم فلا يعثر فيها جميعها على كلمة (أسرة).وهذا من باب أنّ نظام الزوجيّة الجاهليّ كان يمثّل في حقيقة أمره نمطا مُصغّرا من أنماط النظام الدكتاتوريّ الفردي.على حين أنّ نظام الزوجيّة في تعاليم الإسلام قام على مساواة واضحة المعالم واحترام مُراعى ما بين الزوج وما بين الزوجة.وهي حقيقة أثبتّ مصداقيّتها في مؤلّفي (نظام الزواج في الإسلام).وإنّ كلّ قارئ يُطالع التفاسير القديمة يلاحظ بأنّهم يوردون كلمة (أسرة) وكأنّهم لم يُدركوا ما أتت به تعاليم الإسلام من تغيير جذريّ على نظام الأسرة الجاهليّ.وهي حقيقة جرّت على المجتمعات الإسلاميّة من ويلات ما نزال نحصد من نتائجها السيّئة حتى أيامنا هذه.والأمر المؤسف هو أنّ علماء الأمة المعاصرين لم ينتبهوا إلى هذا السبب الذي أشرنا إليه.ولذلك يستعملون كلمة (أسرة) في كتاباتهم.ولا ينظرون إلى النساء بتلك النظرة التي أمرهم كتاب اللّه تعالى أن ينظروا بها إليهنّ.ولا يُعيدون نظرهنّ فيما توارثوه من تفاسير محشوّة بالأخطاء والخرافات وبما يُنزل كتاب اللّه تعالى عن المنزلة التي يستحقّها.ولذلك أفسحوا المجال والحال هذه لأعداء الإسلام للتهجّم على تعاليم القرآن المجيد من خلال مُعطيات ما لدى المسلمين من تفاسير موروثة.وبذلك تسبّبوا في غياب لمعان وبريق تعاليم هذا القرآن المجيد الذي تحدّى اللّه العزيز به الإنس والجان.

الفصل العاشر

الأصل العاشر للتفسير

ضرورة انطلاقنا في فهم مواضيع تعاليم الإسلام من منطلق أنّها تعاليم (ســــلام)

يُقال بأنّ تعاليم الإسلام هي تعاليم عنفٍ وقتال وسفك دماء.ويستدلّون علـــى صحّة رأيهم المشار إليه من خلال وجود آياتٍ كثيرة تحضّ على القتل والقتـــال.وأنّ مرآة هذه الحقيقة التي يزعمون وجودها،هو ما يلاحظه المرء من عمليّات تفجير هنـــا وهناك على أيدي المسلمين،وباسم هذا الدين الإسلاميّ الحنيف.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: ما هو السبب الذي أوقع هؤلاء في هذا الفهم الذي تبرأ منه التعاليم الإسلاميّة ؟ والجواب باختصار،هو: جهل المفسرين القدماء بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره من جهة.وأخذ علماء الأمة المعاصرون بآراء ومفاهيم المفسرين القدماء على نقائصها.وتناسي هؤلاء أنّ محمدا ﷺ وأصحابه قد عاشوا في مكّة المكرّمة ثلاثة عشرة سنة في حال من الاضطهاد لا يخفى على أحد.ومع ذلك فلم يحدث أن حدثت من جانبهم أيّة حادثة اغتيال لواحد من أعدائهم.ولا حدث أن أمرهم رسولهم بجمع الأسلحة للانقضاض على أعدائهم.بل إنّ كلّ ما فعله الضعفاء منهم،أنّ رسول الله ﷺ سمح لهم بالهجرة من مكّة المكرّمة إلى الحبشة.ومن ثمّ هاجر رسول الله ﷺ فيما بعد وبعد أن أذن له ربّه بالهجرة من مكّة المكرّمة،فقد هاجر ومن بقي في مكّة إلى المدينة المنوّرة.فإن استعرض الباحث حال المسلمين حين كانوا مضطهدين في مكّة المكرّمة،يلاحظ بأنّ محمّدا رسول الله ﷺ قد أمر الذين آمنوا به واتّبعوه في مكة المكرمة وقال،وكما هو معروف من سيرته،قال: (أفشوا السلام بينكم). فلو كانت تعاليم الإسلام تعاليم دمويّة كما يزعم أعداؤها في زمننا الحاضر.فقد كان تعليم إفشاء السلام زمن كونهم مضطهدين هو من قبيل

التضاد والمفارقات.خصوصا وأنّ المسلم عندما كان يُلقي السلام على فرد أو مجموعة من الأفراد يقول: (السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته).أي أنّه كان يورد كلمة (سلام) معرّفةً بأداة التعريف التي تفيد ما هو معهود في الذهن.وإشارة إلى أنّ التّعاليم التي تلقّتها هذا المسلم في مكّة المكرّمة كانت تعاليم سلام،وليست هي تعاليم قتل وتدمير وسفك دماء.ثمّ إنّ المسلمين في مكّة كانوا يؤدّون فريضة الصلاة الإسلاميّة.والمعروف من المتواتر من سيرة محمّد ﷺ أنّه كان إذا فرغ من الصلاة يقول (اللّهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام تعاليت يا ذا الجلال والإكرام).وكان المؤمنون يقتدون برسولهم ويردّدون نفس ما كان يردّده بعد الصلاة.فلو كانت تعاليم الإسلام تعاليم قتل وتدمير فما كان من معنى لترديد ما ذكرناه بعد الفراغ من الصلاة.وإنّ المسلمين المعاصرين يردّدون نفس تلك الكلمات بعد فراغهم من أدائهم لفريضة الصلاة.ولكنّهم،ويا للأسف الشديد، يردّدون تلك الكلمات كالبيغاوات من دون أن يتدبّروا ما يدعون به.بل وإنّ المسلم الذي فرغ من أداء فريضة الصلاة يلتفت وهو جالس على ركبتيه نحو اليمين ويقول (السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته).ومن ثمّ يلتفت نحو شماله ويردّد نفس الكلمات.وهو يظنّ أنّه يُلقي السلام على ملكين جالسين على كتفيه وفق ما توارث من فهم. حال أنّي بيّنت في مؤلّفي المتعلّق بفريضة الصلاة بأنّ حركتي هذا المسلم وردتا رمزيّتي التعبير.فالمصلّي حين يلتفت إلى يمينه ويسلّم،فإنّه يخاطب في حقيقة الأمر إخوانه المؤمنين بشكلٍ رمزيّ قائلا لهم إني فرغت للتوّ من بين يدي ربّي وأنا مأمور أن أكون أداة سلام لكم.وليس أداة قتل واستعداء.وإنّ هذا المصلّي حين يلتفت إلى شماله ويردّد كلمات السلام.فإنّه يخاطب غير المسلمين وبأسلوبٍ رمزيّ أيضا ويقول لهم إني فرغت من بين يدي ربّي للتوّ وقد أمرني أن أكون سلامًا عليكم وليس أداة قتل واستعداء.فبهذه المفاهيم وردت حركتا التسليم.فلو أنّ موضوع السلام هذا قد نسخته آيات القتال.لكان أجدر بالرسول ﷺ أن يحذف حركتي التسليم هاتين من الصلاة.علما بأنّ القتال حين فرضه اللّه تعالى على المؤمنين في المدينة المنوّرة،فرضه قائلا ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾. بمعنى أنّ المسلم الذي تعلّم في مكّة

المكرّمة تعاليم السلام وتعابيره الرمزيّة التي ذكرناها يعود القتال (كُرهٌ) لنفسه.ويُدرك بالتالي بأنّ القتال الذي سيخوض غماره إنما يفعل ذلك تحت ضغط الاضطرار والدفاع عن النفس والدين ليس إلا.وإلا فإنّ القتال لا يدخل في تعاليم دينه الإسلام.

والذي يزيد هذه الحقيقة مصداقيّةً هو أنّ اللّه عز وجلّ أنـزل في السنوات الأولى في مكّة آيات سورة (القدر).ومصاغة صياغة بلاغيّة معجزةً.وقد لخصت مضامين تعاليم الإسلام بكلمة واحدة هي كلمة (سـلام).وبالإضافة إلى ذلك كلّه.فالمعلوم من آي الذكر الحكيم أنّ اللّه عز وجلّ صرّح في كتابه العزيز وقال: (كُتبَ عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم). ومن خلال هذا التصريح الإلهيّ يُدرك القارئ بأنّ التعاليم التي كان قد تلقّاها المسلمون في مكّة المكرّمة،إنّما كانت تعاليم سـلام.وما كانت تعاليم قتل وسفك دماء.وإنّ القارئ الذي يريد الاستزادة في هذا الموضوع،فما عليه إلا أن يُراجع مؤلّفي (الإسلام علم السلام والجهاد والقتال).وهو المؤلّف الذي شرحت فيه سورتيّ العلق والقدر بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.وأثبتّ بالتالي بأنّ اللّه عز وجلّ قد اختصر تعاليم كتابه العزيز بكلمة واحدة هي كلمة (سـلام).لكنّ المفسّرين القدماء وبسبب جهلهم بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.فسّروا سورة (القدر) بما تبادر من آياها لأذهانهم.ومن دون أخذ سياق الآية وسياقها وتسلسلها الموضوعيّ بعين الاعتبار.وأبعدوا بذلك المسلمين عن المضمون الحقيقي لسورة (القدر).هذا وقد توصّلت إلى أنّ اللّه عز وجلّ قد جعل هذه الكلمة (سـلام) الواردة في سورة القدر أصلا من أصول تفسير آيات هذا القرآن المجيد.وينبغي على المفسّر الذي يتدبّر الآيات القرآنيّة التي أمرت بالجهاد والقتال،أن يُفسّرها على ضوء مُعطيات هذا الأصل المشار إليه.خصوصا وأنّها وردت بعد كلمة (سلام) إشارة (وقف).لتدفع القارئ لتدبّر كلمة سلام من منظار أنّها أصلٌ من أصول تفسير آيات هذا القرآن العظيم.

وأحاول في هذا المقام تلخيص الدلالات الحقيقيّة لآيات سورة القدر.وقبل أن أقوم بعمليّة التلخيص هذه.أنقل للقارئ ما أورده الفخر الرازي من أقوال في

تفسير هذه السورة في تفسيره الكبير المشهور.فلقد تساءل الفخر الرازي،وبعد أن علم من الأحاديث بأنّ القرآن الكريم نزل منجّما.أقول تساءل قائلا: (فما معنى تخصيص إنزاله برمضان ؟).وأجاب هو نفسه على هذا السؤال وقال: (الجواب على وجهَين: الأوّل أنّ القرآن أُنزل في ليلة القدر جُملةً إلى سماء الدنيا.ثمّ نزل إلى الأرض نجوما.وإنّما جرت الحال على هذا الوجه لما علمه تعالى من المصلحة على هذا الوجه.فإنّه لا يبعد أن يكون للملائكة الذين هم سكّان سماء الدنيا مصلحةً في إنزال ذلك إليهم.أو كان في المعلوم أنّ في ذلك مصلحةً للرّسول عليه السلام في توقّع الوحي من أقرب الجهات.أو كان فيه مصلحة لجبريل عليه السلام،لأنّه كان هو المأمور بإنزاله وتأديته... الجواب الثاني عن هذا السؤال أنّ المراد منه أنّه ابتُدئ إنزاله ليلة القدر من شهر رمضان.وهو قول محمّد بن إسحاق.وذلك لأنّ مبادئ الملل والدول هي التي يؤرّخ بها،لكونها أشرف الأوقات.ولأنّها أيضا أوقات مضبوطة معلومة.). وبعد أن أجاب الفخر الرازي على السؤال المطروح بهذين الجوابين طرح هو بنفسه سؤالا ثانيا،وهو: (كيف الجمعُ بين هذه الآيات على هذا القول،وبين قوله تعالى (إنّا أنزلناه في ليلة القدر) وبين قوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) ؟). وقد أجاب رحمه الله على هذا السؤال الثاني وقال: (والجواب أنّ ابن عمر استدلّ بهذه الآية وبقوله (إنا أنزلناه في ليلة القدر) أنّ ليلة القدر لابدّ وأن تكون في رمضان.وذلك لأنّ ليلة القدر إذا كانت في رمضان،كان إنزاله في ليلة القدر إنزالاً له في رمضان.وهذا كمن يقول: لقيت فلانا في هذا الشهر.فيقال له: في أيّ يوم منه ؟ فيقول يوم كذا.فيكون ذلك تفسيرا للكلام الأول.فكذا هنا.).

ومن خلال ما أوردته من أقوال الفخر الرازي عاد القارئ يُدرك بأنّ المفسّر المذكور لم يجزم برأي واحد.بل أورد عدّة احتمالات.ومن دون أن يقدّم على ما قدّمه من آراء أيّ دليل يؤيّد ما ذهب إليه من آراء.وعليه نتساءل عن المعنى الحقيقي لقول الله عز وجلّ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ ؟

فاعلم يا عزيزي القارئ بأنّ الأمر الذي أوقع المفسرين القدماء في تلك الإشكاليات وذاك الفهم الخطأ هو أنّهم لم يحيطوا علما بعائد ضمير أنزلناه من جهة.وبالمفهوم الحقيقي لكلمة (ليلة) الوارد في سورة القدر.فهم أرجعوا ضمير (أنزلناه) إلى القرآن الكريم كلّه.وأخذوا لكلمة (ليلة) معناها المتبادر للأذهان هو تلك المدّة الزمنيّة التي تبتدئ من غروب الشمس.وتنتهي عند شروق الشمس. وبذلك لا يكونون قد أصابوا في هذين الموضعين المذكورين. لذلك كان من واجبي إثبات حقيقة ما ذهبت إليه.وإعطاء القارئ فكرةً عن المعاني الحقيقيّة المقصودة.

وعليه فإن تدبّر الباحث مضمون سورة (العلق) تدبّرا نابعا من منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.يصل إلى أنّ اللّه عز وجلّ تكلّم في سورة العلق عن موضوع تلقّي محمّد رسول اللّه ﷺ رسالة الإسلام من دون بيان حقيقة مضمون تعاليمه.وقد ضمّن اللّه تعالى سورة العلق الحيثيّات التي اقتضت إنزال هذا الدين الإسلاميّ وحسب.وقد خصّص اللّه عز وجلّ آيات سورة (القدر) لبيان حقيقة تعاليم رسالة الإسلام.وهي حقيقة اقتضاها التسلسل الموضوعي الذي يربط ما بين سورة العلق وسورة القدر.وعلى القارئ مطالعة مؤلّفي (الإسلام علَم السلام والجهاد والقتال) ليحيط علما بحقيقة ما ذكرته له.

وأتناول بالكلام عن مرجعيّة ضمير ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾.فمن المعلوم هو أنّ الضمير يحلّ محلّ الاسم في اللّغة العربيّة.ويرجع إلى أقرب الأسماء الواردة قبله دفعا لتكرار ذاك الاسم.والملاحظ هو أنّ هذه الآية الأولى من آيات سورة (القدر) قد أوردت ضميرا من دون أن تتضمّن ذكر الاسم الذي يرجع إليه هذا الضمير الوارد في فعل (أنزلناه).وهذه الحقيقة تدفعنا لنتساءل عن سبب ذلك.والسبب في رأيي هو أنّ اللّه عز وجلّ أراد بهذا الحذف البلاغيّ الربط ما بين مضمون سورة (العلق) وما بين مضمون سورة (القدر) ربطا موضوعيّا.وليدفع القارئ إلى إعادة ضمير فعل (أنزلناه) إلى مضمون الآية الأولى من سورة (العلق) التي حمّلت محمّدا مسؤولية حمل رسالة الإسلام.ويصبح تقدير ذلك أنّنا أنزلنا أوّل وحي أنزلناه في ليلة (القدر). وهذا

المعنى الذي أفاده مرجع ضمير (أنزلناه) يكون قد شكّل قرينة تحول دون أخذنا بالمعنى الحقيقي لكلمة (ليلة) ويضطرّنا لأخذ المعنى المجازي للكلمة المذكورة.وهو دلالة كلمة (ليلة) على زمن الانحطاط الذي عايشته الأمة العربيّة زمن تلقي محمد مسؤوليّة حمل دعوة الإسلام إلى الناس كافّة ولمعالجة تلك الفترة المظلمة المخيّمة عليهم في تلك الأيام.وهو معنى أوسع بكثير من المعنى الحقيقي لكلمة (ليلة) والذي أخذ به المفسرّون القدماء رحمهم اللّه تعالى خطأ.وبالتالي يكون اللّه تعالى قد أورد حرف الجرّ (في) الوارد في هذه الآية الأولى من سورة القدر بمعناه المجازي أيضا.وهو استعمال ورد مثيله في قوله تعالى في سورة (النصر): ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ .

ونتساءل بعد ذلك عن حقيقة معنى كلمة (ليلة) الموصوفة بصفة (القدر).فإن راجعنا (معجم مفردات الراغب) نلاحظ قول صاحبه: (القدر والتقدير معناه تبيين كمّية الشيء. ويكون تقدير اللّه تعالى للأشياء على وجهين: الأوّل إعطاء القُدرة.والثاني جعلُ هذا الشيء على مقدار مخصوص،وعلى حسب ما تقتضيه حكمة اللّه عزّ وجلّ).وهذا المعنى يُعطي الآية الأولى الوارد فيها وصف كلمة (ليلة) بصفة القدر بمعنى أنّ اللّه تعالى قد حمّل محمّدا مسؤوليّة حمل رسالة الإسلام لمعالجة أمور مخصوصة تماثل أمورا سابقة لها عبر الزمان كانت قد حدثت في أزمنة انحطاط الأمم وتخلّفها وبُعدها عن إنسانيّتها.أيام كان ينتشر الفساد ويتّبع الناس شهواتهم وإلى درجة كانوا ينسون معها وجود الآخرة ويوم الحساب.وبألفاظ أخرى فإنّ ليلة القرد قد اكتسبت قدرها ومنزلتها بسبب نزول تعاليم هذا القرآن الكريم السامية على محمد رسول اللّه تعالى في تلك الفترة من الزمان لمعالجة ظهور الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس.ونصلُ من ذلك كلّه إلى أنّ اللّه عز وجلّ لم يورد كلمة (ليلة) في سورة القدر بمعناها الحقيقي الذي يشير إلى الفترة الزمنيّة الممتدّة ما بين غروب الشمس وبزوغ الفجر الصادق.بل أوردها بمعناها المجازيّ وهو دلالتها على الفترة الزمنيّة الطويلة التي شملت زمن البعثة المحمّدية إلى جانب شمولها أزمنة الخلافات الراشدة التي أتمّت ما بُعث محمّد رسول اللّه ﷺ لإنجازه أيضا.فأين هذا المعنى العظيم

الذي توصّلت إليه،من ذاك المعنى الخطأ الذي أخذ به المفسّرون القدماء والذي أوقعهم في إشكالات عديدة لم يجزموا بواحدة منها، وعلى حسب ما أطلعت القارئ عليه من أقوال الفخر الرازي رحمه اللّه تعالى ؟

وإنّ ما أكّد مصداقيّة المعنى الذي ذهبت إليه.هو أنّ اللّه عز وجلّ قال في الآية الثانية ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾.علما بأنّ جملة ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾؟ حيثما وردت في كتاب اللّه العزيز فقد وردت لتضخيم المعنى.وعلى سبيل المثال ففي سورة الهُمزة قال اللّه تعالى وهو يُضخّم دلالة كلمة (الحُطمة) التي هي نار اللّه الموقدة قال ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ .

والملاحظ هو أنّ اللّه تعالى لم يكتف بهذا التّضخيم لدلالة كلمة ﴿ لَيْلَةِ ﴾.بل زادها تضخيما في قدْرها وقال ﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾.فإن نحن أخذنا هنا معنى (الإشهار لكلمة (شهر) وهو المعنى الذي ذهب إليه الفخر الرازي رحمه اللّه أيضا. يكون اللّه تعالى قد ضخّم معنى كلمة (ليلة) للمرّة الثانية وقال بألفاظ أخرى بأنّ تلك الفترة الزمنيّة التي أنزل اللّه تعالى فيها تعاليم هذا الدين الإسلاميّ الحنيف تُعادل حياة المرء كلها يقينا.بسبب منزلتها السامية من جهة.وبسبب كمال تعاليمها من جهة ثانية. وبسبب عظمة شخصيّة الرسول الذي أُنزلت عليه هذه الشريعة السمحة من جهة ثالثة.وتأكيدا لهذه المعاني التي توصّلنا إليها فقد راح اللّه تعالى بعد ذلك يقول:

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾.ولا تنطبق هذه الدلالة على كلمة ليلة إلا إذا أخذنا منها معناها المجازي الذي بيّنته ووضّحت أبعاده من قبل.وفي الحقيقة فإنّ نزول الروح والملائكة امتدّ طوال الفترة الزمنيّة من أول يوم بعث اللّه تعالى فيه محمّدا بن عبد اللّه رسولا إلى العالمين وإلى انتهاء زمن الخلافة الراشدة.

وبعد أن أوصل اللّه عز وجلّ القارئ إلى هذا الحدّ من البيان،وبهذه الصياغة المشوّقة الجذّابة والبلاغيّة.فقد راح جلّ جلاله يختصر مضامين الرسالة الإسلاميّة بكلمة واحدة ويقول ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ وقد أعقب هذه الكلمة بإشارة وقف لدفع هذا القارئ ليدرك دلالة هذا التلخيص الذي قام به اللّه جلّ شأنه من خلال قوله تعالى

﴿ سَلَٰمٌ ﴾.ومن ثمّ أتى اللّه جلّ شأنه بضمير الشأن بعد إشارة الوقف،وإشارة إلى كلمة ﴿ لَيۡلَةِ ﴾ وقال ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾.وبهذا الأسلوب من تلخيص تعاليم الرسالة الإسلاميّة يكون اللّه تعالى من خلال كلمة (سلامٌ) وهي منوّنة،قد وضّح جلّ شأنه بأنّ هذه التعاليم المترلة على محمّد رسول اللّه إنّما هي تعاليم (عظيمة الشأن) وهي الحقيقة التي دلّ عليها تنوين آخر كلمة ﴿ سَلَٰمٌ ﴾.وأنّها تعاليم أمن وسلام للبشريّة وهو معنى كلمة ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ نفسها.وبالتالي فليست هذه التعاليم التي تضمّنها القرآن الكريم المترل على محمّد بن عبد اللّه بتعاليم قتل وسفك دماء.وبهذا الأسلوب البياني فقد وضع اللّه عز وجلّ في يد الباحث في هذا المقام،ومن خلال كلمة ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ هذه أصلا عاشرا من أصول تفسير آيات هذا القرآن المجيد.وهي الحقيقة التي سعيت لإيصال هذا القارئ إليها بصورة موضوعيّة.وبناء على هذا الأصل في التفسير فقد أوجب اللّه تعالى على الذي يريد تفسير تلك الآيات القرآنية التي تكلّمت عن القتال وحثّت عليه، أن يفهم مضامينها من منطلق هذا الأصل العاشر من أصول تفسير آيات القرآن المجيد.وهي حقيقة أثبتّ مصداقيّتها من خلال مضامين مؤلّفي (الإسلام علّم السلام والجهاد والقتال).وقد استمرّ اللّه جلّ شانه في بيانه منبّها إلى أنّ المدّة الزمنيّة لهذه اللّيلة التي تتترّل فيها تعاليم هذا القرآن العظيم تمتدّ من زمن تلقّي محمّد ﷺ أوّل وحي قرآنيّ في غار حيراء،ومرورا بالمدّة التي بقي فيها محمّد رسول اللّه في مكة المكرّمة وانتهاء وبالأيام الأخيرة من حياته ﷺ في المدينة المنوّرة. فهذه هي دلالة قوله تعالى من بعد كلمة (ســــــلام) (هي حتّى مطلع الفجر).ويكون المقصود من كلمة (الفجر) هنا فجر ظهور الإسلام بعد مروره بالمراحل المشار إليها أعلاه.ولّما كان القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضا.فليعُد القارئ إلى ما خاطب به اللّه عز وجلّ أهل الكتاب في الآيتين ١٥/١٦ من سورة المائدة.فهو تعالى خاطبهم وقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.وعلى القارئ أن ينتبه

إلى كلمتي (سُبُلَ السـلام) التي اشتملت عليها هاتان الآيتان.وكيف أنّ اللّه عز وجلّ قد وصف هاتين الكلمتين تعاليم القرآن الكريم المتزلة على محمّد رسول اللّهﷺ.ويكون اللّه جلّ شأنه قد قال بألفاظ أخرى: إنّ تعاليم القرآن الكريم على حين هي في حقيقتها (نورٌ) تُعين الأعين على الاهتداء إلى الطريق.فهي نور يهديه إلى سبيل تحقيق الأمن والسلام في كلّ مكان وصل إليه.ولذلك فالقرآن الكريم يُخرجُ أهل الكتاب ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

ولم يكتف اللّه عز وجلّ بهذا الخطاب الذي خاطب به أهل الكتاب.بل راح تعالى يؤكّد هذه الحقيقة في الآية ٢٥ من سورة يونس وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.وهو سبحانه وتعالى ومن خلال قوله تعالى قد وضّح للعالم أجمع بأنّه جلّ شأنه لم يُترل في يوم من الأيام تعاليم تدعو إلى القتل وسفك الدماء.فإن وُجدت فيما يتداوله الناس من كتبٍ منسوبةً إلى أنبياء اللّه ورسله وتدعوا إلى القتل وسفك الدماء.فإنّ تلك التعاليم تكون محرّفةً وبعيدة عن الحقيقة التي جاءت بها التعاليم المترلة من اللّه الذي من أسمائه الحسنى أنّه اللّه (السـلام).ولا يُعقلُ أن يأمر عباده بأوامر تتضادّ مع هذه الصفة الإلهية (السـلام).

ولا تذهب بعيدا يا قارئي العزيز،بل لاحظ أيضا كيف أنّ اللّه عز وجلّ قد خاطب المؤمنين في الآية ٢٠٨ من سورة البقرة وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾.فإن علمت بأنّ آيات سورة البقرة كانت آخر ما نزل من آيات القرآن المجيد.تكون قد أيقنت بأنّ تعاليم هذا القرآن الكريم هي تعاليم سلام وليست تعاليم قتل وسفك دماء،وكما يفعلُ المسلمون في عصرنا أولئك الذين جهلوا منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره. ولم يتدبّروا آيات هذا القرآن الكريم من هذا المنظار.بل يأخذون بما وصلهم من تفاسير هي أبعد ما يكون عن دلالات القرآن المجيد الحقيقيّة.فسورة البقرة حين أنزلها ربّنا عز وجلّ كان المسلمون قد خاضوا قبل نزولها المعارك المعروفة

قبل فتح مكّة وقبلها.فلو أنّ تلك الحروب التي خاضها المسلمون كانت هجوميّة وأنّ نشر الإسلام استند إلى شنّ الحروب وسفك الدماء،فما كان يصحّ قول اللّه عز وجلّ الذي أوردناه أعلاه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .فالسلم يناقض الحرب والقتال.وهل أنّ الحرب توقّفت ما بين المسلمين وما بين أعدائهم بمجرّد نزول هذه الآية الكريمة ؟ وما دام القتال المشار إليه لم يتوقّف.فهل اعترض أحد تاريخيًا على استمراره ؟

وبعد أن أوصلت القارئ إلى تبيّن الأصل العاشر من أصول تفسير آيات القرآن الكريم.أحاول الآن أن أضرب له الأمثلة التي تُثبت مصداقيّة هذا الأصل الذي ينبغي مراعاته حين يجلس المؤمن ليتدبّر جميع الآيات التي يتبادر منها لذهنه أنّها تأمر بأوامر مغايرة لموضوع السلام الذي تضمّنه هذا الأصل التفسيريّ العاشر من أصول تفسير آيات هذا القرآن المعجز والعظيم.

والمثال الأوّل أتناوله ممّا يتّهم به أعداء الإسلام تعاليم الإسلام على أنّها تعاليم قتال وقتل وسفك دماء.وتؤيّدها تصرّفات المسلمين الأصوليّين والذين باتوا معروفين على صعيد العالم الإسلاميّ وغير الإسلاميّ.والذين يستدلّون بالآية ٢٩ من سورة التوبة وهي: ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾.ويرجع هؤلاء إلى تفسير ابن كثير رحمه اللّه الذي كتب يقول في تفسير هذه الآية الكريمة: (بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين اللّه أفواجا واستقامت جزيرة العرب،أمر اللّه ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى،وكان ذلك في سنة تسع ولهذا تجهّز رسول اللّهﷺ لقتال الروم ودعا الناس لذلك..).علما بأنّ قول ابن كثير هذا مخالف لتاريخ تطوّر الدعوة الإسلاميّة وللحقائق التي وقعت على الأرض آنذاك ومخالفا لهذا الأصل العاشر للتفسير.كذلك يأخذ هؤلاء بما فسّر به ابن كثير قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ ﴾أي إن لم يُسلموا ﴿ عَن يَدٍ ﴾ أي عن قهر لهم وغلبة ﴿ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾

أي ذليلون حقيرون مُهانون.فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمّة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة (رضي) أنّ النبيﷺ قال ـــ لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام،وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطرّوهم إلى أضيقه ـــ...).وإنّ تفسيره هذا مخالف أيضا للتاريخ الإسلامي ويتضادّ مع مضامين آيات قرآنيّة أخرى،ويخالف ما جرى عليه المسلمون في مكّة المكرّمة أيضا ممّا لا مجال هنا للتوسّع فيه.فإن صحّ ما فسّر به ابن كثير هذه الآية ٢٩ من سورة التوبة،فحقّ لأعداء الإسلام أن يتّهموا تعاليم هذا الدين الإسلاميّ الحنيف بأنّه دين قتال وقتلٍ وسفك دماء.وأنّ تعاليمه بعيدة عن روح إقامة الأمن والسلام في العالم.أما إذا أعاد المؤمن تدبّر الآية المذكورة استنادا إلى منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره التي فتح اللّه عز وجلّ على شخصي الضعيف معارفها وحقائقها اللائقة بهذا الكتاب العزيز الذي تحدّى اللّه تعالى به الإنس والجنّ،فإنّ هذا المتدبّر للآية المذكورة من منظار هذه الزاوية الجديدة، يتبيّن له بأنّ تعاليم الإسلام هي تعاليم أمن وسلام،وليست تعاليم قتال وقتل وسفك دماء.فكيف نقوم بعمليّة التدبّر هذه ؟ وكيف نصل إلى تلك النتيجة السليمة ؟ فأقول: إني أجبت على هذين السؤالين بالتّفصيل في مؤلّفي (الإسلام علّم السلام والكتاب والجهاد).ومع ذلك أختصر هنا الإجابة فأقول: إذا راجع الباحث أوّل آية قرآنيّة أذنت لمحمّد وللمؤمنين بقتال أعدائهم المشركين،يلاحظ أنّها وردت في سورة الحجّ التي أنزلها اللّه عز وجلّ في السنوات الأوائل بعد الهجرة من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة،وباتّفاق المفسّرين والمؤرّخين على هذه الحقيقة.ففي سياق قول اللّه تعالى في الآية ٣٨ من سورة الحجّ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ .فقد قال اللّه تعالى بعد هذا الوعد الإلهيّ المذكور ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ

بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾.فلاحظ يا عزيزي القارئ الملاحظات التالية في هذه الآية الكريمة:

أولا – استُهلّت الآية بقوله تعالى (أُذن للذين يُقاتلون).وهذا يعني بألفاظ أخرى أنّ قريشا هم الذين كانوا ابتدءوا مقاتلة المسلمين،وليس العكس.

ثانيا – وأضاف تعالى وقال ﴿ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْ ﴾ .وهذا يعني بأنّ قريشا أعداء الإسلام قد سبق لهم أن ابتدءوا فظلموا المسلمين،وبشهادة ربّ العالمين.فقد اضطهدوا المسلمين في مكّة المكرّمة،واضطروا بعض ضعفاء المسلمين إلى الهجرة إلى الحبشة للتخلّص من اضطهاد المشركين إياهم.وأخيرا اضطرّ محمّد رسول اللّه وبقيّة المؤمنين إلى الهجرة إلى المدينة المنوّرة أيضا.وتأكيدا من جانبه تعالى لشهادته تلك فقد استهلّ الآية التالية وقدّم حيثيّات هذا الإذن بقتال المشركين وقال ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ .

ثالثا – وفي الفقرة الثالثة من الآية ٣٩ قال ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾.والمعنى الظاهر من هذه الفقرة أنّ المسلمين كانوا ما زالوا ضعفاء في المدينة المنوّرة وبحاجة إلى تأييد ربّهم ونُصرته.وليس كما ذهب بعض علماء الأمة إلى القول بأنّ محمّدا ﷺ ما قاوم المشركين في مكة بسبب ضعف عُصبته.ولكنّه في المدينة أصبح حاكما قويا ولذلك أخذﷺ يقاوم المشركين.وقد أثبت تعالى تأييده المذكور في معركة بدر الكبرى حيث تغلّبت فئة قليلة على فئة كثيرة بإذن اللّه وتأييده.

رابعا – والحيثيّة الثانية التي قدّمها اللّه تعالى للتّدليل على مصداقيّة إذنه للمسلمين بقتال المشركين.تضمّنتها الفقرة الثانية من الآية التالية وهي قوله تعالى فيها: ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾.فلاحظ يا عزيزي كيف أنّه تعالى أورد في هذه الفقرة كلمة ﴿ ٱلنَّاسَ ﴾ معرّفة بأداة التعريف التي تفيد معنى الاستغراق.وليشمل الناس جميعا وما ظهر بينهم من رسل وأنبياء منذ آدم وإلى زمن بعثة محمّد رسول اللّهﷺ.ولذلك قدّم تعالى أسماء ﴿ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ ﴾ على كلمة ﴿ وَمَسَـٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾.فتلك أسماء دور العبادة التي سبقت ظهور مساجد المسلمين.

خامسا – وقد وعد اللّه تعالى من سيأتي من المؤمنين بعد صحابة رسول اللّه في المستقبل بنصره العزيز وقال: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.وهذا التأييد الإلهيّ حالف الجيوش الإسلاميّة زمن الخلافات الراشدة.وهي حقيقة تاريخيّة لا يكذّبها مؤرّخٌ في العالم.

سادسا – وقد أفرد اللّه تعالى الآية ٤١ للكلام عن النتائج المرجوّة من وراء إذنه للمؤمنين بمقاتلة الذين ظلموهم ويقاتلونهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾.والملاحظ هنا هو أنّه تعالى لم يقُل وينشرون دين اللّه تعالى في الأرض.بل قال إنّ في تمكين المؤمنين في الأرض نتائج يُسفرُ عنها هذا التّمكين.وحدّده تعالى في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.وليس بالاستمرار في القتال وسفك الدماء والإخلال بأمن العالم.ولذلك كان من واجب المفسّر الذي يريد تفسير الآيات التي تكلّمت عن القتال أن يراعي هذين الأمرين المذكورين وهما مراعاة الأصل العاشر الذي تكلّمنا عنه.وأن يراعي هذه الأمور الستّة التي تضمّنتها الآية التي أذن اللّه تعالى من خلالها لرسوله الكريم وللمؤمنين بمقاتلة المشركين.

فهذه أمور ستّةٌ تضمّنتها الآية ٣٩ من سورة الحجّ التي أذنت لمحمّد والذين معه بقتال الذين يُقاتلونهم من المشركين، وما تبعها من آيات أوردت حيثيّات هذا الإذن الإلهيّ والنتائج التي ستُسفرُ عنه.فقد حدّدت بذلك معالم القتال الدينيّ وشروطه.وعليه فإنّ من واجب المفسّر أن ينطلق في تفسيره لآيات القتال بما لا يخالف الأصل التفسيري العاشر الذي تكلّمنا عنه.وبما لا يُخالف مضمون هذه الآية ٣٩ من سورة الحجّ التي حدّدت شروط القتال الديني والتي تضمّنت هذه الأمور الستّة التي استنتجناها منها.

فإن عُدنا إلى أقوال وتفسير ابن كثير رحمه اللّه لنُسقطُها على هذا الذي أوردناه إلى الآن.لتبيّن لنا بأنّ ابن كثير قد أخطأ فيما أورده في تفسيره يقينا حين فسّر الآية ٢٨ من سورة التوبة بما فسّره به.فما هي النقاط التي أخطأ فيها ؟

أخطأ أوّلا حين زعم وقال: (..ودخل الناس في دين الله أفواجا واستقامت جزيرة العرب.أمَرَ الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى،وكان ذلك في سنة تسع..).فهذا الكلام يخالف سياق مضمون هذه الآية الكريمة.ففي سياق مضمونها كان تعالى قد قال في الآية ٢٤ ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.وإنّ نصّ هذه الآية يُستفاد منه بأنّ سورة التوبة قد أنزلها الله عز وجلّ بعد غزوة حنين وهزيمة المشركين فيها.وهي حقيقة أيّدها قول المؤرّخين بأنّ سورة التوبة هي من السور الثلاث التي كانت آخر ما نزل من سور القرآن المجيد.أي أنزلت بعد أن استتبّ الأمر للحكومة الإسلاميّة التي تأسّست في المدينة المنوّرة.والذي يراجع التطوّرات التاريخيّة المتعلّقة بتلك الفترة الزمنيّة،يُدرك بأنّها تسرّبت في تلك السنوات أخبار حول تحرّش الروم بالمسلمين على حدود الشام.الأمر الذي دفع رسول الله ﷺ إلى تأليف جيش بقيادة أسامة (رضي).ولّما تبيّن لرسول الله عدم وجود خطرٍ وعدم صحّة تلك الإشاعات.أبقى على الجيش في المدينة المنوّرة ولم يذهب لمقاتلة الروم.والسؤال هو: على مضمون أيّة آية اعتمد محمّد رسول الله في تأليفه الجيش المشار إليه ؟ فموضوع قتال الروم لم تتوفّر فيه الأمور الستّة التي اشترطتها الآية ٣٩ من سورة الحج.والجواب على هذا السؤال قد تضمّنته هذه الآية ٢٨ من سورة التوبة في حقيقة الأمر.فالله عز وجلّ أجاز في هذه الآية لرسوله الكريم أن يجهّز جيشا لمحاربة الروم الذين كانوا من أهل الكتاب،والذين قاموا بالتحرّش بالدولة التي استحكمت في المدينة المنوّرة.وهذا النوع من القتال الذي شرّعته هذه الآية ٢٨ ليس هو بالحرب الدينيّة التي شرّعتها الآية ٣٩ من سورة الحج.بل إنّ نوع الحرب والقتال هنا يتعلّق بسلامة الحدود وسلامة الدولة.فهذه الآية شرّعت حربا وطنيّة.وفرضت أخذ الجزية من أهل الكتاب المغلوبين.على حين أنّ الحرب الدينيّة لم تفرض جزية على المشركين.وعليه فقد خلط ابن كثير حين فسّر هذه الآية ما بين

الحرب الدينيّة والحرب الوطنيّة.وفسّر هذه الآية وكأنّ مقاتلة المسلمين لأهل الكتاب هو استمرار للقتال الذي أذنت به الآية ٣٩ من سورة الحج.

فمن هنا عُدنا نُدرك بأنّ الحروب التي خاضتها الجيوش الإسلاميّة مع الروم والفرس لم تكن حروبا دينيّة بالمعنى الذي نصّت عليه الآية ٣٩ من سورة الحج.بل كانت تلك الحروب دفاعاً عن حدود الدولة الإسلاميّة في مواجهة الذين أرادوا القضاء عليها في مهدها.ولذلك لا يجوز اعتبار أنّ تلك الحروب قد ابتدأها المسلمون لنشر الدعوة الإسلاميّة.ومن باب أنّ الإسلام لا يدعو أتباعه لنشر مبادئه بالقوة والفتح.بل بالدعوة إلى سبيل اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة.وبوسيلة الحوار القائمة على الدفاع عن تعاليم الإسلام بقوّة المنطق والحجّة والبرهان.هذا وإنّ كلّ من لا ينطلق في فهم مضامين الآيات القرآنيّة من هذا المنطلق الذي بيّنته،يكون كمن يضرب مضامين الآيات القرآنيّة بعضها ببعضها الآخر.فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة خطوة تتنافى كلّيّة مع الاعتقاد بضرورة نشر تعاليم الإسلام عن طريق الحرب وفتح البُلدان.

وعلى هذه الصورة يكون قد تبيّن للقارئ أهمّية ما أطلعته عليه من أصول التفسير.ومن أنّ القتال في الإسلام هو عبارة عن حرب دفاعيّة مشروعة.ولم يعلّم القرآن المجيد المسلمين أن يقوموا بحرب هجوميّة لفتح البلدان ونشر الدين الإسلاميّ الحنيف.فلا إكراه في الدين.وإنّ ظواهر القتل وسفك الدماء الذي يحدث في زماننا هذا على أيدي مسلمين أصوليّين قد تسبّب به تفسير ابن كثير رحمه اللّه للآية ٢٨ من سورة التوبة وبما يخالف أصول التفسير.وبما يخالف روح الدعوة إلى سبيل اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة.إذ لا يجوز قطع الآية عن سباقها وسياقها وتسلسلها الموضوعي.وتناول مضمونها مستقلاً عمّا يربطه بسباقه وسياقه وتسلسله الموضوعي.وكما فعله ابن كثير وغيره من المفسرين القدماء.فهذا أوّل مثال قدّمته للقارئ ويثبت منه مصداقيّة هذا الأصل العاشر والأخير الذي بيّنته له من أصول تفسير القرآن المجيد.

والمثال الثاني الذي أقدّمه للقارئ ليثبت منه مصداقيّة أنّ تعاليم الإسلام هي تعاليم سلام.أستقيه من مضمون الآية ٣٣ من سورة المائدة.تلك الآية التي يستدلّ بها هؤلاء الذين يحلّلون سفك الدماء باسم الدين.وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فإذا وضعنا نصب أعيننا أصول تفسير آيات القرآن الكريم التي وضّحتها في مؤلّفي (منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره).نرجع هنا إلى سباق هذه الآية الكريمة فنلاحظ بأنّ اللّه عز وجلّ ومنذ الآية ٢٧ من سورة المائدة،فقد راح تعالى يُعطينا فكرةً تاريخيّةً عن نشوء قتل الإنسان للإنسان منذ زمن آدم وإلى الزمن الذي أنزل اللّه تعالى فيه تعاليم هذا القرآن الكريم.فقدّم تعالى مثال ابني آدم بالحق إذ قرّبا قُرباناً فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتقبَل من الآخر.وكان في هذا المثال إشارة إلى ما هو مقدّرٌ وقوعه ما بين بنوا إسرائيل وبنوا إسماعيل.حين بعثة محمدّ رسول اللّه ﷺ،ومن دون أن أدخل في التفاصيل.وبدليل أنّ اللّه عز وجلّ قد قدّم مثال ابني آدم في سياق كلامه عن موسى وحال قومه،وكما هو ظاهر من الآيات التي سبقت الآية ٢٧.ولذلك ما إن فرغ اللّه تعالى من تقديم مثال ابني آدم إلا وعاد للكلام عن بني إسرائيل وقال ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾.أي أنّ اللّه تعالى منع بني إسرائيل أن يتجاوزوا تعليم قتل نفس بغير نفس.ومع ذلك فهم تجاوزوا هذا التّعليم وعاملوا رسل اللّه الذين بعثهم تعالى بعد موسى بخلاف هذا التّعليم وكانوا بذلك من المسرفين في قتل الأنفس بغير نفس،وذلك على مدى تاريخ جميع من أرسلهم اللّه تعالى لإصلاح بني إسرائيل.وقد راح اللّه تعالى بعد أن أوصلنا إلى هذه الحقيقة يوضّح لنا الجزاء الحقيقي الذي يستحقّه

كلّ مَن خالف تعليم قتل نفس بغير نفس،وبالإضافة إلى محاربة اللّه ورسوله المرسل لإصلاح المنحرفين عن هذا التّعليم،فقال: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.ولنلاحظ كيف أنّ اللّه تعالى كان يورد حرف (أو) ولم يورد حرف العطف (و) والحكمة في ذلك أنّه تعالى لم يقصد أن يُنزل الحاكم جميع هذه العقوبات في حال ثبوت جرم قتل نفس بغير نفس.بل أن ينزل عقوبة من هذه العقوبات التي ذُكرت في هذه الآية وعلى حسب نوعيّة جرم قتل نفس بغير نفس. ومن ثمّ وبعد ضرب مثال ابني آدم وما خالف به بنوا إسرائيل هذا التّعليم الذي لقّنهم إياه نبيّهم موسى عليه السلام.ونوعيّة العقاب الذي يستحقّه كلّ من يحارب اللّه ورسوله.فقد توجّه اللّه عز وجلّ إلى المسلمين الذين كتب عليهم القتال وهو كُره لهم وقال ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.وبهذا الأسلوب من الطرح البلاغيّ فقد فتح اللّه بمجيء تعاليم الإسلام باب العفو من منطلق أنّ اللّه ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.وهو تعليم امتازت به تعاليم الإسلام من دون تعاليم بقيّة الأديان التي سبق ظهورها،ظهور تعاليم هذا الدين الإسلاميّ الحنيف.وعلى هذه الصورة أكون قد أثبتّ خطأ استدلال الأصوليين بمضمون هذه الآية ٣٣ من سورة المائدة.وذلك استنادا إلى أصول تفسير آيات القرآن الكريم التي بيّنتها في مؤلّفي (منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره).وخاصّة هذا الأصل العاشر من تلك الأصول في التفسير.

وبهذه المناسبة أطلب من القارئ العزيز أن يراجع تفسير ابن كثير رحمه اللّه لهذه الآية ٣٣ من سورة المائدة.ومن أجل أن يستبين الفارق الكبير بين ما وضّحته له من دلالاتها وما بين ما ورد في التفسير المذكور.فابن كثير أورد عددا من الروايات توضّح السبب في إنزال قول اللّه تعالى ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾.وهي روايات مدسوسة في نظري على محمد رسول اللّه ﷺ الذي يستحيل أن يقوم بهذه

الأفعال التي تضمّنتها تلك الروايات.ويكفي القول إنّه سيتبيّن لهذا القارئ كيف أنّ ابن كثير رحمه اللّه تعالى كان يجهل منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره ولذلك وقع في هذه الأخطاء الفاحشة التي يندى لها جبين المؤمن الذي أحاط علما بتعاليم القرآن الكريم الحقيقيّة. والتي ما زالت الأمة الإسلاميّة تحصد من سلبياتها إلى يومنا هذا.والمؤسف أنّ مشايخ وعلماء الأمة المعاصرين ما يزالون غارقين في هذه الأخطاء،بسبب جهلهم هم بدورهم أيضا بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

وهنا قد يتساءل المرء ويقول: هل أنّ صحابة رسول اللّه ﷺ كانوا محيطين علما بدلالات جميع آيات القرآن الكريم ؟ والذي يدقّق فيما وصلنا من روايات تبيّن حال الصحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين.يتبيّن له بأنّهم كانوا يحيطون علما بكلّ ما كان يبيّنه لهم رسولهم من دلالات.ولا يسألونه عن أشياء أكثر من ذلك.فهم نهاهم ربّهم عن فعل ذلك.ومن باب أنّ اللّه تعالى قال في الآية ١٧-١٨ من سورة القيامة: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ .فسورة القيامه هذه والتي جاء ترتيبها ضمن السور الثلاثة الأخيرة من جزء تبارك الذي هو في نظري آخر جزء من أجزاء سور القرآن الكريم.ويتبعه جزء (عمّ) الذي يُعتبر في نظري الخاتمة المطوّلة لمضامين القرآن العظيم.فالآية من سورة القيامة التي أوردتها نبّهت أذهان المسلمين إلى أنّ آي الذكر الحكيم مقدّر لها أن تمرّ من ثلاثة أدوار.فالدور الأوّل هو دور إنزال آيات هذا القرآن منجّمة،أي مجموعات وتبعا للمناسبات.وأما الدور الثاني فقد عبّر تعالى عنه وقال ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾.وهذا الدور الثاني قد حقّقه تعالى على أيدي الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه.ومن ثمّ نبّه جلّ شأنه عقولنا إلى الدور الثالث وقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ .فحرف (ثمّ) يفيد الترتيب.بمعنى أنّ اللّه عز وجلّ يبعث رجالا طاهري السريرة ويكشف على كلّ واحد منهم من حقائق القرآن ما يناسب عصره الذي يعيش فيه. فالعرب كانوا أمّيين.وكان مقدّرا ظهور العلوم الحديثة المعاصرة التي تُعين على فهم ما هو متعلّق فهمه على ضوء معطيات هذه العلوم الحديثة.فالجهل بهذه

الحقيقة أوصلنا إلى ما وصلنا إليه.واستنادا إلى هذا الفهم الذي ذكرته فأنا غير موافق على الجلوس لكتابة تفسير كامل لآيات هذا القرآن المجيد.كــيلا نحجّــم مُعطيــات آياته.ومن أجل أن نفسح المجال للأجيال القادمة فهم الآيات على ضوء ما يجدّ عليها من علوم ما انكشفت على هذه الأجيال المعاصرة.وهذه حقيقة اقتضاها اعتقادنا بأنّ القرآن الكريم صالح لكلّ زمان ومكان.وأنّه خالد خلود هذا العالم المادّي.

كلمة أخيرة

كنت بيّنت في الفصل الأول من الجزء الأول من مؤلّفي (منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره) أنّ هذا القرآن هو كتاب معجزٌ وأنّه كتاب غير عاديّ وقدّمت الأدلّة التي تثبت مصداقيّة هذه الحقيقة.وأنّ من مظاهر عظمة هذا القرآن أنّ آياته لا تُدركُ مضامينها إلا وفق منهجيّة خاصّة لهذا القرآن ووفق أصول تفسير تضمّنتها نفس آياته أيضا.كذلك بيّنت هناك أنّ القرآن المجيد هو كتاب علميٌّ.وقدّمت الأدلّة التي تثبت مصداقيّة هذه الحقيقة أيضا.وأنّ كلمة (كتاب) تعني أنّه ينبغي على المتدبّر لآيات هذا القرآن أن ينطلق من أنّ سورة الفاتحة هي الخلاصة الأولى لمضامينه.وأنّ جزء (عمّ) هو الخلاصة المطوّلة لمضامينه.وأنّ السور الثلاثة الأخيرة التي سمّيت المعوّذات،هي خلاصة الخلاصة لمضامين هذا القرآن العظيم.فهذا المنطلق وهذا الفهم الذي وضّحته لم يخطر ببال المفسّرين القدماء بهذا الوضوح الذي أطلعت القارئ عليه.كذلك صحّحت في الفصل الأول المشار إليه حقيقة التحدي الذي تحدّى اللّه عز وجلّ بهذا القرآن الجنّ والإنس.وأنّ لكلّ تحدٍّ من تلك التحدّيات نطاقا حدّده سباق وسياق كلّ تحدي من تلك التحدّيات. هذا وتحت عنوان (القرآن الكريم في كتاب مكنون) من الفصل نفسه بيّنت بأنّ إدراك دلالات الآيات القرآنيّة لا يُدركها على حقيقتها إلا (المطهّرون) ووفق مشيئة اللّه الذي أنزل هذا الكتاب السماويّ المقدّس العظيم.الذي لم يقتصر على تعاليم وأحكام وإنّما أورد نبوءات غيبيّة أيضا،منها ما تحقّق ومنها ما هو في طريقه إلى التحقّق في وقت المقدّر لتحقيقه.وقد نبّهت ذهن هذا القارئ في نهاية هذا الفصل الأول المشار إليه إلى أنّ هذه الحقائق جميعها التي أتيت على بيانها قد أوجبت على المؤمن القيام بتدبّر كلّ آية من آيات هذا الذكر الحكيم وفق منهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.فهذا كلّه بيّنته في الباب الأول من مؤلّفي المذكور.

ومن ثمّ أتيت على ذكر أصول تفسير آيات القرآن الكريم وعلى حسب ما فتحه اللّه عز وجلّ على شخصي الضعيف من تلك الأصول. وذلك في الباب الثاني من هذا المؤلّف.فكانت تلك الأصول عشرة أصول ينبغي على المتدبّر كلّ آية من آيات هذا القرآن المجيد أن يأخذها بعين اعتباره كيلا تصدر عنه أخطاء وضلّ عن الدلالات الحقيقيّة لكلّ آية من الآيات القرآنيّة.فإن راعى المتدبّر كون هذا القرآن (كتاب) وأنّ له مقدّمة هي سورة الفاتحة.وأنّ كلّ سورة من سور جزء (عمّ) تكون قد اختصرت موضوعا من مواضيع القرآن الكريم.وأنّ ما بين سورة الفاتحة وما بين سور جزء (عمّ) من سورٍ هي متنُ هذا القرآن الكريم.يكون قد انطلق في فهم مضامين كلّ سورة من سوره وهو ملتزم بالأصل الأوّل من أصول القرآن المجيد. علما بأنّ السور الثلاثة الأخيرة من جزء (عمّ) وهي المعوذات، قد لخّصت كلّ واحدة منها بدورها ثلث مضامين القرآن الكريم.ولهذا السبب فقد ورد في الحديث الشريف عن محمد رسول اللّه ﷺ أنّه قال بحقّ سورة الإخلاص بأنّها تُعادل ثلث هذا القرآن.ومن باب أنّ سورة الإخلاص قد لخّصت موضوع التوحيد الذي أتى به الدين الإسلاميّ.وعلى ضوء هذه المعلومة كان من واجب المتدبّر لآيات سورة الإخلاص أن يفهم دلالاتها من هذا المنظار.وليس من منظار المفسّرين القدماء الذين لم يحيطوا علما بحقيقة ما بيّنته،ولذلك فسّروا آيات سورة الإخلاص وكأنّ اللّه عز وجلّ يسرد من خلالها بعض أسمائه الحسنى وهي أللّه أحد واللّه الصمد وأنّه لم يلد ولم يولد وأنّه لم يكن له كفوا أحد.هذا التفسير الذي لا ينضبط في حقيقته بميزان من الموازين.وصيانة لعقل القارئ من التشتّت بعد سماعه ما ذكرته من نقد.أختصر لهذا القارئ تفسير آيات سورة الإخلاص فأقول: عندما أمر اللّه تعالى وقال في مستهلّ سورة الإخلاص (قل) فقد أورد هذا الفعل بمعنى بلّغ.أي بلّغ الذي تكلّم اللّه تعالى عنهم في سورة (تبّت) بأنّ الذي تنبّأ عن مصير أبو لهب وأعوانه ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.فهو ضمير الشأن ويرجع إلى ما ذكرت.و﴿ ٱللَّهُ ﴾ هو اسم جامد تفرّدت اللّغة العربيّة به كاسم جامع لما اشتملت عليه ذات اللّه التي أبدعت هذا الكون المادّي من أسماء حسنى.وأما كلمة ﴿ أَحَدٌ ﴾ فتعني الواحد الذي لا يثنى لا في ذاته ولا في

صفاته.وعندما قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ يكون قد قدّم لنا الدليل على كونه تعالى فريدا في ذاته عز وجلّ.ومن باب أنّ جميع من بعثهم اللّه تعالى من رسل وأنبياء قد صمدوا على ضعفهم في وجه جميع هجمات أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم عددا وعتادا.وإنّ صمودهم دلّ في حقيقته على أنّهم كانوا مدعومين من اللّه الصمد المتفرّد في ذاته المقدّسة.فلماذا اعتبرنا ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ دليلا يثبت مصداقيّة كون أنّ اللّه أحد ؟ لقد انطلقنا في هذا الفهم من منطلق الأصل في التفسير الذي يقتضي أن يقدّم تعالى بعد كلّ ادّعاء دليلا يثبت مصداقيّة ما ادّعاه.وقد قدّم اللّه عز وجلّ هنا دليلا على تفرّد صفاته من خلال قوله تعالى ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .ومن باب أنّ سبب بقاء كلّ شيء في هذا الكون يرتبط بنظام تلاقي ذكر وأنثى أو تلاقي سالب وموجب.أما اللّه الخالق موجد هذا النظام فهو منزّه عنه،فليس له بداية وليس له نهاية وصفاته غير محدودة أيضا.وقد قدّم تعالى دليلا آخر على تفرّده في صفاته عندما قال ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾.وهذا دليل علميٌّ بمعنى أنّ هذا الكون مؤلّف من أعداد هائلة من ذرّات المادة.ولن يعثر الباحث على ذرّة واحدة من هذه الذرّات قائمة بدون معونة غيرها.على حين أنّ اللّه عز وجلّ قد تفرّد في حقيقة أمره في أسمائه الحسنى.فهذا هو تفسير آيات سورة الإخلاص باختصار ما بعده من اختصار.فهذا كلّه اقتضاه الأصل الأول من أصول تفسير آيات القرآن الكريم.هذا الأصل الأول الذي دلّ على وجوده كلمة (كتاب) التي وردت في أوّل آية من آيات سورة البقرة وهي: ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

ونبّهت في الفصل الثاني من الباب الثاني إلى أنّ (اللّسان العربيّ المبين) هو الأصل الثاني الذي ينبغي مراعاته حين تدبّر آيات القرآن الكريم.بمعنى أن نعود عند محاولة تدبّر كلّ كلمة إلى معاجم اللّغة واستعمالات العرب في الجاهليّة. وأمّا في الفصل الثالث منه فقد بيّنت الأصل الثالث وهو ضرورة أن نفهم بعد كلّ ادّعاء تطرحه الآية على أنّه دليل مصداقيّة ذاك الادّعاء.فإن لم يراعي المفسّر هذا الأصل الثالث يضلّ عن المعاني الحقيقيّة المقصودة.وفي الفصل الرابع نبّهت إلى أصل رابعٍ من

أصول التفسير قد تضمّنته البسملة ومن خلال إضافة صفتي (الرحمن الرحيم) فيهـــا. وإلا كان يكفي أن نقول (باسم اللّه) فقط.وقد أوردت الأصل الخامس في التفسير في الفصل الخامس منه.وهو ضرورة فهم مضمون كلّ آية تكلّمت في موضوع علمـــيّ على ضوء معطيات ذاك العلم وبطريق مراجعة كلّ (خـــبير) مخـــتصّ في ذاك العلـــم المقصود.فإن تدبّرنا،وعلى سبيل المثال، قول اللّه تعالى في الآية ٤ من سورة الحديـــد ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ.... ﴾.إذا تدبّرنا مضمون هـــذه الآية الكريمة من دون مراجعة ما كشف عنه علم الجيولوجيا.فلا نستطيع فهم معـــنى قوله تعالى ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.أما إذا رجعنا لمعطيات العلم المذكور والذي يعتبر علماؤه هم (الخبير) في هذا المضمار.نصل إلى أنّ اللّه تعالى قد أراد من قوله ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي في ستّة أدوار جيولوجيّة.وأمّا في الفصل السادس منه فقد بيّنـــت دور العقـــل في فهم مضامين الآيات القرآنيّة وعلى اعتبار الأخذ بمعطيات المعقول هو أصـــل مـــن أصول تفسير مضامين الآيات القرآنيّة.وأما في الفصل السابع منه فقد بيّنت الأصـــل السابع من أصول التفسير وهو ضرورة مراعاة سباق الآية وسياقها حـــين الجلـــوس لتدبّر مضمونها.فإن لم نراع معطيات سباق الآية وسياقها وتدبّرناها مقطوعـــة عـــن سباقها وسياقها.نضلّ عن دلالتها الحقيقيّة المقصودة.وقد نبّهت في الجزء الثاني مـــن هذا الكتاب إلى أنّ اللّه عز وجلّ قد قسّم الأحكام الشرعيّة إلى أحكام دستورية وإلى أحكام قانونيّة. وهو تقسيم اعتمدته أنظمة الأحكام الوضعيّة.وأنّ هذا التقسيم يعتبر في حدّ ذاته أصلا تفسيريا وهو الأصل الثامن من أصول تفسير القرآن المجيد.وينبغـــي على متدبّر آي الذكر الحكيم مراعاته.فالآيات ذات الصفة الدستوريّة الأحكام تـــرد عامّة الدلالة وشاملة وبدون أيّ تخصيص.وأما الآيـــات ذات الـــدلالات القانونيّـــة الأحكام فترد عكس ذلك مخصّصة وغير شاملة الدلالة.علما بأنّ الأحكام الدستوريّة الصفة ترد كنهايات عامّة ودونها درجات وفق حالة القضيّة التي يتعلّق بهـــا الحكـــم الدستوري.وهي حقيقة وضّحتها في حينه حين تكلّمت عن الأصل الثامن من أصول التفسير.كذلك بيّنت في هذا الجزء الثاني من مؤلّفي المشار إليه بأنّ اللّه عز وجلّ قد أورد أصلا تاسعا من أصـــول تفـــسير آيـــات كتابـــه العزيـــز المتعلّقـــة بالـــذكر

والأنثى.وليساعد هذا الأصل التاسع كلّ من يتدبّر الآيات التي تكلّمت عمّا يتعلّق بالذكر والأنثى من أحكام شرعيةٍ وضربت على ذلك الأمثال.فالإسلام ساوى ما بين الذكر والأنثى في الحقوق والواجبات.وذلك في الآية الأولى من سورة النساء. وقد جعل اللّه تعالى مضمون تلك الآية المشار إليها أصلا من أصول تفسير الآيات المتعلّقة بحقوق وواجبات كلٍّ من الذكر والأنثى.علما بأنّ المفسّرين القدماء لم يُدركوا حقيقة هذا الأصل التفسيريّ.وتسبّب جهلهم هذا بتفسير الآيات التي تكلمت عن حقوق وواجبات الأنثى خلافا لمعطيات الآيات القرآنيّة.وأوقعوا الأمة بالتالي في متاهات تفضيل الذكر على الأنثى في كثير من مجالات الحياة.غير آبهين بالانقلاب الجذريّ الذي أحدثته تعاليم الإسلام الحنيف على المفاهيم الجاهليّة التي كانت سائدة حين إنزال هذا القرآن العظيم.وهو أمر ما تزال الأمّة الإسلاميّة تعاني من آثار تلك التفاسير المغلوطة.ثمّ إنني تكلّمت في هذا الجزء الثاني عن الأصل التفسيري العاشر والأخير.وهو الأصل الذي تضمّنته آيات سورة (القدر) بشكلٍ معجزٍ وهي السورة التي أنزلها اللّه عز وجلّ بعد أوّل سورة وهي سورة (اقرأ). سورة القدر التي ألقت الضوء بصورة موجزة على حقيقة التعاليم الإسلاميّة موضّحة بأنّها تعاليم أمن و(سلام).علما بأنّ المفسّرين القدماء فهموا سورة القدر على ظواهر دلالاتها.ومن غير أن يربطوا دلالاتها بمضمون سورة اقرأ.ممّا أبعدهم عن إدراك حقيقة هذا الأصل العاشر لتفسير آي الذكر الحكيم.

وبناء على هذا الفهم الذي بيّنته.واستنادا إلى تلك الأصول العشرة من أصول تفسير آيات هذا القرآن العظيم.أقول كلمتي الأخيرة.وهي أنّ هذا الفتح الربّاني الذي فتحه ربّي على شخصي العاجز الضعيف،كان ببركة إيماني بالمجدّد الأعظم ميرزا غلام أحمد عليه السلام الذي جعله اللّه جلّ شأنه (حكَما عدلا) ليحكم فيما اختلفت فيه هذه الأمة وفيما وقعت فيه من أخطاء وانحرافات عن الصراط المستقيم.فمؤلّفات حضرته ومؤلّفات خلفائه هي التي أرشدتنا إلى وجود أصول لتفسير آيات القرآن الحكيم.ومن خلال ذلك التنبيه فتحوا أمامنا طريق البحث

والدعاء في هذا المجال.وكان من نتائجه هذا الفتح الذي فتحه ربّي عليّ واختصّني به من دون سواي من الذين بايعوه.علما بأنّ هذا الفتح ورد مصداقا لقول اللّـه عـز وجلّ بشأن كتابه العزيز (ثمّ إنّ علينا بيانه).وإنّ مؤلّفي هذا (منهجيّة القرآن الكـريم وأصول تفسيره) يُعدّ في نظري حجر الأساس على طريق هذا الانقـلاب الجـذريّ الذي أحدثه في موضوع تفسير آيات الذكر الحكيم.فالحمد للّه تعـالى أولا وأخـيرا على ما فضّل به الله عز وجل على أمّتنا الإسلاميّة في هذه البعثة الإسلاميّة الثانية التي قدّر تعالى حدوثها على أيدي المجدّد الأعظم ميرزا غلام أحمد عليه السلام.فهذا هو ما أردت الإشارة إليه من خلال (كلمتي الأخيرة) هذه.فإنّما الأعمال بالنيّـات ولكـلّ امرئ ما نوى.وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين.

فرغت من كتابة الجزء الثاني من مؤلّفي (منهجيّة القـرآن الكـريم وأصـول تفسيره في اليوم الثاني من شهر رمضان المبارك من عـام ١٤٢٦ هجـري الموافـق الخامس من شهر تشرين أول عام ٢٠٠٥ ميلادي.

سـليم الجابي

الفهرس

الباب الأول

الباب الثاني

المراجع المعتمدة

١ — البراهين الأحمدية	مرزا غلام أحمد
٢ — التفسير الكبير	مرزا محمود أحمد
٣ — التفسير الكبير	الفخر الرازي
٤ — تفسير ابن كثير	
٥ — التفسير والمفسرون	الذهبي
٦ — معجم محيط المحيط	البستاني
٧ — معجم أقرب الموارد	
٨ — معجم مقاييس اللغة	ابن جني
٩ — فقه اللغة	الثعالبي
١٠ — خصائص العربية	مازن المبارك

صدر للمؤلف

- السلسلة العامة:

القراءة المعاصرة تحت المجهر
نظرية جذور الأخلاق
القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة
النظرية القرآنية حول خلق العالم
الرآي في المرأة والحرية والتراث
فن الإختزال القرآني (المقطعات القرآنية)
هل مات المسيح على الصليب ؟
الله جل جلاله (وصاله وعرفانه وطرق التقرب منه سبحانه)
نشوء الإنسان وتطوره
منهجية القرآن الكريم وأصول تفسيره
خصائص القرآن الكريم المعجزة

- سلسلة باب العبادات:

الصوم في الإسلام
فريضة الصلاة الاسلامية وأداتها الاعلامية

- سلسلة باب التفسير

في ظلال دلالات سورة الكهف
في ظلال دلالات سورة الإسراء
في ظلال دلالات سورة هود

- سلسلة تصحيح أفكار ومعتقدات

مثنى وثلاث ورباع
الجن حقيقة أم خيال؟
هل كان محمد (ص) شهوانياً؟
العقل تعريفه - ماهيته - حدود عمله
نظام الزواج في الإسلام
الإسلام علم السلام والجهاد والقتال
نبوءات قرآنية على سبيل الإصلاح



أنتم مدعوون لزيارة
موقع المفكر سليم الجابي على شبكة الأنترنت
http://www.saleemaljabi.com

- تصميم الغلاف د. محمد نعيم الجابي